تاريخ اوربا في العصور الوسطى

تـاليف

الدكتور السّيّد الباز العريني

استاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب – جامعة القــاهرة

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان

مقدمة

لما استعرض مؤرخو أوربا المحدثون، ما كان لحضارتهم ومدنيتهم من أصول ترجع إلى عصور قديمة ، لمسوا ثلاث مراحل كبيرة ، تتمثل في العصور القديمة ، التي شملت عصر اليونانيين والرومان ، ثم المرحلة الحديثة التي يعيشون فيها ، التي أطلقوا عليها العصر الحديث ، أما السنوات التي تفصل بين هاتين المرحلتين، فأطلقوا عليها العصور الوسطى .

وإذ ركز هؤلاء المؤرخون اهتمامهم على دراسة غرب أوربا ، نزعوا إلى اعتبار أن العصور الوسطى تبدأ سنة ٤٧٦ ، وهي السنة التي اختفى فيها آخر أمبراطور روماني في الغرب . والواقع أن هؤلاء المؤرخين تأثروا بما حصّلوه من دراسة التراث الكلاسيكي ، ولذا زاد اهتمامهم بما تم من انجازات في العلم والحضارة . ومن هنا تراءى لهم ، أن العصر الحديث يبدأ بالنهضة الأوربية ، حين جرى احياء الدراسات الكلاسيكية ، وبدأ العلم الحديث . وبذا أضحت العصور الوسطى تؤلف المرحلة الممتدة إلى عصر النهضة الأوربية . على أن هذه الصورة التي التمسوها لتحديد فترة العصور الوسطى ، تفتقر إلى الترابط والتماسك . فليس لسنة ٤٧٦ أهمية بالغة كما تصوروا . ولذا درج معظم المؤرخين على أن يبدأوا العصور الوسطى ، إما باعتلاء دقلديانوس عرش الأمبراطورية الرومانية ، سنة ٢٨٤ ، واما ببداية الغارات الجرمانية . وكيفما كان الأمر ، فإن العصور الوسطى ، هي الفترة الواقعة بين العصور القديمة والعصور الحديثة .

وهذه المرحلة تشمل ثلاثة أقسام طبيعية ، يعتبر القسم الأول منها ، الذي يمتد منذ نهاية القرن الثالث إلى القرن العاشر الميلادي ، مرحلة نمو كل مظاهر حضارة ونظم أوربا العصور الوسطى ، إذ تجلى فيها ما كان لهذه الحضارة من أصول رومانية ، وجرمانية ، ورومانية جرمانية؛ يضاف إلى ذلك ما تعرض له البحر المتوسط ، الذي يعتبر موطن الحضارة الرومانية ، واساس وحدتها ، من

صدع بعد قدوم المتبربرين واصرارهم على الاحتفاظ بقوانينهم وتقاليدهم التي ترجع إلى أجدادهم القدامى ، لا إلى الطبيعة والتعقل ، كما كان معروفاً عند الرومان . ومن عوامل التصدع أيضاً ، ما كان من إدعاء الكنيسة المسيحية من أنها وحدها المسؤولة عن الحق المطلق ، فأضحى الوفاق مستحيلاً بين سائر الديانات ، ومن الدليل على ذلك ما كان من تفضيل المتبربرين لديانتهم ، ودل ذلك على تعلقهم بالولاء لعنصرهم ، لا للعالم المتمدن . وما حدث من امتداد الفتوح الاسلامية الى البحر المتوسط ، الذي أضحى بحيرة اسلامية ، أدى إلى تضاول النشاط التجاري ، وتحول الشطر الأكبر من أوربا إلى الاقتصادي الزراعي ، وتدهور المدن . وهذه المرحلة تصادف تقلص الاحوال الاقتصادية في أوربا .

أما القسم الثاني من تاريخ العصور الوسطى الذي اتخذت فيه حضارة العصور الوسطى طابعها الذي اتسمت به ، فيشمل القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر . والواقع أن هذه القرون الأربعة (١٠ — ١٣) تؤلف لب تاريخ العصور الوسطى بجميع مظاهره الحضارية بينما شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر ، اللذان يمثلان المرحلة الأخيرة من تاريخ العصور الوسطى ، ما حدث من تغيير واتجاه نحو العصور الحديثة .

وحاولت في هذا الجزء من الكتاب دراسة المرحلتين الأولى والثانية ، لما لهما من أهمية في نمو واكتمال الحضارة الأوربية . إذ جرت معالجة العوامل التي أسهمت في تحطيم وحدة البحر المتوسط ، وما ترتب على ذلك من اختلاف أجزائه في تطورها التاريخي . وأكثر ما يتضح ذلك ، ما حدث من التطور التاريخي لغرب أوربا في العصور الوسطى . ولذا لقى هذا الجانب اهتماماً خاصاً في الدراسة ، نظراً لما حدث به من اكتمال الحضارة الأوربية في العصور الوسطى .

والله ولي التوفيق

السيد الباز العريني

بيروت في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨

الفصل الأول

تمهيد

ان ما ارتبط بالأمبراطورية الرومانية من أفكار ، اقترنت عـــادة بالحرب والغزو ، وسير الفرق العسكرية لاخضاع الشعوب النائية . ومـع ذلك فإن الحقيقة الصادقة التي تميز القرنين الأول والثاني للميلاد ، ليست إلا السلام العميق الذي ساد منطقة البحر المتوسط ، وغمر الشطر الأكبر من وسط أوربا وغربيها .

والمعروف أن الأمبراطورية الرومانية بلغت أقصى اتساع لهـا زمن أغسطس قيصر . ولم يكن الغرض من جهود خلفائه سوى توطيد الممتلكات وتدعيمها . ففي داخل الحدود المنيعة ، أمثال أنهار الراين والدانوب والفرات ، تمّ بنـــاء شبكة مــن الطرق امتدت من أطراف اسكتلندا ، الى الصحاري العربية . إذ أن حدود الأمبراطورية الرومانية ، وصلت جنوباً إلى جبـال أطلس ، وشلال نهـر النيـل ، والصحراء ؛ وفي الشرق ، امتــدت الحدود من صحراء الشام وفلسطين ، الى بلاد القوقاز ، التي كانت دائماً موطن النزاع والحروب بين فارس وروما . وينتهي الحد الشمالي للأمبراطورية عند نهري الدانوب والراين ،ويفصل هذا الحد بين العالم الروماني وعالم المتبربرين ، وهذا الحد الشمالي يمتد إلى الجبـال الفاصلة بين انجلترا واسكتلندا . والواقع أن البحر المتوسط وحّد بين أطراف الأمبراطورية الرومانية ، وكفل لها مناخاً متشابهاً ومواصلات سهلة .

ولا شك أن شبكة الأنهار والطرق ، هيأت للأمبراطورية التوغل في داخل أوربا . فاشتدت الحركة على هذه الطرق ، لا من قبل العساكر والموظفين فحسب بل نشطت حركة التجار والسلع ، فضلا عن السائحين . وازدادت حركة تبادل السلع بين أقاليم الأمبراطورية المختلفة . ومـــا جرى استخراجه من المعادن من المناجم بمرتفعات غرب أوربا ، وما توافر من الجلود والمواد الغذائية من بريطانيا واسبانيا وسواحل البحر الأسود ، وما جادت به بروفانس واكيتانيا من النبيذ والزيت ، ومـا ورد من جنوب روسيا وشمـال الأناضول من الخشب والشمع ، فضلا عن الفواكه من الشام ، والحبوب من شمال افريقية ومصر والدانوب ، لسد حاجة المدن الكبرى جعل، هـذه السلع تنتقل مـــن أقصى الأمبراطورية الى أقصاها ، بفضل ما كان من نظام محكم للنقل والتسويق . وتعتبر الأقاليم الشرقية للأمبراطورية مناطق الصناعة والصناعات ، بينما أشتهرت الأقاليم الغربية بأنهـا مستودع المواد الخام. ومع ذلك فالملحوظ أثناء القرنين الأول والثاني الميلادي، أن حركة الصناعة أخذت تتجه غرباً ؛ ولسد حاجات الطبقة الموسرة المترفة ، تقاطر على الغرب ، اليونانيون والمصريون والسوريون ، لممارسة حرفهم كاطبـاء ومعلمين ، وصناع حلي . وكان السوريون بصفـة خاصة يؤلفون أكبر فئـــة للتجار وقتذاك في جميع أنحـــاء أوربا ، وامتدت التجارة الى البلاد المتاخة للحدود الرومانية وما يليها من الأقاليم .

وقد كان لسهولة المواصلات ، وتيسير تبادل المتاجر ، أكبر الأثر في قيـام الوحدة وازدياد التجانس في الأمبراطورية الرومانية ، إذ أصبح معظم سكانهـا يشتركون في مستوى عام للحياة . فالدينار الروماني حـاز من الثقة في أسواق بلاد الراين ، ما حازه في الأسواق بشمال افريقية . وإذ اتحدت اللغة ، بأن سادت اللاتينية في الغرب ، وذاعت اليونانية في الشرق ، اختفت اللهجـــات المحلية في مناطق عديدة .

ومـا عاش الناس في ظله من نظام مشترك ، يعتبر رباطاً آخر للوحـــدة

والتجانس بين سكان الأمبراطورية . إذ أن حكومات الأقاليم ، برغم ملاءمتها للأحوال المحلية ، لم تكن سوى نظام ، صدر من الحكومة المركزية بالعاصمة ، فضلا عن كونه نظاماً ينزع إلى ازدياد التجانس ، والتخلص من المتناقضات . وما جرى سنة ٢١٢ م ، بمقتضى مرسوم كراكلا ، أن أضحى معظم رعايا الأمبراطورية مواطنين رومانا ، أدى الى اختفاء ما كان يشعر به ساكن الأقليم من أنه أقل مكانة من الروماني . وأضحى النظام الاداري بايطاليا ذاتها مماثلا فعلا لنظم الأقاليم ، برغم ما احتفظت به ايطاليا ، لفترة طويلة من الزمن من امتيازات خاصة ، كالتي تتعلق بالضرائب . غير أن ما كان لايطاليا من كبرياء في الغرب،لقي تحدياً فعلياً في غالة وأفريقية واسبانيا في ميادين الأدب والتجارة، وازدادت معاناتها لهذا الإذلال .

كان هذان مثالين لما حدث من تطور بعيد المدى . وكلما ازداد تعرض الأمبراطورية الرومانية للأخطار ، ضاعف ساستها جهودهم في المحافظة على هذا البناء الذي أخذ يهتز ويضطرب ، بما وضعوه من الدساتير والقوانين ، شديدة الوطأة ، ولم يحفلوا بما تعرضت له الحياة من شدة وصرامة .

على أن مواطن الضعف في النظام الأمبراطوري لم تلبث أن انكشفت ، بما انطوت عليه القرون المتأخرة في حياة الأمبراطورية من التوتر والأخطار، التي لم تكن الأمبراطورية مسئولة عن وقوعها .

لم يتجاوز عدد سكان الأمبراطورية الرومانية ربع العدد الحالي لسكان الأقاليم التي كانت تتألف منها . ولم يكن توزيع السكان متعادلاً ، إذ زاد عدد سكان الشطر الشرقي للأمبراطورية ، فامتاز بكثافة السكان ، وبارتفاع مستوى الحياة والثقافة . بينما لم يكن بالغرب من المدن ، باستثناء رومة وقرطاجة ، ما يصح مقارنتها بالمدن الزاهرة كالتي في آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، والتي يربو عدد سكان الواحدة منها على مائة ألف نسمة ، بل أن مصر وحدها بلغ عدد

سكانها نحو ١/٧ عـــدد سكان الأمبراطورية ، كما أن الشطر الأكبر من موارد الأمبراطورية كان مستمداً من البلادالتي تطل على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. على أنه من جهة أخرى ، ازداد عدد سكان الأمبراطورية قلة وضآلة بعـد ثلاثة قرون من قيامها . وترتب على اندلاع الأوبئة والحروب الداخلية ، أن لحقت الأضرار بايطاليا وبلاد اليونان ، وتعرض للخراب مساحات كبيرة في غالة .

ولم يكن تأثير روما الحضاري في الغرب متعادلا أيضاً . إذ أن جانباً كبيراً من الأراضي الواقعة بين الطرق الرومانية ، لم تتأثر بالغزاة الرومان ، وظـــل سكانها الوطنيون محافظين على لغتهم وعاداتهم . واكثر مـــا يتضح ذلك ، في الأقاليم الشمالية والغربية ، حيث عاشت قبائل الرعاة ، والفلاحون ، متفرقـين فيما بين المستنقعات والغابات ، لم تؤد من الاستغلال المالي والتجاري ، مـــا أدته منطقة البحر المتوسط ، المشهورة بغزارة وكثافة زراعتها .

يضاف إلى ذلك أن التأثير الروماني ازداد تضاؤلاً ، بل اشتد امتزاجه بمـا يليه من المؤثرات ، كلما اقترب من أطراف الأمبراطورية . فلم تعد معالم الحدود ظاهرة. فالأمراء الجرمان،فيما وراء نهر الراين،نفذت اليهم الحضارة الرومانية، وتهيأ لجموع كبيرة من المتبربرين النزول في الأراضي الرومانية في شرق غـالة ، والأقاليم الواقعة جنوب الدانوب . بل كان من بين المواطنين الرومان في العصر المتأخر للأمبراطورية ، من يؤثر النزول في بـلاط بعض الأمراء الأجانب ، على أن يواجه المطالب المتزايدة من قبل جباة الضرائب بالأمبراطورية .

على أن التقاليد القومية في الشرق زمن الممالك الهلنستية ، أي قبل ثلاثـــة قرون من قدوم الرومان ، لم تندثر ، بل ظلت تنتظر اللحظة التي تنهض فيهـا للخلاص والتحرر من الحكم الأجنبي . فلم يؤلف اليونانيون إلا أقليـة صغيرة في الشام ومصر ، حيث يرجع امتيازهم إلى تفوقهم في الحضارة لا في العدد ، ومـا كان بهذه الأقاليم من حضارات ظلت تحتفظ بحيويتها ، برغم مـــا تعرضت له

بصفة مؤقتة من ركود . ومن الدليل على ذلك ، إن نمو الآداب القبطية والسريانية ،وما لقيته من تشجيع بعد قيام الكنائس المسيحية ، ولّدالإحساس بالانفصال عن الغزاة الأجانب ، وزاد من حدة المعارضة لسياسة الأمبراطورية ونظام الضرائب بها . والواقع أن ضياع هذه الاقاليم يرجع أساساً إلى العوامل الداخلية ، ولقي الفرس والمسلمون في القرن السابع الميلادي ، التأييد من الجهات الكثيرة بهذه الاقاليم التي لم تتأثر بالحضارة الرومانية .

وما تعرضت له المناطق المتمدينة بأوربا من ضربات متتالية ، منذ نهاية القرن الاول الميلادي ، كشفت عن اهتزاز بناء الامبراطورية وضعفه . إذ شهد عصر ماركوس اوريليوس (١٦١ — ١٨٠م) ، تداعي الرخاء الروماني وقصوره.

ازمة القرن الثالث :

يعتبر عهد الامبراطور كومّودوس ، ابن ماركوس اوريليوس نهاية عصر الاستبداد المستنير ، وبداية مرحلة جديدة طفحت بسفك الدماء ، واشتداد البؤس . كانت الظاهرة الرئيسية في هذه المرحلة الجديدة ، التي امتدت الى ما يزيد على مائة سنة ، ما صار للجيش من سلطة يتحكم بها في مصير الدولة كيفما شاء . فالجيش الذي كان خادم الامبراطورية ، أضحى سيدها ، فصارت بيده السلطة عن طريق الاباطرة الذين يعينهم ويعزلهم حسب أهوائه ، ومن غير سبب واضح .

حكم كومّودوس من سنة ١٨٠ إلى سنة ١٩٢ م.وقد انصرف طوال حكمه إلى اشباع رغباته وأهوائه الشخصية ، فأمضى حياته في المباذل والفجور . وأغفل أمور الإدارة والحرب ، واعتمد على حرسه الخاص ، وانقطعت الصلة بينه وبين جيوش الاقاليم . وترتب على كل ذلك ، ظهور معارضة شديدة لحكم الامبراطور ، وسخط سائر الطبقات لما عقده من صلح مع الجرمان ، اعتبروه خيانة وعاراً ، فتعرض رجال السناتو لبطش الامبراطور ، الذي تخلص من

عدد كبير منهم بالقتل ، ومصــادرة أملاكهم . وأعقب مصرع كومودوس ، اندلاع الحرب الاهلية ، فاشتد الخصام بين جيوش الاقاليم ، ورجال السناتو ، وحرص كل أمبراطور على أن يكسب ولاء الجند واخلاصهم ، ومن الدليل على ذلك ما وجهه سبتيموس سفيروس من نصيحة الى ولديه ، بأن يحرصا على إثراء الجند ، وألا يحفلا بغير ذلك من الامور .

على أن هذه النصيحة لم تغن شيئاً ، إذ أخذ العساكر يفقـــدون الميل الى الحرب ، ولم يهتموا إلا بمصالحهم الخــاصة ، فلم يتيسر للأمبراطور أن يقضي على منافسيه، وأضحت الامبراطورية متاعاً للجند . فأخذت الجيوش المختلفة ، تولي الاباطرة ثم تعزلهم لأتفه الاسباب . واستخدم العساكر كل ما لديهم من قوة في نهب الأقاليم دون هوادة ولا رحمة . ويكفي أن نعـــلم أنه حدث في الفترة الواقعة بـــين سنتي ٢٣٥ ، ٢٨٥ ، أن تولى العرش ، ستة وعشرون امبراطوراً لقوا مصرعهم جميعاً ، باستثناء أمبراطور واحد مات ميتة طبيعية .

ومع أن معظم هؤلاء الأباطرة كانوا رجالاً ، تحدوهم الرغبة الصـــادقة في سعـــادة الدولة ورخائها ، وكانوا من خيرة الجند والقادة ، وقد حاولوا الدفاع عن الامبراطورية ، وردّ الاعداء الاجانب عنها ، غير أن طريقهم سدّه دائمــاً رعاع الجيش الذين اشتهروا بالتمرد والعصيان ، فلم يسع الاباطرة إلا إهمـــال سلامة الامبراطورية ووحدتها ، كيما ينصرفوا إلى حماية أنفسهم من المنافسين لهم على السلطة ، بتحريض العساكر الذين اكرهوهم على ذلك . وبـــذا قضى هـــذا الطغيان العسكري على آخر ما تبقى للأمبراطور من سلطة؛ وطالما كانت الحاجة ماسة للعساكر ، ازداد نفوذ الجيوش وسلطانها .

والواضح أن هذه الاحوال الداخليـــة لم تهيء للدولة الفرصة للانتصار على أعدائها في الخارج . وبذا تعرضت حـــدود الامبراطور للغزو في كل مكـان . فتألفت أحلاف قوية من القبائل الجرمانية ، جعلت خطتها انتزاع الاقاليم الرومانية

بأوربا ، فبينما قام السكسون بالاغارة على سواحل بريطانيا وغالة ونهبها ، تعرضت غالة لتهديد الفرنجة في الشمال ، والالليماني في الوسط والجنوب ، ولم تسلم أقاليم الدانوب من غارات الجرمان أيضاً . ومما قام للقوط والسرامطة من مملكة قوية ، نشأت أصلا في جنوب روسيا ، ثم مضوا في زحفهم نحو الحوض الادنى لنهر الدانوب ، فأغاروا عن طريق البحر الاسود على الاقاليم الشرقية وامتد تخريبهم الى آسيا الصغرى وبحر ايجه وبلاد اليويان.وظهر في الشرق خطر جديد ، حينما حل الساسانيون ، سنة ٢٢٧ م ، مكان البارثيين في فارس ، فتطلب حد الفرات أمداداً مستمرة . وكان لزاماً على الامبراطورية الرومانية ، برغم عدم توافر قواتها ، أن تعالج منذئذ هذه المشكلة . ذلك أن فارس جددت محاولاتها لاستعادة سيادتها على غرب آسيا ، بعد أن فقدتها منذ الاسكندر الاكبر . واجتاح الخيالة الفرس ، اثناء القرن الثالث الميلادي ، بلاد الشام ، ومضوا في غاراتهم المرة بعد المرة ، حتى وصلوا الى بحر ايجه ، فهددوا بذلك إقليماً يعتبر من أغنى أقاليم الامبراطورية واكثرها ثروة . وبلغت قوة الفرس ذروتها في حملة سنة ٢٦٠ م ، حينما وقع الامبراطور الروماني ، فالـيريان أسيراً في يد الملك الفارسي ، شابور . والراجح أن هيبة روما ومكانتها في الشرق لم تنهض من هذه الكارثة . ولا بد أن ما أحرزه الملك الفارسي من انتصار ذاع في مدن ذلك العالم الزاخر بطرق القوافل ، الممتدة من الساحل الشرقي للبحر المتوسط إلى الخليج الفارسي . وما كان لروما من قوة وسطوة ، مهدت بها طرق الصحراء بما أقامته على امتدادها من كتل حجرية ، وأنزلت الحاميات العسكرية في حصون الواحات ، وأمدت نفوذها على الطرق التجارية من الهند إلى الشرق الاقصى ، أضحت الآن تقاتل الجيوش الفارسية ، وتلقى الصعاب المتزايدة في سبيل المحافظة على حدها التقليدي (نهر الفرات) .

ومن الدليل على ضعف روما ما كان من ظهور امبراطورية تدمر ، التي امتدت إلى جبال طوروس شمالاً ، وإلى خليج العقبة جنوباً ، ودان لسلطانها

قليقية ، وسوريا ، والجزيرة ، وبلاد العرب ، وهددت مصر وآسيا الصغرى . وعاشت هذه الامبراطورية على تجارة القوافل ، وظلت محافظة على استقلالها حتى تغلب الامبراطور اوريليان على الملكة زنوبيا سنة ٢٧٠ م .

وهذه الظاهرة تكررت أيضاً في الغرب، حيث قامت أقاليم بغالة ، بمناوأة الحكومة المركزية في روما لمدة عشر سنوات . وتعرضت ايطاليا ذاتها لخطر المتبربرين . وما أنشأه اوريليان من أسوار لا زالت تحيط بروما ، إنما تدل مع غيرها من الاسوار المشيدة حول المدن الايطالية الاخرى، على ما حدث مستقبلا في العصور الوسطى من الاتجاه إلى إنشاء معاقل ، تحيط بها الخنادق.

و كلمااشتدتأحوال الامبراطورية سوء ،زاد ضغط المتبربرين على حدودها. على أنه حدث في نفس الوقت ، أن قوي الشعور والإحساس عند الناس ، أنه لا بد لهم من اتخاذ كل الوسائل للدفاع عن حضارة الامبراطورية الرومانية ، وإنقاذ مدنها من التدمير والخراب ، واعادة الوحدة للأمبراطورية . وأثار هذا الشعور الجند أيضاً فاشتد اصرارهم وازدادوا صموداً في نضالهم مع المتبربرين ، وزاد ميلهم الى الانصياع للنظام الذي فرضه عليهم الاباطرة الذين قاموا بانتخابهم . هذا الشعور بالأمبراطورية تمثل في طائفة من الأباطرة الأقوياء . توالت على الحكم في الشطر الثاني من القرن الثالث الميلادي . وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً منهم لقوا مصرعهم فيما نشب من أعمال العنف ، وأنه كان لزاماً عليهم أن يناهضوا ما ساد من التمرد والاضطراب في داخل البلاد ، فإن هذه المشاكل لم تثنهم عن عزمهم . فإذا لقى امبراطور منهم مصرعه ، اظهر الأمبراطور الذي تلاه في الحكم ، من الصلابة في معالجة الجيوش كالتي أودت بحياة سلفه على ايدي هؤلاء العساكر ، اذ طلب التزام النظام والطاعة العمياء لأوامره ، فكان الإباطرة ، في الواقع ، مثالاً للتضحية بالنفس ، وهو المثال الذي كان بالغ الأثر من الناحية العملية ، لأن معظم هؤلاء الاباطرة بدأوا حياتهم عساكر .

وابتداء من الأمبراطور كلوديوس ، حتى ولاية دقلدبانوس الحكم (٢٧٠ — ٢٨٤) ، حرص الاباطرة الذين تعاقبوا على الحكم أثناء هذه الفترة ، على رد المتبربرين عن أقاليمَ الدانوب وايطاليا، واعادة الوحدة الأمبراطورية ، واخضاع غالة وسوريا واعادتها لسلطان الامبراطورية ، ولم يلبث الجيش أن اختار سنة ٢٨٤ دقلدبانوس امبراطوراً بعد مصرع كاروس .

الأحوال الاقتصادية والاجتماعية

الواقع أن الازمة العنيفه التي اجتازتها الامبراطورية ، ترجع أسبـــابها من جهة الى ما ساد في الشطر الثاني من القرن الثاني الميلادي مــــن أحوال اجتماعية واقتصادية،ومن جهة أخرى الى تنظيم الجيش وعواطفه واحساساته .فالمعروف ان التطور الاقتصادي سار على خطة زيادة مواردالامبراطورية،لا تنظيم الافادة منها ، وأن السكان أخذوا يفقدون رويداً رويداً قدرتهم على العمل، وأصالتهم في الخلق والابتكار ، وأن الاجراء العادي الذي لا يتغير ، ازداد قوة في مجال الانتـــاج . ولم يتركز اهتمام الناس الحقيقي الحيوي في الامور الاجتماعية والاقتصادية ، انما كان موجهاً الى الامور التي تتعلق بحياة الانسان الداخليــــة ولا سيما أمور الديانة .

يضاف الى ذلك ، أنه الى جانب الطبقات العليا في المجتمع ، وما جرى من التطور الفعلي في حياة المدينة ، كانت طبقـــة أخرى تعيش في القرى والريف يزداد احساسها واعتزازها بنفسها ، وإذ أخذت هذه الطبقة تظهر رويداً رويداً في عالم المدنية والحضارة ، فقد أشتد ادراكها لكثرة عددها ، ولأهميتها ، وزاد احساسها بانحطاط مكانتها الاجتماعية . وأسهم أباطرة القرنين الاول والثـــاني في تنمية ما لدى هذه الطبقة من شعور ذاتي ، بأن أحسنوا معاملة الارقـــاء النازلين بالضياع الامبراطورية في الشرق، والذين يناهز عددهم نحو مائة الف ،

وشجعوا جموع المستأجرين الاحـــرار في الغرب ، وحاول التشريـع في الامبراطورية الاولى (المبكرة) ، أن يحدد بدقة ما كان من علاقة بين هؤلاء المستأجرين الاحرار ، وملاك الأراضي ، في الأراضي التي يملكها الأفراد أو التاج . فتولى القانون الدفاع عن مصالحهم ، كلما اصطدمت بمصالح كبار ملاك الأراضي . فكان القانون يساند فئة صغار الملاك ، كما توازن الطبقـة الوسطى الموسرة . وترتب على سياسة الامبراطورية ، أنه لم يعـد للريف أن يظل ساكناً وذليلا ؛ وإذ أحسّ بتأييـــد الأمبراطورية ، أدرك أنه أضحى إلى جانبه من يدافع عن حقوقه إزاء ضغط أرباب رؤوس الأمـــوال ، وشرور الموظفـــين .

وجرى في نفس الوقت تغيير جــذري جديد في تركيب الجيش . فالمعروف أن الجيش ، زمن أغسطس ، كان يتألف أساساً من المواطنين الايطـــاليين ، والمواطنين الرومان المقيمين بالأقاليم . وكانت الفرق العسكريـــة يتم تجنيدها من هاتين الفئتين . ومع أن سكان الأقاليم الذين لم يحوزوا حق المواطنة، لم يجدوا صعوبة في الالتحاق بصفوف الجيش، فإن معظم رجال الفرق العسكرية جاؤوا من الأقاليم التي بلغت شأواً عالياً في المدنية ، ولا زال الجيش يمثل الفئة البـالغة الاستنارة من سكان الأمبراطورية . ومع ذلك ، كان مستحيلا على الأمبراطور هادريان (١١٧ـ١٣٧م) أن يحافظ على هذا النظام فترة طويلة . فقد جرى تجنيد جيشه بالأقاليم التي يتوافر فيها معسكرات دائمة . وحرص سكان المدن على أن يفلتوا من واجب الخدمـة العسكرية ، وترتب على ذلك أن الفرق العسكرية والفرق المساعدة ، زخرت بالمشتغلين بالزراعة في الأقاليم ، وبرجال اشتغلوا في الأراضي الداخلة في زمام المــدن . كما أن حرفة الجندية أضحت وراثية . فكان الرجال يعيشون بالمعسكرات والمنازل الملاصقة لها ، ودرج الأطفال على أن يمتهنوا حرفة آبائهم . وقد اشتدت حاجة روما في الأزمنة الطافحة بالفوضى والاضطراب أواخر زمن الأنطونيين ، إلى أعداد متزايدة من العساكر ، بصفة مستمرة ، لحمايتهـــا من

المتبربرين . إذ أن الألوف من العساكر لقوا مصرعهم في المعارك الطاحنة ،وحصد الوباء ما يزيد على هذه الألوف من الرجال . يضاف إلى ذلك أن الطبقات المتمدينة أخذت تفقد الميل الى الخدمة العسكرية ، فدخل في الجيش رجال يقلون كفاية عن المستوى المطلوب . ونجم عن ذلك أن صار الأباطرة يؤثرون استخدام الفئات البدائية الغليظة من السكان ، أمثال الفلاحين والرعاة بأطراف الأمبراطورية ، من سكان تراقيا وايلليربا ، وأمثال سكان جبال اسبانيا،والبربر، ورجال من شمال غالة ،وسكان الجبال في آسيا الصغرى وبلاد الشام. وبذا أصبح الجيش يؤلف شطراً من السكان يقل مدنية وحضارة، من رجال يعيشون خارج المدن ، ويحسدون ما يعيش فيه ساكن المدينة من الترف ، ولم ينظروا اليه إلا على أنه ظالم ومستغل .

وتأثر الرخاء الاقتصادي أيضاً بما وقع أواخر عصر الانطونيين من كوارث. والواقع أن نظام الضرائب لم يكن جائراً ، حتى عند سكان الأقاليم . غير أن نفقات الدولة أخذت تتزايد . إذ تكاثر عدد العساكر ، وتقاضوا اجوراً مرتفعة ، يضاف إلى ذلك كثرة عدد الموظفين ، وما يتبع ذلك من ارتفاع مرتباتهم ، فلم يسع الدولة إلا أن تزيد الضرائب . وإذ ألف سكان المدن حياة الدعة والترف ، وازدادت طلباتهم ، فارتفعت الأسعار . والمعروف أن الحكومة المركزية والمدن كانت تستمد دخلها الأساسي من الضرائب التي يؤديها الفلاحون ، والمشتغلون بتربية الماشية والأغنام والطيور ،ولم يصحب ارتفاع الضرائب ، تحسين في طرق الزراعة . ولذا اشتد العبء على ملاك الأراضي ، وبالتالي على أولئك الذين يفلحون الأراضي بأيديهم ، أمثال صغار الملاك والفلاحين بالضياع الكبيرة . والواقع أن القرى لا المدن كانت أكثر ما تعرض للضرر الناجم من ارتفاع الضرائب .

هذه الظواهر جميعها اشتد نضوجها اثناء فترة الثورة والتمرد في القرن الثالث الميلادي . إذ أضحى الجيش وقادته سادة الأمبراطورية . وإذ أحس

العساكر بقوتهم ، سعوا إلى الإفادة من هذه القوة إلى أقصى حد ، إذ توقعوا من الأباطرة الدمى الذين جعلوهم على عرش الأمبراطورية ، أن يبذلوا لهم الرواتب المرتفعة ، والعطايا الوفيرة ، وأن يجيزوا لهم سلب سكان المدن ، ولا سيا المدن الغنية ، التي كان يكنّ لها العساكر ، ومعظمهم من القرى ، الحقد والكراهية. وكان الجيش أيضاً يهدف إلى الغاء الامتيازات التي نعمت بها الطبقات العليا. فطالب العساكر ، بأن يتهيأ للعسكري السبيل إلى أن يصل إلى أرفع المناصب، العسكرية والمدنية . وفي هذه النقطة بالذات ، كان العساكر متفقين مع بعض قادتهم ، الذين ازداد ارتيابهم ، منذ زمن الأمبراطور سبتيموس سفيروس ، في الطبقات التي حازت امتيازات . فأخذ القادة الذين يمثلون المدنية والحضارة ، يختفون من الجيش رويداً رويداً ، ولم يعد ثمة فارق بينهم وبين سائر رجال الجيش المعروفين بالخشونة والغلظ . وهؤلاء القادة تقلدوا مناصب مدنية بعد أن أمضوا الخدمة العسكرية ، فأزداد بذلك دخول المتبربرين في الوظائف العليا ، فاستخدموا في أعمالهم الإدارية من أساليب العنف والاستبداد ما أضحت متأصلة في معاملة رجال الجيش للسكان المدنيين .

واشتدت حاجة هؤلاء الأباطرة الذين تولوا العرش من قبل الجيش ، إلى الأموال حتى يتحقق لهم النجاح في النضال السياسي . فلم يعد لديهم من وسيلة للحصول على الأموال إلا بزيادة الضرائب ، ولا سيا تلك الضرائب المقررة على ملاك الأراضي . فالمعروف أنه لا يصح الاستغناء مطلقاً ، أثناء الحروب المستمرة ، وتحركات العساكر ، عن المؤن ، والأسلحة ووسائل النقل . فإذا لم يتوافر المال فلا بد من انتزاع هذه الأشياء قسراً من السكان. وبذا اضطردت زيادة الضرائب في القرن الثالث ، وما كان لازماً لسد حاجة الجيش من الطلبات الباهظة ، أضحى من الأمور المألوفة. على أن مطالب الأباطرة وعساكرهم لم تخضع مباشرة لدافع الضرائب ، بل لتلك الهيئات التي تتولى عادة جباية الضرائب ، وتعتبر مسئولة أمام الدولة عن تأديتها كاملة ، وهذه الهيئات أيضاً تعتبر مسئولة عن

تحصيل ماقررته الدولة من الضرائب عينا كاملة،بالإضافة إلى الضرائب الأخرى. وإذا أحتاج الأمر استخدام السخرة ، كان من واجب هذه الهيئات أيضاً أن تقرر أن السخرة في متناول اليد ، متى اقتضت الحاجةالى استخدامها .

أما الهيئات التي يتقدم اليها موظفو الأمبراطور بطلباتهم ، فكانت تشمل مجالس المدن، والموظفين الموكلين بالأعمال التنفيذية ، وفي بعض الحالات كان من هذه الهيئات طوائف (نقابات) التجار وأرباب السفن ، والصناع . فتتولى مجالس المدن تقدير الضرائب المقررة على سكان المنطقة التابعة لها،وتعتبر الملكية ضماناً لتأدية ما هو مطلوب من الضريبة كاملة . وتضامنت النقابات في تحمل مسئولية توفير ما يحتاج إليه الجيش من السلع المصنوعة ،فضلا عن وسائل النقل. لم تكن هذه الالتزامات عبئاً ثقيلاً ، زمن السلام ، على مجالس المدن ، وموظفي البلديات .غير أنه حدث منذ نهاية القرن الثاني الميلادي ، حينما ازدادت مطالب الدولة ، أن ضعفت قدرة السكان على دفع الضرائب ، وتراكمت الضرائب المتأخرة،فاشتد الضغط على السكان من قبل الهيئات الموكلة تحصيل الضرائب ، والتي مارست أيضاً ابتزاز المطالب الإضافية للدولة . وتحرج الموقف في القرن الثالث ،إذ ارتفعت مطالب الحكومة إلى أقصى حد ، وتعطلت التجارة بسبب الحروب المستمرة وغارات المتبربرين ، وتوقفت الصناعة ، وتعرضت المدن والقرى لنهب جيوش المتنافسين على اعتلاء العرش الأمبراطوري . وإذ احتاج الأباطرة والجيش إلى المال ، والحبوب ، والجلود ، والمعادن ، ودواب الحمل ، عمدوا إلى استخلاصها من المدن ، وحرصت المدن بدورها على الحصول على هذه الأشياء من القرى ، فوقع العبء على صغار ملاك الأراضي والمزارعين. وأدت هذه العمليات إلى اشتداد العداوة بين المدن والقرى .

وزاد الأمر سوء ، ما لجأ إليه الأباطرة من سك مقادير كبيرة من النقد لسد حاجتهم إلى المال ولما لم يتوافر عندهم من المعادن النفيسة (كالذهب والفضة) ما تتطلبه هذه النقود ، لجأوا إلى خلط الذهب بالفضة، وخلط الفضة بالنحاس،

ومزج النحاس بالرصاص ، وبذا انخفضت قيمة العملة ، وحلّ الخراب برجال كانوا أغنياء . وقضى هذا الاجراء على التجارة والصناعة وأضحت دار الضرب في القرن الثالث مصنعاً ضخماً لسك النقد الرديء . واستخدمت الحكومة هذه النقود الرديئة في تسوية مشاكلها مع دائنيها ، غير أنها لم تقبلها من دافعي الضرائب .

ولا عجب أن ينجم عن هذه الأحوال أزمة اقتصادية اجتماعية بالغة الشدة والعنف . ولمْ يجد السكان لأنفسهم سبيلا للأفلات من هذه المتاعب ، إلا بمساندة كل متطلع للوصول إلى العرش الأمبراطوري ، لأنهم كانوا يأملون أنه سوف يقضي على الفوضى ويعيد الأمن إلى نصابه . وإذ اشتهر الجيش بالنهم والنهب والسلب ، أخذ يعزل الأباطرة الواحد بعد الآخر ، فازدادت الأحوال سوء . ولا بد أن تتذكر أن الجيش صار يتألف أساساً ، وقتذاك ، من صغار الملاك ، ومن الحائزين لمساحات صغيرة من الأراضي الصالحة للزراعة ، الملاصقة لدورهم . وكانت هذه الطبقة أكثر الطبقات تأثراً بالأزمة المالية ، واعتبرت أن ما أصابها من تعاسة وبؤس، يتحمل مسئوليته موظفو المدن وارستقراطيتها ، وجعلوا كل أملهم في الأمبراطور لتخليصهم من هذه الأزمة . فاذا لم ينصفهم أحد الأباطرة ، نصبوا آخر مكانه ،ومع ذلك لم يتضاءل اعتقادهم فيما للأمبراطور من نية طيبة ودراية تامة بأحوالهم .

وإذ أشتدت الأزمة المالية والاجتماعية، تعرض للتغيير أيضاً النظم التي يجري بها حكم الأمبراطورية وبذا ذبلت فكرة الرياسة Principate ، باعتبارهاسلطة يمارسها المواطن الأول، فضلا عنفكرة ما كان لجميع المواطنين الرومان منوضع اختص بالامتيازات . أضحى الأمبراطور طاغية عسكرياً ، جعل كل اعتمادهعلى الجيش وحده . ومع أن حقوق المواطنة امتدت سنة ٢١٢ ، زمن الأمبراطور كراكلا إلى جميع سكان الأمبراطورية ، فإن ذلك لم يترتب عليه شيء من اصلاح الوضع القانوني للجماهير ، بل أدى إلى خراب الدولة الرومانية ، بما في

دلك السناتو وسكان روما . فلم يعد للسناتو صوت مسموع في الأعمال العامة ، وفقد أعضاء السناتو كل ما كان لطبقتهم من حقوق سياسية . أما حق البلديات في الحكم الذاتي ، فإنه لم يعد سوى مجرد طيف في جميع انحاء الأمبراطورية . فتولى إدارة الحكومة جيش ضخم من الموظفين ، تولوا مناصبهم بسبب انتمائهم إلى الجيش ، ومن هؤلاء الموظفين الشرطة السرية (الاستخبارات) التي كانت مصدر إرهاب للرعايا ، فاختفت بذلك المظاهر الأخيرة للحرية المدنية ، إذ ساد الحكم القائم على التخريب والنهب والعنف ، ولم يعد بوسع خيرة الأباطرة أن يناضلوا ويناهضوا ما كان حادثاً .

تطور الديانة في الدولة حتى زمن دقلديانوس

كانت الديانة الرسمية للأمبراطورية الرومانية تهدف إلى غرضين : عبادة الأمبراطور ذاته ، والاعتقاد فيما يعبد بالكابيتول من الآلهة : جوبيتر ، ويونو ، ومينرفا . وهذه الديانة اتخذت صورة محددة في كل مكان ، وأضحت موطن الحياة الدينية للمدن والجيش . غير أن هذه الديانة اختلفت عن الديانة التي نجمت عن الحروب الأهلية ، وعن تأليه أغسطس باعتباره بطلا ومُخلِّصاً ، والتي تعتبر ديانة شخصية ، والتي كانت بايطاليا وثيقة الصلة بالروح أو القرينة التي تنتمي للأسرة ، ومفترق الطرق ، والمدينة والدولة . على أن عبادة الأمبراطور وأسرته ، وحكام الأمبراطورية الأحياء منهم والأموات . أضحت بمضي الزمن تفقد حيويتها ، ولم تعد ديانة شخصية . إذ صار الناس يجتمعون في معابد العاصمة والمدن الاقليمية ، ويقومون بتبجيل القوة الالهية التي حفظت للأمبراطورية البقاء . ومع أن هذه الشعائر انطوت على قدر من الشعور الديني ، فإنها لم تفد في وقت الشدة ، وعند وقوع الضرر ، ولم تبذل الحلول لما يتعلق بالحياة الحاضرة والمستقبلة من مشاكل .

وبذا التمس الشعور الديني من الوسائل لإرضائه ، غير تلك التي تبذله عبادة

الأمبراطور . ظلت الطبقـــات العليا المثقفة متمسكة بالرواقية Stoicism ، بما تنطوي عليه من أخلاق سامية ، وإيمان بكل الالهة [1] . غـــير أنه لم يكن بوسع الرواقية أن تسد الحاجات الدينية للدوائر المثقفة ، إذ كانت بالغة التعقل والمنطقية والدنيوية .

ولذا كان من الطبيعي عند الطبقات العليا ، أنه لا بد للرواقية المجردة أن تتخلى عن مكانها الى التصوف الأفلاطوني والبنتـــا جورياني ، ولا بد أن تزدهر الغنوسية ، وأن تتخذ من الصور والأشكال مـــا يعتبر بالغ التنوع . والملحوظ أن هذا الاتجاه لم يحظ فحسب ،منذ نهاية القرن الأول ، بأنصار ومريدين جدد، بل نادى به أيضاً شخصيات بارزة،من الرجال المعروفين بالحماس المتقد، الذين دعوا الأفلاطونية الحديثة ،بكل ما توافر لهم من أسلحة الجدل والمران الفلسفي القوي .

---

(١) المعروف أن إله الرواقيين الأصلي ، عبارة عمـا ينطوي عليه العقـل والكون من أثر إلهي يخترق المسكونة (العالم) الذي ليس الإنسان إلا ذرة فيه . ومن الحماقة مهاجمة ما للعقـل والكون من العناية الالهيـة ، ومن واجب الانسان أن يعيش في وفاق معها . ونظراً لأن كل انسان ينطوي في ذاته على جانب الهي ، وأن الناس جميعاً على وفاق مع العالم ، فإن الرواقية دعت إلى الاخوة بين الناس.فينبغي أن يكون الانسان عطوفاً ، مخلصاً ، حليماً في علاقاته مع غـيره من الرجال . فيقول سنيكا : إذا أردت أن تعيش لنفسك ، فينبغي أن تعيش لغيرك . فالتواضع هو الاتجاه السليم الذي تسلكه مع أولئك الذين ينزلون بك الضرر ، يضاف إلى ذلك أن رواقية سنيكا وإبيكتيتوس تنزع إلى أن تجعل من العناية الالهية، الها شخصياً ،يصح التوصل إليه والتوسل له ، بما يجري من صلاة ، وأن تؤكد الاتحاد بين الله والانسان .ووصلت الرواقية آخر الأمر إلى وفاق مع ما كان شائعاً عند الرومان من عبادة آلهة عديدة ، وسالمت التنجيم الوارد من الشرق، الذي يستطيع به الانسان أن يحظى بالخلود في النجوم .

على أن هذا الاتجاه الأخير ليس إلا دليلا آخر عن تحول الفكر الرومـاني من الاستدلال إلى السحر، والخرافة ، والتنجيم،والديانة الخفية.أما الاتجاه الآخر،فكان يتمثل في الفلسفة المعروفة بالأفلاطونية الحديثة ، التي نادى بها أولا افلوطين المصري في القرن الثالث ، والتي أضحت رويداً رويداً أهم مدارس (مذاهب) الفلسفة في الأمبراطورية الرومـانية . ويعتبر افلوطين أن بلوغ الاتصال بالاله الاعظم ، هو أرفع القيم عنده ، ولا يتم ذلك الا بممارسة التصوف والزهد .

وفي أثناء القرنين الأول والثاني للأمبراطورية، كان أشهر ممثلي الديانة والفلسفة من الرواقيين، أمثال ابيكتينوس العبد، وسنيكا السناتور، وأفلوطين المفكر والاستاذ والنبي، ولم تقصر هذه المدرسة نفسها على الفلسفة، بل أنها ابتدعت من اللاهوت ومن العبادات السرية الأدوات التي بمقتضاها يجري تسخير القوى الروحية لخدمة الإنسان. وقد كان هؤلاء (الرواقيون) هم الذين خاضوا المعركة الأخيرة مع المسيحية، وما لها من نظرة دينية خالصة في الحياة.

أما الطبقات الوسطى للمجتمع، فإنها إما عاشت على ما يتساقط من الفتات من مائدة السادة المثقفين، وإما، وهو أكثر ما كان شائعاً، اتخذت أفكار من يقل عنها مكانة. والواقع أن الشعور الديني كان ملحوظاً بين هذه الطبقات، فضلاً عن أن العقيدة الدينية خطت خطوات سريعة في نموها وتطورها.

وظلت التقاليد والعقائد المحلية، التي أقرها العرف، سائدة في القرنين الأول والثاني. ففي ايطاليا، ظلت صورة من العبادة قائمة، وتتمثل في الاعتقاد المحلي في القرينة (الروح)، وفي Penales , Laves، اللذين يحفظان الحياة ورخاء البيت والأسرة. وظلت عقائد اخرى جارية، في الجمعيات، والنوادي، وفيالق الجيش.

على أن الديانة اليونانية الرومانية عاشت جنباً إلى جنب مع هذه العبادة، وتمثلت هذه الديانة اليونانية الرومانية في الالهة والالهات التي تجلب للتطور السلمي الحظ والخير. ومن ذلك، كان إله الحظ Fortune، وإله Mercury من أشهر الآلهة التي نالت القبول عند أهل ايطاليا. كما أن الصور الرمزية لهذه الآلهة التي تتجسد فيها افكار مجردة، هي التي يجري التوجه والتوسل بها. ويرتبط كثير من هذه الصور الرمزية ارتباطاً وثيقاً بالحياة اليومية للإنسان، ولا سيا في روما وسائر المدن الكبرى بالأمبراطورية، ومنها إله الوفرة Abundantia، الذي يعد المؤمن به بوفرة المحصول، ومنها إله الميرة Annona الذي يكفل

وفرة القمح الذي يصل الى العاصمة وسائر المدن ، ومنها إلها العدالة والصحة ، Salus , Justitia ، اللذان يجلبان الصحة والعافية للأسرة والدولة .

وهذا البعث والإحياء للعقيدة الغابرة ، نلحظه أيضاً في بلاد اليونان وسائر الاقاليم . فآلهة أثينا ، أمثال دلفي واوليمبيا ، لا زالت معروفة ، بل أن كثيراً من عبادات الآلهة والابطال المحليين القديمة والمهملة ، انبعثت من رقادها الذي استمر عصوراً عديدة ، فانبعثت عقائد محلية وقومية ، واجتذبت اليها عدداً كبيراً من المؤمنين بها . والواقع أن الشعائر المحلية تماثل شعائر الديانة اليونانية الإيطالية ، وأن الالهة المحلية ، اتخذت صور آلهة أوليمب في التماثيل والرسوم .

ومع أن بعض الآلهة اليونانية كانت تعبد فعلاً في الاقاليم ، فليس لذلك أهمية تذكر ، إذ أن الحقيقة الهامة هي أن أهل الاقاليم كانوا يبذلون الولاء لالهتهم المحلية . فللكلتيين آلهتهم الكبرى للطبيعة والدولة ، ولهم شياطينهم الخيّرة ، وعرائس الجداول المائية والغابات ، ولسكان تراقيا اله الغابات ، والحدائق والكروم ،وهو الصياد المحارب ، وجعلوا له اسماً يونانياً مغموراً ، Hero . وكان لأهل ايلليريا إله التلال ، واستعاروا له من بلاد اليونان اسماً وصورة للاله بان Pan ، ولاهل أفريقية الهتهم البربرية والسامية ، أمثال بعل ، وطانيت وغيرهما ، إنما جعلوا لها من الاسماء أمثال : Saturno ، Juno , Caelstis. وعبد أهل الاناضول الهتهم الام الكبيرة Great Mother، وقرينها الإله ، في صور لا حصر لها ، فضلاً عن عبادة الإله الاكبر، إلهالسموات والرعد . واتخذ السوريون صوراً عديدة لإله الشمس . أما مصر فاحتفظت بديانتها القديمة ، على الرغم من أن عناصر السكان الأجنبية جعلت أهمية للمعبود سارابيس ، وهو الإله اليوناني المصري للبطالمة ، فضلا عن صورة أخرى للإله ايزيس. على أنه لم يشيد لهذه الآلهة معابد جديدة ، أو مذابح جديدة، ولم تقدم لها القرابين .

وترتب على ما بلغته بعض هذه العقائد الشرقية المحلية من الشهرة والأهمية ، أن انتشرت فيما وراء حدود اقليمها ، وتجاوزت شعبها ، وأسهمت في قيام جماعات دينية ومعابد محلية خاصة بها ، حتى أضحت عالمية ، ونهضت لنشر عقيدتها في جميع أنحاء العالم .

وظهر هذا الميل منذ زمن مبكر يرجع إلى زمن تفوق الفرس وسيادتهم ،ثم ازداد قوة في العصر الهيللنستي، ومضى في طريقه زمن الأمبراطورية الرومانية. وأقدم هذه الديانات التي تحوّل اليها الناس ، كان موطنها مصر والأناضول . فمن مصر جاءت العبادة اليونانية المصرية التي تشمل ثالوث الآلهة: سرابيس ،وايزيس وهاربوكراتيس . ومن الأناضول وردت عبادة الأم الكبيرة في صورة يونانية . وتلى هذه الديانات ، عبادة آلهة أخرى ، أمثال : إله السماء وإله الشمس عند السوريين ، التي أتخذت صوراً مختلفة ، ثم عبادة ميتراس إله الشمس ، المحارب ، ومخلص الإنسان ، وبطله ، وعبادة الإله سابازيوس Sabazius عند أهل تراقيا وايلليريا .

وإذ انتشرت كل من هذه الديانات في انحاء العالم ، اتخذت لاهوتاً محدداً ، وشعائر تصوفية معينة ، وهيئة خاصة من الكهنوت . والمعروف انها انتشرت جميعها في الشرق ، غير انها لم تنفذ الا في بطء ،إلى بلاد اليونان وايطاليا ،وأقدم من هذا زمناً ، ما ترتب على تشتيت اليهود في العصر الهيللنسي من انتشار الجاليات اليهودية ، وما تلى ذلك من ظهور المسيحية زمن الأمبراطورية الرومانية .

هذه الديانات التي بدأت تتخذ شكلا منتظماً ،والتي أخذ الناس يعتنقونها في اوائل عصر الامبراطورية الرومانية ، أفادت من أحوال الحياة في دولةتسيطر على العالم وقتذاك ، بأن شقت طريقها ، مع التجار والصناع ، إلى كل مركز تجاري ، ولا سيما المدن الساحلية ، فأقامت به جماعات دينية ، ولم تضع

الأمبراطورية العراقيل في طريقها . إذ أن الأباطرة الأوائل لم يحفلوا كثيراً بالديانة ، بشرط ألا تكون معادية لهم ، ومناهضة لسيادتهم . والواقع أن الدكتاتورية المستنيرة ، التي قامت على المبادىء والمثل الرواقية ، كانت تميل إلى تشجيع انتشار التصوف والزهد الوارد من الشرق ، بشرط أن يلتزم القانون ، ويمتنع عن الأمور السياسية ، وبذا عاشت العقائد الشرقية ، جنباً إلى جنب مع العبادات المحلية في جميع أرجاء الأمبراطورية ، وكان لهذه العقائد الشرقية أنصار ومريدون في المدن بصفة خاصة. وترتب على هذا التعايش ، بين العقائد الشرقية والعقائد المحلية ، ان جرت محاولة للتوفيق بين المذاهب المختلفة ، وادماجها في مذهب واحد ، يقره المؤمنون ، ولقى هذا الاتجاه ترحيباً عند الطبقات الموجهة للمجتمع ، لأنه يعمل على توحيد الآلهة المختلفة .

وكان الجيش من أهم مراكز الشعور الديني في المجتمع الروماني زمن الأمبراطورية. والمعروف أن الصورة الخاصة التي اتخذتها الديانة في الجيوش الرومانية ليست إلا صورة صادقة للحركات الدينية في الأمبراطورية بصفة عامة. فما جعله الأمبراطور الروماني أول الأمر من ديانة رسمية خالصة ، تتمثل في إله الرومان ، مارس ، وثالوث الآلهة على الكابيتول ، لم تلبث أن أخذت بها الفرق العسكرية الرومانية والكتائب المساعدة في جميع المعسكرات . غير أنه إلى جانب هذه العبادة ، ظهرت أيضاً عبادة الآلهة المحلية ، التي ينتمي اليها إما الاقليم الذي يقع به المعسكر ، وإما البلاد التي جاء منها العساكر . ولما جاء الفرس والاناضوليون والسوريون من بلادهم ، ودخلوا في صفوف الجيش الروماني ، جلبوا معهم دياناتهم من الشرق. على أنه كان لبعض هذه الآلهة تشريف وتبجيل خاص ، مثل ميثراس ، وإله الشمس ، وإله السماء عند السوريين والأناضوليين ، والإله جوبيتر ، إله مدينة دوليش Doliche (عينتاب) ، في سوريا الذي اتخذ هيئة أحد جنود الفرق العسكرية ، في كامل عدته الحربية ، ومنها الفأس والدبوس. وشاع قبول

هذه العبادات ، لأنها تمثل آ لهة النضال والغزو ، وما توحي به للجندي من القوة والصلابة والنصر ، والأمل بالسعادة الأبدية في الحياة الأخرى .

واشتد إزدهار هذه الديانات في القرن الثالث،بما ساده من ظلام واضطراب. فعساكر تراقيا وايلليريا ، الذين خدموا بالجيوش المرابطة على حـد الدانوب ، كانوا يحملون صورة ميثراس المعبود الفارسي ، فوق التماويذ التي يجعلونهـا على صدورهم ، وجرى رسم ميثراس في صورة الآ له المحلى Hero ، وهـو فارس مظفر ، يخضع قوى الشر ويدمرها وإذ درجوا على عبـادة الآ لهين التوأمين Cabeiri إله الضوء وإله الشمس ، أضافوا إليهما عبـادة ميثراس ، ثم الا لهة ، الأم الكبيرة ، للدلالة على ما تمتاز به الطبيعة من الخصوبـة ووفرة الطعام . والمعروف أن جيش الدانوب لعب دوراً هاماً في الأحداث السياسية في القرن الثالث ، فاعترفت بهذه الآلهة الثلاثة ، الدوائر السياسية العليا .

وفي أثناء الاضطرابات التي وقعت في القرن الثالث ، لم تكن الدولة غافـلة عما كان يجري وقتذاك من حركات دينية . إذ حـاول الأباطرة أن يلتمسوا من الوسائل ما يكفل ولاء الجيش لأشخاصهم ، فحاولوا أن يسخروا مـا للحماس الديني من قوة ، لخدمة اتجاهاتهم ، فتتوطد بذلك العلاقة بين الجيش والعرش ، فدخول عبادة ميثراس في روما،وعبادة إله الشمس السوري وتعلق الأمبراطور اورليان بألا يكون للشمس إلا إله واحد ، كل ذلك ليس إلا محاولات لتحقيق هذا الغرض .

على أنه حدث في الوقت ذاته ، أن أضحى لديانة جديدة التفوق على سائر الديانات التي تنتمي إلى أصل شرقي وكانت هذه هي الكنيسة المسيحية .

بدأت الكنيسة المسيحية متواضعة بين جماعة من تلاميذ المسيح ، عرفوه وتذكروا حياته على الأرض ، ثم استطاع القديس بولص بعبقريته ونشاطه ، أن يحول هذه الكنيسة المتواضعة الىاتحاد منالهيئات بالغة التنظيم ، انتشرت في

سائر أنحاء الشرق ، وامتدت إلى إيطاليا . ومن تعاليم المسيح أمد بولص الكنيسة بكل ما لا غنى عنه من رسالة عالمية ، فوضع بذلك أساس اللاهوت المسيحي ، والأخلاق المسيحية ، وفكرة الحياة الأخرى عند المسيحيين . وما هو أكثر أهمية ، أقام أسس الكنيسة العالمية (الكاثوليكية) .

ولم تلبث الجماعات المسيحية أن اصطدمت بالسلطة الحكومية . على أن دواعي هذا النضال ليست واضحة . إذ أن الاضطهاد الديني كان غريباً على السياسة المألوفة للأباطرة . ولم تتضح الاسباب المشروعة لما حدث من الاضطهاد الديني . ولعلها ترجع إلى ما كان من إصرار المسيحيين على رفض الاشتراك فيما يجري في سائر أنحاء الأمبراطورية من عبادة الحاكم ، أو أن الجماعات المسيحية كانت تعتبر فيما يبدو جمعيات غير مشروعة لسبب أو لآخر . وكيفما كان الأمر ، فإن قانونا يجيز الاضطهاد كان معروفاً زمن تراجان(٩٨ — ١١٧ م) .

وكلما مضى الزمن ، أخذت المسيحية تعارض حكومة الأمبراطورية ، على الرغم من أنها لم تكن معادية مطلقاً للدولة بصفة عامة ، إنما دفعها إلى ذلك ما اتخذته السلطات الحكومية من اتجاه نحوها .

وكان دور الكنيسة سلبياً فيما جرى من النضال ، ومع ذلك أفادت الكنيسة من التجربة التي تعرضت لها ، فيما اكتسبته من قوة ، إذ أنهـا عملت على تنمية وتحسين نظامها ، وأنجبت عدداً من الرجال اشتهروا بالنشاط والمثابرة والصبر ، وضحى جماعة منهم بالحياة ، غير أن من عاش منهم مضى قدماً في عزم وإصرار متحملاً عب إدارة الكنيسة العالمية . وحاول المسيحيون ، في نفس الوقت ، أن يجعلوا عقيدتهم واضحة مفهومة ، يتيسر الوصول إليها وقبولها ، لا فحسب عند سائر الناس وفئة غير المتعلمين ، بل أيضاً عند الطبقة البالغة الاستنارة ، ويعتبر **اوريجين** من أعظم عباقرة المسيحية والعالم القديم ، وهو الذي أجرى اتصالا دائماً بين الديانة المسيحية والفلسفة القديمة .

وشهد القرن الأول وبداية القرن الثاني تطوراً بطيئاً للديانـة المسيحية . فلم تعترف بها الدولة الرومانية ، ولم تتعرض للاضطهاد بانتظام . ويعتبر القرن الثالث ، وهو عصر الاضطراب السياسي والديني العنيف ، أزمة حـادة في نمو الديانة المسيحية . فإذا أغفلنا الفترات التي شهدت التسامح التام ، فإن الأباطرة مكسيمين ، وديكيوس ، وفاليريان أعلنوا على المسيحيين حرباً لا هوادة فيها . ففي أثناء نشاطهم الشديد ، لم يكتفوا باضطهاد آحاد الناس ، بل تجاوزوهم إلى اضطهاد الجماعة المسيحية في أشخاص زعمائها وحكامها . وهذا التغيير في السياسة يرجع فيما يبدو إلى ازدياد نفوذ المسيحية في الجيش ، إذ هـــددت بتدمير ولاء العساكر للأمبراطور .

ولما خرجت الدولة من اضطرابات القرن الثالث ، وقد كادت تتجرد من كل سلطة ادبية ، ولم تعد تعتمد إلا على القوة وحدها، واجهتها الكنيسة المسيحية ، بعد أن اكتمل تسلحها بنظام قبله أربابها عن طيب خاطر . فالسلطة الأدبيـة التي فقدتها الأمبراطورية ، أضحت السند الوحيد للكنيسة ، وهو خير مـــا تعتمد عليه .

وآخر ما تعرضت له المسيحية من اضطهاد ، حدث زمن دقلديانوس . وكان دقلديانوس يرمي بما قام به من اضطهاد منظم للكنيسة المسيحية ، إلى أن يجبرها على الخضوع للدولة ، مثلما خضعت سائر القوي الاجتماعية بالأمبراطورية ، وان يفنى ذاتيتها وشخصيتها في شخصية الدولة . وتراءي لدقلديانوس ، أن قيـــام الكنيسة ، كدولة داخل الدولة ، يتعارض مع أول مبدأ لما أقامـــه من نظام استبدادي ، يلتزم من الرعـــايا الخضوع المطلق . ومع أن المسيحيين تعرضوا لخسائر وتضحيات جسيمة ، فإن الدولة فقدت المعركة . وأثبتت الكنيسة أنها أقوى من خصمها .

ويدل انتصار المسيحية على انقطاع الصلة بالماضي ، وعلى اتجـــاه جديد في

تاريخ الفكر البشري . إذ اشتد ملل الناس وعزوفهم عن المضي إلى أبعد من ذلك فأقبلوا على مذهب يدعو الى تهدئة العقل المضطرب ، ويحل اليقين مكان الشك ، ويعتبر حلاً نهائياً لطائفة كبيرة من المشاكل ، ويقيم اللاهوت مكان العلم والمنطق . واذ عجزوا عن توجيه حياتهم الداخلية ، كانوا على استعداد لأن يسلموا مقاليدهم الى الكنيسة التي تفوقهم قدرة وتنظيما . فلم يهب العقل السعادة بين البشر ، لكن الديانة ولا سيما المسيحية هي التي كفلت للرجل السعادة في الآخرة. وبذا تحول مركز الجاذبية ، وانتقلت آمال الناس الى الحياة المقبلة . فقد رضوا بالاذعان والاستسلام في هذه الحياة ، كيما يظفروا فيما بعد بالحياة الصادقة. لم يكن هذا الاتجاه الفكري معروفاً في العالم القديم ، ولا عند الامم القديمة في الشرق ، فضلاً عن اليونانيين والرومان . فالحياة المقبلة عند الرجل اليوناني ليست إلا طيفا ، وتعتبر عنده مخيفة مريعة ، فاليوناني لا يقدر إلا الحياة الدنيا ، غير أن كل هذا قد تغير تغييراً جذرياً ، وأصاب هذا التغيير العاطفة أكثر من كل شيء آخر ، فدلّ بذلك على أن بداية القرن الرابع الميلادي ، هي في الواقع انتقال الى صفحة جديدة في تاريخ البشرية .

الفصل الثاني

دقلديانوس وقنسطنطين

أولا – دقلديانوس
٢٨٥ – ٣٠٥ م

المعروف أن الجيوش هي التي قامت بتولية الأباطرة وعزلهم ، أثناء القرن الثالث الميلادي ، الذي طفح بالفوضى والاضطراب ، وليس للسناتو إلا أن يصدق على ما حدث فعلاً . على أنه لا يكفي لجيش إقليمي واحد أن ينفرد بانتخاب الامبراطور ، مثلما حدث بعد وفاة الامبراطور نيوميريان (٢٦٣-٢٨٤) . أذ قامت الجيوش الشرقية باختيار دقلديانوس قائداً لها سنة ٢٨٤ ، ولم يلبث أن أضحى قائداً للجيوش الغربية ، وبذا أضحى امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية . وكان متوقعاً أن يعترف دقلديانوس بما يدين به للجيش ، فيعلن ولاءه لجيش الامبراطورية ، غير أن أول ما أصدره من قرارات ، أنه أعلن أن له السيادة المطلقـــة ، سواء في علاقته مع الجيش أو في علاقته بالسناتو .

وأوريليوس فاليريوس دقلديانوس ، هو الاسم الذي اشتهر به هذا الامبراطور بعد أن ارتقى العرش . وينتمي دقلديانوس ، مثل كثير من أسلافه ، إلى إقليم ايلليريا (في يوغوسلافيا الحالية) ، نشأ في أسرة فقيرة ، وتشير الروايات إلى أنه كان ابناً لـكاتب ، أو ابن رجل لسناتور . وارتقى عرش الامبراطورية من

من بين صفوف الجيش ، شأنه في ذلك شأن معظم أباطرة عصره ، إذ شغل بعض الوظائف الصغيرة في غالة ، ثم تولى حكم مويسيا (في البلقان) ، ولم يلبث أن صار قائداً للحرس الامبراطوري ، وتولى أيضاً وظيفة القنصلية . ومع أن ما اشتهر به دقلديانوس من القدرات العسكرية هي التي رفعته إلى العرش ، فانه كان يفتقر إلى صفات القائد المجرب ، وطالما ترك لرفاقه القيام بما يعتبر مسائل استراتيجية بالغة الدقة ، وأكثر ما ركز فيه اهتمامه، هو الحكومة والتنظيم .

على أن اعجاب معاصريه به ، كان يشوبه شيء من القلق وانعدام الثقة ، فلقد كان دقلديانوس شخصية مرموقة ، اشتهر برجاحة العقل والدهاء ، غير أنه كان حريصاً على إرضاء صرامته وقسوته ، بينما دفع مساعدوه ثمن ما ترتب على هذه الصرامة من نفور الناس وكراهيتهم . ومع أنه كان يحيط نفسه بمظاهر الملكية وأبهتها ، ويضفي على شخصه القداسة والهيبة الدينية ، فإن تفكيره انصب على أن يتخذ من الخطط ما يكفل سعادة الامبراطورية ورفاهيتها وأن يجعل من نفسه أباً لرعاياه .

ففي أثناء السنوات الطويلة التي ترقب فيها الوصول إلى العرش ، فكر ملياً في مشاكل عصره ، وتوصل إلى حلول ، لم يلبث أن حرص على تحقيقها بعد أن تولى الحكم .

أدرك دقلديانوس أن عبء حكم الأمبراطورية بلغ من الجسامة ما لم يكن بوسع شخص واحد أن يتحمله بمفرده . إذ أن العقبة الأساسية للمحافظة على وحدة الامبراطورية ترجع ترجيحاً إلى الفتن العسكرية . ولتجنب هذه الفتن كان لزاماً على الامبراطور ان يتولى بنفسه قيادة الجيش في الحملات الحربية الهامة . ولا ينبغي أن يتهيأ للقادة من الفرص لاحراز الانتصارات التي تثير حماس العساكر ، فيدفعونهم إلى التطلع إلى الوصول إلى العرش . ولا بد للامبراطور أن ينتقل من إقليم إلى إقليم ، كلما كان حضوره مطلوباً ولازماً .

فإذا تحتم أن يكون له مقر رسمي للحكم ، فلا بد أن يراعى عند اختياره ، أن يكون قريباً من أطراف الامبراطورية ، إذ أن روما أضحت من البعد عن مركز النشاط ، ما يجعلها عاجزة عن تلبية كل هذه الرغبات .

وإذ كان دقلديانوس من رجال السياسة العمليين ، حرص على أن يختار زميلا له ، يعهد إليه ببعض أعباء الامبراطورية ، بينما يحتفظ في يده بالسيطرة على الحكومة . ومن الدليل على عبقرية دقلديانوس ، قدرته على اختيار الرجال الأكفاء ، على أن ذلك عرّضه دائماً لحقد وكراهية قادته . وكلما تزايد عدد الأباطرة ، لم يعد للمتمرد أو الثائر أمل في الفوز والنجاح. والواقع أن الامبراطورية كانت تمر بمرحلة انتقال من نظام الحكم الذي وضعه أغسطس ، والمعروف باسم Principate إلى نظام آخر يختلف في طابعه وصفته ، وهو المعروف باسم Dominate . وأدرك دقلديانوس أن الوقت قد حان للتخلي عن النظام القديم ، واتخاذ النظام الجديد بكل ما ينطوي عليه من خصائص . وما أقامه دقلديانوس من نظام للحكومة ، انما جرى رويداً رويداً .

اختار دقلديانوس أحد أصدقائه من القادة ليكون زميلا له في ادارة الامبراطورية ، وهو مكسيميان ، الذي ينتمي أيضاً إلى إقليم ايلليريا ، والذي ارتقى أيضاً من بين صفوف الجيش . على أن التشابه بين دقلديانوس ومكسيميان يقف عند هذا الحد . فبينما اشتهر دقلديانوس بالمهارة السياسية والحذق والبراعة ، والدقة في بعض الأحوال ، كان مكسيميان يمثل بيئته أحسن تمثيل ، فاشتهر بالخشونة ، والأمية ، والقسوة ، ومع ذلك كان معروفاً بكفايته في تدبير الخطط العسكرية . والواقع أن كليهما (دقلديانوس ومكسيميان) كانا نقيضين في الصفات ، ومع ذلك يعتبر كل منهما مكملا للآخر في ادارة شئون الامبراطورية ، فيطمئن دقلديانوس إلى أن يعهد إليه بقيادة الجيش على الحدود (الأطراف) لما لهذه القيادة من أهمية جوهرية ، على حين أن صداقة مكسيميان لزميله الأكبر

(دقلديانوس) ، وما يكنّـه له من الاحترام العميق ، فضلاً عن تخوفه من مواهبه الفكرية العالية ، كل ذلك يعتبر أماناً لكل محاولة ترمي إلى اغتصاب السلطة . وفي صيف سنـة ٢٨٥ م ، تقرر تعيين مكسيميان قيصراً ، ولم يلبث أن صار أغسطس سنة ٢٨٦[١] .

على أن دقلدبانوس لم يخسر إلا شيئاً ضئيلا ، بعـــد أن صار مكسيميان أمبراطوراً . فعلى الرغم من أن القرارات والقوانين تصدر باسميهما ، فإنه نظراً لأن دقلدبانوس كان أقدم الأمبراطورين ، صارت له المبادرة في وضع القوانين ، ولم تنقسم الأمبراطورية بين حاكمين . ومـــع أن دقلدبانوس كان يقيم عادة في نيقوميديا في آسيا الصغرى ، بينما استقر مكسيميان في ميلان ، فإن كلا منها

(١) الواقع أن تعيـين مكسيميان قيصراً ثم أغسطس (امبراطوراً) يرجع إلى القلق والاضطراب الذي ساد غاله وقتذاك ، إذ تعرضت لهجمات المغيرين من الجرمان . واضطرب الأمن بالداخل ، بسبب فتنة الباجودا Bagudae ، وهؤلاء البـاجودا اشتهروا بهذا الاسم لانهم فروا من مهنهم وحرفهم الأصلية . وكان معظمهم من الفلاحين ، ومنهم جماعة من أهل المدن . وزاد في عددهم ، من لحق بهم من شذاذ الجيش والمتبربرين الذين خرجوا من ديارهم هائمين على وجوههم . ولم يعرف على وجه التحقيق الهدف من فتنتهم ، وظلوا شهوراً يحرزون الانتصارات على جيوش الامبراطورية بما شنوه من حرب العصابات . واستطاع مكسيميان آخر الأمر سنة ٢٨٦ أن يقمع هذه الفتنة. فأضحى الرومان يسيطرون من جديد على الطرق المؤدية إلى حدود الامبراطورية. وإذ نادى العساكر بمكسيميان امبراطوراً (أغسطس) في ابريل سنة ٢٨٦ . لم يسع دقلديانوس إلا الموافقة . وفي السنتين التاليتين أعاد مكسيميان الأمن الى نصابه على الحدود الألمانية . واستطاع نائبه (قنسطنطيوس) أن يحرز انتصـاراً باهراً على الفرنجة. وأن ينتزع من زعيمهم جينوباودوس Gennobaudus يمين الولاء للامبراطورية الرومانية ، هو وعساكره ، مقابل الاعتراف باتخاذه لقب ملك الفرنجة . فأضحي ملك الفرنجة بذلك درعاً واقياً لروما أزاء ألمانيا . على أن قائداً آخر حظي بلقب أغسطس سنة ٢٩٩ . وهو (كاروسيوس) الذي طهر القنال الانجليزي من القرصان. وفرض سلطانه على انجلترا والقنال . ولم يسع دقلديانوس ومكسيميان الا الاعتراف به امبراطوراً .

قام في السنوات التالية بحملات ، بعدت كثيراً عن مقر حكمه [1] .

الحكومة الرباعية

على أن تجارب حكومة دقلديانوس ، التي استغرقت خمس سنوات ، أقنعته أن ما اتخذه من تدابير دستورية ليست كافية لمنع الفتن والثورات ، وللمحافظة على ما تمارسه الأسرة الأمبراطورية من سيادة. فما حدث من الاعتراف بسلطان المغتصب كاروسيوس، ليس إلا إقراراً بالفشل[2]. وأدرك دقلديانوس ومكسيميان، أنه ليس بوسعها الاضطلاع بكل ما هو ملقى عليها من أعباء ، ولذا قرر دقلديانوس أن يعين قيصرين لمساعدة الأمبراطورين . فوقع اختيار دقلديانوس على جاليريوس ، ليكون قيصراً في نيقوميديا ، بينما جعل مكسيميان ، قنسطنطيوس قيصراً في ميلان . وكان جاليريوس رجلاً نشيطاً سريع الحركة ، شديد البأس ، بالغ الاستقامة ، شديد القسوة ، لا يحفل بالعواطف ، وما كان من التشابه بينه وبين مكسيميان في الاتجاه ، يفسر ما كان بينهما من كراهية متبادلة. أما قنسطنطيوس [3] فكان من النبلاء ، أشتهر بأنه حاكم متزن ،

---

(١) أمضى دقلديانوس شطراً من الوقت على الدانوب ، وشن الحرب على السرامطة ، سنتي ٢٨٩ ، ٢٩٢ . وتوجه مرتين الى الشرق . ففي المرة الأولى ، سنة ٢٩٠ ، مضى لرد العرب عن الشام ، بينما اقتضى رحيله في المرة الثانية ، ما وقع في مصر سنة ٢٩١ من فتنة اشترك فيها البليميون . ذلك ان قفط وبوصير أعلنتا التمرد ، وتألف جيشه الذي قمع هذه الفتنة من كتائب من الفرق العسكرية المرابطة على نهر الدانوب .

ويتصل بجهود دقلديانوس العسكرية ، أنه اغتنم فرصة وقوع الفتن الداخلية في فارس، فجعل على عرش ارمينية ، تيريداتس الثالث Tiriadates من أسرة الإرسديين Arcacid . وبهذه الوسيلة دخلت ارمينية في دائرة نفوذ الرومان ، ولم يسع ملك الفرس بهرام ، الا الاعتراف بما حدث ، والتنازل عن دعاويه في اقليم الجزيرة الروماني .

(٢) أنظر ما سبق ، حاشية ١ ، ص ٣٢ .

(٣) وقنسطنطيوس هو والد الأمبراطور قنسطنطين، الذي يعتبر أول امبراطور مسيحي ، وكانت أمه جارية اسمها هيلينا .

صادق الحكم ، محب للخير ، وما أنجزة من أعمال في غاله ، وما حازه من محبة الناس بين سكان الأقاليم ، دلّ على مهارته السياسية ، وهو يشبه دقلديانوس في أمور كثيرة . وكيفما كان الأمر ، فإن جاليريوس وقنسطنطيوس كانا قائدين بارعين ، وكان ذلك من الأمور الجوهرية في الوقت الذي تم فيه اختيارهما ، فقد تولى كل امبراطور اختيار مساعده (القيصر) . وجرى من روابط المصاهرة بين هؤلاء جميعاً ما وطد الصلة بينهم .

تألفت من الأمبراطورين ومساعديهما ، حكومة رباعية ، فإذا تخلى أحد الامبراطورين عن الحكم ، بادر مساعده باحتلال مكانه ، على أن يتولى الأمبراطور الذي انسحب ، اختيار القيصر الجديد الذي يحل مكان سلفه الذي تولى العرش . وتقرر أن تكون فترة حكم الأمبراطور عشرين سنة ، يتخلى بعدها عن الحكم ، وذلك لمنع المنافسات حول العرش أو اغتصابه .

وكان للقيصرين ما للأمبراطورين من حقوق وامتيازات ، مثل سك العُملة ، وألقاب التشريف ، والاحتفال بتولية السلطة ، وبما يجري احرازه من الانتصار ، إذ يشترك جميع أفراد الهيئة الحاكمة في كل الأمجاد .

وقد اتخذ دقلديانوس لقب Jovius ، بينما حاز مكسيميان لقب هرقل Herculius . وإذ كان جوبيتر أب الآلهة والبشر وله السلطة العليا في السماء ، وكان هرقل يدعو للسلام على الأرض ، كان لزاماً على يوفيوس وهرقل أن يعملا في وفاق ، في ظل رعاية وحماية إلهيهما ، اللذين يمثلان جوهري الأمبراطورية : السلطة والعمل .

أصبحت الأمبراطورية بأجمعها ، يحكمها نظام دستوري حماها من الخطر الخارجي ، ومنع ما قد يحصل بالداخل من اغتصاب للحكم . وزاد في قوة وحدتها ما صار للأباطرة من صفة إلهية ، فصارت السلطة الأمبراطورية مطلقة ،

وليست ثمة حدود لحق الأباطرة في تشكيل العالم، وفي تقييد البشرية أو تحريرها. وإذ استقل دقلديانوس عن السناتو والجيش، أضحى بوسعه أن يعين الأباطرة وخلفاءهم، الذين يعتبرون بدورهم آلهة. وأضحى للحكومة الرباعية سند إلهي، ففي كل ما وقع من التنظيمات والاصلاحات الدستورية والادارية والمالية، وفي كل ما جرى اتخاذه من تدابير للاستقرار الاقتصادي والاجتماعي، وفي حالتي الحرب والسلام، وفي السياسة الثقافية والدينية، كانت امبراطورية جوبيتر ماثلة على أنها أداة للتنظيم. وكل الاصلاحات التي جرى تنفيذها في سائر نواحي الحياة، لم يكن الغرض منها سوى تحقيق نظام واحد أرادته الآلهة.

التنظيمات الادارية

كان دقلديانوس يهدف من اصلاح الادارة الإقليمية إلى تأمين مركز الامبراطور من كل ما يتعرض له من اعتداء الموظفين الذين يسعون للسلطة، وذلك بفصل السلطة المدنية (الادارية) عن السلطة العسكرية، وبتصغير مساحة الأقاليم، وكان لزاماً على كل اصلاح أن يحل هذه المشكلة، فكيف يتسنى ضبط العناصر المتنافرة في امبراطورية، شاسعة المساحة، حتى يتألف منها دولة متحدة، وكيف يجري الحصول على الاعتراف بإرادة الأمبراطور، التي تعتبر رمزاً للوحدة، فضلاً عن توفير أسباب الدفاع عن الأمبراطورية، ومباشرة الإدارة الداخلية، إلا بإقامة هيئة من الموظفين المدنيين لا بد من ضبطهم ومراقبتهم بكل دقة. والواقع أن انقاص مساحة الأقاليم، وما يتبعه من إضعاف السلطة والولاية، كان في صالح الرعية، ولذا حرص دقلديانوس على أن يباشر الولاة وظائفهم القضائية بأنفسهم، ولم يجز دقلديانوس لهؤلاء الولاة أن يعينوا قضاة يمثلونهم إلا في الحالات القصوى التي تمنعهم من مباشرة أعمالهم، وبلغ عدد الأقاليم مائة زمن الحكومة الرباعية الأولى.

وفيما يلي ما جرى من تقسيمات إدارية ، ابتـــداء من الأقاليم الكبيرة إلى الأقسام الإدارية الصغيرة .

انقسمت الأمبراطورية إلى أربعة أقاليم كبيرة تعرف بالولايات prefecturae وهي :

١ – ولاية غاله ، وتشمل بريطانيا ، وغاله ، واسبانيا ، والمنطقة المعروفة الآن باسم مراكش .

٢ – ولاية أيطاليا ، وتشمل كل الأراضي الواقعة على نهر الدانوب ، وبحر الإدرياتي ، وإيطاليا ، والأقاليم المعروفة حالياً بالجزائر ، وتونس ، وطرابلس (الغرب) .

٣ – ولاية ايلليريا وتشمل داسيا ، ومقدونيا وبلاد اليونان

٤ – ولاية الشرق ، وتضم ما تبقى من أقاليم الأمبراطورية .

وهذه الولايات لم تلبث أن انقسمت الى أثنتى عشرة وحدة إدارية ، تعرف باسم diocesis ، واتخذ حاكمها لقب vicarius . وهذه الوحدات تشمل :

١ – الشرق ويضم البلاد الواقعة جنوب جبال طوروس، فضلاً عن ايزوريا، وتمتد إلى مصر وبرقة .

٢ – بونطوس (شرق آسيا الصغرى) .

٣ – أسيانا (غرب آسيا الصغرى) .

٤ – تراقيا ، ويتبعها مؤيسيا السفلى .

٥ – مؤيسيا ، وتضم مقدونيا ، وابيروس وأنايا ، وكريت

٦ – بانونيا ، ويتبعها دالماشيا ونوريكوم .

٧ – إيطاليا ، ومعها رائتيا .

٨ – افريقية (الشطر الغربي من جبال سيرت Syrtes) .

٩ – اسبانيا ، ويتبعها موريتانيا .

١٠ فيينيس Viennenis (أجزاء فرنسا الواقعة إلى الجنوب والغرب ، حتى نهر اللوار) .

١١ – غاليا (ما تبقى من فرنسا ، والأراضي الممتدة إلى نهر الراين .)

١٢ – بريطانيا ، التي انقسمت وقتذاك إلى أربعة أقاليم .

والواقع أن عمال هذه الوحدات، أضعفوا ما كان للولاة الكبار من سلطان، بما حدث من التنافس بين اختصاص الفئتين ، إذ صارت أحكام هؤلاء العمال ترفع مباشرة إلى الأمبراطور ، وكان أرباب كل فئة من هاتين الفئتين ، ترقب أعمال الفئة الأخرى ، وتعتبر مسئولة عن سلوكها ، ويشمل اختصاصها الإدارة والقضاء .

ثم جرى تقسيم هذه الولايات والأقسام إلى وحدات صغيرة ، تبلغ المائة عدداً ، متقاربة في المساحة ويتولى كل وحدة منها حاكم « judex » .

وكل هؤلاء الموظفين يختارون من المدنيين ، وإلى جانبهم فئة أخرى من القادة العسكريين (duces) .

وأتم دقلديانوس إدماج البلديات في الحكومة ، وبذا فقدت البلديات ما تبقى لها من استقلال . ذلك أن سائر وظائف المدينة أضحت رويداً رويداً عبارة عن واجبات وخدمات إجبارية ، التزم القيام بها الموسرون من أهل المدينة ، وأكبر ما كانت تؤدي هذه الخدمات لصالح الدولة لا صالح البلديات . والمعروف أن موظفي البلديات ، كانوا من فئات الملاك ، فصاروا خاضعين لحكام الأقاليم ، الذين تضبطهم الحكومة المركزية عن طريق عمالها vicarii . وبهذه الوسيلة ،

تعتبر الإدارة المركزية قمة هيئة الموظفين ، الذين تتزايد سلطتهم كلما اقتربوا من قمة الهرم ، حتى ينتهي كل مظاهـــر النشاط والقوة ، آخر الأمر ، إلى يـــد الأمبراطور ومجلسه .

التنظيم الحربي

تعتبر الطريقة التي جرى استخدامها لتجنيد العسكر ، مستمدة من الأحوال القائمة وقتذاك . إذ امتدت الخدمة العسكرية إلى أبناء العساكر ، بأن صاروا خاضعين للالتزام بأن يرثوا آباءهم في خدمة الجيش ؛ يضاف إلى هؤلاء ، الأفراد الصالحون للخدمة ، والذين لا ينتمون لطائفة (نقابة) ترتبط بالتزامات نحو الحكومة أو البلدية ، فضلاً عن الأفراد الذين لا مأوى لهـــم ، والذين لم يكن بحوزتهم مساحات من الأرض الصالحة للزراعة . يضاف إلى ذلك مـــا فرضته الدولة على ملاك الأراضي بأن يقدموا للدولة العسكر عن أراضيهم . والواضح أن لهذا الإجراء أهمية في إضعاف ما كان سائداً وقتذاك من ارتباط الأقنان (الفلاحين) بالأراضي التي يزرعونها) . وكلما ازدادعددالجيش، اشتد دقلديانوس في الطلب ، وأدى ذلك إلى ظهور بعض العيوب ، منها أن الأمبراطور استجاب إلى طلبات الملاك ، بالاستعاضة عن العساكر بالحصول على أموال، نظراً لقلة عدد الفلاحين . وبفضل ما يجري الحصول عليه من أموال، يستطيع أن يجند العساكر من الفلاحين الأحرار ، من عناصر بارعة في ممارسة الحروب ، ولا سيما القبائـــل النازلة خارج الحدود الأمبراطورية ، كالجرمان . ومن الذين دخلوا الخدمـــة العسكرية أيضاً أسرى الحرب (laeti) الذين نزلوا في جماعات مستقلة بأراضي الأمبراطورية ، وجماعات اعترفت بسيادة الأمبراطورية وإن لم تخضع لإدارتها، وتعرف باسم gentiles . وبذلك زاد عدد القوات المسلحة .

على أن دقلديانوس وجه اهتماماً خاصاً للدفاع عن أطراف (حدود) الدولة

الرومانية . ومن جهوده لبناء الدفاع عن الحدود ، ما أقامه من طريق حربي متين ، من دمشق الى أعالي الفرات ، عن طريق تدمر ، ومدّ المعاقل وابراج المراقبة على الطريق الممتد من البتراء الى قرقيسيا (نهر الفرات) عن طريق تدمر . وترتب على ما حدث من التقسيمات الادارية ، وصغر مساحة الأقاليم ، ان ازداد عدد القوات المرابطة بها .

تألف الجيش من ثلاث فئات: فقد كان ثمة فئتان من الحرس الأمبراطوري، مسئولتين عن حماية شخص الأمبراطور ، ثم جيش مستعد لأن يسير إلى كل حد معرض للخطر أو لقمع كل فتنة وتمرد ، يضاف الى ذلك القوات المرابطة على الحدود . ويبلغ عدد جيش الحدود ٢٥٠ ألفاً من المشاة ، ١١ ألفاً من الخيّالة ، أما الجيش الثابت ، فكان عدده ١٥٠ ألفاً من المشاة ، ٤٦ الف من الخيالة . والملحوظ أن جانبا كبيراً من الجيش كان من المتبربرين . وكان معظم الخيالة من الجرمان . وجرى في بعض الأحوال أن خضعت جماعات من العساكر الجرمانية لقيادة الرومان ، بينما حدث في معظم الأحيان أن القوات الجرمانية المرتزقة المكلفة بالدفاع عن الحدود ، كان يقودها جرمان ، ودخل الجرمان أيضاً في الحرس الأمبراطوري ، وارتقوا في وظائفه حتى أصبحوا قادة .

سياسة دقلديانوس الدينية :

سبق الاشارة الى ما حدث في أثناء القرن الثالث الميلادي ، من أن العالم الوثني أخذ يتجه رويداً رويداً الى التفكير في عبادة إله واحد . وكان اعتراف أوريليان رسمياً بعبادة الشمس ، يعتبر ذروة هذا الاتجاه ، نظراً لأهمية الديانة الواحدة التي يقبل الناس على اعتناقها في توطيد وحدة الأمبراطورية. ولم يكن دقلديانوس بأقل اعتقاداً فيما يترتب على ديانة رسمية من نتائج سياسية هامة . غير أنه كان شديد التحفظ في خطواته وحملاته . إذ أنه تولى بنفسه تقديم القرابين لآلهة متعددة ، ومع ذلك اختص بعبادة الآله جوبيتر ، وكان

يأمل في أن يكون الديانة الرسمية للدولة ، وليس ثمة وثيقة أو نقش ، يدل على أن الأمبراطور ورفاقه كانوا آلهة ، وإنما كانوا يمثلون الآلهة على الأرض وليسوا متجسدين لها . على أن عبادة الالهة المتعددة ، كانت خير مـا يلائم خطط الحكومة الرباعية ، فلكل أغسطس وقيصر إله قوي . وما أقدم عليه من اتخاذ جوبيتر إلها له ، يؤكد ما له من سيطرة في الحكومة الرباعية .

وترتب على تعلق دقلديانوس بما كان معروفـاً في روما وبلاد اليونان من عبادات قديمة ، أن اشتدت كراهيته للمعتقدات الجديدة ، التي يصح أن تدمر إيمان رعاياه وولائهم ، وتضعف من وحـدة الأمبراطورية . فأنكر عبادة المانويةالتي كان الفرس يدينون بها ، حتى لا تتسرب الى داخل الامبراطورية الرومانية .

وأشد ما لقيه دقلديانوس من مقاومة ، جاءت من قبل الكنيسة المسيحية ، فعلى الرغم من الاضطهادات الدينية زمن ديكيوس(٢٤٩ — ٢٥١) وفاليريان (٢٥٣ — ٢٦٠ م) ، لم تتهاون الكنيسة مطلقاً في ممارسة نشاطها فيتحويل الناس إلى المسيحية .

والواقع أن الكنيسة تؤلف نظاماً يناهض الدولة ، لا لأنها فحسب تعبد إلهاً واحداً ، بل لأنها أيضاً ترفض العقيدة الامبراطورية ، وبذلك خيّرت رجالها بين الإخلاص للمسيحأو الإخلاص للامبراطور، واكثر ما تأثر بالمسيحيةالعساكر بالجيوش الرومانية .

لم يحدث في الشطر الأكبر من عهد دقلديانوس اضطهاد رسمي للمسيحيين ، ولعل ذلك راجع فيما يبدو الى ما تعرضت له الكنيسة من الانقسام والشقاق ، منذ الاضطهاد ، والى ازدياد نفوذ المسيحية في دوائر البلاط، إذ اعتنق المسيحية

زوجة دقلديانوس وابنته ، والراجح أنها مع سائر رفاقهما في الدين ، قاموا بضغط شديد لصالح المسيحيين .

غير أنه حدث حوالي سنة ٣٠٢ أن تغيرت سياسة دقلديانوس ، إذ تقرر طرد جماعة من المسيحيين من البلاط ونفيهم ، وكذلك جرى إخراج جماعات من العساكر من الجيش ، بعد أن أصروا على اعتناق المسيحية . ولعل دقلديانوس وقع تحت تأثير القيصر جاليريوس، عدو المسيحية ، وقد ذاع صيته بعد الانتصار على الفرس ، وتقرر فرض العقوبات على المسيحيين ، منها حرمانهم من حقوق المواطنة الرومانية ، وبذا لا يشغلون الوظائف الادارية والبلدية ، وصار ممنوعاً أيضاًعتق الأرقاء المسيحيين ، وأجاز القرار تدمير الكنائس المسيحية واحراق الكتب المقدسة ، وبهذه الوسيلة حاول دقلديانوس اضعاف سلطة رجال الدين ، بأن سلبهم المصادر التي يستخدمونها في تحويل الناس الى المسيحية .

وزاد دقلديانوس في التنكيل بالمسيحيين سنة ٣٠٤ ، حتى تخلى كثيرمنهم عن عقيدتهم ، ولا شك أن هذا الاضطهاد أضعف وحدة الكنيسة .

وحدث في السنوات التالية لاكتمال تنظيم الحكومة الرباعية ، أن استطاع قنسطنطيوس استعادة بريطانيا ،وتوطيد الأمن والسلام في غاله ، وطرد الفرنجة إلى غاباتهم ومستنقعاتهم ثم مهادنتهم ، ورد الالليماني إلى ما وراء نهر الراين ، بينما نجح جاليريوس في توطيد الأمن على الدانوب ، وإنزال الهزيمة بالسرامطة، وقضى دقلديانوس على الحركة القومية التي قام بها اخيلوس في مصر ، سنة ٢٩٢، وأنزل جاليريوس الهزيمة بالفرس ، فامتدت حدود الامبراطورية الرومانية إلى نهر دجلة ، وإلى مملكة ايبريابالقوقاز ، ودخلت أرمينية في حوزة روما . والتزم التجارُ الذين يمارسون نشاطهم بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ،باستخدام الطريق الذي يجتاز مدينة نصيبين التي ترابط بها حامية رومانية ، ويجري بها جباية الرسوم الجمركية .

نهاية حكم دقلديانوس

في أواخر خريف سنة ٣٠٣ ، قدم إلى روما ، دقلديانوس ومكسيميان ، للاحتفال بالعيد العشرين للمناداة بدقلديانوس أمبراطوراً . وإذ كان دقلديانوس وقتذاك شيخاً ، يعاني مرضاً استمر زمناً طويلاً ، حرص على أن يفيد من هذه المناسبة لإقرار ما يتعلق بنظام الحكومة من خطط . لقد أتم عشرين عاماً وهو على رأس الحكومة ، وهو الحد الذي حرص على أن يلتزم به اخلافه .

عزم دقلديانوس على أن يتخلى هو ومكسيميان عن منصبيهما ، ووافق مكسيميان على ذلك ، وقد تحققت سنة ٣٠٥ ، ارتقاء قنسطنطيوس وجاليريوس ، المنصب الامبراطوري ، غير أن اختيار خلفيهما ، قيصرين ، كان مشكلة . فالمعروف أنه حينما تألفت الحكومة الرباعية سنة ٢٩٣ ، لم يقرر دقلديانوس ولم يرفض مبدأ وراثة الحكم ، غير أنه لم يلبث أن غير رأيه ، فأغفل مبدأ الوراثة ، فأعلن في مايو سنة ٣٠٥ تنحية نفسه رسمياً عن الحكم ، بحضور عساكره في نيقوميديا ، ثم أعلن اختيار القيصرين الجديدين اللذين يخلفان قنسطنطيوس وجاليريوس ، بأن جعل سفيروس ومكسيمين قيصرين في الغرب والشرق ، وتنازل أيضاً مكسيميان وقتذاك في ميلان عن العرش الامبراطوري . ومع أن قنسطنطيوس يعتبر الأمبراطور الأول ، فإن جاليريوس حاز من ناحية القوة على الأقل ، التقسيمات الاقليمية التي تزيد من سلطانه . فلم يكن فحسب سيداً على المشرق ، بل توافر له عن طريق سفيروس ، من الوسائل ما يكفل له فرض سلطانه على الغرب أيضاً ، إذ أن القيصرين (سفيروس ومكسيمين) كانا من رجاله ، فأضحى بذلك يسيطر على ثلاثة أرباع الامبراطورية الرومانية .

الحكومة الرباعية الثانية – التنازع على الحكم

ثم حدث أن تعرضت بريطانيا للغزو ، فبادر قنسطنطيوس بالتوجه إليها ، ولحق به ابنه قنسطنطين ، فأحرز قنسطنطيوس انتصارات باهرة ، غير أنه لم يلبث أن مات في يورك في يوليه سنة ٣٠٦ ، فنادى العساكر بقنسطنطين امبراطوراً مكان والده . على أن العساكر بإيطاليا نادت بماكسنتيوس امبراطوراً في الغرب سنة ٣٠٨ ، فأضحى نظام دقلديانوس مهدداً بالانهيار ، وإذ استجاب دقلديانوس لرجاء المتنافسين على العرش بالتحكيم بينهم ، تقرر اعتبار ماكسنتيوس مغتصباً للحكم ، وتعيين ليسينيوس امبراطوراً في الغرب سنة ٣٠٨ ، كما تقرر إنزال قنسطنطين إلى رتبة قيصر ، وبذلك أعاد دقلديانوس النظام الذي سبق أن أقامه لحكم الامبراطورية ، وإذا رفض قنسطنطين التنازل عن سلطانه كامبراطور تقرر ترقية مكسيمين امبراطوراً آخر في الشرق سنة ٣١٠ . وتنازع حكم الامبراطورية بعد وفاة جاليريوس سنة ٣١١ ، أربعة أباطرة [1] . انزل قنسطنطين الهزيمة الساحقة بقوات ماكسنتيوس ، وانتزع منه شمال ايطاليا ، ثم قرر أن يمضي في مغامرته للاستيلاء على روما . والواقع أن اعتقاده في عالم الأرواح أمده بقوة دافقة ، ازدادت نشوتها في نفسه ، كلما ازدادت انتصاراته في الحروب ، والمعروف أن الدين كان يقاس وقتذاك بمقدار ما يأتي به من نتائج ، فإذا جاء بالفتح والنصر لأتباعه ، قال الناس إنه الحق والهدى ، وإذا جاء بالهزيمة قالوا إنه ضلال مبين . ولذا أيقن قسطنطين ، وهو يرتب شئون الدفاع عن غاله ،

---

(١) اعتقد جاليريوس ان ما أصابه من مرض يرجع إلى سخط المسيحيين وإلههم نظراً لشدة ما أنزله بهم من اضطهاد ، فأصدر قراراً يجيز حرية العبادة سنة ٣١١ . غير انه لم يلبث أن مات . فصار يحكم الامبراطورية في الشرق ليسينوس ومكسيمين . وفي الغرب قنسطنطين وماكسينتوس . والمعروف أن الشطر الشرقي للامبراطورية . تعرض المسيحيون فيه على يد دقلديانوس سنة ٣٠٣ لأقسى انواع الاضطهاد . بينما لم يتعرض الغرب لذلك الاضطهاد بفضل قسطنطيوس وابنه قنسطنطين . كما ان وفاة جاليريوس الاليمة لابد انها أثرت في تفكير قنسطنطين .

أول حياته العملية الطويلة ، أن الصليب ، وهو رمز للمسيح وإله الشمس على السواء ، سوف يأتيه بالنصر فيما يخوضه من حروب ، وتشير الروايات التاريخية إلى أن قنسطنطين شهد في الرؤيا ، راية الصليب في السماء ، وفيها نقش نصه عز نصره مكتوب بأحرف من نور ، وإلى أن الامبراطور اتخذ هذا النقش شعاراً للوائه في حروبه التي ظفر في أثنائها بأربعة انتصارات متتاليـــة على منافسه وخصمه ، واستجابة لرؤيا أخرى شهدها أثنــاء سيره الى روما ، أمر بنقش شعار المسيحيين على تروس العساكر .

ودارت المعركة الحاسمة عند جسر ملفيان ، بالقرب من روما ، سنة ٣١٢ ، فغرق في مياه النهر ماكسنتيوس والألوف من رجاله ، ثم دخل قنسطنطين روما ، فحياه بحماس بالغ ، كل من السناتو والجيش ، وبذلك أحرزت المسيحية انتصارها الأول ، وتقرر إقامة تمثال لقسطنطين في روما، وبيمينه الصليب ، رمزاً لهـذا الانتصار ، وعلى العقد الذي لا يزال قائمـــاً بروما حتى اليوم ، يرمز إلى تحرير المدينة من الطاغية ، جرى نقش العبارة :

Instinctu divinitatus. mentis magnitudine

وهي تشير إلى ما كان للقوة الالهية من أثر في انتصار قنسطنطين.

ثانياً – قنسطنطين

٣٠٦ – ٣٣٧

ينتمي قنسطنطين أيضاً إلى إقليم ايلابريا ، وليس معروفاً على وجه التحديد، تاريخ ولادته . على أنه حدث في نيش حوالي سنة ٢٨٠ ، أن انجبت هيلينا [١] للجندي قنسطنطيوس غلاماً صار أول أمبراطور مسيحي . ولما عين دقلديانوس ، قنسطنطينوس قيصراً في الغرب ، وعهد إليه باسترداد بريطانيا ، تقرر إرسال قنسطنطين إلى الشرق ، كيما يكون بصحبة دقلديانوس الأمبراطور الأول ،فتوجه برفقته إلى مصر سنتي ٢٩٦ ، ٢٩٧ . وفي أثناء شبابه عرف ما كان من سيادة المسيحية في الأقاليم الأسيوية ، وما كان للمسيحيين من دور هام في الادارة ، وفي بلاط دقلديانوس . وفطن الناس إلى ان قنسطنطين سوف يعين قيصراً في الوقت المناسب ، بعد أن أعد نفسه للاضطلاع بأمر هذه الوظيفة . ففي الشرق وقف على ما حدث من تغيير في سياسة جاليريوس ، وشهد بوادر الاضطهاد الذي اقترن بسفك الدماء . ولما تنازل دقلديانوس عن الحكم ، أضحى قنسطنطين رهينة في يد جاليريوس بالشرق. غير أنه لم يلبث أن لحق بوالده في غالة، فلما مات قنسطنطيوس في بورك سنة ٣٠٦ نادي العساكر بقنسطنطين أمبراطوراً .

والواقع أن قنسطنطين يعتبر من الشخصيات النادرة التي تركت أثراً حاسماً في التاريخ . فما اشتهر به من قوة كبيرة في الفكر والبدن ، وما اتصف به من شجاعة شخصية ، وكفاية عسكرية ، كل ذلك كان كافياً لأن يجعل له الصدارة والتقدمة . على أن يضاف إلى هذه الخلال ، مواهب بالغة القيمة ، فقد ولد كيما يكون منظماً وقائداً ، وامتاز بكفاية ضخمة في إعداد الخطط والتماس الوسائل لتنفيذها. والواقع أنه لم يقل مكانة في ذلك عن دقلديانوس، فيعتبر قسيما له في إنشاء الأمبراطورية الجديدة . غير أنه حظى بشيء لم يحزه دقلديانوس . فإذا كان يضارع دقلديانوس في التفكير في أسباب ما يجري من أحداث سياسية واجتماعية،

(١) كانت هيلينا ، قبل زواجها ، جارية تعمل في احدى حانات البلقان

والتماس حلول جديدة لمشاكل قديمة فإنه يختلف عنه ، بأن في وسعه أن يخضع لما للمثل والمبادىء الجديدة من تأثير على تفكيره وحياته الداخلية . كل ذلك مرهون بالمستقبل، غير أنه أضحى منذ سنة ٣٠٨ الرجل الذي أنعقدت عليه آمال أولئك الذين شهدوا انحسار وزوال العصر الذهبي لدقلديانوس .

قنسطنطين وليسينيوس

وفي غمرة الحماس الذي استقبل به قنسطنطين في روما، اغتنم الفرصة لتوطيد مركزه الدستوري ، إزاء مركز الأمبراطورين الآخرين في الشرق ، وهما مكسيمين وليسينيوس . فاستطاع أن يحمل السناتو ، عقب انتصاره في وقعة جسر ملفيان ، على أن يمنحه لقب الأمبراطور الأول، الذي اختص به مكسيمين منذ وفاة جاليريوس، وبهذه الوسيلة، صارت له السيطرة على التشريع الأمبراطوري، فبادر بالكتابة إلى زميله في الشرق ، مكسيمين ، يأمره بوقف اضطهاد المسيحيين، ثم أصدر قراراً جدياً بالتسامح ، وأرسل إلى نائبه بأفريقية يطلب إليه بأن يعيد للكنائس أملاكها التي سبق مصادرتها ، ووجه تعليماته إلى الخزانة الأمبراطورية بالأقاليم بأن تؤدي للكنائس ما تحتاجه من الأموال .

لما اجتمع قنسطنطين بحليفه ليسينيوس[١] في ميلان ، في أوائل سنة ٣١٣، تم الاتفاق على انتهاج سياسة تقضي بالحرية الدينية التامة ، وجرى إقرار صيغة مرسوم ميلان ، على الصورة التي تقرر إرسالها إلى أفريقية ، وسائر الأقاليم الغربية . وكان لزاماً على ليسينيوس أن يحمل نسخة منه إلى الشطر الشرقي للأمبراطورية ، باعتباره رسالة الحرية للمسيحيين بهذه الجهات.

اعتبر ليسينيوس هذا الإجراء سلاحاً يستخدمه لمناوأة مكسيمين . غير أن مكسيمين أجاز التسامح مع المسيحيين، بناء على أمر قنسطنطين، ولعله كان يأمل من وراء ذلك أن يثني قنسطنطين عن التدخل فيما عزم عليه من القتال بالاشتراك مع ليسينيوس . إذ أدرك مكسيمين أن انتصاره لن يتحقق إلا إذا بادر بمهاجمة ليسينيوس

---

(١) المعروف أنه حدث في ميلان وقتذاك عقد زواج ليسينيوس من قنسطنطينا . اخت قنسطنطين .

أثناء انصراف قنسطنطين لقتال الفرنجة على نهر الراين . ومـــع أن مكسيمين استطاع أن يستولي على بيرنطة في سنة ٣١٣ ، وأن يدخل هرقلة بدون قتال ، فإن ليسينيوس استطاع بجيشه الصغير أن ينزل هزيمة ساحقة بعدوه في ادرنـة (مايو سنة ٣١٣) ، فلم يسع مكسيمين إلا التراجع إلى جبال طوروس ، حيث قضى نحبه ، في أغسطس سنة ٣١٣ ، فأصدر ليسينيوس في نيقوميديا ، في يونيه سنة ٣١٣ ، رسالة تنطوي على منح الحرية التامة في العقيدة، وتتفق محتوياتها مع ما جرى اقراره في ميلان [١] .

ثم أمر الأمبراطوران ، بأن تعود للمسيحيين ، كل مـا سبق مصادرتـــه للكنائس من املاك ، سواء حازتها الخزانة الأمبراطورية ، أو الأفراد . ولابد أيضاً من أن يردللمسيحيين ما سبق مصادرته من أملاك وتكفل بيت المال ببذل التعويض لأولئك الذين تقرر إنتزاع الأراضي منهم ، بعد أن اشتروها .

أضحت الدولة الرومانيـة يقتسمهـا امبراطوران مظفران ، قنسطنطين في الغرب ، وليسينيوس في الشرق . على أنه ما حدث بينهما من دواعي الصدام ، كالمؤامرة التي اشترك في تدبيرها ليسينيوس ضد قنسطنطين ، والقيود التي فرضها ليسينيوس على رجال الدين المسيحي ، وطرد المسيحيين من البلاط والجيش والإدارة ، وتنازع السيادة على بعض المناطق الواقعة بين بلاديهما ، كل ذلك أدى إلى نشوب الحرب بين الأمبراطورين ، سنة ٣٢٤ . ودارت معركة حاسمة عند أدرنه ، هلك فيهـا عدد كبير من جيش ليسينيوس الذي فـــر إلى بيزنطة . غير أن قنسطنطين مضى إلى القاء الحصار عليها . وإذ جرى القتال براً وبحراً ، انهارت مقاومة ليسينيوس ، فاجتاز البوسفور إلى الساحل الأسيوي ، فأقـــام معسكره في خريصوبولي (سكودري) . وفي هذا الموضع نشبت في سبتمبر سنة ٣٢٤ المعركة التي قررت مصير ليسينيوس . على أن زوجته ، قنسطنطينا توسلت إلى أخيها قنسطنطين بأن يبقى على حياة ليسينيوس ، فاكتفى بنفيه الي سالونيك ، وبذا انتهت فـــترة الاضطهاد ، وخضعت الدولة لأمبراطور واحد .

---

(١) انظر ملحق - (١) .

ملحق (١)
مرسوم ميلان سنة ٣١٣

نظراً لما رأيناه من أنه لا ينبغي إنكار حرية العبـــادة ، بل لا بد للشخص بارادته وفطنته ، الحق في أن يدعي الأشياء المقدسة ، وفقاً لمـــا توافر للفرد من حرية الاختيار ، فإنه سبق لنا ، منذ زمن ، أن أمرنا المسيحيين بالمحـــافظة على إيمانهم بمذهبهم وعبادتهم ، غير أنه نظراً لما تعرض له هذا الحق من قيود كثيرة مختلفة ، بعـــد صدور المرسوم الذي حصل بمقتضاه المسيحيون ، الذين سبق الاشارة اليهم على هذا الحق ، كأن جرى بطريق الصدفة ، أن عدداً كبيراً منهم قد مُنعوا من ممارسة ديانتهم . ولذا فإنه حينما اجتمعنا سويا في ميلان ، أنـــا الأمبراطور (أغسطس) قنسطنطين ، وأنا الأمبراطور (أغسطس) ليسينيوس ، وتناقشنا في كل ما يتعلق بمصلحة الدولة وأمنهـــا . واعتقدنا أن هذين الأمرين ، وسائر الأمور التي تنطوي على عبادة الله ، والتي رأينا أنها تفيد معظم الناس ، لابد من معالجتها أول الأمر ، حتى يتسنى لنا أن نبذل للمسيحيين ولسائر الناس ، الحق في أن يكونوا أحراراً في أن يتبع كل منهم ما شاء من الديانة ، وبذلك فإن أياً كان الإله على عرشه بالسماء ، ليَحبونا ، نحن وسائر أولئك الذين يخضعون لسلطاننا ، بالعطف والسلام . وقد انتهينا في اطمئنان وتعقل تام إلى قرار بأنه لا بد أن نتخذ هذه السياسة — يقضي رأينا أننا لا ننكر على أحد أيا كان ، الحرية في أن يتبع إما ديانة المسيحيين ، وإما ما يختاره لنفسه من ديانة ، يعتقد أنهـــا خير ما تلائمه ، حتى ينعم الله الأكبر ، الذي نبذل له الطاعة عن طيب خاطر ، علينا في كل الأمور بفضله وعطفه . ولذا نود أن ننهي إلى سيادتكم ، أننا وطدنا العزم على أنه لا بد أن نزيل كل القيود ، الواردة في رسائلنا التي سبق توجيهها اليكم ، والتي تتعلق بالمسيحيين ، والتي فيما يبدو كانت لا تتفق مع رحمتنا — فينبغي إزالة هذه القيود ، ولنجعل ، دون قيد ، أولئك الذين يودون اتباع ما سبق الإشارة إليه من ديانة المسيحيين ، أن يتبعوها دون أن يتعرضوا للازعـاج أو التدخل . لقد شعرنا أنه لا بد أن نوافيكم بكل ما يتعلق بذلك من بيانات كاملة ، حتى

تطمئن سيادتكم إلى أننا بذلنا للمسيحيين الذين سبق الإشارة إليهم حرية تامة غير مقيدة ، في اتباع ديانتهم . يضاف إلى ذلك ، أنه متى تبين لسيادتكم اننا منحنا هذه الحريةللمسيحيين ، الذين سبق ذكرهم ، فسوف تدرك أننا منحناايضاً حرية دينية تامة مماثلة لغير المسيحيين إذ أن هذه المنحة بالغة الأهمية للسلام في أيامنا : وإذ صار جلياً لكل فرد أن يعبد مـــا يشاء من الديانة ، أصدرنا هذا، حتى لا يتبادر أننا أسأنا لديانة من الديانات .

يضاف إلى ذلك أننا قررنا فيما يتعلق بالمسيحيين ، أنه إذا حدث أن أماكن درج المسيحيون من قبل على الاجتماع بها ، وجرت الإشارة إليها فيما سبق إنفاذه لسيادتكم من رسائل ، اشترتها خزانتنا أو أشخاص آخرون ، فلا بد أن تعود للمسيحيين دون أن يؤدوا عنها مالاً،أو كل ما يعتبر ثمنا لها، دون غش أو إيهام ، ومن حاز أمثال هذه الأماكن على أنها هدايا ، ففي وسعهم أن ينالوا من عطائنا ما يرضيهم ، بأن يلجأوا إلى نائبنا ، الذي سوف يهتم بمصالحهم . ولا بـــد من تسليم هذه الأشياء عن طريقكم إلى الجماعة المسيحية دون إبطاء . ونظراً لمـا هو معروف عن المسيحيين أنهم لم يملكوا فحسب تلك الأمـاكن ، التي درجوا على الاجتماع بها ، بل أيضاً تلك التي تعتبر من أملاكهم ، كهيئة ، أي الأمـــاكن التابعة للكنائس لا للأفراد ، فإننا أوردنا هذه الأماكن في القـــانون المسطر بعاليه ، فتأمر باعادتها إلى المسيحيين ، دون مناقشة أو جدال . ويجري هنا تطبيق القرار السابق ، الذي يقضي بأن أولئك الذين يعيدون هذه الأمـاكن ، دون أن يحصلوا على ثمن لها ، فلهم أن يأملوا ، حسبما أمرنا ، في الحصول على تعويض من قبلنا . ولا بد أن تظهر وساطتك الفعالة في جانب جماعة المسيحيين التي سبق الإشارة اليها ، فيلقي بذلك أمرنا الطاعة الواجبة دون أبطاء ، ويسود السلام العام بفضل رحمتنـا . وبهذه الوسيلة سوف يستمر العطف الالهي طوال عهدنا، لصالحنا وللصالح العام. وكيما يقف جميع الناس على صورة من هذا القرار وعلى انعامنا ، يحسن بك أن تنشر هذه الرسائل في كل مكان ، وأن تنهي بها إلى جميع الناس ، حتى لا يخفى أمر انعامنا وكرمنا .

ثالثاً – اصلاحات دقلديانوس وقنسطنطين

نظراً لأن مـــا قام به دقلديانوس من اصلاحات قد اكتمل تطورها زمن قنسطنطين ، فيحسن أن نستعرض أعمال الأمبراطورين معاً .

١ – البلاط

كان أول الأمور الجوهرية لكل إصلاح، هو اقرار الجيش والشعب بالسلطة العليا للأمبراطور . حرص دقلديانوس ، دون أن يدعي الألوهية، على أن يؤكد ما لسلطته من صفة مقدسة ، وأن يحيط شخصه بهالة من القداسة ، بعد أن اعتبر جوبيتر ، إله اسرته الجديدة ، Jovius .

وكيما يزيد في إحساس رعاياه بمكانته ، أدخل دقلديانوس في بلاطه الرسوم والسلوك والآداب على النحو الذي كان معروفاً عند الفرس . إذ كان من العسير أن يحظى الشخص بلقاء الأمبراطور ، فإذا تصادف أن مثل أناس بحضرته ، كان عليهم أن يركعوا بـــين يديه وأن يلثموا طرف ردائه . وقلما ظهر الأمبراطور في الحفلات العامة . وفي كل الاحتفالات الرسمية ، ارتدى الأمبراطور الملابس والأخفاف المحلاة باللآلىء والحلى الثمينة ، بدلاً من الرداء الارجواني البسيط .

تطور هذا الإجراء مرة أخرى زمن قنسطنطين، إذ أتخذ التاج ، الذي كان من شارات ملوك فارس ، فأضحى من شارات الأمبراطور الروماني ، ومنذئذ نشأت هيئة رجال البلاط الأمبراطوري ، التي يرأسها الطواشي ، الذي صـــار بمضي الزمان يضارع في المكانة اكبر موظف بالحكومة ،بأن صارت له السيطرة

على دار الكساوى الأمبراطورية، والمشرف على الاصطبلات الأمبراطورية، وعلى الموكلين بحفظ الأمن داخل البلاد. وهذه المظاهر إقترنت بعصر الاستبداد الجديد.

٢ — حكومة الأقاليم

سبق الإشارة إلى أن أبرز مظهرين لإصلاح دقلديانوس الإداري، ما جرى من فصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية [١]، وما حدث من تقسيم الأقاليم إلى وحدات إدارية صغيرة، فتضاعف بذلك عدد الأقاليم، حتى تجاوز عدد الوحدات مائة. ومع أن بعض رجال الإدارة بالأقاليم ظلوا يختارون من طبقة السناتوريين كما أن بعضهم كانوا من الفرسان، فإن التعيين في الوظائف صار بيد الأمبراطور، فاختفى بذلك ما كان للسناتو من سلطة اسمية. على أن قنسطنطين الغي التفرقة بين طبقتي السناتوريين والفرسان، فأضحوا يعينون معاً في الوظائف الإدارية، ولم تلبث أن تداخلت الفئتان، احداهما في الأخرى.

ولتيسير سيطرة الادارة المركزية على حكام الاقاليم، قسم دقلديانوس الامبراطورية إلى اثنتي عشر قسماً dioceses، خضع كل قسم لسلطة موظف vicarius، ويعتبر ولاة هذه الاقسام ممثلين لولاة الاقاليم الكبيرة، وكلهم ينتمون لطبقة الفرسان، أي انهم أدنى مرتبة من الولاة السناتوريين. وبمقتضى هذا النظام صار رجال ينتمون لطبقة عالية يعتمدون في وظائفهم على فئة تقل عنهم مكانة. على انه يستثنى من ذلك ما حدث في مصر وايطاليا، إذ أنه على الرغم من أن مصر فقدت وحدتها باعتبارها اقليما مستقلا، فلا زال حكامها يعينون ويعتبرون في مكانة متوسطة بين حكام الاقاليم الجديدة، بين حاكم الشرق.

وعلى رأس هذا النظام الإداري المعقد، كان الولاة الكبار الاربعة praetoiran prefects، فاختص كل أغسطس وكل قيصر بواحد منهم، ولذا

---

(١) لم تتحد السلطتان إلا في الأقاليم التي ساد بها الاضطراب مثل موريتانيا وايزوريا.

كان يقيم دائماً مع سيده . ومع أنه لم يعد لهؤلاء الولاة الكبار ، السلطة العليا على الحرس البريتوري ، الذي فقد أهميته زمن دقلديانوس ، فإنهم تولوا نيابة عن الأمبراطور ، القيادة العليا للقوات الأمبراطورية، واحتفظوا لأنفسهم بالسلطات القضائية ،التي حازوها منذ القرن الثالث. وبذا جمع الولاة الكبار بين السلطتين العسكرية والمدنية ، غير أنه أضعف سلطتهم ما انشأه دقلديانوس من وظائف حكام الأقسام vicarii . وقصد دقلديانوس من وراء ذلك ، التخلص مما كان يقوم به الجيش من تعيين الأباطرة .

وفي زمن قنسطنطين ، تقرر اعادة تنظيم اختصاصات هؤلاء الولاة الكبار، فجرى حرمان هؤلاء الولاة من السلطة العسكرية ، ومنع الاتصال المباشر بين الوالي والامبراطور .ثم اقتصر اختصاصه على السلطة المدنية في أقاليم معينة بالأمبراطورية .علىأن ذلك زاد في قوة اختصاصه إذصارالوالي نائباًللأمبراطور، وتعتبر أحكامه القضائية نهائية ؛ واتسع مجال إدارته، بأن خضع لسلطانهالبريد الأمبراطوري ، وصار من اختصاصه اقامة المنشئات العامة ، والإشراف على النقابات ، ومراقبة أسعار الأسواق وخطة التعليم،وأضحى هؤلاء الولاة الكبار مسئولين عن الميرة (ضريبة القمح) ، وتموين الجيش ،وتجنيد العساكر،فصارت لهم بذلك السيطرة على القادة العسكريين ، الذين كان لزاماً عليهم أن يلجأوا إلى حكام الأقاليم ، لتوفير جراية العساكر، وأن يودعوا حساباتهم بديوان الوالي .

على أن هذه السيطرة المدنية ، لم يقيدها سوى أن تعيين الولاة وعزلهم كان بيد الأمبراطور ، فكان من صالح الولاة أن يحرصوا على ارضاء سيدهم . على أن قصر الولاة الكبار على وظيفة نواب للأمبراطور ، اقتضى ترتيبات جديدة، منها أن الوالي الكبير لم يعدعضواًبمجلس الشورى الأمبراطوري consistorum (الذي ينظر في الأعمال الإدارية والتشريعية، وكان أعضاؤه دائمين) ، إنما يصح دعوته لإبداء رأيه ونصيحته ، وحل مكانه بهذا المجلس ، المستشار القانوني Quaester ،الذي صار مسئولا عنإصدارالمرسوماتوالقراراتالامبراطورية ،

وعن حفظ سجل صغار الموظفين. وانشأ قنسطنطين هيئة الموثقين، وكانت مستقلة عن الوالي الكبير . ولم يكن هؤلاء الكتاب يقومون فحسب بالأعمال الكتابية للمجلس الأمبراطوري ، بل كانوا أيضاً يوفدون من قبل الأمبراطور في مهمات إلى الأقاليم، ويقومون بتحرير القرارات المتعلقة بتعيين الموظفين، وكان رئيسهم مسئولاً عن سجل أسماء كبار موظفي الدولة .

واستحدث قنسطنطين أيضاً ،وظيفة هامة، يعتبر صاحبها رئيساً للإدارات الحكومية magister officiorum ، وهو من أعضاء المجلس الأمبراطوري . ومن أعماله، الإشراف على توفير الأسلحة ،وبذا يعتبر مسئولاً عن سلامة الدولة، وكان أيضاً وزيراً للشئون الخارجية ، ورئيساً للمواكب والاحتفالات ، ومشرفاً على هيئة من الموظفين ، المكلفين بحمل الرسائل وبملاحظة على أنتقال القوات ، والمخابرات . فامتدت سلطة رئيس هذه الإدارات ، إلى كل ديوان حكومي ، وصار بوسعه أن يسيطر على كل نشاط للولاة الكبار .

ومن كبار أعضاء المجلس الأمبراطوري ، وزير الخزانة ووزير الأملاك الخاصة . وبرغم تضاؤل وظيفة والي المدينة ، فان محكمته لا زالت تنظر فيما يرفعه الولاة وسكان روما اليها من القضايا المدنية والجنائية . وظل صاحبها يرتدي العباءة toga ، التي تعتبر من التقاليد الجمهورية .

٣ — الجيش

المعروف أن نظام الجيش الرومالي ظل في القرنين الأول والثاني ، قائماً على النظام الذي وضعه أغسطس . إذ تألف الجيش من نوعين من العساكر : الفرق العسكرية legions التي تتألف الواحدة منها من الناحية الاسمية من ستة آلاف جندي ، من المواطنين الرومان ، ثم الفرق المساعدة auxilia التي تتفق مع الفرق العسكرية في قوتها البشرية ، ويجند أفرادها من سكان الأقاليم ، الذين لم ينالوا حق المواطنة الرومانية .

كان هـــذا الجيش يستخدم في الدفاع عن الامبراطورية ويرابط في أقاليم الحدود ، ويخضع لقيادة حكام الأقاليم ، وفيما عدا كتائب البريتور والمـدن ، لم يكن معروفاً نظام العساكر الاحتياطية . فإذا تقرر إعلان حرب تأديبية أو هجومية ، كانت الفصائل اللازمة للحملة ، تؤخذ من جيوش الحـــدود ، فأدى ذلك الى تجريد سائر جهات الامبراطورية من حامياتها ، وكان ذلك من أسباب الفوضى في القرن الثالث ، فضلاً عن هجمات المتبربرين .

وجه دقلديانوس وقسطنطين كل اهتمامهما ، الى اعداد جيش مستقل للقتال ، وتطوير وحدة الخيالة . وترتب على ما اجراه دقلديانوس من تنظيم اداري ، ان رفع عدد الفرق الى ستين بدلاً من أربعين ، وخص كل اقليم بفرقتين ، وجعل لكل اقليم حدود ، نصيبه من الفرق الاضافية (المساعدة) ، التي ازداد أيضاً عددها ، وربما لم يتجاوز عدد عساكر الفرقة بمصر والأقاليم الشرقية ألف عسكري .

وتقرر أيضاً فصل المشاة عن الخيالة زمن قنسطنطين . وما أقامه قنسطنطين من جيش ثابت ، يتألف من فئتين من العساكر ، تختلفان في الوضع ، وتتفقان في الوظيفة ، ويعرفان باسم Comitatensis , palatini يقابلان ما هو معروف بالحرس ، وجيش الميدان . ويشمل كل منهما خيالة ورجالة ، وللخيالة الأفضلية على الرجالة ، وكل وحدة من الخيالة يبلغ عددها ٥٠٠ بقيادة التريبون ، ومعظمها ينتمي الى أصل متبربر . أما فرقة المشاه فتتألف من ألف من الرجال الأشداء ، وتألفت من سرايا جاءت من الحدود . والفرق المساعدة . وتألفت فرق الحرس من العساكر الجرمانية والغالية .

وخضع الجيش الثابت لقائدين ، أحدهما يختص بالمشاة والآخر يتولى قيادة الخيالة ، ثم اختفى بعد وفاة قسطنطين ما كان من التحديد بين القيادتين . وما قام به قسطنطين من اصلاح ، أدى الى تغيير كبير في طبيعة الجيش الروماني ، فلم يقتصر الأمر على تنـــاقص عدد جنود الحدود ، بل أصبحوا مجرد قوات محلية

للحراسة ، أما خيرةالعساكر فإنها اندمجت في صفوف الجيش الثابت .والملحوظ أيضاً أن الألمان (الجرمان) والايلليريين ، أضحوا يؤلفون صفوة الجيش الجديد. وكلما كان الجندي متبربراً ، زاد تقدير مكانته العسكرية ، والواقع أن هـــذا التقدير يرجع الى ما حدث في القرن الثالث من الحروب الأهليـــة ، واندلاع الطاعون ، وما تلى ذلك من تناقص عدد سكان الامبراطورية ، يضاف الى ذلك ما أدى إليه ابتزاز الأموال والاشتداد في جباية الضرائب من أثر فيما ساد بهامن الشقاء والبؤس وضعف حيوية الامبراطورية .

وسبق الإشارة الى اهتمام دقلديانوس بوسائل الدفاع عن الامبراطوريـــة . والواضح أن لم يكن بالطرف (الحـد) الشرقي حدود ثابتة ، فيما عدا ما تؤلفه صحراء الشام والصحراء العربية من حد طبيعي لأملاك الرومان . على أن دقلديانوس شيد معاقل وحصونا في المواضع ذات الأهميـــة الاستراتيجية ، على امتداد الطريق المؤدي من البتراء الى قرقيسياء على نهر الفرات ، مجتازاً بصرى وتدمر . وأقام دقلديانوس أيضاً مستودعات في الرها وانطاكية ودمشق لسد حاجة الجيش والحاميات العسكرية .

ومع أن إنشاء الجيش الثابت ، زمن قسطنطين أدى إلى تضاؤل قيمة وعدد العساكر على الحدود ، فإنه لم يغفل وسائل الدفاع ، واختص منطقــة الدانوب باهتمامه واصلاحه ، بأن شيد الحصون والجسور والأسوار ، التي أفادت في رد القوط .

٤ – الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية

شهد القرن السابق على تولية دقلديانوس العرش المراحل المبكرة ، لما حدث رويداً رويداً من تداعي الاستقلال المحلي (حكومــة المدن) وتدهور الحرية الشخصية داخل الامبراطورية الرومانية . إذ أسهم في انهيار النظام المـالي

للأمبراطورية ، ما جرى من التنافس على الوصول الى العرش واغتصاب الحكم والحروب الخارجية واندلاع الطاعون والمجاعة ، فضلاً عما كان يؤدي للعساكر والمحظوظين من رواتب .

ولكي تعالج الحكومة ما تناقص من موارد الدولة ، لجأت الى سياسة السخرة والخدمة الاجبارية . إذ تقرر استدعاء أهل المدن والقرى على السواء ، لتأدية ما تحتاجه الدولة من خدمات نقدية وشخصية. وجرت التضحية بالمصالح المحلية والشخصية ، لسد حاجات الدولة بالغة الأهمية . فأضحت المواطنة مرادفة للعبودية والاسترقاق . وزاد الأمر سوء أنه لم يكن للطلب والعرض نظام ثابت . فالحاجيات تفرضها الأحوال والظروف ، ولم تكن طبيعتها ثابتة أو محددة ، وكذا شأن الوقت الذي تطلب فيه . ولم يكن بوسع دقلديانوس وأخلافه وقف هذه النزعات التي سادت في القرن الثالث ، إلا بالمبادرة الى فرض سيطرة الدولة على الفرد . ففي ظل الحكومة الاستبدادية التي أقاموها تحددت الالتزامات المطلوبة من الرعايا ، واتخذت صورة واحدة جامدة. إذ انتظم السكان في طبقات وفقاً لمهنهم ، فأضحت عضوية هذه الطبقات وراثية واجبارية ، وتحددت لكل طبقة واجباتها . وبذا صارت خدمة الحكومة أمراً مقرراً ، بعد أن كانت تجري في صور مختلفة . واذا كان هذا النظام أهدر الحرية الشخصية ،فإن رعايا الامبراطورية ، أدركوا على الأقل أن شروط عبوديتهم قد تحددت .

إصلاح النقد

جرى كثير من أباطرة القرن الثالث على اتخاذ سياسة التضخم النقدي ، لتسهم فيما تراءى من رخاء مصطنع. وبلغت هذه السياسة ذروتها زمن الامبراطور جاللينوس (٢٥٣ — ٢٦٨) حينما أصدر مرسوماً باحلال النحاس مكان الفضة

الخالصة . وترتب على ذلك ان ازداد ارتفاع الأسعار . ونظراً لأنه لم يكن للرسوم الجمركية أساس متين ، فقد تعرضت التجارة والصناعة للدمار . ولم يحرز إوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥) الا نجاحاً جزئياً في المحاولات التي قام بها لوقف تدهور قيمة النقد ، إذ أدرك أن النقد الذي يغلب فيه النحاس لن يعيد الثقة لعالم التجارة . أو يوقف ارتفاع الأسعار .

والميزة الكبيرة لاصلاح دقلديانوس ، الذي صار نموذجاً لأخلافه هو أنه أعاد من جديد اصدار نقد نقي من الفضة والذهب ، فصار النقد الذهبي يساوي ١ من الليرة الذهبية ، بينما صار النقد الفضي الجديد argenleus يطابق في كل شيء ما عدا الاسم ، ما كان معروفاً زمن نيرون باسم denarius ويساوي $\frac{١}{٩٦}$ من الليرة الذهبية .

ولجأ دقلديانوس أيضاً الى اتخاذ سياسة أسلافه في سك العملات الصغيرة في ثلاث فئات : الفئة الأولى وهي المعروفة بالفلسfollis وهي أثقلها وزناً . وتزن ١٥٠ حبة . أما الفئة الثانية فكان وزن الواحدة منها ستين حبة . وتزن الفئة الثالثة عشرين حبة .

وعلى الرغم من ان دقلديانوس خفض عملة أوريليان الى نحو الربع من قيمتها الأصلية ، فإن عملته البزونزية كانت من الارتفاع في القيمة ما يزيد على ما هو مقرر لها . على أن العالم التجاري رفض قيمة هذه العملات . ولذا ارتفعت الأسعار من جديد .

وفي سنة ٣٠١ أصدر الامبراطور دقلديانوس مرسومه الشهير الذي يقضي بتثبيت الاسعار التي لا تتجاوزها مبيعات السلع . وحدد القانون الحد الأقصى لأسعار السلع التجارية ، والأجور ، والمرتبات على أساس Denarius

الذي يعتبر أصغر وحـــدة في النقود ، والذي تحددت قيمته بما يساوي $\frac{١}{٥٠,٠٠٠}$ (من الليرة الذهبية) .وورردفيمقدمةمرسومالسعرالرسميشرح الدواعي التي أدت الى جعل حد أقصى للأسعار . إذ جرت الإشارة الى الشره الشديد ، دون التفكير فيمصلحة الناس ، لتعجلالربح وازدياد الملكية ، في أقصروقت. وهذه الشهوة الجامحة للربح ، لم يلطف من قسوتها المؤن الوفيرة ، أو السنوات المثمرة . وفوق كل ذلك ، تأثر الجيش بهذا النهم والشره . إذ ترتب على الارتفاع الشديد للأسعار أن العسكري عند شرائه سلعة من السلع ، سوفيفقد مرتبه وما يحصلعليه من أجرإضافي ، وأن كل ما يسهم به العالملمساندةالجيوش، صار غنيمة للصوص ، وكأنالعساكر بذلوا بأنفسهم لهؤلاء المستغلين كلما كانوا يأملونه من خدمتهم ، وما قاموا به من أعمال ، مع ما يترتب على ذلك ، من أن أولئك الذين ينهبون الأمة يختزنون دائماً من السلع ما يزيد على حاجتهم .

ويقرر المرسوم، أنه بناء علىهذه الاعتبارات، لا بد للحكومة أن تتدخل، لإقرار العدالة لصالح الجميع . فينبغي مراعاة الأسعار الواردة بالقوائم في جميع أنحاء الأمبراطورية . أما المشترون والبائعون الذين درجوا على السفر إلى الموانى والأقاليم الأجنبية ، فانهم سوف يجدون في هذا المرسوم إنذاراً وتحذيراً ، حتى يدركوا أيضاً أنه لا داعي مطلقاً ، في زمن ارتفاع الأسعار ، لأن يتجاوزوا ما تقرر من حد أقصى للأسعار، بما انطوى عليهايضاًمن تحديد موضع المكان ، أو تقدير نفقات النقل ، وتتضح عدالة مرسومنا ، بما قضى به من منع أولئك الذين ينقلون المتاجر لبيعها في أماكن أخرى بأسعار مرتفعة .

ونظراً لأن الخوف يعتبر دائماً أقوى وازع ،وأشد رادع في تأدية الواجب، فإن كل من يقاوم هذه اللائحة الواردة في هذا القانون ، فسوف يتعرض لعقوبة الإعدام ، بسبب جرأته وتطاوله . ويتعرض لهذه العقوبة أيضاً كل من يتواطأ

مع البائع الشره على مناهضة القانون ، وذلك لحرصه على أن يشتري ما يريده من السلع . ولم ينج من هذه العقوبة ، أولئك الذين يحوزون ضروريات الحياة والتجارة ، ويقومون بسحبها من السوق ، لاعتقادهم أن ذلك يجعلهم يفلتون من قيود لائحة الأسعار . ولذا أهاب دقلديانوس بكل الناس بأن يراعوا عن طيب خاطر ، وأن يدركوا هيبة الله ، القانون الذي صدر للمصلحة العامة. فكل من يقترف جرماً إزاء ما وضع للحياة من نظام إلهي وامبراطوري ، سوف يضحي بحياته .

والواضح أن قانون الأسعار الذي أصدره دقلديانوس كان بعيداً عن الحياة الواقعية ، إذ أن الحد الأقصى للسعر كان واحداً في كل أنحاء الأمبراطورية الرومانية ، في جميع الأماكن والأزمنة ، في الشراء جملة وإفراداً .

ولما لم يحقق هذا القانون الغاية التي كان يهدف اليها دقلديانوس ، لم يسعه إلا أن يسحب . ومع ذلك فإن محاولته لمنع الاستغلال ، الذي يسّره ما حدث من تغيير مفاجىء في النقد ، تستحق شيئاً من التقدير .

ولم تلبث قيمة الفلس أن انخفضت بعد أن تخلى دقلديانوس عن الحكم . ولما أنقسمت الأمبراطورية بين ليسينيوس وقنسطنطين سنة ٣١٢ ، حدث اختلاف بين نقدي كل من الشطرين الشرقي والغربي للأمبراطورية. فبينما استمر ليسينيوس في سك نقد دقلديانوس ، من الذهب والفضة ، أدخل قنسطنطين نظاماً جديداً ، لم يلبث أن ذاع في كل أنحاء الأمبراطورية ، بعد سنة ٣٢٤ . فالنقد الذهبي الجديد الذي سكّه قنسطنطين ، واسمه الصولد solidus كان أخف وزناً من النقد السابق على دقلديانوس ، وهو المعروف باسم aureus ، ويقدر قيمته بنحو $\frac{١}{٧٢}$ من الليرة الذهبية ، وحل مكان النقد الفضي نقد آخر اسمه Siliqua

يساوي $\frac{1}{24}$ من الصولد ، أمـــا المليارنز miliarense فكل ١٤ منها تساوي صولداً ، بينما صار الفلس مساوياً لعُشْر السيلكوا .

ويتضح من ذلك أن قنسطنطين أحل عملة برونزية واحدة مكان ثلاثة أنواع منها ، سكـتّها دقلديانوس ، وحاول منع انخفاضها نتيجة ارتفاع الأسعار ، بأن خفض الخمس من قيمتها .

ولتوطيد هذا النقد وتدعيمه ، كان لا بد من توفير مقادير كبيرة من المعادن النفيسة ، وتحقق ذلك بسحب النقود الذهبية التي لا زالت وقتذاك متداولة ، ثم أمر بإعادة سكـتّها ، يضاف إلى ذلك ما حدث من استخراج كميات إضافية من المعادن من مناجـــم أرمينيا ، بعد أن صارت في حوزة الأمبراطوريـــة الرومانية زمن دقلديانوس ، وما جرى من إذابة الحلى الذهبية ، والإستيلاء على ما بالمعابد الوثنية بعد إغلاقها من التحف الذهبية .

وما كان للأباطرة من سيطرة شديدة على النقد يعتبر من خصائص سياستهم العامة ، فقد أضحت دور سك النقود في جميع أنحاء الأمبراطورية ملكاً للدولة ، فاختفت بذلك الصعوبات التي كانت تعوق تبـادل النقد ، وتوافرت الكميات الكبيرة من النقود ، دون الحاجة إلى نفقات نقلها .

وحظى نقد قنسطنطين الذهبي بسمعة عالمية ، في العالم الخارجي ، وتوافرت الحرية لتداول الصولد ، وأضحى عيار النقد الروماني مقبولاً ، وذلك راجع إلى ما يحتويه النقد من الذهب ، وإلى الانتصارات التي أعادت مجد الرومان القديم.

الضرائب

ما حدث من زيادة عدد الجيش ، وعدد موظفي الحكومـــة ، اقتضى من النفقات الاضافية ، ما لم يكن بوسع موارد الأمبراطورية مواجهتها ، ولا سيما

بعد اضطراد انهيار قيمتها ، نتيجة للانخفاض المستمر لقيمة النقد . وما اتخذه دقلديانوس من سياسة التعمير والبناء زاد من تداعي الميزان الحسابي .

وكيما يتم إصلاح الخلل من الميزان الحسابي للميزانية، الذي سببه انخفاض قيمة النقد وما ارتبط به من ارتفاع النفقات العامة، أدخل دقلديانوس خطته الجديدة لفرض الضرائب. وكان أساسها هو إحلال الضريبة العينية المعروفة باسم annona مكان الضريبة النقدية (١) .

ومن أجل تقدير الضريبة المقررة على الملكية ، تقرر وضع نظام عرف باسم capitatio (ضريبة الرأس) . ذلك أن كل الأراضي المنتجة بالأمبراطورية وما يرتبط بها من العمل ، انقسمت من الناحية النظرية إلى وحدات متساوية ، أشتهرت باسم capita . فأضحت لفظة caput يقصد بها إما مساحة الأرض أو العمل الذي يؤدى عليها ، من قبل الناس والدواب ، فضلاً عن اعتبارها ضريبة تؤدى عن الأرض ذاتها . غير أنه لدواعي التيسير ، صار مألوفاً قصر اصطلاح caput على الكائنات الحية ، بينما جرى إطلاق مصطلح آخر jugum على الأرض . وبذا صار التقدير يقوم على الأرض juga ، والعمل capita . وتقرر فرض ضريبة مستقلة على كل من الفئتين وتحصيلها . وهاتان الضريبتان لا تطابقان تماماً ما هو معروف بضريبة الأرض ، والضريبة الشخصية . إذ لم تكن وحدات الأرض متساوية في المساحة ، ولم يكن المقصود من ضريبة الرأس ، أنها لشخص معين . فالأساس الذي حدد حجم وحدة الأرض الضريبية

(١) لم يكن هذا النوع من الضرائب جديداً . ففي الزمن السابق على عصر دقلديانوس، حينما لم تكن الضرائب الدائمة كافية، كانت المطالب الخاصة يجري تسويتها بمقتضى ما يصدره الأمبراطور من قرار indictio ، وكانت تسمى annonae ، وبذا قضى اصلاح دقلديانوس بتحويل ما كان يعتبر ضريبة استثنائية ، الى ضريبة دائمة. وأضحى القرار الأمبراطوري نظاماً ثابتاً، لم يلبث ان صار يستخدم أساساً لتاريخ إعادة التقدير . حيث أن الملكية الخاضعة للضريبة الأمبراطورية كان يجري اعادة تقديرها في دورات ، كل منها تشمل خمس سنوات ، ثم صارت خمس عشرة سنة .

jugum ، هو صفة الأرض وطبيعتها من حيث القدرة على الانتاج ، بينما قامت ضريبة الرأس على أساس كفاية العمل بأنوعه المختلفة . وبـــذا جرى تقدير الضريبتين على أساس القيمة الإنتاجية التي يمثلهـا juga ، capita . ولتفسير ذلك نورد الأمثلة التالية : إذا انقسمت الأرض إلى فئات مختلفة ، كأن تكون أرضاً زراعيـــة ، أو أرض كروم ، أو أحراش زيتون ، وانقسمت الارض الزراعية أيضاً إلى ثلاث طبقات وفقاً لطبيعة التربة ، وبذا أختلفت juga في المساحة مع طبيعة الارض . ففي الشطر الشرقي للامبراطورية أضحت jugum الواحدة ، تساوي خمس وحدات من أرض الكروم ، وتعادل عشرين وحدة من الفئة الأولى لأرض الزراعة ، أو ٤٠ من الفئة الثانية للأراضي الزراعية ، أو ٦٠ من الفئة الثالثة للأراضي الزاعية ، وجرى أيضاً تقسيم أرض الزيتون إلى فئات مماثلة . وهذا المبدأ أيضاً تقرر الأخذ به فيما يتعلق بضريبة الرأس . فبينما يعتبر عمل الرجل مساوياً للرأس الكامل caput ، كان عمل المرأة يقدر بنصف عمل الرجل من ناحية القيمة . ومن الطبيعي أن عمل الحيوان يأتي في مرحـــلة أدنى من ذلك . ومع أن العيوب تطرقت إلى هذا النظام، فإن الغرض من مبدأ التقييم ،هو أن يكون عادلاً، إذ أن النوعين من الضريبة ليسا إلا جزئين من خطة شاملة .

على أن ما حدث زمن خلفاء دقلديانوس من الإجراءات لم تلق مـــا كانت تتوقعه من القبول والرضى ، إذ أن الوالي الكبير كان مسئولاً عن الضريبـــة العينية annona فحينما يصدر القرار الامبراطوري بتحديد مـــا يجبى من الضرائب سنوياً ، قام الوالي الكبير ومساعدوه بتوزيع مقدار الضريبـــة على الأقاليم ، وبتحديد الجهات التي تؤدي اليها .

والمعروف أن هذا التقدير تأثر بحاجات الامبراطورية مثل تحركات الجيوش، فترتب على ذلك أن أشتد العبء على مناطق عديـــدة ، دون مراعاة للعدالة .

يضاف إلى ذلك أنه إذا لم يكن المقدار المطلوب كافياً ، صدر قرار أمبراطوري إضافي ، بما هو مطلوب . وما هو أكثر خطورة ، مـــا يتعرض له إنتاج قطعة الارض من الهبوط ، أثناء الدورة الضريبية (خمس سنوات) ، أذ لا يجري شيء من المساحة . فيشتد عبء ذلك على الفـــلاح الصغير الذي لم يحز من الاراضي ما يكفي لتعويض خسارته .

وامتد الفساد إلى جباة الضرائب ، إذ أن ملاك الاراضي كانوا يساومون موظفي الحكومة ، على تحويل ما هو مقرر عليهم من ضريبة الأنونا (العينية) إلى ضريبة نقدية ، وهذا الإجراء اعترف به القانون فيما بعـد ، وهو المعروف باسم adaeratio . وإذا استطاع الأغنياء أن يبذلوا الرشوة لمقدري الضرائب وجباتها ، كيما يغفلوا المقررات التي التزموا بها ، لم يكن لدى الفقراء من النقود والوسائل ما يجعلهم يفلتون من الضريبة المقررة .

وبمقتضى نظام دقلديانوس ، كان لسكان المدن معاملة خاصة ، إذ لم يكن لهم ملكية حقيقية ، وفي سنة ٣١٨ ، تقرر إعفاء المدن نهائياً من ضريبة الرأس التي فرضها جاليريوس .

وزاد قنسطنطين في الضرائب المقررة ، نظراً لكثرة نفقات الامبراطور ، وما يبذل للجيش من منح وعطايا ، فاقتضى ذلك فرض ضرائب نقدية بالإضافة إلى الضرائب النوعية ، وهذه الضرائب الجديدة تحملهـــا السناتوريون من ملاك الأراضي وسكان المـدن . ثم قرر قنسطنطين فرض ضريبة على أرباب الحرف ، وتعرف باسم lustralis collatio ، وكانت تؤدي بالنقد الذهبي ، كل خمس سنوات ، في التاريخ المحدد لتوزيع المنح على الجيش . وجرى التوسع في تفسير الحرف ، حتى أصبحت تشمل الخواطي (العاهرات) والفلاحين الذين يجلبون بضاعتهم إلى سوق المدينة .

السخرة ، الخدمة الاجبارية

تطلب نظام الضرائب الذي أدخله دقلديانوس ، وتطور زمن قسطنطين، تقسيم السكان إلى طبقات ، تعتبر كل منها مسئولة عن تأدية خدمات والتزامات خاصة. إذ صار لحاجات الدولة وطلباتها الأسبقية والأفضلية على سائر المطالب في كل البلاد . فخضع كل من السناتور والقن (الفلاح) لما فرضته عليه الدولة من واجبات عامة ، لها الأسبقية على المصالح الخاصة فما كان معروفاً زمن principate من مبدأ الخدمة عن طريق التطوع ، تحول إلى نظام إجباري ، وليس للفرد إلا اختيار محدود للمهنة التي يريدها . وإذ خضع ما للشخص من استقلال سياسي ، للسلطة الاستبدادية للأمبراطور وموظفيه ، جرى أيضاً التضحية بالحرية الاقتصادية لتحقيق مطالب الدولة الملحة ، وبذا طغت العبودية على الحرية ، وأضحت العلامة المميزة للمواطنة الرومانية .

والأساس الجوهري الذي يكفل النجاح لنظام دقلديانوس ، ارتبط بتصنيف دافعي الضرائب في فئات مختلفة . ولا بد أن يبقى عدد الوحدات التي تؤدي الضرائب ثابتاً ، حتى يتحقق مورد دائم للدخل من ضريبة الرأس وضريبة الأرض . وكيما يتوافر للدولة الخدمات الضرورية على وجه سليم ، لابد من انتظام عدد العاملين بها . ولتحقيق كل ذلك ، حرص الأباطرة على أن يلتزم كل شخص بمهنته ، أو أن يرث الابناء في هذه الحرفة ، وتقرر فرض عقوبات صارمة على المخالفين ، الذين انصرفوا إلى حياة أخرى . وبذا قام نظام طبقي بالأمبراطورية ، إذ أن نواب البلديات ، وأرباب السفن ، والعاملين بالضياع ، ورجال الدرك ، كل منهم ينتمي إلى طبقة خاصة ، يتوارث أفرادها العمل بها وألحق هذا التقسيم الضرر بالتجارة والحرف على السواء ، إذ قضى على الاحتكار ، وعلى الطموح والآمال . فأضحت الحياة عند كثير من رعايا الامبراطورية ، وضيعة وحقيرة، لأن الدولة انتزعت ثمرة جهودهم وساد الركود الأقتصادي ، والسخط

الاجتماعي في القرن الرابـع ، بعد أن اشتدت القيود المفروضة على حرية الأفراد، وتحكم الموظفين وتسلطهم .

والمعروف أنه حدث أثناء القرن الثالث ، أن أفادت الحكومة مما كان معروفاً بنقابة أرباب السفن naviculariiالتي تطوعت لنقل ما تحتاجه المدينة من المؤن ، فضلاً عن مؤن الجيش . وقرر قنسطنطين أن تكون عضوية طائفة أرباب السفن وراثية ، وامتد ذلك القرار إلى سائر النقـابات ، التي اختصت بتوريد المؤن للمدينة ، فتحتم على الخبازين والجزارين البقاء في نقاباتهم ، وتعرض المخالف منهم للعقوبة ، فضلاً عن عودته إلى مهنته .

ولعل نواب البلدية أكثر الفئات تحملاً للأعباء . إذ لم يقتصر الأمر على التزامهم بأن يؤدوا ما هو مقرر عليهم من ضرائب نوعيـة أو نقدية ، بل كانوا أيضاً مسئولين عن تحصيل ما هو مقرر من ضريبة الرؤوس على سكان مدنهم ، وعن تأدية الخدمات البلدية . وأصدر قنسطنطين قراراً بجعل هذه الوظيفة إجبارية وراثية ، ولذا جرت محاولات للافلات من هذه الوظيفة ، بأن يلتحق صاحبها بوظيفة عسكرية ، أو ينتظم في الجيش ، أو يصير راهباً أو قساً ، غير أنـه صدر من القرارات ما يوقف هذه المحاولات . ومع ذلك أضحى سناتو المدينة موحشاً مقفراً ، ووجه رجال الإدارة اهتمامهم في أواخر القرن الرابـع لتدبير النواب للبلدية .

وامتد مبدأ الوراثة أيضاً إلى الخدمة العسكرية وصار لزاماً على أبنـاء العساكر إما أن يسلكوا مهنة آبائهم ، وإما أن يصيروا نواباً في سناتو المدينة .

ولم يكن الفلاح الصغير بأحسن حالاً ، إذ سعى بكل الوسائل للتخلص من أعباء الضرائب الجديدة . فالمعروف أنه جرت عادة كبـار الملاك في عصر Principate على أن يبذلوا لصغار الحـائزين الأحرار ،أجزاء من أراضيهم ، لاستغلالها فترة قصيرة . ومع أن هؤلاء الحائزين الأحرار لم يرتبطوا بالأرض أو

بالمالك لها ، فالواقع أنهم كانوا من الناحية العملية يميلون للبقاء على هذه الضياع. ونصادف نوعاً آخر من الفلاحين (الأقنان) Coloni في الضياع الامبراطورية ولا سيما في أفريقية حيث تؤدي طبقة من الفلاحين الأحرار خراجاً ثابتاً للتاج ، وما بذلته لهم الحكومة من شروط مغرية حملهم على التعلق بالأراضي التي في حيازتهم ، وبذا نمت الجماعات القروية ونعمت بالرخــــاء . على أن الموظفين الامبراطوريين تطاولوا على حقوق الفلاحين (الاقنان) فتضاءل الاقبال على العمل بالضياع الامبراطورية في القرن الثالث ، وزاد من هــذه الروح القلقة ما فرضه دقلديانوس من ضريبة الرأس . على أن قسطنطين أجرى تغييراً في وضع الأقنان ، حتى لا يهجروا القرى ، إذ قرر ارتباط الأقنان بالأرض بصفة دائمة ، فأضحوا بذلك أرقاء فعلاً. ومع ان للاقنان الحرية في الانتقال من مزرعة إلى اخرى بإذن السيد ، فإنه ليس من حقهم ان يتركوا الضيعة . فإذا خالفوا هذه القاعدة ، وحاولوا الالتجاء إلى سيد آخر ، كان لزاماً على هــذا السيد الآخر ، ان يردهم إلى سيدهم الأول ، ويعتبر مسئولاً عن تأدية ما هو مستحق عليهم من ضريبة في الفترة التي خدموه اثناءها . وجــاز للقن ان يحوز متاعاً شخصياً ، ولكن لا يتنازل عنه لآخر إلا بموافقة سيده . ويخضع زواجه ايضاً لرضى السيد وموافقته .

وكان لزاماً على أبناء القن ان يظلوا بالأرض، حيث خضعوا للخدمة الوراثية، مثلما جرى لسائر المهن والحرف . على ان هذه القيود هيأت للمتبربرين من خارج الامبراطورية الفرصة لأن يرتقوا إلى اعلى المناصب في الدولة ، لأنهــم لم يتعرضوا لها .

وللمحافظة على هذا الطغيان والاستبداد الذي يمارسه الموظفون الإداريون ، والفئة المختارة من رجال الجيش، ومنهم المتبربرون الذي صارت لهم مكانة عالية، كان حتماً على السكان المدنيين ، بالمدن والقرى على السواء ، أن يؤدوا خدمات

شخصية وضرائب نقدية، وبذا تحقق قول الامبراطور سبتيموس سفيروس عند وفاته ، فليحظ بالثراء العساكر ، ولتحل الزراية ببقية العالم [١] .

غير أنه إذا كانت الامبراطورية قد نعمت زمن قنسطنطين بالراحة وتوقفت غارات المتبربرين والاضطرابات الداخلية ، فإن غالبية السكان فقدوا حريتهم الشخصية وأضاعوا معها شجاعتهم وآمالهم .

رابعاً – قنسطنطين والمسيحية

على الرغم من أن المسيحيين لم يكونوا،عندالمناداة بقنسطنطين أمبراطورا، سنة ٣٠٦ ، سوى أقلية صغيرة بين سكان الامبراطورية ، حرمهم الاضطهاد من الاشتراك في الوظائف والخدمات العامة بالدولة،وكانت ديانتهم بغيضة وقتذاك، فإن قنسطنطين حرص على أن يقيم مستقبل روما على هذه العقيدة ، وكان لذلك أكبر الاثر في تاريخ العالم .

والمعروف أن قنسطنطيوس كان ينتمي لاسرة هرقل الامبراطورية ، ولما خلفه ابنه قنسطنطين في الحكم ، ظل نحو أربع سنوات من حكمه مثلاً لهذه الاسرة ، غير أنه حرص، سنة ٣١٠، بعد وفاة مؤسس هذه الاسرة مكسيميان، على أن يذيع الرواية التي تشير إلى أنه ينحدر مباشرة ، عن طريق أبيه ، من كلوديوس جوثيكوس ، الذي حكم الامبراطورية بشطريهـا الشرقي والغربي ، فأضحت الشمس [٢] التي لا تقهر المعبود الذي يحمي الامبراطور ويرعاه .

على أن اعتناق إله الشمس لم يتعارض مع اعتقاد قنسطنطين في الإله هرقيل. وإذ تعلق قنسطنطين بعبادة الشمس ، كان جاليريوس الذي اشتد في اضطهاد

---

(١) Enrich the soldiers and despise the rest of the world .

(٢) المعروف أن عبادة الشمس كانت سائدة في ايلليريا موطن كلوديوس .

المسيحيين في الشرق يودع الدنيا . ولا بد أن مصير عدو المسيحية، كان له تأثير على تفكير قنسطنطين وعقليته،ويتضح ذلك من امتناع قنسطنطين عن الاضطهاد الديني في الشطر الغربي للأمبراطورية،ولعله فطن لقوة إله المسيحيين الخارقة على الارض؛ ولا سيما أن الاعتقاد في التدخل الالهي في كل شئون العالم كان أمراً مألوفاً وقتذاك . وما كان من رؤيتي قنسطنطين ،عن أنه سوف يقهر خصمه ماكسنتيوس في ظل لواء المسيح ، وأن ينقش على تروس عساكره اسم المسيح ، وذلك أثناء مضيه إلى روما لقتال خصمه، كل ذلك حمل قنسطنطين على الاعتقاد بأن المسيح سوف يهبه النصر. وخلّد المسيحيون والوثنيون سواء، الدور الذي قامت به القوة الخارقة في معركة ميلفيان ، وما ورد على قوس النصر في روما من عبارة Instincta dlvinitatis (تدخل القوى الالهية)، يصح أن يفسرها كل من المسيحيين والوثنيين لمصلحتهم . على أن قنسطنطين لم يتردد في اظهار إمتنانه للإله المسيحي ، بأن أصدر باعتباره الأمبراطور الأول،إلى مكسيمين امبراطور الشرق ، التعليمات بوقف اضطهاد المسيحي ، وكتب إلى نائبه بأفريقية ، يطلب إليه أن يعيد إلى الكنيسة الكاثوليكية املاكها المصادرة،وأن يعفى الاكليروس من الأعباء العامة (السخرة) وأجاز لأسقف قرطاجة Caecilianus ، أن يصدر الأوامر بتحصيل الاموال التي يوزعها على المسيحيين الكاثوليك بأفريقية ، وهذه الاجراءات دلّت على ما للمسيحية من أهمية في سعادة الأمبراطورية ووحدتها ، وبمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، جاز للمسيحيين والوثنيين على السواء ممارسة عقائدهم دون أن يتعرضوا للأذى . ثم تدخل قنسطنطين لازالة الانشقاق الذى أحدثه الدوناتيون [1] بافريقية ، لاعتقاده أن وحدة الكنيسة

---

(١) ينتمي الدوناتيون الى دوناتس النحوي ، ومنه اتخذت الحركة الدوناتية اسمها ومبادئها القائمة على وجوب تقديس الشهداء ، وانزال على اللعنة المرتدين عن المسيحية زمن الاضطهادات السابقة لعهد قنسطنطين . ثم اختلطت هذه الحركة ، التي ترجع الى أوائل القرن الرابع . بروح الانفصالية عن الأمبراطورية ، فاضحت نقمة الأباطرة منذ قنسطنطين حتى القرن الخامس حين زالت الدولة الرومانية من الغرب .

تعتبر تكليفاً خاصاً به من الله .

وشهدت السنوات الواقعة بين ٣٢٠،٣٢٣ تشريعات لصالح الكنيسة، إذ صار للأساقفة سلطات قضائية لها من القوة ما لسلطات القضاة المدنيين، فصاروا ينظرون في القضايا التي يتفق المتخاصمان على رفعها اليهم . وجاز للمواطنين أن يهبوا الاملاك للكنيسة، وتقرر الاعتراف بما يجري في الكنيسة من عتق الارقاء. وتقرر أيضاً الغاء العقوبات التي تفرض على العزوبة، وإعفاء المسيحيين من الاشتراك في تقديم القرابين في الاعياد الوثنية . على أن قنسطنطين أجاز، وفقاً لمرسوم ميلان، استمرار العقائد الدينية السابقة ونظمها الكهنوتية، واحتفظ لنفسه بلقب الكاهن الاعظم . وعلى الرغم من أن ما جرى سكه من النقود، تحمل الرسوم والنقوش، ما تشير إلى تحول قنسطنطين إلى المسيحية، فإن من النقود ما تحمل عبارات تدل على عبادة الشمس، إله أسرة فلافيوس التي ينحدر منها قنسطنطين، فكأنه لم يتخل بذلك عن الوثنية .

ومع ذلك، فان قنسطنطين أضحى مسيحياً، ولعله لم يفصح عن مسيحيته، لان المسيحيين لا زالوا حتى وقتذاك اقلية، بينما كانت الارستقراطية السناتورية ورجال الإدارة والعساكر، لا زالت تغلب بينهم الوثنية. ولذا اخفى قنسطنطين مسيحيته، ولم يفصح عنها إلا للمسيحيين من موظفيه، وفيما عدا ذلك جرى كل حديثه وفعله، في شيء من الالتباس والغموض . فلم يشر للمسيح إلا على أنه الإله الاعظم Supreme divinity . ولم يتنصر إلا على فراش الموت . وما اتخذه من لقب الكاهن الاعظم، لم يستخدمه إلا في روما، ولم يظهر بالقسطنطينية . ومن مزايا العاصمة الجديدة (القسطنطينية)، أنه تيسر له منها أن يقطع صلته بالتقاليد الدينية في روما الوثنية .

وسواء كان قنسطنطين خادماً للمسيح أو كاهناً أعظم، فانه اعتقد أن له من الحق وعليه من المسئولية، ما يوجب على الكنيسة المسيحية أن تسلك طريق

المسالمة والتزام النظام. فالمعروف ان من حقوق الامبراطور في الدولة الرومانية، الإشراف على الديانة وتوجيهها. واعتقد قنسطنطين أنه إذا كان الله قد عهد إليه بإدارة الامور الدنيوية، فسوف يتعرض لعقابه إذا لم ينفذ القوانين الالهية، فعليه أن يسهم في اقرار وحدة الكنيسة.

على أنه كيف يتسنى له ذلك، وقد زخرت الكنيسة بالمنازعات والاختلافات، ومنها مشكلة الدوناتيين التي جذبت انتباهه بعد ستة شهور مضت على انتصاره في جسر ميلفيان سنة ٣١٢. وإذ أصر الدوناتيون على رفض ما جرى عرضه من تسويات وحلول، لم يلبثوا أن تساءلوا (٣١٦ م) ما الذي يحمل الامبراطورية على التدخل في أمر الكنيسة، وعندئذ ردّ قنسطنطين بأن امر بنفي زعمائهم ومصادرة كنائسهم.

وما ينطوي عليه هذا الاتجاه نحو الكنيسة، ازداد ظهوراً في مشكلة الاريوسية، التي انبعثت في سنة ٣٢٣، وكانت بالغة الاهمية في العالم المسيحي باسره، نظراً لانها تناولت اساس العقيدة المسيحية، وهو الوهية المسيح.

كان اريوس، احد القساوسة بالاسكندرية، التي لا زال للفلسفة بها مكانتها واهميتها في البحث والمناظرة، وما دعا إليه اريوس من نظرية اثارت الجدل والنقاش. قال اريوس بخلق الابن، وخلق الروح القدس، فأنكر بذلك الوهية المسيح[1]. غير أن اسقف الاسكندرية أنكر هذه الآراء، فقرر قطع اريوس من الكنيسه، ولم يسع اريوس إلا ان يهرب إلى فلسطين، ومنها إلى نيقوميديا، فأثار الفتنة بين اولئك الذين يحقدون على اسقف الاسكندرية، وسلطته،

---

(١) أشار أريوس الى أنه اذا كان المسيح ابن الله، فلا بد أن يكون أصغر من الله، وبذا يكون اقل شأنا من الله. واذا كان من صفات الله الخلود، الذي لا أول له ولا آخرة، فليس المسيح خالدا. لأن له بداية، ولذا فليس إلهاً.

واستطاع أن يحصل من مجامع للأساقفة على قرارات تبطل قرارات اسقف الاسكندرية . على ان اريوس مضى إلى اكثر من ذلك ، فصاغ من آرائه نشيداً تغنى به البحّارة واصحاب الحوانيت فذاعت آراؤه في طول البلاد وعرضها ، وبين طبقات المجتمع .

كان هذا الموقف هو الذي صادفه قنسطنطين بعد أن أصبح امبراطورا على الشرق والغرب ، فلم يكد ينتهي من توحيد الأمبراطورية الرومانية بما بذله من جهود مضنية، حتى واجه ما تعرضت له الكنيسة من انشقاق . والواضح أن الموقف أضحى بالغ الخطورة ، وعلى الرغم من أنه لم يفهم أهمية موضوع المشكلة، إذ قال إن المشكلة اللاهوتية التي أثارت النقاش ، ينبغي ألا تكون موطن سؤال وجواب ، فانه كان شديد الإدراك والاحساس بأنه من السهل أن يؤدي النزاع الديني إلى الاضطراب الداخلي ، وإلى الحرب أيضاً . وكان يخشى غضب الله عليه ، إذا لم يعد الوحدة إلى الكنيسة .

على أن معظم الكنائس بالشرق اشتركت فعلاً في هذه المشكلة ، فما انعقد بالاسكندرية وانطاكية من مجامع كنسية أدانت أريوس ، بينما سانده ما انعقد من المجامع في نيقوميديا وقيسارية . ولفرض قرار نهائي على الكنيسة ، كان لا بد لسلطة محايدة أن تدعو إلى انعقاد مجمع لكل الكنيسة ؛ في موضع يقبله الجانبان .

مجمع نيقية سنة ٣٢٥

تولى قنسطنطين نفسه الدعوة إلى انعقاد مجمع عام في نيقية ، شهده نحو ٣١٨ أسقفاً ، جاءوا من جميع أنحاء الأمبراطورية ، وهيأت لهم السلطات الأمبراطورية أسباب الانتقال والسفر الى مقر المجمع . وجاء مندوبون

عن أسقف روما ، واختار قنسطنطين هوزيوس الاسباني ، اسقف قرطبة مستشاراً دينياً له .

وقام قنسطنطين بدور هام في هذا المجمع ، إذ أنه لم يكن فحسب هو الداعي لإنعقاده ، بل تولى رياسته ، على الرغم من أنه لم يتنصر بعد ، ودلّ على تواضعه انه رفض أن يجلس في مقعده إلا بعد أن سمح له الأساقفة الحاضرون بذلك ، غير أنه وجه الحديث إليهم باللغة اللاتينية التي كانت اللغة الرسمية للأمبراطورية، على حين أن اللغة اليونانية كانت لغة الكنيسة . يضاف إلى ذلك أن ما كان لمساندته وتأييده من سلطة ، حملت المجمع على قبول الصيغة المعروفة homo - ousion ، التي تعتبر المسيح مساويا للأب في الجوهر، فهو إله من إله ، ونور من نور ، وإله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق . وكان الأمبراطور هو الذي أعلن أن كل من لا يقبل هذا المذهب ، ينبغي نفيه .

ولم يرفض هذا القرار من الحاضرين إلا اسقفان فقط ، وتراءى كأن المجمع أصاب نجاحاً باهراً . ومع ذلك فأنه لم يوفق في اعادة السلام الى الكنيسة ، فلم يقبل الاريوسيون قرار هذا المجمع ، بل انهم التمسوا كل وسيلة للتآمر عليه ، إذ كان لهم أصدقاء بالبلاط ، فاستطاعوا أن يقنعوا قنسطنطين بأنه لن يعود السلام إلى الكنيسة ، ما لم يرجع اريوس إلى حظيرتها . وقرر الأمبراطور قنسطنطين أن يعود أريوس إلى الكنيسة بعد أن أعلن بأنه شديد التعلق بايمان الكنيسة . على أن أريوس مات قبل أن يجري العفو عنه .

على أن وجه الأهمية في موقف قنسطنطين من مجمع نيقية ، هو ما كان للأمبراطور من اتجاه نحو الكنيسة . إذ قام بدور كبير في أهم مجمع عام للكنيسة، برغم أنه لم يتنصر ، وهو الذي وضع الصيغة اللاهوتية ، التي حاول بعدئذ تدميرها ، ثم دعا الى عقد مجامع أخرى لإقرار اتجاهاته المتعارضة . فلقد نعت

نفسه بأنه « سوى للرّسل » . غير انه وجـه كل اهتمامه إلى تحقيق الوحـدة الدينية ، لاصدق الديانات .

لم يكن بين الكنيسة والأمبراطورية اختلاف في الهـدف ،إنما كان الاختلاف في الوسائـل . فكلتا الكنيسة والامبراطورية تطلبان الوحـدة المسيحية . غير أن الكنيسة اعتقدت أن الوحدة لن تتحقق إلا باتخاذ وسائل دينية ، بينما اعتقد الأباطرة أن الأمبراطورية المتحدة هي خـير وسيلة للعبادة السليمة . على ان الوفاق بين الكنيسة والأمبراطورية إنمـا يقوم على ما تتخذه كل منهما من وسائل لتحقيق الغرض المشترك ، وهو الوحـدة المسيحية ، غير أن هـذا يتطلب تحديد دائرة النفوذ لكل من الكنيسة والأمبراطورية . وأعرب هوزيوس أسقف قرطبة (وقد وقف على الآراء المتباينة في مجمع نيقية) في رسالة وجهها إلى قنسطنطيوس بن قنسطنطين في سنة ٣٥٥ عن الفكرة التي اصبحت عامة جاء فيها :

«لا تتدخل في الأمور الكنسية ، ولا تصدر لنا الاوامر عن هذه المسائل ، بل ينبغي أن تتعرف عليها منا ، اذ أن الله جعل بيديك المملكة ، بينما عهـد الينا بأمور الكنيسة . فاذا أقبل أحـد على أن يسلبك الامبراطورية ، فانه بذلك يعارض أمر الله ، أما من جهتك فينبغي الا تجر على نفسك جريمة ارتكاب ذنب خطير ، بأن تسعى لان تتولى حكومـة الكنيسة . فلتعط لقيصر ما لقيصر ، ولتجعل لله ما لله . فلا يجوز لنا ان نباشر سلطة دنيوية ، وليس لك ايها الامبراطور الحق في ان تحرق البخور . »

والواضح ان هذا التقسيم بين السلطتين الروحية والزمنية ، يعتبر من نتائج تحول الامبراطورية الى المسيحية . فلم تظهر المشكلة في الامبراطورية الوثنية ، لان الامبراطورية كانت في حد ذاتها ديانة ؛ وكل امبراطور كان معبوداً قوياً . غير أن المسيحيين لا يقدسون الدولة لذاتها ؛ إنما ارادوا ان يحولوها إلى ما هو

اكبر من ذلك؛ وإلى ما هو اشد قداسة؛ حتى تهبط مملكة الله على الارض .ويعتبر تاريخ العصور الوسطى الى حد كبير ، محاولة من قبل الكنيسة لتكريس الدولة ، وجعلها مقبولة عند الله . ويعتبر ايضاً سجلا لفشل هذه المحاولة ، لما كان من الاختلاف بين الكنيسة والدولة ، على تحديد ما لكل من قيصر والله من حقوق .

وفي تلك الاثناء ، ظهر من الادلة ما يشير إلى حماس قنسطنين في التبشير للمسيحية ، ففي سنة ٣٢٥ ، اختفى من العملة العبارة التي تشير إلى عبادة الشمس ، وحل مكانها رسم المسيح . ومع أنه لم يجر تدمير المعابد الوثنية ، إلا أنه تقرر منع إقامة تماثيل للأصنام في هذه المعابد . على أنه لأسباب خلقية ، تقرر إغلاق المعابد في بعض الجهات بالأمبراطورية . وبينما لم تنفق الأموال العامة في عمارة المعابد والمشاهد الوثنية ،ازداد الاهتمام بتشييد الكنائس المسيحية في سائر أنحاء الأمبراطورية .

وفي سنة ٣٢٦ ارتحلت إلى الأراضي المقدسة ، هيلينا والدة الأمبراطور قنسطنطين، وتم تشييد كنائس من المواضع المرتبطة بحياة المسيح ، في بيت لحم، وجلجلته ، وجبل الزيتون ،وجرى اكتشاف الصليب المقدس.

إنشاء القسطنطينية

على أن أهم من كل ذلك ، ما كان من إنشاء مدينة القسطنطينية واتخاذها عاصمة مسيحية للامبراطورية . والمعروف ان الموقع الذي اختاره قنسطنطين ، كان مدينة يونانية اسمها بيزنطة Byzantium التي كانت مستعمرة يونانية قديمة ، أنشأها الميجاريون سنة ٦٥٢ قبل الميلاد، كما يمارسوا تجارة الحبوب مع جنوب روسيا ، والمعادن بحوض البحر الاسود ، فضلا عن مصايد البوسفور . وتوالى على هذه المدينة النوائب والكوارث العديدة ، حتى اصابها آخر الامر من

التدمير على يد الامبراطور سبتيموس سفيروس ، مـا جعلها سنة ٣٢٥ لا تزيد على قرية للصيادين . ووقع اختيار قنسطنطين على هذا الموضع ، بعد أن حـاول إقامة عاصمته ، روما الجديدة في موضع طراوده .

قامت بيزنطة على رأس ناتىء في البحر ، عند اول فجوة داخله في ساحـل البوسفور الأوربي ، امتدت نحو عشرة كيلومترات ، وهي التي تعرف بالقرن الذهبي ، وهذا النتوء يشبه المثلث ، يواجه رأسه آسيا ، ويطل جانباه على القرن الذهبي وبحر مرمرة ، بينما يحمي جانبه الثالث سور قوي ، لا تتحكم فيه مرتفعات مجاورة . وما يقام على هذا النتوء البحري من مدينة ، لا تنعم فحسب بمرفـأ طبيعي ترسو به في أمان السفن الضخمة ، بل إن البحر يكفل لها أيضاً الحماية من جميع النواحي إلا جهة واحدة . وكل ما يتراءى من عيوب ، يتمثل فيما يهب عليها من رياح شمالية شديدة البرودة في الشتاء ، وتعرقل ، مع تيار البوسفور ، وصول السفن إلى القرن الذهبي . على أن ذلك لم يؤثر كثيراً في أهميتها التجارية بين آسيا واوروبا ، وبين البحر الاسود والبحر المتوسط . وادرك الأباطرة الرومان ما لها من اهمية استراتيجية وإدارية .

وتولى قنسطنطين نفسه وضع تصميمها على ان تكون مدينـة ضخمة ، وذلك سنة ٣٢٥ . وتشير الرواية المسيحية إلى ان قنسطنطين هـو الذي خط بنفسه حدودها ، وقد امسك بيده حربته ، واخذ يطوف بها مهتديا ببصيرة سماوية . واستخدم نحو اربعين الف من القوط المعاهدين في اعمال البناء ، وجرى التنقيب في سائر بـلاد اليونان للحصول على الآثار الفنية ، كالعمود الذي على هيئـة ثعبان ، والذي يبلغ عمره ثمانمائة سنة ، وجاءوا به من دلفي [١] ، كيما يجعـل لروما الجديدة ، ما لروما القديمة ، من المظهر ما هي جديرة به ، بأن تكون حاضرة العالم القديم واستمر البناء والتعمير نحو خمس سنوات ، وتم الاحتفال بتدشينها في مايو سنة ٣٣٠ .

---

(١) الواقع أن معظم المنشئات الفنية الوثنية كان يقصد بها تجميل المدينة .

والواقع ان روما الجديدة ليست إلا صورة لروما القديمة ، فقد كان بها ميدان السباق وحزبا الخضر والزرق ، وتلالها السبع ، والسوق ، والسناتو ومستشارها ووالي المدينة . والملحوظ ان المدينتين لا زالتا تقعان في امبراطورية واحدة ، وكان لكل منهما قنصل يجري اختياره كل سنة .

وما بين المدينتين القديمة والجديدة من التشابه جرى الحرص عليه وتأكيده، لأن قنسطنطين لم يكن يقصد أن يتخذ هذه المدينة عاصمة لأمبراطورية جديدة إذ ليست إلا عاصمة جديدة للامبراطورية القديمة ومع ان المؤرخين رأوا من قبيل التيسير أن يطلقوا على الشطر الشرقي للامبراطورية ، الذي لم يقع في أيدي المتبربرين ، والذي بقي حتى سنة ١٤٥٣ ، اسم الدولة البيزنطية ، فإن سكان عاصمة قنسطنطين الذين يتحدثون اليونانية كانوا يعرفون بالروم، وتعرف بلادهم ببلاد الروم ، واشتهرت كنيستهم حتى اليوم باسم كنيسة الروم الارثوذكس .

على أنه كان بين روما الجديدة وروما القديمة من الاختلاف ما يتمثل في أنه لم يكن بروما الجديدة تقاليد وثنية ، والمفروض ألا يكون بها معابد وثنية باعتبارها مدينة مسيحية منذ البداية . كما أنها لم تحز ما اشتهرت به روما القديمة من التقاليد الجمهورية. فالقصر الأمبراطوري كان من أهم مظاهر روما الجديدة ، وجرى تصميمه على أنه يثير الخوف والرهبة . وفي القرنين الأول والثاني كان أباطرة الرومان يعتزون بأنهم ليسوا إلا مواطنين اوائل بروما ، غير أنه منذ القرن الثالث ، أخذوا يجعلون للامبراطورية صفة شرقية فأخذوا يظهرون في المجتمعات ، وقد اتخذوا التاج المرصع بالجواهر ، وارتدوا الثياب الفاخرة المطرزة بالذهب. واشتد تحفظهم في استقبال الناس ،ومن يحظى بالمثول امامهم ، لا بد أن يركع امام اقدامهم . ونزع الأباطرة امثال دقلديانوس إلى ان يعيشوا بعيداً عن العاصمة، في بعض الأماكن مثل نيقوميديا ، فلما قامت روما الجديدة، عاد البلاط الى العاصمة .

على أن اكبر اختلاف بينروما وروما الجديدة،أنه كان لروما الجديدةهدف

وغرض ، على حين انه لم يعد لروما هذا الهدف . فروما الجديدة ، كانت حصناً يقع في مركز استراتيجي بالشطر الشرقي للأمبراطورية ، على الشاطىء الغربي للبوسفور ، عند مدخله إلى بحر مرمرة ، فاضحى يتحكم في الانتقال من أوربا إلى آسيا ، ومن البحر الاسود إلى البحر المتوسط ؛ ويعتبر قاعدة للجيوش التي تشحن بها حدود فارس والدانوب . ويعتبر ايضاً قاعدة بحرية ، تسيطر على شرقي المتوسط . وجرى بناؤه ليصمد لما يتعرض له من الحصارات ، وقد فعلت القسطنطينية ذلك . وظلت بيزنطة منيعة الجانب حتى سنة ١٤٥٣ باستثناء فترة نصف قرن ، ابتداء من سنة ١٢٠٤ بعد استيلاء البنادقة عليها .

ومات قنسطنطين ، في مايو سنة ٣٣٧ ، وهو يتجهز لغزو فارس . وعلى فراش الموت ، تلقى قداس التعميد ، وبذا صار قنسطنطين آخر الأمر من رجال الكنيسة التي عمل جاهداً طوال السنوات العديدة على خدمتها .

وفي اثناء انفراده بالحكم ، لمدة إحدى وعشرين سنة ، بسط قنسطنطين مجد روما ، وجنب الأقاليم شر الغزوات الخارجية والحروب الداخلية .

على انه على الرغم من استقرار السلام ، فإن رعاياه لم يظفروا بشيء من الرخاء والسعادة . إذ ان شرور القرن الثالث لم تتناقص بل اشتدت عنفاً ، وازدادت سلطة الوظائف الإدارية ، فانتشر الفساد وعمت الرشوة بين كبار الموظفين .

اما الجيش الذي تضاعف عدده ، وغلبت عليه صفة المتبربرين ، فانه ظل اداة في ايدي الأتوقراطية . على انه ظهر مجتمع جديد يتمثل في الكنيسة ، التي حباها الأمبراطور بامتيازات خاصة وثروة طائلة . وللاتفاق على هذه الادارة الضخمة ، ولسد مطالب الأمبراطور ، كان السكان ، باستثناء عدد قليل ، تطحنهم الضرائب الفادحة ،ونظام الخدمة الأجبارية ، فتحطم الرخاء وتدمرت الحرية الشخصية .

ومع ذلك فان قنسطنطين ترك اثراً دائماً في تاريخ ، فبفضل إدراكه لقوة المسيحية ، باعتبارها اداة الحضارة والمدنية ،وبمواصلة جهده لتحقيق المثل الأعلى في قيام كنيسة كاثوليكية واحدة ، لا بد ان تعمل في وفاق وتعاون مع الدولة، استحق الأمبراطور اللقب الذي اشتهر به ، وهو قنسطنطين الكبير ولم يكن من باب الصدفة ان خادم الله يرقد في كنيسة الرسل بالقسطنطينية .

الفصل الثالث

غزوات المتبربرين

الواقع أن التاريخ المبكر لأوروبا لم يكن إلا سجلاً لإنتشار المدنية بين شعوب فتية نشطة بدائية تعيش خارج حدود الأمبراطورية الرومانية . وهذه الشعوب ، التي شملت الكلتيين والجرمان والصقالبة ، ليست إلا فروعاً لأصل واحد ، هو الجنس الأوروبي الهندي ، الذي تفرع منه أيضاً الشعوب الايطالية والأرمنية والايرانية والهنود . والراجح أن العناصر الأوروبية الهندية وصلت إلى أوروبا عن طريق الهجرة صوب الغرب منذ زمن سحيق . إذ نزل الكلتيون أول الأمر ، فيما هو معروف الآن بجنوب المانيا ، بوديان اعالي الدانوب، والماين، وأواسط نهر الراين . وطردهم من هذه الجهات ، حركة الشعوب الجرمانية من موطنها الأوروبي الأول ، وهو جنوب اسكندنياوه ، وامتداد الساحل الجنوبي لبحر البلطيق . ونجم عن تحرك الجرمان صوب الجنوب والغرب ، ابتداء من سنة ٤٠٠ ق . م، أن لجاء الكلتيون إلى غاله وإلى ما يعرف بالجزائر البريطانية ، بل ان الجرمان دفعوهم إلى إيطاليا ، وبلاد اليونان وآسيا الصغرى ، وبذا تناثر الكلتيون فيما بين البحر الاسود والمحيط الأطلنطي . غير أن مواطنهم أضحت في نطاق الأمبراطورية الرومانية ، فذابت شخصيتهم في شخصية روما . وعن طريق الكلتيين ، بعد أن اصطبغوا بالصبغة الرومانية واعتنقوا المسيحية ، وصل الجرمان إلى عالم البحر المتوسط . وظلت الصفات

الكلتية باقية في بريتاني وويلز وايرلندا واسكتلندا ، لأنها لم تتأثر إلا قليلا بالرومان والجرمان .

واستمرت هجرات الجرمان نحو الجنوب والغرب، في اتجاه الدانوب والراين ما لا يقل عن أربعمائة سنة . ولم يحفل بهم الرومان وقتذاك نظراً لانصرافهم إلى مشاكلهم الداخلية ، والى التوسع الخارجي .

وترتب على فتح غاله على يد يوليوس قيصر في القرن الأول قبل الميلاد ، أن أضحى وجها لوجه مع الجرمان . ويشير قيصر ،فيما رواه عن حملاته على غاله ، الى ما يغلب عليهم من البداوة والرعى والميل إلى الحروب ، ويزيد شغفهم بالصيد والتفكير في الحرب ، على امتهان الزراعة . ويرتدون جلود الرنة ، على أن الجانب الأكبر من الجسد كان عاريا ، ويعيشون على اللبن والجبن واللحم . ومن فضائلهم ، الضيافة ، والعفة ، والنظافة ، ويستحم الذكور والأناث معاً في الغدران . على أنهم كانوا دائماً على أهبة الرحيل . وإذ بلغت هذه الشعوب البدائية ، شواطىء الراين والدانوب ، بعد قرون عديدة ، جاست أثناءها الغابات والمستنقعات ، وأخذت تتطلع الى العبور الى الأقاليم الرومانية ، حيث تزيد البلاد خصوبة ودفئا .

وإذ أضحى الرومان على اتصال مباشر بالجرمان على طول هذه الحدود الممتدة ، كان لما توجه من قبل الرومان من حملات عديدة إلى داخل المانيا ، ولما جرى من نشاط تجاري ، أهمية كبيرة فيما عرفه الرومان عن اخلاق الجرمان وعاداتهم ونظمهم . فما اشتهروا بهمن أساليب ساذجة لم تفسد بعد،حاز إعجاب الرومان المحافظين ، الذين حزنوا لإنحراف قومهم عن الطريق المستقيم ، ولم يجدوا من الأمثلة التي ينبغي للرومان أن يسعوا إليها ، سوى ما اختص به أبناء الشمال من صفات .

وانقسم الجرمان مجموعتين كبيرتين ، الجرمان الغربيين ، والجرمان

الشرقيين. ومن الجرمان الغربيين الفرنجة والانجليز والسكسون،وينتمي للجرمان الشرقيين، القوط والوندال والجبيدي والبرجندبون واللومبارديون . ولم يكن بين الجرمان قبل هجراتهم إلا اختلاف ضئيل في اللغة والعادات . وأكثر ما حدث من اختلافات، جرى أثناء الهجرات، حينما اضطرت كل جماعة أن توائم حياتها مع البيئة التي حلت بها ، ونلمس هذه الاختلافات بين الجرمان الشرقيين والجرمان الغربيين . فالسكسون والسويفي والفرنجة والاللياني تحركوا من مواطنهم نحو الجنوب إلى اقاليم لم تختلف عنها في طبيعتها ، وظلوا على اتصال وثيق مع الشعوب ، أمثال الجوت والانجليز الذين لم يهاجروا. أما الوندال واللومبارديون والقوط فهاجروا إلى أقاليم بالغة الاختلاف عن مواطنهم في شمال غربي أوروبا . والمعروف أن سهوب شمال البحر الأسود كانت أقاليم الرعى ، فلم يلبث غزاتها من الجرمان أن أضحوا فرسانا ورعاة . واتخذ الالمان الغربيون الحياة الزراعية المستقرة ، وذلك قبل أن يغيروا على الأمبراطورية ، بينما ظل الجرمان الشرقيون في حالة بداوة ، ولذا كان لغارات الجرمان الغربيين صفة الزحف الدائم ، الذي جرى تدعيمه وتوطيده بانتظام ، على حين أن غارات الجرمان الشرقيين لم تكن سوى هجرات وتحركات تتوقف من حين لآخر. ولما لم يكن لهم رغبة في اصلاح الأراضي، كان عليهم أن يتحركوا دائماً للبحث عن مراع جديدة ، وهذه الأحوال الرعوية كانت السبب الأساسي الذي دفع هؤلاء الجرمان الشرقيين إلى الهجرة والارتحال باستمرار ، وقد أطلق الألمان على هذه الهجرة اسم Volkswanderung .

مضى القوط في سيرهم وطوافهم حتى بلغوا ساحل البحر الأسود في منتصف القرن الثاني الميلادي ، فاستقروا في مجموعتين : القوط الشرقيين في حوض نهر الدون ، والقوط الغربيين في داسيا ، شمال نهر الدانوب وجنوبه . وفي أثناء نزولهم بتلك الجهات، اعتنقوا الأريوسية على يد أولفيلاس (٣١١ – ٣٨١) ، وهو يوناني من قبادوقيا بآسيا الصغرى ، ولعله ينحدر من اسرى القوط الذين

جرى استرقاقهم ، وهو الذي ترجم الأنجيل إلى اللغـــة القوطية ، وبذا نشر العقيدة المسيحية بين أهل البلاد التي اتخذوها موطنا . وأقبــل القوط الشرقيون والقوط الغربيون سواء على اعتناق الدين الجديد، وأخذوا يتفهمون معانيه بقدر ما سمحت لهم طباعهم الساذجة . على أن المسيحية ، التي تطلعوا اليها في خشية ودهشة ، كانت عندهم وسيلة ليتلاءموا بهـــا مع المدنية التي حرصوا على أن يشاركوا فيها .

وكان من الجائز أن يستمر استقرار القوط ، لولا قدوم الهون . والمعروف أن الهون من الشعوب المغولية ، جاءوا من آسيا . والراجح أنه حدث في آسيا الوسطى من التغيير في المناخ ما حــدث في اسكنديناوه . وتعرضت الصين من جهة الغرب لغارات المتبربرين ، مثلمــــا تعرضت له الأمبراطورية الرومانيــة من جهة الشرق من غارات المتبربرين . ويبـــدو أن الهون أنفسهم هم الذين أغاروا على الصين ، قبل أن يرتحلوا صوب الغرب ، ولم يكونوا سوى الشعب المعروف باسم هيونجنو ، الذي غزا الصين في فترة مبكرة ترجع إلى القرن الرابع الميلادي ؛ غير أنه طردهم إلى الجنوب والغرب شعب متبربر آخر ، كان أشد منهم ضراوة ووحشية ، جـــاء من الشمال . فإذا كان الأمر كذلك ، فالراجح أن الهون لا بد أنهم أرتحلوا واجتازوا قارة آسيا ، قبل أن يصلوا إلى حوض نهر الدون حوالي سنة ٣٧٥ م . وهنا أنزلوا الهزيمة بالقوط الشرقيين، وأخذوا يدفعون أمامهم الشعوب الجرمانية صوب الجنوب والغرب ، إلى داخل الأمبراطورية الرومانية .

وصوّر تاكيتوس في كتابه المسمى . «بحث في أصل الشعوب الجرمانيـــة ووطنها ، وطرق معيشتها » ، (De Origine, situ moribus et populis Germaniae) الجرمان الغربيين في صورة، هدفها الخلقي أدعى للالتفات مما فيه من مطابقة أو إغراب عن الحقيقة، إذ جعل غايته أن يقارن بين البساطة المثالية

في الحياة الجرمانية والإغراق في الترف الذي تردىفيه المجتمع الروماني بايطاليا، وأن يجد في حرية الحياة التي عاشها الانسان الهمجي النبيل بصفاته، مادة لتطهير الانسان المتمدين مما علق بحياته من مظاهر الدعة والانحـــلال . وألف تاكيتوس كتابه زمن الأمبراطور تراجان ، أوائل القرن الثاني الميلادي ، ويظهر أنه بالغ في وصف فضائل الجرمان ، حبا في جذب الأنظار إلى تصويره ، لأنه من المؤكد أن الروماني – لو كان تاكيتوس نفسه – لم يكن ليقبل راضياً أن يشتري البقاع الجرمانية الموحشة ، وغاباتها المخيفة ، وسماواتها الداكنة ، بحياة المرح في البلاد الرومانية الطافحة بأصناف اللهو والصخب . على أن تاكيتوس أصاب ، حينقال إن لدى القبائل الجرمانية كثيراً من جديد الصفات ومفيدها ، مما ينفع الحضارة الرومانية ويقوّمها ، كأنما تنبأ بما في تلك القبائل الهمجية من مقدرة على تنشيط الأمم وتجديدها ، أو كأنما رأى في الجرمان سر الحريـــة السياسية التي نسيتها روما ، فضلاً عن الشغف بالابتكار الفردي الذي قمعته روما ، وفضلاً عن عادة الاكثار من الذرية في العائلة الواحدة ، وهو ما شاءت روما أن تهمله وتزدريه ، والواقع أن تلك الصفة الأخيرة أدت إلى تفوق الجرمان علىالرومان تفوقاً عددياً حاسماً ، حين جدّ الجد ، واستعرت بينهما الحروب . وهكذا قدر للعالم اللاتيني أن يهتز وترتعد فرائصه مرة بعد الأخرى، أمام الخصب البشري، الذي امتازت به الأجناس الجرمانية الفتية ، بفضل محافظتها على مبدأ نظام الزوجة الواحدة في الأسرة ، ومقتها لتعدد الزوجات .

وتشابه الجرمان عموماً في تلك الظاهرة وغيرها من الظواهر ، ما عدا أن الجرمان الغربيين صاروا إلى شيء من الحياة الزراعية المستقرة ، على حين ظل اخوانهم من الجرمان الشرقيين يضربون من مناكب الغابات الوعرة بعرباتهـــم وسائمتهم ، طلباً للعيش والمرعى . وعرف الرومان هؤلاء وأولئك معرفة جيدة في القرن الرابع الميـــلادي ، وبات الجرماني العنيف شخصاً معلومـــاً لكل المعسكرات الرومانية ، على طول أطراف الدولة من ناحية الشمال . على أن

العنف لم يكن كل ما اختص به الجرماني من صفات ، فهو كذلك ذو بسطة في الجسم ، وبشرة ناصعة البياض ، وعيون حادة زرقاء ، وشعر أشقر مرسل ، ثم انه يشرب الخمر حتى الثمالة ، ويتيه في عالم الشراب والأحلام ، ويهوى التشاجر والمقامرة ، ويغني ويحب الاستماع إلى الأغاني ، ولا يتغلب على اخلاصه الشديد لسيده وعشيرته سوى شهوته الجامحة دائماً نحو المغامرات الحربية .

والمعروف كذلك ان العشائر الجرمانيــة تعرضت لكثير من التغيير ، من حيث القد والشكل والاسم ، خلال قرنين من الزمان ، نشبت فيهـــا حروب عشائر، وصادفوا مشقات في تسليك الغابات وتسويتها للزراعة ، فاختفت عشائر صغيرة ، وحلت مكانها عشائر كبيرة ، نتيجة قيام بطل من الأبطال ، أو تلبية لضرورة حربية و ثم ما لبثت هذه العشائر الكبيرة أن تضاءل شأنها ، بسبب وفاة أبطالها أو سقوطهم صرعى في ميادين الحروب ، وبذا بدأت فيها عملية التغيير والتشكل من جديد . مثال ذلك أن العشائر التي ذكرها تاكيتوس في كتابه ، لم يكن لها أثر على عهد الأمبراطور قنسطنطين ، بل قام على انقاضهـا عشائر أكبر مكانة ، مثل الفرنجة والسكسون واللالليماني في جنوب ألمانيـــا الحالية .

على أن الخصائص الرئيسية في الحياة الجرمانية لم تتغير في شيء ، قلما خلت منها في تلك العصور بقعة من البقاع بأوربا الوسطى ، حيث عاشت العشيرة الجرمانية عيشة صاخبـــة ، وعاش رئيسها وسط زمرة من رفقائه في الحروب ، الذين يتطلعون إلى سخائه ، فيما يبذله لهم ، من الجياد والحراب، وما يقيمه من الولائم والحفلات ، وهذا السخاء إنما مصدره الحرب والنهب ، وانه لأيسر للقائـــد (الزعيم) أن يثير رفاقه لقتال العدو ، والظفر بالجراح المجيدة ، على أن يدعوهم لفلاحة الأرض والانتظار فترة طويلة لجني المحصول . وزاد في توطيد الصلة بين السيد ورفاقه ، ما بذلوه من يمين الولاء ، بأن يدافعوا عنه ، وأن يقوموا على حمايته، وأن يدينوا له بكل ما يؤدونه من أعمال البطولة . ففي المعركة يتنافس

القائد والاتباع في الشجاعة ، على أنه ينبغي ألا يتفوق أحدهم على الآخر . فإن من يبقى حياً من الأتباع ، بعد سيده ، ويخرج من المعركة دون أن يلحقه أذى، يظلّ طوالِ حياته بغيضاً ملوماً .

فإذا جدّ على العشيرة أمر، اجتمع له كافة رجالها الأحرار، وأهم ما يجتمع له المحاربون الأحرار من القبيلة ، ما يتصل بمصلحة القبيلة بأسرها ، كالحرب أو الهجرة . على أن هذه الأمور ، بالغة الأهمية ، ينظرهـــا أول الأمر رؤساء العشائر ، ثم يجري عرضها على الجمعية العامة ، التي يشهدها ، الرجال الأحرار ، وفيهم رجال الأسرات الملكية القديمة ، وأبناؤها الذين يكون منهم اختيـــار الملوك . ويجري الاستماع لكل زعيم أو ملك ، حسب عمره ، ونبـــل أصله ، وصيته في القتال ، وقوة بيانـــه . فإذا لم يحز الرأي رضاهم ، أعلنوا رفضه بالصياح ، أما إذا قبلوه ، أحدثوا الجلبة بقارعة الحراب . وتنظر الجمعية العامة أيضاً فيما يعرض عليها من قضايا ، وتقضي بشنق الخونة والخارجين عليهـا، على الأشجار ، بينما تقذف إلى المستنقعات الضعفاء والجبنـــاء ، والمتهمين بارتكاب جرائم تخل بالشرف . وفي هذه الجمعية أيضاً يتم اختيار الملوك وفقاً لعراقـــة أصلهم ، واتخاذ القادة لما اشتهروا به من البسالة .

وجرمانيا ، زمن تاكيتوس ، كانت إقليماً تغطيه الغـابات والمستنقعات ، ويصلح لزراعة الحبوب ، على أن الناس يتباهون بما يملكون منقطعان الحيوان ، التي يعتبرونها ثروتهم الوحيدة ، وهم يعيشون في القرى والكفور، كلما استرعى نظرهم نبع ماء أو مرعى، أو حرش من الأحراش. وتشتمل القرية على المراعي والغابات ، والحقول المزروعة ، وتقع في وسطها المساكن المتلاصقة ، تحميهـــا صفوف الأشجار ، والخنادق ، والكلاب . وتعتبر الغابات والمراعي والأراضي المهملة ملكاً عاماً لسكان القرية ، يشتركون في الإفادة منها ، أمـــا الأراضي الزراعية فملكيتها خاصة . غير أن ما اشتهر به سكان القرية الجرمانية الأوائل من مهارة محدودة في الزراعة ، وضآلة الموارد ، جعـل من المستحيل استغلال

المزارع التي يملكها الأفراد ، فأضحت الزراعة عملية تعاونيـــة ، تتم بمقتضى العرف الذي بلغ رسوخه بينهم ما جعل التعاون ملزماً . وبذا صارت الثيران والمحاريث بالقرية ، تنتقل من حقـــل إلى آخر ؛ كما ان جني المحصول كان يتطلب التعاون بين سكان القرية . ودرج القرويون في زراعتهم على اتخاذ نظام الحقلين ، بأن تنقسم الأراضي الزراعية قسمين ، يترك أحدهما بوراً كل سنة . وكيفما كان الأمر ، لا زال المحصول قليلا ، وذلك لما يتعرض له من الجفاف أو غزارة الأمطار . ولذا كانت الماشية هي ثروة الجرمان ، غير انـه حدث زمن هجراتهم انتحولوا من مرحلة الرعي إلىمرحلة الزراعة وإذ نفذوا إلى داخل الأمبراطورية ، لم يجدوا فارقاً كبيراً بين الحياة الزراعية البسيطة عند الرومان وبين حياتهم ، ولذا أسهمت القرية الجرمانية ، مع المزرعة الرومانية في تشكيل ما ظهر في أوربا منالضياع ، التي تعتبر أساس نظامالزراعة في العصور المتأخرة.

غير أنه على الرغم من وحدة الأصول وتشابه العادات ، عاش الجرمان خلوا من الروح القومية ، فحاربت القبيلة أختها من القبائل ، وشاجرت العائلة جاراتها من العائلات . ونظر الجرمان إلى الدولة الرومانية نظرات مختلفة ، فاعتبرها بعضهم عدواً له ، وعدها بعضهم الآخر مورداً للارتزاق بالخدمـة في الجندية ، أو موطناً لمن يهوى الاستيطان في بلاد طافحة بمظاهـــر الحضارة الرومانية .

والواقع أنه كان بـــين من يسميه الرومان الجرماني المتبربر ، أو بمعنىآخر الغريب أو الأجنبي ، وبين المواطن الروماني ، زمن تاكيتوس ، فروق شاسعة . إذ أن الرومان حكموا امبراطوريتهم في حوض البحر المتوسط بما استخدموه من جهاز إداري معقد ، على حين أن الجرمان لم يكونوا سوى جموع قبائـــل متحاربة متباينـــة ، ليس لهـــا نظام إداري معروف . وإذكان للرومان ثقافة فكرية خصيبة ، لم يكن عند الجرمان شيء من هـــذا القبيل . وتألف المجتمع الروماني من طبقات ؛ استندت إلى ما بينها من اختلافات اقتصاديـــة

وورائية ، أخذت الطبقة المتوسطة تفقد ، زمن تاكيتوس ، ما كان لهـا من نفوذ . أما المجتمع الجرماني فتألف من فئات مفككة من القبائل والعشائر ، وهي جماعات ترتبط فيما بينها برابطة القرابة ، وتعتبر أصلاً جماعـة كبيرة من الأحرار ، قامت التفرقة بينهـم على أصالة النسب والثروة ، ولم تكن عندهم طبقة متوسطة على الإطلاق . ولا زالت التجارة والصناعة تحتفظ بنشاطها عند الرومان ، بينما لم يكن عند الجرمان شيء من التجارة والصناعة غير أنه على الرغم من أن الجرمان كانوا يقلون في المستوى الحضاري عن الرومان فأنهم أظهروا من الكفاية ما جعلهم يتقبلون كل ما تود الأمبراطورية الرومانية أن تعلمه لهم . فاشتهر الجرماني بالشجاعة الفائقة ، وقوة البأس ، ووفرة النشاط . ولم يعتبر من الكوارث ما حدث من انسياب الجرمان الى داخل حدود الأمبراطورية ، فالواقع أن الرومان اعتقدوا أن بوسعهم أن يفيدوا من الجرمان في حل بعض مشاكلهم الداخلية بالغة الخطورة .

على أن العوامل التي دفعت الجرمان إلى التحرك الى أطراف الدولة الرومانية ، في أحلاف مؤلفة من القبائل المستقلة ، ترجع إلى أن ازدياد ضغط قبائل الصقالبة على قبائل الجرمان الشرقيين أجبرها على الهجرة التماساً لمنازل ومواطن جديدة . يضاف إلى ذلك أن أراضي الجرمان كانت فقيرة ، إذ أن مساحات شاسعة منها ، كان تغطيها الغابات والمستنقعات ، كما أن ما لديهم من زراعة بدائية لم تكن كافية لأن تسد حاجة السكان الذين ازداد عددهم . وتعرض الجرمان دائمـاً للأخطار الطبيعية ، كالفيضانات ، والجفاف ، والمجاعات ، وحرائق الغابات ، ولعل هذه الكوارث دفعتهم إلى الحركة والانتقال . وكيفما كان الأمر ، فإن الافتقار الى الطعام لسد حاجة الكثرة العددية من السكان ، والعجز عن زراعـة الأراضي المهملة ، دفع القبائل القوية الى أن تنزع أملاك القبائل الضعيفة وحملها على أن تتطلع في حسد وغيرة إلى الحقول المزروعة وحياة الأقاليم الوادعة ، على الجانب الروماني من حدود الراين والدانوب . فاذا قامت بغارة على الحـد الروماني ،

أصابت بذلك متعة وغُنْماً. على أنه ما هو أكثر قبولاً من كل ذلك، أن يستخدم الرومان لهم جنوداً من بين هذه القبائل، وعندئذ يتكفل سكان الأمبراطورية، زمن السلام، باعانتهم.

وما حدث رويداً رويداً من اصطباغ الأقاليم الغربية للأمبراطورية الرومانية بالصبغة الجرمانية، وتأثر الشعوب الجرمانية بالصفة الرومانية، وذلك في القرنين الثالث والرابع، لم يلبث أن ازداد سرعة في القرن الخامس، بما حدث من هجرات جرمانية جديدة. ومع أن هذه الهجرات بدأت تحت وطأة هجمات الهون على القوط الشرقيين، بعد سنة ٣٧٥ م، فانها ظلت مستمرة بتأثير بواعث ذاتية من قبلها، نحو قرنين من الزمان؛ وهذه التحركات كانت تمثل هجرة عامة للشعوب الجرمانية نحو الجنوب والغرب.

والواقع أن الجرمان نفذوا إلى داخل الأمبراطورية في أحوال متباينة، ويعتبر انسياب القوط الغربيين في أراضي الأمبراطورية الرومانية، من أشد الأحداث إثارة، وأكثرها فاجعة. إذ أنهم توسلوا سنة ٣٧٦ إلى الأمبراطور فالنز (٣٦٤ — ٣٧٨)، أن يهبهم مأوى، وراء حدود الأمبراطورية، يحميهم من الهون، بأن يسمح لهم باجتياز نهر الدانوب، لزراعة الأراضي المهملة في تراقيا. والراجح أن السبب الرئيسي الذي حمل الأمبراطور على الإستجابة إلى طلبهم، هو رغبته في الإفادة منهم في المحافظة على حد الدانوب، وحمايته من الهون. على أنه حدث لسوء الحظ أن السلطات الأمبراطورية أدركت أنه ليس باستطاعتها توفير سبل الحياة والعيش لهؤلاء اللاجئين، فلم يسع القوط الغربيون، عندئذ، إلا الإلتجاء إلى السلاح. فنهض الأمبراطور فالنز بجيش من الشرق، ولم ينتظر قدوم أمداد من الغرب، فحلت الهزيمة الساحقة بجيشه في وقعة أدرنه سنة ٣٧٨، ولقي الأمبراطور مصرعه.

وتعتبر وقعة أدرنه نهاية مرحلة من مراحل التاريخ، فعلى الرغم من أن

القوط الغربيين أخلدوا بعد المعركة إلى الهدوء والسكينة ، فان الأمبراطور الجديد تيودوسيوس حرص على استرضائهم ، بأن وافق على أن ينزلهم بأراضي في مويسيا السفلى ، وأدخلهم بالجيش جنوداً مرتزقة ، على أن يحتفظوا بما لقبائلهم من استقلال ، وبما لهم من خصائص قومية ؛ كالإبقاء على قانونهم وعقيدتهم الأريوسية . ولم يقنع القوط الغربيون بماحصلوا عليه من الإمتيازات الواردة في إتفاقهم مع الرومان ، بل أخذوا يعيثون فساداً في البلاد التي نزلوا بها وزار سينيسيوس أسقف برقة ، إقليم تراقيا حوالى ذلك الوقت ، وأدرك بنفسه سوء السياسة التي أدت الى السماح الى أولئك الغرباء المسلحين المفسدين بالدخول في جسم الدولة الرومانية ، ووجه الى الأمبراطور اركاديوس[1] خطاباً حذره فيه من عواقب تلك السياسة ونادى بوجوب القيام لدرء الخطر القوطي بجيش روماني خالص ، يدعى إليه المزارع من مزرعته ، والفيلسوف من مدرسته ، والصانع من مصنعه ، والتاجر من دكانه ، والمتعطل اللاهي من لهوه فلايكون من أولئك جميعاً الا من أسهم في الدفاع عن الوطن غير أن الخطاب لم يجد أذناً صاغية ، على حين أن القوط انتخبوا لأنفسهم ملكاً عسكرياً في سن الثلاثين ، وهو ألاريك الجسور ، الذي أفزعت جرأته الحربية قلوب المعاصرين. وما يدعو للإلتفات ، أنه لم يخطر لهذا الملك المسيحي الهمجي أن ينال الأمبراطورية بسوء ، وإنما أراد أن يظفر بأخذ المناصب الأمبراطورية العالية ، والحصول على إقليم خصيب لعشيرته ؛ وفي سبيل هاتين الغايتين ، أغار على أثينا ، وتساليا ، والبيلوبونيز ، ثم لم يلبث أن غزا إيطاليا ، فحاصر روما مرات ثلاثاً ، حتى إذا فتحت له أبوابها بعد حصارها الرابع ، سنة ٤١٠ ، أباحها لبرابرته يفعلون بها ما يشاءون ، على أن القوط الغربيين لم يستطيعوا أن يستقروا

(١) انقسمت الأمبراطورية الرومانية ، بعد وفاة تيودسيوس الأول ، سنة ٣٩٥ ، بين ولديه ، اركاديوس في الشرق ، وهونوريوس في الغرب (وعاصمته رافنا) . وخضع أولهما لسلطة الخصى اليوناني يوتروبيوس ، وسيطر على ثانيهما القائد الوندالى ستليخو .

بروما . وما تعرضت له من النهب والإستباحة ، ليس إلا مرحلة من مراحل سعيهم للحصول على موطن دائم . فتحركوا جنوباً أمـلاً في الإستقرار بشمال أفريقية ، حيث توافرت الحبوب التي تعيش عليهـا روما ، فيتيسر لهم بذلك السيطرة على روما ذاتها ، غير أن العواصف دمرت سفنهم ، وتلي ذلك وفاة الاريك في نفس السنة ، سنة ٤١٠ ، كل ذلك حملهم على إغفال هذه الخطة .

وما تعرض له الرومان من صدمـة أدبية ، فاقت كل الصدمات العسكرية والسياسية ، إذ أن القديس جيروم في مقامه بفلسطين ، صار ينعي الأمبراطورية التعسة ، ويتساءل : من يصدق أن روما التي قامت على السيطرة على العالم ، قد انهارت ؟ وتساءل آخرون عما إذا كان سقوط رومـا هو كل ما استطاعت المسيحية أن تأتي به ، أم كانت الكارثة انتقاما للوثنية ومعابدها القديمـة ، أم كان ما حدث هو الجزاء لاعتناق المسيحية .

ورد القديس أوجسطين ، أسقف هيبو بأفريقيـة الرومانيـة ، وهي بونا ، بتونس الحاليـة ، على تلـك الأقاويل في كتابه « مدينـة الله » Civitas Dei ، الذي ابتدأ تأليفه سنة ٤١٢ . وفي ذلـك الكتاب ، الذي يعتبر من اعظم ما خلقه الأباء الأولون من الكتب الدينية ، أجاب أوجسطين بأن استباحة روما لا تعتبر عقابا للرومان على تخليهم عن عبادة الألهة الوثنية ، وإقدامهم على عبادة الاله المسيحي ، إذ أن روما ليست إلا رمزاً لكل ما قام به الإنسان من أعمال جليلة دائمة . أما الأمبراطورية الرومانية المسيحية الجديدة ، فإنها لم تكن إلا انعكاساً لمملكة الله ، وإذ كانت روما هي مدينة البابوات فعلا ، فإنها تعتبر أيضاً مدينة الله . ومع ذلك فان ما قام به المتهرطقون من الجرمان من نهب روما ، لا بد أنه أثار في النفوس الأسى والذعر .

ومع ذلك فإنه جرت المغالاة في تقدير الصدمة ، إذ أن هذه الأمور كانت

جاريةمنذ قرون، والمعروف أن روما لم تعد منذ قرون العاصمة السياسية الفعلية . وما جرى من المتاعب والمصاعب ليس إلا من قبيل ما تعرضت له رومه من قبل من تقلب الحظ ، وأنها سوف تنهض وقد تجددت حيوتها .

وأدرك القوط الغربيون وسائر الشعوب الجرمانية ، أن الأمبراطورية نظام ضروري لهم ، ولا بد أن يجدوا لأنفسهم بها مكاناً ، ولذا حرص الاريك وأخلافه (أتولف ، وواليا ، ويوريك) على أن يجعلوا أقوامهم في خدمة الأمبراطورية ، ومن الدليل على ذلك أن القوط الغربيين ساروا الى غالة ، حيث أنشبوا القتال دفاعا عن المصالح الأمبراطورية ، ثم مضوا إلى اسبانيا لتطهيرها من الوندال والسويفي واللان . ولم يسع الأمبراطورية الرومانية في الغرب إلا ان تنتهج السياسة التي سبق أن جرى عليها تيودوسيوس في الشرق ، بعد أن تعذر عليها إخضاع الجرمان ، بان اعتبرت العشائر الجرمانية أحلافاً معاهدين للامبراطورية Foederati ، فجعلت للقوط الغربيين مستقرا دائما ، في فرنسا لا اسبانيا التي أظهروا فيها بالغ قوتهم ، فنزلوا باكيتانيا ، الاقليم الواقع بين نهري اللوار والجارون ، والذي يدخل فيه بواتيه ، وبوردو ، وتولوز ، التي لا زالت بحوزة الأمبراطورية ، والتي ظل سكانها من الرومان ولم يخضعوا لسلطة القوط ، على أنه كان لزاما عليهم أن يتنازلوا عن ثلثي أراضيهم للقادمين الجدد على اعتبار انهم حلفاء للأمبراطورية .

اما البرجنديون ، وهم من الجرمان الشرقيين ، فانهم شقوا طريقهم ، من مواطنهم بوادي نهر الماين ، الى نهر الراين ، الذي بلغوه في نهاية القرن الرابع ، واتخذوا فورمز حاضرة لهم ، ثم تحركوا إلى بلجيكا في سنة ٤٣٥ ، غير أنه حلت بهم هزيمة ساحقة على أيدي الهون الذين كانوا يخدمون الدولة الرومانية . ثم نزلوا بموافقة الحكومة الرومانية ، في سافوي بين جبال جورا ونهر الساؤن ، ووفقا لقاعدة الضيافة ، صار لهم ثلثا الأراضي الزراعية ، وثلث الرقيق ،

ونصف الأبنية ، والبساتين والغابات والمراعي ، ومع أنهم كانوا يعرفون باسم حلفاء روما ، فالواقع أنهم يؤلفون مملكة مسيحية أريوسية مستقلة . ثم امتدت أملاكهم حتى كادت تبلغ البحر المتوسط . على أن مملكة البرجنديين لم تكن قوية ، ولم يكن بوسعها أن تحتفظ ببروفانس ، ولم تلبث أن هوت عند قدوم الفرنجة السالين .

وفي أقصى الشمال من غاله ، ظل الفرنجة الساليون والفرنجة الريبواريون مصدر خطر على الأمبراطورية نحو قرنين من الزمان ، إذ كانوا يغتنمون ما تتعرض له الأمبراطورية من أزمة ، كيما يعبروا نهر الراين في حملات من أجل النهب والسلب . وأعاد الأمبراطور يوليان (٣٥٧ — ٣٦٠) الأمن إلى نصابه ، وسمح للفرنجة السالين بأن ينزلوا في بلجيكا على انهم رعايا للأمبراطورية بينما اجبر الفرنجة الريبواريين على أن يعودوا إلى ما وراء نهر الراين ، غير أن الضغط على النهر أخذ يزداد شدة ولا سيما حول منطقة كلونيا،برغم تحصينها. على أن الفرنجة الريبواريين ، الذين دخلوا في خدمة الدولة الرومانية وقاوموا الوندال عند محاولتهم اجتياز النهر ، اغتنموا الفرصة واحتلوا الضفة اليسرى لنهر الراين ، من نهر الماين حتى نهر الميز ، فأضحوا يتاخمون بلاد الفرنجة السالين ، وبذلك أضاعت الدولة حد الراين ، بعد أن اجتازه أيضاً الالليماني الذين احتلو الالزاس وغرب سويسرا ، والبرجنديون، ولم يعد ثمة أيضاً ما يمنع الجرمان من اجتياز نهر الدانوب ، وبذا انسابت الجموع الجرمانية فيما وراء حدي الراين والدانوب . فنزل بفرنسا من هذه الشعوب ، الفرنجة الساليون ، والبرجنديون ، والقوط الغربيون ، بينما حل باسبانيا الوندال والسويفي .

وينتمي الوندال إلى الجرمان الشرقيين، وقد غادروا ساحل البلطيق في زمن سابق على زمن هجرة القوط ، وفي القرن الأول الميلادي كان الوندال في سيليزيا

وبوهيميا ، وفي القرن الثاني ، تحركت شعبة منهم وهي المعروفــة باسم اسدنج) نحو المجر ، بينما ظلت الشعبة الأخرى (سيلنج) في سيليزيا، ثم ارتحلت إلى نهر الماين . وما حدث من شجار بين القوط والوندال (اسدنج) ، حملهم على اجتياز الدانوب الاعلى ، وأضحوا محالفين للأمبراطورية . ولما تقرر سنة ٤٠٦ سحب العساكر من حد الراين لمواجهة الريك والقوط الغربيين ، تهيأت الفرصة للوندال والسويفي واللان، لاجتياز نهر الراين في آخر ليلة في سنة ٤٠٦، وقد تجمدت مياهه . فتفرقت جموع الفرسان في أنحاء فرنسا ، وظلت تعيث بها فساداً مدة سنتين ، دون أن تلقى مقاومة منظمة ، فوضعوا النار والسيف في المدن ، وسقط بأيدي المتبربرين القلاع التي تعلو الجبـال الشاهقة ، والكنائس التي تعتز بما تحويه من المقدسات الدينية . ولم تلبث العاصفة أن هـدأت ، واجتاز الوندال وحلفاؤهم جبال البرانس ثم هبطوا الى اسبانيا ، فواصلوا أعمال النهب والتخريب ولم تلبث روما أن تدخلت ، فعهدت سنة ٤١٦ ، الى واليا ملك القوط الغربيين بقتال المتبربرين في اسبانيا ، وإذ حقق واليا رغبة روما ، وأضحى مركزه باسبانيا بالغ القوة ، تقرر استدعاؤه ومنحه اكيتانيا لتكون مقرا له ولقومه . على أن الوندال وسائر القبائـــل الجرمانيـة في اسبانيا ، استطاعوا أن ينزلوا الضربات العنيفة بالقوات الرومانية ، وأن يستولوا على المدن الساحلية بالجنوب ، بفضل قواتهم البرية والبحرية .

وكان من سياسة الأباطرة ، اتخاذ الوسائل الاقتصادية الـتي تكفل ضبط المتبربرين . على أن الحرب الاقتصادية لا تتحقق إلا إذا منع الأمبراطور هؤلاء المتبربرين من السيطرة على البحر المتوسط، ومن الدليل على ادراك الأمبراطورية خطر بحرية المتبربرين ، مـا بذلته من جهود للمحافظة على سواحـل فرنسا واسبانيا . والملحوظ أنه صدر حوالي ذلك الوقت قانون يقضي باعـدام كل شخص يعلم المتبربرين بناء السفن . على ان الدولة الرومانية كانت عاجزة عن درء الخطر .

على أن الوندال رأوا في افريقية من الأمل في الاستقرار ما لم يصادفوه في اسبانيا ، بعد أن تعرضوا للضغط الشديد من قبل القوط الغربيين . والواقع أن الأحوال في افريقية هيأت لهم تحقيق أملهم . إذ أن الحروب الأهلية مزقتها ، مثلما حدث في غاله عندما نفذ اليها الوندال في أول الأمر ، يضاف إلى ذلك ما وقع من النزاع الديني بـــين المسيحيين من الارثوذكس والدوناتيين . كما أن الجيوش الرومانية لم تستطع ضبط البربر النازلين بجبال أطلس . وليس بوسع القائـــد الروماني بونيفاس أن يرد المغيرين على اعقابهم . وكل من يستولي على افريقيا ، صار من اليسير عليه أن يتطلع إلى الاستيلاء على ايطاليا ولا سيا بعد أن أصبح يسيطر على حبوب وقمح افريقيا . وكلما ازدادت القوة البحرية عند الوندال ، أضحى عسيراً على العساكر الرومانية أن تهبط إلى الساحـــل الافريقي ، بينما تتعرض تجارة غرب البحر المتوسط لهجمات القرصان ويصير بوسع القوات الوندالية أن تنزل بايطاليا وصقلية دون سابق إنذار .

وتولى قيادة الوندال إلى افريقية سنة ٤٢٩ ، ملكهم جايزريك ، الذي يعتبر من أشهر زعماء هذه الفترة من التاريخ ، إذ فاق سائر زعماء المتبربرين ، باستثناء ثيودوريك وكلوفيس ، ببراعته السياسية ، فضلاً عما اشتهر بأنه قائد صنديد وبطل همام . فاجتار مضيق جبل طارق بقومه الذين بلغ عددهم نحو ثمانين الف من الرجال والنساء والأطفال . ولم يلبث أن استولى على السهول الخصيبة ، على حين امتنعت عليه قرطاجنة والمعاقل الأخرى . وإذ حلت الهزائم بالعساكر الرومانية ، جرى الاعتراف بالوندال قوماً محالفين ومعاهدين . ثم استولوا على قرطاجنة سنة ٤٣٩ ، وبذا صارت لهم السيطرة على الشطر الأكبر من ساحل افريقية ، مصدر انتاج القمح ، فضلاً عن حيازتهـــم لقاعدة ضخمة لقواعدهم البحرية) ، ولمنع ما قد يقوم به الرومان من هجوم ، هاجمت بحريتهـم جزيرتي صقلية وسردينية وأنزلت بهما الخراب ، فلم يسع روما سنة ٤٤٢ إلا ان تعترف بجايزريك ملكاً مستقلاً على الشطر الأكبر من أقاليم افريقية . فأضحى وضعه بذلك مختلفاً عن وضع ملوك القوط والبرجنديين الذي لا زالوا يعتبرون من

رعايا الامبراطورية الرومانية .

وجرى الوندال في سياستهم بأفريقية على مصادرة أملاك كبار الملاك ورجال الدين الارثوذكس . وسلكوا نهجاً فريداً في اضطهاد رجال الدين الارثوذكس ، ولم يخففوا من شدته الا تحت ضغط روما والقسطنطينية . إذ أن ما دبره رجال الدين الارثوذكس من مؤامرات تعتبر مصدر خطر على المملكة الوندالية الأريوسية . يضاف إلى ذلك ما تعرضت له هـذه المملكة من تهديد من قبائل البربر إلى الجنوب منها .

وفي سنة ٤٥٥ ، اغتنم الوندال ما حدث من مصرع الأمبراطور فالنتينيان الثالث ، فأمعنوا النهب في روما لمدة اسبوعين . على أن دولة الوندال بأفريقية لم تلبث أن تداعت بعد وفاة جايزريك سنة ٤٧٧ ، ولم يمتد عمرها إلى القرن السادس إلا بسبب الفوضى الضاربة بالشطر الغربي من الامبراطورية ، وانصراف الأباطرة في الشرق إلى أمور بالغة الأهمية .

على أن لظهور الوندال في ميدان الحوادث الأوروبية ، اهميـة بالغة ، إذ اضطرت الدولة الرومانية إلى بعثرة قواتها العسكرية بايطاليا لمحاربـة أولئك القراصنة ودولتهم ، على حـين كانت الضرورة تحتم توجيه تلك القوات لوقف زحف الجرمان على غاليا . وترتب على ذلك نتائج خطيرة ، منها ضياع غاليـاً نهائياً من يد الدولة الرومانية ، وانسحاب آخر حامية رومانية من بريطانيـا سنة ٤٤٢ ، واستيلاء السكسون على الجنوب الشرقي من الجزيرة البريطانيـة ، ومهاجرة الكلتيين أهـل الأقاليم الجنوبية الغربيـة من الجزيرة ، فراراً من السكسون إلى جهات أرموريكا ، التي سميت منذئذ بريتاني ، تحريفاً من اسم بريطانيا القديم .

وبينما ينفذ الجرمان إلى داخل الأمبراطورية الرومانية ، أخذت جموع مغولية تشق طريقها على ظهور براذينها الصغيرة من أواسط آسيا عبر البراري الآسيوية ،

إلى الجنوب الشرقي من أوربا ، أواخر القرن الرابع الميلادي ، وأنزلت تلك الجموع ، التي تسمى الهون ، اصناف الخراب والعذاب بجميع ما مرت به من البلاد ، فقتلت ودمرت حيثما حلت ، واشتد ضغطها على عشائر اللان والقوط الشرقيين والقوط الغربيين ، فانطلقت في حركة مستمرة ، حتى غمرت في قرن أو بعض قرن ربوع غاليا وبريطانيا واسبانيا وافريقية وايطاليا .

والواضح أن غارات هذه الشعوب المغولية تعتبر بالغة الاختلاف عن هجرات الجرمان . فالتيوتون والرومان سواء كانوا يرهبون الهون وينفرون منهم . ولما اشتهر به الهون من سرعة الحركة والارتحـــال ، جرى نعتهم بقوى سحرية ، واشتدت المبالغة في تقدير أعدادهم . والواقع أن الجانب الأكبر من قوات الهون تألف من القبائل المغلوبة على أمرها ولا سيما الجبيد ، فضلاً عن اللان والقوط والصقالبة وغيرهم من الشعوب ، الذين ساقوهـــم ، أثناء زحفهـــم من جنوب روسيا إلى أوروبا الوسطى . واتخذ الهون مقراً لهم في بلاد المجر . وكان لأتيلا ، الذي تولى الحكم ، سنة ٤٣٣ ، سيطرة على القوط الشرقيين والصقالبة بجنوب روسيا ، وعلى سائر القبائل الجرمانية النازلة على الدانوب . ومن مقره بالمجر ، ظل يهدد شطري الأمبراطورية الرومانية ، فدأب دائماً على المطالبة باعادة الفارين من قومه ، وأصر على أن يحصل على اتاوات ضخمة ذهباً . على أنه امتنع أول الأمر عن مهاجمة الغرب ، لانصرافه إلى قتال الصقالبة ، بل أنـــه بذل للرومان عساكر مأجورة من الهون ، لقتال البرجنديين والقوط الغربيين ، على أنه فرض وقتذاك على القسطنطينية معاهدة تنطوي على الذلة والمهانـــة . ثم اشتدت العداوة بعد سنة ٤٤٠ ، فتعرض حد الدانوب لهجات الهون ، الذين عبروا النهر وعاثوا فساداً في بلاد اليونان ، ولـــا انعقد الصلح سنة ٤٤٧ طلبوا تعويضات ضخمة ، وتعين الحد عند نيش ، جنوب نهر الدانوب .

على أنه حدث سنة ٤٥٠ تغيير ملحوظ ، إذ أضحى مرقيان أمبراطوراً في الشرق ، فرفض ما طلبه الهون من اتاوة ، ولم يلبث الغرب أن سار على منواله .

وعندئذ عزم أتيلا على الاستيلاء على الشطر الغربي من الامبراطورية ، بعد أن وضح له أنه فريسة سهلة ، ما دام تحت حكم الأمبراطور فالنتينيان الضعيف.

وإذ جرت روما على سياسة الايقاع بين القبائل الجرمانية وإثارة الخوف من الهون في نفوسهم ، أفاد أيتيوس القائد الروماني من الهون في قتال القوط الغربيين. غير أنه لما شق اتيلا طريقه عبر الحوض الأدنى لنهر الراين سنة ٤٥١، وتقـــدم إلى أورليان ، كان لزاماً على أيتيوس أن يتحالف مع القوط الغربيين لمقاومة الهون ، وعلى الرغم من أن أيتيوس أنزل الهزيمة باتيلا في سهل مورياك بـ لقرب من تروى سنة ٤٥١ ، فانـــه رفض أن يمضي في انتصاره لتحطيم قوة الهون ، نظراً لأن الانتصار الفائق قد يجعله تحت رحمة القوط. وترتب على ذلك أن صار لأتيلا من القوة ما يكفي للإغارة على ايطاليا في السنة التالية سنة ٤٥٢، ولم يلبث الهون أن انسحبوا إلى شمال جبال الألب ، بعد أن نهبوا البلاد ، وعزا الناس انسحاب الهون إلى تدخل اسقف رومـــا (ليو الأول) لدى أتيلا ، لا بسبب تفشي المرض بين جموعه ، فضـــلاً عن نفاد الأقوات ، ووصول الخبر باقتراب جيش زاحف لنجدة ايطاليا من ناحية الدولة الرومانية في الشرق ، واحتمال قدوم ايتيوس بجيشه من غاليا الى ايطاليا . وفي السنة التالية ، ٤٥٣ ، مات اتيلا بمعسكره في بانونيا ، وإذ كانت امبراطورية الهون قامت على شهرته الشخصية ، فانها تداعت عند وفاته ، فبادر أتباعه الجرمان إلى التمرد عـــلى الهون ، وأنزلوا بهم الهزيمة ، وأجبروهم على الفرار إلى الأقاليم الواقعة شمال حوض الدانوب الأدنى ، ومنذئذ لم يعد ثمة من الأعداء من يخشاه الجرمان . وكان الأفار والبلغار من الشعوب الآسيوية البدوية التي أثرت ، بعد الهون ، في نمو أوربا وتطورها .

نزل القوط الشرقيون حوالي سنة ٣٥٠ ، بالبلاد الواقعة شمال البحر الأسود، والممتدة من نهر الدنيستر غرباً إلى نهر الدون شرقاً، واعترف بسيادتهم الصقالبة الذين يحلون إلى الشمال منهم . على أن الهون دمروا هذه الأمبراطورية ، وساقوا

القوط إلى البلقان ، بعد أن تبدد شملهم ، وانحاز عدد كبير من القوط الشرقيين إلى القوط الغربيين ، واجتازوا معاً نهر الدانوب ، وحاربوا سوياً في معركة ادرنه . ثم دخلوا في عهد مع الأمبراطور تيودوسيوس الأول سنة ٣٨٠ ، وبمقتضاه نزلوا بسهل المجر ، على الرغم من أنه لا زال خاضعاً للهون . وحاربوا مع أتيلا في معركة سهل موررياك ، غير انهم اشتركوا في تدمير الهون بعد وفاة أتيلا . ثم حدث سنة ٤٧١ أن صار تيودوريك ، المعروف فيما بعد بالكبير، من زعماء القوط الشرقيين . والمعروف أنه أمضى عشر سنوات من شبابه في القسطنطينية ، ولا بد أنه وقف على ما اختصت به الدولة المتمدينة من نظام .

على أن القوط الشرقيين هبطوا إلى بلاد اليونان، وظلوا يمارسون الضغط على القسطنطينية . وكان أدواكر قائد الجيش الأمبراطوري في الغرب ، وهو من الجرمان الشرقيين ، قد أحس وقتذاك (سنة ٤٧٦) بأن لديه من القوة ما يكفي لخلع آخر الأباطرة الرومان في الغرب ، فطلب إلى السناتو بروما ان يوفد سفارة إلى الأمبراطور زينون في الشرق ، ليخطره أنه لا داعي لقيام امبراطور في الغرب ، والاكتفاء بأمبراطور واحد ، يقيم بعيداً عن روما. وقد طلب السناتو إلى زينون أن ينعم على أدواكر بالبطرقية ، وأن يعهد إليه بإدارة ايطاليا . فاستجاب زينون لهذا الطلب ، فأضحت ايطاليا شطراً من الأمبراطورية ، على الرغم من أن متبربرا يقوم على حكمها .

وإذ اشتد ضغط القوط الشرقيين علىالقسطنطينية وتطلع زينون إلىاستعادة السيطرة على الغرب ، عهد إلى ثيودوريك بإدارة الغرب ، وفي اعتقاده أنه متى وقع الصدام بين أدواكر وثيودوريك ، فإن في ذلك الخير له وللدولة . ودارت المعركة الفاصلة سنة ٤٩٠ ،وحلت بأدواكر هزيمة ساحقة وقرر السناتو تأييد تيودرريك ، فاعترف به حاكماً على ايطاليا . واستطاع تيودوريك آخر الأمر أن يدبر مؤامرة انتهت باغتيال أدواكر ، وإجراء مذبحة في عساكره المرتزقة ، ودانت ايطاليا بالطاعة لثيودوريك الذي حكمها من رافنا .

والواقع أن سنة ٤٧٦ تعتبر خاتمة الامبراطورية الرومانية في الغرب . فصار للمتبربرين السيادة في ايطاليا ، وخضعت أفريقيا للوندال. وحل القوط الغربيون بالجنوب الغربي لغالة ، وكل اسبانيا ، بينما استقر البرجنديون في غرب جبال الألب ووادي نهر الرون ، كما ان الجرمان الغربيين قاموا وقتذاك بمعظم فتوحهم التوسعية الهامة ، إذ أخذ الانجليز السكسون يهبطون الى بريطانيا ، وتقدم الفرنجة من وادي الراين الأدنى الى شمال غالة .

وعلى الرغم من هذه الحقائق، فمن المبالغة أن نقول أن الأمبراطورية في الغرب، قد انتهى أمرها سنة ٤٧٦ . إذ سبق الإشارة إلى أن ادواكر تولي إدارة إيطاليا من قبل الأمبراطور الذي لا زال قائماً بالقسطنطينية ، وبناء على طلب السناتو الروماني، كما أن كل الملوك المتبربرين، باستثناء ملوك الوندال والأنجليز السكسون، قد أعلنوا ولاءهم وبذلوا طاعتهم للأمبراطور الروماني . وكانوا يجدون اللذة والمتعة في أن يحصلوا على تشاريف أمبراطورية ، ولم تتوقف سلسلة القناصل الرومان زمن حكم المتبربرين ، ولا زال السناتو ينعقد من حين الى حين ، ولم تفقد الأسرات النبيلة ، وكبار الملاك الأغنياء بالأمبراطورية ، ما كان لهم من نفوذ وسلطان ، بل انه لا زال في القرن السادس الميلادي أسرات في روما لعبت دوراً هاماً في حكومة المدينة والكنيسة معاً ، ومن أشهر أفراد هذه الأسرات البابا جريجوري الكبير (٥٩٠ – ٦٠٤) .

من الخطأ اعتبار غزوات المتبربرين من الأحداث الجائحة ، وما غلب على الأمبراطورية من الصفة الجرمانية ، ليس إلا تطوراً بالغ التعقيد ، جرى رويداً رويداً . ومن العسير أن نقول متى انتهى أجل الأمبراطورية الرومانية ، لأنها من الناحية القانونية الخالصة ، لا زالت قائمة حتى سنة ١٤٥٣، أما معركة أدرنة ، واستباحة روما، وعزل روميلوس أغسطيلوس ، فليست إلا معالم على الطريق المؤدي إلى أوروبا الجديدة .

والواقع أن أولئك الذين ظنوا ان غزوات المتبربرين ليست إلا كارثة فجائية أدت الى تخريب المدن الرومانية ، وتدمير الحياة الرومانية وتحطيم الأمبراطورية الرومانية ، إنما يغفلون ما حدث في هذه الفترة من ظواهر محسوسة. أولها : ما كانت تعانيه الأمبراطورية الرومانية حتى القرن الخامس من تدهور اقتصادي استمر مائتي سنة على الأقل، ثانياً : تشرب الرومان فعلاً بالصفة الجرمانية. ثالثاً: تأثر الجرمان بالصفة الرومانية ؛ رابعاً : ما حدث فعلاً من استقرار الجرمان بالأراضي الرومانية .

فالمعروف ان ثراء روما يرجع إلى ما كانت تحوزه من غنائم وثروات من حروبها ، فلما استقرت الحدود ، تضاءلت مكاسب الحرب ، وكان لزاماً على الأباطرة أن يلتمسوا كل الوسائل التي تكفل لهم الحصول على الاموال اللازمة للإنفاق على الجيش . وترتب على تدابير الحكومة انخفاض قيمة النقد ، ونزوح كبار الملاك الى الريف ، ففقدت المدن بهجتها ، واختفى التجار ، وتضاءلت مساحة المدن ، وتناقص عدد السكان ؛ وتحتم على الحكومة أن تجعل أرباب الحرف ينتظمون في نقابات ، وأن تتخذ من التدابير ما يبقى على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فوسمت كل العاملين في المهن الشاقة ، كالمناجم والمحاجر والمصانع العسكرية ، حتى يتيسر معرفتهم إذا حاولوا الهروب. ومن العقوبات التي فرضها الامبراطور ماكسنيتوس الوثني على المسيحيين ، أنه جعلهم نواباً للبلدية ، يتحملون مسئولية ما تحتاج إليه المدن من المؤن ، وما تؤديه من الضرائب .

والمعروف أن الأسرى الذين وقعوا في الحروب الناشبة على الحدود ، كان يجري بيعهم أرقاء، وكانوا من الجرمان، فكان منظرهم مألوفاً باعتبارهم أرقاء ، اذ كانوا يستخدمون في جميع نواحي الحياة . ففي غاله مثلاً كان مألوفاً ان يجلس هؤلاء الأرقاء في الأسواق ، فيقبل اهل الأقاليم على حيازتهم ، ليصلحوا مادمروه في بلادهم ، وفي القرن الرابع أشار سينيسيوس أسقف برقة إلى انه لا يكاد يخلو بيت من البيوت المتواضعة ، من قوطي او سكيزي يعمل طباخاً ، أو خادماً،

او ساقياً ، او مشارفاً ، وأضحى لهؤلاء الأرقاء نفوذ كبير عند سادتهم .

ومن الدليل على تأثير الجرمان في الرومان ، ما أصدره الأمبراطور هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣) من قرار بتحريم ارتداء السترات الزاهية الألوان التي لا أكام لها ، واتخاذ السراويل الواسعة ، والابقاء على الشعر الطويل ، على نحو ما جرى عليه المتبربرون . وليس ذلك غريباً لأن كبار القادة العسكريين بالأمبراطورية كانوا وقتذاك من الجرمان، وامتدت الصفة الجرمانية الى الجيش، الذي أضحى معظمه مؤلفاً من المتبربرين ، الجرمان او الهون . وأدخل هؤلاء الجرمان عاداتهم وتقاليدهم ، فكانوا يرفعون الأمبراطور الذي يختارونه على الترس ، مثلما كان يجري عند اختيار ملوكهم .

على أن الخدمة في الجيش الروماني ، أدت الى ان يأخذوا بالحضارة والصفة الرومانية . والواقع ان الجرمان لم يفهموا الحضارة الرومانية على الوجه السليم، ولكنهم لم يكرهوها . فجميعهم باستثناء الفرنجة والانجليز والسكسون اعتنقوا المسيحية ، قبل أن يجتازوا إلى حدود الامبراطورية . وعلى الرغم من اعتناقهم المسيحية الاريوسية ، فان مجرد تحولهم للمسيحية دل على أنهم لم يكرهوا كل شيء متمدين ، وحرص ثيودور ملك القوط الشرقيين في إيطاليا على عمارة مدينة روما وآثارها ، وكان شديد الاهتمام بالفن والادب . ولم ينقطع أسلوب الحياة ، بعد نزول المتبربرين في الاراضي الرومانية . فالجرمان الذين حلوا مكان كبار الملاك الرومان ، ظلوا يسيرون على النظام الروماني. وما كان معروفاً عند الرومان من أتباع وأدوات الزراعة ظل باقياً، بعد ان حلوا في ضياع الاباطرة، فأضحت ضياعاً لملوك الفرنجة الذين احتفظوا بها حتى القرن التاسع الميلادي على انها ضياع ملكية. فلم يقدم المتبربرون لتدمير الامبراطورية ، بل جاءوا لينعموا بها ، على الرغم من ان الطريقة التي سلكوها أدت إلى سقوط الامبراطورية .

واستقر معظم الجرمان بداخل الامبراطورية على انهم قوات معاهدة او

محالفة. فالمعاهدون Foederati ليسوا إلا أقواماً، وقع زعماؤهم مع الأمبراطور معاهدة اتفقوا بمقتضاها على أن يحاربوا من أجل الأمبراطور ، على ان ينزلوا ، مقابل ذلك ، بأراضي الأمبراطورية ، وأن يحتفظوا بقدر كبير من الاستقلال في الأمــــور المدنية ، فعاشوا في ظل قوانينهم الخاصة ، وخضعوا لملوكهم . على حين ان الامور العسكرية كانت موكولة للقيادة الأمبراطورية ، فنزلوا فيما أعدلهم من المحلات ، وهذه العملية هي المعروفة باسم الضيافة Hospitalitas. ولم تكن الضيافة قاصرة على توفير السكن والطعام ، بل امتدت إلى تزويدهم بالخيول والعلف والكساوى . واضحى العبء ثقيلاً ، منذ ان عاش العساكر المتبربرون والرومان سواء ، مع زوجاتهم وأسراتهم وأرقائهم خارج الثكنات. وكيما يتوافر لهم ما يحتاجونه ، كان لزاماً على ملاك الاراضي ان يتنازلوا لهم عن ثلث منازلهم ، وثلث محصول أراضيهم . ثم تطور الامر ، فاستولى المتبربرون على شطر من الارض ذاتها من ايدي كبار الملاك ، وحصلوا على ما يؤديه عنها من خراج نقداً وعيناً، المستأجرون الذين كانوا بخدمة كبار الملاك الرومان .

والراجح ان المواطنين الرومان غفلوا عن التغييرات الضخمة التي كانت تجري من حولهم ، فلا زالوا يخضعون للقانون الروماني ، ويؤدون الضرائب الرومانية السابقة ، سواء انصبت في خزانة ملك متبربر ، أم في خزانة الامبراطور الروماني . وظل ملوك الميروفنجيين بغاله يستخدمون ورق البردى حتى نهاية القرن السابع ، حتى تجري الامور على وجه صحيح . وإذ عزم اثولف ملك القوط الغربيين ، في وقت من الاوقات على ان يمحو اسم روما ، ويحول أملاكها الى امبراطوريـــة قوطية ، لم يلبث ان عدل عن فكرته ، بعد أن تبين له بالتجربة الطويلة ، انه ليس من اليسير حمل القوط على اطاعة القوانين ، لما غلب عليهم من الهمجية ، ولما للقوانين من أهمية في المحافظة على الممالـــك المستقلة ، اكتفى بالسعي إلى احياء الاسم الروماني وتدعيمه بقوة أتباعـــه من القوط حتى تتذكر الاجيال التالية ، بأنه مجدد روما وباعثها .

ومع ان الملك المتبربر كان يرغب صادقاً في استمرار الامبراطورية الرومانية، فان عاملين هامين أديا الى عزل الملك الجرماني عن سائر المواطنين الرومان، وجعلا الشعوب المتبربرة غريبة، وهذان العاملان هما الدين والقانون. وسبق الإشارة الى ان الجرمان، باستثناء الفرنجة والانجليز السكسون، اعتنقوا المسيحية على المذهب الاريوسي، الذي أضحى حاجزاً منيعاً بين الجرمان والمواطنين الرومان في الغرب، فلم تكن الكنيسة في الغرب اريوسية. إذ أنكرت الاريوسية ما للمسيح من طبيعة إلهية خالصة، كما اعتبرت كنيسة روما الاريوسيين كفاراً، وعاملتهم على أنهم خوارج، والملحوظ ان الفرنجة والانجليز السكسون الذين كانوا فعلاً وثنيين عند دخولهما الى الامبراطورية، يعتبرون مسئولين عن قيام البابوية. وبينما حافظ الانجليز السكسون على التراث الكلاسيكي في القرن الثامن، أحيا الفرنجة الامبراطورية الرومانية في القرن التاسع، ولم يفعل الفرنجة والانجليز السكسون ذلك الا لدخولهم في المجتمع الروماني، ولم يوصموا بالاريوسية.

اما العامل الثاني فكان القانون. فالمعروف ان السلطتين المدنية والعسكرية في الدولة الرومانية كانتا منفصلتين الا فيما يتعلق بالامبراطور ذاته، واقتضت الحاجة ان يقبل الجرمان على أنهم عساكره، وبذا خضعوا لسلطته العسكرية، غير انهم لم يندمجوا في الادارة المدنية للأمبراطورية، بل ظلوا خاضعين لملوكهم، ولقوانينهم التي كانت بالغة الغرابة. ومن أهم ظواهر هذه القوانين ما هو معروف بالدية Wergeld، التي يقصد بها مقدار ما يساويه الفرد من المال، ويختلف هذا المقدار باختلاف مكانة الفرد؛ وهو يمثل مقدار المال الذي ينبغي ان تؤديه اسرة القاتل، لاسرة القتيل على انه تعويض لاقاربه. ويرجع هذا النظام الى ما كان معروفاً في المجتمع الجرماني القديم، من ان للشخص الحق في ان يطلب الى كل اقاربه النهوض للانتقام له. ويجري القصاص على اساس العين بالعين، والسن بالسن. فاذا قتل شخص، كان لزاماً على اقاربه ان ينتقموا له بمطاردة القاتل، ثم قتله مع عدد من أقاربه. فكان الاخذ بالثأر كارثة للمجتمع الروماني، واضحت الحاجة ماسة الى إلتماس طريقة يستطيع

بها أقارب القاتل تجنب غضب أقارب القتيل ، دون إهدار شرفهم . ولتحقيق هذه الوسيلة ، تضمنت القوانين الجرمانية قائمة بمقادير الدية . فكان لكل فرد دية تختلف من شخص لآخر ،حسب عمره ومكانته ،ويجري تأديتهاالأقارب القتيل . وتحدد لكل أصبع أو جرح قيمته . وتزيد دية الملك على ديةالرجل الحر ، وترتفع قيمة الرجل الحر عنقيمةالعبد،وتزيد قيمة العبد على قيمة الثور . وتعتبر قيمة الروماني نصف قيمة الفرنجي ، وتضارع قيمة الفرنجي المتحرر Laeti ، الذي ينتمي إلى طبقة متوسطة بين الأحرار والرقيق . بل أن دية الصناع المهرة ، الذين لم يكونوا أحرارا ، تزيد على دية سائر العمال . وأورد قانون الفرنجة الساليين تفاصيل عن سرقات الماشيةوالخنازير ، فأشار إلى سن الحيوان وحالته ، والمكان الذي وقعت فيه السرقةوأحوالها.

ولهذا النظام عيوبه ، منها أن التقديرات كانت عادة تختلف من شعب إلى شعب ، فقوانين القوط تختلف عن قوانين البرجنديين ؛ وتختلف قوانين هذين الشعبين عن قوانين الفرنجة الساليين والريبواريين . وكان لزاما على الرومان الاعتراف بهذا النظام ، لأنه هو النوع الوحيد من القانون الذي تفهمه الشعوب الجرمانية . ومنها أيضاً أن القانون صار متعلقاً بالأشخاص ، لا الأقاليم ، إذ خضع الفرنجة لقانونهم اينما كانوا . وترتب على ذلك أن تعقد الوضع القانوني في سائر أنحاء أوربا ، ولا سيما إذا حدث أن لجأ أحد الفرنجة إلى مقاضاة رجل قوطي حول قطعة أرض حازها من مواطن روماني ، في غالة . والواقع أن احتفاظ الجرمان بقوانينهم الخاصة كان من الأمور الفاجعة للامبراطورية .

على أن الجرمان حلوا بأراضي الدولة الرومانية في اعداد قليلة ، إذ أن ألوفالجرمان إنما استقروا بين ملايين الرومان وسكان الأقاليم الرومانية، فتيسر إدماجهم والتأثير عليهم .

ملحق ٢

الشعوب الجرمانية

كما وصفها تاكيتوس (٥٥ — ١٢٠ م)

ما لم يخرج الجرمان للقتال ، أمضوا من الوقت أقله في الصيد ، وأكثره في الدعة والكسل ، بأن أستسلموا للنوم والمرح ، بل إن اشجعهم واكثر شغفاً بالقتال لا يؤدي شيئاً ، فأمر البيت والأراضي كان موكولا إلى النساء والشيوخ وسائر أفراد الأسرة الذين لا يميلون للقتال . فيخلد السادة إلى الدعة ، لما غلب على طبعهم من التقلب ، الذي يدعو هؤلاء الرجال إلى أن يهووا الكسل، ويكرهوا السلام . وجرت عادة الامارات على إن تبذل لسادة القوم شطرا من الماشية أو الحبوب ، تؤديه كل منها على حدة وعن طيب خاطر ، ومتى جرى قبوله على سبيل التحية ، أضحى كافياً لسد حاجاتهم الضرورية . وأكثر ما نعموا به من هدايا القبائل المجاورة ، تلك التي لم يرسلها فحسب الأفراد ، بل أيضاً الدولة ، كالجياد المنتقاة ، والدروع الرائعة ، وسروج الخيل ، والسلاسل التي يتخذونها عقودا . ونحن (الرومان) من جانبنا علمناهم في الوقت الراهن أن يقبلوا أيضاً النقود .

والمعروف أن شعوب جرمانيا لا يقطنون المدن المسورة ، بل أنهم ينفرون من الدور المتلاصقة . فقد تبعثرت مساكنهم ، وفصلت بينها مسافات فسيحة ، حسبما يسترعى اهتمامهم نبع ماء ، أو مرعى ، أو غابة . ولم يسيروا على نهجنا في أن يجعلوا منازل القرية متلاصقة وممتدة ،فكل شخص يحيط داره بأرض خالية من النبات ، إما لوقايتها من كوارث الحريق ، وإما لافتقارهم إلى المهارة في البناء . فلم يستخدموا في البناء الحجارة أو الآجر ،بل استعملوا الخشب في جميع الأغراض ، في كتل غليظة جافة ، دون حلية أو زينة ، على أنهم حرصوا على

أن يطلوا بعض أجزاء المباني ، بطفل بلغ من النقاء والنصاعة ، ما جعله أشبه بالدهان او الرسم الملون . ودرجوا أيضاً على أن يحفروا كهوفا تحت الأرض ، ويجعلوا عليها اكواماً من روث الماشية ، واتخذوها ملجأ يقيهم برد الشتاء ، أو مستودعاً لمحصول السنة ، وبفضل هذه المواضع ، خفت وطأة البرد . فاذا أقبل العدو وخرب البلاد العزلاء ، كان كل ما جرى اخفاؤه او دفنه ، لم يعرف العدو بوجوده ، أو أنه أفلت منه ، لأن العثور عليه يقتضي البحث عنه .

ويتدثر الجرمان في عباءة ، يثبتها بلقط أو شوكة نبات ، اذا لم يتيسر الحصول على الملقط ، وقد تعرى ما تبقى من الجسد. ويمضي الجرمان أياماً كاملة إلى جانب موقد النار . وما يمتاز به أكثرهم غنى وثروة ، أنهم يتخذون من الملابس الداخلية ما ليس طويلاً كالذي يتخذه السرامطة والبارثيون ، غير أنها كانت من الضيق ، انها أظهرت أطراف الجسم . ويرتدي الجرمان أيضاً جلود الحيوانات ، غير أن القبائل النازلة على الراين والدانوب لم تحفل بهندامها، لأنها لم تحصل على غير هذه الملابس من التجارة، بينما ازداد تأنق القبائل التي تقيم بالداخل ، إذ كانت تنتقي حيوانات معينة ، وتسلخ عنها جلودها ، وتغايرها بما تجعله فيها من قطع من جلود الحيوانات التي يزخر بها المحيط الخارجي، الذي لا يعلم أحد مدى اتساع مياهه . ولا يختلف النساء عن الرجال فيما يتخذنه من اسلوب في الزي ، إلا في أن النساء ارتدين عادة الثياب المصنوعة من التيل ، وقد طرزن أطرافها بالزركش الأحمر ، ولم يجعلن اكماماً للقميص ، وبذا صار كل الذراع والجزء الأعلى من الصدر مكشوفين .

ومع ذلك فأن رباط الزواج كان بالغ المتانة والشدة في جرمانيا، والواقع أنه ما من جانب من أحوالهم يفوقه إطراء وثناء . فالجرمان هم وحدهم من دون سائر المتبربرين ، الذين يقنعون بزوجة واحدة ، باستثناء فئة قليلة منهم ، نظراً

لأن عراقة أصلهم جعلت عروض الزواج تنهال عليهم . ولا تؤدي الزوجة البائنة لزوجها ، بل إن الزوج هو الذي يدفـــع مهراً للزوجة . ويشهد الوالدان والأقارب عقد الزواج ، ويتفقدون هدايا الزواج ، التي لم يقصد بها أن تناسب ذوق المرأة ، أو التي يزينها بها العريس ، بل شملت الثيران وجواداً مطهما ، وترسا ، ورمحا ، وسيفا ، وبهذه الأشياء ، يظفر الرجل بزوجته ، التي تبذل له بدورها هدية من الأسلحة .

ويعتبرون هذا أقوى رباط للاتحاد ، ويعدون هـــذه الأشياء من اسرارهم المقدسة ، وآلهة الزواج عندهم . ولكيلا تظن الزوجة أنها تقف بعيداً عن مجال أعمال البطولة ، وأخطار الحرب ، جرى تذكيرها دائماً أثناء الاحتفال الذي يقام عقب الزواج ، انها لم تقدم إلى زوجها إلا لتشاركه ما يتعرض له من عنـــاء وخطر ، وتقاسمه ذلك في حالتي السلم والحرب ، ويؤكد هذه الحقيقة ، ما بذل من الثيران والجواد المطهم وهدية الأسلحة . وينبغي أن تعيش وان تموت على أساس إدراكها أن ما تلقته من شيء ، ينبغي أن تسلمه إلى أطفالها ، لم ينقص شيء من قيمته ، ثم يتسلمه أصهارها وأحفادها .

وإذ جرت صيانة عفتهم ، عاشوا دون أن تفسدهم مغريات المظاهر العامة ، أو مثيرات اللهو والفجور ولم تكن رسائل الحب الخفية معروفة عند الرجال والنساء سواء . وقلما جرى الزنا بين هـــذ العدد الكبير من السكان . وفي وسع الزوج أن يبادر إلى انزال العقوبة على الفور متى حدث ذلك . إذ أن الزوج يطرد الزانية من داره ، بحضور قومها ، بعد أن يقص شعرها ، ويجردها من ملابسها ، ثم يجلدها بسوطه ، أثناء طوافه بها في القرية ، فلا مغفرة لمن فقـــدت عفتها ، ومهما كان للزانية من جمال وشباب ، وثروة ، فلن تحظى بزوج . فما من أحد بجرمانيـــا يقر الرذيـــلة ، أو يعتبر الفساد والافساد من سبل الحياة .

وللجرمان من الأحوال ما يفضلوننا بها ، فلا يجري الزواج إلا من العذارى ،

أوعندئذ ينتهي كل ما تبتغيه العروس من آمال وطماع . إذ تحصل النساء على زوج واحد ، وإذ ليس لهن إلا جسد واحد أو حياة واحدة ، فلا تتعدى أفـكارهن هذا الزواج الوحيد ، ولا تتجاوزه رغباتهن الجامحة ، ولا يبذلن الحب له على أنه زوج فحسب ، بل على انه يمثل حياة زوجية . ويعتبر من الأمور المنكرة ، تحديد النسل ، أو قتل الأطفال عند ولادتهم بعد وفاة الزوج . وهذه العادات الطيبة ، لأكثر نفعاً هنا ، من القوانين الصالحة في مكان آخر .

الفصل الرابع

الممالك الجرمانية

لم تقع غزوات الجرمان فجأة ، إنما حدثت رويداً رويداً ، ولذا لم يعرها كثير من المواطنين الرومان أهمية . ومع ان الرومان أخذوا يندبون بأن الأحوال لم تكن في صالحهم ، مثلما كانت فيما مضى ، فانهم مضوا في حياتهم كأنه لم يتغير شيء . على أنه حدث من حين لآخر من الهزات الفجائية ما جعلهم ينتبهون للحقيقة الواقعة ، وبرغمهم على الاعتراف بمدى ما تحطم أو تداعى من امبراطوريتهم . وحرص كثير من الدعاة والمبشرين على أن يذكروا كل انسان في كل موسم ، بان المتبربرين لم يعودوا على أبواب ديارهم بل أضحوا فعلابينهم . وحاول معظم الناس أن يتصوروا أن الامور لم تكن من السوء مثلما تبدو ، ومع ذلك كان لزاماً على كل فرد أن يوائم نفسه مع الأحوال الجديدة . وقد يحدث ذلك في لحظة صفاء البصيرة ، أو في لحظة ذعر واضطراب ، أو دون وعي ، غير أنه لا بد من وقوعه بصورة من الصور . وفي وسعنا أن نختار في هذه الفترة الزمنية من النماذج ما يمثل ردود أفعال لما جرى من غارات المتبربرين ، فالقديس أوجسطين يستطيع أن ينطوي على نفسه ، ويركز اهتمامه على مملكة الله ، ونموذج آخر يقدر الحضارة الرومانية ويقنع بأن يعيش في وئام مع الرومان ، بينما جرى نموذج ثالث ، مثل جستنيان ، على قتال المتبربرين .

القديس أوجسطين ٣٥٤ – ٤٣٠

ظل القديس أوجسطين أسقفاً لهيبو Hippo (بونه) بشمال أفريقيــة في الفترة الواقعة بين ٣٩٦ – ٤٣٠ م . على أن ما حدث سنة ٤١٠ من نهب رومــا على يد الريك ، كان صدمة نبهته إلى الحقيقة بأن الأمبراطورية الرومانية أخذت في الانهيار ومع أن الضرر الذي لحق بعمائر رومالم يكن في جسامة ما انزله بها المتبربرون فيما بعد ، فان دخول جيش معاد إلى روما يعتبر حقيقة مروعــة . ففر اللاجئون إلى شمال أفريقية ،وأثاروا الذعر بين السكان ، وساد الاعتقاد أن الريك سوف يجتاز البحر المتوسط ليغزو أفريقية ، ويتحكم فيما اشتهرت به من القمح . ولجأ إلى مصر كثير من للناس ، ومنهم عدد كبير من الراهبات . ولمـا غزا الوندال اسبانيا ، نزح إلى أفريقيا أيضاً عدد كبير من المهاجرين ، وتلقى أوجسطين أسئلة عما إذا كان يحق لرجال الدين المسيحيين أن يفروا أو أن يبقوا في كنائسهم وأديرتهم ، ويتعرضون بذلــك لاضطهاد الونــــدال الأوبوسيين . فأجاب بأنه لا يجوز لهم الفرار . واتخـــذ أوجسطين نفسه هــــذا القرار ، حينما عبر الوندال إلى أفريقية وحاصروا هيبو ، وقضى أوجسطين نحبه قبــل سقوط المدينة في أيديهم .

في هذه الأحوال ألف أوجسطين كتابــــه « مدينة الله » Civitas Dei ، ويتضح منه ما اعترى مزاج المؤلف من تغييرات . ولم يكن الكتاب مترابطا في سائر أجزائه ، ولذا تعذر فهمه ولا سيا أواخر العصور الوسطى . وعالــــج أوجسطين في كتابه المشكلة الرئيسية، وهي لماذا رضي الله بسقوط الأمبراطورية الرومانية ؟

أجاب الوثنيون على هذا السؤال بأن الأمبراطورية لم تتحطم إلا لأنها تخلت عن الألهة الوثنية ، وأضحت مسيحية . وأصر جماعــة على أن المسيحيين كانوا

مواطنين أشراراً لم يحفلوا بالدفاع عن الأمبراطورية . واعتقد آخرون أن روما قد سقطت لأنها تخلت عن آ لهتها الحارسة لها مثل جوبيتر . فالالهة الوثنية تولت الدفاع عن روما ، طالما بقيت روما مخلصة لها ، فلما تخلت عن الالهة ، انقلبت عليها ودمرتها .

كان لزاماً على القديس أوجسطين أن يرد على هذه الاتهامات . وإذ اشتهر أوجسطين بإلمامه الواسع بالعلم الوثني ، لأنه لم يعتنق المسيحية إلا في الثلاثينات من عمره ، فضلاً عن كونه مـن الخطباء الفصحاء ، التمس من التاريخ أمثـلة عديدة عن الكوارث التي حلت بالبشر قبل ظهور المسيحية ، فأشار إلى مـا سقط من أمبراطوريات وثنية ، وإلى مـا تعرضت له من كوارث ، دون أن تنهض الألهة لحمايتها . وأعلن أن القوط ما كان بوسعهم أن يتوقفوا عن نهب روما ، ولو استمرت روما وثنية .

اعتقد أوجسطين إن ما من بلد أو مملكة أو امبراطورية على سطح الأرض ، كانت في حد ذاتها مكتملة الخير ، وليست روما إلا مدينة من عمـل البشر ، ومهما كان لها من الفضائل . فلم تتوافر بها العدالة . وأعلن أوجسطين أن العدالة لأكثر أهمية من الدولة ، عند المسيحي والوثني الفاضل سواء . وفي نظر أوجسطين تجسدت العدالة في مدينة الله ، التي لا تنال منها الظواهر المادية ، ولا تحدهـا الحدود ، بل تسع كافـة المؤمنين حيث يكونون . ومـا يهتم به المسيحي ، ليس التماس العذر لما ارتكب من خطايا ، بل إن الايمان الصادق بالمسيح وحده هو الكفيل بالخلاص .

ولذا نصح المسيحيين بأن يتحملوا حـكم المتبربرين ، طالما قضت ارادة الله بغزوهم للامبراطورية ، ويعوضهم عن ذلك ما جرى من بقاء الكنيسة ، وجانب كبير من التراث الكلاسيكي في العصور المظلمة .

ثيودوريك ملك القوط الشرقيين

وما جرى من اتخاذ سياسية التعاون مع المتبربرين ، كان البديل للابتعاد عن العالم . وهذه السياسة ، لم تتعارض مع ما كان معروفاً من اعتبار المتبربرين معاهدين . ولم تلبث هذه السياسة أن تجلّت في إيطاليا في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس . ففي إيطاليا ، كانت الأحوال مواتية لقيام تعاون بين الوطنيين والمتبربرين ، بعد أن انتقلت القوة الحربية إلى المتبربرين . إذ أن روما التي لا تقهر ، تعرضت للنهب على أيدي القوط الغربيين ، ثم الوندال ، ولم يعد بوسع الايطاليين أن يردوا المتبربرين على أعقابهم ، والابقاء على حضارتهم ، إلا بادماجهم في مجتمعهم ، والمبادرة إلى تعليمهم .

كان ثيودوريك أحد إخوة ثلاثة ، كانوا ملوكاً للقوط الشرقيين . والراجح أنه ولد في سنة ٤٥٣ ، أو ٤٥٤ . وفي تلك الأثناء كان القوط الشرقيون ينزلون في بانونيا على أنهم محالفون . والراجح أن ثيودوريك لم يزد في تعليمه عن سائر المتبربرين ، إلا بعد إرساله رهينة إلى القسطنطينية سنة ٤٦١ ، حتى يلتزم قومه السلوك الطيب . فأقام بالقسطنطينية عشر سنوات تعلم اثناءها القراءة والكتابة وأسلوب الرومان في الحياة . ومع ذلك لما عاد إلى قومه ، وأضحى ملكاً عليهم سنة ٤٧٤ ، جرى على سياستهم التقليدية ، باعتبارهم معاهدين . ولكنه لم يلبث أن خرج على الأمبراطور ، فأخذ يعيث فساداً ببلاد اليونان ، وأضحى يهدد القسطنطينية ذاتها ، فلم يسع الأمبراطور زينون إلا أن عهد إليه بغزو إيطاليا وانتزاعها من أدواكر ، بعد أن اشتدت شوكته ، وزاد نزوعه إلى الاستقلال ، وساد الظن أنه يتآمر على الأمبراطور ، فزحف ثيودوريك على إيطاليا التي سقط معظمها في يده سنة ٤٩٠ ، واستقرله الأمر نهائياً سنة ٤٩٣ . وتخلص من أدواكر ، فأضحى حاكما لإيطاليا ، وأعلن السناتو والايطاليون ولاءهم له ، واستخدم الوزراء الذين كانوا بخدمة ادواكر ، ومن أشهرهم كاسيدروس

وليبريوس . والراجح أن غزوه لإيطاليا ، لم يؤد إلى انهيار إدارتها المدنية .

استولى ثيودوريك على إيطاليا باسم الأمبراطور ، ولذا حرص ، على الأقل من الناحية الظاهرية ، على أن يحكم باسم الأمبراطور . واتخذ لنفسه لقب «ملك» (rex) ، وليس معروفاً ما إذا كان ملكاً على القوط أو على إيطاليا . ولم يؤرخ الوثائق الرسمية بسنوات حكمه ، بل بسنوات حكم الأمبراطور . ونقش على وجه العملة صورة الأمبراطور ، غير أنه جرى في ظهر النقد ، رسم ثيودوريك . والتزم الاستقامة في علاقته مع السناتو الروماني ، ورشح القنصل كل سنة ، وحصل على تصديق الأمبراطور ، على هذا الترشيح . ولم يسن القوانين إنما أصدر القرارات . على أنه من جهة أخرى ، ارتدى الأرجوان ، وحرص على أن يركع الناس له مثلما كانوا يفعلون للأمبراطور ، وفي رسائله أشار إلى أنه يحكم بعون الله ، وكان ذلك من حق الأمبراطور . ولم يؤد الوضع الدستوري ، بطبيعة الحال ، إلى ان يشعر الرومان بأن ثمة تناقض بين الولاء للأمبراطور وتقبل حكم ثيودوريك . واكد ثيودور حقيقة أنه قائد عسكري ، يتولى الدفاع عن إيطاليا وردّ المغيرين من المتبربرين ، بأن اتخذ رافنا عاصمة له فشيد بها قصراً له وكنائس كثيرة .

والواقع أن حكومة ثيودوريك لقيت القبول أول الأمر لسببين هامين :

الأول : هو أن ثيودوريك أولى الحضارة من الاهتمام ما قصر عنه أودواكر . إذ تعرضت حياة المدينة بايطاليا ، في القرن الخامس لعوامل التداعي والانهيار ، فتناقص عدد السكان ، وخربت الدور ، وتوقفت صيانة المنشئات العامة ،

وترتب على إهمال السقايات أن ما كان يصل إلى رومـا من ماء الشرب كان آسنا قذرا . وسد الشوارع ما تساقط من المباني المتداعية من الأحجار الضخمة؛ وتجاسر قطاع الطرق فسرقوا التماثيل المصنوعة من البرونز، للحصول على معدنها، وحرص ثيودوريك على انقـاذ إيطاليا من حالة الفوضى والخراب ، ودلت رسائله على ما بذله من جهود صادقة لتحقيق هذه الرغبة .

أما السبب الثاني لتقبل حكم ثيودوريك ، ويعتبر أهم السببين ، فهو حرصه على أن يعيش الرومان والقوط معاً ، يشاركون سويا في سائر الأعمـال . إذ توافر للرومان ما افتقر إليه القوط من المهـارة والتعليم والحضارة ، بينما حـاز القوط ما افتقده الرومان من النشاط والحيوية . وبهذا التعاون ، يتجدد الأمـل في احياء الممتلكات الرومانيه . على أنه لابد لهذه المشاركة أن تقوم على العدالة ، التي لا تتحقق إلا بخضوع جميـع السكان لقانون ونظام عادل .

على أنه لم يكن من السهل أن يخضع القوطي للقانون الروماني . فالقانون الجرماني يمثل نوعا من الحياة تختلف عن تلك التيينطوي عليها القانونالروماني ، ويعتبر عندهم من آثار الأجداد الأقدمين . وأدرك ثيودوريك أن قبول القانون الروماني ، ليس له معنى سوى رفض ما كان للمتبربرين منأساليبالحياة . ومع ذلك فانه حاول أن يحمل أتباعه على أن يسلكوا سبيلاً جديـــداً في الحياة . ولكنه لم يحرز إلا قدراً ضئيلاً من النجاح . ففي القانون مثلاً ، نجح في إخضاع قومه للقانون الروماني ، (ولذا كان القوط الشرقيون ، هم الذين فقدوا قانونهم دون غيرهم من الشعوب الجرمانية) ، غير أنه لم يستطع أن يحملهم على التقاضي أمام المحاكم الرومانية . إذ قضت القاعدة الرومانية بان الجنـــد وعائلاتهم ، يتقاضون أمام محاكم عسكرية ، بينما اختصت المحاكم المدنيـة بالنظر في قضايا المدنيين . وحدث زمن ثيودوريك أن القوط كانوا جميعــاً عساكر ، بينما كان الرومان يعتبرون مدنيين . ورأس المحـــاكم العسكرية كونتات من القوط ،

فكأن القوط احتكموا وحدهم إلى القوط،على الرغم من أن القانون بهذه المحاكم كان رومانياً . أما الوضع بالنسبة للرومان فكان أكثر تعقيداً ، فما يقع بين المتخاصمين من الرومان من قضايا ، تنظرها المحاكم المدنية ، بينما تتولى المحاكم العسكرية نظر القضايا التي يتخاصم فيها الرومان والقوط . ويتبين من ذلك أنه على الرغم من خضوع القوط والرومان لقانون واحد،فإن المحاكم كانت مختلفة .

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على الديانة ، فمع أنهم جميعاً مسيحيون ، فإنهم اختلفوا في المذهب والكنيسة . إذ اعتنق القوط المسيحية الأريوسية ، واشتهر ثيودوريك في اوائل حكمه بالتسامح ، فلم يصادر الكنائس لمصلحة الأريوسيين. على أن هذه السياسة الدينية باءت بالفشل لأنها قامت في حقيقة الأمر على التفرقة العنصرية ، إذ جرت على افتراض أن كل القوط أريوسيون ، وأن كل الرومان كاثوليك ، ودلّ الاختلاف الديني على أن القوط لم يتقبلوا أسلوب الرومان في الحياة ، وليسوا مستعدين للتخلي عن عقائد أسلافهم .

ولم يكن للاختلاف الديني أهمية في الشطر الأول من حكم ثيودوريك ، وذلك راجع من جهة إلى أنه حينما أضحت لثيودوريك السيطرة على ايطاليا ، لم يكن ثمة من الكاثوليك من يناهضه . إذ أن الأمبراطور البيزنطي كان مونوفيزتيا ، بينما لا زال الفرنجة حتى وقتذاك وثنيين ، واعتنق الأريوسية القوط الغربيون والبرجنديون والوندال . على أنه حدث بين سنة ٤٩٦، ٥١٨ ، أن تحول الفرنجة إلى المسيحية الكاثوليكية ، وأضحى الأمبراطور البيزنطي في القسطنطينية سنة ٥١٨ أرثوذكسياً ، وبذا تهيأت للأمبراطور الفرصة للتحالف مع الفرنجة ، باسم المسيحية الكاثوليكية ، لمحاولة تدمير مملكة القوط الشرقيين. وحدث سنة ٥٠٧ ما يعتبر نذيراً لما قد يجري ، ذلك أن الفرنجة استطاعوا ، بفضل مساندة الغالبيين الكاثوليك أن يهزموا القوط الغربيين في وقعة فوييه ، وأن ينتزعوا منهم اكيتانيا .

وما سيطر على السنوات الأخيرة من حكم ثيودوريك من الاضطراب والاسى، يرجع فيما يبدو إلى الخوف من انحياز المسيحيين الكاثوليك بايطاليا، إلى هـذا الحلف. ففي سنة ٥٢٣، أمر ثيودوريك بألا يحمل الايطاليون الأسلحة، واشتدت ثائرته لما قام من العلاقات بين السناتو بروما والامبراطور جستين في القسطنطينية ومع أنه للسناتو الحق، من الناحية النظرية، في الاتصال بالأمبراطور، باعتباره السيد الأعلى لايطاليا، فإنه من الناحية العملية يعتبر الامبراطور عدواً. ففي سنه ٥٢٣، ظن ثيودوريك أن رسالة من هذه الرسائل المتبادلة بين الأمبراطور والسناتو، تنطوي على الخيانة. وتقرر توجيه هذه التهمة إلى الفيلسوف بوئيثيوس Boethius، رئيس الدواوين بايطاليا وقتذاك، فصدر الامر باعتقاله، فألف أثناء حبسه، كتابه المعروف باسم « سلوى الفلسفة »، الذي حمل الاجيال التالية على اتخاذ جانب بوئيثيوس، وعلى أن تعتبر السناتو أداة طيعة يسيرها الطاغية كيفما شاء. غير أن تعيين كاسيدروس خلفاً لبوئيثيوس في إدارة الدواوين، دلّ على أنه لا زال، حتى بعد سنة ٥٢٣، من الرومان من يقبل التعاون مع القوط.

وفي سنة ٥٢٥ – ٥٢٦، أوفد ثيودوريك، إلى القسطنطينية البابا يوحنا الأول، ليقنع الامبراطور جستين بالتسامح مع الاريوسيين في الدولة البيزنطية. وإذ لقى البابا الترحيب من الامبراطور، قام بتتويجه، فاشتد حنق ثيودوريك، لانه فسر ذلك على أنه احياء لسلطة الامبراطور على حساب ثيودوريك، فلما وصل البابا إلى روما، أمر ثيودوريك بحبسه، ولم يلبث يوحنا أن مات في سجنه. وازدادت الأمور سوء حين أصدر ثيودوريك، في أغسطس سنة ٥٢٦، قرارا بتسليم جميع الكنائس الكاثوليكية إلى الأريوسيين. غير أن هذا القرار لم ينفذ، نظراً لوفاة ثيودوريك في نفس التاريخ، فاعتبر الكاثوليك موته جزاء من الله. على أن أنهيار مملكة القوط الشرقيين يرجع أساساً إلى حملات جستنيان لاسترداد ايطاليا.

وما جرى عليه كاسيدروس من سياسة التعاون مع المتبربرين ، لم تصادف قبولا عند الرومان والبيزنطيين ، فضاعت آماله حين قدم القائد نارسيس إلى ايطاليا يحمل الأوامر بتدمير القوط نهائياً . فلم يسعه إلا الالتجاء إلى مسقط رأسه في Squillace واعتزال السياسة ، والانصراف إلى نقل التراث القديم إلى العالم الجديد ، وتولى ديره في فيفار يوم نقل المخطوطات القديمة .

كلوفيس والفرنجة

الواقع أن الفرنجة الساليين (الغربيين) ، هم الذين قاموا ببناء غرب اوربا ، فهم الشعب الجرماني الوحيد ، باستثناء الانجليز السكسون ، الذي استقر في داخل حدود الامبراطورية الغربية ، وظلت مملكتهم قائمة ، في صورة أو في أخرى ، في فرنسا حتى سنة ٩٨٧ ، وفي المانيا حتى سنة ٩١١ .

والمعروف أن الفرنجة الساليين استقروا منذ القرن الرابع الميلادي ، على الضفة اليسرى لنهر الراين ، على أنهم حلفاء لروما ، دون أن يقطعوا صلتهم بأقاربهم النازلين عبر الراين . وقام زعيم منهم ،وهو شيلدريك بمساندة الجيوش الرومانية النازلة على نهر اللوار ، برد المغيرين من السكسون ، واحباط هجمات القوط الغربيين التي وجهوها صوب الشمال . وأدرك شلدريك أهمية الابقاء على شمال غالة خالياً من المغيرين ، حتى يتيسر للفرنجة الانسياب فيه . وفي تلك الاثناء أخذ الفرنجة الريبواريون (الشرقيون) ،من مواطنهم في كلونيا وماينز ، ينتشرون على ضفتي الراين .

وفي سنة ٤٨١ مات شيلدريك ، فخلفه على زعامة الفرنجة الساليين ، إبنه الاكبر ، كلوفيس الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . على أنه ينبغي التعرف إلى الأوضاع التي كانت عليها غالة وقتذاك . فالواقع أن الجانب الأكبر من هذا الاقليم اقتسمه أربعة شعوب جرمانية كبيرة . إذ خضع الجزء الجنوبي

من غالة للقوط الغربيين والبرجنديين ، وكان القوط الغربيون ينزلون منـذ سنة ٤١٦ في اكيتانيا ،ثم أمدوا سلطانهم حتى بلغوا نهر اللوار شمالا ، وأضافوا إلى ممتلكاتهم اقليم بروفانس الواقع إلى الشرق منهم ، فضلا عن اسبانيا . أمـا البرجنديون الذين كانوا ينزلون سنة ٤٤٣ في اعالي نهر الراين ، بين جبال الالب وجـورا ، فإنهم أخـذوا في السنوات التالية يحتلون رويداً رويداً وادي نهر الساؤن ، ونهر الرون ، ولم يتجاوزوا في انسيابهم صوب الغرب ، المجرى الاعلى لنهر اللوار . ونجح هذان الشعبان في إقامة ممالك شاسعة تبدو في الظاهر قوية . على أن هذين الشعبين (القوط الغربيين والبرجنديين) حلا بأقاليم كثيفة السكان من الغالبين الرومان ، فاندمجوا فيهم ، وبذا أخذوا منذ تلك الفترة يفقدون جانباً كبيراً مما اشتهروا به من التماسك ، وينفصلون عن العالم الجرماني .

وخضع جانب كبير من شمال غالة للفرنجة والالليماني ، غير أن الوضع كان مختلفاً عما حدث بالجنوب . فالفرنجة الساليون نزلوا بالإقليم الواقع بين مصب نهر الراين ونهر السوم ، ثم أخذوا يتقدمون جنوباً في هجرات يقوم بها جماعات محدودة ، بزعامة قادتها العسكريين ، احتلت من أواخر القرن الخامس تورناي وكمبراي ، ووصلت الى نهر السوم . أما الفرنجة الريبواريون الذين ظلوا زمناً طويلاً خـارج الامبراطورية الرومانية ، واستندوا الى العالم الجرماني ، فـإنهم استولوا في منتصف القرن الخامس على تريف وكلونيا ، واستقروا عـلى الضفة الغربية لنهر الراين . وانقسم هؤلاء الفرنجة جميعاً ممالك صغيرة عديدة ، أهمهـا مملكة تورناي التي حكمها شيلدريك الذي مات سنة ٤٨١ ، ومملكة كلونيا . وخرج الالليماني من البلاد الواقعة إلى الشرق من الغابة السوداء،فاحتلوا الإلزاس غير أنهم مضوا إلى الشمال الغربي تحت ضغط الفرنجة بوادي الموزيل،وإلى الجنوب تحت ضغط البرجنديين . على أن شطراً صغيراً من غالة ، يقع بين أنهار السوم والميز واللوار،أي بين الأطراف النائية لأملاك الفرنجة،والالليماني،والبرجنديين، والقوط الغربيين،أفلت من سيطرة الجرمان ، فتألفت منه مملكة سباجريوس ،

الذي اتخذ سواسون عاصمة له ، وكان يمثل الارستقراطية الغالية الرومانية القديمة ، وتعتبر هذه المملكة كل ما تبقى من غالة الدولة الرومانية . وقامت مستعمرات للسكسون في غرب غاله ، على امتداد بحر المانش ، بينما أخذت في الاستقلال الذاتي ، شبه جزيرة ارموريكا (بريتاني) ، التي ألفت في القرن الخامس منطقة عسكرية لمناهضة القرصان الجرمان ، والتي أخذ يستقر بها البريتون المطرودين من بريطانيا .

وعلى الرغم من أن القوط الغربيين يعتبرون من أقوى الشعوب الجرمانية ، فإن الفرنجة بزعامة كلوفيس وأبنائه هم الذين قاموا بتوحيد غاله .

وأول ما أضافه كلوفيس من ممتلكات لدولة الفرنجة الساليين، شملت ما تبقى من أملاك الرومان في غاله، بين نهري السوم واللوار، والتي استقل بها سياجريوس، فهاجمه كلوفيس سنة ٤٨٦ بالقرب من سواسون ، فانزل به هزيمة ساحقة أدت إلى اختفاء آخر أثر لسلطة روما في الغرب . وترتب على هذا الانتصار ، أن نقل كلوفيس عاصمته الى باريس . والواقع أنه لم تجر حركة شاملة للفرنجة إلى هذا الإقليم ، ولم ينظر السكان الرومان المحليون إلى هذا الحادث إلا على أنه أدى إلى تغيير السادة . فلم يكن ثمة ما يدعو إلى اقتسام الأراضي بين الفرنجة والرومان مثلما حدث في مملكتي البرجنديين والقوط الغربيين . إذ توافر عند كلوفيس من أموال الخزانة الرومانية والغنائم ما يكفي لمجازاة كبار أتباعه ، فضلاً عن قيامه بتوزيع الأراضي التي تخلت عنها الحكومة الرومانية بغاله ؛ يضاف إلى ذلك ، ما توافر للنزلاء الجدد من مساحات شاسعة من الأراضي التي هجرها السكان الذين تضاءل عددهم بسبب ما تعرضوا له ، نحو مائة سنة ، من غارات المتبربرين وهجماتهم . على أنه حدث بعد انقضاء الغارات والغزوات أن أسرات غالية رومانية ظلت مقيمة بأراضي أجدادها دون أن تتعرض لما يزعجها .

وكان للحادث الثاني دلالة بالغة الأهمية ، إذ أن الفرنجة الريبواريين ،

استنجدوا سنة ٤٩٦ ، بكلوفيس لمساندتهم على رد الالليماني ، الذين اشتد ضغطهم عليهم ، من الالزاس . وتهيأ لكلوفيس أن يسحق جموع الالليماني الذين امتد سلطانهم عبر الراين ، وظلوا على اتصالهم بداخل جرمانيا . وبدخول الالليماني في نطاق مملكة كلوفيس ، اشتد الطابع الجرماني لمملكته ، كما أن امتداد سلطانه إلى ما وراء نهر الراين ، دلّ على أن الفرنجة لن يقتصروا على الأراضي الرومانية ، بل كانوا مستعدين للتوسع فيما وراء نهر الراين ، على حساب القبائل الجرمانية التي لم تتأثر بالحضارة الرومانية . على أن أهم من كل ذلك ، ما حدث من تحول كلوفيس وقومه من الوثنية إلى المسيحية على المذهب الكاثوليكي . وسواء كان مرجع الفضل في اعتناق كلوفيس المسيحية إلى زوجته الكاثوليكية ، وهي الأميرة البرجندية كلوتيلدا ، أم إلى اعتقاده بأن المسيح نصره على الالليماني ، بعد أن كاد الدمار يحل بجيشه ، أو إلى تقديره الثاقب لما سوف يترتب على مسيحيته من نتائج سياسية ، فكل ذلك لا يساوي شيئاً بالقياس إلى الحقيقة الكبرى ، وهي أن زعيم الفرنجة الساليين صار من أبطال المسيحية الكاثوليكية ، فقد جرى سنة ٤٩١ ، تنصيره مع ما يزيد على ثلاثة آلاف من رجال جيشه ، في كنيسة ريمس [١] .

والواقع أن تحول الفرنجة الساليين إلى الكاثوليكية وانتماءهم إلى الكنيسة الغربية ، حمل في طواياه ، إلى حد كبير بذور تاريخ غرب أوربا . والمعروف أن نشاط المبشرين الأريوسيين لم يمتد إلى الفرنجة ، أو إلى المنطقة التي زحفوا اليها من الراين إلى اللوار ، فظلوا على وثنيتهم . ولم يظهر كلوفيس العداء للأساقفة في وسط غاله وشمالها ، وإذ توقفت الهجمات الأولى للجرمان ، لم يتعرض الرومان بغالة لشيء من القلق والاضطراب . ولما اعتنق كلوفيس الكاثوليكية ، تغيرت الأوضاع ، إذ أن ما كان من عداوة كامنة بين الأريوسيين والكاثوليك في مملكتي القوط الغربيين والبرجنديين لم تلبث أن ظهرت واضحة . فانطوت الكاثوليكية على كل ما لروما من تقاليد وحضارة ، وكانت قوة عالمية ، وتعتبر الحلقة الأخيرة

(١) أنظر الملحق ٣ .

التي تربطها العواصم الأمبراطورية، ويتزعمها في غاله كثير من الأسرات السناتورية، وهي التي بوسعها أن ترفع عن الناس المجاعة والفقر. وما يقابلها من الكنائس الأريوسية عند الأقلية الحاكمة من المتبربرين، والتي غلب عليها من روح جرمانيـة ونظام محلي، يمنعها من الانتشار والذيوع.

وهيأت الكاثوليكية للفرنجة الطريق للامتداد والامتزاج بالسكان الرومان. إذ كفلت لهم تأييد عدد كبير من السكان الكاثوليك، لا في غاله وحدها، بل في كل غرب أوربا، وشجعت ما يصح أن يقوم بين الجرمان والرومان من العاطفة والاندماج والتعاون، ما استحال على القوط والبرجنديين القيام به، وحضت (الكاثوليكية) الفرنجة على غزو مملكتي البرجنديين والقوط الغربيين، وكفلت التحالف بين ملوك الفرنجة والأساقفة، الذين يعتبرون أهم فئة اجتماعية في غالة، وممثلي الحضارة المسيحية، وضمنت حماية الملك الفرنجي للمبشرين في غاله وجرمانيا وهي التي استأنفت العلاقات مع البابوية، ويسرت ما قام فيما بعـد من تحالف بين ملوك الفرنجـة والبابوات، الذي بلـغ الذروة زمن شارلمان، بتتويجه امبراطوراً، سنة ٨٠٠، على أمبراطورية مسيحية فرنجية رومانية. وبذا تعاونت الكنيسة والدولة في تطور المدنية. على أنه ينبغي ألا نظن أن الكنيسة بمملكة الفرنجة كانت وحدة مستقلة بذاتها، بعيدة عن سيطرة الدولة. فعلى الرغم من سخاء كلوفيس مع الكنيسة، فإنه جعلها منذ البداية تحت إشرافه وسلطانه. ومن الدليل على ذلك ما حدث سنة ٥١١ في مجمع أورليان الذي شهده ما يزيـد على ثلاثين أسقفاً، من حرصه على أنه لا بد من عرض قرارات المجمع عليه قبل إعلانها، وانطوى أحد هذه القرارات على اعتراض الملك على التحاق العلمانيين بصفوف رجال الدين إلا بعد موافقته. ومع ما اشتهر به كلوفيس من الصرامـة والشدة وسفك الدماء، فإن الكنيسة آمنت بأن كلوفيس ليس إلا أداة الله، وأنه مهما سفك من الدماء، فإنه لم يفعل ذلك إلا لخدمة الله، « الذي ساق إلى يديه أعداءه، وأمد مملكته، لأنـه يسير بقلب نقي سليم، وأنه لم يفعل إلا ما يعتبر حقاً وصدقاً عند الله ».

وتمثل الحادث الثالث فيما نشب من قتال بين كلوفيس والبرجنديين والقوط الغربين . وكان لرجـــال الدين الكاثوليك في المملكتين ، أكبر الأثر فيما صار للفرنجة من سيادة عليها. وأشار كلوفيس في حديثه مع رجاله إلى أن «مما يزعجني أن هؤلاء الأريوسيين يحتلون جانباً من غاله ، فلنمض اليهم ، وسوف تخضـــع البلاد لسلطاننا بتأييد الله » . وبرغم ما أقامه ثيودوريك ملك القوط الشرقيين من سلسلة محالفات مع الممالك الأريوسية ، فإن كلوفيس استطاع أن يجعل المملكة البرجندية من توابعه ، ولم تلبث أن اندمجت في مملكة الفرنجة بعد وفاته .

وإذ هيأ الأساقفة الكاثوليك في مملكة القوط الغربيين ، الطريق أمـــام كلوفيس ، أما بامتناعهم عن مقاومة جيوشه ، واما بمساندته فعلا بالعساكر ، هاجم كلوفيس القوط الغربيين بفضل تواطؤ البرجنديين الصريح . فالتقى سنة ٥٠٧ بالقوط الغربيين عند فوييه ، جنوب بواتييه ، وأحرز كلوفيس انتصاراً رائعاً على ملكهم ألريك الثاني ، الذي قتله بيده .

ونقل القوط الغربيون حاضرتهم إلى طليطلة باسبانيا ، وظلوا محتفظين باقليم سبتيمانيا على امتداد البحر المتوسط ، بين جبال البرانس ونهر الرون ، بينما حاز ثيودوريك اقليم بروفانس لما بذله من مساعدة للقوط الغربيين .

واستطاع كلوفيس ، قبل وفاته سنة ٥١١ ، أن يوحد الفرنجة الساليين مع الفرنجة الريبواريين تحت زعامته ، وأن يستولي على ما تبقى في غاله من أملاك الأمبراطورية الرومانية . فأضحت مملكته تشمل ضفتي الراين وجميـــع غاله ، باستثناء بريتاني ، وسبتيمانيا ، وبروفانس . واعترف بـــه أمبراطور الدولة الرومانية في الشرق (ببزنطة) نائباً عنه ، proconsul ، وأنعم عليه برتبـــة البطرقية ، وكل ذلك لكي يتخذ وضعه صفة شرعية . وبـــذا ابتدأت مرحلة جديدة في تاريخ غرب أوربا .

ومن الأسباب التي جعلت من العسير دراسة تاريخ مملكـــة الميروفنجيين ،

الافتقار إلى الوثائق والأدلة ، واعتبار المملكة ملكاً خاصاً ، فلم تتوافر بهـا المقومات اللازمة للدولة . ومن الطبيعي أن تنقسم أجزاء متساوية بين الأبناء ، عند وفاة الملك ، وهذا ما حدث سنة ٥١١ عند وفاة كلوفيس، حينما انقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة . وإذا حدث أن كان لكل واحد من هؤلاء الأبناء ، ذرية كبيرة انقسمت المملكة من جديد بين هؤلاء الورثة . وإذ لم يحدث ذلك ، فإنه يرجع إلى ما اشتهر بـه أبناء كلوفيس وأحفاده وزوجاتهـم من المهارة والقسوة فيما نشب بينهم منحروب داخلية . وأعاد لوثار الأول الوحدة للمملكة سنة ٥٥٨ ، غير أنه لما مات سنة ٥٦١ ، انقسمت المملكة من جديد بين أبنائه الأربعة ، ولم تتحد مرة أخرى إلا سنة ٦١٣ ، حينما اختفى من الوجود كل المنافسين للوثار الثاني . ويعتبر ابنه وخليفته داجوبرت (٦٢٩ — ٦٣٩) آخر من قبض من ملوك الميروفنجيين على زمام الأمور . وفي أثناء الحروب الأهلية التي نشبت بين الأبناء ، ضعفت سلطة التاج ، فزادت قوة النبلاء ، وبذا تهيـأ الوضع للمرحلة الثانية من تاريخ الميروفنجيين ؛ وهو تاريخ الملوك الضعاف [1].

---

(١) وما لجأ اليه كلوفيس من تقسيم مملكته بين أبنائه الأربعة ، لم يكن معناه تجزئة دولة الفرنجة ، فالممالك الأربعة تؤلف سوياً مملكة كبرى ، ولكل منها حاضرة ، في متز ، وأورليان، وباريس وسواسون . وفي هذه المرحلة دخلت في حوزة مملكة الفرنجة بروفـانس وبرجندية ، وامتد سلطانها إلى داخل جرمانيا .

وانقسمت المملكة مرة أخرى ، بعد وفاء لوثار الأول سنة ٥٦١ بين أبنائه الأربعة أيضاً . على أنه جرى في هذا التقسيم ، إلى جانب السابقة التي حدثت سنة ٥١١ ، اعتبارات سياسـية واجتماعية ، نجمت عن اختلاف السكان من اقليم إلى آخر ، فضلا عن الاختلافات التاريخية التي ترجع إلى عصور سابقة . ومن أهم هـذه الممالك ، استراسيا (الاقليم الشرقي) وتشمل الشمال الشرقي لغاله ، وبلاد الراين والدانوب حتى نهر اين، ثم نوستريا (البلاد الجديـدة) بشمال غاله، وتغلب على هذين الاقليمين الصفة الجرمانية ، أما برجنديا واكيتانيا ، بجنوب غالة، فتغلب عليها الصفة اللاتينية ،

ملحق ٣

كلوفيس ، ملك الفرنجة

حسبما ورد في كتاب تاريخ الفرنجة ، الذي ألفه جريجوري أسقف تور

الواقع أنه لم يعرف عن تاريخ الفرنجة بين القرنين الخامس والسابع الميلادي إلا وثائق وتواريخ قليلة . ويعتبر كتاب جريجوري من هذه المصادر القليلة . وقد شغل جريجوري أسقفية تور بين ٥٧٣ ، ٥٩٤ ، وكان من أعظم رجال عصره نفوذاً وسلطانا ، وقد وقف على ما وقع في زمنه من الأحداث التي أوردها في كتابه .

* * *

ليس معروفاً ، من كان أول ملك للفرنجة . على أنه حدث بعد وفاة شلدريك ، أن تولى الحكم ابنه كلوفيس سنة ٤٨١ ، عوضاً عنه ، وفي السنة الخامسة من حكم كلوفيس ، كان يحكم في سواسون سياجريوس بن ايجيديوس ، ملكاً على الرومان . فبادر كلوفيس وأحد أقاربه راجناشار إلى الزحف على سياجريوس ، وتحدياه للخروج إلى القتال ، وقبل سياجريوس التحدي في لهف شديد . غير أنه لما رأى سياجريوس ، أثناء القتال أن الهزيمة حلت بجيشه ، استدار وفر من المعركة ، إلى الملك ألريك في تولوز ، يلتمس عنده الأمان والسلامة . فأرسل كلوفيس إلى ألريك يطلب إليه تسليم سياجريوس . وإذ خشي ألريك (ملك القوط) أن يثير غضب الفرنجة ، على ما درج عليه القوط ، لم يسعه إلا أن يسلم سياجريوس مقيداً ، إلى رسل كلوفيس . فأمر كلوفيس بإلقائه في

الحبس ، وبعد أن استولى على مملكته ، قتله سراً .

دأبت الملكة كلوتيلدا على تحريض كلوفيس ، على أن يتخلى عن أصنامه ، ويعبد الله الحق ، غير أنها لم تنجح في ذلـك ، حتى حدث آخر الأمر ، بينما كان ينشب القتال مع الألليماني ، أن أضطرته الحاجة إلى أن يقبل ما سبق أن رفضه . ففي أثناء المعركة ، وبينما اشتبك الجيشان في قتال عنيف ، حدث أن جيش كلوفيس كاد يتعرض لهزيمة ماحقة . وحينما شهد الملك ذلك ، رفع بصره إلى السماء وصاح ، اللهم يسوع المسيح ، إنت الذي يناديك كلوفيس ، ابن الله الحي ، يا من تهب الراحة والطمأنينة لمن كانوا في عناء ، وتبذل النصر لأولئـك الذين يؤمنون بك . واني لشديد الحرص على أن التمس مساعدتك ، واني لأبذل الوعد أنه متى وهبتني النصر على هؤلاء الأعداء ، وأنه متى أكتشفت أن لك من القوة والسلطان ما قال المؤمنون بك أنك أريتها لهم ، فاني سوف أؤمن بك وأتنصر باسمك . وإذ أنني دعوت آلهتي ، ولم تنهض لمساعدتي ، فاني أعتقد ، أن ليس لها قوة ، لأنها لم تبادر إلى مساعدة الذين يعبدونها وإذ أود أن أؤمن بك ، فاني أدعو ألا يدمرني أعدائي . ولم يكد يهتف بذلك ، حتى ولى الألليماني الإدبار . ولما رأوا أن ملكهم لقي مصرعه ، بادروا بالتسليم لكلوفيس ، قائلين « نتوسل اليك بألا تلقى بعد بقومك الى التهلكة ، فنحن لك ».

ثم طلب الملك أنه لا بد أن يكون أول من ينصره الأسقف ، ثم تقـدم قنسطنطين الجديد الى نبع المعمودية ، ليتطهر في ماء المعمدانية من ادران ذنبه ، ومما علق بحياته السابقة من أوضار . ولما أقترب من جرن المعمدانية ، خاطبه قديس الله (الأسقف) بهذه العبارات اللائقة « اخفض رأسك أيهـا السيجمبري (الفرنجي) ولتعبد ما قد أحرقته ، وأحرق ما قد عبدته » وبعد أن أعلن الملك إيمانه بالله القوي الثالوث ، جرى تعميده بأسم الأب والأبن وروح القدس ، وتم مسحه بعلامة الصليب بالزيت المقدس ، وتم أيضاً تنصير ما يزيد على ثلاثة آلاف رجل من جيشه .

حرب استرداد ايطاليا . جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥)

وما حدث من سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، سنة ٤٧٦ ،وقيام ممالك جرمانية على انقاضها ، ومحاولة هذه الممالك الجرمانية الموائمة مع الأحوال في هذه الممالك التي كانت أصلاً من أملاك الدولة الرومانية ، كل ذلك لم يلق القبول والاعتراف من الدولة الرومانية في الشرق (بيزنطة) ، التي تعتبر المتبربرين مغتصبين لهذه الممتلكات ، التي ينبغي أن تؤول للأمبراطور الروماني في القسطنطينية . ولذا فإن جستنيان الذي يؤمن بوحدة الأمبراطورية وعالميتها ، حرص على المضي لقتال المتبربرين ، لانتزاع ما استولوا عليه من ممتلكات . والواضح أن حركة الاسترداد لم تقم من داخل حدود الأمبراطورية بالغرب ،إنما بدأت في الشرق . فلم تقم بيزنطة (القسطنطينية) كيما تكون عاصمة فحسب ، بل لتكون معقلاً أيضاً . واعتقد سكان القسطنطينية أنه جرى تشييدها بإرادة الله ، وهو الذي يحرسها ، ولذا دافعوا عنها بكل ما يبعثه الاعتقاد الديني من ثقة . واشتهرت بيزنطة بتمسكها الشديد بمثلها السياسية ،وتعلقها بالفن والأدب. ولم تظهر الرغبة في الملائمة مع القوى الجديدة ، لاعتقادها أن الأمبراطورية هي الوسيلة الوحيدة المقبولة في الحياة .

وكان جستنيان نفسه شديد التمسك بهذه المثل ، التي تستبعد فناء الأمبراطورية ، ولذا لم يكن عجيباً أن يشهد القرن التالي (السادس) لتلك الأحداث التي ألمت بغرب أوربا ، محاولة جديدة لاعادة الأمبراطورية الرومانية سيرتها الأولى . لم يكن جستنيان يونانياً ، أو شرقياً مولداً ، بل ينتمي إلى

إقليم ايلليريا ، وهو الاقليم البلقاني الذي بقيت اللاتينية فيه لغة التخاطب دون أقاليم البلقان.نشأ من أسرة تحترف الفلاحة ، وما حدث من إرتقائه إلى السلطة ، إنما يرجع إلى أن خاله جستين ، استطاع ، بعد حياة عسكرية مظفرة ، أن يغتصب الحكم سنة ٥١٨ . وإذا لم ينجب جستين ولدا ، تبنى ابن اخته جستنيان ، فعنى بتربيته وتعليمه على أحسن ما يكون أبناء الأباطرة من تربية وتعليم . ولم يلبث جستنيان أن أثبت جدارته ، فدل على مقدرة خارقة ، مع الدأب والدقة في كل أعماله ، وأضحى الحاكم الفعلي للأمبراطورية ، فلما مات جستين سنة ٥٢٧ ، خلفه في عرش الأمبراطورية جستنيان ، الذي لم يكن فحسب آخر الأباطرة اللاتين ، بل كان أيضاً آخر من صاغ سياسته وفقاً للمصالح اللاتينية لا اليونانية . فبينما يركز اليوناني أمر الدفاع عن الأمبراطورية على اعتقاده ، بأن أشد ما يهدد حياة الأمبراطورية من خطر ، إنما يأتي من قبل فارس ، اعتقد جستنيان أن الخطر الحقيقي على الأمبراطورية ، مصدره الشعوب الجرمانية في الغرب ، وتبعاً لذلك كان من أطماعه ، على ما جاء في أقواله ، أن يسترد كل البلاد التي كان يملكها الرومان القدامى إلى حدود المحيطين ، فكان يرمي إلى إحياء الأمبراطورية بكل ما لها من مجد وسناء .

كان جستنيان متوسط الطول ، في ربيع العمر حينما تولى الحكم ، طلق المحيا ، يسهل لقاؤه ، فائق الصحة متورد الوجه ، مستديره ، وافر النشاط . اشتهر في مظهره العام بالوقار والاتزان ، غير أنه كان يفتقر إلى ذلك ، عندما يحين الجد ، فاظهرت ثورة نيقا ما اتصف به حقيقة من الضعف والتردد .

وسانده في سياسته ، الأمبراطورة تيودورا من شهيرات النساء في التاريخ ، وكان ابوها قبرصياً يشتغل بترويض الدببة للملعب القسطنطينية . فلما مات ، اشتغلت تيودورا بالتمثيل على مسرح العاصمة ، فكانت مصدر تسلية وإثارة

لسكان العاصمة ، غير أن جمالها كان أكثر ما أطراه الناس ، واستمتعوا به . كانت تقاطيعها دقيقة ، ومع أن بشرتها تميل إلى الاصفرار ، فلقد كساها لون طبيعي ، وأكثر ما كان يثير الناس ، ما انبعث من عينيها الحادتين من بريق . على أن هذا الجمال حطّه ، ما كان من ابتذالها في عرضه على أنظار الجماهير ، وامتهان الدعارة . فإذا اجتازت الشوارع ، تجنبها الناس ، خوفاً من الفضيحة ، أو الوقوع في غرامها .

غير أن تلك المرأة ، التي اشتهرت بالمخازي ، وبعنف النزوة وحب الانتقام ، برهنت على أنها جانب من النبل ، فضلاً عما اتصفت به من الجمال والذكاء والشجاعة والسياسة والحنان . ومن الدليل على ذلك موقفها من ثورة نيقا سنة ٥٣٢ ، حين صارت القسطنطينية ذات يوم في أيدي الثائرين على جستنيان وسياسته المالية ، ودمرت الحرائق جانبا كبيراً من المدينة ، واغتصب الحكم حد الثائرين ، وتهيأ جستنيان ومستشاروه للفرار من العاصمة . فلم يمنعه إلا تيودورا ، التي تقدمت إلى زوجها تخاطبه : « أيها الأمبراطور ، إذا أردت أن يمد في عمرك ، فعليك بالهرب ، وأمره يسير ، فهاك سفنك ، وهاك البحر ، ولكنني أرجو أن تذكر إذا فزت بالهرب ، ولذت بالمنفى ، أن سوف تقول طوال حياتك ، يا ليتني مت قبل هذا ! أما أنا فلن أحيد عن المثل القديم الذي يقول بأن العباءة الأمبراطورية ، خير الأكفان » . ولم تقل تقوى تيودورا عن شجاعتها ، إذ يرجع الفضل في إنشاء أول بيت في أوربا لإنقاذ النساء الساقطات ، إلى هذه المرأة الساقطة ، التي شاركت زوجها عرش الأمبراطورية مدة إحدى وعشرين من السنين ، وأسهمت بقدر كبير في سياسة الأمبراطورية .

ودار محور السياسة الأمبراطورية منذ أوائل عهد جستنيان حول إعادة الدولة الرومانية سيرتها الأولى في الغرب . ومن أجل ذلك المشروع عقد جستنيان سنة ٥٣٢ صلحاً مع أنوشروان ، وهو كسرى الأول ملك الفرس ، بعد ثلاث سنوات من الحروب بين الدولتين الفارسية والبيزنطية . والواقع أن هذا الصلح

لم يكن مشرفاً ، ولا دائماً،لأنه حتم على بيزنطة أن تؤدي للدولة الفارسية إحدى عشرة ألف قطعة ذهبية ، ولم يستمر أكثر من ثماني سنوات . ومع ذلك خدم غرض جستنيان بأن هيأ له الفرصة لإعداد خطة للقيام بحملة في الغرب .

اعتبر جستنيان مشروعه حربا صليبية ، الغرض منها إنقاذ الكاثوليك من حكم الأريوسيين . وبلغت الأحوال من السوء في شمال أفريقية زمن الوندال ، أن تعرض السكان الوطنيون للاضطهادات ، وجرى اعتقال كثير من السكان وممثلي رجال الدين ، وتقررت مصادرة أملاكهم ،وقدم إلى القسطنطينية من أفريقية اللاجئون والمنفيون ، ومنهم كثير من الأساقفة الأرثوذكس ، فتوسلوا إلى الأمبراطور أن يوجه حملة لقتال الوندال ، وأكدوا له أن السكان الوطنيين سوف يعلنون الثورة على حكم الوندال .

وهذه الأحوال سادت أيضاً في إيطاليا ، فعلى الرغم من تسامح ثيودوريك الديني ، وتقديره للمدنية الرومانية ، فإن السكان الوطنيين لا زالوا يكنون الكراهية للمتبربرين ، وتطلعوا إلى القسطنطينية كيما تنهض لمساعدتهم في تحرير بلادهم،من هؤلاء الدخلاء ، وإعادتهم إلى حظيرة الارثوذكسية . وما هو أكثر أهمية من ذلك ما أفاده جستنيان من إنقسام المتبربرين على أنفسهم [(١)].

والمعروف أنه كان بالغرب أربع دول متبربرة كبيرة : الوندال بأفريقية ، والقوط الغربيون في اسبانيا وجزء من جنوب غاله ، والفرنجة في شمال غاله وغربيها ، والقوط الشرقيون بايطاليا وحاول ثيودوريك أن يؤلف كتلة

---

(١) ومن أمثلة ذلك ، ما حدث من الشقاق بين ملك الوندال هيلدريك (الذي يميل لمسالمة الرومان) وابن عمه جيليمر الذي اغتصب منه الحكم ، وما وقع من النزاع بين أمالاثونتا ابنة ثيودوريك وزوجها تيوداهاد ، وكانت أمالاثونتا تريد الأخذ بالحضارة الرومانية ، وتذرع جستنيان بهذه المنازعات للتدخل في صالح الحكام الشرعيين .

أريوسية في الغرب ، بما أجراه من مصاهرات ومحالفات مع الملوك الأريوسيين في الغرب . غير أنه فشل في ذلك ، إذ ساءت العلاقات سنة ٥٣٢ بين القوط الشرقيين وبين الفرنجة والوندال . وكان لذلك أهمية كبيرة عند جستنيان .

فحينما أرسل جستنيان أسطوله الضخم إلى أفريقية لقتال الوندال ، لم يكن فحسب قادراً على أن يجتاز صقلية أثناء طريقه ، دون أن يتعرض للخطر ، بل إنه حصل منها على ما يحتاجه من المؤن وأخبار العدو ، وذلك سنة ٥٣٣ . وتألف أسطوله من ٥٠٠ حاملة للعساكر ، ٩٢ سفينة حراسة . أما الجيش الذي قاده بليزاريوس أكفأ قادة جستنيان وأكثرهم ولاء وإخلاصاً له ، فتألف من عشرة آلاف راجل ، وخمسة آلاف راكب . وكان جيشاً من المرتزقة ، يضم الهون والهيرول واللومبارديين والايزوريين والفرس ، وعناصر متبربرة أخرى . ومع ذلك لم يكن من الضخامة ما يكفي للقيام بهذه الحملة . غير أن أهم ما تلقاه بليزاريوس من مساعدة ، هو الافادة من الشقاق الذي وقع بين الوندال أنفسهم . ذلك أن ملكهم الشرعي ، هيلدريك ، كان يرمي إلى مراعاة الرعايا الكاثوليك والأمبراطورية البيزنطية فأثار بذلك مقاومة عدد كبير من مواطنيه ولا سيا ابن عمه جيليمر ، فتقرر عزل الملك الشرعي ، ولم يسع بليزاريوس إلا أن يعلن أنه لم يقدم لقتال الوندال ، بل جاء لنصرة الملك المخلوع ، والانتقام له ، فزحف على قرطاجنة حيث لقى ترحيباً كبيراً من السكان الأرثوذكس . وفي معركتين فاصلتين ، حطم بليزاريوس قوة الوندال في سنتي ٥٣٣ ، ٥٣٤ . فاستسلم جيليمر فحمله إلى القسطنطينية ، وعادت أفريقية إلى حظيرة الأمبراطورية الرومانية . على ان اخضاع البربر استغرق زمناً طويلا . وتقرر إبعاد زعماء الوندال إلى الشرق ، وجرى استرقاق العساكر وزوجاتهم . أما الخزانة الأمبراطورية والكنيسة والسكان الوطنيون فاستردوا الأراضي التي نزعها منهم الوندال . وجعلت بيزنطة من هذا الجانب بأفريقية أرخونية .

وعهد جستنيان إلى بليزاريوس ، سنة ٥٣٥ ، باسترداد ايطاليا من القـــوط الشرقيين . وساعده ايضاً ما وقع من انقسام بين المتبربرين ، ولم ينهض الفرنجـة والممالك الأريوسية بغالة لمساعدة القوط .

ويرجع الانقسام بين القوط الشرقيين ، إلى ما كان من اختلاف بين فريقـين حول علاقتهم مع بيزنطة ، فما اتخذه ثيودوريك من اتجاه للأخذ بالحضارة الرومانية ، امتد إلى زمن ابنته أمالاثونتا ، التي ظلت على اتصال بالبلاط البيزنطي ، فتعرضت لانتقام زوجها الملك القوطي ، تيوداهاد ، الذي أمر بحبسها ، ولم تلبث أن لقيت حتفهـا . ولم يكد جستنيان يسمع بما حدث ، حتى بادر بتسيير قواتـه لغزو ايطاليا . وأشد ما لقيته قوات بليزاريوس من ترحيب ، جرى في صقلية التي لم يستقر بها القوط . ومن الطبيعي أن يكون البابا من الموالين للأمبراطور . بينما خدم كاسيدروس الروماني ، ملكى القـوط ، تيوداهاد (٥٣٥ — ٣٥٦) وويتجيس (٥٣٦ ٥٤٠) وكان لزاماً على بليزاريوس أن يشق طريقـه في داخل شبه جزيرة ايطاليا . وظل القتال ثمـاني وعشرين سنة بين الأمبراطورية البيزنطية والدولة القوطية ، تنـــاوب الفريقان خلالها النصر . وانتهى الأمر برجحان كفة الرومان ، إذ تغلب بليزاريوس أولاً بمهارته على الرغم من قلة مـا لديه من الجند (٧٥٠٠ جندي) ، فوقع في يده صقلية ، ونابولي ، وروما الـتي ظل بليزاريوس ما يزيد على السنة صامداً بها لما يواجهه من هجمات جيش القوط بقيادة ويتجيس ، وذلك بفضل براعته في حركات القتال والإفادة من الخيالة الثقيلة المزرّدة والسيطرة على البحر ، والبراعة في استخدام الرماة الراكبة ، حتى بـدا كأنه حطم مقاومة عدوه سنة ٥٤٠ ، ولا سيما بعد أن أسر ويتجيس . فسقطت رافنا في أيدي الأمبراطوريين ، وعاد جنوب ايطاليا وأقاليمهـــا الوسطى إلى التبعية الرومانية .

ثم دار الحظ دورته ، بعد أن خيل للأمبراطور أن الدولة القوطية قد زالت ، وبعد ان عاد القائد الروماني منتصراً إلى القسطنطينية . ذلك أن القوط اكتشفوا

بين صفوفهم زعيما موهوباً اسمه توتيلا ، وهو شاب جسور مغامر ، على جانب من المروءة والإنسانية ، فأختـــاروه ملكا سنة ٥٤١ ، واستطاعوا بفضل قيادته أن يستردوا جميع ايطاليا ، ما عدا رافنا ، وأظهروا من صفات المرونة والحيلة ما كان جديراً باقناع أمبراطور أقل صلابة من جستنيان بضرورة الرضـــا بالصلح والسلام .

وعرض توتيلا الصلح على الأمبراطور اكثر من مرة ، على أن يحكم إيطاليا على قاعدة التبعية للأمبراطورية ولو تطلب ذلك دفع جزية سنوية . غير أن جستنيان لم يستمع لهــــذا النداء ، وبعث قائده نارسيس ، وهو خصي أرمني ، معروف بالمقدرة الحربية والدراية السياسية ،على رأس جيش كبير ، عدته خمسة وثلاثون ألف مقاتل ، فأنزل الهزيمة بملك القوط عند قرية جوالدو تادينو بإقليم اميريا . وتعقب نارسيس فلول القوط ، فسقط توتيلا قتيلا وهو يحاول الفرار سنة ٥٥٢ . ولم تمض إلا إحدى عشرة سنة حتى سلّم القوط آخر معاقلهم وحصونهم ، بعد أن تعرضت ايطاليـــا لأهوال الغزو والتخريب من ناحيـــة الفرنجة والالليماني والبرجنديين .

وتحملت إيطاليا في أثناء ذلك النضال الطويـــل المرير ، ألواناً من الخراب ، الذي ليس بعده خراب ، لأن جيوش بليزاريوس ونارسيس لم تكن رومانية الا اسماً فقط ، بل اعتبرها الايطاليون أكثر اجنبية عنهم من جنـــد القوط الذين استقروا بإيطاليا ، وأنس اليهم سكانها نصف قرن من الزمان . يضاف إلى ذلك ما حدث من تبادل المذابح والمقاتل بين المتحاربين ، وأشهر هذه المـــذابح ابادة جميع الذكور من سكان مدينة ميلان ، وعددهم في تقدير المؤرخ بروكوبيوس ، ثلاثمـــائة ألف نسمة ، وذلك أثناء القتال الذي نشب سنة ٥٣٩ بـــين القوط والبرجنديين .

وأسهب المؤرخون في وصف ما نزل ببقاع ايطاليا من بؤس شديد ، وزوال

أعداد هائلة من السكان ، واضطرار الفلاحين إلى العيش على ثمار القسطل والحشائش ، فضلاً عن أكل لحوم البشر في بعض الأحوال. أما روما التي تحملت آلام الحصار خمس مرات في تلك الحقبة ، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك النضال ، إذ اختفت العاصمة الصاخبة ، واندثرت الحمامات العامة الفخمة ، وذهبت مراكز توزيع الأغذية بالمجان ، وصمتت الملاهي الشعبية . وحل محل ذلك كله مدينة حزينة كئيبة ، ليس بها من أهلها سوى فئات معظمها من رجال الدين ، تعلوها غبرة من شدة ما نزل بها من الفقر ، ولا عمل لها إلا السير في غير عمل بين آثار العظمة الرومانية الخالية . وظلت روما من ثمّ مدينة تحيطها أراض سبخة خربة ، وتغشاها المياه الآسنة والملاريا ، طوال العصور الوسطى . ولم يعد لمجلس الشيوخ (السناتو) وجود . ولم يبق من ملعب السباق الا آثاره من العمد والأحجار . وانتهت أيام المواكب الحربية والاحتفالات بقدم المنتصرين على أعداء الدولة ، بأطراف الأمبراطورية ، كما انتهت أيام انتخاب القناصل ، وما امتلأت به من نشاط وسهر على شئون الحكم .

يضاف إلى ذلك ما ترتب على الحرب والمجاعة والوباء من تضاؤل عدد السكان ، وتفرق كثير من الأسرات الكبيرة . أما الفلاحون وسكان المدن فأضحوا في فقر مدقع ، وشاعت اللصوصية ، وتعرضت القرى والمدن لهجمات الذئاب . ووفد إلى خلجان بحر الأدرياتي ، سكان بادوا وأكويليا وسائر المدن بالقرب من الساحل ، فازداد عدد السكان بها .

أما الأمبراطور جستنيان ، فلم يزده توفيقه في الاستيلاء على افريقية وإيطاليا ، إلا طمعاً في الفتح ، ومصداق ذلك قوله « إن الله هيأ لنا أن نعاهد الفرس على الصلح ، وأن نخضع القوط والوندال والالليماني والمغاربة (أهل شمال أفريقية) ، وأن نسترد جميع ايطاليا وصقلية ، وليس لنا إلا أن نستعين بالله ، ليهبنا بقية الأمبراطورية التي مدها الرومان في سالف العصور إلى أطراف البحار ، ولم يذهبها عنهم سوى البلادة والخمول » . غير أن تحقيق تلك الأطماع الواسعة لم

يكن في طاقة جستنيان ، أو طاقة الوسائل التي تحت يده ، لأن الاحتفاظ بأفريقية وايطاليا ، وباسبانيا ، التي نجحت احدى حملاته الحربية في الاستيلاء على بعض موانيها ، سنة ٥٥٠ (١) ، في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة ايبريا ، غدا امراً مستحيلا ، فضلا عن استحالة البدء في استرداد غالة وبريطانيا ، وهو مما يحتمل ان فكر فيه أيضاً جستنيان . ثم إن سياسة اقتلاع القوط من إيطاليا أدت إلى كارثة هائلة ، وكان أنفع لايطاليا ولشبه جزيرة البلقان معها ، لو عمل الأمبراطور على مصادقة أولئك الجرمان البُسّل (القوط الشرقيين) ، ليدرأ بهم أخطار العناصر الهمجية الضاربة فيما وراء جبال الالب ، وأوضح ذلك قائد قوطي حين قال لبليزاريوس «دأبنا نحن القوط على مراعاة القوانين الأمبراطورية وتقاليدها ، في إخلاص لا يقل عن إخلاص الأباطرة السابقين . فلم يصدر الملك تيودوريك أو أحد ممن جاء بعده من الملوك قانوناً جديداً ، واحترمنا المعتقدات الرومانية كل احترام ، فلم نحمل ايطالياً واحداً على اعتناق المذهب الأريوسي ، ولم نطلب إلىقوطي تكثلك أن يعود إلى الأريوسية ، واحتفظنا بكل الوظائف المدنية للإيطاليين » .

والواقع أن مملكة القوط الشرقيين التي وقفت من الروح والتقاليد الرومانية هذا الموقف الحميد ، كان يصح أن تنقذ ايطاليا من الحروب الطويلة والفتن الداخلية التي تعرضت لها منذ القرن السادس الميلادي . إذ كان بوسع القوط أن يجعلوا من أنفسهم ،ومن صفاتهم الحربية والسياسية حمى لشبه جزيرةايطاليا.ومن هنا تتضح جسامة الغلطة التي انتهت بالقضاء على القوط الشرقيين. فلو أنهم ظلوا وشأنهم ، لما حدثت غزوات اللومبارديين وفتوحاتهم في شمال ايطاليا ، ولما قامت الدولة البابوية ، ولما احييت الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، بل ربما تحققت الوحدة السياسية الايطالية على أيديهم في القرن الثامن الميلادي .

(١) دخل في حوزة جستنيان ايضاً الجزر الواقعة في غرب البحر المتوسط وبذلك اعادت الدولة الرومانية (البيزنطية) ما كان لها من سيطرة على البحر المتوسط ، فاضحى بحيرة رومانية.

على أن الذي حدث فعلاً أنه لم تقم لجستينان حكومة قوية في ايطاليا ، ولم يسيطر نائبه (ارخون) في رافنا على جميع البلاد،ولم يستطع أن يحمي حدودها ، فانثال اللومبارديون ، وهم آخر موجات الجرمان على الأمبراطورية الرومانية ، وامتدوا الى ايطاليا بقيادة ملكهم البؤين ، ولم يلبثوا أن استقروا بالبلاد سنة ٥٠٨ ، وامتدوا إلى داخل البـلاد ، فأقاموا لهم أمـارتي بنيفنتو وسبوليتو . وبذلك اقتسم ايطاليا ، ثلاث قوى : اللومبارديون في الشمال ، والبيزنطيون ، الذين اتخذوا رافنا عاصمة لهم ، ثم مدينة روما وما يتبعها من بـلاد ، التي يتولى أمرها البابوات الذين اضحوا فعلا مستقلين عـلى الرغم من خضوعهم من الناحية الاسمية لأرخونية رافنا.ومع أن اللومبارديين انتقصوا من أملاك الأمبراطورية، ونهضت البابوية ، وحاز المسلمون فيما بعد صقلية ، فان بيزنطة ظلت مـــا يزيد على خمسة قرون، صامدةفي جنوب ايطاليا، ومن الممتلكات البيزنطة في ايطاليا، تسرب تأثير مدنية الشرق المتقدمة ، إلى مدنية الغرب التي تقل رقيّا .

على أن ما وقعه جستنيان من هدنة مع كسرى الأول (أنو شروان) ملك الفرس لم يلبث أن نقضها الفرس، الذين ساقوا جيوشهم إلى الشام (٥٤٠ –٥٤٥) ونهبوا انطاكية التي تعتبر من أقدم المدن ، واكثرها أهمية ،وأوفر مدن الشرق الروماني ، ثروة وسكانا ، واكبرها حجماً ، واكثرها جمالاً ورخاء .

القوانين

لم يكتف جستنيان باستعادة ما فقدته الأمبراطورية من بلاد ، بل اعتبر أن من واجبه أن يبعث من جديد روحها القديمة ، التي تتمثل في أن تكفل للنـاس قانوناً موحداً عادلاً .

على أن مجموعة القانون المدني Corpus Juris Civilis. التي صدرت زمـــن جستنيان ليست إلا ثمرة ما حدث من تطور بطيء . إذ أن بدايتها تتمثل في عادات القبائل اللاتينية التي حلت بايطاليا من قديم الزمن،وأخذت تتسع طوال التاريخ الروماني ، بفضل القضاة الرومان ، والسناتو الرومـــاني ، والأباطرة

الرومان ، فجرت صياغة ما يصح تسميته القانون المدون . وفي نفس الوقت ، تطورت آراء وشروح رجال القانون ، في نوع آخر من القوانين ، يقابل ما هو معروف الآن بالقانون العام .

وترتب على اتساع الأمبراطورية الرومانية ، أن اقتضت الحاجة الفصل في الخصومات التي تقع بين المواطنين وغير المواطنين . وفي هذه الأحوال ، كان لزاماً ألا يفرض فحسب العرف اللاتيني على غير اللاتين ، بل لا بد أيضاً من تقدير ما عند الشعوب الأخرى من قوانين وعادات ، ومحاولة تطويع القانون الروماني لها . ونجم عن هذه الملاءمة وذلك التطويع ، ما يعرف بقانون الأمم ius gentium . وتأثر القانون الروماني أيضاً بآراء الفلاسفة الرواقيين في القانون الطبيعي ، وهو عبارة عن طائفة من المبادىء التي تتحكم في حياة جميع الناس على أنهم اخوة من البشر . وانطوى قانون الشعوب على هذا القانون الطبيعي ، وبذا نما القانون الروماني ، وأضحى نظاماً صالحاً لعالم البحر المتوسط ، بصرف النظر عن القوميات والأشخاص . ويعتبر ذلك في حد ذاته عملا فريداً من الناحيتين الفكرية والسياسية .

على أن كتابات المشرعين المبتكرة توقفت بعد القرنين الأول والثاني ، غير أن القانون المدون استمر في النمو والتطور . وما حدث من اعتناق المسيحية ، وما جرى من تغيير في طبيعة الدولة ، في الأمبراطورية الرومانية المتأخرة (منذ زمن دقلديانوس) ، أدى إلى أن يتخذ القانون اتجاهاً مغايراً لما كان معروفاً من قبل . إذ أن قدراً كبيراً من القانون السابق ، لم يعد صالحاً ، نظراً لما تكاثر به من الازدواج والتناقض ، واشتدت الحاجة الى جعله ملائماً لروح العصر . يضاف إلى ذلك ، أن ما نجم عن الفوضى التي سادت الأمبراطورية الرومانية المتأخرة ، وما تعرضت له من أخطار ، جعلت جانباً كبيراً من أعمال فقهاء القانون عرضة للضياع .

وحدث قبل زمن جستنيان ، أن حاول الأمبراطور تيودوسيوس الثاني ، في سنة ٤٣٨ ، تنظيم القانون المدون وجعله يتلاءم مع عصره ، غير أنه لم يبذل

أي جهد لتنظيم ما حوته كتابات الفقهاء من سوابق قانونية. وحرص جستنيان على تنظيم كلتا الفئتين من القانون ، القانون المدون ، وكتابات الفقهاء ، وعلى أن يصدر المدونات الأصلية لكل القوانين التي لازالت مستخدمة ،حتى تصير المصدر الثابت الذي تستند إليه المحاكم ، والدراسة ، بمدارس الحقوق . ولتحقيق رغباته اسند هذا العمل إلى وزيره تريبونيان ، ففي سنة ٥٢٧ تألفت لجنة من رجال القانون برئاسة تريبونيان ، أفادت من المدونات السابقة ، وقامت بترتيب وتنظيم كل ما صدر عن الأباطرة ،منذ هادريان حتى جستنيان من القانون المدون ، وجعله في مجلد واحد ، وهو المعروف بمدونة جستنيان Codex Justinianus .

ثم عكفت لجنة تريبونيان على كتابات الفقهاء ، وبعد ثلاث سنوات أخرى ، أعدت مجلداً آخر ، يحوي مائة وخمسين ألف سطر ، جرى استخلاصها وتركيزها ، من ألفي درج roles ، تحوي حوالي ثلاثة ملايين من السطور ،وهذا المجلد هو المعروف باسم الموسوعة Digesta أو Pandecta .ومنذئذ صارت هذه الموسوعة تعتبر الشرح الوحيد المعترف به .وفي سنة ٥٣٤ ،صدرت نسخة منقحة من القانون (المدونة) ، بعد أن تبين ، في تجربة اعداد الموسوعة ، أن بعض محتويات القانون أضحت غير صالحة . ثم صدر آخر الأمر ما هو معروف بالنظم Institutes ،الذي ليس إلا كتاباً موجزاً يضم أصول القانون الروماني ،ويستخدمه طلبة الجامعات ثم صدر ملحق للقانون ، غير أنه يختلف عنه في أن معظمه صدر باللغة اليونانية ، وهذا الملحق ، وهو المعروف باسم Novellae Leges ، حوى فيما بعد ما صدر من تشريعات جستنيان وأخلافه المباشرين .وتألفت من القانون ، والموسوعة ، والنظم ، والملحق ، ما يعرف بمجموعة القانون المدني Corpus Juris Civilis .

وبرغم ما تعرضت له مجموعة القانون المدني من النقد ، بسبب ما اقترن به تصنيفها من السرعة ، وأنها لم تكن إلا مجرد تصنيف ، وليست مجموعة مقبولة للقانون الروماني ، فما من أحد قلل من أهمية هذا العمل ، أو بالغ في تقديره .

فلولا هذه المجموعة ، لضاع انتاج ما أشتهرت به روما من عبقرية خلاقة في القانون . وانطوت هذه المجموعة أيضاً على صورة ما أصاب الأمبراطورية الرومانية وعصر جستنيان من التداعي ، وفي هذه المجموعة ما كان للمسيحية من أثر تهذيبي في القانون الروماني زمن جستنيان .

وأضحت هذه المجموعة منذ القرن الثاني عشر الميلادي أساساً لما حدث من تطور للقانون في غرب أوربا . وإذ حوى هذا القانون ما أشتهر به الأباطرة الرومان المتأخرون من سلطة استبدادية مطلقة ، فإن ملوك غرب أوربا استندوا إلى ما يحويه من نظرية قانونية عن السلطة المطلقة ، وذلك في نضالهم مع الارستقراطية الاقطاعية القوية . وإذ أكد أيضاً حق الملكية الخاصة ، جرى الاستناد إليه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، في نزع ما للفلاحين في غرب أوربا من حقوق وملكية عامة . وأدخلته الكنيسة فيما أصدرته من القانون الكنسي .

تقدير اعمال جستنيان

على أن ما حاق بالشطر الأخير من عهد جستنيان من بؤس وعبوس ، لم تكن معالجته مستحيلة ، إذ تم استرداد انطاكية من الفرس ، وساد الهدوء الحد الفارسي منذ سنة ٥٥٧ ، وعاد السلام إلى أفريقية ، ونعمت ايطاليا بالاستقرار بعد حروب استمرت تسع عشرة سنة والواقع أن هذا الهدوء إنما يرجع أساساً إلى ما حل بالجيوش البيزنطية من اعياء ، وما اقدم عليه جستنيان من إعادة فتح الغرب ، لم يؤد في حقيقة الأمر إلا إلى الخراب والدمار .

وتكلفت فتوح جستنيان نفقات طائلة . فالمعروف أن جيوش جستنيان كانت من المرتزقة ولا بد من دفع مرتباتهم ، برغم أنها تتقاضى أجورها مؤجلا . وكانت الحاجة ماسة إلى الجيوش ، في فارس وأفريقية ، وايطاليا ، واسبانيا ، وتراقيا . ومع أن القادة ، أمثال بليزاريوس ، اتخذوا لهم عدداً كبيراً من الأتباع ، فإن ذلك لم يقلل الحاجة إلى العساكر والمؤن ، وكان بليزاريوس يلح دائماً في طلب إرسال العساكر المأجورة والأموال .

لم يفرض جستنيان ضرائب جديدة يسدّ بها هذه النفقات المتزايدة ، غير أنه اشتد في تنفيذ نظام الضرائب ، وزاد في الضياع الأمبراطورية بوسائل مشروعة وغير مشروعة . وكانت ضريبة الأرض أشد ما تعرضت له الضرائب من الخطر ، إذ أضحى ملاك الأراضي مسئولين عن الضرائب المقررة على الأراضي المجاورة لهم ، التي هجرها أصحابها ، وخلت من الزراعة . وكان ذلك عبئاً ثقيلا ، ولا سيما بعد أن طال أمد الحروب ، واندلع الوباء الكبير سنة ٥٤٢ . وورد في متجددات جستنيان ما يشير إلى أن كبار الملاك هم أشد خصوم الحكومة ، نظراً لأنهم يسيرون شئون ضياعهم الشاسعة ، ولم يحفلوا بالحكومة المركزية ، ويلقى جستنيان باللوم على الأعيان المحليين ، الذين يقومون بادارة الضياع الخاصة ، فيطوفون بالبلاد ، يحيط بهم الحرس وجموع الناس ، ويسطون على كل شيء . فسلبوا أملاك الحكومة ، بما حوت من قطعان الخيل ، ولم يتجاسر أحد أن يجهر بذلك .

أعلن جستنيان حربا لا هوادة فيها على كبار الملاك ، فلجأ الى التدخل في مسائل الوراثة ، وزيف منحاً لصالح الأمبراطور ، وجرت مصادرات ، لانعدام الدليل على ملكية الأراضي ، وأثار محاكمات دينية يرمي من ورائها إلى حرمان الكنيسة من أراضيها . وجعل جستنيان كل هدفه ، تحطيم الملكيات الكبيرة . ومع ذلك لم يستطع أن يدمرها نهائياً ، فبقيت من أهم خصائص حياة الأمبراطورية في الفترات التالية .

والواقع ان اللوم يقع على جستنيان ايضاً ، فيما يتعلق بسوء الأحوال المالية ، لأنه أصر على استرداد الأقاليم في الغرب ، في نفس الوقت الذي تعرضت فيه الأمبراطورية للخطر من قبل الصقالبة (في الشمال) والفرس (في الشرق) ، إذ كان حريصاً على استخلاص الأمبراطورية من أيدي المتبربرين ، علما أنه لم يكن ثمة جيوش رومانية خالصة ، بل تألفت من قبائل المتبربرين . وأدرك الايطاليون أن القتال نشب بين جيوش تعتبر غريبة عنهم ، وكلها من المتبربرين ، ولعلهم يشيرون بذلك إلى الحكومة الأمبراطورية على انها يونانية لا رومانية ، فلم يبق شيء يتصف بالرومانية . ولم يكن جستنيان واقعياً ،

فالقوط باعتبارهم معاهدين ادوا للايطاليين خدمات جليلة ، بما بذلوه من الدفاع عن حدودهم ازاء سائر المتبربرين . ولم يكن بوسع جستنيان ان يجعل بايطاليا حاميات عسكرية بصفة دائمة ، إذ كان لزاماً عليه أن يجند من اللومبارديين قوة عسكرية لإتمام اخضاع القوط ،فزاد بذلك في اغراء اللومبارديين ونزوعهم لغزو ايطاليا ، فكأن جستنيان زاد الوضع سوء في ايطاليا بـدلاً من اصلاحه ، إذ لم يلبث اللومبارديون أن غزوا إيطاليا عقب وفاة جستنيان .

ولم يكتف جستنيان بما اتخذه من وسائل سياسية وعسكرية لإعادة الوحدة إلى الدولة الرومانية ،بل أعتبر أن له رسالة دينية لابد أن يحققها ،باعتباره محرر الكاثوليك من الأريوسيين ، وأن من واجبه أن يعيد الوحدة إلى المسيحيين المؤمنين في ظل حكمه ، وأن يقيم الديانة على أساس سليم من العقيدة الواحدة ، وظن إن بوسعه تحقيق ذلك باستخدام القوة والتشريع الأمبراطوري . وتجاهل جستنيان مـا كان حادثاً فعلاً ، فالشرق ولا سيا مصر ، كان شديد التحمس لتأييد المونوفيزتية التي يبغضها الغرب . ولم يكن كل من الشرق والغرب مستعداً للوصول إلى اتفاق في العقائد الدينية من اجل الوحدة السياسية .ومن هنا جاءت متاعب جستنيان، إذ أن سياسته مع المونوفيزيتين كانت بالغة الأهمية، لسببين الاول ما كان لعلاقاته بهم من أهمية سياسية، نظراً لأنه يدين بالمونوفيزتية الأقاليم الشرقية، مصر والشام وفلسطين . أما السبب الثاني فهو مساندة ثيودورا للمونوفيزتيين ، ولذا بلغ مـن ازدياد نفوذهم أن بطريرك القسطنطينية ، أوائل عهد جستنيان ،واسمه انثيموس، اتخذ سياسة الوفاق والمصالحة مع المونوفيزتيين ، غـير أن البابا (اجابيتوس) والمسيحيين في الغرب لم يرضوا عنـه ، فتقرر عزله . والراجح ان جستنيان استجاب لطلب البابا ، نظراً لأنه احتاج إلى مساندته في ايطاليا ، أثناء حروبه مع القوط الشرقيين . وعلى الرغم من أن تدخل الأمبراطور في الأمور الدينية كان أمراً مألوفاً في الشرق ، فإنه لم يكن مقبولا في الغرب ، إنما لقي المعارضة مـن الأساقفة وملوك الفرنجة . ولذا لم تجد نفعاً دبلوماسية الأمبراطور باعتبارهـا وسيلة للتوفيق بين الشرق والغرب .

ومع ذلك فأنه يصح القول إن العالم الروماني قد ذبل ، فالصفة الرومانية لم تعد واضحة في القرن السادس الميلادي ، ومنذ الذي يصح اعتباره من الرومان في هذه الفترة ، أكان هؤلاء الرومان شعب روما الذي تفتت وتبدد بعد أن تعرضت للحصار تارة على أيدي القوط ، وتارة على أيدي رجال الأمبراطور؟ أم كانوا رجال بلاط جستنيان ، وكلهم لا ينتمون للرومان ، فجستنيان من ايلليريا، وبوئيثيوس من تراقيا، ومع أن كاسيدروس من الرومان بحكم مولده، فإنه خـدم القوط الشرقيين ، ثم لجـأ إلى ديره حينما لاح النصر لرجال الأمبراطور .

والواقع أن جستنيان يعتبر من الشخصيات التي تثير الحيرة ؛ فبينما يدهش الانسان لما صنفه من القوانين ، ولما أنشأه من الكنائس في القسطنطينية (القديسة صوفيه) ، ورافنا ، تحتم على المؤرخ أن يعترف بأن ما أقدم عليه جستنيان من استعادة الغرب ، على حين أن الحاجة كانت ماسة للدفـاع عن الحدود المواجهة للفرس والصقالبة ، أدى الى أنه استنزف موارد الأمبراطورية للمضي في سياسة لم ينجح في تحقيقها .

ملحق ٤

سياسة ثيودوريك

ملك القوط الشرقين

مقدمة :

دلّ حكم ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في إيطاليا ، (٤٩٦ - ٥٢٦) على أن القوط حرصوا على المحافظة على الحضارة الرومانية ، ولم يقصدوا تدميرها . وما وضعه من منهاج لاستعادة ما للرومان من إدارة واقتصاد وحضارة ، يصح التماسه في الرسائل التي كتبها عنه ، كبير وزرائه كاسيدروس ، العالم الروماني ، الذي ينتمي الى الارستقراطية الرومانية . على ان جهود هذا الملك الذي يعتبر أعظم الملوك الجرمان ، قبل ظهور شارلمان ، ذهبت هباء ، لما واجهته من مقاومة مشتركة ، من قبل البابوية ، وكثير من نبلاء روما ، والامبراطور البيزنطي ، الذي أخذت جيوشه تتدفق على إيطاليا عقب وفاة ثيودوريك ، لإستعادتها من أيدي القوط .

* * *

ومن هذه الرسائل ، رسالة صدرت عن ثيودوريك إلى أحد الولاة « مكسيميان » ، ونصها :

إذا أراد أهل روما تجميل مدينتهم ، فسوف ننهض لمساعدتهم . فلتضع حساباً دقيقاً عن الاموال التي نؤديها لسائر العمال ، الذين يتولون تجميل المدينة . ولتراع أن ما يصلنا من المال يضارع ما يجري انفاقه . فإذا حدث اختلاس من

جهة من الجهات ، فينبغي التجاوز عن هذه الأموال المختلسة . ونحن نتوقع أن يبادر الرومان بالاسهام فيهذا العمل الوطني،من مواردهم الخاصة ، والواضح أن هذا لا يمنع ما نسهم به من أموال لهذا الغرض .

فالطيور المحلقة تهوى أعشاشها ، وتسعى الوحوش إلى بيوتها ، وتعود الأسماك إلى جحورها بعد أن جابت المحيطات ، ألا تظفر روما بمحبة بالغة من أبنائها .

وفي رسالة أخرى :

ينبغي ألا يصدر من محصولات إقليم من الاقاليم ، إلا إذا كان فائض المحصول يزيد على الكمية اللازمة لسد حاجاته . فلتجعل في الموانى أشخاصاً يراعون أن السفن الأجنبية لا تحمل إلى الشواطىء الاجنبية شيئاً من الانتاج، إلا بعد أن يحوز متعهدو الحكومة كل ما احتاجوه .

وفي رسالة أخرى :

يبغض الملك كل ما يحيق بالتعساء من الظلم ، ويشجعهم على أن يرفعوا له ظلاماتهم.سمع أخيراً أن رجال السناتو واسرائهم لا يؤدون نصيبهم من الضرائب، ونجم عن ذلك أن مقداراً كبيراً من المال جرى ابتزازه من الفلاحين .

ولاستئصال هذا الانحراف في المستقبل ، جرى توجيه رسالة إلى السناتو ، وتقرر دعوة أعضاء البلديات لعرض شكواهم كاملة وصريحة ، وإلا فعليهم أن يؤثروا السلامة ، ويتذرعوا بالصبر .

ملحـــق ٥

مفاهيم قانونية عامة

العدالة والقانون

العدالة هي الرغبة الشديدة الدائمة في أن ينال كل شخص ما هوحق له .

١ – أما التشريع فهو الالمام بالأمور الآلهية والبشرية ومعرفة ما هو عدل، وما ليس بعدل .

٢ – وإذ جرت الدراية بهذين التقسيمين ، وإذ نوشك أن نشرح قوانـــين الشعب الروماني ، فان هذا الشرح يجري على أحسن وجه ، إذا تم أولاً معالجة كل موضوع على حدة ، في صورة سهلة واضحة ، ثم تزداد المعالجة دقة وعناية ، لأنه إذا بادرنا بأن نحمل عقل الطالب تفاصيل كثيرة متنوعة ، فلا يؤدي ذلك إلا إلى احد أمرين ، وهو إمـــا أن نحمله على هجر دراساته،بما يبذله من جهد شاق ، أوبافتقاره الى الثقة بالنفس ، وهـــو مـــا يثبط عـــادة عزيمة الشبان، وإمـــا أن نجعله يصل الى الغاية ذاتهـــا إذا سلك الطريق البالـــغ اليسر ، دون أن يبذل جهداً كبيراً ، ودون أن يفقد الثقة بنفسه .

٣ – وفيما يلي أصول القانون : بأن تعيش شريفاً ، صادقاً ، لا تنزل الضرر بغيرك ، وأن تعطي كل ذي حق حقه .

٤ -- ولهذه الدراسة فرعان ، عام وخاص . فالقانون العام هو الذي يعالج إدارة الحكومة الرومانية . أما القانون الخاص فيتعلق بمصالح الأفراد . وبهذا كان للقانون الخاص فيما يقال ثلاث خصائص ؛ إذ أنه مؤلف من أصول القانون الطبيعي ، وقواعد قانون الشعوب ، وقواعد القانون المدني .

القانون الطبيعي ، وقانون الشعوب ، والقانون المدني :

فالقانون الطبيعي هو الذي علمته الطبيعة كل الحيوانات ، فليس هذا القانون خاصاً بالجنس البشري ، بل يجري تطبيقه على كل المخلوقات التي تعيش في الجو ، والأرض ، والبحر . ومن هنا نشأ اتحاد الذكر بالأنثى الذي نسميه زواجاً ، ومن ثم جرى انجاب الأطفال وتعليمهم ، لأننا نلحظ أن الحيوانات الأخرى تتصرف كما لو أنها على علم بهذا القانون .

٥ -- وانقسم القانون المدني وقانون الامم على النحو الآتي :

كل الشعوب التي تخضع للقوانين والتقاليد تفيد من القانون الذي يخصهم من ناحية ، ويتعلق بجميع الرجال من جهة أخرى . وما اتخذه كل قوم لأنفسهم من قانون ، يعتبر خاصاً بتلك الدولة ، ويعرف بالقانون المدني ، على اعتبار أنه القانون الخاص لهذه الجماعة من الأفراد . أما القانون الذي أقرته الفطرة بين الجنس البشري ، والذي يجري ملاحظته بين جميع الشعوب ، فهو المعروف باسم قانون الشعوب ، لأن جميع الأمم تفيد منه .

٦ -- وكل ما يقره الملك ، صار له أيضاً قوة القانون لأنه بمقتضى قانون الملك Lex regia ، الذي يستمد منه الملك سلطته ، عهد الشعب له بكل ما له من ولاية وسلطة . ولذا فان كل ما يصدره الملك من قوانين أو قرارات ، أو أوامر بمقتضى مرسوم ، يعتبر قانوناً ، وكل هذه القرارات تسمى دساتير .

ومن هذه الدساتير ما يعتبر شخصياً ، فلا تعتبر سوابق ، لأن الملك لا يحب أن تتخذ هذه الصفة . فما يبذله من فضل لأحد الأفراد بسبب جدارته ، أو مــــا ينزله من عقوبة بشخص، أو ما يخصه بمساعدة استثنائية،لا يتأثر به الا الشخص الذي اختصه الملك بذلك .

أما غير ذلــك من الدساتير فيخضع لهـــا جميــع الناس دون نقاش ويلتزمون بها .

انجلترا

ليس معروفاً متى انسحبت القوات الرومانية نهائياً من انجلترا ، والراجح أنه ترتب على الموجة الجرمانية في غالة اوائل القرن الخامس الميلادي (٤٠٧م)، ان انقطعت الصلة بين ولاية بريطانيا والدولة الرومانية . غير أن روما لم تتخلَّ عن تلك الولاية تخلياً رسمياً، ولم تتخذ قراراً بالجلاء عن أرض ظلت طوال أربعة من القرون مصدراً للثروة، ومدعاة للفخر ، بسبب ما أقامه الرومان في أرجائها من طرق معبدة ، ومدن عامرة ، فضلاً عما وجدوه بهـا من الرقيق والمعادن والزراعة ، والحقيقة أن إنفصال بريطانيا عن روما ، جاء نتيجة لحوادث لم يكن لروما عليها سلطان، بل ترك البريطانيون وشأنهم للدفاع عن أنفسهم ، فلم يلبثوا أن تحطموا قبالة الخطر المحدق بهم من ناحية البكتيين والاسكتلنديين في الشمال، وناحية القراصنة من السكسون الجرمان في الجنوب .

والواقع أن ما حدث في بريطانيا ، في الفترة الواقعة بين إنسحاب القوات الرومانية (سنة ٤٠٧ م)، ووصول القديس أوجسطين إلى شواطئها سنة ٥٩٧، يكتنفه الغموض . على أن غارات الجرمان على شواطىء انجلترا لم تنقطع لفترة تزيد على قرن من الزمان، ولم يلبث الجرمان أن نزعوا الى الاستقرار. والمعروف أن سكان بريطانيا الرومانية أقاموا في البلاد المرتفعة المشهورة بالتربة الخفيفة ، وتجنبوا النزول بالأراضي ذات التربة الثقيلة ، التي اشتهرت بها وديان الأنهار . وإذ ألف الجرمان الحياة في اراضي المستنقعات والغابات، تعتبر هذه الوديان أصلح

مكان يحلـّون به. ولذا مخروا بقواربهم مياه الأنهار بالسواحل الجنوبية والشرقية، ثم استقروا بالأراضي الممتدة على شواطىء الأنهار.

وإذ عاش البريتون (البريطانيون) في المرتفعات، بينما أقام الجرمان في الوديان، عاش العنصران زمناً غير قصير في سلام وهدوء نسبي، في بعض الأقاليم، غير أنه كلما توسع الجرمان، أضحى النزاع والنضال أمراً لا مفر منه. وعلى الرغم من أنه لم يتوافر من الحوليات المعاصرة أو الوثائق، ما يكشف عن طبيعة ما وقع من الأحداث، فان أعمال الحفر العلمي أظهرت حرائق واسعة في كثير من المدن الهامة، مثل كانتبرى، مما يؤدي الى ترجيح النضال الشديد بين الغزاة والبريطانيين، فخربت البـــلاد، وتعرضت المدن للحريق، وحلّ بالسكان القتل والأسر، وجرت مطاردة من نجا منهم غرباً وشمالاً بغرب. وإذا كان لأسطورة الملك أرثر أساس تاريخي، فإنه يعتبر أحد القادة البريطانيين الذين دافعوا عـن بلادهم أثناء القتال مع الجرمان. على أن الجرمان ظفروا بالنصر آخر الأمر، ففي سنة ٥٧٧، بلغوا السفرن Severn، وبذا فصلوا بين البريطانيين في ديفون وكورنول الذين لم يخضعوا إلا في القرن الثامن، عن حلفائهم في ويلز وشمال شرقي انجلترا. ولم تحل سنة ٦١٥، حتى صار بحوزة الجرمان، كل ما هو معروف الآن باسم انجلترا، فيما عـــدا ديفون وكورنول، فضلاً عن ويلز، ولا نكشير، وكمبر لاند، وويستمور لاند.

والمعروف ان الجرمان الذين غزوا انجلترا، جاءوا من شبه الجزيرة، المعروفة الآن بالدانمرك، ومن البلاد الجرمانية الواقعة الى الجنوب منها مباشرة، وهذه العناصر الجرمانية، هي التي كانت معروفة بالانجليز، والسكسون والجوت، ويربط بينهم اشتراكهم في اللغة والعادات والتقاليد، والتي اكتفى المؤرخون بالإشارة اليهم، على أنهم الانجليز السكسون. على أن استيلاءهم على الجانب الأكبر

من انجلترا بلغ من الاكتمال ما لم تبلغه الفتوح الجرمانية الأخرى التي سبق الإشارة إليها . ومع أن الكشف الحديث دل على أن بعض القرى ظلت في أيدي سكانها ، وأنه جرى استرقاق أعداد من البريطانيين ، ولا سيما النساء ، فالواقع ان الانجليز السكسون انتزعوا أراضي البريطانيين ، بعد أن أنزلوا بهم القتل والتشريد . وما أحتله الجرمان من بلاد انجلترا ، قبل سنة ٦١٥ ، أضحى قرى جرمانية يعمل بها الفلاحون الجرمان . أما الأقاليم التي تم فتحها بعد هذا التاريخ ، مثل كرنول وديفون ، فإن الأنجليز السكسون لم يكونوا سوى الفاتحين العسكريين ، الذين يتولون حكم الشعب ، وينطبق هذا أيضاً على الأقاليم التي تقع في الشمال الشرقي ، والتي انتزعوها من مملكة ستراتكلايد الكلتية . ولم يبق للمدنية الرومانية إلا أثر ضئيل في الجزيرة البريطانية ، فاقتسم حكم بريطانيا ، الكلتيون والجرمان .

على أن بريطانيا احتفظت بالأجناس البشرية التي لقيها يوليوس قيصر وكلوديوس في أرجاء الجزيرة أبان الفتح الروماني القديم . وأول أولئك الأجناس ، جنس الإيبريين السمر ، الذين ترجع أصولهم ترجيحاً الى العصر الحجري الحديث ، ويليهم الكلتيون الجيليون (Jaelic) سكان الجبال الاسكتلندية ، من ذوي الشعر الأصهب والأسلحة المصنوعة من البرونز ، ثم الكلتيون البريتونيون (Brythonic) الذين استقروا في ويلز وكورنول ، وعرفوا بأسلحتهم المتخذة من الحديد . فلا زال هؤلاء يمثلون عنصراً من العناصر التي يشتمل عليها سكان الجزيرة البريطانية ، أما الذي قضى عليه الفتح السكسوني ومحاه محواً ، فهو ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان في بريطانية : اللغة اللاتينية ، والديانة المسيحية ، والمدن الكبيرة ، والنظم الرومانية .

ومهما كان من شيء ، حلّ ببريطانيا مجتمع جرماني بدائي يقوم على الزراعة ، ويدين بالوثنية ، ويتكلم اللغة الجرمانية ، ويختلف في معيشته عما ألفه سكان المدن البريطانية على عهد الدولة الرومانية ، لأن العناصر التي غزت بريطانيا واستقرت

بها ، لم تتأثر بالمدنية الرومانية قبل قدومها الى بريطانيا أو بعده ، ولذا سكنت تلك الأجناس القرى والكفور دون المدن ، وزرعت الأرض زراعة الحصص المبعثرة حسب نظام الحقول الثلاثة. ولما أستقر هؤلاء الجرمان ببريطانيا،أنشأوا إمارات صغيرة ، كان لكل منها ملك ومجلس (الويتان Witan) يتألف من كبار النبلاء . وانقسم الناس طبقات ، تختلف من إمارة الى أخرى . فالطبقة العليا، تتألفمن أفراد الأسرةالحاكمة ،ويلي هؤلاء الجزيت Jesithesوالايرلات. وأفراد هذه الفئات الثلاثة يؤلفون المحاربين، ويعتبر الجزيت والإيرلاتالعساكر الذين يخدمون الملك .

اما الطبقاتالعاملة في الأرض ، فتتألف من الأحرار ، وفئات أخرىليسوا أحراراً. ويتولى الويتاناختيار الملكمن بين أفراد الأسرات الحاكمة ، ويسدي له النصح في الأمور الهامة ، ويسود قانون العرف في المحاكم الأهلية التي يرأسها نواب عن الملك ، يختارون من فئة ، المحاربين ، ويشهد الأحرار هذه المحاكم ، وتصدر القراراتعن جميع الحاضرين . وللملك ، بعد موافقة الويتان، أنيصدر من القرارات ما يصح أن تعدل في قانون العرف أو تكون إضافات له .

غير أن أولئك الغزاة الجرمان لم يكونوا يداً واحدة ، في أيامهم الأولى في انجلترا ، برغم ما بينهم من صلة الوحدة والمجانسة في الأصول والفروع . ولعل ذلك راجعالى المساحات الواسعة من المستنقعات التي فصلت بين قبائلهم ، وإلى الغابات الكثيفة التي منعتهم من الاتصال بعضهم ببعض ، ولذا لم تصبح انجلترا دولة متحدة إلا بعد زمن استغرق أجيالاً عديدة . ولذا امتلأت أوائل تاريخ ذلك الجزء الذي نزل به الانجليز السكسون من الجزر البريطانية ، بسلسلة من الحروب المهلكة بين مجموعات مختلفة من أولئك الغزاة الذين ساعدتهم جغرافية البلاد على تكوين عدد من الدول .

وتركز اهتمام الملوك الانجليز السكسون في إثارة القتال والحرب الداخلية . فإذا أنزل أحدهم الهزيمة بالآخر ، فأما أن يضيف مملكته إلى بلاده ، وإما أن

يلزمه بدفع إتاوة له ، وحدث في بعض الأحوال أن استطاع أحد هؤلاء الملوك أن ينزل الهزيمة بكل أنداده ومنافسيه ، فيصبح عندئذ سيداً على كل انجلترا أو Bretwealda . هـــذا الوضع أتخذه في أواخر القرن الخامس الميلادي ملك السكسون الجنوبيين، ثم اثلبرت ملك كنت، من السكسون الغربيين ، وصديق القديس أوجسطين ، من ٥٨٤ حتى ٦١٦ ، ثم ملك الانجليز الشرقيين. والواضح أن الملوك الأوائل لانجلترا قنعوا بالحصول على الإتاوة من أعدائهم المغلوبين على أمرهم، فلم يضيفوا الى بلادهم ، الإمارات الصغيرة المتاخمة لممالكهم ،وظلت انجلترا على ذلك النحو من المنافسات والمنازعات الداخلية حتى جـاء الدانيون مـن بلاد الدانمرك ، فبدأوا صفحة جديدة في التاريخ الانجليزي .

ومن تلك الأثناء ،دخلت انجلترا مرة أخرى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . وهنا لم يكن التحول عن الوثنية إلى المسيحية راجعاً الى شيء من التوبة ، بل كان مرجعه ضغط الملوك وخضوع الرعايا ، وقنوعهم بما شاء لهم ملوكهم من الدين . فتبع أهل مملكة كنت ملكهم اثلبرت ، وحذا حذوهم أهل نورثمبريا ، وايست انجليا ومرسيا ، ووسكس . وصار جميع الناس على دين ملوكهم . وبذا ارتبطت انجلترا مرة ثانية بالعالم اللاتيني فتعلمت ، من جديد مـا للقوانين المكتوبة من مزايا في تثبيت أحوال البلاد والناس ، وصارت لهم نظم كنسيه مرتبة على نسق النظم الأمبراطورية الرومانية أدق ترتيب ، ومن الدليل على ذلك ان أول المجالس القومية التي عقدت بانجلترا هي المجالس الكنسية ؛ وأن أول مجموعة من القوانين العامة جمعت بمملكة كنت بارشاد القديس أوجسطين ، كما ان تقسيم انجلترا ، من أجـــل الإدارة الكنسية ، الى أسقفيات ، ثم تقسيم الأسقفيات الى ابروشيات ، يرجع الفضل فيه الى الرومان من رجال الدين . وهكذا بدأت الثقافة اللاتينية تسري من جديد في أرجاء الجزيرة البريطانية ، بفضل القسيس الروماني الكاثوليكي ، وما اشتهر به من دقة في تأدية واجباته وما يسند اليه من أعمال .

الفصل الخامس

الكنيسة الكاثوليكية

اشتد الجدل ، واحتدمت المناقشة ، حول أصل نظـــام الكنيسة والسلطة البابوية ، ومع ذلك لم يكن بوسع مؤرخي العصور الوسطى أن يغفلوا أمرهـــا . إذ أن الكنيسة أسهمت بوسائل عديدة في بناء العصور الوسطى .

والمعروف أن الديانات يدعو إليها الانبياء ، ثم يتولى رجال الدين تنظيمها . فالرسل هم الذين تولوا التبشير بالمسيحية ، الذي يعتبر من أعمال الكنيسة ،فصاروا يدعون إلى الدين أثناء رحيلهم وطوافهم . فأقاموا الكنائس وأنشأوا الجماعات المسيحية في مدن عديدة بالأمبراطورية الرومانية ، أمثال : كورينثه ، وافيسوس ، وسالونيك ، وروما . وتظهر رسائل القديس بولس في جلاء ، ما كان من علاقة وثيقة بين هذه الكنائس ومؤسسيها . وأحسّ القديس بولص بأنه المسئول عـــن الكنائس التي أنشأها ، حتى أثناء رحيله في أرجاء الأمبراطورية .

على أن التبشير الذي قام به الرسل أثناء طوافهم ورحيلهم ، انقطـــع في مستهل القرن الثاني الميلادي ، وقامت بالعالم المسيحي كنائس محلية ، يخضع كل منها لأحد الأساقفة ،الذي كان يتولى جميع الشئون الدينية حتى توزيع الصدقات.

ومن الطبيعي أن تتطابق وحدات الكنيسة المسيحية مـــع وحدات الإدارة

الأمبراطورية . فما كان للكنيسة واسقفها من ولاية ، لا تعدو أن تكون المدينة civitas . وهذه المدن تقابل في المساحة ما هو معروف بالكونتيات، إذ تألفت من مدينة صغيرة وما يتبعها من القرى . وأحب معظم المسيحيين أن ينزلوا بالمدن ، بينما ظل أهل القرى وثنيين ، فيعتبرون بذلك غير مسيحيين . على أن واجبات الأسقف وقتذاك تختلف اختلافاً جوهرياً عن واجبات الأسقف في الوقت الحاضر، فلم يكن لديه ابروشية، أو هيئة من رجال الدين يشرف عليها . على أنه صار لديه في القرن الثاني هيئة من الاكليروس لمساعدته ، كما أنه كان يقيم الصلوات في أماكن مختلفة بداخل اقليمه ، غير أن الكنيسة لا زالت تعتبر واحدة ، وليست منقسمة ، وهو وحده الذي يمثلها أمام الله . وفي المراكز التي تزيد أهمية ، تتوافر هيئات الاكليروس المساعدين ، ففي روما مثلاً ، كان يساعد الأسقف ، سنة ٢٥١ ، ستة وأربعون قساً ، وسبعة شمامسة ، ويؤلف الشيوخ القسس presbyters المجلس، ويساعدون الأسقف في عمله الروحي، الذي يتعلق بتلقين العقيدة والايمان . أما الشمامسه فانهم يعتبرون بصفة عامة كهنته وكاتمي سره ، فينوبون عنه في توزيع الصدقات ، وينهون إليه خبر الذنوب والخطايا التي تحتاج إلى تأديب . ويعتبر الأسقف رأس الجماعة المسيحية، والمفروض أنه يعرف رعاياه فرداً فرداً ، واسما اسما، وهو وحده الذي يدخل، للكنيسة أعضاء جدداً ، لأنه هو الذي يقوم بالتنصير . وهو وحده الذي يأمر بالحرمان من الكنيسة ، وهو الذي يرأس قداس العشاء الرباني ، ويعتبر ممثل الرسل ، ويتجسد فيه الايمان .

وترجع أهمية وضع الأسقف إلى أن كثيراً من الكنائس قد انشأها الرسل ، قبل أن يجري تدوين الأناجيل . فالمعروف أن أقدم ما دوّن من الأناجيل هو انجيل القديس مرقس ، وذلك حوالي سنة ٦٥ م ، وأحدثها انجيل القديس يوحنا ، حوالي سنة ٩٥ م . فتعاليم الكنيسة الأولى لم تعتمد أساساً على الانجيل، بل أن الأناجيل ذاتها بعد تدوينها لم تكن لتفوق ما للكنيسة من تقاليد حية ،

نظراً لأنها ليست سوى محاولات لجعل هــذا التقليد مدونا . ولم يكن بالغرب حتى سنة ٣٨٢ م ، نص معترف به للكتب المقدسة . ولذا كان من الأمور بالغة الأهمية ، أنه كان لزاما على الأسقف أن يتلقى شفويا ، تعاليم العقيدة، من مصدر موثوق به ، مثل رسول من الرسل أو من تـلاميذهم . ولم تكن خلافة الرسل ، مجرد صيغة ، بل كانت حقيقة واقعة ، وضرورة حتمية . مثال ذلك ، كان كلمنت ، الذي يعتــبر ثالث الأساقفة الذين جاءوا بعد الرسل، قــد شهد الرسل الأبرار ، وتحدث إليهم ، ولا زالت تعاليمهم ترن في أذنيه ، ولا زالت تقاليدهم وآثارهم ماثلة أمام عينيه . ولم يكن هــو وحده الذي تلقى التعليم من الرسل ، بل حظى به كثيرون آخرون ، فايريناوس Irenaeus نفسه (مات حوالي سنة ١٧٠ م) ، كان أسقفاً في ليون ، وتلقى التعاليم الدينيــة في أزمير من القديس بوليكارب (٦٩ — ١٥٥ م) الذي تحدث إلى القديس يوحنا ، وغيره من الرسل الذين تعرفوا إلى المسيح . وهو الذي أدرك أنه لا بد من وضع مقياس للايمان ، وتحديد ما يعتبر منه مسيحيا أو غير مسيحي ، والتمييز بين العقيدة السليمة ، وغير السليمة. ولتحقيق مستوى الايمان،استخلص ايريناوس من تعاليم الرسل ، قاعدةللكتابات التي يصح أن ترجع إلى أصل رسولي،واعتبر أن الاساقفة أصدق المفسرين لهذه الكتابات ، لأنهم هم الذين خلفوا الرسل في إدارة الكنائس.فكل كنيسة أسقفية تستطيع أن ترجع أصلها إلى من قام بانشائها سواء كان رسولا أو مندوبا عــن الرسول . ولذا ينتمي الأساقفة ، عــن طريق الرسل ، إلى المسيح الذي يعتبر مؤسس الكنيسة . فهم بذلك أقدر الناس على شرح صدق التقليــد الرسولي،لأنهم أخلاف الرسل فمن يعتبرهم الأساقفة ملاحدة ، صاروا ملاحدة، ومن يعتبرون مؤمنين ، كانوا مؤمنين .

ولا شك أن الأساقفة يعتبرون من الناحية النظرية متساوين،فكلهم يعتبرون أخلافاً للرسل، يتساوى فيذلك أسقف رومة مع أي أسقف آخر، ولذا لم يكن لانتقال الاسقف من مقره إلى مقر آخر ، شيء من الأهمية . على أنه حدث جنباً

إلى جنب مع هذه المساواة ، أن صار لبعض الأساقفة الأسبقية في عقد مجامع محلية للأساقفة ، لمناقشة الأمور التي تقتضيها السياسة العامة للكنيسة . واكثر هذه المجامع شيوعاً ، تلك التي يجتمع فيها اساقفة أحد أقاليم الأمبراطورية [1] . كما أن أيسر مكان للاجتماع كان المدينة العاصمة . ومن الطبيعي أن يكون رئيس المجمع هو أسقف المدينة الحاضرة (المطران). ولذا كان للمراكز المطرانية أهمية كبيرة في كل إقليم من أقاليم الأمبراطورية،وأقر مجمع نيقية (سنة ٣٢٥) هذه الحقيقة .

وفي الشرق أضحت القاعدة المعروفة ،أنه كلما استحدث الأمبراطور إقليما جديداً بالأمبراطورية ، قامت به تبعاً لذلك مطرانية للكنيسة . ومع ذلك فإن هذه القاعدة لم تجر مراعاتها بدقة في الغرب ، على الرغم من أن أقاليم رؤساء الأساقفة (وهو اللقب الذي صار يطلق فيما بعد على المطارنة) ، كانت انعكاسا صادقاً للجغرافية الإدارية للأمبراطورية الرومانية .

وظهر في القرن الرابع الميلادي اتجاهان مختلفان عن الأسباب التي جعلت لبعض الكنائس من الأهمية ما يزيد على الكنائس الأخرى ، فمن جهة ، كان ثمة رأي يدعو إلى أن أهمية المقر الديني (الكنيسة) مستمدة من أهمية مركزه في الإدارة الأمبراطورية ، ومن جهة أخرى ، كان الرأي الثاني يعتبر أن أهمية المقر الكنسي تتوقف على قوة تقاليده الرسولية ، وأهمية منشئه ومؤسسه ، وكلا الرأيين،يصح تطبيقهما على المراكز الكبرى الثلاثة ،انطاكية ،والاسكندرية، وروما ، إذ أن هذه الكنائس الثلاثة زعمت أن مؤسسها القديس بطرس ، سيد الرسل ، سواء قام بذلك بشخصه ، مثلما كان الأمر في روما وأنطاكية ، أو بانابة الرسول مرقس ، مثلما جرى في كنيسة الاسكندرية . والمعروف أن هذه

(١) لاعطاء فكرة عن حجم الاقليم ، يكفي الإشارة إلى أنه كان بغاله ١٧ اقليما ، تضم ١١٢ مدينة .

المدن الثلاثة تعتبر من المراكز الإدارية الهامة بالأمبراطورية . فأنطاكية كانت حاضرة اقليم (diocese) [1] الشرق الشاسع، أما الأسكندرية فكانت عاصمة مصر ، مقر الفكر في العالم الهلينسقي ، وكانت روما ، بطبيعة الحال ، عاصمة الامبراطورية الرومانية .

ومع ذلك ، فانه كان من العسير على الكنيسة ، من الناحية العملية ، أن تقبل عن طيب خاطر أياً من الرأيين . فإذا كان نظام الكنيسة يطابق فعلاً نظام الدولة ، فسوف يترتب على ذلك أن ما كان للكنيسة من مجتمع لاهوتي ، إنما جرى قيامه ليتلاءم مع إطار عالم الأمبراطورية الدنيوي ، الذي ليس إلا عالماً زائلاً . يضاف إلى ذلك،أن ما حدث من تغييرات في نظام الأمبراطورية، لا بد أن يتبعه أيضاً تغييرات في نظام الكنيسة . وكان من أثر هذا الرأي أن أعلن مجمع القسطنطينية الذي انعقد سنة ٣٨١،أن لأسقف القسطنطينية الصدارة بعد اسقف روما،لأن هذه المدينة هي روما الجديدة.وإذ نقل إليها قنسطنطين، السناتو ، والقنصلية ، ومقر الأمبراطورية ، وحوت بذلك خصائص روما القديمة وروما الجديدة ، ، فإنه تبعاً لذلك انتقل إلى الحاضرة الجديدة أيضاً ، جانب من سلطة كنيسة روما . (ولذا كتب يوحنا ، بطريرك القسطنطينية أواخر القرن السادس : انني اتولى أقدس كنيسة لروما القديمة والجديدة ، واعتبرهما واحدة ، واعتبر كرسي الرسول بطرس ، وكرسي العاصمة الأمبراطووية كرسيا واحداً) .

على انه يصح التساؤل هل من الصواب أن يعتبر ما قام به الأمبراطور من

---

(١) كانت « diocese » ، في مصطلح الأمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي ، وحدة ادارية تشمل عدة أقاليم.فالمعروف أنالأمبراطورية انقسمت إلى ولايات prefectures، وانقسمت هذه الولايات إلى دوقيات dioceses ،التي انقسمت بدورها إلى أقاليمprovinces، وشمل الاقليم المدن ، وانقسمت المدن إلى بلاد urbs, oppside , castra, pagi, vici . وما يدعو إلى الأهمية ، عدم الخلط بين الدوقيات الأمبراطورية ومن استخدام هذا اللفظ (diocese) فيا بعد للدلالة على حاضرة (مدينة) الأسقف .

جانب واحد ، من إجراء ، بأن أنشأ عاصمة جديدة ، لا بد أن يؤثر في نظام الكنيسة الثابت ؟ .

الواقع أن التفسير البديل ، وهو أحسن ما نعرفه ، ما كان من صلة سلطة بطرس الرسول بكنيسة روما ، حيث جرى حول قاعدة قبة كنيسة القديس بطرس كتابة آية وردت في انجيل متى ، خاطب فيها المسيح بطرس : وأنا أقول لك أنت الصخرة ،وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها »[1] . وعلى الحائط تمّ نقش أسماء البابوات في سلسلة متصلة غير مقطوعة ابتداء من القديس بطرس حتى الوقت الحاضر .

وتتضمن دعوى كنيسة روما الكاثوليكية أن المسيح نصب القديس بطرس رئيساً للكنيسة ، وان البابوات ليسوا إلا اخلاف القديس بطرس[2] . وهذه النظرية التي دعا إليها لأول مرة القديس سيبريان (٢٤٨– ٢٥٨) ، لم تلبث ان ذاعت وانتشرت في الغرب.فما حدث من اعتراف مجمع سرديكا المنعقد سنة ٣٤٣ أو ٣٤٤ بحق استئناف قرارات المجامع الإقليمية المحلية إلى أسقف روما ، زاد فعلاً من دعاوي روما باعتبارها الحكم الأعلى للكنيسة . وما توالى على روما من

---

(١) عبارة النقش اللاتيني هي :

Tu Es Petrus, et Super Hanc Petram Aedıficabo Ecclesiam Meam Et Tibi Dabo Claves Regni Caelorum .

(٢) يكاد الاتفاق بين الدارسين المحدثين يكون تاماً ، على احتمال أن القديس بطرس توجه إلى روما ، وانه استشهد بها ، ودفن بثراها سنة ٦٤ م . غير أنه ليس من الضروري أن يترتب على ذلك أن القديس بطرس كان مؤسساً لكنيسة روما ، إذ كان أول اسقف لهـا . فرسائل القديس بولص التي حوت معلومات وفيرة عن الكنيسة المبكرة في روما لم تشر إلى أن هـذه الكنيسة انشأها القديس بطرس ، بل انها لم تكن على صلة به وقتذاك . وكان القديس سيبريان ٢٤٨-٢٥٨ م هو اول من اشار الى القديس بطرس على أنه مؤسس كنيسة روما .على أنه حدث قبل ذلك التـاريخ ما يشير دائماً إلى القديسين بطرس وبولص ، باعتبار أن كنيسة روما تدين بوجودها لهما بالتساوي ،فهل يحدث ذلك لو أن كنيسة روما التزمت بمبدأ سلطة بطرس .

الطلبات التي تلتمس منها الآراء في المشاكل التي يجري التنازع عليها ، لم يلبث أن أدّى إلى التأكيد بأن كل ما يعتبره أسقف روما قانوناً للكنيسة ، هو القانون فعلاً. رأخذت البابوية رسمياً ، في مجمع انعقد بروما ، تحت رئاسة البابا داماسوس الأول ، سنة ٣٨٢ ، بمالها من صدارة بمقتضى التقليد البطرسي ، حين رد على مجمع القسطنطينية (٣٨١) ، بأن صدارة روما لا تستند إلى قرارات صادرة من سينود (مجمع سنة ٣٨١)،بل ترتكز إلى ما بذله المسيح من وعد للقديس بطرس. وبذا قام نوع من ترتيب الكراسي الرسولية البطرسية ، تعتبر روما الأولى في هذا الترتيب،ثم تلتها الاسكندرية ، ثم انطاكية ولم ترد الإشادة إلى القسطنطينية.

ومن الدليل أيضاً على مكانة المقر الرسولي ما ورد في أقدم القرارات البابوية المعروفة ، أواخر القرن الرابع ، من إشارة البابا سيريكوس Siricus ،إلى أنه ليس لأحد من كهنة السيد المسيح ، أن يكون حراً في إغفال قرارات المقر الرسولي ، وما للقوانين الكنسية من تعاريف ، ينبغي انتهاكها .

والملحوظ أن كلتا النظريتين الأمبراطورية والرسولية ، تمت صياغتهما ، بعد بداية تطور هيئة الكنيسة ، وبذا تعتبران تفسيرين لما حدث فعلاً . فالكراسي الرسولية الأربعة ، روما ، والاسكندرية ، وانطاكية ، والقسطنطينية ، صارت لها الزعامة في الكنيسة ، دون منازع ، في منتصف القرن الرابع ، على الرغم من ظهور منافسين في كنيسة بيت المقدس ، وكنيسة ميلان .

على أن السؤال الذي لا زال قائماً هو كيف انتظمت العلاقات بين كل هذه الكنائس ، هل تعتبر متساوية في المكانة ، أم هل لإحداها الصدارة والزعامة على الأخرى ، وإذا حدث ذلك فأيها تكون لها الزعامة .

أول ما يتبادر في الذهن للاجابة على السؤال ، هو أن تكون الزعامة والصدارة لروما ، لأنها الوحيدة ، التي تنعم بالأصل الرسولي ، والعاصمة الامبراطورية . على أن ما حدث في القرن الخامس الميلادي ، من تعرض روما

لتخريب المتبربرين ، يجعل من العسير التطلع إلى هذه النتيجة المنطقية .

أما المواطن المسيحي بالأمبراطورية فتراءى له أن الاسكنــدرية هي المقر الرسولي الذي يصح أن تكون له الزعامة على كل الكنيسة إذأن القديس بطرس هو الذي عهد إلى القديس مرقس بإنشاء كنيستها . وكانت الاسكندرية مركز الديرية في مستهل ظهورها ، ومقر القديس أثناسيوس ، وحاضرة الفكر والثقافة في العالم الهلينستي . وارتابت الكنائس الأخرى بالشرق في أن لكنيسة الاسكندرية مطامع بابوية ، فلأسقفها السيطرة المطلقة على كنائس الأقاليم الستة بمصر ، إذ أقر كل ما يجري من انتخابات للكنائس الشاغرة ، وقام بنفسه برسامة جميع الأساقفة ، وساد الاعتقاد أنه يود أن تمتد هذه السلطات إلى ما هو أكثر اتساعا من إقليمه . وفي المجامع الكنسية الكبرى كان الفريق المصري بالغ القوة ، وكان دائماً مناوئاً لفريق القسطنطينية ، الذي كان حريصاً على أن يكون صوته مسموعاً في ادارة الكنيسة الامبراطورية . وكلا الفريقين حرصا على التماس المساعدة من كنيسة روما ، لما لها من مكانة عندهما ، غير أن بعدها عنهما ، وحلول الجرمان بالقرب منها ، كل ذلك لم يجعل لرأي روما أهمية حاسمة .

والواقع أن قوة البابوية الحقيقية وقتذاك ، كانت مستمدة فعلاً من ضعفها ، إذ كانت روما بعيدة عن مقر الحكومة الامبراطورية (القسطنطينية) ، وكادت تقع في أيدي المتبربرين ، بينما خضعت الاسكندرية والقسطنطينية لتدخل الأمبراطور في كل الأمور الكنسية . فحاول أن يسيطر على الكنيسة ، وما كان يعرضه من صيغ للوفاق بين المذاهب المختلفة ، لم يكن يقصد به سوى المحافظة على وحدة الامبراطورية وكنيستها . أما اللاهوت (أصول الدين) في روما فكان يجري مستقلا ، فلم تكن البابوية خاضعة للامبراطور ولا معادية له ، وإذ استقرت في معقلها البعيد في الغرب ، لم يهزها ما حدث من منافسات سياسية ودينية بين الاسكندرية والقسطنطينيه . فانتهجت لنفسها سياسة دينية مستقلة ، ولم تحفل بالسلطة الامبراطورية . ومع ذلك فإن روما نعمت بميزة أنها مدينة امبراطورية ، لما

كان لها من ماض مجيد وسلطان كبير . ومهما كان للمتبربرين من سلطة قوية ، فإنهم كانوا يجلون اسم روما ويقدرونه ، بل أن المدينة ، حتى في خرائبها ، تمثلت لهم على أنها خلاصة الأمبراطورية والمدنيـــة . وإذ هجر الامبراطور وقتذاك المدينة ، أضحى البابا أهم مواطن بها ، إذ أن البابا ليو الأول(٤٤٠ — ٤٦١) ، هو الذي حث اتيلا ملك الهون على الارتداد عن ايطاليا ، سنة ٤٥٢. ولما نهب الوندال روما بعد ثلاث سنوات ، كان هذا البابا أيضاً هو الذي تدخل لإنقاذ الكاثدرائيات الثلاثة البالغة القدم من النهب ، بل انه أنقذ المدينة ذاتها من الحريق . واعتقد المتبربرون أن البابوية تمثل سلطان روما وسحرها ، ولهذا أهمية كبيرة ، لأن كنيسة روما الكاثوليكية لم تبلغ عظمتها على انها فحسب كنيسة روما ، بل على أنها أيضاً كنيسة المتبربرين .

والواقع أن ليو الأول تمسك بتفسير ما ورد في قرارات مجمع نيقية من « أن لكنيسة روما الصدارة دائماً » . فأتم ليو أول مظهر من مظاهر تطورالبابوية : ذلك أن ما لروما من سيطرة روحية ، مستندة إلى النظرية البطرسية ، أخـذ يعترف بها الغرب رويداً رويداً . وكان ليو أول من أكد ما للبابوية من صفة روحية ، تربط بين البابوات وشخص القديس بطرس ، وتنسب كل ما يفعـــله البابوات أو يقولونه إلى أمير الرسل (بطرس) . « فما أصبْنا في فعل شيء ، أو في صدور قرار ، وما حصلنا عليه من شيء من رحمة الله ، بما درجنا كل يوم على تأديته من صلوات وتوسلات ، ليس إلا من عمل بطرس ومن خلاله ، ذلك الذي تتركز قوته في مقره ، والذي تفوق سلطته كل شيء ». وإذ استقرت السيـادة الروحية للبابوية ، بدأ في زمن بابوية ليو الأول أيضاً ما كان من تطور نحو السلطة الزمنية ، وما جرى آخر الأمر من السيادة الزمنية . ففي سنة ٤٥٥ ، أصدر الأمبراطور فالنتيان الثالث مرسوماً يقضي بخضوع كل أساقفة الغرب للبابا ، ويطلب إلى الموظفين الأمبراطوريين أن يطيعوا الأساقفة . فكأن البابوات أخذوا يسعون للاستقرار في البلاط الأمبراطوري .

ولما أضحى وضع الكنيسة معترفاً به من الناحية الرسمية ، لم تلبث أن غدت مالكاً للأراضي ،وبذا فاقت في ثروتها الارستقراطية السناتورية في الامبراطورية الرومانية المتأخرة. وأضحى لها الضياع المبعثرة في سائر انحاء العالم، ويقوم على فلاحتها من الارقاء والفلاحين ، من اسهموا في زيادة ثروتها . وسخا الأباطرة فيما بذلوه للكنيسة من خزائن الأمبراطورية من منح ، وكثر ما يوقف عليها من الأحباس من كل الجهات . ومن هذه الثروة ، ما كان يؤدي لرعاية الفقراء والمرضى ، وما ينفق على رجال الدين ، وما يستخدم لتشييد كنائس جديدة . ومع ذلك ترددت الشكوى أن الكنائس لا زالت بالغة الفخامة والأبهة . فالثروة والمظهر لم يكونا فعلا من صفات الكنيسة المبكرة ، وبسببها اتسعت الفجوة بين رجال الدين والشعب . وما حدث من تغيير في اتجاه الكنيسة ، بأن تغاضت عن القنية والاسترقاق ، واغتفار خطيئة الزاني بالتوبة ، وعدم نبذ الحروب ، ليس له من معنى سوى قبول النظام الاجتماعي المعروف قديما عند الرومان . وحدث في عصر مبكر يرجع إلى أواخر القرن الرابع الميلادي أن منع القانون الروماني رجال الدين من السعي وراء الحصول على التركات والوصايا . ويصف القديس جيروم هذا النوع من رجال الدين الرومان :

« إني لأتحدث عن الرجال الذين ينتمون لطائفتي (رجال الدين) ، الذين لم يسعوا لوظيفة قس او شماس ، إلا لتتوافر لهم الحرية للتطلع إلى النساء . فجعلوا كل اهتمامهم في الملابس والعطور والروائح، والعناية باتخاذ الأحذية الملائمة ولمعت أصابعهم بالخواتم ، وكأن هؤلاء الرجال لأشبه بالعرسان، لا رجال الدين. وإذا استرعى نظر الواحد منهم ، حشية أو غطاء مائدة ، أو قطعة أثاث ،أخذ يتمدح ويبدي الاعجاب بها ، ويتحسسها بيديه ، ويبث شكواه بأنه في حاجة ماسة إليها ، حتى ينتزعها آخر الأمر هدية . هذا النوع من الرجال ليس صديقاً للعفة والصيام ، إذ يتعرف إلى غذائه بما يصدر عنه من نكهة وطعم» .

هذه الانتقادات جاءت من رجال أرادوا أن يتخلوا عن هذه الصورة الشكلية من الديانة التي صارت إليها المسيحية عند كثير من النـاس ، وأحبوا أيضاً أن يتخلوا عن الكنيسة المسيحية التي سالمت المجتمع الروماني ، وسعوا فعلا إلى أن يهجروا ذلك المجتمع بأسره ، وإلى أن يلتمسوا الخلاص في مكان بعيد عن الجموع ، في موضع موحش بالصحراء ، أو المستنقعات أو الغابات ، أو معقل على جبـل شاهق . ومن المحقق أن ظهور الرهبانية وانتشارها وإقبال الناس عليها ، يصح تعليله على انه احتجاج على ما طرأ على المسيحية من تغيير منذ أيامها الأولى ، وعلى أنها ثورة على ما ساد بالأمبراطورية الرومانية في القرن الرابع من حياة شبـه وثنية وشبه مسيحية [1] . فما كان من مفارقة حادة بين ما تردد في العهد الجديد (الكتاب المقدس) من ديانة خالصة وحياة سهلة ، وبين ما صنفه رجال الدين ، وقد اكتمل ترتيب هيئتهم وازدادوا قوة ، من لاهوت غليظ صارم ، وما غلب على حياتهم من صفة دنيوية فضلا عن الابتذال والمجـون خارج الكنيسة ، كل ذلك حمل النفوس شديدة الحساسية على الفرار إلى الصحراء ، للابتعاد عـن دواعي الاغراء وكيما تلتمس السلام في العـزلة . وأضحى التخلي عن الأملاك ، والوطن ، والأقارب ، ضرباً جديداً من التضحية الذاتية ، ومن الاعراب عـن

(١) حينما تسامحت الدولة رسميا مع المسيحية ، ثم غمرتها بالأفضال ، ثم فرضتهـا آخر الامر على الناس ، أقبل على الدخول في الكنيسة أعداد كبيرة من الناس لأسباب لا تمت للدين ولا للتقوى بسبب من الاسباب . فالتشريـع الذي أجبر الناس على اعتناق المسيحية ، لن يترتب عليه أن كل الذين دخلوا في الدين كانوا مخلصين . وما لجأ إليه الاساقفة من العنف لارغام الناس على دخول المسيحية ، ادى إلى أن يدخل في الكنيسة كثير ممن لن يفيدوا منها ، أو تستفيد منهم . وكانت المسيحية وقتذاك من القوة ، ما جعل السـاخطين يلتمسـون أكثر الوسائل سلامة للتعبير عن أنفسهم ، مثلما حدث في تعاليم الهرطقة في الازمنة المبكرة . ولذا ترددت شكوى القديس باسيل من « أن قوانين الكنيسة بالغـة الاضطراب ، فالرجال الذين لا يخشون الله ، دفعهم الطموح إلى اعـلا الوظائف ، واضحت الوظيفة المرموقة ، جائزة لمن تجرد من التقوى . وكانت النتيجة انه كلمـا اغلظ الرجال في الأيمان ، اعتقد الناس انه خير من يصلح لان يكون اسقفا .

الدين والتقوى . فالفقر والتقشف يهبان القداسة ، كما أن المشاق والوحدة ، تغفر الذنب ، وفي تعذيب البدن وإذلاله ، خدمة للحياة الروحية . وفي هذا المعنى ، يصح اعتبار الديرية حركة اصلاحيـة جديدة استعادت ما كان للمسيحية الأولى من مثل تتعلق بالحياة الآخرة . أضحى الناسك والراهب من أبطال الايمان مثلما كان الشهداء الأوائل ، وصارا موئل الصفات المسيحية الخالصة ، وظلا على ذلك نحو الف سنة .

ومع ذلك فإن ما أثار العالم المسيحي في القرنين الثالث والرابع من مبـــدأ الزهد والتنسك ، لا يصح تفسيره بمفرده على أنه رد فعل لمـا ساد من الأحوال بداخل الكنيسة وخارجها . فالتنسك يعتبر فيما يبـدو أمراً طبيعياً عند الرجل المتمدين إذ كان نظاماً معروفاً في غير المسيحية من ديانات عديدة . ففي الديانة الوثنية والفكر الوثني، نزوع قوي للزهد والتنسك،ولا بد أن التنسك المسيحي تأثر بما ينطوي عليه نظام ديني أو فلسفي آخر من الزهد يضاف إلى ذلك ،أن الهروب من الدنيا هو الفرصة لتحول الزهد إلى ممارسة عمليـة ، وإلى أن يحظى الشخص بالطريق المؤدي إلى الله ، من ثنايا التأمل والتفكير ، الذي كان معروفاً بأنه عامل يتكرر حدوثه في كل ما ساد العالم الروماني المتأخر مـــن ديانات وتفكير فلسفي .

ومبدأ الزهد والتنسك تأصل في الشرق،شأنه شأن ما تنطوي عليه المسيحية من مبادىء أخرى ، ثم امتد إلى الغرب. فظهر في مصر في القرن الثالث،وشاع في الشرق في القرن الرابـع ، غير أنه لم يظهر في الغرب في القرن الخامس إلا في بعض الأمكنة ، وبعض الأزمنة ، ولم يكن عاماً إلا في القرن السادس . واتخذ الزهد عند المسيحيين الأوائل صورة بسيطة تتمثل في طول أمـد الصـــلاة ، والصيام ، وفي حرص النساء على العفة . على حين أنه كان مألوفـــاً في مصر في القرن الثالث ، أن يعتزل الزاهد أو الناسك بيته ، بـل انه يتخلى عن المجتمع المتمدين نهائياً ، مثلما فعل القديس أنطوان الذي يعتبر أقدم الزهاد المسيحيـين

الذين نعرفهم . ومن العسير أن نعطف على أسلوب الحياة الذي يتخذه الزهاد ، على أن انكار هذا الأسلوب من ناحية أخرى، معناه العجز عن فهم أسمى الفضائل المسيحية فيا تلى ذلك من القرون . على أن الصورة المتطرفة للتنسك تعتبر فيا يبدو نوعاً من الهوس الديني . فما أسرف فيه هؤلاء الزهاد من ألوان التقشف ، كالعيش بين الحشرات والجلوس في القذر والوسخ ، وتناول الطعام الكريه ، والخلط بين المحسوس وبين ما يشتهونه ، واعتبارهم الجمال عدوا للقداسة ، كل ذلك يعتبر بعيداً عن مستوى معقول للفضائل في الحياة. وما جرى بينهم من التناقس الشديد في الزهد ، الذي جعل الراهب مقار يقول: لو سمع أن واحداً باشر عملا من أعمال الزهد والنسك، لاشتد حماس الجميع للقيام بهذا العمل، فليس ذلك الا صورة للمباهاة والتظاهر. فالصراع مع الشيطان أو العفاريت، والذي يؤدي حتما إلى انتصار الراهب الزاهد البار ، لم يلق إلا النقد الشديد ، حتى من القديس جيروم ، الذي يعتبر من اعظم مؤيدي الحياة الديرية ، ولم يكن المقصود منه إلا رفع شأن أبطالهم في نظر العالم ، وابتزاز الأموال قبل كل شيء .

غير أن ما أحرزته، هذه التقوى القاسية الصارمة من انتصارات ، أحس بحلاوتها المنتصرون . ويروي القديس جيروم كيف كان يود في معظم الأحيان أن ينطلق وحده إلى الصحراء ، بعد أن أنزل ببدنه الأذى ، لمجرد التفكير فيا أشتهرت به روما من الترف والعبث ، والافتتان بصحبة الأناث . « فأينما صادفت وديانا عميقة ، وجبالاً شاهقة ، وصخوراً منتصبة ، اتخذت منها مكاناً للعبادة ، وبها أنزلت ببدني من العذاب بما أقوم به من عمل شاق ، حتى تراءى لي في بعض المرات ، بعد أن ذرفت الدموع وجهدت عيناي من التطلع إلى السماء ، (والله شاهد على ما أقول) انني بين الملائكة ، أنشد معهم » .

ومنذ أن ظهر الناسك بالوجه القبلي بمصر ، لم يخرج مطلقاً عن مجاله ومسرح أعماله. وهذه الفئات المتطرفة ظهرت في فلسطين وسوريا على أنهم أولياء يقتاتون العشب ، ويقيمون على الاعمدة ، فالقديس سمعان العمودي الذي روّض نفسه ،

بأن اتخذ حزاماً دقيقاً حاداً ، واقام بكهف مظلم، وأمضى صيفاً باكمله قائمـــا في الحديقة ، استهل حياته بأعلى عمود بالقرب من أنطاكية سنة ٤٢٣ ، ثم صار يرتفع رويداً رويداً عن الارض حتي بلغ ارتفاعه ستين قدماً ، وأمضى ثلاثـــين عاماً على قمة العمود . غير أن حياة الزاهد المنقطع كانت من الشدة والقسوة ما ليس بوسع الزاهد العادي أن يتحملها ، بل إن القديس أنطوان اضطر أن يهيىء للنساك الذين اجتمعوا حوله في أعداد وفيرة، الفرصة لأن يتخذوا صورة أخرى من الحياة الجماعية .

وفي القرن الرابع جرى الاتجاه إلى الأخذ بالحياة الجماعية في الدير ، في ظل طائفة من اللوائح ، عوضاً عن حياة الزاهد السابقة . وهـــذا الاتجاه بـدأه القديس باخوم بالقرب من طيبة بالوجه القبلي، في الشطر الأول من القرن الرابع .وكان باخوم ينتمي أصلا إلى الوجه البحري ، وأنجبته أسرة وثنية ثرية ، وكان من عساكر جيش الأمبراطور قنسطنطين . ولمـــا اعتنق باخوم المسيحية لجأ إلى الصحراء، حيث مارس حياة الزهاد النساك غير أنه لم يلبث أن زال عنه الخداع، فأدرك أن الناس ليسوا إلا مخلوقات بشرية، وأن حياة الزهاد تسبب لهم الجنون، شأنها في ذلك شأن الحبس الانفرادي ، ولذا لجأ باخوم مع فئة قليلة من مريديه إلى جزيرة تبنيسي بالنيل ، وذلك سنة ٣٤٠ ، حيث أقام مؤسسة جماعية (ديرا) koinabion ورتب ما بهـــا من قلايات على نحو ما هو معروف في المعسكر الروماني . ووضع طائفة من اللوائح، تحاكي ما هو معروف في الفرق الرومانية من النظام والسلوك ، إذ التزم الطاعة المطلقة، والسكون التام، والعمل اليدوي ، فضلا عن الرياضه الروحية ، وبذا استطاعت الحياة الجمـاعية الديرية أن تقتلع وتنزع ، بفضل النظام المبني على الفكر والعقل ، ما ساد حياة الزهد من عيوب واضرار بالغة الخطورة . ويشير مؤرخ معاصر ، وهو بالاديوس ، الذي زار مصر حوالي سنة ٣٩٠ ، إلى أنه كان بجزيرة تبنيسي ألف واربعمائة راهب، فضلا عن سبعة آلاف أقاموا في دور اضافية .

ولم تلبث الرهبانية، بمظهريها الديري والانعزالي (التنسكي) ،أن انتشرت من مصر إلى الأقاليم الرومانية بالشرق. فما بدأه القديس باخوم من جهـــد في مصر ، واصله في القرن الرابع القديس باسيل اسقف قيصرية قبادوقيا (بآسيـا الصغرى) ، فأصدر لجماعته من الرهبان اللوائح والقواعد . والواقع أن القديس باسيل جمع في شخصه الناحيتين المثالية والعملية . فاستعاض عن العزلة التـامة للزاهد ، بحياة الدير ، إذ هجر الصحراء ، واقام جماعاته بالقرب من المدن لا في داخلها . ومنع تعذيب النفس ، وانهاك البدن بالصيام المتواصل ، إنمـــا ينبغي اعداده وتدريبه على العمل. وما حدث من إحلال العمل اليدوي ، مكان تعذيب البدن ، لم يكفل للأديرة فحسب الاكتفاء الذاتي ، بل ساندها في مساعـــدة الفقراء والمعذبين ، وتقرر أيضاً تشجيع التأمل الديني باعتباره عاملاً اضافيا في الحياة القوية النشطة ، غـــير أنه ينبغي ألا يكون وسيلة للتراخي والكسل . وينبغي أن تتخذ الأعمال الديرية صفة عملية ، بأن تجري ممارسة الفلاحة ،وغرس الحدائق ، والنسيج ، وصناعة الجلود والأخشاب ، وقطع الحجارة ، وأعمـال العمارة والبناء . وحرم الملكية الخاصة ، فيما عدا الملابس ، غير أنه ينبغي أن تتسم ثياب الراهب بالبساطة والتواضع والتقشف . وينبغي أن يكون الطعـام مغذياً ، ليس وفيراً . وينبغي مراعاة السكون التام ، إلا في الأوقات المباحة . وتقرر أيضاً منع الهذر والتفوه بالألفاظ البذيئة ، غـــير أن الابتسام والضحك الخفيف يعتبر من علامات السريرة النقيه والقلب السعيد . وأضحت قاعدة باسيل ، هي القانون الذي جرت عليه الأديرة في بلاد الشرق وبلاد الصقالية ، ولذا لم تتعرض للتغيير حتى الوقت الحاضر .

ووصلت الرهبانية الانعزالية إلى إيطاليا على يد القديس اثناسيوس ، صديق القديس انطوان ،وذلك أثناء نفيه للمرة الثانية ،بعد نزاعه المستمر مع الأريوسيين. ولقيت هذه الرهبانية ترحيباً كبيراً في ايطاليا ،وجرى نقل ترجمة حياة القديس انطوان ، التي ألفها القديس اثناسيوس ،إلى اللغة اللاتينية .غير أن الغرب الروماني أظهر منذ

البداية من الاهتمام بهذا النوع المنتظم من حياة الدير ، ما يزيد على اهتمامه بالرهبنة الانعزالية . فترجم القديس جيروم قاعدة باخوم إلى اللاتينية، كما جرى وضع موجز باللغة اللاتينية لقاعدة باسيل . وأنشأ القديس يوحنا كاسيان ، الذي سبق أن أقام في طيبة ، دير القديس فيكتور بمرسيليا ، سنة ٤١٠ ، ووضع قواعد للديرية (Institutes (collatio ، أثرت منذ زمن مبكر في الديرية في الغرب .

والواقع أن الديرية في الغرب اتخذت اتجاهاً عملياً ، واضحت ، بقدر يسير من ملائمتها للمجتمع ، أداة قوية لتدعيم الكنيسة . وما بلغته البابوية في تطور قوتها ، يرجع إلى ما لها من صلة بالديرية البنيدكتية .

القديس بنيدكت

وينتمي مؤسس هذا النظام الديري ، بنيدكت نورسيا ، إلى أسرة نبيلة بايطاليا ، وعاش بين سنة ٤٨٠ ، ٥٤٣ ، أي زمن مملكة القوط الشرقيين في ايطاليا ، والمراحل الأولى من حرب الاسترداد التي شنها جستنيان، فكأنه شهد أفول الحضارة الرومانية في ايطاليا ، وعاصر كلا من كاسيدروس وبوئيثيوس. وبينما حاول بوئيثيوس أن يجعل من تراث العالم القديم صوراً مبسطة يفيد منها سكان الغرب بعد أن خضع للمتبربرين ، أدى بنيدكت هذا العمل بالنسبة للديرية. وإذ تعرضت ايطاليا للخراب على أيدي الجيوش المتنازعة ، واجتاحها ٥٤٢-٥٤٣ الوباء الذي راح ضحيته القديس بنيدكت نفسه ، تراءى وقتذاك أن الأمن والسلام الروماني قد زال إلى الأبد ، وزال معه كل فرصة للابقاء على الحياة المسيحية بالمدن . ولم يسع بنيدكت نفسه إلا أن يلجأ إلى المواضع الخربة ، والأماكن المهجورة التي لم تصلها الغارات ، ولم تعرف ما اشتهرت به المدن من الرذائل . ومع أن عدداً كبيراً من الزهاد سبقوه إلى الاعتزال ، غير أنه لم يقر تطرفهم ومغالاتهم ، بل انه اشترط صفات خاصة فيمن يمارس الحياة المسيحية الخالصة .

ولذا جعل للديرية قاعدة ليس فيها شيء من الضغط أو القسوة ، على الذين يودون الالتحاق بالدير لخدمة الله. وبرغم حرص كل من باخوم وباسيل على اعتبار

الدير هيئة تكفي نفسها بنفسها ، فإنهما لم يمضيا في تنمية فكرة الدير باعتبـــاره هيئة متعاونة مشتركة ، على نحو مــــا هو معروف في دير القديس بنيدكت . إذ يتحدث بنيدكت في قاعدته عن واجب الراهب في الطاعة ،والتخلي عن ارادته ، من أجل الله ، ومن أجل الجماعة التي تقوم على خدمته . ولم يقر الانتقال من دير إلى دير ، فالمفروض أن الراهب متى دخل الدير ، يبقى به حتى وفـاته ، ولذا يتجرد من كل ملابسه ، ويتخذ ملابس الدير ، أي أنه لم يعد عنده ما يملكه . ولا بد أن يعلم أنه منذئذ لم يعد له سلطان ، حتى على بدنه .

وفي داخل الدير يعتبر التواضع القاعدة السائدة ، وأورد بنيدكت الخطوات التي تؤدي إلى هذه الفضيلة ، كالصلوات العديدة ، والطاعة العمياء لمن كان أعلا مكانة منه ، فيبادر باطاعة رئيس الدير ، كما لو كان أمره مستمداً من الله. ويقترن بالطاعة اشتراك جميع الرهبان في المتاع والملكية . ويجري تعلم الطاعة أيضـــاً بالعمل في الحقول . فالرومان والقوط ينفرون من العمل اليدوي في الزراعة ، ويعتبرون أنه لا يليق إلا بالأرقاء ، على حين أن الرهبان هم عبيد الله . ويؤدي الرهبان أيضاً أعمال المطبخ بالتناوب . وجعـل لرئيس الدير حق التصرف فيما يتعلق برعاية المرضى ، والملابس ، والطعام ، والسكن . والواقـع أن قاعدة بنيدكت انطوت على روح انسانية ، فلم تجعل الحياة الديرية تتجاوز حـــدود الاحتمال .

والغرض الرئيسي من قاعدة بنيدكت ، هو تحقيق الخلاص ، بممارسة حيـاة مسيحية مكتملة . فما انطوت عليه التقاليد الديرية من أصول الزهد والتنسك ، تمثل عند البنيدكتيين في : التبتل (العزوبة) ، والفقر ، والطاعة ، والتواضع .

ومن مزايا قاعـدة بنيدكت ، أنهـــا هيأت الحياة المسيحية البسيطة لكل الرجال والنساء . ومع أنها تستند أساساً الى الزهد ، فإنها لم تفرض من الشدائد البدنية ما يتجاوز الحد . وما لرئيس الدير من سلطة مطلقة ، وما ساد من حياة

مشتركة ، جعل من اليسير استتباب النظام . فاستطاع القديس بنيدكت بذلك أن يطوّع التقليد الديري لحاجات الغرب ، وبالاضافة إلى ما هيأته قاعدة بنيدكت لاتباعها من الطريق للخلاص ، زادت فيها الأديرة من قيمة للمجتمع . فيما قام به الرهبان من ممارسة العمل، كان مثمراً من الناحية الاقتصادية في زمن كانت الحاجة فيه ماسة إلى هذا الانتاج . فأضحت الأديرة البنيدكتية مراكز لممارسة الزراعة والصناعة . وما قضاه الرهبان من الساعات في الدرس أفاد إلى حد كبير في احياء الثقافة والحضارة . إذ دأب الرهبان البنيدكتيون على نسخ مؤلفات قدماء الكتاب اللاتين ، وبذا حفظوها للأجيال التالية ، وأبقوا إلى حد ما على التراث القديم . ومع ذلك ، فينبغي أن ندرك أن هذه الخدمات التي بذلها البندكتيون للمجتمع ،ليست إلا أعمالا إضافية، ولا تعتبر جانباً من غرض القديس بنيدكت الأساسي، إذأن غرضه هو أن يهب المسيحيين المتحمسين طريقاً عملياً سليما ، يؤدي إلى الخلاص ، ويتفق مع التقاليد الديرية [١] .

على أن الأمر الذي يسترعي الانتباه هو أن الأديرة البنيدكتية انتشرت بارجاء أوربا الغربية في القرنين السادس والسابع الميلادي ، إذ كان ثمة عوامل خاصة دفعت بأعداد كبيرة من الرجال والنساء إلى ما بتلك الأديرة من الحياة التنسكية الآمنة . وهذه العوامل بلا ريب مزيج من السمو الروحي ، والبطولة الدينية والخوف من عذاب الآخرة ، والتخلص من تكاليف الحياة ، والرغبة في المعيشة الهادئة المطمئنة. غير أن العامل الذي فاق هذه العوامل كلها في اجتذاب الكثيرين من الناس إلى الحركة الديرية ، هو الشعور باستحالة العيش في عالم مزقته

---

(١) الواقع أن القديس بنيدكت لم يضع قاعدته الا للأديرة التي أنشأها ، والتي لم يتجاوز عددها ثلاثة في سوبيا كو ، ومونتي كاسينو ، وتيراشينا . ولم يكن ثمة تفكير في قيام طائفة للرهبان . وما تلقته قاعدته من الشهرة ، يرجع إلى مساندة البابا جريجوري الكبير ، الذي جذب اهتمامه إليها ، ما حدث سنة ٥٧٧ من هجرة رهبان دير مونتي كاسينو ، بعد أن نهبه اللومبارديون، إلى روما فنزلوا باللاتران ، انظر :
Cuthbert, Butler : Benedictine Monachism pp. 383 - 393 .

اغارات الجرمان ، ودكت أركانه الحروب ، وهو كذلك عالم طفحت سياسته بالآثام والشهوات ، بعد أن امتلأت بألوان العنف والاضطراب ، ومن هنا يتضح السر في ميل الكثيرين من الناس إلى حياة التنسك، إذ قطعوا الأمل من الدنيا وما فيها من الناس . فانسحبوا من الظلمة والفوضى المحيطة بهم في هذه الدنيا ، إلى النور والهدى ، الذي وعد به المسيح جميع المتقين .

جريجوري الأول (٥٩٠ – ٦٠٤)

الواقع أن البابوات ظفروا بالاستقلال الفعلي ، في مدينة روما ، منذ زمن طويل ، حينما أضحى البابوات حكاماً دنيويين بايطاليا . فلما لم تعد روما عاصمة سياسية للأمبراطورية ، كان من الطبيعي أن يتولى الأسقف السلطة ، لأنه كان أكبر رجال الكنيسة الغربية . وازداد مركز البابوات قوة ، وامتد نفوذهم وسلطانهم في أوربا ، بعد انقطاع سلسلة الأباطرة في الغرب سنة ٤٧٦ م. ولم يتدخل الملوك المتبربرون إلا قليلا ، إما لأنهم اريوسيون ، وأما لأنهم حديثو العهد بالتحول إلى الكاثوليكية . غير أن ما شنته بيزنطة من حروب زمن جستنيان ، لاسترداد الغرب ، أذلت البابوات ، وقد كانوا وقتذاك يخضعون لسلطة الدوق البيزنطي في رومه ، ومع أن الأباطرة لم يتولوا تعيينهم ، فلا بد من اخطار الأباطرة بانتخابهم . وهيأ غزو ايطاليا على أيدي اللومبارديين ، الفرصة للبابوية للتحرر من سلطان البيزنطيين.ففي سنة ٥٦٨ اجتاز اللومبارديون، بقيادة ملكهم البوين ، جبال الألب باسراتهم وأمتعتهم. وفي فترة عشر سنوات احتلوا شطراً كبيراً من ايطاليا ،وحطموا الادارة الأمبراطورية (البيزنطية) . على أنه لم يكن لهؤلاء اللومبارديين ، ولا للقوات الأمبراطورية ، من القوة ما يكفي لاحراز نصر حاسم . ومع أن بعض القوات اللومباردية مضت في زحفها إلى سبوليتو وبنيفنتو بالجنوب ، فإن نائب الأمبراطور في رافنا بالشمال ، لازال يسيطر على رقعة أرض تمتد عبر ايطاليا ، من البندقية ورافنا على الساحل الشرقي لإيطاليا ، إلى روما ونابولي على الساحل الغربي وتعرضت هذه المنطقة للهجوم

من الشمال والجنوب ، وانقطعت خطوط مواصلاتها ، وأضحى من المستحيل إقامة خطوط دفاعية دائمة . ولذا كان لزاماً على البابوات أن يتولوا وظائف الحكومة البيزنطية في مدينة روما ودوقيتها . ومع ذلك لم يكونوا من القوة ما يكفي لحماية روما من اللومبارديين ، دون الاعتماد على ما قد يحصلون عليه من مساعدة بيزنطية عسكرية . ومع ذلك حرص البابوات على أن يفلتوا من التبعية البيزنطية ، ولذا أدركوا في بعض الأحوال أن دواعي السياسة تقضي بأن يتحالفوا مع اللومبارديين . وما حدث من تشابك مصالح هذه القوى الثلاثة ، اللومبارديين ، والبيزنطيين ، والبابوية ، يفسر ما انتهجته البابوية من دبلوماسية ماكرة، حتى استطاعت في منتصف القرن الثامن الميلادي أن تجد حلا لمشاكلها.

وفي اثناء الغزو اللومباردي ، تولى البابوية جريجوري الأول الكبير ، الذي يعتبر من اكفأ البابوات وأكثرهم أهمية .

ولد جريجوري في روما حوالي سنة ٥٤٠ ، في أسرة سناتورية ثرية عريقة الأصل ، وظلت صلته وثيقة لمدة طويلة بالكنيسة وحكومة مدينة روما . إذ صار والياً على مدينة روما. وشيد ستة أديرة في الضياع التي ورثها عن أسرته في صقلية ، فضلا عن دير القديس اندرياس بروما . ولم يلبث جريجوري أن تخلى عن وظيفته الرسمية ، ووهب الفقراء ما تبقى من ثروته ومتاعه ، ورفض أن يتولى رئاسة الدير الذي أقامه في روما ، واكتفى بأن يكون راهباً بنيدكتيا ، بعد أن تشيع بما كان لحياة القديس بنيدكت من تقاليد ، واعتنق مبادئه الأساسية : بأنه ينبغي على الراهب أن يكون متواضعاً ، ومطيعاً ، وعضواً في جماعة . ولا بد أنه علم أنه لم يعد له منذئذ سلطان حتى على بدنه . والواقع أن القديس جريجوري ينتمي إلى أكثر من مجتمع إذ كان ديره ، دير القديس اندرياس، يقع في روما ،ويخضع لكنيسة روما.وحينما جعله البابا بيلاجيوس الثاني شماساً سنة ٥٧٩ ، وأمره بالتوجه إلى القسطنطينية قاصداً رسولياً ، لم يسعه إلا إطاعة الأمر . ولم يكن الغرض من هذه السفارة سوى أن يلتمس من

الأمبراطوار موريس أن يرسل الأمداد للدفاع عن ايطاليا ، بعد أن يئس من مساعدة ممثل الأمبراطور في رافنا .

أقام جريجوري بالقسطنطينية نحو ست سنوات (٥٧٩ — ٥٨٦) ، غير أنه لم يتلق مساعدة من الأمبراطور ، لانصرافه إلى النضال مع الفرس على الحدود الشرقية . فكان لزاماً على روما أن تدافع عن نفسها بكل ما في وسعها من قوة ، تحت قيادة البابا . واعتبر جريجوري أنها لمعجزة ، أن روما لم تسقط في أيدي اللومبارديين ، وأرجع ذلك الى حماية القديس بطرس أمير الرسل .

ولما مات البابابيلاجيوس الثاني ، سنة ٥٩٠ أصر رجال الدين ، والسناتو الروماني ، وسكان روما على اختيار جريجوري للبابوية . وعلى الرغم من شدة احتجاجه ، وأسفه لمغادرة الدير ، فقد تم اختياره ، ورسامته في سبتمبر سنة ٥٩٠ ، فكان أول من تولى البابوية من الرهبان . وحاول أن يخدم كنيسة الله ، بنفس الطاعة التي يبذلها ، وهو راهب ، لرئيس الدير ، إذ كان لقبه خادم خدام الله .

ولعل أكثر ما يتضح من اتجاهه نحو منصبه ، نلمسه فيما آل إليه من إرث القديس بطرس ، إذ أضحى يشرف على الضياع الشاسعة التابعة لكنيسة روما . غير أنه اعتبر كل ما يستمد منها من ثروة ، ملكاً للجماعة المسيحية . والمعروف أن الهبات أخذت تتدفق من الأتقياء على الكنيسة منذ زمن الأمبراطور قنسطنطين وهذه الأملاك التي تركزت حول روما لم تلبث أن امتدت في شبه جزيرة ايطاليا ، وفي صقلية ، وسردينيا ، وايلليريا ، وشمال أفريقية وجنوب غاله ، وزادت مساحتها على ١٤٠٠ميل مربع ، وعمرت بالأرقاء والأقنان ، وأن ما تحصل من خراجها نوعا ونقدا يربو على ما يقابل نحو مليون ونصف دولار . وأظهر جريجوري في إدارة هذه الأراضي ما دلّ على أنه بعيد النظر ، رفيق

بالناس ، ماهر في الأمور العملية . فإذا لم يكن مبتكراً للنظام الإداري للبابوية، فإنه أقامه على الأسس التي ورثها من نظام ملكية الأراضي المعروف في الدولة الرومانية المتأخرة . واستطاع جريجوري أن يدبر من الوقت ما يكفي لدراسة التفاصيل في الايرادات والنفقات ، وأن يراقب الأسواق، وأن يشرف على شحن الحبوب من صقلية إلى القسطنطينية ، وارسال الأخشاب من سردينيه إلى مصر ، والنحاس من سردينيه، والحديد من بروتيوم إلى دور الصناعة وأحواض السفن في بيزنطه . وما وقع على دخل البابوية من أعبـــاء ثقيلة كثيرة تطلب إدارة أعمال دقيقة . فاضحت الخزانة البابوية مسؤولة عن الانفاق على ما في رومـــا وايطاليا ، من رجـــال الدين ، والكنائس ، والمدارس ، والملاجىء ، والمستشفيات والأديرة ، فضلا عن كنائس أخرى ورجال الدين خارج ايطاليا . وكانت رعاية الفقراء تعتبر عبئا ، يستنفد جانباً كبيراً من أموال الخزانة . ولا سيا بعد أن كثر عدد اللاجئين إلى روما ، نتيجة لعدوان اللومبارديين . وتشير بعض الروايات إلى أن جريجوري وضع سجلاً أثبت فيه أسماء الأشخاص ، من جميع الأعمار ، والحرف ، من الرجال والنساء ، الذين يتلقون إعانات منتظمة من خزانته . والمعروف أن توزيع الخبز والمال كان من اختصاص الأمبراطور، وإذ تحطمت الإدارة الأمبراطورية ، واشتدت الحاجة إلى المساعدة ، أضحى من واجب البابا جريجوري ، المبادرة إلى سد حاجات أهـــل رومـــا ، الذين اعتبرهم شعبه .

والواقع أن ثروة الكنيسة أخذت تزداد، ففي أقاليم كثيرة ، حينما أضحى مستحيلاً على ملاك الأراضي أن يؤدوا مـــا هو مقرر عليهم من الضرائب ، لم يسعهم إلا تسليم أراضيهم للأسقف ، وبهذه الوسيلة تحمل الأساقفة مسؤوليات سناتو المدينة التي تطابق ولايتهم الروحية . فأضحوا مسئولين عن عمارة أسوار المدينة ، والسقايات ، وسائر المنشآت العامة . بل إن جريجوري نفسه كان يقوم

بوظيفة ممول الأمبراطور ، بما يؤديه من أجور عساكر الأمبراطور ، وبما يدفعه من جزية للومبارديين .

ومن أهم المسئوليات الدنيوية المباشرة التي اضطلع بها جريجوري ، الدفاع عن روما . فالمعروف أن الأمبراطور يقيم بالقسطنطينية ، وليس لديه ما يستغنى عنه من الأمداد ، بينما انصرف نائبه بايطاليا إلى حماية رافنا . وطلب جريجوري إلى الاساقفة أن يراقبوا ما إذا كان المواطنون يقومون بحراسة اسوار المدينة ، وما من أحد فكر في أنه بذلك أخذ يغتصب حقوق الأمبراطور . ولم تكن أعماله موضع ريبة وشك ، إلى أن شرع في اتخاذ سياسة مناهضة لسياسة الأمبراطور ؛ وهذه السياسة تقضي بمسالمة اللومبارديين . ولا شك أنه كان يؤثر المضي في القتال ، لو لاحت له فرصة للانتصار ، بعد أن عجز الأمبراطور عن ارسال الأمداد أنفق جريجوري أموالاً كثيرة في افتداء الأسرى الايطاليين ، وإذ تعرضت روما ذاتها للنهب من قبل اللومبارديين ، لم يسعه إلا أن يلجأ للمال والدبلوماسية لانقاذها من الوقوع في يد الملك اللومباردي ، أجيلولف ، ودوق سبوليتو اللومباردي الذي كان جريجوري يأنف من التحدث إليه .

وعلى الرغم مما اتصف به جريجوري من أنه روماني محافظ ،فأنه أدرك أنه يعيش في عالم جديد ؛ أغار فيه المتبربرون على أملاك الدولة واستقروا بها ، وأضحت أملاك الدولة في الغرب في آخر مراحل التداعي والانهيار . وإذا كان من واجب البابا ، باعتباره خليفة القديس بطرس ان يرعى مصالح الكنيسة ، ويحرص على أن يبقى الايمان نقيا خالصاً ، كان لزاما عليه أن يحول المتبربرين إلى المسيحية ، مهما كانوا يمثلون كل ما هو كريه عند الرومان.

ولم يكن ذلك أمراً هيِّناً ، فالمعروف أن الكنيسة استندت إلى تأييد الحكومة الأمبراطورية ، في دعوة المجالس للانعقاد ، وفي تنفيذ قراراتها . ومن الدليل على ذلك ما حدث زمن قنسطنطين من انعقاد مجمع نيقيه . ومناهضة

للدوناتيين في أفريقية . غير أنه لم يكن في الغرب في نهـاية القرن السادس ، إلا مواضع قليلة ، تستطيـع فيها السلطات الأمبراطورية بذل المساعدة للكنيسة ، إذ لم يتلق جريجوري مساعدة ايجابية إلا من أفريقية . فحرص على أن يفيد من الكنيسة ، مثلما أفاد منها في حماية روما من اللومبارديين . فاتخـذ من الموظفين الذين عهد لهم بإدارة أملاك الكنيسة وضياعها في ايطاليا وصقلية ، وكلاء له في كل الأمور ، فأوقفوه على كل مـا يهم الكنيسة ، فزاد ذلك من سلطته واشرافه على الكنيسة في ايطاليا .

الواقع أن من أهم عوامل ازدياد سلطة البابوية ، الافادة من ثروتها ومن كثرة رجال الدين.وإذلم يجز لرجال الدين أن يقاتلوا أو ينجبوا أطفالاً كان لزاماً عليهم أن يبذلوا لخدمة الله شطراً كبيراً من الموارد التي حصلوا عليها بكدهم وبجهـد المؤمنين . وكيفما كانت المظاهر ، فإن ممالك المتبربرين لم تستطع مناهضـة الكنيسة آخرالأمر،وأدى عداء الكنيسة لها إلى انهيار مملكة اللومبارديين،وإلى تحطيم مملكة القوط الغربيين ، كما أن رخاءها وثروتهـا أضعف الممالك الانجليزية السكسونية .

أما إشراف البابا خارج ايطاليا فـلم يكن سهلا ، لأنه لم يكن للبابا مصالح مستمدة من الممتلـكات . ففي غالة كانت المشكلة حادة . إذ لم يكن على اتصال وثيق بالبابا ، إلا أسقف آرل ، وفيما عدا ذلك كانت كنيسة غـالة ، تعتبر من إدارات ملوك الفرنجة . الذين اعتبروها تابعة لهم ، وحرصوا على ألا يبـاشر البابا سلطة الإشراف على أساقفتهم . على أن جريجوري اعتبر الإشراف البابوي ضرورة ملحة،ولا سيما بعد أن انتشر في الكنيسة الفساد والسمعانية .فالأساقفة الذين عينهم ملوك الفرنجة ، كان مـن بينهم من الشبان والعلمانيين ، من لم يكن سلوكهم فوق الشبهات ، ولم يكن تعيينهم راجعاً إلى مصلحة الكنيسة بقدر ما كان راجعاً لحظوتهم عند الملوك ورأي جريجوري أن علاج هذه العيوب ، يصح أن يجري ، إذا منع رجال الدين من الزواج ، وإذا عقدت كنيسة الفرنجة مجامع

سنوية لمناقشة أمور العقيدة والأخلاق . وكتب جريجوري إلى الأساقفة بذلك، وانفذ مبعوثاً خاصاً ليلفت نظر الجميع ، من رجال الكنيسة والملوك والملكة برونهيلدا المعروفة بسوء سيرتها ، إلى ضرورة تنفيذ النظام الكنسي . غير أنه لم يتم شيء من الاصلاح .

الواضح أنه لا بد من اصلاح إدارة الكنيسة ، ولا بد للبابوية أن تسيطر على كل الكنائس الواقعة في أقصى الأطراف .وأول ما اتخذه جريجوري من خطوات لسيطرة السلطة المركزية،أنه أعد بعثة تبشيرية إلى انجلترا،وقامت خطته أول الأمر على أن يشتري أرقاء صغارا من الانجليز ، ويقوم على تربيتهم وتعليمهم في أديرة غالة ،ثم يرسلهم من جديد إلى انجلترا ، ليشجعوا مواطنيهم الوثنيين على اعتناق المسيحية . ثم تخلى عن هذه الخطة ، ولجأ إلى خطة أخرى تكفل السيطرة البابوية على البعثة التبشيرية . فأرسل إلى انجلترا الراهب أغسطين ،ولم يكن انجليزيا ، ولم يعرف شيئا عن بلاد الانجليز ، ولم يتحدث لغة هذه البلاد مطلقاً ، ولم يتوافر فيه من صفات المبشر إلا قدر ضئيل ، غير أنه كان راهباً ،ينتمي إلى دير جريجوري ، واشتهر بالطاعة المطلقة ، فنفذ التعليمات التي حملها من البابا جريجوري ، فإذا صادفته مشاكل وعقبات ، كتب إلى جريجوري يلتمس النصيحة ، وبفضله تحولت انجلترا إلى المسيحية .

وقام جريجوري بوضع خطة لإدارة الكنيسة الجديدة في انجلترا،التي اشتملت على اقليمين،يطابقان ما كان معروفا زمن الرومان باسم بريطانيا العليا وبريطانيا السفلى ، فحل بكل اقليم مطران (رئيس أساقفة) واثني عشر أسقفاً ، وكانت لندن ويورك مركزي المطرانية ، غير أنه تقرر الاستعاضة عن لندن بكنتربري نظراً لأن السكسون الشرقيين الذين سيطروا على لندن ، ارتدوا إلى الوثنية . وكان جريجوري يقصد من وراء ذلك أن يقيم نظاماً اقليميامشابهالما كان معروفاً في سائر الأمبراطورية ،والاختلاف الوحيد هو أن المطران كان يستمد سلطته من البابا،وأنه جعل للوظيفة شارة خاصة يتخذها من يتولاها. وبهذه الوسيلة، أقام

جريجوري مـا يصح اعتباره إطـار الحكومة الكنسية ، فالأساقفة يخضعون لرؤساء الأساقفة ، الذين يخضعون بدورهم للبابا . فأضحى للبابوية من السيطرة على كنيسة انجلترا ما يفوق سيطرتها على أية كنيسة أخرى خارج ايطاليـا . ورضى الانجليز من جانبهم ، لما جرى من اعتبارهم خداماً للمقر الرسولي ، فلما أرسلوا فيما بعد ، في القرن الثامن، بعثات تبشيرية إلى الألمان النازلين إلى الشمال والشرق من الفرنجة ، كانت أول خطوة لهذه البعثات الرائدة ، أن توجهت إلى رومـا لتحصل على تصديق البـابا على هذه الحملة التبشيرية . ولما نجحت البعثة التبشيرية برياسة ويلبروورود (كلمنت) ووينفرث (بونيفاس) ، تقرر إقامة رئاسة أسقفية في كل من أوترخت ومايتز ، وبذا قام في جوف أوربا ، سلطة مركزية للكنيسة ، وأضحى هذان المركزان مسئولين عن فرض سلطة البابا على كنيسة الفرنجة . وبهذه الوسيلة قام نظام كنيسة العصور الوسطى ، باعتبارهـا هيئة مركزية في رومـا ، للاشراف والسيطرة . وأحس جريجوري بأنه رأس الكنيسة وأنه مسئول عن نظامها ، حين كتب « لا أعرف أسقفاً لا يخضع للمقر الرسولي » .

ولعل السر في اعتبار جريجوري انموذجا للبابا الذي ينبغي أن يكون ، هو ما اتصف به من التقوى والفضائل ، ولأنه واضع قاعدة الرعاة التي أضحت دليلا لواجبات الأسقف نحو رعاياه .

وما جعله أيضاً عظيما أنه حينما أخذت سلطة الأمبراطورية في التفتت ، وتراءى أن العالم أوشك على الزوال ، تولى جريجوري مهمة انقاذ الكنيسة . غير أن الكنيسة عنده قد تتعرض لما تعرضت له الأمبراطورية من التدهور ، فيصح ألا تكون في ايطاليا اكثر من مجرد استثمار لأراضيها ، وألا تكون في مملكة الفرنجة سوى ملك للملك .

أصلح جريجوري الكنيسة ونظمها ، وكفل لهـا الاستقلال ، عن نظام

الأمبراطورية ، وذلك بفضل مـا صار للبابوية من سلطان . ومع أنه أخطر الأمبراطور البيزنطي ، بما حدث من انتخابه للبابوية ، فإنه لم يقبل مطلقاً أن يتعرض لضغط من قبل الأمبراطور . ولما وجه الأمبراطور موريس النقد لما في الديرية من عيوب ، أنكر جريجوري هذا النقد ، واشتد فرحه وسروره حينما لقى موريس مصرعه على يد فوكاس الذي تولى عرش بيزنطة .

ملحق ٦

نظرية تقليد بطرس الرسول

كما أوردها البابا ليو الأول (٤٤٠ – ٤٦١)

مقدمـــة :

أفاد البابا ليو الأول دائماً من نظرية تقليد بطرس الرسول . وتتلخص هذه النظرية في أنه كان لبطرس، أمير الرسل، السيادة العليا على الكنيسة . وانتقلت عنه هذه الصدارة إلى إخلافه ، أساقفة روما ، الذين حرصوا ، باعتبارهم اخلافا لبطرس الرسول ، على الاحتفاظ بهذه السيادة على الكنيسة وعلى سائر الأساقفة ، مثلما كان لبطرس من صدارة على جميع الرسل . وفيما يلي فقرات مستمدة من مؤلفات البابا ليو الرابع . تشرح هذه النظرية .

* * *

عهد سيـدنا عيسى المسيح ، مخلص العالم ، إلى الرسل بنشر دعوتـه إلى الايمان . واذ جـعل السيد المسيح أمر هـذا الواجب موكولا إلى كل الرسل ، أقام القديس بطرس مقدما عليهم ، فمنه تتدفق العطايا إلى سائر الجماعة ، فاذا انفصل أحدهم عن القديس بطرس ، فلا بد أن يعلم أنه سوف لا يظفر بنصيب من نعم الله .

وإذا نشب بينكم نزاع يتعلق بأمور الكنيسة ورجال الدين ، فإننا نود أن تقوموا بتسوية هذه المنازعات ، وأن تنهوا إلينا بكل شروط التسوية ، كيما نصدق على كل ما أصدرتموه من قرارات عادلة متزنة .

وللقسطنطينية مجدها وعظمتها، فأضحت بفضل الله ورحمته مقراً للامبراطورية .

غير أن الأمور الدنيوية قامت على أساس ، بينما استندت الأمور الكنيسة إلى أساس آخر . على أن ما من شيء يبقى ما لم يكن قائماً على الصخرة التي وضعها السيد المسيح في الأساس . فمدينتكم مدينة الملك ، وليس بوسعكم أن تجعلوها رسولية شأن روما ، لأن كنيسة روما شيدها القديس بطرس .

وسوف تعلم ، إذا قرأت الرسائل التي وجهتها إلى بطريرك القسطنطينية ، وشرحت فيها معارضتي لأطماعه ، ما التزمه أسقف روما من دواعي التبجيل والاحترام لقواعد الكنيسة وقوانينها ، وسوى ترى أيضاً أنني حارس للعقيدة الكاثوليكية ، ولما صدر عن آباء الكنيسة من قراراث .

وعلى هذا الأساس، فإن الحبر الأعظم البابا ليو ،رأس الكنيسة الكاثوليكية (العالمية) ، بموافقة السينود (المجمع) المقدس ، وبفضل ما حظى به من منصب القديس بطرس ، الذي يعتبر أساس الكنيسة وصخرة الايمان ، وحارس السموات ، قرر حرمان .. (فلان) من منصبه ، كأسقف .

ولما التزمنا به من رعاية الكنائس، فإن السيد المسيح ، الذي جعل بطرس أميراً على الرسل ، جعلنا أيضاً مسئولين عن ذلك .

ولذا كان عدلاً وحقاً ، أن تعتبر كنيسة روما ، عن طريق القديس بطرس أمير الرسل ، رأس كنائس جميع العالم .

ملحق ٧

من قاعدة القديس بنيدكت عن الديرية

حوالي سنة ٥٣٠ م

هيأ النظام المفكك للأديرة الفرصة لأن ينفذ اليه عيوب كثيرة ، ولذا حرصت قاعدة بنيدكت على إصلاح هذه العيوب . والواقع أن هذه القاعـدة جديرة بالدراسة ، إذ أنها ظلت قروناً عديدة توجه الألوف مـن الرهبان الذين أثروا في حياة ملايين العلمانيين ودفعتهم الى المدنية والحضارة .



٢ – الصفات التي لا بد أن تتوافر في رئيس الدير :

لا بد لرئيس الدير الجديد المكلف بادارة دير من الأديرة ، أن يفكر دائماً ، في أهمية ما أطلق عليه من اسم ، وان يبرر طوال حياته ما اتخذه من لقب الرياسة . إذ أنه يمثل المسيح في الدير ، بما حظي به من اسم مستمد من قـول الرسول بولص « إذا لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف ، بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب »[٢] . فينبغي على رئيس الدير ألا يبشر أو يأمر بشيء مخالف لأحكام السيد المسيح ، بل لا بد أن تتفق أحكامه وتعاليمه مـع العدالة

(١) رسالة بولص الرسول الى أهل رومية ٨ ، ١٥ .

الآلهية .وينبغي على رئيس الدير أن يتخذ في رعاية رهبانه طريقين: تعليم أحكام السيد المسيح للطلاب الصالحين ، بما يلقيه عليهم من عظات ، وتعليم المتمردين والسذج ، عن طريق الأعمال . ينبغي ألا يكون بالدير شيء من التفرقة بين الأشخاص ، فلا يجوز لرئيس الدير أن يظهر من المحبة لشخص ما يزيد على محبته لشخص آخر ، ما لم يكن متفوقاً على غيره في الأعمال الصالحة والطاعة ، ولا يصح تفضيل الشخص الحر على شخص قدم الى الدير من حالة الاسترقاق ، ما لم يكن ثمة سبب سليم لذلك ، فسواء، كان الشخص عبداً أو حراً ، فكلاهما سواء عند المسيح . وينبغي على رئيس الديران يسلك مع تلاميذه قاعدة الرسول الذي يقول « وَبّخ ، انتهر ، عظ بكل أناة وتعليم[1] . وينبغي ان يتخذ من الطرق ما يلائم الأحوال ، بالالتجاء الى التهديد أو الى الترغيب، وأن يجعل من نفسه إما سيداً صلبا ، واما والداً محباً ، وفقاً لما يتطلبه الأمر من مقتضيات .

وما هو أكثر من كل ذلك ، ينبغي ألا يحرص رئيس الدير على أن يقتني من الأشياء، ما يعتبر دنيوياً وطارئاً وفانياً ؛ وينبغي ألا يغفل أو يهمل ما هو موكول اليه من رعاية الأنفس ، بل ينبغي أن يتذكر دائماً أنه يتعاهد رعاية الأنفس ، فيتحتم عليه أن يحرص على إسعادهم .

٣ – وكلما جرى بالدير أمور هامة ، فينبغي على رئيس الدير أن يجتمع بكل الرهبان ، وأن يخطرهم بما هو موضع النظر والتفكير ؛ حتى إذا استمع لنصيحة اخوانه ، نظر في الأمر ملياً ، ثم قام بتحقيق ما يتراءى أنه خير قرار عنده .

٤ – اساليب الأعمال الصالحة :

أولها ، أن يحب السيد المسيح بكل جوارحه ، وبكل روحه ، وبكل

---

(١) رسالة بولس الرسول الثانية الي تيموثاوس ٤ ٢ .

قوته ، ثم يحب جاره مثلما يحب نفسه . ثم ينبغي ألا يقتل ، وألا يرتكب الزنا ، وألا يسرق ، وألا يكون نهماً ، وألا يؤدي شهـــادة الزور ، وأن يكرّم كل الرجال ، وألا يعامــل الناس إلاّ بما يحب أن يعاملوه به ، وأن يتجاهل أنـه يتبـع المسيـح ، لتطهير بدنه ، وللتخلي عن أسباب الترف ، وللتعلـق بالصيام . وينبغي أن يطعم الفقير ، وأن يكسي عاري الجسد ، وأن يعود المريض ، وأن يواري الميت ، وأن يبذل المساعدة في وقت الشدة ، وأن يواسي الحزين . وينبغي أن يبتعـــد عن أمور الدنيا ، وألا يؤثر شيئاً على محبة المسيح ، وألا يغضب ، وألا يحمل في نفسه ضغينة لأحد ، وألا يحترز في قلبه الخــــداع والغش ، وألا يقر سلاماً كاذبـــاً ، وألا يتخلف عن الإحسان ، وينبغي ألا يحلف ، حتى لا يحمل نفسه عرضه للحنث باليمين ، وأن يقول الصدق من أعماق قلبه وألا يرد السيئة بالسيئة ، وألا يلحق الإهانة بالآخرين ، بل ينبغي أن يصبر على تحمل ما يتعرض له من إهانة ، وينبغي أن يحب خصومه وأعداءه ، وألا يلعن من يلعنه ، بل ينبغي أن يقابل ذلك بالرضى والامتنان ، وأن يعاني الاضطهاد من أجـل الحق والعدل . وينبقي ألا يكون متكبراً ، أو سكيراً ، وألا يكون شرهاً في تناول الطعام ، وألا يستسلم للنوم الطويل ، ولا للكسل ، ولا للتبرم والشكوى ، وألا يلجأ للكذب . وينبغي أن يجعل كل أمله في الله ، وما يراه لنفسه من الخير ، فمرجعه الى الله ، وما يفعله من شر فمن نفسه . وينبغي أن يخشى يوم الحساب ، وأن يخاف أهوال الجحيم .

٥ ــ الطاعة .

وأول درجات التواضع ، هي الطاعة ، دون تمهل ، التي تليق بأولئك الذين ليس لديهم ما هو أعز من المسيح . ولذا اذا تلقى أحد الرهبان الأمر مــن رئيسه ، فينبغي أن يبادر الى طاعته ، كأنه صدر إليه من الله ذاته .

٦ – السكون .

ينبغي أن نفعل حسبما قال النبي :

«قلت أتحفظ لسبيلي من الخطأ بلساني ، أحفظ لنفسي كامة فيما الشرير مقابلي ، صمت صمتاً ، سكت عن الخير فتحرك وجعى » [1] وهذا هو معنى ما يقصده النبي : إذا كان من الصواب أن تلجأ الى السكون والصمت ، حتى عن فعل الخير ، فما أكثر ما ينبغى أن تحجم عن كلام السوء ، لأن في ذلك جزاء للأثم والذنب . اذ ننكر نهائياً كل حديث ودعابة قذرة وقحة ، ويمنع الراهب من أن يفتح فمه لينبس بهذه الألفاظ .

٧ – التواضع :

ايها الأخوة ، يقول الأنجيل المقدس « فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » [2] . فاذا أردنا أيها الأخوة أن نبلغ الغاية القصوى من التواضع ، والرفعة عند الله ، فلن نظفر بها إلا بالتواضع على الأرض ، فلا نرقي الى السماء إلا بأفعالنا ، التي ليست الا كالسلالم التي ظهرت ليعقوب في حلمه : اذ شهد الملائكة يرتقونها ويهبطون عليها .

٢١ – عرفاء الدير :

في الأديرة الكبيرة ، ينبغي أن يختار من بين الأخوة أفراد اشتهروا بالاستقامة وصفاء النفس ، ليكونوا عرفاء ، وينبغي أن يقوموا بالاشراف على بعض الأمور ، وذلك بتوجيه رئيس الدير .

٤٨ – العمل اليومي للرهبان :

يعتبر الكسل أكبر عدو للنفس ، ولذا ينبغي على الرهبان أن ينهمكوا دائماً

(١) سفر المزامير (٣٩ ، ١ - ٢) .
(٢) انجيل متى ٢٣ : ١٢ .

في الأعمال ، إما في العمل اليدوي ، واما في التلاوة المقدسة . غير أنـــه إذا اقتضت أحوال المنطقة التي يقع بها الدير ، وحاجات الدير نفسه ، مثلما يحدث في أوقات جنى المحصول ، ما يدعو إلى إطالة ساعات العمل ، فلا يعتبرون ذلك ضرباً من سوء استخدامهم ، فالرهبان الصادقون لا بد أن يعيشوا على مـا تؤديه أيديهم من عمل ، مثلما جرى للرسل والأباء المقدسين. وفي أثناء الصيام الكبير ، ينبغي تخصيص الوقت من بزوغ الفجر الى الساعة الثالثة ، للقراءة ، ثم يمارسون ما أعد لهم من أعمال حتى الساعة العاشرة . وعند بدء الصيام ، يحصل كل راهب من مكتبة الدير ، على كتاب لا بد أن يتم مطالعته . وينبغي أن يعين من الرهبان القدامى ، راهب أو راهبان للطواف بأنحاء الدير ، أثناء ساعات المطالعـــة ، للوقوف على ما اذا كان أحد الرهبان يضيع الوقت سدى ، بدلاً من المطالعة ، وهم بذلك لا يضيعون فحسب وقتهم ، بل ربما أزعجوا غيرهم أيضاً .

٥٤ — ينبغي الا يتلقى الرهبان رسائل او اشياء .

ينبغي ألا يتلقى الراهب رسائل أو هدايا أو أي شيء آخر ، من أسرته أو من أي شخص خارج الدير ، وينبغي ألا يرسل من قبله شيئاً إلا بأمر رئيس الدير .

الفصل السادس

الدولة البيزنطية

الواقع أن الفترة الممتدة من القرن السادس إلى القرن العاشر الميلادي ، تعتبر فترة انتقال من العصر الروماني وحضارته ، إلى مرحلة جديدة أضحت فيها أوربا الغربية تتخذ ما اتسمت به من خصائص في العصور الوسطى . وما كان للبحر المتوسط من وحدة زمن الرومان ، لم تلبث في هذه الفترة أن تعرضت للاضطراب ، بعد أن جرى من التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في منطقة البحر المتوسط ، ما جعل أوربا الغربية تنزع الى الاتجاه صوب الشمال ، بعد أن كانت شديدة الصلة بالبحر المتوسط .

والمعروف أن الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) اعتبرت نفسها الوارثة الشرعية للدولة الرومانية ، منذ أن نقل الأمبراطور قنسطنطين الى عاصمة ملكه ، روما الجديدة (القسطنطينية) ، مقر الحكم ، والسناتو ، والحرس الأمبراطوري . وما حدث من سقوط روما سنة ٤٧٦ في أيدي المتبربرين ، زاد من دعوى الأباطرة بالقسطنطينية ، في الأملاك التي حل بها الجرمان . وسبق الإشارة إلى ما بذله الأمبراطور جستنيان من جهود لاستعادة ما استولى عليه الجرمان من أملاك ، وتكللت جهوده بالنجاح ، بأن انتزع شمال أفريقية من الوندال ، وايطاليا من القوط الشرقيين ، والجنوبي الشرقي من اسبانيا من القوط الغربيين ، فضلاً عن

جزر البحر المتوسط ، فأعاد بذلك البحر المتوسط الى سلطان الدولة الرومانية في الوقت الراهن .

يعتبر جستنيان، بحق، آخر أمبراطور روماني ، فعلى الرغم من أن أخلافه ظلوا يحملون لقب أمبراطور ، فانهم لم يسيطروا على الشطر الغربي اللاتيني للأمبراطورية ، ولم يحفلوا بذلك إلا قليلاً . واذا صاروا فعلاً حكاماً للشرق الهلينستي ، أضحوا يعرفون بالأباطرة البيزنطيين ، وغدت دولتهم تعرف بالأمبراطورية البيزنطية . والواقع أن ما كان لأمبراطورية جستنيان من خصائص رومانية ، لم تكن كذلك إلا من الناحية الظاهرية لا الفعلية ، فلم تكن اللاتينية سوى لغة البلاط والحكومة ، وهي التي جرى استخدامها في تصنيف القانون والموسوعة . غير أن الحقيقة القائمة هي أن القسطنطينية كانت مدينة يونانية ، وأن اليونانية كانت اللغة السائدة عند معظم سكان الأمبراطورية . بل أن كنيسة القديسة صوفية بالسطنطينية التي تعتبر من أهم ما خلفه جستنيان من آثار ، لم تشيد على نسق الكاثدرائيات الرومانية ، ذات السقوف المستوية ، بل اتخذت لها قبة ضخمة ، على نحو ما كان سائداً في سوريا ، ووضع تصميمها مهندس يوناني . ولم تمض خمسون سنة على وفاة جستنيان حتى أضحى البلاط والحكومة يونانيتين . ولما كتب الأمبراطور موريس فيما بعد رسالته عن فن الحرب ، حوالي سنة ٥٨٠ ، كان لزاماً عليه أن يضع للمصطلحات اللاتينية ما يقابلها في اللغة اليونانية .

وما يهمنا هنا ، هو أن نتعرف إلى المرحلتين التاليتين من تاريخ بيزنطة ، اللتين تطابقان مرحلة الانتقال الى مرحلة اكتمال تطور أوربا الغربية في العصور الوسطى . وهاتان المرحلتان ، تشمل الأولى منهما ، الفترة الممتدة الى نهاية أسرة هرقل سنة ٦١٧ ، وتمتد الفترة الثانية الى نهاية الأسرة المقدونية سنة ١٠٥٧ .

أضحت اللغة اليونانية لغة رسمية للأمبراطورية ، واتخذ الأمبراطور الروماني (البيزنطي) بالقسطنطينية لقب باسيليوس (ملك) الروم . والواقع ان اختفاء

اللغة اللاتينية في الشرق أضر بالأمبراطورية ، أكثر مما أضر اختفاء اللغة اليونانية ، بالأقاليم الغربية . ومع أن معرفة اليونانية هيأت للمثقفين البيزنطيين أن ينهلوا من منابع الفكر الكلاسيكي، فان اليونانية ظلت لغة المواطنين فقط، ولا سيما أن بيزنطة لم تحاول منذ البداية أن تفرض هذه اللغة على سائر الشعوب الصقلبية الذين حولتهم الى المسيحية فيما بعد ، ولم يكن للشعوب الشرقية لغة مشتركة للتفاهم مثلما كان حادثاً عند أمم الغرب .

ومع ذلك فان العقائد والشعائر الدينية كان بوسعها أن توحد بين الشعوب المسيحية في الشرق والغرب ، لو أن روح العصر سادها من التسامح مثلما سادها من التدين . انما حدث عكس ذلك ، فإن اشد ما وقع من شجار بين الشرق والغرب ، حدث باسم المسيح ، فمنذ بداية العصور الوسطى ، دارت الجادلات حول طبيعة الأبن (المسيح) ، ووضعه في التثليث ، وكان ذلك من مصادر الشقاق ، فإدانة أريوس الذي أنكر أن الأبن من مادة الأب ، أدت إلى انفصال الجرمان عن العالم المسيحي ، وانفصل معهم أيضاً كل الغرب ، الذي قامت به الممالك الجرمانية. وظل النضال مستمراً حتى اختفت النحلة الأريوسية ، غير أنها لم تكد تزول ، حتى ظهر مذهبان آخران ، النسطورية التي تدعو الى التفرقة بين الطبيعتين الآلهية والبشرية عند المسيح ، والمونوفيزتيه التي تجعل من المسيح إلهاً ، وقد سادتا في مصر والشام وفلسطين ، وكلما أشتد الأضطهاد لهذه المذاهب ، ازداد تعلق أربابها بها . وما لجأت اليه بيزنطة في القرن السابع ، زمن أسرة هرقل ، من محاولات لوضع صيغة عن طبيعتي المسيح ، يرضى عنها الكاثوليك في الغرب ، والمونوفيزتيون والنساطرة في مصر والشام ، لم تؤد إلا لكراهية الإرثوذكس ، وإثارة النزاع بين الأباطرة والبابوات ، ودخول الشام ومصر في حوزة المسلمين .

وتأثرت العلاقات بين الأباطرة والبابوات بالسياسة الدينية التي اتخذها الأباطرة الايزوريون في القرن الثامن الميلادي لمناهضة عبادة الصور . فالمعروف

أن الكنيسة المسيحية أفادت، منذ عصور سحيقة، من الصور والرسوم والفسيفساء، والتماثيل، التي تمثل المسيح والقديسين. ولم تكن هـذه الصور أول الأمر سوى وسيلة لتعليم الديانة للأميين، وتقريبها لأذهانهم، غير أنه لم يلبث أن اتجه الميل لعبادة هذه الصور بدلاً من القديسين الذين تمثلهم. وما حدث من نزاع على عبادة الأيقونات (الصور) في بيزنطة، كان له تأثير قوي على العلاقة بين القسطنطينية وروما. وإذ أصدر الأمبراطور لبو الثالث سنة ٧٣٠، مرسوماً يحرم عبادة الصور، أضحى الانشقاق بين الكنيستين أمراً لا مفر منه، نظراً لأن كنيسة روما تقر عبادة الصور، ولم يسع البابا جريجوري الثالث إلا أن ينكر سياسة بيزنطـة الدينية في مجمع انعقد لهذا الغرض. وترتب على النزاع الديني، ما وقع من تباعد سياسي، إذ كان أول تأثير سياسي، أن أتسعت الفجوة بـين القسطنطينية وروما، وأن تدهور مركز بيزنطة في إيطاليا. ومع أن بيزنطة أخذت تفقد سلطانها في الغرب اللاتيني، فان مركزها في الشرق والجنوب اليوناني ازداد قوة، فالأقاليم التي أتسمت بالصفة اليونانية مثل صقلية وكالابريا وايلليريا، والتي كانت حتى وقتذاك تنتمي لأسقفية روما، تقرر فصلها عن روما، واخضاعهـا لبطريركية القسطنطينية، وتلى ذلك تحول ما كان المقر المقدس يجبيه من خراج من جنوب ايطاليا، إلى الأمبراطورية بالشرق، ولم تجد نفعا احتجاجات البابا على هذه الإجراءات. فاضحت الحدود الجديدة بين اختصاص كنيستي رومـا والقسطنطينية تطابق الحدود بين الشرق والغرب، التي عينتها الأحداث التاريخية. وصارت بطريركية القسطنطينية تبسط سلطانها على كل ما خضع لسلطان الدولة البيزنطية السياسي ومن أهم النتائج السياسية للنضال حول عبادة الصور، أن روما انسحبت من الشرق اليوناني ولجأت إلى ملك الفرنجة، وان بيزنطة خرجت من دائرة الغرب اللاتيني. وما كان من التساؤل بأن الروح القدس انبثق من الأب وحده مثلما ورد في صيغة العقيدة أول الأمر، أو انبثق من الأب والابن حسبما أصر الكاثوليك، أدى الى انشقاق دائم ليس له نهاية، وما جرى في منتصف القرن الحادي عشر، بعد غزو النرمان لأملاك بيزنطة في جنوب إيطاليا، أن زعم البابا لنفسه السيطرة الدينية على بلاد النرمان، أدى إلى عداء مرير بين البابا والبطريرك، أفضى

آخر الأمر إلى الشقاق بين الكنيستين، وزعم كل من الجانبين أن له وحده تراث العالم الروماني .

كل هذه الدعاوي أدت إلى فشل المحاولات لإقامة جبهة مسيحية متحـــدة لمواجهة المسلمين، ودلت على أن عالم بيزنطة وعالم الغرب يعتبران عالمين منفصلين.

والمعروف أن الأمبراطورية الشرقية نجت من العاصفة التي حطمت الأمبراطورية الغربية في القرن الخامس الميلادي ، وحاول المؤرخون أن يلتمسوا ما اختصت به الأمبراطورية الشرقية من المزايا الاقتصادية والفكرية والاستراتيجية مـــا جعلها اكثر صلابة ، وأقل تعرضاً للانهيار . والواقع أن بيزنطة فاقت الغرب بما حازته من خصب الأراضي، ووفرة السكان، ونشاط التجارة، فضلاً عما اشتهرت به حدودها من القصر ، ومن أنها أقل تعرضاً لهجمات الجرمان ، ولا سيما منذ أن تطلعت قبائلهم المحاربة إلى الشطر الغربي من الأمبراطورية. وإذ تقع القسطنطينية على رأسي مثلث ، يحيط البحر بجانبين منه ، كانت أقوى من روما ورافنا وكل مركز آخر من مراكز المقاومة . كما أن المدن الكبيرة بالشرق الهلينستي لم تفقد مطلقاً تفوقها على المدن بالغرب ، من الناحيتين الثقافية والتجارية . واختلف مصير الشرق عن الغرب ، لأن المتبربرين لم يدمروا ما كان به من حضارة يونانية رومانية ، أخذت تنهض ، وعاشت عشرة قرون أخرى ، أي فـترة العصور الوسطى في الغرب .

على أن الحضارة البيزنطية لم تعش إلا بفضل ملائمتها لما حدث من تغييرات كثيرة ، ولم يكن نصيب الحكم السابق على غزو المتبربرين وسقوط روما ، من هذه التغييرات سوى قدر ضئيل ، إذ تراخى رويداً رويداً الضغط الذي سبق أن الزم كل عامل أو فلاح أو مستخدم بالارتباط بمهنته ، كما أنه تقرر منذ أواخر القرن الخامس الغاء بعض الضرائب ثقيلة الوطأة أو تخفيضها. وشهد أواخر القرن الخامس انتعاشاً اقتصادياً نسبياً في عالم البحر المتوسط . ويرجع هذا الانتعاش

في ايطاليا وفرنسا إلى ثيودوريك وكلوفيس ، كما أن معاصرهما الأمبراطور البيزنطي ، انستاسيوس ، أصلح أحوال رعاياه بروما الجديدة (القسطنطينية) ، وخلف وراءه خزانة عامرة بالمال ، دون أن يتعرض مستوى الأمبراطورية للانخفاض ، برغم اقتصار الأمبراطورية على الشطر الشرقي من عالم البحر المتوسط ، على أن جستنيان أنفق كل ما خلفه انستاسيوس بالخزانة من أموال ، لتحقيق أطماعه في استرداد أملاك الأمبراطورية التي انتزعها الجرمان ، وفي مظاهر الابهة والعظمة . والتزم أخلاف جستنيان اتخاذ خطة الدفاع ، غير أن الحروب والكوارث الطبيعية منعتهم من تخفيف الأعباء المالية التي وقعت على كاهل السكان ، وكان للضرائب على اختلاف أنواعها من الأهمية للدولة البيزنطية ما يفوق أهميتها عند الممالك الجرمانية . ففي زمن أسرتي جستنيان وهرقل ، ازداد تطور النظم البيزنطية ، بعد أن أدرك الأباطرة أن بقاء الأمبراطورية يتوقف إلى حد كبير على مواردها الاقتصادية ، ومن أهمها الزراعة ، التي لا تمد السكان بالحبوب فحسب ، بل تمد الجيش أيضاً بالرجال ، نظراً لما جرى من تطور الخدمة العسكرية ، بالإفادة من الفلاحين بالثغور في الدفاع عن كيان الأمبراطورية .

ونشط الأباطرة في استغلال الأراضي المهملة ، فتقرر استخدام الصقالبة في استصلاح الأراضي الزراعية ، وبذلك ازدادت كمية الانتاج . وفي نهاية هذه المرحلة (٧١٧ م) ، اشتدت كثافة سكان آسيا الصغرى ، وغزر الانتاج الزراعي ، فإلى جانب الأراضي التي كان الأقنان يقومون بفلاحتها ، كان من الأراضي ما يلتزم الفلاحون الأحرار وسائر الناس ، باستغلالها ، فتوافرت حقول الحبوب ، والحدائق وأحراش الزيتون ، والكروم ، فضلاً عن الاهتمام بزراعة أشجار التوت التي تعيش عليها دودة القز التي جلبها جستنيان من الصين. وتكاثرت مراكز التجارة والصناعة بالأمبراطورية ، إذ صار عدد سكان القسطنطينية يربو على مليون نسمة ، وزاد عدد سكان سالونيك على نصف مليون نسمة . وقام بالصناعات الهامة ، الطوائف والنقابات التي خضعت

لسيطرة الحكومة البيزنطية ، فكانت كل نقابة تحتكر صناعة معينة ، وتولت الدولة تنظيم عملية شراء المواد الخام ، وتسويق المنتجات المصنوعة ، وأشرفت أيضاً على طرق الصناعة ، والأسواق ، والأرباح . فأضحى رجال الحكومة يراقبون كل شيء ، ولم يكن الصناع سوى عمال عند الحكومة ، يلتزمون بتوجيهها وارشادها . وترتب على ذلك أن بلغت الصناعة أعلى درجة من الاستقرار ، برغم أنها لم تصل هذا المستوى من التقدم . على أن معظم الصناعات ، باستثناء الأسلحة ، كانت من أدوات الترف ، كالمنسوجات الحريرية ، والأصواف ، والحلي ، وأدوات الزينة . وجرى الاهتمام بصفة خاصة ببعض الصناعات المتعلقة بالدين ، مثل الكؤوس والقوارير ، والأوعية . وانتشرت منتجات بيزنطة في سائر أنحاء أوربا .

وخضعت التجارة لما خضعت له الصناعة من القيود ، إذ احتكرت الحكومة تجارة الحبوب والحرير ، وما خضع له التجار من قيود بلغت من الشدة أن نزع عدد كبير منهم إلى التخلي عن عملية الاستيراد والتصدير فتركوها للأجانب .

أدرك ليو الثالث مؤسس الأسرة الايزورية (٧١٨ م) أن ما يهدد رخاء الأمبراطورية ، خطران ، أحدهما ديني والآخر اجتماعي اقتصادي . ذلك أن الأديرة والكنائس حازت ضياعاً وافرة ، كانت معفاة من الضرائب ، وظفرت بامتيازات واختصاصات ضخمة ، وكان لذلك تأثير كبير في خزانة الأمبراطورية . وإذ كان الرهبان من أشد الناس مساندة لعبادة الصور ، كان لمهاجمة عبادة الصور أهمية مزدوجة ، دينية واقتصادية . فحينما عادت عبادة الصور بمساندة الأمبراطورة ايرين ، سنة ٧٨٧ ، استعاد الرهبان ضياعهم ، وطلبوا ألا يتدخل الأمبراطور مطلقاً في أمرها .

وانزعج الأمبراطور ليو الثالث أيضاً لما حدث من نمو الضياع الكبيرة على

حساب صغار الملاك الأحرار . والمعروف أن الفلاحين الأحرار أمدوا الحكومة بخيرة العساكر ، وليس بوسع الدولة أن تقبل اختفاء هذه الطبقة . وكلما أزداد نمو الملكيات الكبيرة ، تضاءلت سلطة الأمبراطور ، نظراً لما لكبار الملاك من سلطان على المستأجرين والحائزين للأراضي . وحـــدث في بعض الأحوال أن اغتصب المالك الكبير قدراً من اختصاص الحكومة ، وجرى في أحوال أخرى أن حاز بعض موظفي الأمبراطور أملاكـــاً في الجهات الخاضعة لسلطانهم، واعتبروها ملكاً خاصاً . واستخدم كبار الملاك نفوذهم السياسي في حمل صغار الملاك على بيع أراضيهم ، واغتنموا الأزمات الاقتصادية فاشتروا الملكيات الصغيرة،وبذا أخذت الملكيات الكبيرة تزداد نمواً واتساعاً،بينما أخذت الملكيات الصغيرة في الاختفاء . على أن تطور نظام الضياع في الشرق لم يجر على نحو ما كان معروفاً في الغرب ، وما بذله الأباطرة الايزوريون والمقدونيون من جهود لمنع نمو الملكيات الكبيرة لم يلق إلا حظاً ضئيلاً من النجاح .

وإذ حرصت بيزنطة ، بعد تحوّلها إلى الشرق ، عـــلى الافادة من كل العناصر التي تعيش بها أو بخارجها في تنمية حضارتها ، ازداد اختلاط الأجناس والعناصر بها ، فكان كثير من خيرة الأباطرة البيزنطيين من الأرمن ، واشتهر جماعة من السوريين بتفقههم في القانون الروماني ، وكان للصقالبة تأثير كبير في الاقتصاد الزراعي . والواضح أن السكندناويين والايطاليين أمدوا بيزنطة بأساليب بناء السفن كما أن ايران ومصر قدمتا لها أجمل ما لديها من تصميمات فنية ، قام البيزنطيون بنسجها بخيوط الحرير . والواقع أن بيزنطة تعتبر بوتقة انصهرت فيها الأمم ، ونقلت أفكار الشعوب الأخرى، دون أن تفقد شيئاً من خصائصها ، وبذلت جهدها لأن تعتبر نفسها وطناً لكـل من أظهر استعداداً لقبول قوانينها المدنية وعقائدها الدينية ، وأسهم في حمايتهـــا من المتبربرين النازلين خارج حدودها ، الذين لم يلبثوا أن أخذوا بالمدنية البيزنطية منذ القرن

التاسع الميلادي ، على حين أن المتبربرين والرومان في الغرب لم يندمجوا الا بعد قرون عديدة .

على أن اكثر ما أثر في تصور جيران بيزنطة ، ما شهدوه من قيام حكومة مركزية ، وجيش ثابت ، وادارة منظمة ، ومدارس ومستشفيات تنفق عليها الدولة ، أي انهم عرفوا دولة جديرة بهذا الاسم الذي ظل قائماً في العالم المسيحي ، وكان أمبراطورها من ناحية المبدأ ملزماً باحترام القوانين ، والتعرف إلى رغبات شعبه ، واقرار أحكام الكنيسة وتنفيذها . على أنه إذا كانت هذه القواعد العامة من الكفاية ما تجعله يمتاز على ملوك الجرمان المتبربرين ، الذين ليسوا الا قادة جيوش وحائزين لممالك ، ولم يكونوا سادة يخضعون لقانون عام ، فالواقع أنها لم تحد إلا قليلاً من سلطات الأمبراطور الذي اتخذ لقب اوتوقراط ، وسَوِيّ الرسل ، في أوائل العصور الوسطى . إذ كان لزاماً على الشعب أن يظهر الولاء والانقياد للأمبراطور منذ زمن سابق لعهد جستنيان. وعلى الرغم من أن الرعايا استعادوا شيئاً من النفوذ أثناء النزاع على عبادة الصور ، فإنه لم يظهر احتجاجهم الا في ثورات قليلة على بعض الطغاة ، الذين يعتبرون ضعافاً بالقياس إلى غيرهم .

كانت الكنيسة تبدوا منافساً قوياً للأمبراطور ، غير انها في الشرق لم تجسر على أن تنازع الأمبراطور ما يعتبر حقاً له بحكم التقاليد . أما في الغرب فكان البابا بعيداً عن عاصمة بيزنطة ، فتسنى له مناوءة اليونانيين كما يجعل نفسه حامياً لأفكار اللاتين . وما حدث من تطور العلاقات بين الأمبراطورية البيزنطية والبابوية ، كان بالغ الأهمية في انفصال بيزنطة عن الغرب . ذلك أن البابوات بعد سقوط روما في أيدي المتبربرين سنة ٤٧٦ ، صاروا يتطلعون إلى امبراطور القسطنطينية باعتباره وريثاً للأمبراطورية الرومانية في الغرب

برغم تمسكهم بالانتماء إلى بطرس الرسول ، واحتفاظهم تبعاً لذلك بمركزهم السامي . وإذ حاولت كل من الكنائس الرسولية ، في انطاكية والاسكندرية والقسطنطينية ، إستمالة كنيسة روما إلى جانبها ، فيما نشب من نزاع ديني حول طبيعة المسيح، حرصت روما على أن تستقل برأيها ، فأدى ذلك إلى الصدام بينها وبين كنيسة القسطنطينية بوجه خاص ، ومن الدليل على ذلك ما كان من الخصومة بين البابا جريجوري الأول والبطريرك يوحنا الذي اتخذ سنة ٥٩٥ لقب المسكوني. يضاف إلى ذلك ما كان من الاختلاف في اللغة بين روما (اللاتينية) والقسطنطينية (اليونانية) . ومع ذلك ظلت البابوية تعترف حتى وقتذاك بالسيادة العليا للأمبراطور ، فكان لا بد من تصديق الامبراطور على انتخاب البابا ، وكان نائب الامبراطور في رافنا يرقب أعمال البابا .

وما حدث في القرن السابع من إغارة اللومبارديين واستقرارهم بإيطاليا ، جعلهم مصدر خطر على البابوية والأملاك البيزنطية في ايطاليا . وإذ عجزت بيزنطة عن إرسال الأمداد إلى ايطاليا ، حرص البابا على مداراتهم تارة بما يؤديه لهم من الأتاوة ، وتارة بما يتبعه من أساليب الدبلوماسية ، حتى لا تقع روما في أيديهم[1] . واشتدت ثائرة البابوات في القرن الثامن ، حينما اتخذ الأباطرة الايزوريون سياسة مناهضة عبادة الصور ، ولم تجد نفعاً احتجاجات البابوات ، وترتب على قرار مجمع القسطنطينية سنة ٧٣٠ ، ضرورة تنفيذ هذه السياسة في أنحاء الأمبراطورية ، فتقررت مصادرة ما كان يؤدي لروما من خراج من صقلية وجنوب ايطاليا ، واخضاع كنائس هذه الجهات لسلطة بطريرك القسطنطينية . ولم يسع البابوات آخر الأمر إلا أن يلجأوا الى ملوك الفرنجة في منتصف القرن الثامن لحمايتهم من اللومبارديين ، والمحافظة على سلطاتهم إزاء بيزنطة . ولما توج شارلمان امبراطوراً على يد البابا ليو الثالث ، لم تعد الحكومة البيزنطية تثق بالبابوية بحال من الأحوال . واعتبرت ذلك التتويج عملاً ينطوي على الخيانة .

---

(١) أنظر ما سبق .

يضاف إلى ذلك ، ما دأبت عليه البابوية زمن الأسرتين العمورية والمقدونية (٨٢٠ – ١٠٥٤) من التدخل في أمور البطريركية ، مما أدى إلى وقوع الانشقاق الديني بين الكنيستين في أحوال عديدة .

ولم يؤد استقرار اللومبارديين في ايطاليا إلى توتر العلاقات بين القسطنطينية وروما فحسب ، بل ان امتداد سلطانهم في ايطاليا كان على حساب أملاك بيزنطة في ايطاليا ، وبذا أضحوا عاملاً في تداعي سلطان بيزنطة بايطاليا . ولم يعد لبيزنطة عساكر في دالماشيا ، وما حدث من تدفق الصقالبة على البلقان ، دق اسفيناً بين الشرق والغرب ، فازدادت الفجوة بينهما اتساعاً ، وقامت إمارات صقلبية بالبلقان ، وأخذت الأمبراطورية تتجه نحو الشرق لمواجهة خصومها من الفرس والمسلمين . ومن وراء الإمارات البلقانية اتخذت أوروبا الغربية صوراً جديدة في تطورها ، إذ نما النظام الإقطاعي في ايطاليا وفرنسا ، كما أن علامات امتداد السلطة البابوية لم تعد خافية ، فانطلقت إلى الغرب البعثات التبشيرية تحمل رسالة البابوية ، ولم تلبث انجلترا أن تحولت الى المسيحية ، ومن ثنايا فوضى الغزو ، شرعت أوروبا تتخذ ما كان لها من صورة وشكل في العصور الوسطى .

وعلى الرغم من اقتطاع الجرمان والصقالبة والبلغار والمسلمين لأطراف الأمبراطورية ، فلا زالت بالغة الاتساع . ولم يعد بوسع الأمبراطور في الشرق أن يحتفظ بكامل قوته ، وتوجيهه الشخصي ، لكل الأمور في طول الأمبراطورية وعرضها . ولذا تنازل الامبراطور لممثليه ونوابه من الأراخنة والدوقات وقادة الثغور ، والنقابات المهنية في بعض الأحوال ، عن قدر كبير من المسئولية ، للاضطلاع بادارة الحكومة والحرب في أقاليمهم ، بكل ما يظفرون به في هذه الأقاليم من قوة بشرية ، وموارد اقتصادية ، دون الاعتماد على ما قد توجهه إليهم الحكومة المركزية من أمداد وتعليمات . على أن كثيراً من هذه القيادات التي حظيت بما فوضه لها الامبراطور من سلطات ضخمة ، لم تلبث أن استقلت ، مثلما حدث في سردينيا ، ونابولي ، وساحل دالماشيا ، أو أنه جرى سقوطها في أيدي

أعداء الدولة ، مثلما حدث لقرطاجنة التي استولى عليها المسلمون ، حوالي نهاية القرن السابع الميلادي ورافنا التي انتزعها اللومبارديون من بيزنطة لما يفصلها عن القسطنطينية من مسافة بعيدة ، فضلاً عن انصراف الأمبراطور إلى الأحوال بالغة التعقيد في الشرق ، غير أن من هذه القيادات ما حافظ على استقلاله ، وعاد إلى حظيرة الأمبراطورية . والواقع أن الأمبراطورية أفادت من حركتي المد والجزر ، الناجمتين من الهجمات التي تعرضت لها الامبراطورية ، بما جرى من احلال جماعات الفلاحين، مكان النبلاء و كبار الملاك ، الذين ينصاعون لأوامر الامبراطور ، إذ أنه لم يكن مجرد طيف أو حاجب من النبلاء أو رجال الدين مثلما كان حادثاً في الغرب ، فما من أحد ينازع الامبراطور حقه ، في تجنيد العساكر وفرض الضرائب كيفما شاء .

وما كان يربط القسطنطينية بأقاليمها من صلات لم تتحطم حتى بداية القرن السابع الميلادي ، حينما نجح الفرس والآفار في الأحداق بها ، وجعلها بين فكي الكسارة ، أو حينما حدث في أوائل القرن الثامن ، أن هدد العرب والبلغار بتدميرها . ويرجع انتعاش بيزنطة إلى ما اشتهرت به من قديم الزمان من التعلق بالبحرية ، والنيران اليونانية التي تقذفها المقاليع من سطح السفن اليونانية [1]. وهذا الإحساس بالبحر لم يكفل لبيزنطة فحسب علاقاتها المستمرة مع البلاد الأجنبية ، بل هيأ لها أيضاً المواصلات الداخلية ، في وقت تجزأ فيه العالم إلى أقسام بالغة الصغر . فالبحر بلغ جوف الأمبراطورية ، وأحاط بكثير من أقاليمها . وما كان من أزمة سكانية وضيق اقتصادي قد يلزم بيزنطة بأن

---

(١) وهذه النيران كانت تتولد من مادة كيماوية ، وكانت من أنواع مختلفة ، وتستخدم بطرق شتى. فإما أن تقذف في هيئة قنابل يدوية تنفجر، فتشمل النار في سفن الأعداء، وإما أن تقذف في أوعية مملوءة بتلك المادة بالمقاليع . وكان تركيب النار اليونانية سراً يحافظ عليه أصحابه . وقيل أن الذي اخترع تلك المادة رجل يوناني سوري ، اسمه كالينيكوس ، في القرن السابع الميلادي ، وان نوعاً منها جرى استخدامه في رد العرب عن القسطنطينية أثناء الحصارات الكثيرة التي تعرضت لها . على أن الانواع المختلفة لتلك المادة لم تبلغ الاكتمال الا في القرن التاسع .

تغفل أمر الطرق ، التي انفقت روما أموالاً طائلة لصيانتها ، وقد تتداعى التجارة والصناعة التي تعتبران من بواعث حياة المدن ، غير أن ما تبقى منهما كان كافياً لأن يهب المدينة البيزنطية حياة لم ينعم بها إلا مدن قليلة في الغرب . ولم تتوقف تجارة بيزنطة في البحر المتوسط ، بعد الفتوح الإسلامية ، وسيطرة العرب على البحر المتوسط ، إذ ما زال بوسع السفن البيزنطية أن ترتاد الطريق الساحلي إلى أرخونية رافنا ، وظلت بعض السلع ترد إلى أوروبا ، حتى عن طريق نهر الدون. وأفادت بيزنطة من بحريتها ، وانتماء المدن الايطالية البحرية ، جأييتا ونابولي وأمالفي وباري والبندقية إليها ، في ممارسة التجارة في الأراضي اليونانية بإيطاليا ، وفي الشرق الأدنى ، ومع المسلمين .

ملحق ٨

تمرد البابوات على الأمبراطور

ليو الثالث ٧٢٦ — ٧٢٧

مقدمـــة

أضحى للأباطرة منذ زمن قنسطنطين الكبير سلطة ضخمـة على الكنيسة . ونظراً لأن الأمبراطور (البيزنطي) يساند عادة العقائد التي يعتبرها أسقف روما زندقة ،أخذت العلاقات بين الأمبراطور والبابا تزداد توتراً ، وما اتخـــذه الأباطرة من طريقة قاسية في معاملة البابوات الذين عارضوه ، أثارت غضب أنصار البابا . ولم يلبث سكان روما ، وسكان وسط إيطاليا أيضاً ، أن اعتبروا البابا زعيماً للمقاومة أزاء الامبراطور ، فساندوه عن طيب خاطر حينما تمرد على الحـكم (البيزنطي) . وفيما يـلي رسالة البابا جريجوري الثالث إلى الأمبراطور ليو الثالث :



تلقينا الرسالة التي أنفذتها مع سفيركم ، روفينوس ، واشتد أسانا لمضيكم في ارتـكاب الخطأ، بأن رفضتم الاعـتراف بما للمسيح من حقوق ، وأبيتم قبول وانتهاج تعاليم الآباء المقدسين ، وأرباب الكرامات ،وعلماء الدين، وانني لا أشير فحسب إلى علماء الدين الأجانب ، بل أيضاً إلى أولئك الذين ينتمون إلى بلادك. فمن ذا الذي يعتبر أكثر علماً من جريجوري صاحب الكرامات والمعجزات، أو

جريجوري أسقف نيسا ، أو جريجوري عالم الدين ، أو باسيل القبادوقي ، او يوحنا خريصوستوم ، فضلاً عن آلاف من غيرهم ، ممن لم نذكرهم من آبائنا المقدسين وعلماء الدين الذين امتلأت نفوسهم أيضاً ، بروح الله ؟ غير انك اتبعت طريق الهوى ، وسمحت لمتطلبات وضعك السياسي في البلاط بأن تمضي بك على غير هدى ، انك تقول : « انني لأمبراطور وأسقف » . على أن الأباطرة الذين سبقوك ، أمثال قنسطنطين الكبير ، وفالنتينيان الكبير ، وقنسطنطين والد جستنيان (الثاني) الذي شهد المجمع الديني السادس ، أثبتوا فعلاً أنهم أباطرة وأساقفة ، لأنهم اتبعوا الدين الحق ، وشيدوا الكنائس ، وأظهروا من الغيرة على الدين ما أظهره البابوات . إذ التزم هؤلاء الأباطرة العدالة في حكمهم ، فعقدوا من المجامع ما يتفق مع رغبة البابوات ، وحاولوا أن يقيموا العقائد السليمة ، وشيدوا الكنائس وزينوها .

أما أولئك الذين زعموا أنهم أباطرة وقسس ، فلا ينبغي أن يظهروا ذلك إلا بما يؤدونه من أعمال . لقد فشلت ، أيها الأمبراطور ، منذ بداية حكمك في مراعاة ما أصدره الآباء من قرارات . وكلما صادفت كنائس قد تزينت وزخرفت بالأستار ، عمدت إلى تدميرها . فلأي شيء قامت الكنائس ؟ ألم تشيدها الأيدي من الحجارة والأخشاب والقش والملاط والجير ؟ على أنها تزينت أيضاً بصور ورسوم معجزات القديسين ، وآلام المسيح ، فضلاً عن الأم المقدسة (مريم العذراء) وسائر القديسين والرسل ، وانفق الناس أموالهم على هذه الصور . يضاف إلى ذلك أن ما بذله الناس من جهد ، وما جرى إنفاقه من مال ، كان الغرض منه الإفادة في استخدام هذه الصور ، في تلقين الدين والعقيدة لأطفالهم وشبانهم وفتياتهم ، وهم في مقتبل العمر ، فضلاً عن أولئك الذين ينتمون للامم الوثنية ، وعن طريق هذه الصور تتوجه القلوب والعقول إلى الله . غير أنك أمرت الناس بالامتناع عن استخدام الصور ، وحاولت أن تقنعهم ، بما ألقيته من مواعظ كاذبة ، وبما لجأت إليه من أمور تافهة ، وبما أثرته من جلبة

وضوضاء ، بأن ينصرفوا عن التسبيح بحمد الله ، وأن يتجهوا إلى سماع الحكايات الباطلة . لقد شاركتهم في كل ذلك ، كما شاركت أولئك الذين اختلقوا من الخرافات ما ينم عن جهلهم .

فلتصغ إليّ أيها الأمبراطور ، فلتتخلّ عن اتجاهك الحاضر ، ولتتقبل الكنيسة المقدسة على نحو ما لقيتها ، إذ أن أمور العقيدة وممارستها إنما يهتم بها البابا لا الامبراطور ، فنحن لنا فكر المسيح[1] . فوضع القوانين للكنيسة يعتبر أمراً قائماً بذاته ، كما أن حكم الأمبراطورية يعتبر أمراً مستقلاً أيضاً .

فالفكر العادي الذي يجري استخدامه في معالجة الأمور الدنيوية ليس كافياً لإقرار الأمور الروحية ولتصغ أيها الأمبراطور ، فسوف أريك الفرق بين القصر (البلاط) والكنيسة ، والفرق بين الامبراطور والبابا ، فإذا وعيت ذلك ، رعاك الله ، وكفل لك السلامة .

فإذا انتزع أحد الأفراد ، ما للملكية من زينة ومظهر ، كالرداء الأرجواني ، والتاج والصولجان والخدم والحشم ، تعرضت أيها الأمبراطور للكراهية والاحتقار من قبل الناس . لقد تعرضت الكنائس على يديك ، لهذه الأحوال ، بعد أن جردتها من زينتها ، فتشوه منظرها . وإذ ليس للبابا الحق في أن يتدخل في أمور البلاط ، وأن يجترىء على حقوق الملكية ، فليس للأمبراطور أيضاً الحق في أن يتدخل في أمور الكنائس ، بأن يتولى أمر انتخاب رجال الدين ، وان يباشر القداسات والشعائر ، بل إنه ليس من حقه أن يشارك في القداسات إلا بمساعدة القسيس ، فيلتزم كل منا بمهنته التي خصه الله بها .

أرأيت أيها الأمبراطور الفرق بين البابوات والأباطرة . فإذا أساء أحد إليك ، عمدت إلى مصادرة داره ، وانتزعت منه كل شيء ، حتى حياته ، بأن تأمر

---

(١) رسالة بطرس الرسول الأولى إلى أهل كورينثوس ٢ : ١٦ .

بسمه واجترار رأسه ، أو بنفيه وإبعاده عن أبنائه وأقاربه وأصدقائه .

على أن البابوات لايفعلون ذلك . فإذا ارتكب شخص ذنباً من الذنوب ، ثم اعترف واستغفر ، فإنهم بدلاً من الالتجاء الى شنقه وقطع رأسه ، يجعلون حول عنقه الانجيل والصليب ، ويقودونه إلى حجرة الأواني المقدسة ، فينزلونه بالكنيسة في الموضع المخصص للشمامسة ، ويلزمونه بالصيام والتهجد والتسبيح، فإذا تطهر بالصيام ، قدموا له القربان (الذي يمثل جسد المسيح ودمه) فيغدو وعاء نقياً خالصاً من الذنوب ، وبذا يسلمونه إلى الله الخالق طاهراً نقياً .

ألا ترى أيها الأمبراطور الفرق بين الكنيسة والأمبراطورية. فالأباطرة الذين عاشوا أتقياء ، أطاعوا البابوات ، ولم يلجأوا إلى إغاظتهم وإثارتهم . أما أنت، أيها الأمبراطور فإنك قد تجاوزت الحدود وضللت السبيل ، على الرغم من أنك كتبت بخط يدك ، واعترفت بأن كل من يقدم على مهاجمة آباء الكنيسة ، تعرض للعنة ، وبذا فقد أدنت نفسك بهذا الحكم ، وأخرجت من ذاتك الروح القدس .

لقد أنزلت بنا الاضطهاد ، وأمعنت في إلحاق الضرر والأذى بنا . أما نحن الذين تجردنا من السلاح ووسائل الدفاع ، ولا نملك شيئاً من جيوش الأرض ، فإننا نلجأ إلى أمير جيوش الخليقة ، المسيح في سمواته يقود سائر القوى السماوية، كيما يبعث إليكم بالشيطان[1] ، فالرسول يقول : « إن يسلم مثل هذا الشيطان لهلاك الجسد ، لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع [2] » .

ألا ترى أيها الأمبراطور الهاوية التي تنزلق إليها ، لقد قذفت بروحك إلى الهاوية ، لأنك لم تتواضع ، ولم تشأ أن تطأطيء الرأس . فإذا استطاع البابا أن

---

(١) ليس هذا إلا إعلاناً بحرمانه من الكنيسة .
(٢) رسالة بولس الرسول إلى أهل كورينثوس ٥ه .

يحمل الأمبراطور على المثول أمـــام الله ، نقياً طاهراً ، من كل ذنب ، فسوف يحظى من الله بالمجد يوم البعث ، يوم تنكشف أسرارنا وأعمالنـــا في حضرة الملائكة . غير اننا سوف نخجل لأنك فقدت روحك بعصيـانك ، بينما ظفر البابوات الذين سبقونا عند الله ، لما اشتهر به أباطرة زمنهم من التقوى ، فما أشد ما نتعرض له من الخجل في ذلك اليوم ، لأن أمبراطور زمننا كان جاهلاً فظاً ، لا عظيماً ومبجلاً . ولذا فإننا نحثك على التوبة ، والعودة إلى الحق والصدق ، وأن تذعن للحق كما لقيته . فلتبجل آباءنا وعلماءنا الأمجاد المقـدسين ، الذين أزالوا الغشاوة عن اعيننا ، وأعادوا البصيرة إليها ، وليهبك الله من الحكمة والصبر ، ما يحملك على العودة إلى الحق الذي تخليت عنه ، وليرجع الله الناس إلى راعيهم المسيح ، وإلى حظيرة الكنائس المقـدسة ورجالهـا ، وليبسط الله السلام على الأرض لكل الأجيال ، أبد الآبدين . آمين » .

الفصل السابع

الدولة الاسلاميـــة

تعتبر الدولة الإسلامية من العوامـل التي شكلت تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، فما كان للمسلمين من تأثير في تغيير الأوضاع بحوض البحر المتوسط ، كان بالغ الأهمية فيما أصبحت عليه أوروبا الغربية بعد القرن العاشر الميلادي من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ومع أن بلاد العرب لم تدخل مدة القرون الستة الميلادية الأولى في حسبان أحد من رجال السياسة والحكم في أوروبا، لا يعرفون عنها سوى أن أهلها مارسوا قليلاً من التجارة مع الشام ومصر ، وأن من أبنائها من يمارس الجندية في الجيوش الفارسية والرومانية ، فالواقع أنها تأثرت قبل الإسلام بما قام في جنوبهـا من حضارة سبأ التي تعرضت للاضمحلال منذ منتصف القرن الخامس الميلادي ، وبما بلغها من نواحي الشمال من مؤثرات الحضارات في سوريا وإقليم ما بين النهرين ، حيث نشأت دولة النبطيين التجارية وحاضرتها البتراء ، ثم دولة تدمر التي سيطرت في القرن الثالث على الطريق التجاري الممتد بين الأمبراطورية الرومانية والخليج العربي ، ثم أخيراً دولتا الأطراف ، الغساسنة والمنـاذرة ، اللتان ارتبطتا بالدولتين البيزنطية والفارسية ، وتعتبران من مراكز الحضارة العربية قبيل ظهور الإسلام . وكان لهذه المؤثرات نصيب كبير في تطور حياة النبي صلى الله

عليه وسلم ، فقد كان مدنياً تحدوه تقاليد مدنية ، يسيطر عليها ما كان لمكة نظام ديني ومجتمع تجاري ، واحتقار شديد لأعراب الصحراء . وشيد النبي في حداثته ما ساد من الفوضى والهمجية بين القبائل الوثنية المتحاربة ، وأحس بالحاجة إلى إصلاح خلقي في المجتمع العربي ، وإلى قاعدة جديدة لتحل محل القانون القبلي البدائي القائم على العصبية والقرابة والثأر للدم .

جرى وقتذاك في أوروبا الغربية ، أن أخذت قبضة المتبربرين تخف وطأتها ، قبل أن يتموا كل فتوحهم ، بعد أن وقفت المدن الحصينة حجر عثرة في طريقهم ، وأجبرتهم على أن يقاتلوا ، بعضهم بعضاً ، بل إنها جعلت منهم في بعض الأحوال مواطنين صالحين ، وترتب على ذلك أن أخلاف جستنيان لم يبادروا إلى قتال اللومبارديين ، والقوط الغربيين والصقالبة والآفار والفرس ، بل تغاضوا عن ذلك . على أن ما حدث من توالي انتصارات ملك الفرس كسرى الثاني ، واقترابه من إحراز النصر النهائي ، حمل الأمبراطور هرقل في الفترة بين ٦١٤ ٦٣٠ على أن يبادر إلى وقف زحف الفرس ، فاستعاد مصر وبيت المقدس بحملة أثارت من الحماس الديني ما يعتبر سابقة للحروب الصليبية ، وقبل الفرس صلحاً مهيناً ، وما كان يحلم به الأباطرة الرومان السابقون من تحطيم الفرس ، أضحى فيما يبدو حقيقة ملموسة .

غير أن هذا الحلم لم يلبث أن تحول إلى كابوس مزعج على يد قوم لا زالوا حتى وقتذاك مغمورين ، يقلون تخلفاً عن الجرمان ، ويزدادون قلة عنهم في العدد . فما كان لأمبراطور القسطنطينية (هرقل) وملك الفرس (كسرى الثاني) في غمرة التحامهما أن يهتما بما حدث سنة ٦٢٢ حينما هاجر النبي محمد عليه الصلاة والسلام في فئة قليلة من أتباعه ، من مكة إلى المدينة . كانت أحدث ديانة في العالم قد اكتملت ، وأضحى المؤمنون بها مستعدين للجهاد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية .

ولما مات النبي سنة ٦٣٢ ، لم يتجاوز الإسلام صحراء بلاد العرب ومكة

والمدينة . وبعد اثنتي عشرة سنة مضت على وفاته استولى خلفاؤه على الأمبراطورية الفارسية ، وانتزعوا من بيزنطة مصر والشام ، فامتدت أملاكهم من أصفهان شرقاً إلى طرابلس غرباً .

لم يمض قرن من الزمـــان ، حتى أسس أولئك العرب لأنفسهم دولة عالمية عظيمة ، فامتدت حدودهم إلى نهر السند شرقاً وسيطروا على تركستان الغربية وجزء من البنجاب ، وخضع لهم الساحل الأفريقي للبحر المتوسط ، فانتزعوا أفريقية من البيزنطيين والـبربر ، واستولوا على اسبانيـا من القوط الغربيين . ومخرت أساطيلهم التي بنيت بالاسكندرية وموانيء الشام مياه البحر المتوسط ، وتحدت الامبراطورية البيزنطية وسيطرتها في البحار . وبلغ العرب ما بلغوا من النجاح في يسر وسهولة ، فلم يقو على الصمود لهم سوى دولتين : ففي شرق البحر المتوسط ظلت بيزنطة تدافع عن آسيا الصغرى والقسطنطينية التي تعرضت لحصارات عديدة ، ولا سيا ذلك الحصار الذي حدث سنة ٧١٧ وفي الغرب أنزل زعيم الفرنجة شارل مارتل الهزيمة بالمسلمين في وقعة تور–بواتييه سنة ٧٣٢، فردهم إلى ما وراء جبال البرانس . وتغيرت مشكلة سلام البحر المتوسط ، فانتقل موطن الخطر من الغرب إلى الشرق . فما كان يواجه روما من أخطار أضحت تافهـة بالقياس إلى ما صار يواجه القسطنطينية إذ وقع في أيدي المسلمين من بطريركيات الكنيسة المسيحية ، بطريركية الاسكندرية ، وبطريركية انطاكية ، وبطريركية بيت المقدس . وأضحى المسلمون يحكمون من أمـلاك الأمبراطورية الرومانية جانبا يعتبر أشدها تأصلاً في المسيحية . فأكبر معاقل المسيحية غـدت في أيدي المسلمين ، وصارت اللغة العربية هي لغة التخاطب في أهم مراكز العالم الهلنستي بدلاً من اليونانية .

وهذه الثورة التي جاء بها الإسلام نشرحها فيا يـلي :

١ – النبي محمد عليه الصلاة والسلام (٥٧٠ – ٦٣٣) .

ولد محمد بمكة سنة ٥٧٠ م ، وكانت وقتذاك مدينة وثنية تدين بأهميتها الكعبة

مقـــام الالههبل وكهنته ، وللحج الذي يجري سنوياًعند جبل عرفات ، على مسافة أميال قليلة من مكة . وينتمي محمد إلى أسرة من قريش ، لم تكن بالغة الثراء ، فاشتغل بالتجارة مع الشام ، شأنه في ذلك شأن كثير من سكان مكة ، وبدا تيسر له الاتصال باليهودية والمسيحية . وفي الخامسة والعشرين تزوج من خديجة ، وكانت أرملة على جانب من الثراء ، فتعاهد تجارتهـــا . ولما بلغ الأربعين من عمره نزلت عليه الرسالة والنبوة . وإذ عبد المسلمون الله الذي يعبده اليهود والنصارى ، اعتبرهم القرآن أهل الكتاب . ومن مظاهر الاختلاف بين الإسلام والمسيحيـــة ، أن الإسلام ينكر أن المسيح عيسى ابن الله ، ويعتبره رسولاً بعثه الله ويصر على أنه إنسان . أما اتجاهــه نحو اليهود فيتمثل في ان الله تجلى لهم ، غير أنهم لم يطيعوه .

لم تلق دعوة محمد إلا نجاحاً محدوداً أثناء مقامه بمكة مدة اثنتي عشرة سنة نظراً لما لقيه هو وأصحابه من مقاومة من قبل قريش ، لما لها من سيطرة على الكعبة التي يحج إليها القبائل الضاربة حول مكة . أدرك محمـــد آخر الأمر سنة ٦٢٢ أنه لا مقام له بمكة ، فهاجر الى المدينة التي تقع على مسافة ٢٨٠ ميلا إلى الشمال الشرقي من مكة ، وقد اعتنق جماعة من سكانهـا الإسلام . وتعتبر الهجرة مرحلة حاسمة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام . فباستقراره في المدينة ، قرر أن يقطع ما كان يربطه بمكة من علاقات قديمة ، وأن يجاهد في سبيل نشر الإسلام . وبعد ثماني سنوات أمضاها في الجهاد ، دخل مكة منتصراً فاعتنق أهل مكة الإسلام ، وتطهرت الكعبة من آثار الوثنية . ثم مات محمد سنة ٦٣٢ ، وهو يتهيأ لإرسال حملة إلى حدود الشام .

لم يعرف الغرب المسيحي من تعاليم محمد إلا ما يتعلق بزواج المسلم من أربع نساء ، وما ينعم به المؤمنون في الحياة الآخرة « في جنـات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء للشاربين ، لا فيها غول ولا هم

عنها ينزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين، كأنهن بيض مكنون [1] » .

والواقع أن مبادىء الإسلام الجوهرية بلغت من التجريد والمعنوية ما أرضى فئة المفكرين والمثقفين ، وبلغت من الحسية ما جذبت إليها الجماهير ، وما التزم به الإسلام من الوجدانيــة المطلقة ، أدى إلى استبعاد كل المشاكل التي دعت إلى الانقسام بين المسيحيين ، مثل أسرار التثليث ، أو أهمية الصور المقدسة ، ولقي المسيح من التمجيد ما جعله أعظم الأنبياء ، بعد سيدنا ابراهيم، وقبل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومع ذلك لم يكن سوى إنسان . وليس بالإسلام كهنوت، لأن الإنسان ليس بحاجة لأن يكون بينه وبين الله وسيط .

واقترنت البساطة الأخلاقية والعقائدية في الإسلام بمجموعة من واجبـــات دقيقة التفاصيل . والواقع أن الصلاة والزكاة والصيام والحج ، كل ذلك يعتبر ثورة في المجتمع العربي ، إذ جعل الإسلام من العرب أمة واحدة ، وإذ كان من القواعد الأساسية في التعاليم الإسلامية أن يعيش المؤمنون في سلام بعضهم مع بعض ، ترتب على انعدام الحروب القبلية أن توافر من الطاقة الحربية ما تدفقت صوب البلاد المجاورة ، فلم تمض سنتان على وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى بدأ الهجوم على بلاد الشام وفارس . وما اتصفت به الفتوح الإسلامية من النجاح والسرعة لم يرجع فحسب إلى الروح الحربية المتأصلة عند العرب ، بقــدر ما يرجع إلى الحماس الديني ، الذي جعل من الجهاد أقصى غايات التفـــاني ، وعلو النفس، وأضحى الموت في سبيل الله أكثر ما ينشده المسلم .

على أنه يصح التساؤل ما إذا كان البيزنطيون ، الذين كانوا أول من اشتبك معهم العرب في الحروب ، أدركوا ما كان للإسلام من أهمية ثورية . الواقع أن علماء الدين عندهم وعند الكاثوليك في الغرب اعتبروا الإسلام نحـــلة مسيحية ، مثلما كان سائداً وقتذاك في العالم المسيحي من النحل . غير أن البيزنطيين لم

---

(١) سورة الصافات ٤٢ - ٤٨ .

يفتهم أن يدركوا أن العرب لم يكونوا متبربرين ، كالجرمان . فما كان للفرس من مكانة تضارع مكانة اليونانيين والرومان ، احتلها عن جدارة غزاة فارس وبيزنطة . ومن المحقق أن الأمبراطور البيزنطي لم يتخل عن دعواه في الغرب .

ومن المحقق أيضاً أن الأباطرة نقلوا عساكرهم لمواجهة الأعداء المغيرين على البلقان أو على بعض أملاكهم في أوروبا . غير أنه منذ ظهور الإسلام، تركز اهتمام بيزنطة على العرب .

٢- الفتوح الاسلامية :

ما هو جدير بالملاحظة ، ما كان من سرعة فتوح الإسلام ، ففي سنة ٦٣٤ ، اكتمل فتح بلاد العرب ،وفي نفس السنة بدأ غزو الشام ، فأذعنت دمشق وحمص سنة ٦٣٥ ، وتعرض الجيش البيزنطي الضخم الذي حاول استعادتها لهزيمة حاسمة في وقعة اليرموك سنة ٦٣٦ . ولم تلبث المقاومة أن تضاءلت ، ففي سنة ٦٣٧ سقط بأيدي المسلمين عكا وصور وصيدا وبيروت واللاذقية ، وأذعنت بيت المقدس وانطاكية سنة ٦٣٨ ، وقيسارية سنة ٦٤٠ . وفي نفس الوقت كان يجري غزو الأمبراطورية الفارسية ، فسقطت العاصمة كتسيفون (المدائن) سنة ٦٣٧ ، والرقة سنة ٦٣٩ ؛ والموصل سنة ٦٤١ وقزوين والري سنة ٦٤٣ ، وهمدان وأصفهان سنة ٦٤٤ .

وفي الغرب انتزع العرب من البيزنطيين بين ٦٣٩ - ٦٤٢ مصر وشمال أفريقية حتى برقة . ثم تعرضت بلاد المغرب بعد فترة توقف قصيرة الأمد ، لهجوم عنيف نظراً لما صادفه المسلمون من البربر من مقاومة بالغة العنف ، فلم تخضع تونس وقرطاجنة (٦٧٠ - ٦٩٥) إلا بعد خمس وعشرين سنة . غير أن البربر أضحوا بعد إسلامهم من أشد الناس حماساً للدين الإسلامي ، فاشتركوا في فتح اسبانيا وانتزاعها من ايدي القوط الغربيين بين سنتي ٧١١ - ٧٢٠ .

وأحبط شارل مارتل ماقام به المسلمون من محاولة للتوغل إلى شمال فرنسا بعد أن لحقت بهم الهزيمة في وقعة تور – بواتييه سنة ٧٣٢ . وبذلك توقف نهائياً التوسع الإسلامي في الغرب . غير أنه مع التسليم بضخامة عدد الجند في كل من الجانبين اللذين اشتبكا في تلك المعركة للشهيرة ، ومع التسليم بعنف القتال الذي استمر طوال تلك الوقعة الكبرى بين مشاة الفرنجة الكثيرين ، وفرسان اسبانيا وأفريقية المتوقدين حماسة للاسلام ، ومع التسليم بان انتصار الفرنجة كان نصراً حاسماً تاماً ، يبدو أن وقعة بواتييه لا تعدل نجـاح الامبراطور البيزنطي ، ليو الإيسوري في دفع هجمات المسلمين عن القسطينـــية سنتي ٧١٧ ، ٧١٨ م . والمقارنة هنا ليست لأن القسطنطينية كانت أقرب إلى محور الارتـكاز في الدولة الإسلامية بدمشق ،حتى إذا استولى المسلمون على القسطنطينية ، صار من السهل احتفاظهم بها ، لأنه لو استقر المسلمون في العاصمة البيزنطية لوجدوا بين مسيحيي شرق أوروبا ، ولما تتهذب مسيحيتهم بعـــد ، مجالاً حراً للدعوة الإسلامية . إذ كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزراً ، ولا تدري من النظم والمعتقدات الدينيـــة إلا قليلاً . أما غرب أوروبا ، فإن المسلمين اصطدموا فيه بقوة مسيحية ، استنـدت أركانها إلى شيء كثير من تراث الأمبراطورية الرومانية وجبروتها القديم . ولو تمّ للمسلمين النصر في تور-بواتييه ، لظل بينهم وبين فتح فرنسا وتحويلهـا إلى الإسلام عقبات كثيرة وعلى عكس ذلك تماماً بدت الحال في شرق أوروبا ، حين كانت مراكز المقـــاومة الروحية والسياسية في حكم العدم ، بين الروسيين والمجريين ، أو بين البلغار وصقالبة شبه جزيرة البلقان ، بالقياس إلى ما كان بفرنسا من قوة الكنيسة وملكية الفرنجة .

والخلاصة أنه لولا دفع الأمبراطور ليو الايسوري للقائد الأموي مسلمة بن عبد الملك وجنوده وأساطيله عن القسطنطينية سنة ٧١٨م ، وعلى رأسهـا

أمبراطور شاب ، تسنده استحكامات هائلة وأسوار شاهقة ، وبحرية مسيطرة على البواغيز ، فضلاً عن النار الإغريقية التي لم يعرف المسلمون وقتئذ عنهاشيئاً، وفضلاً عن النجدة البلغارية التي وصلت إلى الأمبراطور وهو في أشد ساعات الحرج لتغيير الوضع السياسي ، فمضى المسلمون في فتوحهم داخل أوربا. على أن ما تعرض له المسلمون من هزيمة في معركة أقروينون بآسيا الصغرى سنة ٧٣٩ ، وما أحرزه البيزنطيون من انتصار بحري سنة ٧٤٧ ، عيّن الحد الفاصل بين المسلمين والبيزنطيين ، في منتصف المسافة بين عاصمتي البيزنطيين والمسلمين (القسطنطينية ودمشق) . على أن المسلمين احتفظوا في أيديهم بثلاثة أرباع البلاد التي انتزعوها من بيزنطة ، كما أن بيزنطة أضحت السياج لمساحة بلغت من الاتساع ما يكفي لحماية أوربا .

ولا بد أن نشير إلى معركة وقعت في أقصى الطرف الشرقي للفتوح الإسلامية سنة ٧٥١ ، إذ انتصر فيها المسلمون على الصينيين ، وقد دارت على نهر طلس في تركستان . إذ سحق المسلمون أكفأ قائد لأسرة تانج الصينية ، وساقوا أمامهم الآلاف من الأسرى ، وبذا حطموا زحف الصينيين في وسط آسيا . ولم يتقدم المسلمون إلى أبعد من ذلك ، لأنه ليس ثمة من الدواعي ما يدفعهم إلى التوغل في الشرق الأقصى ، مثلما حدث في الغرب الأقصى . والمعروف أن أبواب الهند أضحت مفتوحة أمام العرب بعد استيلائهم على السند سنة ٧١٢ .

وعلى الرغم من أن غالة أضحت بنجوة من كل غارات المسلمين البرية ، بعد حملات شارلمان على إسبانيا الإسلامية في القرن الثامن الميلادي ، فإن المسلمين لم يلبثوا أن مارسوا الغارات البحرية . ففي شمال أفريقية ، وإسبانيا ، تألفت جماعات من البحارة المسلمين ، توافرت لها الأساطيل البحرية ، وكانت شبه مستقلة ، تغلب عليها صفة النظام الجمهوري ، وما كان لديها من بحرية بلغت من

القوة والنشاط ما يزيد على نشاط الأساطيل البحرية الرسمية . وامتد نشاطهذه الفئات البحرية إلى صقلية بعد أن غزا المسلمون صقلية سنة ٨٢٧ ، وإلى جزائر البليار ، بعد فتحها حوالي سنة ٩٠٢ ، واستطاع هؤلاء البحارة أن يحوزوا غنائم وفيرة من المواضع التي هاجموها . على أن هجمات المسلمين العنيفة أخذت تضعف ، ومن الدليل على ذلك ما قام به المسيحيون من هجوم مضاد على بونه سنة ٨٢٨ ، أحرزوا فيه انتصاراً كبيراً ، ومع ذلك سيطر المسلمون علىجزيرتي قورسقة وسردينية ، ولجأ سكانها إلى الجبال ، يمارسون الرعي .

والواقع أن السنوات الأولى من القـرن التاسع الميـلادي ، شهدت النشاط البحري الإسلامي في المياه الإيطالية ، إذ هاجم المسلمون جزائر بانتيلاريا (قوصره) سنة ٨٠٦ ، ووقع بأيديهم ستون راهباً ، باعوهم رقيقاً في إسبانيا . ثم هاجموا إقليم روما ونابولي حوالي سنة ٨٠٨ ، وفي ٨١٣ أغاروا على نيس .

تعتبر سنة ٨٢٧بداية تحول في النشاط البحري الإسلامي، إذ شرع المسلمون في هذه السنة في غزو جزيرة كريت ، وجزيرة صقلية . وإذ أضحى المسلمون يسيطرون على مفاتيح البحر المتوسط، اكتملت لهم السيادة على البحرالمتوسط. ونظراً لأن ما يصيبونه من الغنائمعن طريق القتال بحراً لم يكنوفيراً، لتداعي بحرية اللاتين ، سعوا إلى الحصول على الغنائم من البر ، فهبطوا على الشواطىء المسيحية ، من قواعد كانوا يختزنون بها ما يحصلون عليه من غنائم ، قبلإرسالها إلى إسبانيا . وما يدعو إلى الغرابة أن هؤلاء البحارة برعوا في اجتياز الجبال ، والتوغل في دروب سلاسل جبال الألب .

وأول ما ظهرت هذه الجماعات الإسلامية في جنوب إيطاليا ، كان بين سنتي ٨٣٤ ، ٨٣٩ ، حين استخدمهم دوق نابولي لقتال دوق بنيفنتو.وحوالي سنـــة

٨٤٠ ، احتل المسلمون تارنت التي تعتبر قاعدة بالغة الأهمية . ثم استولوا على جزيرة بونزا Ponza ، ورأس ليكوسا جنوب سالرنو على الساحل الغربي لإيطاليا. وفي سنة ٨٤١ ، وقعت بأيديهم باري التي تتحكم في مدخل بحر الأدرياتيك . وفي سنة ٨٤٦ ، مضت جماعة من المغيرين المسلمين في زحفها حتى بلغت روما ، فهبطت في ميناء أوستيا واستولت على بورتو ، ونهبت كنيسة القديس بطرس ، والقديس بولص، الواقعة خارج أسوار روما [١] ، ثم عادت براً إلى جائيتا . والواقع أن نهب روما كان أمراً بالغ الخطورة ، ولم يقلل من أهميته وقتذاك إلا ما ساد في الغرب المسيحي من قلق واضطراب ومع ذلك فإن الملك الكارولنجي لويس الثاني ، وجه حملة فرنجية إلى جنوب إيطاليا ، أنزلت الهزيمة الساحقة بالحامية الإسلامية في بنيفنتو ، سنة ٨٤٧ .

وإذا كان الفرنجة من البعد ، ومن الانقسام ، ومن تسلط القادة عليهم ، ما جعلهم عاجزين عن الدفاع عن إيطاليا ، تولت بيزنطة هذه المسئولية بفضل ما اشتهرت به من تقاليد بحرية أصيلة . ولما منعت الأحوال بيزنطة من التدخل في أمور إيطاليا ، هوى جنوب إيطاليا بأيدي المسلمين ، الذين أقاموا إمارة في باري ، ولم يستطع الملك لويس الثاني أن يخرجهم منها ، سنتي ٨٥٢ ، ٨٦٦ ؛ فظلت بأيدي المسلمين نحو ثلاثين سنة ، ولم يخرجهم منها إلا الأمبراطور البيزنطي باسيل الأول سنة ٨٧١ ، كما أن اللومبارديين في أبوليا التمسوا مساعدة البيزنطيين، الذين استعادوا تارنت من المسلمين سنة ٨٨٠ ، فلم يعد بأيدي المسلمين بجنوب

---

(٢) ما أحرزه المسلمون من انتصارات ، أدى إلى الاهتمام بتوفير وسائل الدفاع عن روما . إذ أن البابا ليو الرابع قام بعد سنة ٨٤٦ بترميم سور أوريليان ، وشيد استحكامات على مصب نهر التيبر ، وأقام سوراً حول الحي الواقع على الشاطئ الأيمن للنهر ، وهو ما يعرف بمدينة ليو ، وذلك سنة ٨٥٢ .

إيطاليا حتى سنة ٨٨٦ سوى مواضع قليلة .

على أن البحارة المسلمين تركزوا وقتذاك في كمبانيا . وحاول البابا يوحنا الثامن أن يطردهم من هذه الجهات ، واستعان في ذلك بأسطول يوناني (بيزنطي) ، لم يحقق من النتائج سوى أن الأسطول الإسلامي، تحول من خليج نابولي إلى خليج سالرنو ، فتعرضت كمبانيا لغارات المسلمين كل سنة ، وأضحت الحياة في الأديرة تكاد تكون مستحيلة ، خارج الأسوار . على أن ماقام به نقفور فوقاس القائد البيزنطي سنة ٨٨٥ من وقف تقدم المسلمين شرقي خط وهمي ممتد من جارجانو إلى سالرنو ، أدى إلى خروجهم من قاعدة أجروبولي سنة ٨٩٠ ، وتحول نشاط المسلمين إلى الشمال، فاتخذوا لهم قواعد في فراينيه Fraxinetum في بروفانس وليري وعلى امتداد الساحل بين نابولي وجنوه ، فضلاً عن بحر الأدرياتيك حيث تعاون المسلمون والصقالبة ، في نشاطهم البحري . وحاول البابا يوحنا العاشر أن يؤلف حلفاً من دوق سبوليتو ، وأمير كابوا ، ومن البيزنطيين لمواجهة المسلمين ، ومع ذلك فإن المسلمين واصلوا هجماتهم على السواحل ، فوقع في أيديهم قائد تغر كالابريا سنة ٩٢٥ ، وبلغت الأحوال من السوء في كالابريا ، مما حمل نيل أسقف روسانو سنة ٩٨٠ على أن يتخلى عن مقره، وتعرض الأمبراطور أوتو الثاني لهزيمة ساحقة في خليج سكويلاك . ولم يستقر الأمن في بحر التيراني إلا في القرن الحادي عشر حينما قام البيازنة بهجمات مضادة، وعندما غزا النرمان صقلية .

على أن المسلمين أفادوا من قاعدتهم في فراينيه ، بأن اجتازوا مسالك جبال الألب ، حتى وصلوا إلى ممر سان بونارد وإلى بحيرة كونستانس ، ومنها هبطوا إلى دوفنيه ، وبيمونت . واستمرت غاراتهم نحو مائة سنة، وترتب عليها أن انقطعت في زمن الكارولنجيين الصلات بين غالة وإيطاليا . يضاف إلى ذلك ما

ترتب على هذه الغارات من خراب ونهب للبلاد التي اجتازوها .

٣ – نتائج الفتوح الاسلامية :

استطاع النبي محمد ، عليه الصلاة والسلام ، أن يخلق أمة لم تكن قبله شيئاً مذكوراً ، حين كانت بلاد العرب تعبيراً جغرافياً لا أهمية له ، كما استطاع أن يدعو لدين أصبح أساساً لدولة سياسية قوية ، امتدت حدودها إلى أطراف آسيا وأوربا وأفريقيه ، في مدة لا تعدو مائة سنة . والواقع أن الدين الإسلامي غدا منذ بدايته قوة سياسية كبيرة حين أذهب عن بلاد العرب وأهلها ، لأول مرة في تاريخهم المعروف ، صفات الوحشية والهمجية والانقسام ، وأحل محل ذلك كله وحدة العقيدة والخضوع لحكومة واحدة ، فضلاً عن الإلفة التي ولدتها بينهم شعائر الدين الجديد ، وفضلاً عن الاعتدال المترتب على تحريم الخمر ، مما جعل للجيوش الإسلامية ميزة على سائر الجيوش في طول التاريخ وعرضه . يضاف إلى ذلك أن ما قالت به المسيحية المونوفيزتية التي ألفها أهل مصر والشام ، منذ انقسام العالم المسيحي إلى قسمين حول طبيعة المسيح ، وحدت بين سواد السكان في كراهيتهم لليونانيين ، وتأييد القوى المعادية لهم ، من الفرس والمسلمين . والمعروف أن اليونانيين نزعوا إلى الاعتقاد في التثليث ، على حين أن سكان مصر والشام دانوا بالوحدانية ، واعتقدوا أن للمسيح طبيعة واحدة . فما كان له من طبيعة بشرية اندمجت نهائياً في الطبيعة الإلهية ، وكانت المونوفيزتية في مصر تمثلها الكنيسة القبطية ، أي كنيسة المصريين ، بينما كانت الكنيسة الرسمية (الأرثوذكسية) التي تنعم بموارد ضخمة ، تعرف عادة باسم الكنيسة الملكانية ، أي كنيسة الطبقة الحاكمة من اليونانيين . ولم تجد نفعاً محاولات هرقل فيما وضعه من صيغ دينية للوفاق بين الوطنيين واليونانيين . وفي هذه الأحوال لم يكن متوقعاً من المصريين أو السوريين المونوفيزتيين، أن يظهروا الولاء للأمبراطورية البيزنطية ، أو يعلنوا الكراهية للمسلمين فما كان بين العرب

والمصريين والسوريين من صلات عنصرية ، ومن اتفاق في مخالفتهم بيزنطة من الناحية الدينية ، فضلاً عن تسامح المسلمين مع اليهود والمسيحيين ، بأن أمنوهم على حياتهم وأملاكهم ، وكفلوا لهم حرية العبادة ، سواء كانوا أرثوذكس أو هراطقة من الملكانيين والأقباط ، كل ذلك أسهم فيما اتسمت به الفتوح الإسلامية من السرعة والقبول . ومن الدليل على ذلك ما رواه مؤرخ سوري مونوفيزتي ، أبو الفرج ، عما حدث عقب الفتح الإسلامي ، حين قال : « لما تقدم قومنا بالشكوى إلى هرقل ، لم يرد عليهم . ولذلك خلصنا الله المنتقم من أيدي الرومان ، بأن سلط عليهم العرب. ومع أن كنائسنا لم تعد إلينا (المونوفيزتيين)، نظراً لأن كل جماعة مسيحية احتفظت بأملاكها الفعلية في ظل الحكم العربي، فإن ما حدث من إنقاذنا من قسوة الرومان وظلمهم ، لم يكن ربحاً قليلاً »[1]. والواضح أن البيزنطيين حرصوا على تدمير كل فئة دينية تخالفهم في المذهب، ولذا لم يشعر أهل الشام ومصر أنهم ينتمون للأمبراطورية، ولم يعتقدوا أنهم فقدوا شيئاً، إذا لم يعودوا جزء منها . فلم تكن الأمبراطورية في الشام ومصر، سوى طيف، مثلما كانت أمبراطورية جستنيان في الغرب . إذ فقدت الأمبراطورية في الشرق كل ما حازته حتى وقتذاك من روح تعاونية بهذه الأجزاء . فلم يكن ثمة شعب روماني يقهره المسلمون ، وكل ما قاموا به أنهم أنزلوا الهزيمة الساحقة بالجيوش الأمبراطورية ، وإذ خضع شمال أفريقية للمسلمين ، بعد أن توقفت الفتوح فترة من الزمن ، أقبل البربر على اعتناق الإسلام ، وأضحوا يؤلفون شطراً كبيراً من الجيش الإسلامي ، الذي غزا إسبانيا بقيادة طارق بن زياد ، سنة ٧١١ م .

---

(١) يطابق هذا ما أشار إليه المؤرخ البلاذري (في القرن التاسع الميلادي) من أن المسيحيين بالشام وصفوا حكم العرب وعدالتهم بأنها لأكثر قبولا عندهم مما تعرضوا له من استبداد وإهانات من قبل الروم .

انظر (Vasilièv : The Byzantime Empire No. 209.)

رظلت إسبانيا بأيدي المسلمين قروناً عديدة ، فلم تسقط غرناطة في أيدي المسيحيين ، إلا سنة ١٤٩٢ ، ولم ينتزعوا الإسلام من إسبانيا إلا بما أقاموه من محاكم التفتيش .

على الرغم من أن العرب كانوا في أول الأمر يشاركون بعض المتبربرين في في خصائصهم الثابتة ، التي لم تتأثر كثيراً بالزمن ، كالميل إلى حياة البداوة والانتقال والمغامرة ، وضيقهم وتذمرهم من كل حكومة تخالف ما هو مألوف عندهم من نظام القبيلة أو الأسرة ، فإنهم دلّوا منذ البداية على أنهم ادخروا من صفات الهضم والتنظيم ما لم يتوافر عند الشعوب البدائية من قبلهم ، فجمعوا بذلك بين ثمرة التجربة ، ومرونة المبادرة ، فكانوا أسرع من الجرمان في الإفادة مما تبقى من المؤثرات اليونانية الرومانية ،والتراث الفارسي ، واستطاعوا أن يطوروا ما صار لهم من حضارة ناضجة وأن ينشروها دون أن يغفلوا شيئاً من خصائصها الجوهرية .

ولم يكن الإسلام فحسب الأساس الذي يستند إليه الشعور الروحي والجهاد عند العرب ، بل أقام لهم أيضاً نظام الحكومة ، وأمدهم بالمقاييس اللغوية ، والتشريع . وكان للإسلام نتائج ثورية في كل البلاد التي فتحها العرب ، فما كان سائداً بهذه البلاد من الحكومة والإدارة ، والنظم القانونية ، واللغة والكتابة ، جرى التخلي عنها ؛ ولم تلبث هذه النظم أن طوعت نفسها على الأخذ بالتعاليم الإسلامية الواردة في القرآن والسنة . وكان ذلك انتصاراً للدين ،لا للتيوقراطية ، لأنه لم يكن للاسلام كهنوت أو رئيس كنيسة . فالخلفاء إنما خلفوا النبي ، عليه الصلاة والسلام ، في الإدارة الدنيوية .

ومع أن البلاد المفتوحة كانت تختلف فيما بينها في التقاليد والعادات ، فإنه

كان لا بد من أن تحكم على انها أمبراطورية واحدة ، ومجتمع ديني واحد . على أن التطور السياسي للحكومة الإسلامية كان له أثر كبير فيما أصاب هذا المجتمع من تغييرات ، ولذا يصح تقسيم تاريخ الدولة الإسلامية إلى ثلاثة مراحـــل :
المرحلة الاولى، تمتد من ٦٣٢ حتى ٦٦١ وهي الفترة التي تولى الحكم فيها الخلفاء الراشدون الذين حكموا الدولة ، من العاصمة المدينة [١] ، وفي هـذه المرحلة ، امتدت الفتوح الإسلامية على حساب الدولتين الفارسية والبيزنطية . على أن هذه الفتوح خلقت قوة جديدة في الإسلام ، وطرازاً جديداً للمتطلعين للحكم ، أمثال الوالي الناجح أو القائد الظافر ، وبذا استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يلي الخلافة سنة ٦٦١ ، وأن ينقل مقر حكمه إلى دمشق ، إذ ظل واليًا على بلاد الشام نحو عشرين سنة .

والمعروف أن معاوية نازع عليًّا في الخلافة ، وبانتقال السلطة إلى الأمويين، انقسمت وحدة المسلمين ، فبدت شيعة عليّ ذات قوة وبأس في بـــلاد العرب والعراق ، على حين أن الأمويين بسطوا سيادتهم على العالم الإسلامي ، برغم ما نشب من حروب أهلية مريرة ، خلفت بقلوب الشيعة أحزاناً دامية صبغت تاريـــخ الدولة الإسلامية . وما أحرزه معاوية من نجاح يعتبر انتصاراً للأرستقراطيــة العربية الذين لم يدخلوا الإسلام إلا بعد فتح مكة ، وأكثر ما اتصف به العصر الأموي (٦٦١ — ٧٥٠) من خصائص ، ما كان من حرص الخلفاء على جعل الحكم وراثيًا ، وإغفال الشورى ، وإيثار المصالح السياسية ، وارتفاع شأن العرب واللغة العربية . إذ كان للعرب مكانتهم سواء كانوا مسلمين أو غـــير مسلمين ، ومن الدليل على ذلك ما لقيه الأخطـــل الشاعر العربي المسيحي من تقدير عند الخلفاء الأمويين ، وأن تولى بيت المال ، القديس يوحنا الدمشقي ،

---

(١) اتخذ علي بن أبي طالب الكوفة مقراً لحكمه ، حتى يتيسر له إخماد الفتن التي أثارها الساخطون على خلافته .

عالم الدين المسيحي ، الذي له كتابات في الدفاع عن عبادة الصور المقدسة ، وأن المسلمين والمسيحيين ظلوا منذ فتح الشام يقتسمون الكنيسة بدمشق ، فاستخدم المسيحيون طرفاً منها كنيسة ، وجعل المسلمون الطرف الآخر مسجداً .

لم يقم الأمويون بتدمير الحضارة التي صادفوها عند غزو البلاد المجاورة ، فعلى الرغم من اعتقادهم بتفوق العرب ، فإن ذلك لم يتعارض مع الإفادة من حضارة الشعوب التي قهروها . فما كان معروفاً في الشرق الهلنستي من براعة وحذق فني ، يتجلى في المسجد الجامع بدمشق ، في قبته الضخمة ، وفي الفسيفساء التي تمثل أنهار دمشق ، وتشير الروايات التاريخية إلى أن الخليفة الوليد ابن عبد الملك ٧٠٥ – ٧١٥) جلب العمال والصناع من فارس والهند وبلاد الروم لعمارة هذا الجامع ، الذي بلغت تكاليفه خراج الأراضي الشامية لمدة سبع سنوات . وما غلب على البلاط الأموي من الصفة العربية ، لم يمنع من أن تجتمع فيه الثقافات الأجنبية ، إذ جرت فيه المناقشات عن الفلسفة اليونانية ، ومثال ذلك القديس يوحنا الدمشقي الذي جادل المسلمين فيما ورد في القرآن الكريم عن المسيح، من « الكلمة » و « الروح » . وظل العلم اليوناني يلقى الاهتمام والدراسة حتى وقتذاك . ومع ذلك فإن الذميين الذين اعتنقوا الإسلام ، واشتهروا باسم الموالي ، وتولوا الوظائف في إدارة الدولة الإسلامية والجيش الإسلامي ، أحسوا بأنهم أدنى مكانة من العرب المسلمين .

أما المرحلة الثالثة للدولة الإسلامية ، والتي تشمل فترة الخلافة العباسية ، فتمتد من سنة ٧٥٠ حتى ١٢٥٨ م . وفي هذه المرحلة جرت المحاولة لجعل سياسة الدولة أكثر ما تقوم على المصالح الدينية الإسلامية ، لا على مصالح العرب . فانتقل مقر الحكم من دمشق إلى بغداد ، وإذ أضحت الدولة العباسية بعيدة عن تقاليد الأمويين وأثرهم ، كان لا بد من العودة إلى تقليد محمد رسول الله ، عليه

الصلاة والسلام . والواقع أن العودة إلى هذه التقاليد اقترنت برسوم الأمبراطورية الفارسية القديمة ، فتحولت الخلافة إلى ملكية شرقية ، وأضحى للموالي ، من جميع الفئات ، السلطة الفعلية . فعاش الخلفاء في قصور بالغة الروعة والجمال ، واتخذوا مراسيم خاصة في علاقاتهم الداخلية والخارجية ، وشغفوا بالعلم والثقافة ؛ فالخليفة المأمون ، مثلاً ، أمر بترجمة أمهات الكتب في العلم اليوناني إلى اللغة العربية . ونجم عن ذلك أن ما عرفه الغرب المسيحي ، في القرن الحادي عشر ، من دراسة أرسطو ، كان أساساً مستمداً من الترجمات العربية التي وصلت إلى إسبانيا ، وإذ لم تعد الدولة تقوم على تفوق العرب ، بل على الدين الإسلامي ، وأضحت الوحدة الدينية الدعامة التي تستند إليها الأمبراطورية الإسلامية .

ومن اليسير تقدير مدى ما أجراه المسلمون من تغييرات في البلاد المفتوحة . وإذ لم يكن لعرب مكة والمدينة من فنون المدنية سوى النذر القليل ، ونظراً لما اتصفوا به من تقبل وهضم الحضارات الأخرى ، اتخذوا ما صادفوه عند الشعوب الخاضعة لهم من الفنون والعمارة والنظم الإدارية والمالية ، والتي اختلفت من إقليم إلى إقليم . ففي الحكومة مثلاً ، خضعت الأقاليم التي كانت أصلاً فارسية لنظام ، يخالف ما كان سائداً في الأقاليم الرومانية ، إذ أفاد المسلمون من كل حكومة صادفوها ، لما لها من أهمية في تسيير أمور البلاد وجباية الضرائب . ففي مصر ، لم يكتف بعض كبار الموظفين الرومان بالاحتفاظ بوظائفهم في ظل الحكم الإسلامي ، بل اعتنقوا الإسلام ، وظل المصريون بعد ستين سنة من الفتح الإسلامي ، يشيرون إلى والي الإسكندرية على أنه أوجسطال وهو نفس اللقب الذي كان يحمله الوالي الروماني ، Augutalis ، وإلى مقره على أنه praetorium .

وعلى الرغم من أن الأقاليم المختلفة احتفظت بقدر كبير من شخصيتها

وذاتيتها ، فإنها اعتنقت جميعاً الإسلام ، واتخذت اللغة العربية وهـذه الحقيقة بالغة الأهمية ، فقد ساد الاعتقاد أنه متى اتصل العرب بحضارة راقية ، فسوف يتخلون عن حضارتهم . ومع ذلك فإن العرب احتفظوا بديانتهم ولغتهم سليمة ، برغم ما وجدوه من متعة في الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية . وفي هـذه الناحية كان الاختلاف بين العرب والجرمان شاسعاً . فالجرمان اعتنقوا ديانـة ولغة الأمبراطورية التي قهروها ، باستثناء الأقاليم النائية مثل بريطانيا . أمـا العرب فلم يكتفوا بالاحتفاظ بلغتهم ودينهم ، بل أخذت بها الشعوب التي خضعت لهم .

وهذا الاختلاف يرجع ، فيما يبدو ، إلى الطريقة التي سلكها المسلمون في النزول بالبلاد التي فتحوها ، إذ لم يختلطوا أول الأمر بالسكان الأصليين ، بل اكتفوا بالتسامح معهم في الدين وأسلوب حياتهم . ولم ينزل الفاتحون في أي بلد من البلاد القائمة ، باستثناء دمشق . فأول ما كان يفعله المسلمون عند فتح إقليم جديد ، هو أن يقيموا لأنفسهم حاضرة كالفسطاط بمصر ، والقيروان بشمال أفريقية ولم تكن المدينة الجديدة سوى معسكر أو مقر حامية ، وتعتـبر مدينة إسلامية خالصة ، يتردد إليها السكان الوطنيون ليبيعوا بها ما ينتجونه أو يصنعونه ، وقد استقر هؤلاء الوطنيون في مواضعهم بالاسكندريـة أو حصن بابليون .

وهذا يخالف ما قام في غرب أوربا من مجتمعات جرمانية ، إذ لم يقـم الجرمان في جماعات كبيرة ، أو في مدن شيدوها بأنفسهم ، بل نزلوا في جماعات صغيرة تبعثرت في الريف ، فلم يلبثوا أن اندمجوا فيمن نزل حولهم من السكان الذين غلبت عليهم الصفة الرومانية . ومع أن الجرمان انتشروا في كل الجهات ، فإنهم كانوا دائماً أقلية .

وتشير الرواية إلى أن الخليفة عمر هو الذي وضع هذه السياسة ، فلم يشأ أن يصير العرب ملاكاً للأراضي الزراعية في البلاد المفتوحة ، نظراً لأن الحاجة كانت ماسة لهم لمواصلة الفتوح . فلما اكتملت الفتوح ، وامتدت أطراف الدولة الإسلامية ، وجاز للمسلمين حيازة الأراضي ، زمن الأمويين ، مقابل تأدية الخراج ، نزحوا إلى الريف ، وامتزجوا بالسكان الوطنيين ، ولا سيما بعد أن أقبل الناس على الدخول في الإسلام ، حتى يتساووا مع العرب المسلمين في الحقوق والواجبات ، فتحقق لهم إشباع رغباتهم في المتاجرة بالعواصم الجديدة ، والارتقاء إلى أعلا المناصب في الدولة ، ففي مصر والشام لم يبق على ولائه للكنيسة سوى أقلية من المسيحيين . وفي شمال أفريقية ، موطن القديس أوجسطين ، كادت تختفي الكنيسة المسيحية ، بل زال آخر أثر لها في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي . وازداد الامتزاج والاختلاط بعد أن سقط العرب من ديوان الجيش زمن العباسيين ، فلجأوا إلى القرى وأصهروا إلى السكان الوطنيين ، وبذا انتشر الإسلام ، وسادت اللغة العربية .

٤ – العرب وأوربا :

إذا كان الجرمان هيأوا الفرصة لميلاد أوربا ، في العصور الوسطى ، فإن العرب جعلوا ذلك أمراً لا مفر منه . فلولا ظهور النبي محمد ، عليه الصلاة والسلام ، لواصلت بيزنطة ، فيما يبدو تحقيق الخطط التي وضعها جستنيان لاستعادة الغرب ، بعد أن تخلصت من الخطر الفارسي على يد الأمبراطور هرقل ، ولصح أن يقوم على أنقاض الأمبراطورية الرومانية مجتمع متحد من الناحيتين الروحية والاقتصادية ، يرتكز إلى البحر المتوسط ويمتد صوب الشمال . على أن ذلك غدا مستحيلاً ، حينما اضطرت بيزنطة إلى توطيد مركزها ، عسكرياً وتجارياً ، فيما تبقى لها من أملاك الأمبراطورية الرومانية ، وحينما أضحت شواطىء البحر

المتوسط الاسيوية والافريقية تشترك معاً في ديانة ولغة وقانون ونظم ووسائل حياة واحدة ، وتؤلف جميعها جانباً من الوطن العربي ، والمجتمع الإسلامي

وإذا أصبح غرب أوربا معزولاً ، لم يجد التوجيه اللازم . وما كان من مكانة للمقر الرسولي (البابوية)،وما تبقى من أثر للسلطة الأمبراطورية الرومانية ،فضلاً عن الموارد المادية التي استمدها المسيحيون الكاثوليك من مناطق تقع على ساحل البحر المتوسط ، امثال لا نجدوك ، وبروفانس ، وإيطاليا حتى نابولي وباري ، كل ذلك كان يجذب غرب أوربا إلى الجنوب ، إلى سواحل البحر المتوسط . غير أنه كان لبحر الشمال وبحر البلطيق ، اللذين أحاط بهما بلاد الجرمان والصقالبة من الأهمية ، ما تضارع أهمية البحر الأبيض المتوسط ، الذي تحطمت وحدته ، وتضاءلت أهميته وبين بحر الشمال وبحر البلطيق من جهة،وبين البحر المتوسط من جهة أخرى ، وفي داخل القارة ، نصادف خيرة العساكر، وأخصب الأراضي . ففي هذه المنطقة،استطاعت أوربا العصور الوسطى بعد البحث والسعي،أن تعثر على المراكز الجديدة للجاذبية ،ومن هذه المراكز، اكس لاشابل زمن شارلمان ، وجو زلار زمن الأباطرة السالين ، فضلاً عن باريس .

ومع ذلك ينبغي أن نحرص على ألا نحمل للفتوح الأسلامية أثراً في انقطاع الصلات بالعصر الغابر ، الذي سبق أن رفضنا الأخذ به في الفتوح الجرمانية . إذ أن الصلات والعلاقات السابقة لم تنقطع نهائياً ، بل أخذت تتراخى رويداً رويداً عبر القرون . يضاف إلى ذلك أن أوربا لم تكن منذ البداية عالمـــاً مستقلاً كالعالم اليوناني الروماني ، وعلى الرغم من أن التجارة الخارجية (الدولية) انحطت إلى الدرك الأسفل ، بما حدث من الانهيار الاقتصادي في الغرب ، فلا زالت هــذه التجارة تربط شواطيء البحر المتوسط،وتصل بينه وبين بحري الشمال والبلطيق . أما روما العاصمة الروحية فانها بفضل المسيحية الغربية كفلت سيادة التراث اللاتيني ، بينما أخذت بيزنطة في الانسحاب رويداً رويداً إلى الشرق .

وإذ انفصلت اسبانيا الأسلامية عن الدولة العباسية ، حوالي منتصف القرن الثامن الميلادي ، أدى التسامح الديني إلى ازدياد التعاون بين العناصر المختلفة ، كالعرب والبربر ، والرومان ، واليهود ، والجرمان . وصار بوسع كل فئة من هذه الفئات أن تحافظ على تقاليدها وديانتها ، وعلى العلاقات التي تربطها باخوانها في الدين خارج اسبانيا . على أنه دخل في الإسلام أعداد كبيرة من السكان ، واضحت اللغة العربية هي اللغة الأساسية ، إن لم تكن الوحيدة . ومما يدعو للالتفات ما كان من سرعة انتشار وتغلغل الأسلام واللغة العربية في اسبانيا ، بل ان عدداً كبيراً من المسيحيين بالمدن الاسبانية أخذ بالحضارة العربية ، دون أن يعتنق الاسلام ، وكان هؤلاء من الكثرة ما يكفي لأن تتألف منهم طبقة اجتماعية ، اشتهرت باسم المستعربين Mazaraba .

وجاء في موعظة لأسقف قرطبة الفارو Alvaro في القرن التاسع الميلادي :

إن عدداً كبيراً من اخواني في الدين ينشدون أشعار العرب ، ويروون نوادرهم ، ويدرسون مؤلفات الفلاسفة والفقهاء المسلمين ، لا لدحضها وانكارها، بل ليتعلموا كيف يعبرون عن أنفسهم في لغة عربية بالغة السلامة والرقة .منذا الذي يدرس منهم الأناجيل ، والأنبياء ، والرسل ؟ لا أحد ، فكل فتيان المسيحيين الموهوبين لم يدرسوا الا لغة العرب وآدابهم ،فيثابرون على قراءةالكتب العربية .فاذا جرى الحديث عن الكتب المسيحية ،أجابوا في زراية واستخفاف، بأن هذه الكتب أيا كانت ، ليست جديرة بالاهتمام ، فياللهول ! لقد نسى المسيحيون لغتهم ، وقلما نجد واحداً من بين كل ألف منهم ، يستطيع أن يكتب باللاتينية رسالة إلى صديقه تنطوي على تحية رقيقة . على حين أن من المسيحيين أعداداً لا حصر لها ، يستخدمون اللغة العربية في التعبير عن أرق مشاعرهم،

ويقرضون من الشعر العربي مـــا يزيد جمـــالاً ورقة على أشعار العرب أنفسهم » .

أخذت بلاد الأندلس تسطع كالنجم ، في مجموعة الدول الاسلامية، على الرغم من أنها حرصت على تنمية وتطوير خصائصها المحلية ، وإذ بلغت ذروة حضارتها في القرن العاشر الميلادي ، أضحت تضارع بيزنطة ، التي كانت تشع على أوربا في الطرف الآخر من البحر المتوسط ، في قوتها السياسية وثروتها الاقتصادية ورقيها الفكري .

ولم تلبث أوربا الكاثوليكية أن سعت للافادة من العلاقات مع جيرانهـــا المسلمين ، برغم أنها لم تفعل ذلك أوائل العصور الوسطى ، فما كان للمسلمين من حضارة كان غريباً عليها ، ولم يتوافر لها من القوة مـا يكفي لتقليد الحضارة الاسلامية ومحاكاتها. بل أن الامارات المسيحية الصغيرة التي قامت جنوب جبال البرانس من نواة دولة القوط الغربيين في جبال اشتورياس، والتي كانت تتعرض لسخرية المسلمين؛ تطلعت في حضارتها إلى فرنسا الكارولنمية والكابيتية لا إلى خلافة قرطبة .

وما نشب من الحروب بين المسلمين والمسيحيين ، في شبه جزيرة ايبيريا، وعلى الأطراف الاسلامية البيزنطية ، لم يمنع الاتصال الحضاري بينهم ،بل إنه كان للمسلمين حلفاء في جهات عديدة بأوربا الكاثوليكية ، غير أنهم لم يؤلفوا جبهة واحدة حينما أوشكت الخلافة الأموية على الزوال (٧٥٠م) . ولم تمض خمسون سنة على سقوط الأمويين ، حتى تحالف شارلمان وهرون الرشيد لمناوءة بيزنطة وقرطبة . وبعد مائة سنة أخرى ، فشل البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢) ، في منع دوق نابولي وأسقفها من التحالف مع المسلمين. والملحوظ أن ورق البردى الذي يكتب عليه البابا رسائله كان مصنوعاً بمصر ، ويحوى في أعلاه كتابات عربية دينية .

وفي مجال الدين، لم يكن النضال بين المسلمين والمسيحيين من الشدة ما يضارع ما نشب في داخل كل ديانة من صراع وشقاق . فالفقهاء وعلماء الدين عند كل من الفريقين كانوا من الثقة والإيمان بديانتهم مـا جعلهم لا يخشون دعوة الديانـة الأخرى وتبشيرها ، وقد نصحوا رعاياهم بألا يدخلوا في جدال ديني مع أي عالم ينتمي للديانة الأخرى ، يضاف إلى ذلك ما انعقد من اتفاقيات لرعاية الكنائس بالبلاد الاسلاميـة ، والمساجد بالأقطار المسيحية ، التي يؤمها الأقليـات والتجار الأجانب .

ومهما حدث من الارتياب في من يبرع في الطب والرياضيات والتنجيم، فان الحرص على الإفادة من خدماته كان يحول عادة دون التخلص منه واعدامه . فما اشتهر به جربرت اورياك من البراعة في الفلك والتنجيم والرياضيات الاسلامية، لم يحل دون ارتقائه الكرسي البابوي ، في نهاية القرن العاشر الميلادي ، بصرف النظر عما شاع فيما بعد من أنه منجم ملحد .

والواقع أن ما كان من الاختلاف بين الديانتين الاسلامية والمسيحية لم يؤثر في انتقال الأفكار بين المسلمين والمسيحيين، على حين أن الاختلاف بين اللغتين العربية واللاتينية، وبين الشريعة الإسلامية والقانون الكنسي، والصور المقدسة (الأيقونات) والرسوم العربية ، لم ينطو على عوامل مشتركة قد تفيد في المناقشة بين الجانبين. ولم يحدث الا في القرن الحادي عشر الميلادي ، أن توافر من المترجمين النابهين من استطاعوا أن يقرأوا النصوص العربية ، وأن يردوها إلى الأصول اليونانية التي ضاعت أو جرى إغفالها . لم يحفل المسلمون من جانبهم بترجمة كتب الغرب المسيحي في العصور الوسطى، نظراً لتخلف الغرب عن المسلمين في مجال الحضارة أول الأمر ، غير أن اهمية ذلك لم تلبث أن اتضحت فيما بعد .

أما المبادلات التجارية فلم يكن المانع لها الاختلاف في الدين بقدر ما كان

اتساع الفتوح العربية . فالمعروف أن الاسلام اشتهر منذ البداية برعاية التجارة وتشجيعها . فالتجار الأجانب بصفة خاصة لقوا في الخلافة الاسلامية من الرعاية ما لم يلقوه في بيزنطة . على أن قيام وحدة سياسية ، ووضع نظام واحد لما يؤخذ من التجار من ضرائب في الديوان (الجمرك) ، في العالم الاسلامي الممتد من خليج بسكاي إلى دلتا نهر السند ، أدى إلى ظهور تيارات اقتصادية داخلية أثرت في العلاقات بين المسلمين والمسيحيين على شواطىء البحر المتوسط .

وما اتسمت به الدولة الاسلامية من الامتداد الشاسع ، جعل بوسعها أن تصدر إلى أوربا المسيحية من السلع الكثيرة المتنوعة ، ما لم تستطع أن تؤديه أفريقية الرومانية أو آسيا الرومانية ،كاجعلها تستورد من السلع اكثر مما تستورد من افريقية وآسيا . والراجح ان مشتريات التجار المسلمين من أوربا الكاثوليكية امد اوربا بالعملات الذهبية والفضية ، التي تحتاج إليها لدفع اثمان السلع التي تشتريها من بيزنطة ، وترك لها من الفائض ما قد تفيد منه فيما بعد في تطور تجارتها .

غير أنه ينبغي ألا نتصور أنه كان بأوائل العصور الوسطى تجارة ضخمة . فما احتاج إليه العالم الاسلامي من متاجر من أوربا ، تدخل في نطاق المواد الاستراتيجية كالأسلحة ، والسفن ، والرقيق . وعلى الرغم من أن تجارة الرقيق قد تحرمها كل الحكومات، وينكرها ممثلو الديانات، فانها كانت أهم فروع التجارة الداخلية في أوائل العصور الوسطى وإذ لم يتوافر من اسرى الحروب ما يكفي احتياجات هذه التجارة ، جرى الالتجاء إلى سرقة الأطفال أو شرائهم من ابائهم ، بسبب فقرهم أو نهمهم . وشاعت تجارة الرقيق في كل مكان ، في انجلترا واللورين ، وتسكانيا ، وبلغاريا ، ومصر والشام .

وما حدث من التماس الرجال الرقيق على انهم من أهم السلع التجارية ، يعتبر دليلاً على أن الأزمة السكانية التي اشتدت ، حينما أخذت الأمبراطورية الرومانية في

التداعي والانهيار ، لم تجد حلاً عند ازدهار الأمبراطورية الإسلامية . ولعل ما نشب في القرن الثامن من حروب بين المسلمين والمسيحيين لم يعتبر أهم حادث عالمي ، إذ كان أخطر منها ، ما حدث سنة ٧٤٢ ، ٧٤٣ من اندلاع الطاعون الذي انتشر في جوف الصين ، وامتد إلى وسط أوربا ، ودمر بلاد المسلمين والمسيحيين سواء . ومهما جرى من دورات الانتعاش الاقتصادي والانهيار ، فلا زالت النزعات الأساسية واحدة ، تتمثل في نقص عدد السكان والافتقار إلى الحوافز ، وانكماش الانتاج وصعوبة التوزيع ، وتداعي مستوى الاستهلاك . على أن هذه الأحوال السيئة لم تحل دون قيام الأمبراطوريات ، وبلوغها القمة والذروة ، ولم تجدد مجال نشاطها واستمرارها . فاسرة تانج بالصين ، والأمبراطورية البيزنطية زمن جستنيان وهرقل ، وخلافة الأمويين بالاندلس ، وامبراطورية شارلمان ، إنما نهضت من الناحيتين العسكرية والحضارية ، غير أنها لم تستمر طويلاً ، لضعف مواردها المادية ، وطبيعتها الحيوية .

الفصل الثامن

الفرنجة قبل ظهور شارلمان

الميروفنجيون

غلب على أخلاف الملك كلوفيس في دولة الفرنجة ،صفات جعلتهم في تقدير المؤرخين أحد صنفين اثنين ، اما متبربرين على جانب من القسوة والغدر ، وإما اشخاصاً مستضعفين ، أهلكتهم حياة الفسق والفجور . غير أنه برغم ما انغمس فيه أولئك الملوك الميروفنجيون من الفظائع والمباذل ، وبرغم ما أغرقوا فيه من عداوات فيما بينهم ، وما نشب بينهم من حروب داخلية لا جدوى منها ، ظل البيت الميروفنجي باقيا على العرش نحوا مائتي وخمسين سنة (٤٨١ — ٧١٦) . ويرجع السبب في ذلك إلى ما كان لأبناء كلوفيس وسلالته جميعاً من المهابة والكرامة ، حتى أنهم ظلوا ثماني وسبعين سنة يقامون على العرش، وتوضع على رؤوسهم التيجان،وتقدم إليهم فروض الطاعة، بعد أن أمسوا أطيافاًملكية واهية ، وأضحت السلطة الحقيقية في أيدي رؤساء البلاط . ومصداق ذلك ما كتب المؤلف أينهارث في وصف المرحلة الأخيرة من حكم الميروفنجيين ، إذ قال « إنه لم يكن للملك شيء في المملكة سوى اسمه ، وذوائب شعره المرخاة ، ولحيته الطويلة ، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه ، أخذ يلهو بادارة شئون الدولة لهو الصبية ، فيستقبل الرسل الوافدين عليه من مختلف الممالك ، ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوّه بها صاغراً مأموراً .ولم يكن للملك ما يصح أن

يدعيه لنفسه سوى ضيعة صغيرة ، فيها مسكنه الضئيل الحجم ، وحاشيته القليلة العدد ، فاذا اقتضى الأمر سفرا ، ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف ، تجرها الأبقار ، ويسوقها فلاح من الفلاحين . وإذا جاء إلى القصر أو ذهب إلى الاجتماع السنوي العام ، سار موكبه على هذه الهيئة ، على حين أصبح رئيس البلاط مسيطراً في شئون الإدارة والحكم، مهيمنا على جميع المسائل السياسية ، الداخلية منها والخارجية » .

ولم يمنع الفرنجة من التخلص من أسرة ملكية ضعيفة ، سوى الدين ، لأن الميروفنجيين لم يكونوا ملوكا فحسب ، بل كانوا كهنة كذلك . ومهما ارتكبوا من منكرات ، فإنهم مقدسون ، لا يجرؤ أحد على أن يتطاول عليهم ، وهم منحدرون من ميروفيوس الذي يرجع أصله إلى إله البحر العظيم حسبما ورد في أغاني الفرنجة القديمة . ولذا حرص الذكور من أفراد البيت الميروفنجي،على أن يجعلوا شعورهم تنسدل على اكتافهم،للدلالة على انحدارهم منهذا الاله،وكان يجري انتخاب الملك من بين أفراد الأسره الملكية . ومن اهم مظاهر الاحتفالات التي تقترن بارتقاء الملك الجديد العرش ، ما كان يحدث من رفعه على تروس اتباعه ، للدلالة على انتخابهم له .

والواقع أن هالة من القدسية حاطت بهذه الأسرة الفرنجية زمناً طويلا قبل ظهور المسيحية . وارتفع شأن هؤلاء القوم بعدأن تنصر ملكهم كلوفيس[1]، على المذهب الكاثوليكي فنعموا بذلك بعطف الكنيسة الكاثوليكية ، وتجنبوا العقبات التي تعثر فيها القوط الشرقيون واللومبارديون الاريوسيون بايطاليا ، والقوط الغربيون ، وهم كذلك اريوسيون ، أثناء مقامهم في الجنوب الغربي من فرنسا وأثناء حكمهم اسبانيا ، قبل تحولهم إلى الكاثوليكية ،وقد حرمتهم الأريوسية من حرية الامتزاج بالرومان . وبفضل اعتناق المسيحية الكاثوليكية ، أضحى الفرنجة حلفاء للكنيسة وللرومان ، وتلقوا التأييد القوي في حروبهم مع الأريوسيين من البرجنديين والقوط الغربيين . يضاف إلى ذلك ما حدث من

(١) انظر الملحق ٣، ص ١٢٦ .

تقبل الفرنجة ما أنعم به الأباطرة البيزنطيون عليهم من ألقاب ووظائف فخرية، بل يبدو أن الفرنجة أحبوا محاكاة الرومان في التوسع والفتح . ومن الدليل على ما كان من صلة وثيقة بين الفرنجة والبيزنطيين ، أن الأمبراطور موريس دعا شلدبرت ملك الفرنجة لمساعدة الأمبراطورية البيزنطية في مناوءة اللومبارديين بإيطاليا .

يتضح من ذلك أن أرض غاليا ، وهي المسماة فرنسا في العصر الحاضر [١] ، ظلت جزء من العالم الروماني والحضارة اللاتينية ، برغم الاصول الجرمانية التي يرجع اليها الملوك الفاتحون من الفرنجة على أن الصفة الرومانية لم تكن متماثلة في كل مكان ، فاكثر ما اكتملت هذه الصفة كان بالجنوب ، الذى نعم بمناخ البحر المتوسط وحل به السكان الرومان والهلينستيون، وقد توافرت به المدن ، حيث كثرت ساحات المبارزة والمسارح . وحاز الرجال الذين ينتمون لطبقة السناتوريين الضياع الشاسعة، التي استخدموا الرقيق في فلاحتها، وزينوا دورهم بالفسيفساء بالغة التكاليف ، وتهادوا فيما بينهم الرسائل الأدبية ، شعراً ونثراً . وظل هذا الشطر وثيق الصلة بعالم البحر المتوسط ، وأقام بالمدن تجار سوريون ، وصار من المألوف أن يقدم إلى هذه الجهات ، زائرون من ايطاليا واسبانيا . ولم تختف الحضارة الرومانية في الجنوب ، فاحتفظ سكان المدن بالتراث الروماني .

أما في الشمال فلم يترك الرومان شيئاً من الآثار ، ولم يخلفوا وراءهم إلا الذكرى . لأن الشمال كان بلاد البلوط والرطوبة والضباب ، فلم يعش الرومان بتلك الجهات للمتعة والنعيم ، ولم تقم الأسرات السناتورية بتلك الجهات دوراً

(١) الواقع أن اطلاق اسم فرنسا على مملكة الفرنجة لا يطابق الحقيقة . إذ أن مملكة كلوفيس لم تكن بلادا، بل كانت شعبا ، كما أن البلاد التي كان ينزلها هذا الشعب الفرنجي ، لم تكن فرنسا ، بل كانت غاله التي امتدت وقتذاك من جبال البرانس إلى نهر الراين ، فدخل فيها بلجيكا وشطر من هولندا ، والمانيا الغربية .

وضياعا ، ولم تكن البلاد إلا مدنا صغيرة ، تعتبر مقراً للحاميات العسكرية ، تمتد إليها سقايات الماء ، وبها حمامات عامة ، وملعب لسباق العجلات ، وساحة يقذف إليها الأسرى ، لتفتك بهم الوحوش الضارية . ولم يكن لسكان المدن بالشمال ما لسكان مدن الجنوب من حضارة ومدنية . وإذ لم يعد العساكر من الرومان ولو اسميا ، فكل ما تبقى لم يَعْد أن تكون مباني خربة ، ومع ذلك كانت بالغة التأثير ، لأنها ليست إلا آثاراً للامبراطورية (الرومانية) التي شيدتها، وتحدّيا للقادمين الجدد (الفرنجة) . وكلما آذن العصر الروماني بالزوال ، اشتد تعلق الناس به ، وحرص الفرنجة بشمال غالة على احياء حضارته كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . فحاولوا محاكاة الرومان فيما أقاموه من تماثيل ، وما تركوه من آثار فنية ، ومع أنهم أساءوا التقليد والمحاكاة ، فلا شك أنهم أقاموا حضارة تعتبر جديدة . ولهذه النقطة أهميتها ، لأن الاختلاف بين شمال غالة وجنوبها، ترددت أهميته في مرحلتي تاريخ الفرنجة . فالميرفنجيون (٤٨١ — ٧٥١) استمدوا ثروتهم إلي حد كبير من الجنوب ، واستطاعوا أن يفيدوا من خدمات الارستقراطية الرومانية الغالية ، وكانت حضارتهم متداعية برغم خصوبتها ، أما الكارولنجيون (٧٥١ — ٨٩١) فازداد اتصالهم بالشمال ، وافتقروا إلى ما بالجنوب من الفنون والمدنية . كانوا غلاظا لم يصيبوا شيئاً من المدنية والحضارة ، غير أنهم على أقل تقدير حرصوا على أن يحاولوا أن يكونوا رومانا .

خصائص مملكة الميروفنجيين

سبق الاشارة إلى ما نشب من الحروب الداخلية بين أبناء كلوفيس ، وبين سلالته ، حتى تولى العرش داجوبرت (٦٢٩ —٦٣٩) الذي يعتبر حكيم الفرنجة . وساد المملكة بعد وفاته الانقسام والاضطراب الذي استمر نحو خمسين سنة ، فضعفت سلطة الملوك ، وزادت شوكة النبلاء . وأمعنت الكنيسة في الجهل وسوء الخلق بعد أن قوى نفوذها في البلاد ، وكثرت ثروتها ، فانغمست في السياسة الدنيوية . وأصاب الأساس الاقتصادي للمجتمع الأضطراب والفوضى نتيجة الافتقار

إلى الأمن والطمأنينة ، وبذا تهيأ الوضع للمرحلة الثانية من تاريخ الميروفنجيين ، وهو تاريخ الملوك الضعاف .

الواقع أن كل ما ورد عن النضال الداخلي الذي نشب بين أولاد كلوفيس وأحفاده يشوبه الخلط والاضطراب على أن ما يعتبر بالغ الأهمية، هو ما حدث فعلاً للبلاد التي حكمها الميروفنجيون ، فإلى أحد دمّر الفرنجة حضـــارة غالة الرومانية ؟وهل كانوا مسئولين عن نمو النظام الاقطاعي ؟ وإلى أي حد استبدلوا بالنظم الرومانية نظما جرمانية؟ هذه الأسئلة هيأت مجالا للمناقشة بين المؤرخين على اختلاف قومياتهم ، ولا سيما بين مؤرخي المانيا وفرنسا ، ومع ذلك لايزال السؤال موضع جدال ونقاش . ولذا ينبغي المبادرة إلى وصف ما حدث في غالة في القرن السادس ، أثناء حكم سلالة كلوفيس . أورد جريجوري أسقف تور ، الذي عاصر هذه المرحلة، صورة واضحة عن هذه الفترة والمعروف أن جريجوري ينحدر من الرومان الغاليين . وكان اسقفا كاثوليكياً في تور .

ولعل أهم ما يصح استخلاصه من رواية جريجوري التوري ، أنه قام في غالة الميروفنجية ، مجتمع يسير على مستويين مختلفين فمن ناحية ، كان ثمة عالم حفل بالسياسات العليا ، التي يمثلها الفرنجة ، الذين يعتبرون متبربرين همجا ، ومن ناحية أخرى ، تألف العالم الآخر من فئات ضئيلة الأهمية من التجار والصناع وسكان المدن ، الذين ظلوا يهيئون لسادتهم المتبربرين بيئة متمدينة ، بأن أمدوهم بأسباب الترف ، وأدوا لهم الضرائب . وفي الجملة يصح القول إن الفرنجة كانوا يعيشون في غالة الرومانية ويحكمونها ، دون أن ينتموا إليها ، فكأن استقرارهم بها يعتبر طارئا برغم أن كل الاقليم يعتمد عليهم .ويصف جريجوري اسقف تور الفرنجة على أنهم أطفال ، يفتقرون إلى ضبط النفس وبعد النظر ، ينزعون إلى الشر والمكر ، يشتهرون بارتكاب الجرائم الخطيرة ، ويعتزون بأنسابهم، بينما يعرض جريجوري صورة اخرى لما اشتهرت به مدينة ديجون الرومانية من خصوبة اراضيها ، ووفرة خيراتها ، وضخامة أسوارها . وهذا الاختلاف

بين تصرفات ملوك الفرنجة الذين دأبوا على اغتيال من يتوسمون فيه من أقاربهم التطلع إلى الحكم ، وبين وصف مدينة رومانية وادعة ، لا يخلو من دلالة . إذ أنه شرح أنه في زمن ملكية الفرنجة المبكرة ، لم يكن ثمة ما يدعو لأن تقوم علاقة بين الملكية ، وبين الأراض التي تحل بها ، لأن ملكية الفرنجة تنزع دائماً للحركة والانتقال ، ولأنها ليست إقليماً بل أناساً إذ ان كلوفيس وأخلافه لم يكونوا ملوكاً على غاله ، أو على الاقليم المعروف باسم فرنجة ، بل كانوا ملوكا على شعب الفرنجة وليست غالة إلا الإقليم الذي يعيشون به ، على حين أن الرومان الغاليين هم السكان الذي ينتمون فعلاً إلى غالة . وحينما اقتسم ابناء كلوفيس وأحفاده غالة ، اقتسموها على أنها مجرد حقل ، حاز كل منهم شطراً منها في الشمال ، وآخر في الجنوب ، ولا أهمية عندهم اذا لم يكن نصيب الواحد منهم متصلا ، أو يؤلف وحدة اقليمية ، أو يرتبط بوحدة جغرافية . وهذه الحالة تتمثل في اقليم تور ، الذي اقتسمه في وقت من الأوقات ثلاثة ملوك ، فكانوا ينظرون إلى أراضي ممالكهم على أنها مجرد ملك . فإذا حدث أن قام بمملكة من الممالك وحدة سياسية أو أدبية ، فإن خير ما يمثلها الجمعية الوطنية campus maritius حينما يجتمع كبار رجال المملكة في حضرة ملوكهم ، مدججين بالسلاح . إذ أن الملوك الميروفنجيين كانوا أشبه بقادة عسكريين لا رؤساء دولة بالمعنى المقصود من هذا المصطلح . بل إنهم لا زالوا حتى نهاية القرن السادس يحتفظون بروح المعاهدين المتبربرين الذين حلوا بالبلاد واستمدوا معاشهم منها . والمعروف أن كلوفيس حينما استقر في باريس سنة ٤٨٦ ، كان فعلا في خدمة الحكومة الرومانية ، ولم يكن أتباعه سوى عساكر محالفة للأمبراطور . وظل كلوفيس وأخلافه يجعلون على نقودهم رسم الأمبراطور . وكان لزاما على الفرنجة إما أن يحاربوا من أجل البلاد التي حلوا بها ، واما أن يقاتل بعضهم بعضا ، حسبما تحركهم الدواعي والأسباب . كانوا عساكر يطلبون الثروة والمجد ، ثم حازوا سلطة مطلقة على الأرض التي سبق ان استخدمتهم

للدفاع عنها ولم تكن الحكومة حرفتهم ، غير أنه طالما لم تمنعهم هيئة من الهيئات من التدخل في أمور الحكومة ، تولوا زمامها ، باعتبار أنها مصدر جديد للكسب والثروة .

حكومة الفرنجة :

تركزت إدارة المملكة حول شخص الملك وبلاطه ، الذي كان معروفاً ، بالقصر المقدس Sacrum Palatinum مثلما كان شائعاً عند الأباطرة الرومان. على أن التطابق في الاسم ليس معناه التطابق في النظام ، فالبلاط الميروفنجي يختلف عن البلاط الأمبراطوري ، مثلما تختلف فكرة الدولة عند الفرنجة والرومان فالامبراطورية الرومانية استندت الى فكرة الدولة والقوانين والحكومة ، والى أنها مستقلة عن أولئك الذين يمثلونها ويتولون أمرها ، فالانسان ليس إلا مواطناً بالأمبراطورية ،لا رعية للأمبراطور. بينما استندت مملكة الفرنجة في قيامها على ما يربط الشخص بالآخر ، من علاقات شخصية . فقوة الملك ليست إلا قوة شخصية تختلف من ملك الى آخر ، حسب طبيعته . يرتبط به رعاياه بيمين الولاء التي تعتبر رابطة شخصية ، تلزم الرعايا بأن يتبعوه إلى الحرب والقتال . وبذا نمت طائفة جديدة من النبلاء ، ارتكنت أول الأمر على الملكية ،ثم استمدت قوتها من نفوذ وراثي محلي ،ومن الامتيازات التي تدفقت عليها .

والتف حول كل ملك ميروفنجي جماعة من الرجال أقسمت بأن تخدمه في صدق وإخلاص . والواضح أن هذه الفئة هي التي كانت معروفة عند الجرمان من قبل باسم الرفاق comitatus ، فأضحوا يعرفون زمن الميروفنجيين باسم الأتباع، antrustiones .وخدم هؤلاء الاتباع الملك على أنهم موظفون، وأنهم يؤلفون حرسه ، ورجال داره (حاشيته) . وإذا كان الميروفنجيون فكروا في الدولة

على أنها ملك خاص ، تبع ذلك أن البلاط عندهم ليس إلا الدار والحاشية . وكبار موظفي الدار يتمثلون في الصنجيل ، ورئيس البلاط ، الذي كان من أعماله الإشراف على الضياع الملكية ، فضلا عن رجال القصر . ويلي هؤلاء في المرتبة ، الساقي ، والخدام ، والكونت (الكندسطبل الموكل بالاصطبلات الملكية) ثم السيّاس (آخورية) . وللسيّاس أهمية كبيرة ، نظراً لأنه ليس للبلاط دار مستقرة ، بل كان متنقلا ، فالملك يطوف بأرجاء المملكة ، بجميع رجال بلاطه . ونظراً لأنه ليس للحكومة مقر ثابت ، كان بوسع أبناء كلوفيس وأحفاده أن يفكروا في تقسيم غاله إلى ممالك صغيرة ، دون مراعاة الوحدة الطبيعية ، أو اختيار موضع طبيعي للادارة . كانوا جميعاً يؤثرون اتخاذ مقارهم في شمال فرنسا ، في باريس ، وريمس ، وأورليان ، وسواسون ومتز ، غير أنهم كانوا يتحركون ببلاطهم صوب الجنوب كلما اقتضت الأحوال ذلك .

وبالإضافة إلى وظائف البلاط ، كان بدار الملك ديوان الرسائل ، يتولاه موظف يشرف على تحرير واصدار الوثائق القانونية والمنشورات العامة ، ويبذل كل جهد في أن تكون صياغة الوثائق مطابقة لصيغ الوثائق الرومانية . وإذ كانت هذه الصياغة تجري على نمط الصيغة الأمبراطورية ، ظن بعض المؤرخين ، أن الحكومة الميروفنجية ليست إلا امتداداً للحكومة الأمبراطورية . على أن ما انطوت عليه الوثائق الميروفنجية من صيغ وعبارات امبراطورية ليست في الواقع سوى الفاظ رنانة ، فلم تكن حكومة الميروفنجيين شبيهة بحكومة الرومان .

وتبدو الإدارة المحلية ، أنها متطابقة في غالة الرومانية وغالة الميروفنجية ، لأن الوحدة الإدارية في كلتا الحالتين كانت متماثلة . إذ كان الاقليم civitas هو الوحدة التي أخذت بعد القرن السادس تنقسم إلى وحدات ، يطلق على كل منها باجوس Pagus ، وكل باجوس ينقسم إلى وحدات ، تقابل ما

كان معروفاً في انجلترا باسم المئينات centenae ، غير أن حاكم المئينية عند الفرنجة كان يختاره أصلا ملاك الأراضي ، ثم تولى الكونت ترشيحه . وشملت غالة زمن الرومان ١١٢ إقليما ، والراجح أن هذا العدد ظل معروفاً حتى زمن الفرنجة . وتولى إدارة الأقاليم موظفون عرفوا بالكونتات comites ، وربما كان هذا اللقب معروفاً في أواخر عهد الأمبراطورية الرومانية . وعند مراجعة واجبات الكونت ، نلمس الفروق الأساسية بين الادارتين الميروفنجية والرومانية وأول هذه الفروق ، أن الكونت لم يحكم البلاد وفقاً لقانون واحد . فهو حسبما ورد في سجل تعيينه موكل بأن يحاكم كل رجل حسب قانونه الخاص ، فالفرنجة يحاكمون بمقتضى قانون الفرنجة ، والرومان بمقتضى القانون الروماني ، وكذا البرجنديون حسب قانونهم . ولم يختف حتى وقتذاك مبدأ الأخذ بالثأر الذي كان معروفاً عند الجرمان ، وحفلت صفحات كتاب جريجوري اسقف تور بقصص الانتقام ، وأدى ذلك إلى الاضطراب في القضايا المختلطة . وإذا كان الميروفنجيون ملوكاً على الشعب لا على الأرض ، فان واجبات الكونت تحددت بحاجات الشعوب المختلفة . أما الفرق الثاني فيتمثل في أن الكونت في مملكة الميروفنجيين ، جمع في شخصه السلطتين العسكرية والمدنية ، على عكس ما كان حادثاً زمن الأمبراطورية الرومانية ، من انفصال السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، حتى لا تتجاوز السلطة العسكرية حدودها . وكان الكونت يعمل جابياً للضرائب ، وقاضياً ، وقائداً لجيش إقليمه عند التوجه للقتال . فلا عجب إذا أساء استخدام كل هذه السلطات التي اجتمعت في يده ، إذ لم يكن مسئولاً إلا أمام الملك . وكل ما يبتغيه منه الملك ، هو أن يحافظ على حقوق الملك ، وان يجبي له الضرائب . ولم يكن الكونت في القرن السادس يختار من إقليمه ، حتى لا يرتبط بمصالحه الخاصة . ومع ذلك قبل الملك ، في سنة ٦١٤ ، اختيار الكونتات من الأقاليم التي يتولون ادارتها .

الادارة والكنيسة :

على انه لتحقيق التوازن مع سلطة الكونت ، استخدم الملك نائباً له ، يتمثل في الأسقف . فمنذ القرن السادس درج الملوك الميروفنجبون على التدخل في اختيار الاساقفة ، وحرصوا على أن يختاروا للمناصب الأسقفية رجالا من بين كبار موظفي البلاط ، وكانوا عادة من العلمانيين . فاضحى الأسقف ممثلا قوياً للملك ، بفضل ما اختص به من سلطات روحية ، وما يحظى به من مكانة عند السكان ، وما ينعم به من جاه وثروة تجعله من مقدمي رجال المدينة .

وتعتبر الحكومة عند الميروفنجيين وسيلة للحصول على الأموال . ولهذا السبب ، إذا أرادت الحكومة ان تسخو على أحد الرعايا ، جعلت له حصانة Immunitas ، التي ليست سوى وسيلة قانونية لمنع تدخل الكونت وسائر موظفي الملك ، في ارض هذا الرجل الذي حاز هذا الامتياز . فليس للكونت على هذه الأرض سلطان ونفوذ ، إذ ليس بوسعه أن يجبي منها الضرائب ، وأن يحاكم المجرمين الذين يلجأون إليها ، أو يدعو الناس بها للانضواء تحت لواء الملك . لأن الملك تخلى عن حقوقه الملكية في بعض البلاد لأحد رعاياه ، ولم يقم بذلك إلا لأنه اعتبر حقوقه الملكية مجرد ملك خاص به . ولم يخطر على باله أن يتساءل ما اذا كانت هذه الامتيازات ، تقيد الدولة أو الممتلكات المستقلة ، لأن هذه الأفكار كانت غريبة عليه . إذ أنه حكم البلاد كما يفيد منها إلى أقصى حد ، وترك الجانب الايجابي من الحكومة لسلطة الكنيسة . فالمعروف أن املاك التاج كان يتولى أمرها موظفون خاصون من قبل الملك ، وليس للموظف العام كالكونت أن يدخلها . فإذا أنعم الملك بأراضى ، من املاكه الخاصة ، على الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، أو على أشخاص آخرين علمانيين ، فمن الطبيعي أن يصر هؤلاء الرجال على الاحتفاظ بما لهذه الأراضي الملكية من حصانة ، لا تنفذ

إليها السلطة العامة ، وبذا انتقلت هذه الأراضي من الاختصاص الشخصي للملك إلى الاختصاص الشخصي لحائزها . على أن هذه الحصانة امتدت إلى ابعد من ذلك . فنظراً لأنه كان من العسير قيام إدارة قديرة لكل الدولة ، حرص الملوك الميروفنجيون على أن تمتد هذه الحصانة أيضاً إلى الأراضي التي حازها أو سبق أن حازها رجال الكنيسة ، والعلمانيون .

ولهذا السبب كان للأساقفة أهمية بالغة في غالة الميروفنجية ، فقد كانوا من الرومان ، وكانوا ينتمون عادة إلى الأسرات السناتورية الكبيرة ، واشتد حرصهم على مصالح بلادهم . يضاف إلى ذلك ما كان لهم من صلة وثيقة بالحكومة ، إذ أضحى لكل اقليم أسقف خاص ، إلى جانب الكونت ، ومع أن جمهور الكنيسة هو الذي اختار الأسقف ، فلا بد أن يصدق الملك على تعيينه ، وبذا ينبغي ألا يعزل من كنيسته ، على حين أن الكونت يصح عزله أو نقله إلى اقليم آخر . وبذا صار بوسع الأسقف أن يتعرف إلى مصالح ابروشيته أو اقليمه . فكان الأساقفة مستعدين للإنفاق وإصلاح الأبروشيات ، بما يقيمونه من كنائس ، وامتد اهتمامهم إلى إقرار السلام ، وبذل الأموال اللازمة لتحقيقه ، بينما لم يقم الكونت والملك نفسه بهذا الأمر . وما قام به الأساقفة في غالة من اصلاحات ، مثل إنشاء بعض القرى ، وتشييد السقايات وإقامة الجسور كان بالغ الاهمية ، وقد كتب فورتيناتوس إلى فيلكس أسقف نانت «أنت مخلص بلدك ، أنت الذي تبذل للبلاد ما تتطلبه من العدالة ، وتعيد إليها مباهج الماضي ، أنت صوت السكان الأصليين والضوء الذي يهتدي به النبلاء ، وحامي الشعب ، وأنت المرفأ الذي تلجأ إليه السفينة المشرفة على الغرق » . ولم يكن بوسع جريجوري أسقف تور أن يتحدى الملك فحسب في

الأمور الكنسية ، بل كان يرفع إليه أيضاً الظلامة عن تصرفات الكونت في الأمور الدنيوية .

والواقع أن الأساقفة هم الذين ألفوا الحلقة التي تربط بين المجتمعين الفرنجي والغالي الروماني ، اللذين عاشا معاً في غالة الميروفنجية . واحترمهم الملوك ، لأنهم كانوا يخشون إثارة غضب الله ، وأوليائه (قديسيه). فالقديس مارتن في تور ، كان يعتبر حامياً لحقوق الكنيسة وأسقفها . وإذ كان بوسع الملوك أن يحنثوا في أيمانهم ، أو يقتلوا ابناء أخوتهم ؛ أو يأمروا بإعدام أطفالهم ، غير أنه لم تجرؤ إلا قلة منهم على انتهاك حق الكنيسة في بذل الجوار والحماية لمن يلوذ بها . فإذا أثار رجل غضب الملك ، وفر إلى أقرب كنيسة ، ونجح في الدخول إليها ، صار آمناً طالما بقي بها . وقد يقوم رجال الملك بحصار الكنيسة ، أو يحاولون إنزال الهلاك بالرجل جوعاً ، غير أنهم لا يجرءون على القبض عليه في حرم الكنيسة . على أنهم كانوا يلجأون عادة إلى اغراء الرجل على الخروج من حرم الكنيسة ، بما يبذلونه من أيمان غليظة ، بأن الملك سوف يعفو عنه ، إذا اعترف بجرمه ،فإذا نجحوا في حملهعلى الخروج من الكنيسة ،نقضوا ايمانهم وقتلوه.

ومع أن نقض الأيمان لم يكن أمراً غير مألوف ، فإن انتهاك حرم الكنيسة لم يسمع به أحد .إذ لم يكن بوسع الفرنجي الشجاع الصارم أن يتجاسر على جلب انتقام الله وقديسيه . وإذ تقرر منع موظفي الملك من دخول أراضي الكنيسة التي حازت حصانة وحقوقا ، صار لسيد هذه الأراضي ولاية خاصة . فكان قاضياً، ومتولياً لجباية الضرائب والرسوم ، وأضحت الحاجة ماسة إلىخدماته. وفي الجملة ، صار ينعم باستقلال محلي تام ، ولم يربطه بالتاج سوى ما كان من

التزام عام . والملحوظ أن التاج (الملك) تنازل عن سلطات حازها قانوناً ، غير أنه لم يكن بوسعه أن يمارسها .

اهمية الكنيسة

أدرك كلوفيس وأخلافه أهمية التحالف مع الكنيسة ، فحرصوا على الإفادة من ذلك . ولذا أغدقوا على رجال الدين المنح من الأراضي والامتيازات ، فاضحى الأساقفة من كبار الملاك ، وازداد ثراء الأديرة . وما كان للكنيسة في ظل الحكومة الرومانية من حقوق ، ازدادت اتساعاً زمن الميروفنجيين . وإذ درج رجال الكنيسة على استخدام النظام القضائي المعروف عند الرومان ، لم يحفلوا كثيراً بالقانون الجرماني ، الذي اعتبروه بدائيـاً . ولذا حثوا الملوك الميروفنجيين على أن يجعلوا لهم السلطة القضائية على رجـال الدين. يضاف إلى ذلك أن كبار رجـال الكنيسة أنفوا من أن يطوف كونتات الفرنجة الغلاظ بلادهم ، ولذا طلبوا لأنفسهم الحصانة ، التي تمنع موظفي الملك من دخـول أراضي الكنيسة ، بينما يتولى رجال الكنيسة القاء القبض على المجرمين وتسليمهم إلى الكونت، وذلك في القضايا التي ليس للكنيسة الحق في محاكمتهم .على أن ثمة من أمور الحكومة ما لم يحفل به الملوك الميروفنجيون،غير أنهاتعتبر بالغة الأهمية للكنيسة ، فلا يعلم الجرمان شيئاً عن الوصايا والهبات والقواعـد التي تتحكم في وراثة الملك ، بينما اشتد اعتماد الكنيسة على ما يبذله لها الأتقيـاء الصالحون من الهبات ، ولذا كان لا بد من الوصول إلى اتفاق بين الجرمان والكنيسة حول هذه المسائل المتعارضة ، وبمقتضاه ظلت الأرض خاضعة لقواعد العرف عنـد الجرمان ،بينما تسري الوصية علىتنظيم الأموال المنقولة ، وصار للكنيسة النظر فيأمر الوصايا .

لم يحفل ملوك الفرنجة إلا قليلا بأمور الزواج وما يترتب عليه من الصفـة

الشرعية،ومع أن الميروفنجيين وأتباعهم أضحوا مسيحيين من الناحية الرسمية، فانه لم ترسخ فيهم الأخلاق المسيحية إلا بعد زمن طويل. وكل ما كانت الكنيسة تأمله من الملك هو أن يعترف بواحدة من النساء اللائي بحوزته،زوجة شرعية له. ولم يكن لدى ملوك الفرنجة ما يمنع الكنيسة من أن تفرض قواعدها على الناس. وبذا اضحت الكنيسة ومحاكمها مسئولة عن النظر في أمور الزواج واثبات الصفة الشرعية . وما حرص عليه الملك ، هو أنه لا يجد هو ونبلاؤه ما يمنع من التخلص من زوجة ، ليس مرغوباً فيها . ولم يمانع الملوك أيضاً فيما التزمت به الكنيسة من رعاية العاجزين والضعفاء ، أمثال الأرامل واليتامى . والخلاصة أن الكنيسة باشرت من الأمور ما كانت تقوم به السلطات الرومانية المحلية ، والتي لم تكن موطن اهتمام ملوك الفرنجة .

وعلى الرغم من سخاء الميروفنجيين على الكنيسة بما بذلوه لها من أراضي وامتيازات ، فإنهم حرصوا على أن تخضع لسلطانهم . فحينما حاول ريمي رئيس أساقفة ريمز أن ينكر ما للملك كلوفيس من حق التدخل في انتخابات الأسقفية ، لم يلق من الملك إلا الاعراض والاهمال . كما أن أخلاف كلوفيس أحبطوا كل ما قام به رجال الكنيسة من محاولات من هذا القبيل . وأصر الملوك على ألا يشغل كراسي الأسقفية سوى رجال الدين الذين سبق أن أقروهم . وليس لذلك من معنى سوى أن الملوك هم الذين يتولون تعيين الأساقفة . ومـــا من ملك ميروفنجي أجاز انعقاد مجمع كنسي إلا بناء على دعوته ، وليس لقرارات المجمع الكنسي قيمة إلا إذا كانت صادرة عن الملك . وبذا خضع رجـــال كنيسة الفرنجة وتشريعها لسلطان الملك المطلق .

ولا شك أنه كان لذلك آثار هامة على الكنيسة،إذ أن كنيسة الفرنجة تعرضت لما تعرضت له الدولة من الانقسام . فالأسقف يعينه الملك الذي يخضع لسلطانه أسقفيته ، ولا يضم مجلس الكنيسة سوى أساقفة مملكة واحدة من ممالك الفرنجة،

فلم يجتمع سوياً جميع الأساقفة الفرنج في مجلس كنسي واحد ، إلا زمن داجوبرت (٦٢٣ – ٦٣٨) الذي حكم كل المملكة . ولم تلبث الصفة الجرمانية أن غلبت على الأسقفية . إذ حل في الأسقفية خدام الملك وأصدقاؤه من الفرنجة ، بعد ان اختفى من الوجود الأساقفة الذين عاصروا فتح الفرنجة لغالة ، وأدى ذلك إلى التدهور المريع في ثقافة رجال الكنيسة ونظامها . وإذ أضحت الكنيسة ادارة تابعة لدولة الفرنجة ، واعتمدت في أحوالها إلى حد كبير على الملوك ، الذين ليسوا إلا متبربرين ، هوت الكنيسة إلى حالة بالغة السوء. ويشير القديس بونيفاس إلى أن كبار رجال الكنيسة ، ليسوا إلا جباة ضرائب، ودعاة دعارة ، يمارسون الصيد ولعب القمار . ولم يكن مرءوسوهم أقل حظاً منهم في ذلك . وصار من المحتم منع القسس من الاحتفاظ بأكثر من زوجة ، ومن أن يجوبوا البلاد ، ومن أن يترددوا على الحانات . أما الرهبان فصاروا يتخذون من النعوت ما يلائم الأحوال ، فتارة يعتبرون أنفسهم علمانيين ، وتارة يجعلون أنفسهم من رجال الدين ، وفي كلتا الحالتين لا يلتزمون بقاعدة أي الطائفتين. واشتهرت الكنائس بما حدث بها من سوء الخدمة ، إذ فسدت الشعائر ، التي لم تؤد بانتظام ، نتيجة لما ساد من الاهمال والجهل . وما جرى من ازدياد سلطة الكنيسة ، يرجع أساساً إلى شره الأشخاص الذين يعملون لمصالحهم .

الارستقراطية والقنية

ما تعرض له غرب أوربا من تغيير اجتماعي واقتصادي منذ القرن السادس، اخذ صفة مزدوجة : تركيز امتلاك الأراضي في أيدي فئة قليلة العدد نسبياً ، كانت تؤلف الطبقة الحاكمة ، ثم أضحت فئة ارستقراطية بالوارثة ، وهبوط

معظم السكان إلى وضع الأقنان . وما حدث من سيادة رؤساء البلاط ليس الا انتصاراً للرجال الذين يمثلون مصالح الارستقراطية الجديدة. والواقع أن اعتبار هذه الارستقراطية جديدة ، يفتقر إلى الدقة ، إلا باعتبار أن ارستقراطية الغرب تألفت من الجرمان، وزاد من عددها من أنضم إليها من الإساقفة ورؤساء الأديرة من رجال الدين . على أن تركيز الضياع الشاسعة في ايدي ملاك حصلوا على امتيازات ، حدث في اواخر عصر الأمبراطوارية الرومانية ، أما وضع الفلاحين الأقنان فلم يكن جديداً الا بما حدث من تحول الأحرار من الرومان والجرمان الى اقنان ، منذ عهد الأمبراطور قنسطنطين . إذ أن الوضع الاجتماعي للجرمان حينما نفذوا إلى الأمبراطورية الرومانية كان شديد الملائمة لما كان معروفاً عند الرومان .

ذلك ان نمو فئة ارستقراطية غنية، مالكة للأراضي وشبه مستقلة، امتصت قوة الملكية ، واتخذت لنفسها وضعاً متوسطاً بين الملك والشعب ، زاد من تطورها ثلاثة اجراءات استعاضت عن العلاقة العامة التي تربط مباشرة بين الدولة والمواطن ، بما يقوم بين الأفراد من علاقات تبعية اقتصادية وشخصية . وهذه الاجراءات تتمثل فيما هو معروف بالولاء [١] ، والاقطاع ، والحصانة . فالرجل التعس الذي لا يملك أرضاً ، الفقير ، الضعيف ، الذي يئس من تسديد ديونه ،والذي لا أمل له في المستقبل ،والذي يئس من حماية أقاربه له ،يصح أن يجعل نفسه في خدمة كونت ، أو دوق ، او موظف بالبلاط ، أو في خدمة الملك نفسه ، فيصير بذلك تابعاً له ، وموالياً له ، ويعرف باسم التابع antrustion ومن صيغ الفرنجة عن هذا الولاء في القرن السابع الميلادي « ينبغي عليك

---

(١) وهذه الألفاظ تقابل ما هو معروف.

commendation, benef ice, immunity .

(أيها السيد) أن تنهض لمساعدتي ، وأن تعينني على العيش ، وأن تكفل لي الكساء ، حتى أستطيع أن أقوم على خدمتك وأن أكون جديراً بذلك . وطالما كنت حياً ، فسوف أبذل لك من الخدمة ، وأؤدي من الشرف ، ما يتفق مع مشيئتي وحريتي ، ولن أخرج ، طوال حياتي ، من دائرة سلطانك واشرافك، بل سأبقى طوال عمري خاضعاً لنفوذك وحمايتك» .

تحطم نظام العشيرة المعروف عند الجرمان قديماً ، غير أن الدولة الجديدة لم تكن من القوة ما يجعلها تكفل التنعم بالحياة والملكية، على أن ما لم يكن بوسع العشيرة أو الدولة أن تفعله ، كان لزاماً على الشخص بمفرده أن يؤديه لنفسه . فما كان للشخص من مكانة ونفوذ اجتماعي ،لابد أنه توقف وقتذاك على عدد ما لديه من أتباع او على حواشيه المخلصين. هذا الاجراء المعروف بالولاء commendation ، لا يذكرنا فحسب ، بما كان معروفاً من قديم الزمن عند الجرمان من نظام السيد ورفاقه(comitatus)، بل يشير أيضاً إلى الوضع الذي ساد في مجتمع غاله في القرن الأول قبل الميلاد ، ووصفه يوليوس قيصر . وترتب على استقرار الأحوال ، أن فقد الرفاق طابعهم الحربي، وأضحوا مجرد جماعة مدنية من الحواشي ورفاق الملك ، والواضح أن النتيجة لم تختلف كثيراً عن الوضع الناجم عن قاعدة الولاء ، حينما أضحت غالبية السكان أقناناً بعد أن تنازلوا عن أراضيهم .

على أن الاقطاع يعتبر أيضاً نوعاً من الجاء الأرض ، فمالك الأرض الصغير ، الذي أراد أن يفلت من المسئوليات الناجمة عن الملكية، والاعاشة ، والضرائب ، لم يسعه إلا أن يلجأ إلى رجل غني ، قوي النفوذ والسلطان ، ليبذل له أرضه بشرط أن يسمح له بالبقاء فيها ، وان يعيش على انتاجها ،ثم يحوزها منه على سبيل الانتفاع منها ، طوال حياته ، وحياة أبنائه من بعده ، أو لفترة تتحدد في الاتفاق . فاذا انقضت المدة المحددة ، انتقلت ملكية الأرض إلى الشخص

الآخر . وهذه الأرض التي تنازل عنها الشخص ثم حازها للانتفاع بها ، يطلق عليهـا إقطاع (beneficium) benefice . فإذا ذاع هذا الاجراء ، فانه يؤدي إلى تركيز ملكية الأراضي في أيدي فئة قليلة من الملاك . يضاف إلى ذلك أن حائز الاقطاع الذي صار مجرد مستأجر ، يصح أن ينتهي به الأمر إلى أن يكون قناً. وفي هذا المجتمع المضطرب ، تهيأت الفرص العديدة للسيد القوي لأن يرغم جيرانه الضعاف على التخلي له عن أراضيهم ، ثم يستعيدونها على إنهـا اقطاعات.كما أن كثيراً من الأشخاص حولوا أراضيهم إلى اقطاع الأسقفية أو للدير المجاور ، للدلالة على تعلقهم بالكنيسة ،وكي تكون وسيلة للحصول على الخلاص الأبدي . وحدث أيضاً أن سيداً كنسياً أو علمانياً ، يعمد إلى إغراء مالك بأن يتنازل له عن أرضه ، فيبذل له من أرضه اقطاعاً ، يحوزه على سبيل الانتفاع به . وبذا يضمن السيد زراعة ما يملكه من الأرض ، غير أنه لم يكن بوسعه أن يستخدمها ، على حين أنه يعمل على ازدياد ملكه رويـداً رويـداً . وفي تلك الأثنـاء ينعم الرجل الذي تلقى اقطاعاً إضافياً بدخل من أرض تزيد مساحة على ما يحوزه أصلاً من الأرض . أمـا الملوك والأساقفة ورؤساء الأديرة ، وكبار الملاك ، فانهم منحوا من أراضيهم اقطاعـات لفترة محدودة وبشروط خاصة ، لا فحسب من أجل إقامة جماعة كبيرة من الأتباع، واستثمار أراضيهم ، بل أيضاً لمكافأة خدامهم ، ودفع مرتبات موظفيهم .

والواضح أن انتقال ملكية هذه الأراضي ، تعرض للجدل والنقاش ، بل إلى استخدام القوة في بعض الأحوال .

ولما لم يكن بوسع الدولة أن تنفذ هذه الاتفاقات الشخصية ،لم يسع الفرد إلا أن يتعاهد بفرض هذه الحقوق والامتيازات ،وإلا تهيأت الفرصة لضياعها . على أنه كان لابد من أن يتجه الميل إلى الاحتفاظ بالاقطاع في يد حائزه ، والبقاء

في أسرة حائزه ، والحرص على ألا يفلت من يده وأيدى سلالته. كما أن ما جرى بذله من اقطاعات على أنها أجور ومكافآت مقابل ما يؤدي من خدمات ، تعرضت أيضاً للخطر . فما بذله الملك من اقطاعات لموظفيه أمثال الكونتات ، تعرضت لخطر يتمثل في ارتباط الوظيفة بالاقطاع. فحينما اضطر الملك الميروفنجي في غالة في القرن السابع الميلادي ، إلى أن يعد بأنه سوف يختار الكونتات من الأقاليم التي ينتمون لها ، صار الخطر ملموساً في أن الوظيفه سوف تكون وراثية في أسرة محلية ، وسوف تجعل لشاغلها حيازة أراضي معينة .

وما حدث في القرن الثامن من تعيين شروط ، عند منح الاقطاع ، كأن يلتزم حائز الاقطاع بالخدمة العسكرية على ظهور الخيل، انطوى على خطر آخر. إذ أنه لم يسبق منح اقطاعات بهذه الشروط ، ولم يكن استخدام الفرسان أمراً جديداً في الغرب في القرن الثامن ، غير أن الجيش الجرماني كان مؤلفاً أساساً من الرجالة من احرار الجرمان ، لأن استخدام الفرسان في الحرب يتكلف نفقات باهظة ، وكاد يكون مستحيلاً . ووتعرضت الكنيسة بصفة خاصة لأذى كبير، ذلك أن شارل مارتل أدرك أن مواجهة هجمات الفرسان من العرب والبربر تطلبت إعداد قوة من الفرسان . فلجأ إلى ارغام الكنيسة على أن تبذل اقطاعات للرجال الذين يؤدون الخدمة العسكرية ، على أنهم فرسان ، وبذا أسهمت الكنيسة في بناء القوة العسكرية للدولة . ومن العسير أن نتبين ما إذا كان كبار الملاك سلكوا طريق الكنيسة ، على أن حياة الاقطاع مقابل الخدمة العسكرية ، أضحى اجراء شائعاً .

الرق :

ما هو معروف من التعارض بين الأحرار والأرقاء ، الذي كان من خصائص المجتمعات القديمة ، والذي ظل باقياً في المجتمعات الجرمانية ، لا زال يعتبر حداً جوهرياً يفصل بين الفئتين . إذ كان عدد الأرقاء كبيراً ، ولم يكن لعمل الرقيق

أهمية فحسب في الدور ، بل أيضاً في الحقول والصناعات .

كانت طبقة الأرقاء زمن الميروفنجيين تعتبر نظاماً أصيلاً ، ولم تكن من بقايا العصور السابقة . فالوق المفروض على الشخص مستمد من مصدرين ، إما نتيجة لعقوبة مقررة ، وإما يجري طواعية واختياراً . غــير أن المصدرين الأساسيين كانا الحرب والعقد .

فالرق هو الصفة العادية لأسرى الحروب ، فضلاً عن أثر الحروب العديدة التي سادت زمن الميروفنجيين في كثرة الرقيق في غالة . يضاف إلى ذلك ما كان لتجارة الرقيق من أهمية ، وكان معظم هؤلاء الرقيق يردون من الأقاليم المتاخمة لغاله ، مثل انجلترا وجرمانيا ثم من بلاد الصقاليــة . وهؤلاء الرقيق الذين ينتمون لأصول أجنبية إنما يجتازون غالة ، ثم يجري تصديرهم إلى بــلاد البحر المتوسط .

على أن حالة الرق لم تكن تطابق ما كان معروفاً في الزمن الغابر ، من حيث كونه وراثياً ، والتصرف المطلق الذي يمارسه السيد مع الرقيق ، إذ أن العبد حاز بمقتضى القانون الجرماني شخصية قانونية ، أفاد منها في علاقته مع السيد ، فما كان للسيد من مسئولية في تأديب عبده ، أخذت تتضاءل ، كما أن ما كان للأرقاء من كفاية مهنية ، وما كان لسادتهم من مكانة اجتماعية جعل لهم ميزات اجتماعية بين طبقة الأرقاء ، فأضحى بعض الأرقاء يعتبرون فئة ذات امتيازات. يضاف إلى ذلك أن أحوالهم تحسنت بفضل الكنيسة التي اعترفت لهم ببعض الحقوق ، وقيدت تحكم السادة فيهم ، وحضت على عتق الرقيق ، على أن يبقى العبد بعد عتقه مولى لسيده .

ويقابل هؤلاء الرقيق ، سائر الناس من الأحرار . ولم يؤلف هؤلاء الرجال الأحرار طبقة واحدة من الناحية القانونية . فكبار ملاك الأراضي ، والفلاحون

الذين يعملون بالأراضي ، الذين امتزجوا بالجرمان الـذين نزلوا بالأراضي التي فتحوها ، كانوا أحراراً . أما أولئك الذين يطلق عليهم المؤرخون شبه أحرار فإن غالبيتهم كانوا أقنانا ، يرجعون إلى أصل روماني ، ومع أنهم يعتبرون من الناحية القانونية أحراراً فانهم ظلوا يرثون الارتباط بالأرض، وما كان معروفاً عند الجرمان من فئة laeti قريب الشبه بهذه الحالة .

امتزاج العنصرين الجرماني والغالي الروماني :

تراءى منذ قيام الممالك الجرمانية الانفصال التام بـين الجرمان والغاليين الرومان . إذ كان الاختلاف بينهم شديـداً في النظم والمستوى الاجتماعي والفكري،والعقائد الدينية ، وأسلوب الحياة ، يضاف إلى ذلك أن ما صحب الغزو الجرماني من التخريب والنهب ولّد عند الغاليين الرومان الكراهية والحقد لأولئك الذين اعتبروهم متبربرين .

غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلا . فما حدث من تحول كلوفيس إلى المسيحية الكاثوليكية ، وما قام به الفرنجة من توحيد غاله، أدى إلى أن يدخل في حوزة الأسرة الميروفنجية ، هيئة الكنيسة ، والغاليون الرومان الذين اعلنوا ولاءهم للميروفنجيين ، وبذا تحطم ما كان يفصل بين الجرمان والرومان مـن حاجز ديني . وما حدث من الزواج المختلط ، وما كان من مساواة سياسية بين سائر أفراد الرعية ، ولا سيما ما قام من روابط وثيقـة بين الارستقراطيـة الجرمانية والغاليين الرومان في بـلاط الملك الميروفنجي ، فضلاً عن الصلات التي تزايدت بين الرجال الأحرار الذي كانوا يلتقون في ساحة المحاكم العامة التي يرأسها الكونت ، أو في صفوف الجيش ، وما كان من الاستعاضة عن الحكم الشخصي بالحكم الأقليمي ، كل ذلك أسهم في ازالة الحواجز بين العالمين الجرماني والغالي الروماني .على ان هذا الاختلاط لم يتم بدرجة متساوية بين الجانبين،نظراً

للتفاوت في كثافة العنصر الجرماني في الأجزاء المختلفة في غالة، كما أن الشطر الأكبر من زمن الميروفنجيين شهد نزاعاً بين شمال غالة وجنوبيها. ذلك ان شمال غاله، الذي يقع إلى الشمال من نهر اللوار، وهضبة لانجر، تفوق فيه العنصر الجرماني على العنصر الغالي الروماني من الناحية العددية فما حدث من الاندماج كان على حساب العنصر الروماني، (فاستراسيا نزل بها الفرنجة والألليماني، ولذا غلبت عليها الصفة الجرمانية. أما نوستريا فلم يكن احتلال الفرنجة لها كثيفاً) على حين أن غالة الجنوبية التي تشمل اكيتانيا وبرجنديا وبروفانس، والتي خضع من حل بها من الجرمان لتأثير قوى من قبل المدنية الرومانية، وظلوا زمناً طويلاً يؤلفون شطراً من المجتمع الثقافي للبحر المتوسط، احتفظت دائماً بطابعها الروماني.

انتقال السلطة من الميروفنجيين الى الكارولنجيين

تعرضت غالة أثناء حكم الميروفنجيين، الذي امتد إلى نحو قرنين ونصف قرن إلى تغيير جوهري. فما كان من قيـــام الممالك الجرمانية، ومن انتصار الأسرة الميروفنجية، أدى إلى أن ينفذ الى اقاليم غاله مؤثرات جرمانية ومؤثرات تنتمي إلى القارة الأوربية، بعد أن ظلت خمسة قرون تعتبر من أقاليم الامبراطورية الرومانية التي استندت إلى البحر المتوسط. وما حدث من اندماج العنصرين الجرماني والغالي الروماني، ادى إلى قيام مدنية جديدة كان للمسيحية والكنيسة أثر كبير فيها.

والواقع أن مرحلة تاريـخ الفرنجة في الفترة الممتدة بين سنتي ٦٣٩، ٧٥١، تعتبر من أهم الفترات، نظراً لما رقع فيها من تغييرات هامة، واضطرابات خطيرة فعلى الرغم من أن الأسرة الميروفنجية لا تزال تحكم مملكة الفرنجة في هذه الفترة،

فإنها فقدت حيويتها ، إذ كان يمثلها ملوك ضعاف ، صغار السن ، عاشوا دائماً في حماية رئيس البلاط ، الذي كان زعيم النبلاء .

وترتب على انقياد هؤلاء الملوك لروساء البلاط أن اتخـذت أقسام المملكة صورة جديدة في القرن السابـع الميلادي . وسبق الإشارة إلى مـا حدث في القرن السادس ، من انقسام المملكة بالتساوي بين أبناء الملك ، ولذا لم يكن من الأمور غير المألوفة ، ولم يكن أيضاً من سوء الحظ ، أن يفتقر نصيب أحـــد الأبناء إلى نوع من الوحدة الاقتصادية أو الجغرافية .وما حدث في القرن السابـع من التقسيمات كانت بالغة الاختلاف . إذ أن ما حدث من انقسام المملكة ثلاثة أقسام ، كانت عبارة عن وحدات جغرافية :وكانت هذه الأقسام هي :نوستريا، واستراسيا ،وبرجنديا .

ولم يكن المقصود من هذه التقسيمات ارضاء أفراد الأسرة الملكية ، بقدر ما كان مقصوداً به ارضاء الطلبات الملحة لأمراء كل اقليم من هذه الأقاليم . فحدث مثلا ، سنة ٦١٤ ، أن حكم الفرنجة ملك واحد ، هو لوثار الثاني ، غير أن نبلاءه أرغموه على أن يكون لكل من نوستريا واستراسيا وبرجنديا ، بـــلاط خاص مستقل يمثل الإدارة المركزية ، ويكون لكل منها رئيس للبلاط أو حاكم . ونلحظ هذا الميل أيضاً في الإدارة المحلية ، إذ ورد في نفس القرار الذي تضمن الامتياز السابق ، ما أقره لوثار من أن اختيار الكونت سوف يتم مستقبلا من بين سكان المنطقة التي يتولى ادارتها ، ويعتبر ذلك امتيازاً هاماً لأنـه متى تم تعيين الكونتات من أقاليمهم ، أخـــذوا يهتمون بمصالح أقاليمهم فضلا عن مصالح الملك .

وتحكم في تاريخ الفرنجة في القرن السابع الميلادي ما حدث من تصادم المصالح المحلية ، فنشبت الحروب الداخلية بين نبلاء نوستريا واستراسيا وبرجنديا . ولم

تكن حروباً بين أمم ، وإنما نشبت بين جماعات مـن النبلاء (ولم تكن طبقة النبلاء وقتذاك وراثية) . إذ أن تبلاء استراسيا لم يكونوا سوى أولئك الذين ارتبطوا برئيس بلاط استراسيا ، كما أن نبـــلاء نوستريا هم الذين انحازوا إلى رئيس بلاط نوستريا ، الذي يعتبر اكبر منافس سياسي لرئيس بلاط استراسيا ، وازدادت الحلقة التي تربط بين النبلاء ورئيس البلاط قوة ومتانة، نظراً لأنها لم تستند فحسب إلى العاطفة ، بل أيضاً إلى المصلحة المشتركة . ففي وسع رئيس البلاط أن يتولى الوصاية على المملكة ، بفضل ما يتلقاه من تأييد النبلاء ، كما أن هؤلاء النبلاء يعتمدون عليه في كل معاشهم ، إذ أنهم لم ينجحوا حتى وقتذاك في جعل مركزهم وراثياً،فلم يحدث أن خلف الابن أباه الكونت أو حاكم الطرف. ولم يكن النبلاء من حملة التشاريف والألقاب ، بل كانوا كبار موظفي الملك . ولذا حرص الرجل الطموح على أن يشق طريقه إلى خدمة الملك ، ولا يتحقق له ذلك إلا بتأييد رئيس البلاط الذي يمنح الوظائف كيفما شاء،غير أنه لا يفوز برضاه إلا من ينتمي اليه ويصير من أتباعه ، على أن السيد لا يقبل في تبعيته إلا مـن يؤدي له خدمة ، كما أنه ليس لأحد أن يصير تابعاً لرجل يعجز عن رعـاية مصالحه .غير أن كل رجل مهما كان غنياً أو قوياً ،يحرص على أن ينتمي لرئيس البلاط ولذا كان أتباع رئيس البلاط من عظماء الرجال الذين ينتمي إليهم أيضاً أتباع ، ويتغلغل نفوذهم في الشطر الأكبر من المملكة . فأضحت سلطة رئيس البلاط بالغة القوة ، حتى لو جرت مقارنتها بسلطة الملك ، فالمعروف أن الفرنجة يدينون بالطاعة لملكهم لأن ذلك من حقوقه ، غير أن أقوى هؤلاء الرجـــال وأكثرهم نفوذاً ، وعدوا أيضاً بأن يخدموا رئيس البلاط ، على أنهم اتباع له ، طوال حياته .

والواضح أن نظام الانتماء (الولاء) والتبعية لعبا دوراً كبيراً في اضعاف

سلطة الملوك الميروفنجايين، كما ان استقرار هذين النظامين نجم عن ضعف حكومة الميروفنجيين . إذ أن الرجال لم يلتمسوا لأنفسهم سادة ، الا لحمايتهم من طغيان الكونتات . ولما لم تقم حكومة الملك المحلية ببذل هذه الحماية ، لأن الكونت هو الذي يمثل هذه الحكومة ، فلا بد من التماس « السيد » الذي له اقوى نفوذ في بلاط الملك ، فضلاً عن أن له جيشاً خاصاً ، وهـو رئيس البلاط . وبينما يبذل رعايا الملك لـه الخدمة والطاعة ، دون أن يحصلوا على ما يقابلها ، التزم التابع بخدمة سيده واطاعته ، مقابل الحصول على الحماية والمعاش (الاقطاع) . ولذا فإن خدمة الرجل لسيده تزيد على خدمته للملك .

ولهذا السبب كانت الجيوش المؤلفة من الأتباع أقوى أثراً وأكثر أهمية من جموع المجندين من الأقاليم بقيادة الكونتات ، والتي لم تتلق شيئاً من التدريب أو النظام ، وتفتقر إلى السلاح ، وكلهم من الرجالة ، بينما تلقى جيوش الأتباع التدريب ، والتزموا النظام ، وكانوا مـن الفرسان المزودين بالسلاح والعتاد ، ويؤلفون القوة الحاسمة أثناء القتال في كل معركة . ولم يدرك الفرنجة ما للفرسان من قيمة عسكرية إلا بعـد أن صار لزامـاً عليهم أن يواجهوا الجيش الأسلامي الذي غزا مملكتهم من أسبانيا سنة، سنة ٧٣٢ وإذ لم يتوافر من النقد ما يكفي للانفاق على الفرسان ، لم يكن لدى السيد الا احدى وسيلتين يؤدي بمقتضاها نفقات الفرسان . إما أن يكفل لهم العيش في داره ، بأن يمدهم بالمؤن والكساء والعتاد ، وإما أن يمنحهم الضياع ، على أن يتكفلوا بالانفـاق على أنفسهم من منتجات الأرض ، وهذه الطريقة الأخيرة هي المعروفة بالإقطاع .

وللفظة اقطاع feudalism أهمية خاصة ، إذ اختلط على الناس فهمها في معظم الأحوال . على أنها ليست مصطلحاً يدل على الفساد أو الرجعيـة أو الوراثة أو الفوضى ، بل هي مشتقة من لفظـة لا تينية feodalis يقصد بهـا قطيعة الأرض (feodum) ، وهي عبارة عن عقار حازه التابـع مـن سيده

مقابل ما يقوم به من خدمة معينة ، وهي عادة خدمة الفارس ، وكان هذا العقار معروفاً في القرن الثامن باسم bèneficium بينما لم تستخدم لفظة feodum إلا في القرن الثاني عشر الميلادي . على أن نظام الاقطاع في القرنين الثامن والتاسع ، يعرف عادة بأنه اقطاع كارولنجي ، لأن الكارولنجيين هم الذين صار لهم من السلطان والقوة بفضل اتباعهم ، ما أدى الى القضاء على الأسرة الميروفنجية وقيام الأسرة الكارولنجية .

ظهور الأسرة الكارولنجية :

ينتمي بيت الكارولنجيين الى استراسيا ، التي تؤلف شطراً من مملكة الفرنجة ، غلبت عليه الصفة الجرمانية . والمعروف أن هذا الإقليم ، يقع عند الطرف الأقصى للدولة الرومانية في الغرب ، أي بلجيكا الحالية ، حيث استمر القتال قروناً بين الرومان والجرمان ، من أجل الغلبة في العصور القديمة. ثم غدا ذلك الإقليم من المملكة الفرنجية . وبرز من شخصيات تلك البلاد رجلان ، هما ببين كونت لاندن ، بمقاطعة برابانت الحالية ، ودوق أرنولف الذي صار أسقف مدينة متز فيما بعد . ثم لم يلبث ببين أن أصبح رئيساً للبلاط في اوستراسيا سنة ٦٢٢ ، فزوّج ابنته لابن أرنولف ، وبذا أضحت ابنة الحاكم الفعلي في البلاد زوجة لابن رجل اجتمعت في شخصه صفات الدوق والاسقف والقديس ، فضلاً عن قرابته ، فيما يقال ، الى أسرة رومانية نبيلة من مدينة ناربون ، بالجنوب الشرقي من فرنسا الحالية . وانكشفت أطماع أسرة ببين ، حينما حاول جريموالد ، ابن ببين أن يطيح بملك الميروفنجيين ، وأن يجعل العرش لابنه ، غير أن المحاولة كانت سابقة لأوانها ، فكلفت جريموالد وابنه حياتهما . واستنكرت كل من الكنيسة والارستقراطية ، كل محاولة ترمي الى اقامة أسرة على أنقاض أسرة الميروفنجيين ، وآثرتا أن يبقى ملك الميروفنجيين أداة في أيديهما ، وكان

هذا الولاء عاملاً في إحياء مكانة الميروفيجيين . وتولى ايروين ، رئيس بلاط نوستريا المحافظة على كيان الأسرة الميروفنجية ، فحارب أطماع بيت أرنولف ، الذي يمثله وقتذاك ببين (الثاني) هرستال ، ابن شقيقة جريموالد . غير أن انتعاش الأسرة الميروفنجية ومساندة رئيس بلاط نوستريا لها ، لم يستمر طويلاً ، وذلك بسبب وفاة ايروين سنة ٦٨١ ، فأضحى ببين هرستال (الثاني) ، بعد انتصاره على سادة نوسترنا في وقعة تيتري سنة ٦٨٧ ، رئيساً للبلاط بكل مملكة الفرنجة . وما أحرزه من الانتصار ، من اليسير تفسيره . ذلك أن رئيس البلاط في أستراسيا أضحى بوسعه في نهاية القرن السابع الميلادي ، أن يكون لديه من الأتبـــاع ما يزيد على ما عند المنافسين له في نوستريا وبرجنديا ، لأنه يفوق كل منهما فيما يحوزه من أراضي خصيبة . إذ أن استراسيا تألفت من الشطر الشرقي للمملكة ، الذي يقع شمال جبال الألب ، على أن كثافة السكان باستراسيا ، تقل كثيراً عما هو حادث في نوستريا أو برجنديا أو أكيتانيا ، نظراً لتوافر الأراضي التي تغطيها الغابات فضلاً عن الأراضي المهملة . وبفضل ما اشتهر به رؤساء البلاط في استراسيا من النشاط والدأب على العمل ، استطاعوا استصلاح قدر كبير من الأراضي ، بازالة الغابات ، وتشييد قرى جديدة ، واجتـــذاب المزارعين من جهات المملكة التي يزدحم فيها السكان ، ولذا كانت استراسيا في القرنين السابع والثامن هي الأرض الجديدة بمملكة الفرنجة ، التي تهيأ فيها للنازحين إليها الفرصة للحصول على الثروة . وبينما أخـــذت التجارة في التداعي ، وتلا ذلك تدهور المدن في الجنوب والغرب ، كانت أستراسيا تزداد ثراء ورخاء ، وبذا ارتفع شأن رؤساء البلاط بها ، وصار بوسعهم الانفاق على عدد كبير من الأتباع .

أضحى الكارولنجيون في الشطر الأول للقرن الثامن سادة مملكة الفرنجة ، وصارت لهم السيطرة على الملك وبلاطه ، فنعموا بما كان يبذل من التشاريف على

النبلاء ، وتولوا قيادة جيش الملك وجيوش أتباعهم . وإذ تعرضت مملكة الفرنجة للتفكك[1] ، بذل ببين الثاني كل جهده لإعادة الوحدة السياسية بما قاده من حملات لقتال الألليماني والبافاريين والاكيتانيين ويعتبر شارل مارتل (المطرقة) ابن ببين المؤسس الحقيقي للدولة الكارونجية ، وقد ظل رئيساً للبلاط بمملكة الفرنجة ، بين سنتي ٧١٤ – ٧٤١ . وفي زمنه بقي العرش الميروفنجي شاغراً لمدة ست سنوات (٧٣٧ – ٧٤٣) وبذا أضحت له السلطة المطلقة ، ولم ينقصه سوى اسم الملك .

ويعتبر شارل مارتل أعظم رجال الفرنجة بعد كلوفيس وقبل شارلمان . ومع أنه رفض نصيحة البابوية التي دعته إلى التخلي عن ليتبراند حليفه اللومباردي ، الذي سانده في قتال المسلمين ، فإنه لم يتردد في مساندة بونيفاس في تحويل الجرمان النازلين وراء نهر الراين إلى المسيحية وتنظيم كنيستهم . وبذا اسهم شارل مارتل فيما حازه بونيفاس من مجد ، على الرغم من انتزاعه جانب كبير من أراضي الكنيسة ، وتعيين أنصاره في الأسقفيات الشاغرة ، ولم يوزع هذه الأراضي إقطاعات ، إلا لإعداد جيش من الفرسان لمواجهة المسلمين ، ولقمع النزعات الاستقلالية في داخل مملكة الفرنجة . وانتهج شارل مارتل طريقة تقضي بعزل الكونتات والدوقات المحليين ، ثم أحل مكانهم رجالاً من استراسيا يثق في ولائهم . واستأنف شارل مارتل فتح فريزيا ، ووجه الحملات لقتال السكسون ، وبفضله توطدت أركان دولة الفرنجة ، بعد أن تداعت .

واختلفت حكومة الكارولنجيين عن حكومة الميروفنجيين ، في ان الميروفنجيين لم يحفلوا إلا بالاستبداد والاغتيال وسفك الدماء ، ولم يحرصوا على

---

(١) خرج على طاعة الملك البريتون والاكيتانيون ، وقام دوق غسقونية بطرد كونتات الفرنجة ، وأعلن استقلاله ، وتمرد الثورنجيون والبافاريون والالليماني على سلطان الفرنجة ، والتفوا حول الدوقات الذين ساندتهم الارستقراطية المحلية . بينما ظل سكان وادي نهر الرون على ولائهم للميروفنجيين .

أن يطلبوا نصيحة النبلاء إلا في أحوال نادرة ، بينما لم يتخذ الكارولنجيون خطوة من الخطوات كإعلان الحرب أو عقد الصلح ، أو عند سن القوانين ، إلا بعد استشارة نبلائهم . وإذ جرى الاتفاق في المصالح بين الحاكم ونبلائه ، تهيأت للدولة الكارولنجية فكرة المصلحة المشتركة، التي لم يدركها الميروفنجيون لأنهم اعتبروا المملكة ملكاً خاصا ، واعتبروا الضرائب غنيمة . عرف الكارلنجيون الغرض الذي من أجله يجمعون الثروة ، وهو أن يصير لدولتهم من القوة ما يكفي لحماية الشعب المسيحي ، فاعتبروا أنفسهم ملتزمين بواجب أمام الله نحو مملكتهم ، بأن يردوا عنها غير المسيحيين ، وأن يساعدوا الشعب المسيحي حتى يظفر بالخلاص .

وهذا يؤدي إلى ما يعتبر من أهم خصائص الدولة الكارولنجية ، وهو ما يربطها من صلة وثيقة بالكنيسة ، وأكثر ما اتضحت هذه الحقيقة ، كان في سنة ٧٥٠ — ٧٥١ حينما قرر ببين الثالث[١] عزل الملك شلدريك الثالث آخر ملوك الميروفنجيين عن العرش ، وتنصيب نفسه ملكاً مكانه . ولعل هذه الثورة تبدو تافهة ، نظراً لأن ببين الثالث كان يحكم المملكة فعلا باعتباره رئيس البلاط ، على أنها من جهة أخرى كانت بالغة الأهمية ، لما كان لها من تأثير في الفكرة العامة عن الملكية .

وما كان من ارتقاء الكارولنجين العرش ، يعتبر أمراً بالغ الأهمية ، إذ لم يكن لهذا الموضوع قيمة عند الميروفنجيين ، لأن الملوك عندهم يولدون ملوكاً ، فكان

---

(١) حدث عقب وفاة شارل مارتل سنة ٧٤١ ، أن اشترك ولداه ، كارلومان ، وببين القصير (الثالث) في الحكم . غير أن التجاء كارلومان إلى الدير سنة ٧٤٧ ، هيأ الفرصة لأن ينفرد ببين بالحكم ، ويقطع الصلة التي تربط بين رؤساء البلاط والميروفنجيين .

الشخص عندهم ملكاً ، متى كان ابناً معترفاً به لأحد الملوك ، وكان يتخذ لقب ملك ، حتى أثناء حياة أبيه ، وقبل أن يصير فعلا ملكاً . ولذا لم يجر الاحتفال بالتتويج أو الرسامة ، وكل ما يفعله الملك الميروفنجي أن يفرض يمين الولاء على رعاياه . فلم يكن يدين بملكيته إلى تهليل الشعب ، بل إلى حقيقة أنه ينحدر من ميروفيوس ، الذي يرجع أصله إلى إله البحر العظيم ، ولذا جرى الاهتمام بشعر الملك الطويل ، فلا ينبغي أن يقص إلا إذا فقد ملك سلطانه كرهاً .

ولذا كان واضحاً أنه لم يكن بوسع ببين الثالث أن يكون ملكاً ، دون أن يساعده تدخل سلطة بالغة القوة ، وهي التي تتمثل في البابوية . ولذا أرسل ببين سفارة إلى البابا زكريا يسأله : « أليس من حق الشخص الذي بيده السلطة ، أن يكون له أيضاً لقب الملك؟ » وقرر البابا أن ذلك هو الذي كان حادثاً ، وكتب رأيه ، حتى يكون سنداً للسلطة . وعندئذ دعا ببين مجلس النبلاء إلى الانعقاد في سواسون ، سنة ٧٥١ ، حيث أعلن : « أنه وفقاً لأمر البابا ، تقرر أن يعرف باسم ملك الفرنجة ، وأن يرسمه بيده (يمسحه بالزيت المقدس) لهذا المنصب ، جليل الشأن ، القديس بونيفاس ، ووفقا لعرف الفرنجة ، جرى رفعه إلى العرش في في مدينة سواسون .

والواقع أن ترتيب الأحداث الواردة في هذا النص يعتبر بالغ الأهمية ، إذ يشير أولاً ، إلى أن النبلاء منحوا ببين لقب ملك ، ثم قام القديس بونيفاس برسامته ملكاً ، ثم تولى نبلاء الفرنجة آخر الأمر رفعه إلى العرش ، وبذا حاز مملكة الفرنجة . وإذ ظفر ببين بالانتخاب من بعض النواحي ، فإنه يعتبر أيضاً ملكاً بفضل الله . فما قامت به الكنيسة من رسامته بالزيت المقدس ، يحاكي ما تقوم به من رسامة الأسقف ، وحاز ببين بذلك من السلطة ما لم يمتلكه من قبل ، إذ صار شخصاً مقدساً ، وأضحت ذريته ، كما عبر البابا ، سلالة مقدسة ، وكهنة ملكيين .

واختلف الكارولنجيون أيضاً عن أسلافهم الميروفنجيين في أنهم كانوا ملوكاً

مسيحيين بمعنى الكلمة ، لأنهم يدينون بملكيتهم للبابا . و كان القوط الغربيون باسبانيا ، الشعب المتبربر (الجرماني) الثـــاني ، الذي سبق أن حظي بعطف الكنيسة ،بعد أن تحول إلى الكاثوليكية ، غير أن المسلمين استولواعلى مملكتهم، وترتب على ذلك أن صار للفرنجة ، زمن الكارولنجيين، أن يعتـــبروا أنفسهم الشعب المسيحي . وحدث في شتاء ٧٥٣ — ٧٥٤ أن لجأ إليهم البابا ستيفن الثاني، فراراً من اللومبارديين. وفي منتصف صيف سنة ٧٥٤ ، قام ستيفن من جديد بتتويج ببين الثالث ، وولديه شارل وكارلومان ، وذلك بكنيسة سان دنيـــه بالقرب من باريس . وحرّم البابا بصفة رسمية على الفرنجة أن يختاروا ملكاً إلا من جنس ببين المقدس ، ومنح ببين وولديه لقب بطريق الرومان[١] .

ولم يكن التحالف بين البابوية والأسرة الكارولنجية موضع غرابة ، إلا في ناحية واحدة . ذلك أن شارل مارتل ، حاز صيتاً لا يحسد عليه ، بما لجأ إليه من انتزاع أراضي الكنيسة ، وتوزيعها على أتباعه وفرسانه . ومع ذلك فإن ببين الثالث وأخاه كارلومان ، ولدي شارل مارتل ، عقدا الصلح مع الكنيسة (٧٤٢–٧٤٤) ، وتم الاتفاق على تسوية مشكلة الأراضي التي نزعها والدهما من الكنيسة. فمن الناحية النظرية ، ينبغي إعادة هذه الأراضي إلى الكنيسة ، غير أنه من الناحية العملية ، تم الاتفاق على أن يحتفظ بهـــذه الأراضي للانفاق منها على الأتباع والفرسان ، طالما ظلت مملكة الفرنجة مهددة بالأخطار الخارجية ، ومنها خطر المسلمين . وهذا معناه ، أن الكنيسة لم تسترد شيئاً من أراضيها التي فقدتها ، بل رضيت بالأمر الواقع ، لأنهـا أدركت أنهـا إذا لم تحصل على المساعدة من قبل مُدافع قوي ، فإن العالم المسيحي في الغرب سوف يهوى تحت ضربات موجة أخرى من المغيرين . وإذا لم يتوافر للملك من الأراضي ما يكفي للانفاق على عدد كبير من الفرسان ، فإن مالديه من الفرسان ليس كافياً للدفاع عن المملكة .

---

(١) انظر الملحق ١٢ .

والواضح أن العلاقة بين الكنيسة والأسرة الكارولنجية اتخذت صفة العقد، كالذي كان قائماً بين الكارولنجيين وأتباعهم . وقبل ببين الثالث وكارلومان القيام بإصلاح كنيسة الفرنجة مقـــابل ماصار بحوزتها من أراضي الكنيسة . وتولى هذا الإصلاح ، القديس بونيفاس ، وهو رجل انجليزي وهب حياته لتحويل الجرمان إلى المسيحية ، ووفقاً للتقليد الذي وضعه البابا جريجوري الأول لانجلترا، اعتقد بونيفاس أنه لابد لكنيسة الفرنجة أن تخضع للبابوية .

وسبق الإشارة إلى أن أساقفة مملكة الفرنجة كان يعينهم الملك، ورئيس البلاط، ولذا كانوا أشد اهتماماً بمصالح الفرنجة لا بمصالح البـــابوية ، ولم يخضعوا لسلطة رؤساء الأساقفة الذين نصبهم البابا ، فتعرضت الأسقفيات لما فرضه شارل مارتل من صفة علمانية ، وظلت أسقفيات عديدة شاغرة ، وانصرف رجال الدين إلى اللهو والعربدة والانغماس في شرب الخمر. وتجرأ اللصوص على نهب الكنائس ، واستولى النبلاء على أوقافها ، ولم ينصلح الأمر إلا بعد أن لقي القديس بونيفاس المساندة من ببين الثالث ، الذي كان يأمل أن يهيء الله من أوقات السلام والفراغ، ما يدعو إلى أن تستأنف الكنيسة زعامتها الروحية والثقافية . ففي سنة ٧٤٧ أعلن الأساقفة الفرنج أنهم سوف يؤيدون العقيدة الكاثوليكية ووحدتهـــا ، ويخضعون لكنيسة روما حتى آخر يوم في حياتهم ، ويكونون رعايا للقديس بطرس وقسيسة (البابا) ، ويعقدون مجامعهم كل سنة ، وسوف يحصل المطارنة على تقليد وظائفهم من المقر الرسولي (البابا) . والمعروف أنه سبق للكنيسة أن تنازلت عن جانب كبير من أراضيها ، على أنهـــا حصلت مقابل ذلك على الحرية في تنظيم إدارتها والاعتراف بسلطة البابا .

كان ذلك ما حدث أيضاً فيما يتعلق برسامة ببين ملكاً ، إذ قدم البابا استيفن الثاني ، وقام بتتويج ببين الثالث ، وولديه شارل (الكبير) وكارلومان ، (٢٨ يوليه سنة ٧٥٤) ، ومسحهم بالزيت المقدس وجعل سلالتهم في حمـــاية

القديس بطرس، «إذ أن الكرسي الرسولي أمر الأمة جميعها بألا تنتخب ملوكها منذ الآن من أية أسرة أخرى ، وجعل القطع والحرمان لمن يخالف هذا الأمر».

والتزم ببين مقابل ذلك بالدفاع عن الكنيسة وحمايتها من ايستولف ملك اللومبارديين ، الذي حاول مد سلطانه إلى دوقية روما . وهذا هو السبب الذي دعا ببين إلى أن يسوق جيوشه إلى إيطاليا سنة ٧٥٥ .

وعلى هذا النحو ظهرت الأسرة الكارولنجية بعد أن مضت عشر سنوات على ولادة شارلمان ، وقبل أن يـلي الحكم بست عشرة سنة .

ملحق ٩

قيام ارستقراطية ملاك الأراضي

مقـــدمة

فيما يلي معاهدة انعقدت بين اثنين من ملوك الميروفيجيين ، جونترام ملك برجنديا ، وشلدبرت الثاني ، ملك استراسيا ، وهي تشرح ما اتخذه الملكان من إجراء ببذل الأراضي لاتباعها وموظفيها . وتعتبر هذه المعاهدة بالغة الأهمية في قيام أرستقراطية ملاك الأراضي :

* * *

وفقاً لما انعقد من معاهدات بين جونترام[1] وسيجبرت ذوي الذكرى العاطرة ، تم الاتفـــاق على أن من بذل من أولئك الأتباع يمين الولاء للملك جونترام ، بعد وفاة الملك كلوتار الأول ، ثم انتقلوا إلى أراضي أخرى ، ينبغي أن يعودوا من الأراضي التي يحلون بها الآن . وتم الاتفاق أيضاً على أن أولئك الذين أقسموا يمين الولاء لسيجبرت ، بعد وفاة كلوتار الأول ، فانتقلوا بذلك إلى بلاد أخرى ، ينبغي أن يعودوا على النحو الذي سبق الإشارة إليه . وعلى هذا القياس ، ما بذله الملكان اللذان سبق ذكرهما ، أو أرادا ، برضى الله ، أن يبذلاه من الأراضي للكنائس ورعاياهم المخلصين لهم ، ينبغي أن يبقى بحوزة الكنائس أو الرعايا . وكل ما صار بهذه الوسيلة قانوناً وعدلاً لأحد رعايا كل من الملكين ، ينبغي أن يبقى بيد ذلك

---

(١) أنظر الملحق ١١ .

الشخص على أنه ملك له . وينبغي أن يطمئن كل شخص على ما حازه من نعم الملوك السابقين ، حتى وفاة كلوثار الأول وكل ما جرى انتزاعه من الرعية منذ ذلك الحين ، لا بد من رده إليهم على الفور . وتم الاتفاق أيضاً أنه لا يجوز لأحد من الملكين أن يغوي أتباع الملك الآخر ، ولا أن يقبلهم عنده . أما إذا اعتقد بعض الأتبـــاع أن لديهم من الدواعي ما يحملهم على التخلي عن ملكهم ، لما أنزله بهم من الأضرار ، فلا بد من تعويضهم عن هذه الأضرار وإعادتهم .

ملحق ١٠

منح الحصانة (الإعفاءات) لأحد الاديرة

سنة ٦٧٣

شلدريك ، ملك الفرنجة ، المعظم :

ليكن معلوماً للجميع ، أن رئيس الدير ، برشار التقي المبجل ، قدم إلينا وطلب منا أن نمنحه مكاناً في غابة فيرفو Vervo ، في غسقونيا ، حتى يقيم عليها ديراً ، وأن نقدم له من المواد والموارد ، ما يساعده على إنشاء دير بذلك المكان، وإقامة جماعة من الرهبان . وإذ لقي طلب هذا الرجل العظيم منـــا القبول ، منحناه كل ما طلب . ولما أتم بناء هذا الدير ، تذ كاراً للقديسين بطرس وبولص وسائر القديسين ، التمس منا أن نبذل للدير حصانة ، حتى يتوافر الأمن لكل المشروع . وإذ دفعنا لهذا ما حبـــانا الله به من العطف ، استجبنا لتوسلات هذا الرجل . وبموافقة الأساقفة والنبلاء ، جعلنا لكل ما يحوزه الديرمن أملاك حصانة كاملة ، التماساً لسلامة مملكتنا ، ولما نكنه من الإجلال لهـــذا المكان المقدس .

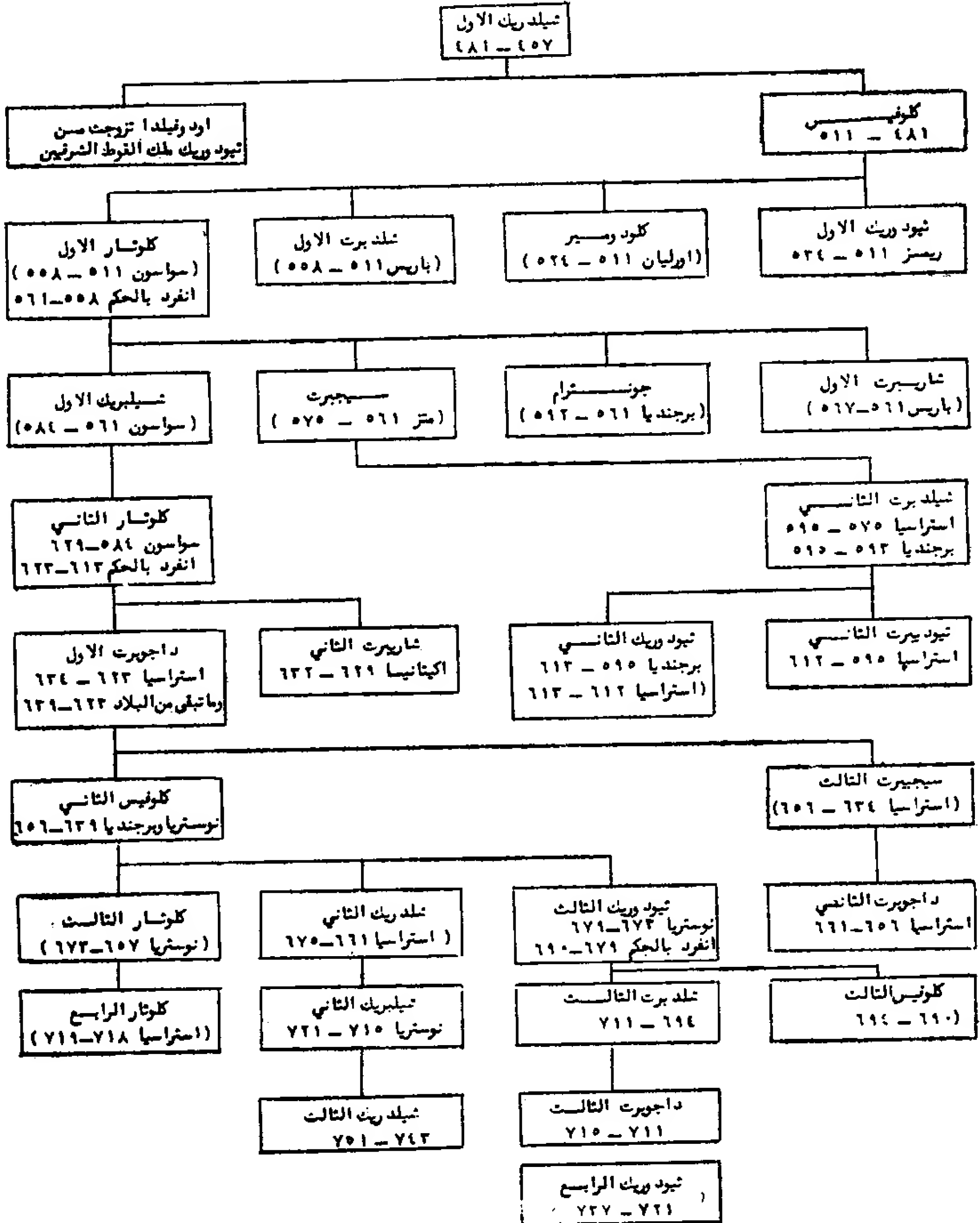
ولذا أمرنا أنه ليس لموظف عام ، ولا لأية سلطة الحق ،في أن يدخل أراضي الدير ،للنظرفي القضايا ، أو إلقاءالقبض على الضمناء أو الكفلاء أو لجبايةالضرائب ،

أو لالتماس الضيافة ، أو انتزاع رسوم وضرائب من المدن ، أو الأسواق. وليس له الحق في أن يبتز الضرائب والأجور أياً كانت ، بل أن الرهبـان هم الذين يحكمون ويملكون ، في زمننا وفي المستقبل ، كل أملاك هذا الدير في جميـع المواضع والأراضي ، التي يحوزون بها من الأملاك ما سبق الإشارة إليه ، دون أن يتعرضوا لتدخل الموظفين ، أو لما يتحصل من الضرائب باسم الخزانة الملكية .

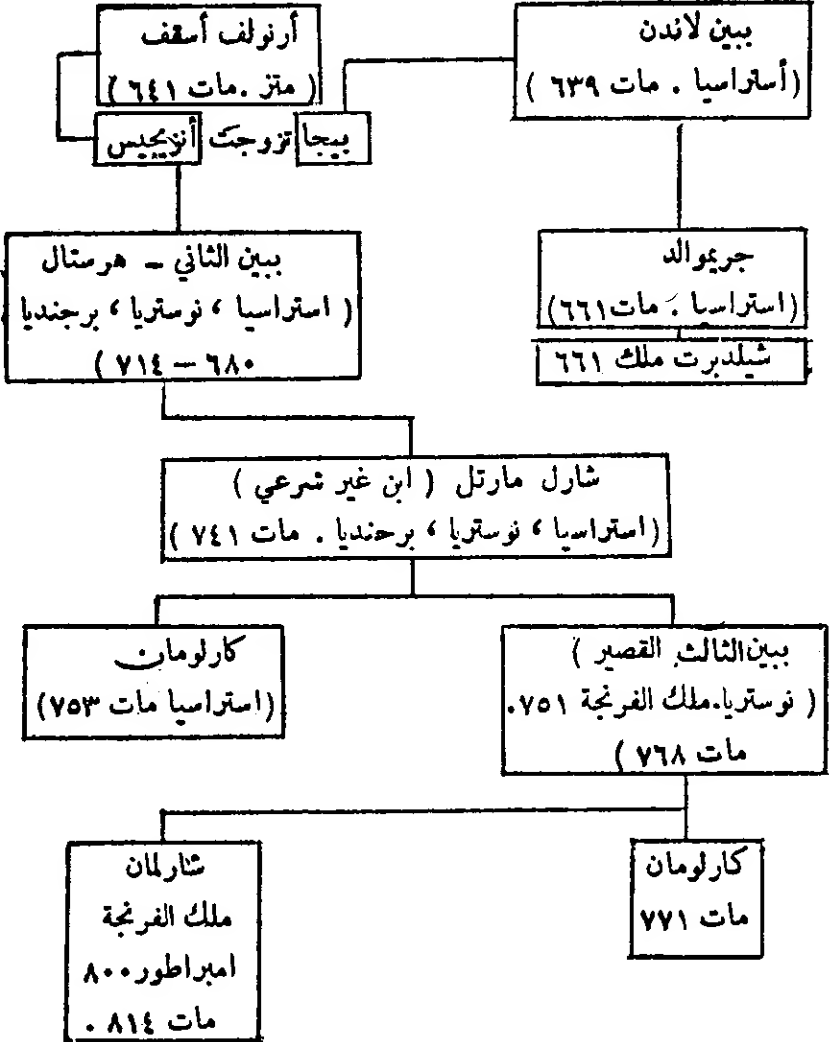
ملحق ١١ ر

أنساب ملوك الفرنجة

أولاً ـ الأسرة الميروفنجية



ثانياً – رؤساء البلاط



ملحق ١٢

ببين الثالث والبابا ستيفن الثاني

٧٥٣ – ٧٥٤

المعروف أن اللومبارديين دخلوا إيطاليا سنة ٥٦٨ ، ولم يلبثوا أن استقروا في وادي نهر البو . وما احرزوه من انتصار ، زاد من طموح الملوك اللومبارديين ودعاهم إلى إعداد الخطة لفتح إيطاليا ، فاستولى الملك اللومباردي ايستولف على رافنا سنة ٧٤٩ ، وطرد منها الأرخون (نائب الأمبراطور البيزنطي) ، وبذا قضى على الحكم البيزنطي في وسط إيطاليا . ثم تلى ذلك مهاجمة البندقية واستريا ، ودوقيات روما وسبوليتو وبنيفنتو ، غير أنها اتحدت في مقاومة عدوها المشترك (اللومبارديين) ، وجعلت نفسها في حماية البابا . هذه الأحوال هيأت الفرصة للبابا ستيفن الثاني (٧٥٢ – ٧٥٥) لأن يوحد كل هذه الأقاليم ، ويجعل من نفسه حاكماً سياسياً عليها . ولذا توجه إلى فرنسا (غاله) ، وظفر بوعد من ببين ، بأن يجعل له ما سبق الاشارة إليه من الأراضي ، وأن يرغم اللومبارديين على الانسحاب من هذه الأراضي ، وأن يعودوا إلى البلاد التي احتلوها أول الأمر. على أن ببين أوفى بجانب واحد من وعده ، وقنع البابا ببعض المدن ، وبوعد ايستولف بأنه لن يهاجم ما انطوى عليه وعد ببين من البلاد .

ولما علم الملك (ببين) بقدوم البابا المبارك ، بادر باستقباله ، وقد صحب زوجته وابناءه ونبلاءه ، وأرسل ابنه شارل (شارلمان) وجماعة من النبلاء ،

ليسبقوه بنحو مائة ميل ، لاستقبال البابا . أما ببين فانه استقبل البابا على مسافة ثلاثة أميال من قصره في بونتيكو Pontico ، وقد ترجل عن جواده ، وقد انبطح على الأرض هو وزوجته وابنائه ونبلائه ، ثم سار مسافة قصيرة مترجلا إلى جانب سرج فرس البابا ، كما لو أنه سائسه .

وعلى هذه الصورة مضى موكب البابا مع الملك إلى البلاط ، يهللون بالتسبيح لله باصوات مرتفعة ويرددون الترانيم والأناشيد الدينية . هذا ما حدث في اليوم السادس من شهر يناير ، يوم عيد غطاس السيد المسيح عيسى . ولما استقر بهما المقام في القصر ، تضرع البابا وقد امتلأت عيناه بالدموع ، إلى الملك أن يعقد معاهدة مع مقر القديس بطرس وامارة روما ، ويتولى حماية مصالحها . وتعاهد الملك بمقتضى يمينه أنه سوف يبذل كل ما في وسعه من قوة لأن يستجيب إلى دعواته ومواعظه ، وأن يسترد أرخونية رافنا وكل ما لإمارة روما من حقوق وأراضي حسبما أراد البابا .

وبعد أن تلقى الملك (ببين) من البابا المواعظ والدعوات ، استأذن منه ، وسار إلى موضع اسمه كيرسى (Kiérsy) في ابريل ٧٥٤ ، ودعا كل سادة مملكته للقدوم عليه بهذا الموضع ، فكرر لهم توسلات البابا ، وحثهم على أن يوافقوا على تحقيق ما بذله من وعد للبابا .

الفصل التاسع

شارلمان

٧٦٨ — ٨٤٠

شارل وكارلومان

يعتبر عهد ببين القصير (الثالث) ، مدخلاً لعهد ابنه ، أما المفتاح الأساسي لكلا العهدين ، فتلتمسه في التحالف الذي تم مع الكنيسة في مملكة الفرنجة ، ومع كنيسة روما . والمعروف أن ببين الذي اشترك مع أخيه كارلومان في رئاسة البلاط باستراسيا (٧٤٢ — ٧٤٥) ، التمس صداقة القديس بونيفاس ، فشجع مشروعاته التبشيرية ، وأفاد من حماسه لتنظيم وتهذيب رجال الدين من الفرنجة . وظلت مصالح الكنيسة تحتل المكانة الأولى في خطط ببين ، بعد التجاء أخيه كارلومان إلى دير مونتي كاسينو . ولقي مقابل ذلك مكافأة سنية ، حين أجاز له البابا زكريا أن ينتزع ، سنة ٧٥٠ ، اللقب الملكي من آخر ملك ميروفنجي . وما حدث سنة ٧٥٤ من تتويج ببين وولديه ومسحهم بالزيت المقدس لم يكن مجرد تصديق من البابوية على ما حدث فعلاً ، بل كان بوحي منها . فالراجح أن البابا ستيفن بموافقة الأمبراطور البيزنطي قنسطنطين كوبرنيموس (الخامس) دعا ببين إلى القدوم إلى إيطاليا ، فأفاد منه في استرداد أرخونية رافنا من يد ايستولف ملك اللومبارديين ، ومنحه لقب بطريق . وباعتباره بطريقاً، أصبح

الملك ببين من الناحية الرسمية من موظفي الأمبراطورية . ولعل الأمبراطور قنسطنطين توقع أن يجد في ببين خادماً طيّعاً ، يقنع بأن يحتل المكان الذي كان يشغله نواب الأمبراطور في ايطاليا. على أن البابا قصد أمراً آخر ، إذ اعتبره نصيراً وحامياً لكرسي روما الرسولي ، من دعاوي الأمبراطورية البيزنطية في السيادة ، وليدرأ به الخطر اللومباردي. وما قام به ايستولف من اعتداءات جديدة ، حملت ببين على أن يسوق جيوشه لغزو مملكة اللومبارديين ، واستعادة أرخونية رافنا ، ومنح كل ما استولى عليه من المدن هبة للبابوية ، ولم يحفل بحقوق الأمبراطور البيزنطي ، فأسهم بذلك في تحطيم الصلة الواهية التي تربط الشرق البيزنطي بجمهورية روما في الغرب ، وأتمت البابوية هذا الانفصال . وهذه الهبة التي تعرف بمنحة ببين ، ليست إلا تصديقاً على منحة قنسطنطين الكبير ، التي تعتبر مزورة ، والتي لم تظهر إلا في ذلك الوقت : وتنطوي منحة قنسطنطين[1] على الاعتراف بالبابا بأنه ممثل المسيح على الأرض ، وعلى خضوع كل الأساقفة للبابا ، وتنازله للبابا عن القصر الامبراطوري في اللاتران ، وحكومة روما ، وكل ايطاليا . والراجح أن ببين لم يدرك مدى دعاوي البابا ومطالبه ، غير أنه من الواضح ان البابا كان على الأقل يلتمس مدافعاً يستطيع أن يخلصه من اللومبارديين[2] .

(١) الراجح أن الوثيقة التي تنطوي على هذه المنحة جرى وضعها بين سنتي ٧٥٠-٧٦٠ . إما قبل رحيل البابا ستيفن الثاني الى غاله لتتويج ببين ملكاً على الفرنجة ، واما بعد عودته الى ايطاليا ، بعد أن تكونت الأمارة البابوية . وبمقتضى هذه المنحة ، صار لأسقف روما ، كل ما للامبراطور ، بعد أن استقر في القسطنطينية ، من سلطات . وإذ أضحى البابا سيداً على روما ، المدينة الامبراطورية ، وصار فعلاً امبراطوراً بما حازه من رسوم ورموز الامبراطورية ، صار خليفة بطرس وسيلفستر (البابا الذي أوصى له قنسطنطين بادارة غرب أوروبا) يمثل شعار السيادة ورمزها في شطر من الامبراطورية الغابرة ، وظلت نتائج منحة قنسطنطين قروناً عديدة تمثل فكرة الامبراطورية في الغرب.

(٢) ما حدث من تعرض بيزنطة لغارات المسلمين في الشرق ، تطلب حشد كل قواتها لمواجهة الخطر الاسلامي ، ولم يعد بوسع بيزنطة أن تستغني عن العساكر اللازمة للدفاع عن رافنا وبقايا الأملاك البيزنطية في ايطاليا . وحاول البابا جريجوري الكبير وأخلافه ، أن يتولوا حماية =

مـات بين سنة ٧٦٨ ، فاقتسم الملك ولداه شارل وكارلومان ، واختص شارل الذي كان وقتذاك يناهز السادسة والعشرين من عمره ، بحكم استراسيا ، والشطر الأكبر من نوستريا ، وما يتبـع ذلك من الأراضي الواقعة بين نهري اللوار والجارون ، على حين أن كارلومان الذي كان في السادسة عشرة من عمره حازبرجنديا وبروفانس والألزاس ، والبانيا،والجزء الجنوبي الشرقيمن اكيتانيا. وشمل نصيب كل من الأخوين ، أراضي رومانية وأراضي تيوتونيـة (جرمانية) .

ولد شارل سنة٧٤٣ونشأسليماًقوياً،وورد فيماكتب عنه من القصص،أنهبلغ من القوة،أنه يستطيـعأن يصيدالثور البري بيد واحدة ، وبلغ من البأس والشدة أنه أسقط حصاناً وراكبه بلطمة واحدة من يده . واشتهر بجبهته العريضة وأنفه الشبيه بمنقار النسر،وبعينين كعيني الأسد،وقددرجعلى أن يتخذ منالباسما كان معروفاً قديماً عند الفرنجة ، واحتقر كل ما هو أجنبي من الملابس . أحب لغة اقليمه استراسيا وأناشيده . ويضاف إلى ذلك ما اتصف بـه شارل من نشاط وافر ، وإرادة حديدية ، وحب شديد للنظام والعدالة ، وشعور ديني عميق ، واعتبره بعضمعاصريه شديد الصلابة ،أما الذين توثقتعلاقتهم به فاشتد حبهم له.

= دوقية القديس بطرس ، دون الالتجاء الى مساعدة من الخارج، وظفروا بقدرمنالنجاح ، لم يتوقعوه . غير أنه حدث في منتصف القرن الثامن أن أضحى للومبارديين من القوة ما لم يكن بوسع البابوات مناهضتها ، فغدت البابوية في حاجة ماسة إلى من يدافع عنها ، ولا بد أنتلتمس هذا المدافع منخارج ايطاليا ، نظراً لما سادايطالياوقتذاكمنتصادم مطامع القوىالمستقلةبها.ولذا لجأ ستيفن الثاني إلى الفرنجة ، لما اتصفت به مملكتهم بأنها مسيحية ، وانها ليست ايطالية، وتوافر بها من القوة ما يكفي لحماية البابوية ، وكانمن صالحستيفن أنيزيد في قوةسلطانالكارولنجيين، بأن يبذل لهم الملكية . فتحالف معهم ، وجعل منهم ملوكاً . وكان لزاماً عليهممن جانبهم أن يكونوا مخلصين في خدمة البابوية ، وأن يعيدوالأمارة روما ما ضاع من أملاكها وحقوقها ،ولذا قام هذا التحالف على المصالح المتبادلة شأنه في ذلك شأن عقد التبعية . وكان هذا الاجراء نموذجاً اتخذه شارلمان في مملكته.

وعلى الرغم من كراهية السكسون له ، بسبب ما أنزله بهم من ضربات عنيفة ، فإنه كان عندهم خير رجل على وجه الأرض وأشجع الناس جميعا ، إذ أقام الحق والإيمان وحافظ عليهما . ولذا يعتبر شارلمان أهم ملوك الفرنجة على وجه الإطلاق.

وإذ مات كارلومان سنة ٧٧١ ، ظل شارل ينفرد بحكم المملكة حتى وفاته سنة ٨١٤ . ويعتبر حكم شارل طويل الأمد ، من أهم مراحل تاريخ أوروبا . وأعقب المرحلة التمهيدية الطويلة التي استغرقها تشكيل أوربا ، والتي اندمجت في أثنائها الشعوب الرومانية والجرمانية ، وامتزجت سوياً لغاتهـا ونظمها ، واتخذت خلالها النظم الغربية الهامة ، كالبابوية والديرية ، صورتها الأخيرة ، أن قام شارل فيما يبدو ، بأن يجري بينها من التنسيق والتنظيم ، ما يجعلها تتخذ صبغة واحدة .وكان من وراء شارل ، ما جرى عليه الفرنجة من سياسة التوسع التي ترمي إلى أن يدخل في دولته كل الجرمان ، وحرص شارل على أن يمضي في هذه السياسة حتى يكتمل تحقيقها ، فتاخمت اطراف امبراطوريته بلاد الصقالبة ، وامبراطوريتي البيزنطيين والمسلمين . واستند شارل أيضا إلى سياسة التعاون والتحالف التي اتخذها الفرنجة مع البابوية ، والتي أدت إلى إعادة قيام الأمبراطورية الرومانية في الغرب ، الذي تركزت فيه . وأفاد أيضاً من السياسة التي ترمي إلى إصلاح الكنيسة ، وهي التي استهلها بونيفاس ، والتي بلغ من تشجيع شارل لها أن رسخ في الغرب ، بفضل رجال الدين ، الإحياء الفكري الصادق . والواقع أن الأسس الدائمة التي قامت عليها أوربا المسيحية الجرمانية الرومانية استقرت أثناء تلك السنوات .

حروب شارل :

يعتبر عصر شارل سجلا زاخراً بالحروب التي قصدبها مد أطراف امبراطوريته ، أو تأمين حدود بلاده والدفاع عنها ، أو تحويل الوثنيين إلى المسيحية . وما أحرزه شارل من النجاح والظفر في هـــذه الحروب ، أكسبه ما اشتهر به من

التسمية « شارل الكبير » أوشارلمان » . وبلغت حملاته الحربية أربعاًوخمسين، توالى قيادتها شارل ، أو أبناؤه ، أوقادته[1]

١ - الحروب مع اللومبارديين

تحكم في العلاقات بين الفرنجـــة واللومبارديين والبـــابوية ، ما وقع من الأحداث في سنة ٧٥١ ، وما تلاها من السنوات . أضحى لشارلمان ، عن طريق الوراثة ، السيادة على اللومبارديين وحماية الأمارة البابوية ، ولقب بطريق الذي اتخذه أبوه ببين . على أنه حدث في مستهل حكمه أن تعرضت هـــذه العلاقة للاضطراب ، نظراً لإقدام شارل على الزواج من ابنة ملك اللومبارديين ، فاشتد غضب البابا ستيفن الثالث ، الذي أعلن أن هذا الزواج ليس إلا من وحي الشيطان ، فليس اللومبارديون إلا شعباً كريهاً ، منبوذاً من جميع الأقوام ، ويعتبرون مصدر البرص والجذام . على أن هذا الزواج لم يزد عمره على سنه ، إذ أعاد شارل زوجته إلى والدها ملك اللومبارديين ، فتوثقت العلاقة بين شارل والبابا هادريان الأول الذي خلف ستيفن في المقر الرسولي .

ولما هاجم الملك اللومباردي ديدير أملاك البابا من جديد ، وهدّد روما ، استجاب شارل لنداء البابا ، فهبط بجيوشه على ايطاليا ، واستمر حصاره للعـــاصمة اللومباردية بافيا تسعة شهور ، وأغار على لومبارديا . ثم استولى على الدوقيتين اللومبارديتين ، بنيفينتو وسبوليتو ، وبذا خضعت بلاد اللومبارديين لشارلمان الذي أضحى ملكاً عليهم ، وغدت أملاكه متاخمة للأمبراطورية البيزنطيـــة بجنوب ايطاليا ، ودخل في حوزته أيضاً البندقية وإستريا ، وساحل دالماشيا ، وجزيرة قورسقه .

---

(١) من هذه الحملات ، خمس توجهت لقتال اللومبارديين ، وثماني عشرة لقهر السكسون ، وثلاث لمواجهة الفريزيين والدانمرقيين ، وحملة واحدة إلى ثورنجيا ، وأخرى إلى بافاريا ، وأربع لقتال الآفار ، واربع لمحاربة الصقالبة ، وخمس ضد الفسقونيين ، وخمس لمحاربة المسلمين في اسبانيا وخمس لقتال المسلمين في جنوب ايطاليا ، وحملتان لقتال البيزنطيين ، وحملتان لمواجهة البريتون ،

وفي أثناء حصار بافيا سنة ٧٧٤ ، توجه شارل إلى رومـــا للاحتفال بعيد القيامة ، وكان أول ملك من الفرنجة يدخل حاضرة العالم المسيحي الغربي ،وبلغ الاحتفال به عند دخول المدينة من الروعة والأبهة ما لم يضارعـه الا الاحتفال بقدوم القياصرة الرومان منتصرين ، وقبـــل أن يرتقي درج القديس بطرس ، باعتباره من الحجاج ، ركع على ركبتيه ويديه ، ثم عانق البابا هادريان . وهذه اللحظة تعتبر أعظم اللحظات في حياة شارل ، إذ أن روما عند الفرنجة ، وعند جميـع المسيحيين في الشمال ، كانت مدينة القديسين،يتنزه الإنسان في داخلها عن الأطماع الدنيوية .وأقرّ شارل ، وهو بروما ،منحة ببين.

٢ – شارل والبافاريون

دخلت بافاريا في حوزة دولة الفرنجة رويداً رويداً ، إذ اعترفت أول الأمر بسيادة شارل ، واحتفظت بالاستقلال الذاتي ، تحت سيادة دوقاتها ، كمـــا احتفظت كنيسة بافاريا باستقلالها . وترتب على حروب شـارل في بافاريا ، أن أعلنت اذعانها ، وصار دوقها تاسيلو من أتباع شارل . ولما أعلن عصيانه ،تقرر عزله ، وانزاله بالدير ، ثم تنازل هو وأسرته عن كل مـــا لهم من حقوق في دوقية بافاريا ، وبذا دخلت بافاريا في نطاق مملكة الفرنجة ، التي اضحت تتاخم مملكة الآ فار.

٣ – الحروب مع السكسون

يعتبر السكسون أهم الأقوام الجرمانيـة الذين قهرهم شارل . فما من حرب خاضها الفرنجة ، بلغت من الشدة والعنف والاستمرار ، ومن كثرة النفقات

واستنفاد الجهد ، مثلما بلغته الحروب مع السكسون، لما اشتهروا به من العنف والقسوة ، وانسياقهم لعبادة الشياطين ، وكراهيتهم للمسيحية ، فضلاً عن انتهاكهم كل قانون بشري وإلهي . وظل الفرنجة مايزيد على ثلاثين سنة يبعثون الجيوش إلى سكسونيا ، والتي قاد شارل معظمها . وكلما لاح النصر للفرنجة ، لم يلبث السكسون أن دمروا كل ما احرزوه من مكاسب . ولجأ الفرنجة إلى اتخاذ أشد الاجراءات قسوة وشدة ، ومنها إجراء مذبحة في أربعة آلاف وخمسمائة من السكسون في فردان ، ونقل الألوف إلى بلاد الفرنجة ، واستيطان أعداد كثيرة من الفرنجة ببلاد السكسون لاستغلالها .

وتلى الانتصار على السكسون تنظيم الكنيسة ببلاد السكسون . ورد في قرار أصدره شارل ٧٨٢ ، أنه خير السكسون بين اعتناق المسيحية أو ملاقاة الموت ، وجعل عقوبة الاعدام لكل من يقدم على مخالفة نظام الكنيسة ، فإذا اختفى أحد السكسون ، حتى لا يتنصر ، ولم يستجب للدعوة إلى التنصير ، وأراد الاحتفاظ بالوثنية ، تقرر اعدامه . وكل من استهجن الصيام الكبير فتناول اللحم ، تقرر اعدامه . وقامت أول أسقفية في سكسونيا في بريمن، على يد أسقف انجليزي ، ومن هذه الأسقفية انتشرت المسيحية إلى اسكنديناوة .ثم تلى ذلك قيام اسقفيات في مواضع عديدة بسكسونيا .

وأتمت الكنيسة المسيحية ما بدأته الجيوش من الفتوح، غير أن عملية التنصير التي بدأت بالقتال والحرب ، لم تكتمل إلا بالقوة، إذ لم ينس السكسون وثنيتهم ، وظل أساقفة سكسونيا زمناً طويلاً يجهرون بالشكوى من تعلق رعاياهم بالوثنية . وكيفما كان الأمر ، دخل السكسون في نطاق حضارة ومدنية غرب اوربا ، فاضحت حدود الفرنجة متاخمة للدانمراقيين الوثنيين ، والصقالبة الوثنيين الذين ينزلون وراء نهري الالب والسال .

٤ ـ حكومات الأطراف

ما بدأه كلوفيس من مد أطراف مملكة الفرنجة ، أتمه ما جرى من فتح لومبارديا وبافاريا وسكسونيا ، ولم يبق خارج هذه الأمبراطورية الجديدة من الشعوب الجرمانية سوي الانجليز السكسون ، فضلاً عن السكنديناويين . ومع ذلك فإن الحملات التي توجهت خارج حدود البلاد الجرمانية ، أقامت حلقة من قيادات الأطراف لحماية الحدود من كل ما تتعرض له من غارات خارجية . وأصغر هذا الأطراف ، هو الطرف الدانمرقي ، وهو برزخ يفصل بين السكسون والدانمرقين ، وكان الغرض من اقامته منع الدانمراقيين من بذل المساعدة للسكسون ، ومنه اتخذت مملكة دانمراقة اسمها . وأقام شارل طرفاً في المنطقة التي تقع إلى الشرق من السكسون ، والتي تقطنها قبائل صقلبية اشتهرت باسم الونديين ، وكانت حاضرته مجدبرج . وصار يعرف باسم الطرف القديم (النهارك) Altmark وعلى الحدود الشرقية نشأ طرفان في ثورنجيا وبوهيميا ، أو مورافيا ، وتعتبر ريجنزبرج في بافاريا الحاضرة الادارية لهما . وإذ تحطم الآفار ، وأخذ المحربون يعتنقون المسيحية ، أنشأ شارل الطرف الشرقي لحماية بافاريا من الآفار وطرف فريولي لحماية ايطاليا . هذه الأطراف لم يكن الغرض منها فحسب الحماية من الغارات الخارجية ، بل تعتبر خطوات للمضي في الاستعمار .

٥ ـ شارل في اسبانيا

واكتملت سلسلة الأطراف التي أقامها شارل بإنشاء الطرف الاسباني في الجنوب ، والطرف البريتاني بالشمال . وبعد أن استولى ببين القصير على اكيتانيا ، حرص شارل على أن يقاتل المسلمين في اسبانيا ، لتأمين حدوده الجنوبية .

والواقع أن الذي حمله على مهاجمة المسلمين ، هو اشتداد كراهيته لهم ،وعطفه على القوط الغربيين الذين انتزع المسلمون منهم مملكتهم ، يضاف الى ذلك ما لجأ إليه ملوك اشتورياس وأساقفة طليطلة باسبانيا من أثارة الشعور العدائي ضد المسلمين، وما كان من استعداد شارل لخدمة الكنيسة ، سواء على نهر الالب ، أو على نهر الابرو (اسبانيا) . والمعروف أن المسيحيين في اسبانيا لم يتعرضوا لشيء من الاضطهاد من قبل المسلمين، بل احتفظوا بكنائسهم،وزالت طبقتهم الارستقراطية ، وجرى إعفاء رجال الدين من الضرائب ، ولم يتعرض الرقيق وصغار الملاك والصناع لشيء من الإهانة ، ونعموا بالسعادة والرضى ، بل انهم صاروا في أحوال كثيرة يعلنون صراحة أنهم يؤثرون حكم المسلمين . واغتنم شارل ما حدث من الفتن في اسبانيا ، وقدوم بعض الساخطين على حكم عبد الرحمن الأموي ، لاستعدائه عليه ، غير ان حملته التي قام بها سنة ٧٧٨ تعرضت لهزيمة ساحقة ، وهي التي ارتبطت بانشودة رولان التي تعتبر المصدر الأول للملاحم ، وترجع أسباب الهزيمة إلى أن الغسقونيين سكان جبال نافار ، نصبوا كميناً لموخرة جيش شارل، وقطار الدواب التي تحمل الأمتعة ، وأمعنوا في النهب والتخريب ، وقتلوا بعض كبار رجال البلاط ، ورولان متولي حكومة بريتاني. على أن الاقليم الواقع بين جبال البرانس ونهر الإبرو ،أضحى بعد شارل ، الطرف الاسباني لمملكة الفرنجة .

السياسة الداخلية

النظام الاداري

غلبت الصفة الجرمانية على الادارة التي سيرت الأمور في امبراطورية شارل الشاسعة مثلما كان معروفاً زمن الميروفنجيين . إذ استمر ما كان معروفاً من النظم الجرمانية ، فتولى الكونتات ادارة حكومات الأقاليم،

بينها خضعت حكومات الأطراف ، حيث كان الدفاع بالغ الأهمية،للمار كيزات Margraves ، المشتقة من لفظة mark (الطرف) ، graf (كونت) ، وبقى أيضاً ما اختصت به الأجناس المختلفة من قوانين ، فضلاً عن المجالس السنوية . وكان للكونت زمن الكارولنجيين من المكانة العالية ما كان للكونت زمن الميروفنجيين ، بما كان له من اختصاصات عسكرية ومالية وقضائية ، ودخل نظام الكونتيات في البلاد التي خضعت للكارولنجيين أمثال ايطاليا وبافاريا وسكسونيا . وتقرر الغاء وظيفة الدوق التي تجعل لصاحبها النظر في الأمور القبيلية ، كما اختفت أيضاً وظيفة رئيس البلاط . وصار للكونت مساعدون ،أمثال الفيكونتات ،ورؤساء المئينات التي انقسمت اليها الكونتية . وما هو أهم من ذلك ، لا زال الطابع الشخصي لحكم الفرنجة قائماً ، فالامبراطور لا زال الزعيم التيوتوني المحارب ، يلتف حوله رفاقه المحاربون ، الذين ربطتهم اليه الخدمات المتبادلة . فقد يكلف كونتات البلاط بقيادة الجيوش على الحدود ، ويشرف صنجيل على المطابخ الامبراطورية ، ويتوجه الساقي في سفارة دبلوماسية الى دولة من الدول . كما أن أبناء شارل يعتبرون فعلاً ملوكاً على أقاليم الأمبراطورية ، غير أنه كان من العسير الاطمئنان الى ولاء هذا العدد الكبير من الموظفين ، وكان لزاماً على شارل أن يحبط مؤامرات عديدة تدبر ضده .

النظام المالي

إما الإدارة المالية فكانت تتسم أيضاً بالسذاجة والبدائية . فما كان معروفاً عند الرومان من نظام للخدمات العامة زال واختفى زمن الميروفنجيين ، فاتخذ نظام الضرائب أبسط الصور ، التي لم تتعد الرسوم المقررة على قوارب عبور الطرق المائية ، والرسوم التي تؤدي عند اجتياز الجسور ، أو السلع التي تباع بالأسواق ، أو ما يؤخذ عن الطحين ، فضلاً عما يؤدي من الخراج عن حيازة الأراضي ، يضاف الى ذلك ما يجري من التكليف بصيانة الطرق والجسور ،

وضيافة رجال الأمبراطور . وما ورد في مرسومات شارل من لوائح تفصيلية لتنظيم التجارة ، وضبط الأسعار ، وتوحيد النقد ، وتحريم الربا ، وتقرير العقوبات على المخالفين ، كل ذلك كان مستمداً من تعاليم الكنيسة ، غير أن لا يحجب عنا الحقينة الهامة ، وهي أن أساس مالية الدولة هنا وعند سائر الأمراء الجرمان ، لا زال يعتبر مالية الملك الخاصة . فأساس الدخل مستمد من انتاج الضياع الملكية ، ويضاف اليه ما يتحصل من الغرامات ، والمصادرات ، وغنائم الحرب ، والهدايا الاجبارية ، وبذا كافأ الزعيم التيوتوني المحارب أتباعه بما يبذله لهم من الأراضي ، ومن حقوق ممارسة القضاء وجباية الضرائب فيما يعتبره ملكاً خاصاً له .

النظام القضائي والعسكري

يعتبر القضاء والجيش أهم الخدمات واكثرها قسوة وارهاقاً . استمر ما كان معروفاً من قبل ، من التزام كل فرنجي حر بأن يشهد المحكمة التي يعقدها الكونت أو نوابه ، وإذ استدعاه الكونت للحضور الى المحكمة ، لابد أن يأتي بكامل سلاحه ،وأن يكون مستعداً للخدمة العسكرية.على أن حملات شارل التي تكاد لا تنقطع ، وتوجيهها إلى أماكن نائية ، جعل من هذا الالتزام ، ومن استمرار حضور جلسات المحاكم عبئاً ثقيلاً على الفلاح الصغير ، وهذا هو السر في أن الرجل الحر الذي كاد يعيش على الكفاف تنازل طوعاً عن حريته ، وقبل أن يكون رقيقاً ، فانتقلت الالتزامات القضائية والعسكرية إلى آخرين بوسعهم أن يباشروها ، وحاول شارل أن يخفف وطأة هذه الأحوال بما اصدره من تشريعات .

فيما يتعلق بمحاكم الكونتية التي تنظر في الجرائم الكبيرة ، تقرر الاقتصار

على انعقادها ثلاث مرات في السنة ،بينما تقرر اعفاء الرجال الأحرار من حضور المحاكم التي تنظر في جرائم اقل خطراً وشأناً . وما كان معروفاً من قبل من اختيار سبعة من بين الأحرار الذين يشهدون المحكمة ليؤدوا في كل جلسة عمل المحلفين ، لم يلبث أن تغير هذا النظام ، زمن شارل ، لما اشتهر به هؤلاء المحلفين من الجهل بالقانون ، والخوف من الكونت ، والعجز عن تحمل المسئولية ، فلم يراعوا العدالة ، ولم تكن أحكامهم سليمة . ولذا تقرر تشكيل هيئة مؤلفة من سبعة قضاة Scabini يتولى الكونت اختيارهم من بين سكان الكونتية ، لما اشتهروا به من السمعة الطيبة ، والدراية بالقانون ، ويظلون بوظائفهم مدى الحياة . غير أن الشكاوي اظهرت أن هؤلاء المحلفين لم يكونوا خيراً من سابقيهم ، وأضحى لزاما على الكونت أن يسترد حقه في إلغاء ما يشاء من أحكامهم. وكيفما كان الأمر ، لا تعمل المحاكم الوطنية على النحو السليم ، إلا إذا كانت القضايا قليلة العدد ، وكانت العلاقات الاجتماعية سهلة يسيرة . ولذا تعتبر هذه المحاكم سابقة لتاريخها في امبراطورية شبه متمدنة ، ومـــا حدث من الاتساع الضخم للامبراطورية التي هيأت للأكفاء من الرجال حياة رسمية ، جعلت المحاكم الاقليمية تافهه ، بينما جرى استنزاف موارد الاقليم لصالح البلاط وهيئة الموظفين الرسمية ، على أن خلو الخزانة من المال ، وروح التحفظ الشديد ، حال دون إجراء إصلاح ناجح للمحاكم يقوم على اختيار موظفين قضائيين يؤجرون وفقا لنظام ثابت .

لم يكن اصلاح القانون بأقل شكلية من اصلاح المحاكم ، إذ حدث قبل سنة ٨٠٠ أن تم تدوين القانون السالى وقانون بافاريا ، فضلاً عن سائر القوانين . والمعروف أن الغالي الروماني كان لديه موجزفانون الريك المعروف باسم ،

Breviarium Alarici ، الذي جرى تصنيفه أصلاً للقوط الغربيـــين باكيتانيا ، سنة ٥٠٦ ، ثم صار وضعه مجملا . وتوافر له أيضاً تصانيف مختلفة

للصيغ المألوفة في انتقال الملكية، والعقود، وتسوية الحسابات. ولم تكن هذه التصانيف صفة رسمية ، ولذا حفلت بالأخطاء ، والألفاظ والعبارات السقيمة ، يضاف إلى ذلك صور رسمية من المرسومات التي أصدرها شارل ، وعالج معظمها الأمور الادارية والكنسية، ولم يجرؤ أحد على اقتحام قدسية العرف ، وهو القانون الخاص .

على أن شارل أمر في سنة ٨٠٢ بتدوين كل القوانين القومية ، وما أدخله بها من التغييرات التي أوصى بها المبعوثون ، وما أخذت به محاكم الكونتات من الايمان . وأمر بألا يتبع من القوانين سوى قانونه ، وأعقب ذلك بأن أصدر طائفة من الملاحق ، لم يتطبق منها على كل القوانين إلا مرسوم واحد،بينما اقتصر تطبيقها على قوانين بعض الامم . ولما لم يكن من السهل استخدام هذه الصور الجديدة من القوانين ، انصرف عنها القضاة ، واتبعوا أهواءهم . وما حفل به القانون الجنائي من الشذوذ والانحراف ما يتمثل في أن جريمة السرقة مثلا عقوبتها الاعدام ، بينما لا يعاقب القاتل إلا بغرامة تافهة . والواقع أن شارل حرص على ألا يغير في أصل القانون الجرماني ، فاحتفظت كل فئة بقانونها. والواضح أن هذا القانون لم يمس المشاكل التي ظهرت عند تكوين الامبراطورية ، ولا المشاكل الكبيرة الناجمة عن النظام الاداري .

الجيش

لعل أوضح مثال على اندماج الكنيسة في الدولة ، ما نلحظه في المجلس الذي ينعقد سنوياً ، والمعروف باسم placitum generale ، الذي يعتبر المجلس العام للملكة بأسرها . ومن الناحية النظرية ، المفروض أن يحضر جميع شعب الفرنجة هذا المجلس . غير أنه من الناحية العملية ، اقتصر الحضور على كبار رجال المملكة ، الذين يبلغون المئات ، من رجال الكنيسة والعلمانيين . فإذا انصرف

رجال الكنيسة الى المناقشة بعيداً عن العلمانيين، فان موضوع النقاش عندهم لم يختلف عما هو عند العلمانيين ، وهو يدور حول علاقة السيد بالتابع ، والرهبان. وما يجتمعون عليه من قرار ، يصدره الملك، فيما يعرف بالمرسومات capitularies، ويأمر بتنفيذه .

غير أنه اذا كانت المملكة تشمل الكنيسة والحكومة معاً ، فانها تعتبر أيضاً من بعض الوجوه جيشاً فالمجلس العام (الجمعية العامة) ، يناقش الأمور في روية واهتمام ، غير أن وظيفته الاساسية كانت تبدأ ، حين ينتهي من النقاش والجدل ، حين يمضي الحاضرون الى القتال . كان هذا هو اجتماع أمة الفرنجة في كامل سلاحها ، وكان يعرف من قبل باسم campus maritius. ولم ينعقد في مكان متوسط بالمملكة ، بل يجتمع على الحدود حيث يقاتل الجيش [1] . والواقع أن الجهد الحربي كان أهم موضوع يناقشه المجلس العام . وحدث على وجه التقريب في كل سنة من سنوات حكم شارل ، الذي استمر اربعين سنة . أن كان شارل يدعو جموعه للاشتراك في الحملات التي وجهها الى خارج حدود مملكة الفرنجة فاذا

---

(١) فيما يلي ترجمة لما وجه من دعوات الى رئيس دير St Quentin حوالي سنة ٨٠٦ : ليكن معلوماً لديك ، أن مجلسنا العام ينعقد هذا العام في سكسونيا ، في المنطقة الشرقية ، على نهر بودو في المكان المعروف باسم شتراسفورت Strassfurt . ولذا أصدرنا اليك الامر بأن تتوجه إلى هذا الموضع بكل ما لديك من الكتائب ، بجميع رجالك في أتم سلاح ، وأن تكونوا مستعدين في ١٤ من تقويم يوليه (١٧ يونيه) أي قبل سبعة أيام من عيد القديس يوحنا المعمدان. ولا بد أن تصل إلى هذا الموضع بكل رجالك ، في كامل عدتهم ، حتى يتيسر لك السير إلى المكان الذي يصدر اليك الأمر بالتوجه إليه ، في كامل العدة العسكرية : من أسلحة، وأدوات ، وآلات الحرب ، والطعام والكساء . فينبغي أن يتوافر لكل فارس درع ، ورمح ، وسيف طويل ، وآخر قصير ، وقوس ، وجعبة للسهام ، والسهام . وينبغي أن تجعل في عرباتك جميع الأدوات على اختلاف أنواعها من الفؤس ، والبلطات ، والمخاوط ، والبريمات ، والأطيار ، والجواريف ، وكل ما يلزم لقتال العدو . وينبغي أن يكون بعرباتك من الطعام ما يكفي لمدة ثلاثة شهور ، ومن السلاح والملابس ما يكفي لمدة سنة . ولا بد أن تعلم أنه في طريقك الى شتراسفورت ، لا تطلب من الجهات التي تجتازها سوى العلف للخيل ، والماء والخشب .

تصادف لسبب طارىء أن أنقضت سنة دون أن ينعقد فيها المجلس العام ، كان ذلك أمراً جديراً بالتسجيل ، ولا بد من تذكر هذه السنة .

والمفروض أن يشهد الاجتماع كل الرجال الأحرار بمملكة الفرنجة ، غير أن هذه القاعدة استحال تنفيذها أواخر عهد شارلمان ، نطوأ لما حدث من تغيير القواعد باستمرار . إذ حرص شارل على ألا يؤدي الخدمة العسكرية إلا الأحرار في بعض المناطق ، لا كل الأمبراطورية ، بشرط ألا يقل مساحة ما يحوزه الواحد منهم من الأراضي عن أربعة مانسات mansi [1] . ولا بد أن يقدم بكامل عدته الحربية . أما الأحرار الذين تقل ملكية الواحد منهم عن هذا القدر من الأرض ، فلا بد أن يؤلفوا جماعات صغيرة ، تتعاون في اعداد أحدهم ليؤدي الخدمة العسكرية ، على أن يكون لكل رجل مساحة معينة من الأرض . على أن ما حدث من تطور نظام التبعية ، ومنح الاقطاعات مقابل الخدمة العسكرية ، فضلاً عن بذل الامتيازات ، زاد في نمو كل من طبقتي النبلاء المحاربين ، والاقنان الفلاحين . ومن الطبيعي أن يؤلف الأتباع الفرسان العمود الفقري لجيش شارلمان ، بعد أن بذل لهم من الاقطاعات ما جعلهم يهبون الجانب الأكبر من حياتهم للخدمة العسكرية من أجل الملك ، برغم ما أزعجهم نشاط الملك الحربي ، لمد مملكته ، حتى كادت تشمل العالم المسيحي بأسره . وكان لزاماً عليه أن يجعل جيشه في حالة تعبئة مستمرة ، للمحافظة على أطراف المملكة ، وللقضاء على الفتن والثورات الداخلية .

المبعوثون الملكيون

وإذ ألفت الكنيسة والدولة مجتمعاً واحداً في مملكة الفرنجة ، في الشطر

(١) اللفظة مانسوس mansus اللاتينية ، تطلق على مساحة من الأرض تكفي لاعاشة أسرة واحدة ، وتساوي نحو مائة وعشرين فداناً .

الثاني من القرن الثامن الميلادي ، لم يكن أهم الموظفين في الحكومة المحلية سوى الكونتات والاساقفة . وكانت الكونتية مطابقة لأبروشية الأسقف ، وكلاهما عبارة عن الاقليم eivitas عند الرومان ، ولذا اشترك الأسقف والكونت في أمور الإقليم ، إذ يباشر الكونت الأمور الدنيوية ، بينما يقوم الاسقف بالشئون الروحية ، ومن الناحية العملية ، تعذر فصل أحدهما عن الآخر في مجال نشاطهما ، وكان مبعوثا الملك يتفقدان الأعمال سوياً . ولم تكن وظيفة المبعوثين الملكيين missi dominici مجهولة زمن الميروفنجيين ، فكل رسول يرسله البلاط الملكي لغرض خاص ، يحمل اسم مبعوث . غير أن أهميتهم ازدادت في زمن شارلمان ، فما كان لوظيفة الكونت من أهمية ، وبعد أن صار الكونت يختار من الاسرات المحلية المعروفة بقوة مركزها ، نزعت هذه الوظيفة لان تكون وراثية ، وبذا أضحت الكونتية فعلا ولاية خاصة للكونت ، كل ذلك أثار خوف شارل . فلم يسعه إلا أن يتخذ مبعوثاً خاصاً للاشراف على الكونتات ، ومنعهم من تجاوز السلطة أو اساءة استعمالها . فانقسمت الامبراطورية الى مناطق ، كل منها اشتملت على ست كونتيات . يطوف بها كل سنة مبعوثان ، أحدهما من العلمانيين والآخر من الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، فيمضيان بضعة أسابيع في تفقد أعمال الحكومة في مجموعة كونتيات . ويعتبر المبعوثون أيضاً حلقة اتصال بين الأمبراطور وسائر الناس ، فيرفعون إليه بانتظام تقارير عن أعمالهم .

وتطورت اختصاصات المبعوثين ، فكانوا في المرحلة السابقة على التتويج (٧٦٨ — ٨٠٠) يقومون بجولاتهم في فترات غير منتظمة ، الى الجهات التي يحددها لهم الملك ، مثلما حدث سنة ٧٩٠ ، حين كلف الملك المبعوثين دراسة أسباب الارتباك المالي في اكيتانيا ، وما هو مطلوب من الاقتصاد والاصلاحات . على أنه لا بد أن يقوموا بالطواف بالمملكة كلها مرة أو مرتين . ففي سنة ٧٨٩ ، وسنة ٧٩٢ ، كلفهم شارل بأن يحصلوا على يمين الولاء من جميع الرجال ، فيلتزم الرجل « بأن يعد شارل وأولاده ، بأن يكون رجله المخلص ، طوال حياته »

وفي الجولة الثانية صاروا يتحرون عما اذا كان الكونتات يحكمون بين جميع الرجال وفقاً لقانونهم القرمي ، كما قضت بذلك إرادة الملك .

وأول واجبـات المبعوثين ، أن يستمعوا الى الشكاوي ضد الكونت ، وأن يلزموه ، إذا دعت الضرورة ، بانصاف هؤلاء الشاكين .

ثانياً — يقومون بمساعدة الكونت،إذا قام تابع كبير من أتباع الملك بعرقلة سير العدالة .

ثالثاً — ينزلون العقوبة بكل من يتهاون من رجـال الدين في نظام الكنيسة .

رابعاً — يقومون بالاشراف على كل مايمنحه الملك من أراضي التاج بالأقاليم،من الضياع المحبوسة على الخير ، ويثبتون كل الحالات التي ساء استعمالها ، ويقررون الضرائب والخدمات المطلوبة .

خامساً — يتحرون كيف يتحقق شرط الخدمـة العسكرية وما اذا كان الكونت قام بتنفيذه على ما ينبغي القيام به .

على أن شارل اكتشف سوء تصرف هؤلاء المبعوثـين سنة ٨٠٢ ، فاختار لوظيفة المبعوثين رجالا من ذوي المكانة العاليـة ، حتى لا يتعرضوا للفساد ، وجعل الطواف بالاقاليم نظاماً سنوياً ، بعد أن حدد لهم المناطق حتى ينصرف المبعوثون إلى واجباتهم . وتقرر إرسال مبعوثين لكل دائرة ، أحدهما علماني والآخر كنسي ، فيتم بذلك حماية مصالح الحكومـة والكنيسة سواء . ودرج الأمبراطور على أن ينقل المبعوثين كل سنة ، من منطقة إلى أخرى، حتى يكفل حيادهم . وفي كل سنة يتلقى المبعوثون من التعاليم ما يتعلق بالأمور التي ينبغي الالمام بها، كأن يقوموا بطوافهم مرة كل ثلاثة شهور ، وأن يعقدوا في كل رحـلة محكمة

استئنافية في أربعة مواضع مختلفة يشهدها الكونتات والأساقفة المجاورون، وأن يعالجوا أخطاء الموظفين الدائمين ، ثم صار إليهم أمر اختيار موظفي الأقاليم ، وبذا ازدادت سلطات المبعوث . ولما كان المبعوث لا يتناول أجراً ، ويشغل وظائف عديدة كبيرة المسئولية ، ولم يكن مجرداً من شعور الزمالة مع اولئك الذين يعتبرون من طبقته ، والذين يتحتم عليه أن يراقبهم وينزل بهم العقاب ، أضحى المبعوثون من العجز والضعف مثلما كانوا من قبل، فنفر منهم الناس ، ولم يعد شارل راضياً عنهم ، فأمر بأن ترفع اليه كثير من القضايا التي ينظر فيها المبعوثون .

التعليم :

يعتبر شارلمان أهم ملوك الفرنجة على الإطلاق ، لما توافر عنده من إدراك جديد لوظائف الملك المسيحي وواجباته . وإذ أفاد من قوتـــه العسكرية في توفير الحماية لرعاياه المسيحيين ، حرص أيضاً على تربيتهم وتعليمهم .

هذه الفكرة قد تبدو عند الميروفنجيين مثيرة للضحك والسخرية ، لأنهم اعتبروا مملكتهم ملكاً خاصاً ، وتصرفوا كأنهم ليسوا مسئولين عن رعاياهم . بل إن هذه الفكرة لم تكن ، فيما يبدو ، بالغة الأهمية عند شارل مارتل وببين القصير اللذين التزما بحماية الأتبـــاع والاتفاق عليهم غير أن شارلمان اعتبر ذلك من واجباته ، إذ اقتنع أنه يعيش في عالم فقد ثقافته وحضارته ، فعزم على ان يعيدهما إليه . أراد أن يكون جديراً بتراث روما والكنيسة المسيحية ، وان يجعل مملكته مقبولة عند الله .

ويعتبر عهد شارلمان النتيجة الباهرة التي حققتها السياسة البابوية مع الفرنجة، بعد أن ظلت قروناً عديدة تجاهد في حمل الفرنجة على أن يفهموا قيمة المدنية، وواجب الملك المسيحي. فظلت تساندهم، وتحملت قسوة الميروفنجيين وهمجيتهم، بل إنها تسامحت فيما أقدم عليه شارل مارتل من اغتصاب أراضي الكنيسة، لأنها اعتقدت أن باستطاعتها فعلاً تعليم الفرنجة وتربيتهم، وأن تجعل منهم قادة للشعب المسيحي، ونجحت في ذلك مع شارلمان، الذي شغف بقضية المسيحية والحضارة الرومانية. وإذ أدرك شارلمان أن كل مظاهر العلم والثقافة قد اختفت، حرص على أن يبعثها من جديد.

وأول ما اهتم به شارلمان، تعلم المبادىء الأساسية. فعلى الرغم من أنه ملك، أثبت أن ما يلقاه العلم من التقدير، إنما يرجع إلى القدوة الحسنة. فباعتباره ملكاً مسيحياً، اعتقد أن من واجبه أن يصدر الأوامر بضرورة تعليم القراءة والكتابة في جميع الأديرة بمملكته، حتى يكون للدارسين من استقامة اللغة التي يتحدثون بها، ما للرهبان من العفة في حياتهم، وحرص على التزام الدقة في كل شيء، لأن الاهمال والجهل يعتبر آفة عصره، فحوالي سنة ٧٨٧ وجه إلى الأساقفة ورؤساء الأديرة رسالة عن التعليم، أشار فيها إلى أن دراسة الآداب تعتبر من جوهر الحياة الدينية، فلولا العلم ما ظهرت الأعمال الطيبة. ولاحظ في شيء من الأسى والحزن، فيما يتلقاه من رجال الدين من رسائل، أن عبارات المدح يفسدها دائماً اللغة السقيمة، ولذا أمر بالتماس المدرسين والاهتمام بالتعليم السليم. وتقرر تنقيح الكتاب المقدس المكتوب باللغة اللاتينية، والراجح أن الكوين هو الذي قام بذلك، كيما يعالج الأخطاء التي تسربت إلى النص، بسبب جهل الناسخين السابقين أو إهمالهم، وأمر أيضاً بإنشاء المدارس في الأسقفيات، يتعلم فيها الأولاد المزامير، والموسيقى، والإنشاد، والحساب، والنحو، وحرص على

على إمـــدادهم بنسخ من الكتب المقدسة المشهورة بسلامتها وصحتها . وجرى أيضاً تنقيــح كتب الصلاة ، حتى تتفق مع تقاليد الكنيسة الرومانية ، وتقرر الحصول على كتـــاب القديس جريجوري عــــن القداسات المعروف باسم Sacramentarinm Gregorianum . وما قام به الكوين من تنقيــح لهـــذا الكتاب أضحى أساس كتاب الصلاة في الكنيسة الرومانيـــة ، حتى الوقت الحاضر . وتقرر أيضاً إصلاح الأديرة ، وحرص على أن تسير وفقاً لقاعــدة بنيدكت .

والملحوظ أن الصفة الدينية غلبت على هذا التعليم ، فالحساب لم يدخل في مواد الدراسة إلا لمعرفة أوقات الأعياد . وتعتبر مدرسة تور ، التي أنشأهـــا الكوين ، انموذجاً لهذا النوع من التعليم ، واشتملت الدراسة فيها على مرحلتين ، يدرس الطالب في المرحلة الأولى القراءة والكتابة ، والكتب الدينية (الصلاة ، والقداسات ، ونظرية التثليث) ، وفي المرحلة الثانيـــة يتعلم الرهبـــان وسائر الأفراد المعدون لوظائف الكنيسة ، الأناجيل ، وكتابات آباء الكنيسة ، وقوانين الكنيسة ، وقدراً كبيراً من العلوم الحرة لتساعدهم في التفسير والشرح . والذين ينتهون من هذه الدراسة ، يصبحون عادة رؤساء للأديرة الفرنجيـــة أو الجرمانية .

وأدت هذه المدارس للاجيال التالية خدمة مزدوجة ، بأن أحيت اللغـــة اللاتينية ، فقاومت بذلك طغيان الألفاظ الجرمانية ، واللغة الرومانية الغالية السقيمة ، كما أنها يسرت للتلاميذ أن ينشروا وينسخوا ما تبقى من اعمال هؤلاء الكتاب بعد أن انهار العلم القديم . وما جرى اتخاذه من نمط جديد في الكتابة ، الخط الكارولنجي الذي امتاز بالجمال والوضوح ، أضحى سائـداً في جميـع

الأديرة بمملكة شارلمان ، حيث زخرت بالنساخين المهرة . وبهـذه الوسيلة ، لم يعكف الكتاب فحسب على نسخ الكتب المقدسة ،وكتب الأناجيل،والصلوات والتقاويم الدينية ، بل نسخوا أيضاً مؤلفات فرجيل وسائر الكتاب القدامى ، ولذا فإن معرفتنا بالدراسات القديمة ، يرجع الفضل فيها إلى حد كبير إلى علماء هذهالفترة من التاريخ . ومن الدليل على ذلك أنه حينما قام أصحاب الدراسات الإنسانية في عصر النهضة ، بعد سبعة قرون ، بالتنقيب في مكتبات الأديرة عن مخطوطات الدراسات القديمة ،أدركوا ان معظم ما عثروا عليه من المخطوطات، كتبت بالخط الكارولنجي ، وإذ شاع استعمال هـذا الخط ، ظنوا أنـه خط الرومان .

مدرسة القصر

تعتبر مدرسة القصر مركز إحياء العلوم ، فانتشر أثرها إلى الأديرة في غالة والمانيا ، وإلى الأسقفيات أيضاً . وربما نشأت مدرسة القصر منذ زمن بعيد ،إذ أن الصبيان الطموحين من أبناء الأسرات الكبيرة كانوا يلجـأون إلى قصور الميروفنجيين ورؤساء البلاط ، يلتمسون من العلم ما يرتضيه الحاكم ، وربما اهتم سادتهم بأن يهيئوا لهم هذا التعليم ، بأن تولى قس الملك وكتابه في أوقات الفراغ تعليم هؤلاء الطموحين . على أن المدرسة لم يكن لهـا ، حتى زمن الكوين ، من النظام والمنهج ما يجعلها جديرة بهذا الاسم ، وظل معظم الطبقة الأرستقراطية من الفرنجة مجردين من كل أثر للمعرفة والثقافة .

على أن المدرسة ، أضحت في زمن الكوين عاملاً هاماً في الحياة اليومية ، إذ تطورت إلى مؤسسة اشتهرت بأهدافها النبيلة ، ولقيت تشجيعاً كبيراً . فصار

بوسع كل زعيم أن يرسل إليها أبناءه ، ولم يكن الأصل الوضيع مانعاً للصبي الموهوب من الالتحاق بها، وفي عدالة مطلقة اختار شارلمان انجب الطلاب وعينهم بالوظائف أو المراكز الخالية . وقام الكوين نفسه بالتدريس فيها ، وأدخل الأدباء الآخرين في خدمتها . ووضع الملك تقليداً ، بتلقيه الدروس بها ، والتحق بالمدرسة كل أفراد أسرته ، ولارتباط المدرسة بالقصر ، صحبت الدور الملكية أثناء تنقلاتها .وأرسل الكوين المبعوثين إلى سائر الجهات لشراء الكتب اللازمة للتلاميذ . وصنف الكوين كتباً للتلاميذ عن مبادىء العلوم الابتدائية ، مثل التهجي ، والنحو والبلاغة والجدل ، ولا زالت باقية ومحفوظة في مؤلفاته .

وما كان يجري بالمدرسة من علم أو معرفة لا بد أنه كان أولياً بسيطاً .فكل ما عرفه الكوين من الفنون الحرة استمده من المصنفات الضئيلة التي وضعها كاسيدروس وكابيلا ، وايزيدور الأشبيلي ، فضلاً عن ترجمات غير كاملة لبعض مؤلفات أرسطو ، ولم يكن حظه كبيراً في دراسة الفلك والحساب والهندسة . ولم يشجع الكوين دراسة الكتاب الوثنيين .

وإذ تبين لشارل أنه لم يكن بمملكة الفرنجة من العلماء المثقفين ما يكفي لتحقيق أغراضه التعليمية ؛ التمس العلماء من الجهات النائبة ، فجاءه من ايطاليا بطرس البيزاوي ، وبولص الشماس مؤلف تاريخ اللومبارديين ، الذي حفظ فيه ما ورد عن اللومبارديين من حكايات ونوادر ، وباولينوس ،الذي صار بطريركاً في اكويلبا . وقدم من اسبانيا ثيودولف الذي ينتمي للقوط الغربيين ، ويعتبر من أشهر شعراء مدرسة القصر ، وهو وحده من بين شعراء البلاط ، الذي تستسيغ شعره ، وقد اشتهر بالمزاح اللطيف مع أقرانه ، على أنه أنكر المفاسد

التي سرت في قلب دولة الفرنجة ، ففي نصيحته إلى القضاء ، يصف في احتقار شديد الكونت المخمور ، والمتقاضيين القادمين برشاويهم ، وما يحدث في محاكم الأقاليم من فساد . ويصف بالتفصيل ما يجري في اجتماعات حلقة البلاط .

أما الكوين ، وهو أعظم هؤلاء جميعاً ، فكان انجليزيا من مدرسة يورك ، التي تعتبر أهم مراكز الفكر في انجلترا وقتذاك . وهو ينتمي إلى اسرة نبيلة ، بنورثمبريا ، ومن هذه الأسرة نبت أيضاً القديس ويليبرود الذي توجه للتبشير في فريزيا . كان الكوين معروفاً في البلاط الفرنجي في مطلع حياته ، فهو رجل ثري ، لم يلتحق بسلك رجال الدين إلا ليتجنب ما ساد بلاده من اضطرابات . ارتحل مرات عديدة إلى غالة ولومبارديا للحصول على الكتب والمدرسين، ثم ظهر في بلاط شارل في بارما ٧٨١ ، ومنذئذ بقي في خدمة شارلمان ، ولم يزر بلاده إلا لفترات قصيرة، وأمضى السنوات الأخيرة من حياته رئيسا للدير الشهير المعروف بدير القديس مارتن في تور . وانصرف الكوين إلى أعمال الكتابة والتشريع والتعليم .

ومن أشهر رجال هذه المدرسة أيضاً ، اينهارت مؤرخ حياة شارلمان ، وهو من المتخرجين في هذه المدرسة . وتهيأ لأينهارت أن يجمع مادته من مصادرها الأصلية . ومن دراسته العميقة للمؤرخين القدامى ، لم يحرز فحسب الأسلوب اللاذع ، بل اكتسب أيضاً صفة فنية، فمن حيث الطريقة والمادة يعتبر اينهارت خير مؤرخي العصور الوسطى المبكرة . لم يكل محايداً في أحكامه ، إذ نسب لشارل من الصفات والخصال ما لم يرد في المصادر الأخرى . والتمس الاعذار في المسائل التي تورط فيها شارلمان .

اما انجيلبرت زميل اينهارت في الدراسة بالبلاط فإنه أضحى كاتماً لسر الملك ، وتزوج خفية من إحدى الأميرات . ولما كان ينتمي لرجال الدين ، فإن الزواج لقى تقريعا وانكارا شديدين ، فلم يلبث انجيلبرت أن دخل الدير . غير

أن مـــا حازه انجيلبرت من شهرة ، تعود أساسا إلى دراسته التي اكسبته لقب « هومر » .

والواقع أن كل ما عرفناه عن هذه الطائفة من الرجال، مستمد من الرسائل التي تبادلوها مع شارلمان ومع بعضهم البعض . والواضح أن حماسهم في العمـل كان بالغ الشدة . فيروي عن شارلمـــان مثلاً ، أنه كان حريصاً على أن يتعلم القراءة والكتابة ، فجعـل أدوات الكتابة تحت وسادته عند نومه . وكتب الكوين « أنه قد تقوم في بلاد الفرنجة أثينا جديدة يصح أن تفوق اثينا القديمة وتبزها » . وإذ توقعوا قيام أثينا جديدة، اتخذ الكوين ورفاقة أسماء أعلام تنتمي إلى العصر القديم . وإذ اشتهر الكوين بمـا نظمه في أوقات الفراغ من مقطوعات غنائية عن الربيـع والعشق ، صار معروفاً باسم فلاكتّوس (هوراس) ، أمـا انجيلبرت فكان معروفاً باسم هومر ، واتخذ شارلمان اسم الملك داود، بينما عرف ابنه الاكبر ببين باسم يوليوس ، واشتهرت آخن باسم رومـا الجديدة ، بعد أن صارت المقر الأثير عند شارلمان. وكل شيء جرى اعداده كيما يعطي الأثر ، أنه قد انبعث فجأة العالم القديم اليوناني والروماني .

على أن دارسي التراث الكلاسيكي ، ورجـــال الأمبراطورية الذين لم ينقطع عندهم التراث الكلاسيكي ، لم يسعهم إلا إنكار ما لجأ إليه نخبة المفكرين عنـد الفرنجة من التباهي بأنهم رومان ، إذ ليسوا في الحقيقة سوى جرمان ، ومع ذلك فإن تقديرهم للعلم من أجل العلم ، دلّ على احساسهم بأن الحضارة لا زالت قائمة . ففي رسالة لألكوين « درج سيدي (شارل) ، على أن يقول لي ، إن عقـــلاء الرجال هم الذين اكتشفوا هذه العلوم التي تتعلق بطبيعة الأشياء ، فمن العار أن نجعلها تموت في أيامنا، غير أن الجبن بلغ من الناس أنهم لم يحفلوا بالتعرف إلى سر الأشياء التي جعلها الله في الطبيعة .فأنت تعلم ما للحساب من أهمية في الاستدلال، وما له من قيمة في فهم الكتاب المقدس ، وما تجلبه معرفة النجوم في مسالكها من سعادة ولذة . ومع ذلك ، قلـّما تصادف رجلا يبدي الاهتمام بهذه الأمور .

وما هو أسوأ من ذلك ، أن الناس يحتقرون أولئك الذين يحصلون العلم » .

والواقع ان شارل حرص على الإفادة من النشاط الفكري، فباعتباره رئيساً للكنيسة التمس أفكاراً واضحة في موضوعات تتعلق بالمناظرات الدينية ، وباعتباره رئيساً للدولة ، التمس المساعدة والتأييد في تشكيل مفهوم لواجباته وأعماله . فلم يدخل خدمته عالم ، حتى وجد نفسه مكلفاً بتأدية عمل من الأعمال العامة ، فغرس في هؤلاء العلماء قدرا من حماسته الملتهبة لتجديد المجتمع .

ومع ذلك فإن النهضة الكارولنجية كانت بالغة الاختلاف عن نهضة القرن الخامس عشر ، في أنها كانت في جوهرها مسيحية . ولم يفرق شارلمان بين الدراسات القديمة (الكلاسيكية) وبين دراسات آباء الكنيسة ، نظراً لأنه اعتبر الدراسات القديمة مسيحية . فآباء الكنيسة أمثال أوجسطين ، وجيروم، وجريجوري الكبير كانوا جميعاً من الرومان ، بل إن كتاب « مدينة الله » كان من أحب الكتب إلى نفسه . ونستطيع أن نصادف في هذا الكتاب ، صلة مباشرة بين نهضة شارلمان الأدبية وبين مبادئه ومثله السياسية . ولا شك أن كان لهذا الكتاب اثر قوي في فكرته عن الملكية ، فما ورد في « مدينة الله » عن جماعة المؤمنين ، وقصد بها أوجسطين هيئة المؤمنين المتصوفة في السماء ، أخذها شارلمان للدلالة على الجماعة المسيحية على سطح الأرض . ولذا استخدمها وطبقها على كنيسة روما ومملكة الفرنجة ، إذ لم تكن الكنيسة والمملكة عنده ، سوى مجتمع واحد.وبينما رجع علماء النهضة الأوربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر إلى أصدق المصادر ،فانتهوا الى المبادىء الأساسية للأدب والفكر الفلسفي، راشتهروا بأنهم مبتدعون، تقيد الأفق الفكري في القرنين الثامن والتاسع(زمن شارلمان) بالآباء اللاتين وتقاليد الكنيسة ، فأكثر ما كان يطمع فيه العالم هو أن يفسر اللاهوت القائم ويفسره .

شارلمان والكنيسة

للكنيسة أثر كبير في تشكيل حياة شارلمان باعتباره غازيا منتصراً ، ولها نفس الأهمية في تشريعاته ، الكنسية والدنيوية . ومن الدليل على أثر الكنيسة في التشريعات ، ما انطوت عليه توصياته للعلمانيين من اشارات لما يرتكب من الآثام والذنوب ضد الأخلاق والقوانين الكنسية . وكل زيارة قام بها شارلمان لايطاليا أعقبها عادة اصلاحات في الكنيسة أو الحكومة ، ففي بعض الأحوال يعود الملك من ايطاليا ويصحبته المهندسون والأساتذة وعلماء الدين ، وفي بعض الأحوال ، تلمس فيه الشعور العام بالمسئولية ، باعتباره قيما على مجتمع مسيحي كبير ، وبطريقاً للمقر المقدس . وما صدر من تشريعات تحرم الربا ، وتحدد سعر القمح دلت على أن شارل استمد أفكاره في الاقتصاد من تعاليم الكنيسة . وما شنه من حروب على المسلمين في اسبانيا اتخذت طابعاً دينياً ، حتى إنها صارت تعتبر فيما بعد نموذجاً انتهجته الحروب الصليبية ، إذ أن الفرنجة كانوا يحاربون من أجل العالم المسيحي . ونلمس ايضاً هذا الأساس الديني في حروبه السكسونية ، إذ أصر على إنزال الهزيمة بالسكسون وتحويلهم إلى المسيحية ، وما انتزعه من أراضيهم وزعه على أتباعه من الأساقفة والقسس والكونتات . ومن الدليل على أن الكنيسة اسهمت في ذلك ، أن ما حدث من فرض السلام على سكسونيا وتحويلها إلى المسيحية ، قبله العالم المسيحي على أنه مطابق لإرادة الله . وعلى الرغم من أن معظم مستشاري شارلمان (ولا سيما الكوين) ، اعترضوا وأشاروا إلى أن التنصير قسراً ، ليس إلا وسيلة حقيرة لهداية الناس إلى الدين ، فما من أحد ارتاب لحظة واحدة في أن مصالح المسيحية والفرنجة كانت متطابقة ، وفي نظر شارلمان تعتبر مملكته نوعاً من الكنيسة ، وعبر عن ذلك في الرسالة التي وجهها إلى البابا ليو الثالث ، سنة ٧٩٦ ، إذ أشار إلى « أننا بفضل الله ، نقوم بالدفاع عن كنيسة المسيح المقدسة ، باسلحتنا إزاء كل اعتداء من قبل الوثنيين ، وكل تخريب تتعرض له من قبل الكفار ، خارج الدولة ، كما أننا نزيدها مناعة

في الداخل بتمسكنا بالعقيدة الكاثوليكية ، فمن واجبك أيها الأب المقدس ، أن تضرع إلى الله أن يمد يد المساعدة لعساكرنا ، وأن يهبهم النصر في كل مكان ، وبذا يذيع اسم سيدنا المسيح عيسى في جميع أنحاء العالم » .

على أن شارل كان السيد الأعلى للكنيسة في أمبراطوريته ، إذ اعتبر نفسه ممثلاً للإله ، يلتزم بحماية ورعاية كل الذين ينتمون للكنيسة ، وأنه سيد جميع المسيحيين ووالدهم ، وملكهم وقسيسهم ، وقائدهم ومرشدهم . وتبعاً لذلك أصدر من التشريعات مما يتعلق بكل المسائل الكنسية ، ومنها املاك الكنيسة ، والتهذيب الكنسي ، والتعليم ، والشعائر ، والعقوبات التي تفرض على رجال الكنيسة ، ومباني الكنيسة ، والنظام الكنسي . وامتد تشريعه إلى فئات رجال الدين ، فكان مسئولا عن نظام الرئاسات الأسقفية في مملكته . وتدخل في الأمور العقائدية ، بل أنه مضى إلى أبعد من ذلك فحاول أن يحمل البابا على أن يؤمن بما يؤمن به هو ، وتولى الإشراف على هيئة رجال الدين ، وعلى ملء الوظائف الكنسية الهامة ، وقام برئاسة المجامع الكنسية . وانهى إلى قسس الأبروشيات بما يبشرون به ، وكان يطلب إلى جمهور المصلين أن ينشدوا ويترنموا حسبما أراد . وأحب أن يبتعد رجال الدين عن امور الدنيا ، ولتحقيق ذلك كفل للكنيسة موارد وفيرة ، بأن جعل تأدية العشور أمراً اجباريا ، يلتزم به جميع العلمانيين، وجعل الحكم بحرمان الشخص من الكنيسة نافذ المفعول. وجعل الدعاوى التي بين رجال الدين وسائر الناس ، يتولى سماعها الكونت والأسقف معاً . ومنع رجال الدين من الزواج واقتناء الجواري ودخول الحانات وحمل الأسلحة ، وممارسة الصيد . وشرح للأساقفة طبيعة أعمالهم ، وأنهى لرجال الدين بالحالات الثلاثة التي يجوز لهم فيها العمل يوم السبت ، وهي القيام بنقل أثقال الجيش ، ونقل الميرة ، ودفن الموتى .

ومع ذلك ، فقد ساءه سلوك رجال الدين ، فاشتد إنكاره لحرصهم على امتلاك الأراضي . فما الذى يعنيه الابتعاد عن عرض الدنيا ، سوى ألا يحارب

رجال الدين ، وألا يتزوجوا ؟ فهل تخلى عن الدنيا ، ذلك الرجل الذي دأب على أن يلتمس كل وسيلة لزيادة أملاكه ، سواء بالترغيب في الفوز برضى الله ، او بالتهديد بعذاب جهنم ، أو بما يلجأ إليه من استخدام اسم الله أو بعض القديسين للاحتيال على السذج والجهال ، الفقراء والأغنياء سواء ، ليسلب منهم أرضهم ، وليحرم الورثة الشرعيين من إرثهم ، وبذلك يدفع كثيراً من النـاس ، بعد أن تجردوا من أملاكهم ، إلى ان يمارسوا حياة اللصوصية والإجرام ، التي لم يحملهم عليها سوى نهمه .

وهبطت قيمة الكنيسة بمعناها المعروف، حتى أضحت مجرد إدارة حكومية تتولى النظر في أمور الدين . واضطلع شارلمان بمسؤولية التعليم وتفسير العقيدة الكاثوليكية السليمة .

تتويج شارلمان :

١ – وعلى هذا الأساس ، ينبغي أن نفسر ذلك الحادث المثير ، الذي وقـع يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ ، حينما قام البابا ليو الثالث بتتويج شارلمـان ، وهتف به أهل روما ، قيصراً ، وأغسطسا، وأمبراطوراً مسيحياً على العالم المسيحي . غير أنه لفهم مسألة تتويج شارلمـان على الوجـه الصحيح ، لا بد أن نتعرف إلى الطريقة التي أضحى بها شارلمان سيداً على الجانب الأكبر من إيطاليا . فالمعروف أنه حدث في أوائل حكم شارلمان (٧٧٣ – ٧٧٤) ، أن تعرضت روما والبابوية زمن هادريان الأول (٧٧٢ – ٧٩٥) لتهديـد الغزو من قبل اللومبارديين الذين انتزعوا من البابوية الأراضي الـتي تنازل ببين عنها، بعد الاستيلاء عليهـا من اللومبارديين . والواقع أن هذا البابا وقع في نفس المشكلة ، التي سبق أن تعرض لها من قبله البابا استيفن الثاني ، إذ أن اللومبارديين أخذوا يطبقون على أمـلاك البابا ، الذي لم يكن بوسعه أن يحصل على عون عسكري من سيده الأسمى ، الأمبراطور البيزنطي ، فلم يسعه إلا أن يتجه إلى الفرنجة مثلما فعل سلفه . وبعد أن

قام بتذكير شارلمان بلقب « بطريق الرومان » الذي حازه أيام شبابه ، التمس منه أن ينقض على اللومبارديين ، وأن يخلص البـابوية من سيطرتهم ، فاستجاب شارلمان لنداء البابا ، بعد أن استشار الفرنجة . فدعا الجمعية الوطنية للانعقاد في جنيف في يوليه سنة ٧٧٣ . ثم عبر شارلمان بجيوشه جبال الألب، وألقى الحصار على بافيا ، عاصمة اللومبارديين ، التي لجأ إليها ديدير ملك اللومبارديين، الذي أعلن إذعانـه فسلم المدينـة والمملكة الى شارلمـان ، الذي صار ملكاً على اللومبارديين والفرنجة معاً ، في يونيه ٧٧٤ .

٢ — على أن هذه النتيجة ، لم تلق الترحيب التام من البابا هادريان الأول ، لأن كل الدلائل تشير إلى أنه أراد الحرية الكاملة للبابوية كيما تحكم إيطاليـا ، فلم يكن اللومبارديون عند البابا سوى أعداء وخصوم أِلدّاء لا بد من سحقهـم وتدميرهم ، وأنه ينبغي أن يكون للكرسي الرسولى (البابوية) موضع ثابت في إيطاليا ، وأن يظفر بجانب من مملكة اللومبارديين يستطيع به أن يبهر العيون وأن يأسر قلوب المسيحيين في العصور الوسطى . والراجح ان البابا كان يأمـل في الإيقاع بين الفرنجة واللومبارديين ، حـتى يفوز آخر الأمر بما يريد ، فحينما توجه شارلمان قبل سقوط بافيا ، لزيارة روما لحضور الاحتفال بعيد القيامة سنة ٧٧٤ ، أظهر البابا هادريان سياسته في وضوح وجلاء .وتقوم هذه السياسة على أن يبذل البابا لشارلمان كل مظاهر الحفاوة والتشريف ،ولا يمنحه شيئاً من السلطان والقوة ، فلم يسمح له بدخول روما إلا بعد أن التزم شارلمان للبابوية بأن يكون من خدامها وحماتها. فلما وصل شارلمان إلى روما لقي من الاحتفال والحفاوة، مثلما يلقى (الارخون) نائب الامبراطور البيزنطي . وعند الاقتراب من المدينـة التقت حاشية الملك (شارلمان) بحرس المدينة ، وانضم إليهـم جماعات من الصبيان يحملون سعف النخيل وأغصان الزيتون . ثم قاده البابا الى كاتدرائيـة القديس بطرس ، إلى حيث التراتيـل ، « فليبادك الله من يقـدم باسم السيد

المسيح ». غير أن البابا هادريان لم يسمح لشارلمان بأن يقضي ليلة واحدة في روما برغم أنه بطريق الرومان، فبات شارلمان خارج الأسوار.

ولما رأى شارلمان ما للكنيسة الكاثوليكية من التقاليد العظيمة، والآمال الضخمة، أدرك الاحترام الأبدي للقوة الروحية، التي ظل الغرب منذ تحوله للمسيحية يهتدي بها، ولعل شارلمان فكر وقتذاك في إقامة مملكة تضارع في الاتساع الأمبراطورية القديمة، وتكون في جوهرها مسيحية، فكأنه بذلك يحاول إدماج الفكرة الأمبراطورية بالفكرة التيوقراطية (الدينية) التي ظلت منذ زمن قنسطنطين سر القوة البيزنطية في الشرق.

ويرتبط بهذه الزيارة، ما كان من موافقة شارلمان على طلب البابا هادريان بتجديد منحة ببين وتوسيع نطاقها، والمعروف أن منحة ببين شملت مدناً وضياعاً عديدة مبعثرة في المملكة اللومباردية، وقد عادت فعلاً في تلك السنة إلى البابا. أما منحة شارلمان الجديدة، فقد جعلت شارلمان والبابا هادريان يقتسمان إيطاليا فيما بينهما، فحاز البابا قورسيقه واستريا، وكل ما يقع جنوب خط وهمي يمتد من لوني (في قورسيقة)، ويمر ببارما، وريو، ومانتوا، حتى يصل إلى مونتسيلتشي (بالقرب من البندقية).

والراجح أن شارلمان كان يجهل ما اتصفت به المنحة من الاتساع والأهمية[1]،

---

(١) أوردت الوثيقة الممتلكات المخصصة لرعاية الفقراء، وشموع مذبح القديس بطرس. وهذه الصورة من الهبة تعتبر من الأمور المألوفة في ذلك الوقت، ولا تدل إلا على القصد في منح نوع من « الامتيازات » كالتي طالما منحها ملوك الفرنجة لسائر الكنائس، على أنها لا تعطي حائزها حقوق السيادة. غير ان البابا ادعى لنفسه نوعاً من السيادة على رؤساء أساقفة رافنا، ولجأ إلى تعيين بعض الموظفين القضائيين في مدن دوقية روما. وكان له الحق في أن يعقد محاكمه الخاصة، باعتباره حاكماً على الإقليم. ومع كل هذا اعتبره شارل اكبر موظف كنسي بمملكة الفرنجة وأكثرهم مالاً.

فلو أنه جرى تنفيذها ، لأدى ذلك إلى امتداد سلطة البابا الزمنية ، لأن الحد الشمال الوارد في الهبة يجتاز الأراضي التي تعتبر أصلاً من أملاك اللومبارديين. فلما صار شارلمان ملكاً على اللومبارديين بعد سقوط بافيا ، أدرك خطأه ، فرفض أن ينفذ بدقة ما ورد في الهبة من شروط . كان شارلمان مستعداً لأن يعيد للبابوية كل ما استولى عليه الملك اللومباردي ، ديديير ، من ممتلكات ، غير أنه رفض أن يمنح البابوية ما لم يكن لها من قبل من أملاك ، مثل قورسيقة واستريا . ومع أنه يجل البابوية ، ويحرص على حمايتها من أعدائها ، فإنه اعتبر أن من الحقائق التي لا تقبل المناقشة ، أنه يعتبر نفسه ملكاً على اللومبارديين بحق الغزو والفتح ، والحاكم المطلق للشعب المسيحي ، بفضل الله ورعايته .

أضحى شارلمان في نظر البابوية محسناً لها ، وخطراً عليها في وقت واحد ، إذ أنه أعاد إلى إيطاليا الأمن وكفل لها العدالة ، وقام بحماية البابوية في أملاكها الثابتة . غير أنه كان مصدر تهديد للبابوية لأنه منعها من تحقيق مطامعها الكبيرة في إيطاليا ، وزعم لنفسه أنه حاكم العالم المسيحي في الغرب [١] ، دون أن يحفل بدعاوى البابا في هذه الناحية . ولذا كان لزاماً على البابا أن يكون شديد الحرص في كل علاقاته مع شارلمان ، إذ ليس بوسعه أن يستغني عن حمايته ، ولا يستطيع أن يلحق الإهانة بنصير بالغ القوة ، وفير الإحسان ، غير أنه كان يدرك ما يترتب على رعايته من خطورة ، لأن إدراك شارلمان لمملكته على أنها كالكنيسة ، يشكل خطراً بالغاً ، فإذا لم تبتلع الكنيسة مملكة شارلمان ، فسوف تبتلع المملكة الكنيسة الرومانية .

٣ — وما حدث من تتويج شارلمان امبراطوراً ، يوم عيد الميلاد ، سنة ٨٠٠ ، يعتبر ذروة هذه المشكلة . ذلك أن البابا ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦) الذي

---

(١) ذلك أن منحة قنسطنطين تشير الى ان قنسطنطين عهد بإدارة الغرب الى البابا سيلفستر ، فكان الغرب أصلا من ممتلكات الأمبراطور .

خلف البابا هادريان الأول لم يكن محبوباً عند جانب كبير من رجال الدين في روما ، فنصبوا له كميناً في ٢٥ أبريل سنة ٧٩٩ ، بينما كان يسير في موكب ديني من اللاتران إلى كنيسة القديس لورنس ، فأوقعوا به ، وسيطروا على مدينة روما ، وألقوا به في السجن . غير أن ليو استطاع أن يهرب ، وأن يجتاز جبال الألب ، في طريقه الى شارلمان ، في بادربورن ، يلتمس منه العون والمساعدة ، ولجأ خصومه أيضاً إلى شارلمان ، فاتهموا البابا بالحنث بالأيمان وارتكاب الزنا ، وطلبوا إلى شارلمان ألا يعيده إلى البابوية .

٤ — وكان ذلك موقفاً معقداً ، إذ حرص شارلمان على أن يتأكد ما إذا كان البابا بريئاً أو مذنباً ، قبل أن تزحف جيوشه على روما . ولكن هل كان بوسعه أن يحاكم البابا ؟ أصر الكوين على أنه لا يجوز لأحد مطلقاً أن يحاكم البابا لأنه هو الذي يتولى محاكمة سائر الأشخاص ، كما أنه يعتبر صادقاً في كل ما يقول لأنه أكبر رجال الكنيسة . وكيف يطمئن شارلمان إلى براءة ليو ؟

٥ — لم يكن ثمة من حل إلا بالوصول إلى اتفاق، إذ أن شارلمان كان الشخص الوحيد وقتذاك ، الذي له الحق في أن يعيد البابا ، وهو وحده الذي يستطيع أن يكفل للكنيسة الأمن والسلام فقدم إلى روما وأعاد ليو إلى روما ، ودعا إلى عقد مجمع لينظر في تبرئة ليو من التهم الموجهة إليه ، وأعلن المجمع « أننا لا نجرؤ على أن نحاكم الكرسي الرسولي ، الذي يعتبر رأس كل كنائس الله ، لأنه هو الذي يتولى محاكمتنا ، ولا يجوز لأحد أن يحاكمه » . فكأنهم بذلك اتبعوا رأي الكوين . وحدث ذلك بكاتدرائية القديس بطرس في ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٠ .

وبعد يومين (يوم عيد الميلاد) ازدحم بكنيسة القديس بطرس حشد كبير من الفرنجة وأهل روما . كان البابا ليو يتلو قداساً ، وقام الملك شارل وولداه ببين وشارل ،بالركوع مع جماعة من الرجال البارزين ، أمام ضريح القديس

بطرس . وبينما كان الملك ينهض من ركوعه في ختام القداس ، وضع البابا التاج على مفرقه . وفي لحظة ضجت الكنيسة كلها بالصيغة القديمة للمناداة بالأمبراطور « إلى شارل أغسطس ، المتوج من قبل الله ، الأمبراطور العظيم ، المحب للسلام ، اللهم هَبْه الحياة الطويلة والنصر » . وبينما كان البابا يقوده للطريق ، بادر الحاضرون في صوت جهوري بتلاوة الدعاء المعروف « لك الحمد » Laudes ، دعوا فيه القديسين لنصرة الأمبراطور الجديد وأبنائه ورعاياه .

٦ — على أنه يصح أن نتساءل : منذا الذي كان أول من اقترح التتويج ، وماذا كان المقصود منه ؟ يشير اينهارت مؤرخ حياة شارلمان ، والذي ألف كتابه بعد ثلاثين سنة مضت على وقوع الحادث ، إلى أن شارلمان درج على القول بأنه لو علم بما كان البابا ينوي أن يفعله في ذلك اليوم ، لما دخل الكنيسة . غير أن المؤرخين لم يقبلوا هذا القول إلا في شيء من التحفظ .

وما توافر لدينا من روايتين، عن الجانب البابوي والفرنجي ، نعرضان وجهة نظرهما ، وتشرحان ما كان لهذا التتويج من أهمية . فتشير رواية الجانب البابوي المستمدة من كتاب تاريخ البابوات Liber Pontificalis إلى أن البابا ليو ، قام فعلا بتتويج شارلمان ، وأن سكان روما هتفوا به إمبراطوراً أمام ضريح بطرس الرسول ، فأضحى شارلمان بموافقة الجميع إمبراطوراً على الرومان . وحدث في عيد ميلاد السيد المسيح ، أن مسح البابا ، بالزيت المقدس ، شارل بن شارلمان وجعله ملكاً .

أما رواية الحوليات الملكية التي تمثل جانب الفرنجة ، فإنها أوردت أنه بينما كان الملك يؤدي القداس أمام ضريح بطرس الرسول ، وبينما كان ينهض من الصلاة وضع البابا ليو التاج على رأسه ، ثم هتف شعب روما به أمبراطوراً على الرومان . ولم يلبث البابا أن بذل له الولاء على نحو ما كان يجري للأباطرة السابقين ، وبعد أن تخلى عن لقب بطريق ، صار يعرف بالامبراطور وأغسطس.

وحاول مؤرخ الحوليات الملكية في روايته عن الاحتفـــال الذي وقع يوم عيد الميلاد ، سنة ٨٠٠ ، أن يجعل الأمر كله لا يعدو احتفالاً عاديــاً بالبلاط . إذ كان لزاماً على شارلمان أثناء الصلاة، أن يطرح جانباً التاج والصولجان والرداء الملكي ، والسيف ، كيما يتيسر له الركوع أمام ضريــح القديس بطرس ، وحينما نهض من الصلاة ، وتلقى شارات التتويج ، كان من الطبيعي أن يهتــف الشعب له وأن يمتدحه ، بترديد ألقابه الرسمية ، والإشادة بأعماله الصالحة . وما هو غير عادي في هذه الإجراءات، هو أن البابا هو الذي وضع التاج على رأس شارلمان، وأنه جرى استخدام لقب جديد ، وهو لقب الأمبراطور ، وأن البابـا ركع أمام شارلمان إظهاراً لولائه . على حين أن الرواية البابوية تشير إلى أن ما حدث من تتويج شارلمان ، جرى وفقاً لإرادة الله والقديس بطرس ، لأن شارل أحب كنيسة روما وقسيسها (البابا) ودافع عنها ، ولذا يبدو أن البابا قصد أن يكون للاحتفال من الأهمية ما لا يقره شارلمـــان ، إذ أن ما قام به ليو من تتويج شارلمان أمبراطوراً أكد من جديد سيادة البابوية وتفوقها ، ومنذئذ صار شارلمان حامياً للبابوية ، لا لإنه قاهر وغاز ، بل لأن الكنيسة هي التي منحته اللقب (الأمبراطور) .

على أن شارلمان لم يقر ذلك ، لأنه لا أهمية عنده في ان يعرف بالأمبراطور، إذ أنه أنفق كل حياته في محاولة التفوق على الأباطرة السابقين . لقد حكم الشطر الأكبر من اوربا الغربية ، فـكان حامياً للمسيحية اللاتينية ، ولكنيسة روما ، وكان يفعل من الخير ما يفعله الأمبراطور ، حتى قبل تتويجه . بل أنــه اتخذ من من السلوك ما يليق بالأمبراطور ، فارتدى العباءة الأرجوانية ، اللباس الرسمي للأمبراطور ، ووصف بلاطه بأنه مقدس ، وشيد بلاطه في آخن على نمط القصر الأمبراطوري بالقسطنطينية ، ولما حظي بلقب أمبراطور ، كان سعيداً بذلك لأنه لم يعد ملكاً للمتبربرين . وكل ما أثاره هو ما زعمه البابا بأنه هو المسئول عن

تنصيبه أمبراطوراً ، ولذا حينما أراد في أواخر حياته أن يجعل ابنه لويس قسيماً في الحكم ، قام بنفسه سنة ٨١٣ بتتويجه في آخن لا في روما . وبذا دلّ على أنه لم يدن بمنصبه لما قام به البابا من تتويجه ، ولا لهتاف سكان روما وتهليلهم له ، بل يدين بذلك إلى نفسه .

وكيفما كان الأمر ،فقد جرى التتويج فعلاً ، ومن العسير إزالة أثره وأهميته. فالواضح أن البابا أحيا الأمبراطورية في الغرب ، بأن توج شارلمان أمبراطوراً ، ولم يقصد من وراء ذلك إنكار دعاوى الأمبراطور البيزنطي ، لأنه لم يعترف بحقوق ذلك الأمبراطور في الغرب منذ سنة ٧٧٥ ، بل أنه قبل فكرة شارلمان عن مملكته بأنها تمثل الشعب المسيحي ، وأنه أخضعها لسلطة كنيسة روما . وهذه الصورة الجديدة للتفكير السياسي ، عبر عنها البابا ليو الثالث ، في الفسيفساء التي قامت في اللاتران ، وتمثل القديس بطرس ، وقد ركع أمامه ليو الثالث وشارلمان ، فجعل بيده اليمنى الشارة التي تمثل السلطة الروحية ، وقد قدمها للبابا ، وبيده اليسرى قدم لشارلمان اللواء الذي يمثل السلطة الدنيوية. فالسلطتان الروحية والدنيوية ظهرتا على انهما مستمدتان من القديس بطرس ،وهو الصخرة التي تشيدت عليها كنيسة روما . وتجري ممارسة السلطتين الروحية والدنيوية ، في مجتمع واحد ، يصح ان يسمى كنيسة الشعب المسيحي او دولته، او الأمبراطورية الرومانية المقدسة .

أهمية التتويج :

١ ــ جرى ، لأول مرة ، تتويج رجل جرماني أمبراطوراً على الرومان على يد البابا .

٢ ــ وإذ لم تعد الأمبراطورية الرومانية قائمة فعلاً ، فإن تتويج شارلمان

امبراطوراً على الرومان ، واعتبار مملكة الفرنجة ، الأمبراطورية الرومانيـــة الغربية ، كل ذلك يعتبر خطأ في التاريخ ، لأنه لا يتفق مع الواقع .

٣ — ومع ذلك فإن ما كان لغرب اوربا من تقاليد انتظمت تحت رعايـــة روما ، ظلت من القوة ، ما جعل المعاصرين ، عندما عاد توحيد غرب اوربا على يد رجل جرماني ، (شارلمان) ، يظنون ان العصر الذهبي لغرب أوربا قد عاد . ولذا ليس غريباً ان يقال أن احتفال التتويج كان على الأقل رمزاً لاتحاد المؤثرات الرومانية والمسيحية والجرمانية في المجتمع الغربي ، الذي قد تجاوز البداية .

٤ — على أن أمبراطورية ، أياً كان نوعها ، قد قامت واستمرت ، بعد ان اتخذت صوراً مختلفة ، حتى قضى عليها نابليون سنة ١٨٠٦ .

٥ — يضاف إلى ذلك أنها خضعت لرعاية البابا . ولم تكن لهذه الرعايـــة اهمية ، لأن البابوات لم يستطيعوا أن يفيدوا من هذه السابقة ، لما لشارلمان من سلطة وسيطرة بالغة القوة . ومع ذلك فإن هـــذه السابقـة كانت عوناً قوياً للبابوات في سعيهم للوصول إلى الزعامة في أوربا . فسوف يحل الوقت الذي كان لزاماً عليهم فيه أن يتحدثوا عن فضلهم في إقامة امبراطورية ، وفي نقل التاج من امبراطور الشرق إلى ملك الفرنجة بالغرب ، وما تلى ذلك من سيادتهم على الأمبراطور ، وفي استحالة قيام أمبراطورية او تنصيب امبراطور إلا بموافقـة البابا ، وقيامه بتتويج الأمبراطور .

٦ — وفي تلك الأثناء ، خضع غرب اوربا لزعامة سيد علماني جديد . فقام منذئذ زعيمان ، البابا والأمبراطور ، فضلاً عن أن قدراً كبيراً من الزمن ، والتفكير ، والجهد ، وسفك الدمـــاء ، جرى بذله في محاولة فاشلة ، للفصل في أيهما يعتبر تابعاً للآخر . في زمن شارل لم تحدث مشكلة من هذا القبيل . فما حصل عليه من لقب امبراطور ، الذي أصبح بمقتضاه سيداً على روما والأملاك البابوية ، لم يكن

له من أهمية سوى التصديق على ما كان يمارسه فعلاً من سلطات . وليس لهـذا اللقب الجديد أثر على حكومته في مملكة الفرنجة ، إلا في أنه هيأ له الفرصة لأن ينتزع من رعاياه وأتباعه ، يميناً جديدة للولاء له ، باعتباره امبراطوراً .

٧ — وكيفما كان الأمر ، كان شارلمان حريصاً على الوصول إلى وفاق مـع الأمبراطورية البيزنطية حول اتخاذه لقب امبراطور الرومان . وما كان للبابا من دور في تتويجه ، أدى آخر الأمر إلى تهليل الشعب له والهتاف به ، وحمـل البابوية منذئذ على ان تنزع نفسها من سيطرة بيزنطـــة . على أن الأمبراطور الروماني في نظر بيزنطة ليس سوى امبراطور القسطنطينية ، الذي لا يزال يعتبر نفسه حاكماً على الغرب ، كأن شيئاً لم يحدث منذ زمن الأمبراطـور قنسطنطين الأول . وبدأ يعتبر البابا متمرداً ، ويعتبر شارلمان أيضاً متمرداً . بـل ساد الخوف من ان الأمبراطور الجديد (شارلمان) قد يزحف بجيشه على القسطنطينية ليطيح بالأمبراطور الروماني الحقيقي الذي لم يكن وقتذاك سوى (الامبراطورة ايرين) ، وان ينتزع بالقوة الحكومة الرومانية . ودار النقاش في بعض دوائر الغرب ، حول أحقية شارلمان في اتخـــاذ لقب امبراطور ، نظراً لأن لقـــب الأمبراطور قد اختفى عند اليونانيين (البيزنطيين) الذين تتولى حكمهم امرأة .

٨ — على ان شارلمان أدرك ان تتويجه امبراطوراً على الرومان لا يمنع مطلقاً ان يخلف ايرين على العرش في القسطنطينية أباطرة آخرون . ولذا فكر في ان يتزوج من ايرين ، وبذا يتحد الشطران الشرقي والغربي للأمبراطورية ، ويعتبر ذلك بعثاً جديداً لروما . ولم يتحقق هذا المشروع ، برغم موافقة ايرين ، نظراً لما نشب من ثورة أطاحت بها ، وأدت إلى نفيها سنة ٨٠٢ .

٩ — اعترف الأمبراطور البيزنطي ميخائيل الأول ، سنة ٨١٢ بشارلمـان أمبراطوراً على الرومان بعد ان تخلى عن دعاويه في البندقية واستريا وساحـل دالماشيا . وقام الاعتراف على نظرية انما سبق أن حدث سنة ٣٩٥ زمن الأمبراطور

ثيودوسيوس من انقسام الأمبراطورية الرومانية إلى قسمين ، قد جرى من جديد ، بأنه ليس ثمة إلا امبراطورية رومانية واحدة ، يحكمها امبراطوران . وهذا التلاعب بالحقائق التاريخية يكشف عن التفكير السائد في الشرق والغرب في القرن التاسع . إذ فقد اسم روما ما كان له من سحر ، غير أنه لا زال يمثل النموذج المثالي لوحدة سياسية تضم جميع العالم المسيحي ، أو على الأقل العالم المسيحي في الغرب . كان ذلك أهم ما حدث حول احتفال التتويج يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠م .

١٠ – وما اشتهر به شارلمان من أفكار كبيرة عن واجباته ، جعله يبتعد كثيراً عن أسلافه الميروفنجيين بل عن جده وأبيه . إذ قامت حكومته على الأحكام الإلهية ، وبإلهام مباشر من الله . إذ أنه لم يكن سوى نائب عن الله ، في تحقيق الهدف الرباني ، وما حدث من رسامته وتتويجه على أيدي كهنة الله وهبه صفة مقدسة . وفي المرسومات [1] التي كان يصدرها ، لم يفرق شارلمان بين الأمور السياسية والأمور الأخلاقية أو الدينية ، لأن هذه التفرقة لم تخطر على باله ، وكلها سواء في أنها تمثل جانباً من أمر الحكومة .

١١ – تعتبر امبراطورية شارلمان النتيجة الخطيرة لما أجراه الإسلام من تحطيم ميزان اوربا . إذ صارت هذه الامبراطورية ترجع من جهة إلى أن انفصال الشرق عن الغرب ، جعل سلطة البابا قاصرة على غرب اوربا ، ومن جهة اخرى إلى ان استيلاء المسلمين على اسبانيا وإفريقية ، جعل ملك الفرنجة سيداً فحسب

---

(١) لم تكن المرسومات Capitulaires قوانين ، إذ أن كلا منها عبارة عن خليط من الاقتراحات والأفكار والأوامر المتناثرة . وتحمل المرسومات طابع السرعة ، فقلما تعرضت للشرور الخفية التي دلت عليها بعض الأخطاء ، ولذا لم تنفذ إلى أغوار الأشياء ، كما أن قصور الرأي العام ، والمصالح الطبقية والتقاليد والعادات ، كان لها من القوة ما لا يستطيع المصلح أن يقاومه . واختلفت المرسومات عن القوانين ، في أنها تاقائية شاملة ، لم يجر وضعها إلا في ضوء المستقبل ، ولم تكن ردوداً جافة معدة للاحتجاج على الأخطاء الضخمة الظاهرة .

على الغرب المسيحي ، وأضحت أمبراطوريته أمبراطورية الغرب . وكان مقر هذه الأمبراطورية في الشمال ، الذي تحول إليه مركز جاذبية أوربا . وما حدث من انهيار وحدة البحر المتوسط ، بعد الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الثامن ، أدى إلى أن يتحول محور العالم من شواطىء البحر المتوسط إلى الشمال .

١٢ — وإذ تم الاعتراف بأمبراطورية شارلمان في الغرب ، التزمت بكل المسئوليات نحو جميع المسيحيين في كل مكان . والمعروف أن شارلمان جعل تحت حمايته ، قبل التتويج ، جماعات عديدة ، فأضحى الفونسو ملك اشتورياس باسبانيا (٧٩١ — ٨١٠) من أتباع شارلمان ، وارتبط الأمبراطور بأواصر الصداقة مع الرعايا المسيحيين الذين يخضعون للخلفاء الأمويين بالأندلس ، بل أنه أنزل جماعة من المسيحيين عبروا حدود اسبانيا إلى غاله ، في مستعمرات زراعية ، مع احتفاظهم بقوانينهم وعاداتهم ، فضلاً عن إعفائهم من المقررات والرسوم ما عدا الخدمة العسكرية . أما الكنائس الواقعة بشمال أفريقية وبيت المقدس والاسكندريه وسائر جهات الشرق ، فإنها حظيت بعطف الأمبراطور وتسامح المسلمين . وفي سنة ٧٩٩ أرسل بطريرك بيت المقدس إلى شارل عدداً من المخلفات المقدسة ، وفي سنة ٨٠٠ ، بعث إليه بعلم كنيسة القيامة ومفاتيحها . وما تردد من السفارات بين شارلمان وهرون الرشيد ، كان من أهدافها ، معالجة أمر المسيحيين في الشرق ، فبذل شارل الهبات لكنائس أفريقية والشرق ، وشيد مستشفى للحجاج اللاتين في بيت المقدس .

١٣ — والراجح أيضاً أنه كان من أهداف هذه السفارات تنسيق جهود شارلمان وهرون الرشيد إزاء البيزنطيين في الشرق والأمويين في الأندلس . فما اتبعه شارل من مهاجمة اسبانيا الأموية ، يقابله ما حدث سنة ٨١٢ من هجوم إسلامي على جزائر قورسقية وسردينية وصقلية وإيطاليا ذاتها ، التي تعتبر من أملاك بيزنطة . وما حدث من استمرار غارات المسلمين في الشرق زمن هرون

الرشيد وابنه المأمون على الأملاك البيزنطية في آسيا الصغرى ، ارتبط بانقطاع العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة والغرب . ولعل ما أصاب نقفور من خيبة الأمل في القضاء على التفاهم بين شارلمان وهرون الرشيد ، هو الذي أجبر الأمبراطور البيزنطي ميخائيل على الاعتراف بشارلمان امبراطوراً سنة ٨١٢ .

شخصية شارلمان

ما لدينا من معرفة عن شخصية شارلمان مستمد من مؤرخ حياته ،اينهارت، ومن راهب دير القديس جال ، ومن قصة تيربين وما تفرع عنها من القصص ، برغم امتزاجها بالخيال ، فضلاً عن الأختام والنقود . وكل هذه المصادر تعرض وصفاً مقبولاً لشارلمان ، بأنه كان عريض الوجه ، طويل الشارب ، مرتفع الجبهة ، حليق الذقن ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، قوي البناء ، ذا أنف مقوس كمنقار الصقر . ويروي اينهارت أن شارل تجاوز الحد المألوف في الطول ، اشتهر بالصوت الواضح ، وبعينين واسعتين حادتين ، غير أنه أفسد مظهره قليلاً ، ما اشتهرت به رقبته من القصر والكثافة ، غير أن ما اتصف به من الوقار والرزانة ، أخفى كل هذه العيوب .

أما أخلاقه فنستخلصها من حياته العامة التي لا تختلف عن سائر مواطنيه فيها ، إذ كان سريع التأثر بالأفكار الكبيرة ، على أنه يختلف عنهم فيما اشتهر به من قوة التركيز على أغراضه ، وبما اتصف به من التروي والتفكير ، والعزم في تنفيذ هذه الأغراض . وإذ حرص على الإلمام بالتفاصيل في كل أمر من الأمور ، استطاع أن يقف على كل مصالح أمبراطوريته الشاسعة .

تعلق شارل بارتداء ملابس الجرمان ، فاتخذ حذاء طويل الرقبة ، والتف على ساقه جورب أحمر ، وارتدى سترة من الكتان شدّ عليها منطقة ، جعل بها سيفه ، واتخذ عباءة مربعة الشكل ، بيضاء أو زرقاء اللون ، بلغت ركبتيه من الجانبين .

واشتهر شارل بالطلاقة في الحديث ، وإجادة اللغة اللاتينية ، بينما كان فهمه لليونانية يفوق التحدث بها [١] . وحرص على أن يتعلم قواعد اللغة وسائر فنون المعرفة . وحاول الكتابة ، ودأب على أن يضع لوح الكتابة وأدواتهـــا تحت وسادته ، حتى إذا تهيأ له وقت فراغ ، يتدرب على كتابة الحروف الأبجدية ، غير أنه لم يصب شيئاً من النجاح ، لأنه لم يبدأ هذا التعلم إلا حينما تقدم به العمر.

ولم يختلف شارل عن أسلافه وعن الميروفنجيين في الميـــل إلى الحركة والانتقال . وانتشرت العواصم الملكية في سائر أنحاء ممتلكاته ، ودرج شارل على أن يمضي عيد الميلاد في حاضرة ، وعيد القيامة في حاضرة أخرى ،ويتحرك البلاط مع الأمبراطور ، كما أن مدرسة القصر لم تكن ثابتة . وهـــذا الانتقال والارتحال كان فيما يبدو يخدم غرضاً سياسياً ، ذلك أن الحاكم على أقوام جفاة بدو ، كان يحرص على أن يظهر أثر حكومته في جميـع أنحاء المملكة . يضاف إلى ذلك أن شارل تأثر بأهواء أسلافه المتبربرين ، فاعتمدت داره على ما ينتج من ضياعه الشاسعة ، ولذا حرص على أن تتساوى فيما تبذله من المنتجات ، أما الحواضر البعيدة التي لا يزورهـــا إلا نادراً فحرصت على أن تؤدي له كل سنة نصيبها من المؤن .

على أن مدينة آخن (أكس لاشامل) بألمانيا الحاليـة ، اختصت بعطفه ، لما توافر بها من الينابيـــع العلاجية الدافئة ، ولوقوعها في أشد أجزاء المملكة قسوة وغلظاً ، بعيدة عن الطرق الرئيسية للتجارة والحرب ، ولم تكن في وقت من الأوقات كثيرة السكان . ومع أن شارل ورجال بلاطه كانوا يميلون إلى أن يطلقوا عليها « روما الجـــديدة » فإنها لم تكن مدينة كبيرة ، فالقصر ودار السناتو والكنيسة الملحقة بالقصر ، تعتبر كلها نواة آخن ، وتولى جميـــع السكان

---

(١) أنظر الملحق ١٥ .

تأدية حاجات القصر. وانتزع شارل من قصور أرخونات رافنا الأعمدة الرخامية والفسيفساء لاستخدامها في زخرفة الكنيسة . وتم تشييد القصر على نسق ما هو معروف عند الفرنجة ، غير أن الحجارة والرخام دخلت مكان الخشب .والمعالم البارزة ، أمثال البهو والسقيفة والحجرة العلوية التي يستقبل فيها صاحب الدار الزائرين ، ترجع إلى ما كان معروفاً زمن كلوفيس . ويتبع القصر ، حمام سباحة كبير ، ومنتزه حافل بالأشجار وزاخر بحيوانات الصيد ، شبيه بما كان معروفاً في باريس زمن الميروفنجيين .

وأدرك شارل قبل وفاته ، ما تتعرض له امبراطوريته الشاسعة من الضعف في الداخل ، ومن الأخطار الخارجية . فما عانته الأمبراطورية من إذلال في الثلاثة عشر سنة الأخيرة من حكمه ، كان نذيراً بما سوف يقع من كارثة ، لما حملته في طياتها من أدلة على ضعف الحكومة المركزية ، وعجز الحكومة المحلية ، وتداعى نظام الخطط الحربية والاستراتيجية ، وضعف العناصر الحربية التي سبق أن أحرزت الانتصارات الباهرة ، كل ذلك كان إيذاناً بانهيار الأمبراطورية.

على أن عملية التداعي وأسبابها ، لم تظهر إلا بعد أن أوغلت عوامل الهدم في أعمالها . فما اتصف به بلاط شارل من الروعة ، التي بهرت عيون المعاصرين ، أخفت عنهم ما اتسمت به الأمبراطورية من الاضطراب ، وعوامل الفناء ، كما أن وقار شارل وجاذبية شخصيته ، وقدرته الإدارية ، حجب عنهم افتقاره إلى بعد النظر السياسي . أمدّ شارل حدود دولته إلى نهري الألب والدانوب ، وتجاوز سلطانه جبال البرانس ، وبلغ المناطق الواقعة جنوب روما ، ومع ذلك لم يستقر الأمن والسلام ، على هذه الأطراف ، فافتقاره إلى أسطول وجيش ثابت ، جعل سواحل فرنسا وايطاليا تتعرض لغارات الشماليين والمسلمين، وأدى إلى نزوع قيادات الأطراف ، إلى الاستقلال عن الأمبراطورية ، ومنها ما صار نواة لممالك أوربية فيما بعد ، مثل أوستريا وبروسيا . كما أن الحاجة إلى سياسة مرسومة في البحر المتوسط ، تضارع ما اتصفت به سياسة بيزنطة من البراعة ،

منعت شارل من ممارسة الضغط على بنيفنتو (من أملاك اللومبارديين في إيطاليا، وقد احتفظت باستقلالها طوال حكمه) ، حتى تتم تسوية مشكلة جنوب ايطاليا التي ظلت في العصور التالية أعقد المشاكل في شبه جزيرة ايطاليا . يضاف إلى ذلك أن قصوره في استخدام وسائل الرومان في الإدارة ، أسهم في تفكك الأمبراطورية حينما سنحت الفرصة ، وزالت اليد القوية التي تفرض سلطانها . ففي إيطاليا ، التي ظهرت فيها النزعات الإقطاعية زمن الحكم اللومباردي ، ازدادت سلطة القضاة وجباة الضرائب على حساب السلطة المركزية . بل ان الأساقفة الذين كانوا مبعوثين ملكيين أخذوا يعتبرون ما حصلوا عليه من حقوق، امتيازات وراثية ارتبطت بكنائسهم ، ولم يعد الكونتات موظفين تابعين للأمبراطور ، يعزلهم كيفما شاء ، بل غدوا أتباعاً حازوا أملاكهم على أنها اقطاعات ، لا على أنها من مقتضيات وظائفهم . فالذين حلوا بإيطاليا من نبلاء الفرنجة والبافاريين ، أضحوا من الأرستقراطية مالكة الأراضي ، ونجم عن ذلك ظهور أسرات كبيرة في فريولي وتسكانيا وسبوليتو . كما ازداد استقلال اكيتانيا وبافاريا ، وسادت التقسيمات القبلية في المانيا ، حيث اختص الدوقات بحكمها .

وقام الأمبراطور بتشخيص هذا التدهور والانحلال ، فمرسوماته التي صدرت بعد سنة ٨٠٠ ، انطوت على كثير من الأسى ، وطفحت بالمرارة والكراهية لكبار الموظفين ، إذ تشير إلى ما كان من تجسس الأسقف على الكونت ، فيأبى الكونت أن يقر الأسقف على القضاء ، ويزداد الأمر سوء إذا اتفقا في العمل ، إذ يدبران انتزاع حرية الأفراد وضياعهم . ويكتشف الأمبراطور أن الملاك الأحرار الذين يعتبرون العمود الفقري لجيشه ، سوف يتناقص عددهم رويداً رويداً ، لأن بعضهم لجأ إلى الكونت ، وباع فريق منهم أراضيه للكنيسة ، ليتجنبوا الظلم . أما البقية الباقية فساومت الكونت على أن تشتري منه الإعفاء من الخدمة العسكرية ، وإلا تعرضت للاستبداد والغرامات ، فلم يبق لديها من

المال ما يكفي للسلاح والمؤونة . فإذا التفت إلى الكنيسة ، تبين له أن الرهبان ليسوا إلا متشردين كسالى ، وان القسس أميون منحلون ، لم يؤدوا واجب التبشير والتعليم ، فتوافرت الشكاوي ، وتزايد عـــدد اللصوص الأشداء ، ولم تتوافر الثقة في المحـــاكم . فلم يسع الأمبراطور آخر الأمر إلا ان يشجع ظهور الفئات الإقطاعية ، وازدياد سيطرة السيد على تابعه ، والإكثار من الإعفاءات الكنسية . فإذا صارت فئة قليلة العدد مسئولة عن عدد كبير من النـاس ، فلا شك أن ذلك ، على حد ظنه وتفكيره ، سوف ييسر تنفيذ القانون . على أن هذه التجربة لم تلق شيئاً من النجاح ، إذ تعرضت الدولة للخراب على أيدي هذه الفئات التي التمس منها المساعدة، لأن كلاً من التابع والمقطـع الكنسي لم ينتظر الأوامر من الأمبراطور ، بل دان بالولاء لسيده المباشر . وبذلك دارت العجلة دورة كاملة ، وهوى الكارولنجي إلى نفس ما كان للميروفنجي من سيادة جوفاء ، وأضحى الـكارولنجي واحداً من بين زعماء عديدين ، ولم تعد قوته الفعلية سوى قوة رفاقه في الحرب والأتباع الملتفين حوله . على أنه سوف يأتي الوقت الذي لا يستطيع فيه رفاقـه في الحرب أن يثيروا الخوف في سائر الناس ، وسوف يقل عددهم ويتبدد شملهم ، ويتطلعون إلى الاستقلال .

أحسّ شارل بأنه أتم رسالته ، وفكـّر في الالتجاء إلى أحد الأديرة ، يمضي به ما تبقى من عمره . فرغ قبل سنتين من وفاته من وضع وصيتـه ، التي أوردها اينهارت في ترجمة حياة شارل ، وتقضي بتوزيـع ما تركه في خزائنه من الذهب والفضة والتحف على الكاثدرائيات بمملكته وعلى أبنائه وحواشيه من العبيد والخدم ، والفقراء .

وأمضى الأمبراطور الأسابيع الأخيرة من سنة ٨١٣ في آخن ، في الصلاة ، وبذل الصـدقات ، أو الإشراف على تقويم مخطوطات الكتب المقـدسة . وفي أواخر يناير سنة ٨١٤ دهمته حمى عنيفة ، لم تلبث ان تطورت إلى التهاب

بلوري ، وساءت حالته ، ولم يلبث أن قضى نحبـــه في ٨ فبراير سنة ٨١٤، ثم جرى دفنه في كنيسة العذراء .

وأورد اينهارت نص الكتابة التي نقشت على النصب القائم على المقبرة. «تحت هذا الغطـاء ، يستقر جثمان شارل ، الأمبراطور العظيم المؤمن بالله ، الذي وسّع رقعة مملكة الفرنجة ، وافترن حكمه بالسعادة مـدة سبع وأربعين سنه ، مات في السبعين من عمره ، سنة ثمانمائة وأربع عشرة من تجسيد المسيح » .

وطالت أحزان رعيته وازدادت شدة ، فلا زالت الأمبراطورية التي أقامهـا تحظى باحترام الناس، وما كان من توقع تفككها ، ملأ قلوب الناس حزنا وغمًّا.

شارل في القصص

إن أحب اسم أشتهر به شارل في التاريخ ، وهو شارلمان ، كان من ابتـكار الفرنسيين ،إذترددفي أناشيد التروبادور . وكان شارل معروفاً عند معاصريه باسم كارولوس Karolus أو كارل ، بينما عرفه الانجليز دائمـاً باسم شارلمان وأطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم قارلة . ويفخر الفرنسيون بأن شارلمان ينتمي لهم، فأحاطوه بسلسلة من القصص ، وأخذوا عنه من الأفكار السياسية ما يثير الخيال والتصور ، مثل تمجيد المقر المقدس (روما) ، والاهتمام بالمعاقل الشرقية للعالم المسيحي ، والحماس الصليبي .

على أن أصول أسطورة شارلمان ، ظلت مطوية في زوايا الغموض ، وكل مـا هو معروف عنها ، أن اسسها ترجع إلى القرن التـاسع وأوائل القرن العاشر . إذ أن قصصاً لا حصر له عن بيت أرنولف ذاع في أنحاء فرنسا، وإتخذ الشعراء المنشدون الوقائع المثيرة مثل حصار بافيا ، وهزيمة رونسيفال ، والفوا منها مقطوعات مثيرة ، اعتبرها السامعون لها موجزاً لما وقع فعلا من الأحداث. وتناولت بعض الأغاني والأناشيد أسماء كبار الفرسان ، على أن المؤلفين لم يقنعوا

بالحقائق المجردة ، بل أضافوا إليها حلقات من نسيج خيـالهم ، أو من قصص تتعلق بالأبطال السابقين . وبذا تطورت التقاليد الشعبية منفصلة ومستقلة عن المصادر الأدبية ، برغم ما نفد إليها من روايات تاريخية من هـذه المصادر ، فتعاليم رجال الكنيسة كان لها تأثير قوي ، بأن جعلت شارلمـان في الأناشيد أنموذجا للفارس الكامل والرجل السياسي الكامل .

ويتصل بشارلمان أيضاً انشودة رولان ، التي ألفها كاتب مجهول عقب استيلاء النرمان على انجلترا ، سنة ١٠٦٦ ، وقبل قيام الحرب الصليبية الأولى . والواضح أن شاعراً نورمانياً عاش في انجلترا ، هو الذي ألفها لتلقى على مسامع الناس . وتشتهر هذه الأنشودة بما لها من وحدة تمثيلية رائعـة ، جرت كتابتها بأسلوب يصلح للألقاء لا للغناء . والمقصود مـن هذه الأنشودة أن تسد فجوة في سلسلة طويلة من الأحداث . إذ كان الأمبراطور فعلا بأسبانيا ، قبل سبع سنوات من بداية القصة ، وقد استولى على كل اسبانيا من البحر إلى البحر ، باستثناء حصن مارسيلا في سرقسطة . وتفترض الأنشودة أن السامع يعلم بما حدث مـن حصار مواقع وحصون بأسبانيا وبالأحوال التي جرى فيها اغتيال رسل الأمبراطور .

ومع أن هذه الأنشودة ترجع إلى زمن مبكر ، فإنها تبتعد كثيراً عن روح القرن التاسع ونغمته . ومـا تنطوي عليه مـن أفكار تناسب العصر الذي سادت فيه الروح الصليبية .

ومن هنا دخلت الملحمة الأسطورية في مرحـلة جديدة من التطور إذ ساد الاعتقاد بأن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية .

وإذ اكتمل قصص شارلمان في فرنسا ، جرى تقليده في بـلاد أخرى ، في المانيا ، وفي النرويج ، وفي اسبانيا ؛ وفي ايطاليـا . والخلاصة أن شارلمان الأسطوري كان فرنسياً ، فلما انتقل إلى بلاد أخرى ، أضحى مجرد صورة باهتـة .

ملحق ١٣

مرسوم عن المبعوثين
سنة ٨٠٢

مقدمة

ما قام به شارلمان من محاولات لإنشاء حكومة مركزية ثابتة ، ينعكس فيما وصل الينا من تشريعات كثيرة عن عهده . واتخذ التشريع صورة القرارات أو التعليمات التي تنطوي على موضوعات ومصالح عديدة . وهذا المنشور العام الذي نوردهنا ترجمة جانب منه ، أصدره شارلمان سنة ٨٠٢ ، بعد تتويجه ، وبعد أن عاد من ايطاليا . ويشمل تعليمات كثيرة ، وجهها إلى موظفيه ورعاياه ، بشأن علاقتهم به ، بعد ان اصبح امبراطوراً . وصار موكولا للمبعوثين ، الذين ظهروا لأول مرة في هذا المنشور ، على أنهم موظفون نظاميون في الأمبراطورية ، بأن يقوموا باذاعة هذه التعليمات وتنفيذها .

* *

١ — فيما يتعلق بالمبعوثين الذين يرسلهم الأمبراطور .

لقد وقع اختيار كارل ،الأمبراطور المسيحي البالغ الوداعة ،على فئة من أقدر الرجال وارجحهم عقلا ، من بين النبلاء ، ورؤساء الأساقفة ، ورؤساء الأديرة

والأتقياء من العلمانيين ، وبعث بهم في أنحاء المملكة ، وعن طريق هؤلاء الممثلين له ، جعل لرعاياه من القواعد ما يهديهم في حياتهم سواء السبيل . وأمر هؤلاء الرجال أن يفحصوا ما قد ينطوي عليه القانون الذي صدر وقتئذ ، من قصور في العدالة والمساواة ، وأن ينهوا إليه بذلك ، حتى يتسنى له تقويم هذا القانون وإصلاحه . وأمر بأنه لا ينبغي لأحد أن يتجاسر على تغيير القانون القائم ، بما يلجأ إليه من الحيلة أو الغش ، أو يحول سير العدالة لأغراضه الخاصة ، مثلما درج كثيرون على فعل ذلك ، أو يسيء معاملة كنائس الله ، والفقراء ، والأرامل ، واليتامى ، او كل مسيحي . على انه أمر جميع الناس أن يسلكوا الحياة الصادقة التي تتفق مع أحكام الله ، وأن يلتزم كل منهم مكانته ومهنته : بأن يقتصر رجل الدين على ملاحظة قواعد حياة الديرية دون أن يفكر في أن يظفر بكسب ، وأن تهتم الراهبات بحياتهن وسلوكهن ، وأن يلتزم العلمانيون بمراعاة القانون عدلا وصدقا ، وأن يعيش الجميع ، آخر الأمر ، سويا في سلام كامل ، ملؤه المحبة والاحسان . وأمر مبعوثيه الذين يحرصون على الظفر برضى الله القوي العظيم ، وعلى ما وعدوا به من المحافظة على الايمان ، بأن يمعنوا النظر والفحص في كل قضية يشكو صاحبها أنه لم يظفر فيها بالعدالة ، وأن يكفلوا العدالة للجميع ، لكنائس الله المقدسه ، والفقراء ، والأرامل ، واليتامى ، ولجميع الناس . وإذا تبين أن من القضايا ما لم يستطع المبعوثون بمساعدة الكونتات أن يكفلوا لها العدالة والسلامة ، فلا بد أن ينهوا للأمبراطور بكل ما يتعلق بهذه القضايا . وينبغي ألا يمنعهم من اقرار العدالة ، ما يبذله لهم بعض الناس من الملق أو الرشوة ، أو محاباة أصدقائهم أو الخوف من سطوة الأقوياء .

٢ — يمين الولاء للأمبراطور

أمر الأمبراطور أيضاً ، أنه ينبغي على كل رجل بمملكته — سواء كان من رجال الدين أو من العلمانيين —سبق ان اقسم له اليمين ، يمين الولاء ، وهو ملك ،

ان يبادر بأن يحلف اليمين من جديد ، بعد أن صار امبراطورا . وينبغي على كل الأشخاص الذين يتجاوزون الثانية عشرة من أعمارهم،ولم يسبق لهم أن اقسموا يمين الولاء ، ان يبادروا الآن إلى ذلك . وينبغي ان يعلم الجميع طبيعة اليمين ومداها ، لأنها لم تنطو فحسب كما يظن بعض الناس ، على بذل الولاء للأمبراطور طوال الحياة ، وعلى التعاهد بألا يدعو عدوا لدخول المملكة ،وعلى ألا يخفي كل ما يخل بولائه له ، أو يمتنع عن الولاء له ، بل تشمل اليمين أيضاً كل ما يلي :

٣ – اولاً – ينبغي على كل شخص أن يبذل كل ما بوسعه من جهد فكري وبدني في خدمة الله وفقاً لأحكام الله ، ولما بذله من وعد له ، لأنه ليس بوسع الامبراطور أن يبذل لجميع قومه الرعاية الضرورية .

٤ – ثانياً – لا ينبغي لاحد أن يزعم لنفسه خطأً ، أو ينتزع او يخفي كل ما يعتبر ملكا للأمبراطور ، امثال : الاراضي ، والرقيق ، بما يلجأ إليه من الأيمان الحانثة أو الغش والتدليس ، أو عن طريق المحاباة والرشوة . ولا ينبغي لاحد أن يحوز أو يخفي الارقاء الآبقين من الاراضي الملكية ، بما يلجأ إليه من الايمان الكاذبة أو الغش والتدليس .

٥ – لا ينبغي لاحد أن ينزل الضرر أو يرتكب الغش مع كنائس الله المقدسة ، والارامل ، واليتامى ، والغرباء ، لان الامبراطور يعتبر ، بعد الله والقديسين ، حامياً لها .

٦ – لا يجوز لاحد أن يخرب ما حصل عليه من اقطاع من الامبراطور ، او يدعي امتلاكه له .

٧ – لا يجوز لاحد أن يغفل ما يوجه إليه من الامبراطورمن الدعوة للمضي للقتال . وينبغي على الكونتات الا يعفوا احد من الخدمة العسكرية ، لما كان

بينهم من صلة القرابة ، أو لما يبذله احدهم له من الملق أو الهدايا .

٨ – لا يجوز لأحد أن يعترض سبيل ما يصدره الأمبراطور من أوامر ، أو يتهاون في عمله، أو أن يجري من التصرف ما يخالف إرادة الأمبراطورواوامره. وينبغي على كل شخص ألا يغفل تأدية ما هو مقرر عليه من الضرائب أو الرسوم.

٩ – لا يجوز لأحد ، مهما كان السبب ، ان يتولى بدون وجه حق ، الدفاع عن شخص آخر ، امام المحكمة ، اما بالسعي للحصول على الربح إذا كانت القضية ضعيفة ، واما بأن يستخدم براعته في الاستدلال لتعطيل الحكم العادل ، واما بحرصه على الحاق الظلم به ، إذا كانت القضية ضعيفة .

وينبغي أن تنطوي اليمين للأمبراطور على مراعاة كل ما سبق ذكره من الأمور .

ملحق ١٣

منح الحصانة (الإعفاء) لأحد العلمانيين

سنة ٨١٥

باسم سيدنا ومخلصنا المسيح عيسى، نحن الأمبراطور لويس (التقي)، أغسطس، بفضل عناية الله ورعايته، نعلن جميع الرعايا، في الحاضر والمستقبل، أن يوحنا، احد رعايانا المخلصين، جاء الينا، وانتمى الينا، والتمس منا أن نصدق على على امتلاك الأراضي التي قام هو وأبناؤه، بازالة الأشجار منها، ثم حلّوا بها. وعرض علينا الوثيقة التي حازها من والدنا شارل الكبير. لقد رضينا أن نفعل هذا، وأن نفعل ما هو اكثر منه. منحناه ضيعة (جرى ذكرها) بكل مساحتها وتوابعها، على أن يحوزها هو وابناؤه وذريته، في سلام واطمئنان. ولا يجوز للكونت ولا لمرءوسيه، ولا لموظف عام، أن ينظر في قضايا الأشخاش النازلين بهذه الأراضي، أو يقبض على احد منهم، بل ان يوحنا وأبناءه وذراريهم هم الذين يتولون القضاء والقاء القبض على الأشخاص بهذه الأراضي.

ملحق ١٤

رسالة شارل الى باوجولف

رئيس دير فولدا ، سنة ٧٨٧

يبعث شارل ، ملك الفرنجة واللومبارديين، وبطريق الرومان ، بفضل الله ورعايته ، باسم الله القوي العظيم، بتحيته الصادقة إلى رئيس الدير «باوجولف» وإلى من يتولى رعايتهم من الرهبان بهذا الدير . ليكن معلوما أن ما يعتبر بالغ الأهمية عندنا أن من يظهر من الرهبان في الأسقفيات والأديرة بمملكتنا الميل إلى التعليم ، ينبغي أن يعكفوا على الدراسة إلى جانب ما درجوا على تاديته من واجبات . فما تقوم به قواعد الديرية من ترقية الآداب والخُلق ، تضارع ما تبذله ممارسة التعليم والتعلم من وسيلة نقية ومقبولة . فلتدع اولئك الذين يلتمسون رضى الله بما يمارسون من حياة صادقة ، يعملون ايضاً على إرضائه بالتزام الصواب عند الكلام: إذ ورد « انك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان [١] » فعلى الرغم من أن العمل الطيب اهم من المعرفة ، فلا بد للمعرفة أن تسبق هذا العمل الطيب. وما دعانا إلى كتابة هذه الرسالة إليكم، إلا لما انطوت عليه الرسائل التي تلقيناها من الرهبان ، والتي انهوا فيها الينا كل ما يطلبونه ، من اسلوب وعبارات سقيمة ، برغم ما تحويه من عواطف صادقة . إذ لم يكن تعبيرهم سليما

(١) انجيل متى ١٢ ، ٣٧ .

عن العواطف التي يكنونها لنـــا ، لأنهم اهملوا دراسة اللغة ، ولذا فاننا اخذنا نخشى أن يفقد الرهبانالقدرة على تفهم الكتب المقدسة ،مثلما اغفلوا فنالكتابة. فاذا كنـا نعلم أن الأخطاء في الكلمات تعتبر خطيرة ، فإن اخطر من ذلك الخطأ في الفهم . ولذا فـإنني احثكم على المثابرة والدأب على التعلم ، وعلى ان تمعنوا في استخدام العقل في التعمق في فهم أسرار الكتب المقدسة، فالمعروف ان الكتابات المقدسة تحوي من العبارات البلاغية ، ما لم يستطع فهم معناهاالروحي إلا اولئك الذين درسوا الآداب . فلتختر لهذا العمل من اولئك الرجال مـن استطاع واحب ان يتعلم ، وان يعلم الآخرين . إذ اننا نود ان يتوافر لك مـن العفة في الحياة ، وسلامة اللغة في الحديث ، مثلما اشتهرت به في مركزك مـن التقوى والعلم . ولذا فإن كل شخص دفعته شهرتنا وصيتنا إلى التماس التقوى والقداسة ، وأراد أن يزورك ، لا بد أن يتأثر بمظهرك ، وينبغي عليك التعليم ، الذي يتمثل فيتلاوتك وانشادك ،وعندئذ فسوف يرحل الزائر مسرورا ،شاكراً لله فضله . لا تتوان في أن ترسل من هذه الرسالة نسخاً الى نوابك وزملائك من الأساقفة وإلى كل الأديرة ، حتى تفوز برضانا .

ملحق ١٥

شارلمان

كما وصفه اينهارت (٧٧٠ — ٨٤٢)

مقدمة

ولد اينهارت حوالي سنة ٧٧٠ . تلقى تعليمه في دير فولدا ، فاظهر من الاستعداد والاجتهاد ما دعا رئيس الدير إلى أن يزكيه ليتقلد وظيفة في بلاط شارل ، سنة ٧٩١ . ولم يلبث اينهارت أن حظى بمكانة كبيرة ، إذ لم يكن مجرد دارس للكتب المقررة ، بل انه تزود من مدرسة الدير بقدر كبير من الدراية الفنية والصناعية . ولأينهارت كتابات عديدة ، بالغة القيمة والأهمية ، غير أن كتابه « حياة شارلمان » يعتبر أشهر كتاباته واكثرها أهمية .

* * *

إذا تحدث شارلمان ، كان طلقاً ، قوي الاستعداد ، وبوسعه ان يعبر بوضوح عن كل ما اراد . لم يكتف في تأدية ذلك بلغة قومه ، بل اهتم بتعلم اللغات الاجنبية . فبلغ من اتقانه للاتينية ان صار بوسعه ان يتحدث بها مثلما يتحدث بلغته القومية ، غير ان فهمه لليونانية يفوق قدرته على التحدث بها . وبلغ من طلاقته في الكلام ، انه تراءى ، في بعض الاحوال ، انه كثير اللجاجة .

وجه شارل اكبر اهتمامه للفنون الحرة ، فخص أولئك الذين يعلمونها بأكبر قدر من

التبجيل والاحترام، وبما غمرهم به من التشاريف. وتلقى تعليمه في النحو عن الشماس بطرس البيزاوي ، وهو رجل طاعن في السن . غير أن معلم شارل في سائر العلوم ، كان الشماس البينوس المعروف بالكوين ، وهو بريطاني سكسوني ، يعتبر أعظم علماء عصره . وكان شارل يقضي شطراً كبيراً من الوقت ، ويبذل جهداً كبيراً كيما يتعلم من الكوين البلاغة والجدل ، فضلا عن الفلك بصفة خاصة . وتعلم أيضاً علم العدد والحساب ، وبفضل دقته في استخدامه ، قدر بكل دقة مسالك النجوم . وحاول أيضاً أن يتعلم الكتابة ، ولتحقيق هذا الغرض درج على أن يحمل معه ، أو يجعل تحت وسادته ألواح الكتابة وأدواتها ، كيما يروض نفسه في أوقات الفراغ على رسم الحروف . غير أنه لم يظفر إلا بتقدم ضئيل في هذا العمل الغريب ، الذي ابتدأه بعد أن تقدم به العمر .

ووجه شارل كل اهتمامه وعنايته للديانة المسيحية ، التي نشأ عليها من طفولته ، ولذا شيد في آخن كنيسة بالغة الضخامة والجمال ، وزينها بالذهب والفضة والشموع ، وجعل لها الأبواب المكفتة بالنحاس . ونظراً لأنه لم يستطع أن يحصل على الأعمدة الرخامية اللازمة للبناء إلا من جهات أخرى ، جلبها من روما ورافنا . وحرص شارل على أن يواظب على الحضور إلى هذه الكنيسة ، في الصباح والمساء ، وأثناء الليل ، وفي وقت القرابين ، متى سمحت له صحته بذلك وحرص على أن تؤدي الصلوات بالكنيسة بكل وقار ، ودأب على تحذير حراس ماء الكنيسة بألا يسمحوا بأن يدخل إلى الكنيسة أو يبقى بها ، كل ما يعتبر نجساً ووسخاً . وبذل للكنيسة من أوعيه الذهب والفضة ، ومن الأردية الكهنوتية ، كميات بلغت من الضخامة ما يمنع رجال الكنيسة من أعلا الفئات إلى أدناها ، كحراس الأبواب ، من أن يؤدوا واجباتهم بأثوابهم العادية . ووجه عنايته إلى اصلاح اسلوب التلاوة والانشاد . لأنه كان بارعاً في كليهما ، على الرغم من أنه لم يمارس التلاوة علنا ، وإذ أنشد مع سائر المصلين ، لم يرفع صوته .

واشتد اهتمامه ببذل المساعدة للفقراء ، وبتقديم ما يسميه اليونانيون بالصدقات .

ولم يقصر اهتمامه على بلاده ومملكته ، بل إنه درج على ان يرسل من الأموال إلى البلاد الواقعة وراء البحـار – إلى الشام ، وإلى مصر ، وإلى أفريقية والى بيت المقدس ، والاسكندرية وقرطاجنة ، ما يعرب عن مشاعره عن فقر المسيحيين الذين ترامى إلى اسماعه ما يعانون من أحوال سيئة في تلك البلاد . ولهذا السبب وحده ، التمس صداقات الملوك ، وراء البحار ، وكان يأمل بذلك أن يظفر المسيحيون الذين يعيشون في ظل حكمهم بشيء من العون والمساعدة .

على أن محبتـه لكنيسة القديس بطرس الرسول في روما فاقت ما أولاه من الاهتمام لسائر المواضع المبجلة المقدسة ، فغمر خزانتها بمقادير كبيرة من الفضة والذهب والأحجار الكريمة . وأرسل إلى البابا هدايا لا حصر لهـا . وحاول طوال عهده أن يبذل كل جهده وقوته (وما من شيء أقرب إلى قلبه من ذلك)، كيما يعيد لمدينة روما سابق سلطانها ، لا فحسب بالدفاع عن كنيسة القديس بطرس ، بل بما يبذله من موارده في تزيينها وزيادة ثروتها حتى تسمو على سائر الكنائس . ومع أنه أمعن في تقدير روما ، فإنه طوال حكمه الذي بلغ سبعاً وأربعين سنة ، لم يقم بزيارتهـا إلا أربع مرات ، ليؤدي نذوره ، ويقوم بالصلاة بها .

غير أن هذه لم تكن كل أغراضه من زيارته الأخيرة لروما . إذ أن سكان روما اشتدوا في معاملة البابا ، ليو ، وقصدوا سمل عينيه وقطع لسانه ، وبذا اجبروه على أن يلتمس حماية الملك (شارل)،وعندئذ قدم شارل إلى روما لإعادة الأحوال الى ما كانت عليه في الكنيسة ، بعد أن تعرضت لضرر شديد، فامضى بها كل فصل الشتاء . وفي تلك الأثنـاء تلقى لقب امبراطور واغسطس ، الذي بلغ من كراهيته له أول الأمر ، انه اكـد انه ما كان ليدخل الكنيسة في ذلك اليوم – برغم انه يجري بالكنيسة فيه اعظم احتفال ديني – لو انه عرف من قبل بخطة البابا ، غير انه لما اتخذ اللقب، تحمّل في صبر ما سوف يترتب عليه من عداوة ، وسخط لأباطرة الرومان ، غير أنه قهر كراهيتهم ونفورهم بأعماله

المجيدة التي لا شك انه فاقهم فيها ، وبما ارسله اليهم من سفارات ، وباعتبارهم اخوة له .

ولما اتخذ شارل اللقب الأمبراطوري ، اكتشف عيوبا عديدة فيا عند اقوامه من النظم القانونية ، اذ كان للفرنجة نظامان قانونيان ، يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً في نقط كثيرة ، ولذا عزم على ان يضيف إليهما ما يسد النقص ، وان يسوى الاختلافات ، وأن يصلح كل ما يعتبر خاطئاً ، او جرى الخطأ في التعبير عنه . غير انه لم يتم كل هذه المشروعات ، باستثناء ما اضافه من بعض المرسومات ، وبعض الخطط التي لم تكتمل ، غير انه اصدر الأوامر بأنه ينبغي جمع وتدوين كل ما للأمم والأقوام بداخل ممتلكاته ، من قوانين وقواعد ، لم يجر تدوينها بعد .

وامر ايضاً بتدوين كل ما عند المتبربرين من الأغاني القديمة ، التي تشيد بأعمال الملوك وحروبهم ، وامر باذاعتها ونشرها . وشرع ايضاً في وضع قواعد النحو للغته الوطنية .

الفصل العاشر

انهيار الامبراطورية الكارولنجية

١

ما أصاب أمبراطورية شارلمان من الانهيار عقب وفاته يرجع الى أسباب عديدة ، منها أنها كانت بالغة الاتساع ، اذ امتدت من المحيط الأطلسي وبحر الشمال ، إلى نهري الالب والسال وجبال بوهيميا ، فضلاً عن كل ما يقع شمالي روما من البلاد ،وما انفرد به شارلمان من شخصية قوية هيأت له أن يخضع بلاداً شاسعة متفرقة ، وأن يقوم بادارتها ، وأن يتولى الدفاع عنها ، وأن يحكم شعوباً شديدة الاختلاف والهمجية . وعلى الرغم من أن أطراف أمبراطوريته ربطت بينها الأنهار وما تبقى من الطرق الرومانية ، فقد فصل بينها الغابات والأحراش والجبال ، يضاف الى ذلك ما غلب على هذه الأمبراطورية من الهمجية ، اذ أن فلاحيها الأميين ، الأحرار منهم وغير الأحرار ، وسادتها وعساكرها المحاربين ، فضلاً عن موظفي الكنيسة ورجال الدين لم يكن بوسعهم أن يرتفعوا في فكرتهم عن الدولة والحكومة وسيادة القانون ، عن مستوى العلاقات والعدالة الشخصية .

ومهما يكن لشارلمان من عبقرية ونشاط فذ ، فلم يكن بوسعه أن يغير ما

كان سائداً من تفكير وعقلية ،فلم يستطع أن يحقق ما تخيله من حضارة ومدنية. وما قامت عليه أمبراطوريته من أساس مادي إنما تألف من النبلاء المحاربين والأراضي الوفيرة. فالملك ، ورجال الكنيسة والأعيان وأتباعهم ، اعتمدوا على الضياع في الإنفاق على حواشيهم ، وإعداد الأسلحة ، ودفع أجور الموظفين. فاحتاج الأسقف والكونت والملك إلى الأراضي ، طالما حرصوا على أن يتخذوا لهم أتباعاً يدينون لهم بالطاعة ، وتوقف حفظ الأمن وأسباب الدفاع على هذا المصدر ، الأراضي . وما نشب من الحروب زمن الكارولنجيين ، وما قام عندهم من نظام اداري زاد هذه العامل أهمية . فالمعروف أن قوة السادة المحليين وسلطانهم ، ترجع إلى ما حازوه من أراضي ، وازداد نفوذهم بما حصلوا عليه من وظائف . وكلما مضى الزمن ، استحال على الحكومة المركزية في مقرها البعيد ، أن تفرض سلطانها على اولئك السادة المحليين الذين استمدوا منها السلطة فلما أخذت الملكية في الضعف ، زادت قوة هؤلاء السادة ، كما أن ما بذله الملوك من المنح والاقطاعات ، بعد أن انتهوا من فتوحهم ، استنفد مواردهم .

يضاف إلى هذه العوامل اسباب خاصة تتمثل فيما درج عليه الفرنجة من تقسيم الارث ، وفي خصائص البيت الكارولنجي ، وفي الأخطار الخارجية التي هزت ما جرى من تماسك أوربا الظاهري .

لويس التقى (٨١٤ – ٨٤٠)

أدرك شارلمان ، قبل وفاته كل هذه العوامل ، فحرص على ألا تحدث منازعات بين أفراد أسرته على الحكم ، حتى لا تتفكك الأمبراطورية ، غير أنه لم يستطع أن يتخلى عن مبدأ الفرنجة في توريث الأبناء . ولذا بادر في سنة ٨٠٦ إلى اجراء تقسيم ، حظي بمقتضاه ابنه لويس باكيتانيا وغسقونية وسبتمانيا

وبروفانس وجنوب برجندية ، وصار لابنه ببين لومبارديا وايطاليـــا وبافاريا والبيانيا وجنوب الدانوب ، وحاز ابنه الأكبر شارل جميـع ما تبقى من البلاد (فرنجة ، وشمال برجندية وفريزيا وسكسونيا وهس وفرانكونيا) .

ولتجنب نمو العداوات القومية ، تقرر أن يكون للابن الأكبر (شارل) من المكانة ما يظهر بها سيادته ، فكان نصيبه يضارع مساحة المملكتين الأخريين معاً . واتخذ جميع الأخوة لقب بطريق حتى يسود بينهم من الوفاق ما يكفل حماية البابوية ومصالح العالم المسيحي . وكان لزاماً على الإخوة الثلاث أن يشتركوا في المحافظة على الحدود ، ورد هجمات المغيرين عليها .

ومع أن مملكة الفرنجة انقسمت ثلاثة أقسام ، فإنها احتفظت بالوحـــدة السياسية ، فلم يلبث أن مات ببين (٨١٠) ، وشارل (٨١١) ، ولم يبق على قيد الحياة سوى لويس الذي انفرد بالحكم .

شخصية لويس

اختلف لويس عن أبيه ، فيما اشتهر بـــه من التردد والسلبية والتواكل ، وكراهية تحمل المسئولية ، فتخلى عن كل شيء لوزرائه ، ولم يراع الحكمـة في اختيار نوابه وما اتصف به لويس من صدق التقوى والفضيلة والرحمة ، حمله على الخضوع لنفوذ رجال الدين وزوجاته . ولم يتوافر له من مضاء العزيمة ، وسلامة الإدراك ، ما يكفي للسيطرة على أبنائه ونبلائه المتمردين .

١ — الأمبراطورية

ومع أن لويس لم يكن من الملوك الكارولنجيين المرموقين في بسط مكانة

وهيبة الكارولنجيين ، فان حكمه يعتبر بالغ الأهمية في تحديد طبيعة سلطة الأمبراطور .

والواقع أن كلا من شارلمان ، باعتباره أمبراطور الرومان ، والأمبراطورية الكارلنجية باعتبارها الأمبراطورية الرومانية الغربية ، لم يستند إلى حقيقة تاريخية . فحدث في زمن شارلمان اضطراب وغموض شديد حول معنى اللقب الأمبراطوري ، فهل كان شارل الأمبراطور الوحيد، أو هل كان يشترك في هذا اللقب مع الأمبراطور بالقسطنطينية ؟ وهل تبقى الأمبراطورية الجديدة متحدة ، أو هل يقسمها شارل حسبما جرى عرف الفرنجة ؟ وهل تضفي وظيفة الأمبراطور على صاحبها سلطات جديدة،او هل كان اللقب شرفياً، ضئيل الأهمية ؟ وهل كان الأمبراطور يدين بمركزه إلى البابوية ، وهل كان بوسعه أن يحصل على هذا اللقب بوسائل أخرى ؟ الواقع أن شارل لم تكن لديه فكرة واضحة ، في سنوات حكمه الأخيرة عن طبيعة وضع الأمبراطور .

حاول ابنه وخليفته على العرش لويس التقى أن يجيب على هذه الأسئلة ، إذ اعتقد أن الأمبراطور يحمل مسئولية كبيرة ، في السعي والدأب على اقامة مجتمع مسيحي كبير ، وما قام من أمبراطورية ينبغي أن تكون قبل كل شيء أمبراطورية مسيحية .

حرص لويس أن يجسد هذا المبدأ في المنهج الذي وضعه للإصلاح الديني في أوائل عهده . فاتخذ من الراهب القديس بنيدكت انياني (٧٥١ — ٨٢١) مستشاراً له ، فاستعاض به عن النبلاء ورجال الكنيسة الذين ازداد تعلقهم بالدنيا، والذين التفوا حول شارلمان . وبفضل إرشاده ،أصلح لويس الأمبراطورية على مبادىء ومثل مسيحية ،فتخلى الأساقفة عما اتخذوه من مظاهر عسكرية ، والتزموا بما يليق بهم من صفات باعتبارهم قادة الكنيسة . وتقرر وضع لوائح

صارمة لاصلاح المستوى الخلقي في البلاط الملكي ، فأخرج من البلاط كل النساء ومنهن إحدى اخوانه ، اللائي كان سلوكهن موضع ريبة وشك .

على أن الاصلاح كان اكثر من مجرد تطهير ، اذ اعتقد لويس أنه لابد لأمبراطوريته أن يكون لها من الوحدة مثلما كان للكنيسة . فرأى أنه ينبغي أن ينتظم في مجتمع واحد، سائر الشعوب التي تتألف منها الأمبراطورية، كالفرنجة واللومبارديين والبافاريين والسكسون وغيرهم، وأن تخضع هذه الشعوب لقانون عام واحد ، بدلاً من القانون الشخصي ، الذي بمقتضاه يخضع الانسان لقانون قومه ، فلا ينبغي استخدام القوانين المختلفة ، في بلد واحد ، ومدينة واحدة ، وبيت واحد. «حدث دائماً أن من كل خمسة رجال يسيرون معاً أو يجلسون سوياً، لم يجمع بين اثنين منهم قانون دنيوي واحد ، مع أنهم ينتمون أصلاً للمسيح » .

ووفقاً لهذا الاعتقاد حرص لويس التقي على تغيير ديباجة وثائقه الرسمية ، فأغفل ما لجأ إليه أبوه من استخدام الألقاب العديدة ، التي دلت على أنه يحكم الأمبراطورية ، على أنها أقاليم وممالك منفصلة ، واكتفى باتخاذ لقب الأمبراطور أغسطس ، بفضل العناية الإلهية . ودل هذا التغيير على أن لويس أراد أمبراطورية واحدة ، يحكمها أمير واحد ، ويسكنها شعب واحد ، وتخضع لقانون واحد . على أنه كان من المستحيل إلغاء كل القوانين « القومية » دفعة واحدة ، لأنها تأصلت عند الأقوام والشعوب ، ولا بد لهذه الشعوب أن تحافظ عليها . ولذا أصدر لويس في السنوات الأولى من حكمه المرسومات التي تعالج الانحرافات في القوانين القومية . ومثال ذلك ، ما وضعه من تفسير لما ورد في قانون الفرنجة الساليين عن مقدار الفدية ، بأن تؤدي في بلاد الفرنجة بالشلنات ، التي يساوي الواحد منها اثني عشر بنساً ، إلا حينما يقع النزاع بين السكسون والفريزيان ، فيجري تقدير الشلن في الفدية بأربعين بنساً ، يؤديها السكسوني للفرنجي السالي الذي يخاصمه .

ومع أن هذا القرار لم يكن له أثر في جعل جميع الرجال متساوين أمام القانون، غير أنه كان على الأقل خطوة في الاتجاه السليم نحو قيام مجموعة منظمة من قانون الأمبراطورية .

والواقع أنه كلا من شارلمان ولويس التقى ، بادر منذ تتويجهما ، بأن يجعل للقب الأمبراطور من المعنى ما يؤكد صفته الفرنجية والغربية . فلم يحرص كل منهما على أن يحقق ما ينطوي عليه لقب امبراطور الرومان من سلطة على جميع العالم المتمدين .إذ لم يطالبا بأكثر من مساواتهما بأمبراطور القسطنطينية،وحقهما في حكم بلادهما في الغرب ، وفقاً لحاجاتها وأفكارهما . وحرص الأمبراطوران ، شارلمان ولويس ، على أن يفسرا الحقائق السياسية بالمنطقة ، وأن يتصرفا على أساس أنه ظهر في غرب أوربا نظم ومبادىء سياسية جديدة فريدة .

٢ – الكنيسة

كانت الكنيسة عند لويس التقي هي المجال الذي يحقق الوحدة ، فلم يتردد في اعتبار الكنيسة والدولة متحدتين . ومع أن لويس فاق والده فيما أولاه من الاحترام والتبجيل لرجال الدين ، فأجاز للبابا أن يقوم في سنة ٨١٦ ، بتتويجه مرة أخرى . وبرغم أنه كان دائماً يلتمس النصيحة منهم ، فانه لم يتردد في أن يسن لهم القوانين . وبتأثير القديس بنيدكت انياني ، صدر قرار يلزم رجال الدين بالكاتدرائية بأن يمارسوا حياة شبه ديرية ، وأن يؤدوا أعمال الرهبان ، وألا يباشروا الأمور الدنيوية العلمانية [١] .

١ـ المعروف أنه كان بالكنيسة نظامان تركز فيهما كل ما للكنيسة من مثل ونشاط،وهذان النظامان يتمثلان في الأديرة ، وفي فئة رجال الدين الذين لم يرتبطوا بالديرية ، وكانت الأديرة مؤلفة من رهبان علمانيين،ليس بينهم إلا عدد قليل من رجال الدين (الاكليروس) ، وجميعهم يخضعون لقاعدة عامة ،ولذا اشتهروا بالنظاميين » أي الذين التزموا بنظام ثابت Regula =

وعلى الرغم من اهتمام لويس بمصالح الكنيسة ، فانه لم يسلم بما للأمبراطور من حقوق على روما . وما اشتهر به البابوات من الولاء والإخلاص للأمبراطور، لم يمنعهم من التمسك باستقلال دوقية روما . أرادوا أن ينصرفوا مع اهل روما كيفما شاءوا ، على الرغم من أنهم طلبوا اليهم أن يؤدوا من جديد يمين الولاء الأمبراطور . وعند انتخاب يوجين الثاني للبابوية في سنة ٨٢٤، أصدر لوثار الأول قسيم الأمبراطور ما هو معروف باسم دستور روما Constitutio Romana .

وبمقتضى هذا القانون، تقرر تعيين مبعوثين من قبل الأمبراطور والبابا، للإشراف على القضاء. فلا يجوز تنفيذ حكم الإعدام في نبلاء روما الذين يحظون بحماية الأمبراطور إلا بموافقته . ولأهل روما ، ما لسائر الأقوام أن يلتزموا بعرفهم المتوارث . وما للعلمانيين من حق في انتخاب البابا ازداد قوة . وتأكد في الوقت ذاته حق الأمبراطور في التصديق على انتخاب البابا ، وحقق لوثار بذلك لأبيه انتصاراً دبلوماسياً باهراً .

على أن البابوية والمجلس البابوي تفوقا في الدبلوماسية ، في خلق سابقة ، وما يتبعها من إثارة الرأي والجدل ، لا في حكومة روما الدنيوية المتبربرة المثيرة للقلق

=أما العلمانيون «الدنيريون » من رجال الدين فهم الذين ارتبطوا بكنيسة أو كاتدرائية، وليسوا ملزمين بأن يمارسوا الحياة سويا ، أو أن يلتزموا بالعزوبة . وفسدت الفئتان بتأثير الثروة ، والاضطراب الخارجي ، وسوء الادارة الحكومية ، واغتصاب السلطة ، وتضاؤل الروح الدينية بمضي الزمن . وظهرت عيوب الفئتين منذ القرن الثامن . واشتد القديس بنيدكت انياني في الالتزام بقاعدة بنيدكت في ديره في انياني. ولم تلبث الحركة أن انتشرت بعد أن صار بنيدكت مستشاراً للويس التقي ، فحاول أن يجعل تعيين رئيس الدير قاصراً على الرهبان ، لا على كبار العلمانيين .

والمتاعب ، إذ استقرت دعوى البابا في تتويج الأمبراطور » فاغتنم البابا ستيفن الرابع فرصة زيارة الأمبراطور لويس لمدينة ريمس سنة ٨١٧، وقام بتتويجه ومسحه بالزيت المقدس. وليس من قبيل المصادفة ما قام به لويس في نفس السنة من تتويج ابنه الأكبر لوثار قسيماً للأمبراطور. واستطاع البابا باسكال أن يحصل أيضاً من الامبراطور لويس، سنة ٨١٧، على وثيقة، تأكد فيها ما حصلت عليه البابوية من الكارولنجيين من المنح والاستقلال في القضاء. وأقدم هذه المنح تصف حدود الأملاك البابوية وبمقتضى هذه المنحة خضع لسلطان البابا، دوقية روما الواقعة على ضفتي نهر التيبر، وسابينا، وشطر من توسكانيا اللومباردية، وأرخونية رافنا يضاف إلى ذلك أنه جرى إقراره على تسلم الموارد الملكية المتحصلة من اقليمي تسكانيا وسبوليتو، وأنه تقرر الاعتراف بحقوقه فيما فقده من ممتلكات بجنوب ايطاليا. وبذا انفتح باب فسيح أمام الدعاوي البابوية في المستقبل، ليس من السهل إغلاقه في وجه المجلس البابوي.

وما لجأ اليه الأباطرة الكارولنجيون، باعتبارهم من دعاة الإصلاح الديني، من إدخال تقاليد كنيسة روما في شعائر ونظم كنائسهم في أنحاء المملكة، أدى إلى ان تتحقق الوحدة الدينية إلى حد كبير في اوائل القرن التاسع الميلادي، كما انه ترتب على الالتزام بقاعدة بنيدكنت في الأديرة في الأمبراطورية الكارولنجية، ان تزايد أعداد جند المسيح الذين وطنوا انفسهم على نشر تقاليد روما وأفكارها. وأدى التعاون الوثيق بين الكارولنجيين والبابوات في التبشير الديني، إلى قبول توجيه روما في أمور العقيدة والنظام الكنسي، فضلاً عن الرضى بسلطة الكارولنجيين.

وبذا صار لمسيحية كنيسة روما سلطان قوي على معظم غرب أوربا، بعد أن كان سلطانها قاصراً على إيطاليا، وعلى مناطق قليلة واقعة على حافة العالم المسيحي.

والمعروف أنه غلب على لويس من التقوى والشعور الديني ، ما جعله مشهوراً « بالتقى » ، وما هيأه للبابوية من أن تتولى تتويج الأباطرة .

٣ ــ تقسيم الامبراطورية .

كان اكثر اهتمام لويس موجهاً الى ضرورر المحافظة على وحدة الأمبراطورية، غير أن ذلك واجه عقبة بالغة الصعوبة، لأن الفرنجة ظلوا حتى وقتذاك متعلقين بالتقاليد التي ورثوهـــا عن اسلافهم ، فحرصوا على ان تنقسم المملكة بالتساوي بين أبناء الملك بعد وفاته .

وسبق الإشارة إلى أن هذا الإجراء أدى إلى تقويض مملكة الميروفنجيين . ولم يكن بوسع الكارولنجيين أن يتخلوا عنـــه ، لأنه جزء لا يتجزأ من قانون الفرنجة . فعند وفاة ببين القصير ، سنة ٧٦٨ ، انقسمت مملكته بين ولديه شارل (شارلمان) وكارلومان ، الذي لم يلبث أن مات بعد فترة قصيرة . والمفروض أن يجري هذا التقسيم أيضاً في أمبراطورية شارلمان وعلى الرغم من أن شارلمان أدرك خطورة تجزئة الإرث وتقسيمه ، فإنه لم يمتنـع عن توريث أبنائه . ففي سنة ٨٠٦ ، أجرى التقسيم الذي أقره زعماء الفرنجة والبابا [١] . فجعـل للويس اكيتانيـــا وغسقونيه وسبتمانيا وبروفانس وجنوب برجنديه ، واختص ببين بلومبارديا وايطاليا وبافاريا وألمانيا وجنوب الدانوب ، وحـاز أخوهما الأكبر شارل جميع ما تبقى من البلاد ، (بلاد الفرنجة ، وشمال برجندية ، وفريزيا ، وسكسونيا ، وهس ، وفرانكونيا) . وكان نصيب الإبن الأكـــبر ، شارل يضارع في المساحة ، مملكتي أخويه ، حتى يفوقهما في السيادة والسلطة . واتخـذ جميع الإخوة لقب بطريق ، حتى يسود بينهم من الوفاق ما يكفل حماية البابوية

---

١ ــ نظراً لما يقترن به التقسيم من لقب « بطريق » الذي يمنحه البابا .

ومصالح العالم المسيحي . وتقرر أن يشترك الأخوة الثلاث في المحافظة على حدود الأمبراطورية ، وفي رد هجمات المغيرين عليها . ومع أن وفاة كل من ببين الصغير ، وشارل الصغير (في سنتي ٨١٠ و ٨١١) أبقت في الوقت الراهن على وحدة ولاية الحكم ، وكفلت للويس أن ينفرد بالحكم ، فإن ذلك لم يكن إلا تأجيلاً مؤقتاً للانقسام . ذلك أنه كان للويس التقي أربعة أبناء ، ثلاثة من زوجته الأولى، أكبرهم لوثار ، ثم ببين، ولويس (المعروف فيما بعد بالجرماني) ، أما الابن الرابع ، وهو شارل ، (الذي اشتهر فيما بعد بالأصلع) فأنجبه سنة ٨٢٣ من زوجته الثانية يوديث إبنة ولف كونت سوابيا فهل كان على لويس أن يراعي قانون الفرنجة عند تقسيم أمبراطوريته ؟ أما هل كان لزاماً عليه أن يحافظ على وحدة الشعب المسيحي ، ولو أدى ذلك إلى إغفال عرف أسلافه القديم ؟ كان من الأسئلة التي وجهت إلى لويس في المجلس العام الذي انعقد سنة ٨١٧ ، ماذا هو فاعل لابنائه ، فيما جرى عليه أسلافه من تقليد ، فكانت اجابته على النحو التالي :

« على الرغم من أن الباعث على هذا الطلب كان الإخلاص والولاء ، فيبدو لي ولأولئك الذين يعرفون ما يعتبر معقولاً وصادقاً ، أن وحدة الأمبراطورية التي عهد الله بها إلينا ، ينبغي ألا تتبدد بتقسيم يقوم به الإنسان ، مهما كان ذلك مخالفاً لمصلحة أبنائي ، حتى لا تتعرض أمور الكنيسة المقدسة للاضطراب ، وحتى لا نتعرض لغضب الله الذي تستند قوانين المملكة بأسرها إلى تأييده ومساندته .

كان لويس التقي مستعداً لأن يمنح ابنيه الصغيرين مملكتين تابعتين ، فيجعل لابنه ببين اكيتانيا على النحو الذي كان لويس نفسه يتولاها زمن حياة والده شارلمان ، ويمنح ابنه لويس بافاريا ، والمعروف أن هاتين المملكتين تتعرضان دائماً للحروب لوقوعهما على أطراف الأمبراطورية ، على أن يخضع ببين ولويس

لسلطان أخيهما الأكبر لوثار ، الذي أشركه الأمبراطور لويس التقي معه في الأمبراطورية ، وفي حكومة بلاد الفرنجة فرانكونيا Francia وسكسونيا وسوابيا وبرجنديا .

هذه الخطة قد تبدو من ناحية حلاً مقبولاً ، غير أن غالبية الفرنجة اعتبروها جائرة ظالمة ، لأنها حرمت الولدين الصغيرين من الميراث ، على الرغم من انهما لم يرتكبا ذنباً . وتبع ذلك أن الشطر الأكبر من عهد الأمبراطور لويس التقي حفل بالقتال بين الأخوة ، مثلما جرى زمن الميروفنجيين بين أبناء كلوفيس وأحفاده ، فيما عدا أنه في حالة أبناء كلوفيس ، كان كل واحد منهم يقاتل الآخر كيما يظفر بنصيب أخيه . أما في حالة أولاد لويس ، كان الأبناء جميعاً يظنون أنهم يقاتلون من أجل حقوقهم . فكان لوثار يحارب من أجل الأمبراطورية للتي ظفر بها ، بينما حارب أخواه من أجل الحق الموروث .

وتفاصيل هذه الحروب ، وما ترتب عليها من إذلال لويس التقي وندمه [١] ، أسفرت آخر الأمر عن أن مبدأ تقسيم الإرث هو الذي انتصر ، بل إن لويس التقي نفسه لم يسعه إلا أن يسانده ، بحرصه على أن يعيد التقسيم ، حتى يجعل لابنه الرابع ، شارل ، من الإرث ما يضارع نصيب كل من إخوته غير الأشقاء . وتتابعت خطط التقسيم في سرعة الواحدة بعد الأخرى ، غير أن هدفها لم يعد

---

(١) فيما حدث من تحالف الأخوة الثلاثة ، لوثار ، ولويس ، وببين ، لمناهضة والدهم لويس التقي وأصهاره الولفيين ، وانحياز البابا جريجوري الرابع (٨٢٧ — ٨٤٤) الى الأبناء ، كل ذلك أدى إلى زيادة سلطة البابوية التي سعت إلى التوفيق بين أفراد الأسرة الكارولنجية ، بعد أن وقع لويس التقي وابنه شارل وزوجته أسرى في أيدي لوثار سنة ٨٣٣ . واغتنم البابا جريجوري الرابع الفرصة لأن يتحدث على أنه سلطان ، فتساءل : « أليس ما للبابا من سلطة على الروح تسمو على السلطة الأمبراطورية التي تنتمي إلى هذه الدنيا » .

هذه الكلمات دلت على أن البابوية أخذت تتحرر من القيود التي فرضها عليها شارلمان .

الحرص على المحافظة على وحدة الأمبراطورية ، بل تقسيمها إلى أربعة أقسام لا إلى ثلاثة .

وليس لتفاصيل التقسيمات المقترحة أهمية في هذا الموضع ، لأنها لم تؤد كلها إلى نتيجة نهائية . ولم يكد الاتفاق يتم على التقسيم بين الأخوة الأربعة ، حتى توفي أحدهم ، ببين ، وكان لا بد أن يبدأ التقسيم من جديد ، بعد استبعاد ببين الثاني (ابن ببين) من الميراث . ولما توفي الأمبراطور لويس التقي ، سنة ٨٤٠ ، اندلعت الحرب الأهلية . فالأخوان للصغيران ، لويس الجرماني ، وشارل الأصلع ، اتحدا سويا لمناهضة لوثار . ومع أنهما لم يستطيعا قهره ، فإنهما أرغماه على مبدأ التقسيم. خاب أمل لوثار ومن يسانده من رجال للكنيسة في المحافظة على وحدة الأمبراطورية . وبفضل ما بذله أخواه لويس وشارل الأصلع من التشاريف والاقطاعات للسادة العلمانيين في شرقي المملكة وغربيها ، تفوقا على لوثار وأنصاره في استراسيا الموطن الأصلي للكارولنجيين . وكان لا مفر من الحرب .

٤ — معاهدة فردان ، سنة ٨٤٣ .

دارت معركة حامية الوطيس عند فونتينوى Fontenoy ، في ٢٥ يونية سنة ٨٤١ ، غلب على القتال فيها جو ديني غريب ، كأنها تلتمس قضاء الله ، اذ استحرّ القتل في ذلك اليوم المشؤوم ، وفقد الجانب المهزوم ، الذي يعتبر أصل الكارولنجيين ، نهائياً كل ما كان له من زعامة في غرب أوربا منذ زمن شارل مارتل .

وتعتبر معركة فونتينوى أعنف معركة ذكرتها تواريخ الفرنجة ، إذ أن أربعين ألفاً من خيرة رجالهم وأشجعهم لقوا مصرعهم في ساحة القتال . ولم يعد منذ ذلك اليوم ، باستطاعة أولئك الذين كانوا غزاة ، أن يحشدوا من

الرجال ما يكفي لحماية أطرافهم . وإذ لم تتحطم قوة لوثار ، عزز أخواد لويس وشارل تحالفهما بما أقسماه من يمين في استراسبورج ، في ١٤ فبراير سنة ٨٤٢ . وهذه الإيمان جرى بذلها باللغتين الدارجتين في الشرق والغرب ، لأنها موجهة إلى الأتباع الأمين ، ولأنها أيضاً قد أخذت منهم .

بذل كل من لويس وشارل اليمين أمام جيش كل منهما ، في لغة يستطيع أن يفهمها هذا الجيش ، فخاطب لويس جيش شارل باللغة الفرنسية القديمة Lingua Romana بينما تحدث شارل إلى جيش لويس باللغة الألمانية . ثم حلف أفراد الجيشين يمين الولاء كل منهما ، بلغته الخاصة ، (أقسم جيش شارل باللغة الفرنسية ، وأقسم جيش لويس باللغة الألمانية) . ولهذه الإيمان اهمية من الناحيتين السياسية واللغوية ، إذ أنها دلت على أن العلاقة بين السيد والتابع كانت الاساس الحقيقي للقوة السياسية ، كما أن هذا الاحتفال الذي جرى في استراسبورج ، اعتبره المؤرخون بداية لظهور الأمتين الألمانية والفرنسية ، غير أنه في الواقع ليس إلا ظهوراً رمزياً . ومع أنه كان للملك لوثار أيضاً جيش ، فلم يعرف أحد ماذا كانت لغته الدارجة ، والراجح أن جيشه تألف من رجال ينتمون الى شعوب وأقوام مختلفة ، غير أن ذلك لا يجعله ضعيفاً باعتباره قوة محاربة .

ولما لم يكن بوسع لوثار أن يحطم التحالف الذي انعقد بين اخويه ، ولم يكن باستطاعة لويس وشارل أن يقهرا نهائياً أخاهما لوثار ، بعد أن ملّ المحاربون الفتن الداخلية ، انتهى الجميع إلى اتفاق ، فانعقدت معاهدة فردان[1] ، في أغسطس سنة ٨٤٣ .

تحطمت أمبراطورية شارلمان بمعاهدة فردان ، فعلى الرغم من أن لوثار احتفظ بلقب أمبرطور والسيادة على روما ، فليس معنى ذلك ، أن له السيادة على أخويه .

---

(١) أنظر الملحق ١٦ والخريطة .

فكلهم متساوون في أنهم ملوك على الفرنجة . إذ انقسمت الأمبراطورية ثلاث ممالك، على أني يتساوى الأخوة فيما يحوزونه ، من الضياع الأمبراطورية التي تعتبر الأساس المادي للسلطة الحاكمة . وتقرر أيضاً أن يؤخذ في الاعتبار ما يحوزة كل منهم فعلاً من الممتلكات . وبذا صار لشارل الأصلع نوستريا ، واكيتانيا ، والطرف الإسباني، أي ما هو معروف باسم مملكه الفرنجة الغربيين، التي أضحت تؤلف فرنسا . وهذه البلاد بأسرها ، فيما عدا الطرف الشمال الشرقي ، تسود بها اللغة الرومانسية . ويسير طرف مملكته الشرقي على امتداد أنهار الشلدت والساءون والرون .

أما بلاد لويس الجرماني فغلبت عليها اللغة الألمانية . إذ شملت بافاريا ، وسوابيا ، وسكسونيا ، وثورنجيا ثم فرانكونيا في أقصى الشرق ، وهي مملكة الفرنجة الشرقيين ، التي كان عليها أن تحتفظ باسمها القديم جرمانيا . وحاذى الحدان الجنوبي والغربي لمملكته ، جبال الألب ، ونهر الآر ، والمجرى الأوسط لنهر الراين ، حتى يتصل بالحد القديم لسكسونيا .

وحاز لوثار البلاد الواقعة بين أملاك شارل الأصلع ، ولويس الجرماني، والتي تضم فريزيا ، ووسط فرانكونيا (بما في ذلك آخن) ، وبرجنديه ، وبروفانس فضلاً عن مملكة إيطاليا . وتعتبر مملكة لوثار أسوأ نصيب في هذا التقسيم ، برغم ما كان لصاحبها من سلطة ، بما يحمله من لقب أمبراطور . إذ تؤلف مملكته رقعة طويلة من الأرض ليس بها شيء من التجانس، وليس لها موقع طبيعي ، ولم تكن متماثله ، سواء في اللغة أو في المناخ ، تفصل بينها الحدود الطبيعية ، ولا تحميها ، ومع ذلك دخل في نصيب لوثار حاضرتا الأمبراطورية ، آخن وروما .

وعلى الرغم من غرابة الوضع الجغرافي لهذا التقسيم، فإنه يفضل التقسيم الذي اقترحه ملوك الفرنجة السابقون . فما من مملكة من هذه الممالك الثلاثة ، أحاطت بها المملكتان الأخريان ، وليس لأحدها جيوب في المملكتين الأخريين . ومن

الخطأ أن نظن أن التقسيم حدث عفواً . إذ جرى بذل جهود ضخمة ، لتعيين أنسب الحدود وأكثرها مثالية . إذ اشترك في وضع معاهدة فردان مائة وعشرون مندوباً عن الملوك الثلاثة ، باعتبار أن لكل واحد منهم أربعين مندوباً . وطاف هؤلاء المندوبون بالبلاد قبل وضع توصياتهم . واكثر ما اهتم به المندوبون ، هو أن يوفروا لكل واحد من هؤلاء الأخوة ، المحافظة على العلاقة بين السادة والأتباع ، إذ لم يكن المقصود من التقسيم سوى توفير الراحة للأسرة، لا اعتبار القومية ، فلم يدرك نبلاء الفرنجة وقتذاك الشعور القومي. ولم يكن إلا من قبيل الصدفة أن صار التقسيم اساساً أفادت منه الأمتان الفرنسية والجرمانية في اكتساب خصائصها ، وفي نموها . إذ أن المبدأ المسلم به في كل ما اقترح من التقسيمات ، منذ سنة ٨٠٦ ، هو أنه لا يجوز لملك من الملوك أن يكون له أتباع في بلاد أخويه الملكين الآخرين ، نظراً لأن الرباط بين السيد والتابع كان من القوة ما يضارع على الأقل العلاقة بين الملك ورعاياه . فمتى توافر لملك من هؤلاء الملوك أتباع في مملكة أخيه ، كان بوسعه أن يقهر أخاه في سهولة ويسر . ومع ذلك فإن التعقيدات التي نجمت عن هذا المبدأ كانت بالغة الضخامة ولا سيما لأولئك الذين حازوا أراضي على الحدود التي جرى اقتراحها أو بالقرب منها. فإذا كان الحدّ يجتاز إقطاعات سيد من السادة ، كان لزاماً عليه أن يضحي بشطر من هذه الأراضي، وأن يبذل كل جهده في تدعيم أراضيه ، بأن يجعلها في نطاق مملكة واحدة ، بدلاً من بعثرتها وتفرقها في ممالك مختلفة . كان ذلك هو السبب الذي جعل الرابطة الإقطاعية ومصالح الأسرة ، أكثر قبولاً من منطق الجغرافيا الجامد الصلب . فتقرر اتخاذ التدابير التي تلائم حاجات بعض السادة ، مثال ذلك كونتية شالون بأسرها ، التي دخلت في نطاق مملكة شارل الأصلع ، على الرغم من أن أراضيها تقع على ضفتي نهر الساءون ، الذي يعتبر حداً طبيعياً .

وأكثر ما اتصف به تقسيم أمبراطورية شارلمان هو الاهتمام بجغرافية الإقطاع

في القرن التاسع ، ويعتبر في حد ذاته من الإنجازات الهامة ، لأن الجغرافية الإقطاعية لم تكن من قبيل الصدفة ، كما يتبادر إلى الذهن في بعض الأحوال . إذ حرص كل سيد على أن يحصل أساساً على أتباع ، في المناطق التي تهدد بلاده ، على حين أن التابع كان حريصاً على أن يختار من بين السادة ، من كان له من القوة والنفوذ ما يكفل الدفاع عنه في إقليمه (اقطاعه) . وترتب على ذلك أن الضياع الإقطاعية نمت من وحدات صغيرة ، يسهل الدفاع عنها ، وبذا أضحت تطابق التقسيمات الجغرافية الطبيعية للبلاد . فأتباع لويس الجرماني، الذي تعتبر بافاريا موطن قوته ، جاءوا من ا لجهات المجاورة للأمبراطورية ، وكانوا من الجرمان ، على حين أن أتباع شارل الأصلع كانوا من الفرنسيين لوقوع مملكته في الغرب .

على أن أشد ما تأثر له المعاصرون ، ما حدث من اختفاء الأمبراطورية وزوال ما يربط العالم المسيحي في الغرب من وحدة دنيوية ، إذ حل مكان الأمبراطورية ممالك متنازعة منهارة متمزقة . على أن مبدأ الوحدة ظل باقياً عند المفكرين ، وكان بالغ القوة في الكنيسة ، التي كان لها في البابوية سيداً ومقراً ، لا نزاع فيهما ، ولا زالا يذكران في أسى زوال الأمبراطورية واختفائها .

حرص رجال الكنيسة على إقرار السلام بين الملوك المتنازعين ، وإعادة الوفاق بين الأخوة ، فبذلوا كل مساعدة لوقف الشجار بينهم ، إلى أن مات لوثار الأول سنة ٨٥٥ ، تحدوهم في ذلك الرغبة الخالصة ومصلحة الكنيسة .

وتعرض الأخوة لمتاعب كثيرة ، منها غارات الشماليين ، ومبادرة لويس الجرماني إلى قتال الصقالبة ، بينما كان لزاماً على شارل الأصلع أن يعترف باستقلال بريتاني ، بعد أن عجز عن اخضاع نبلائه وأتباعه . وقام الأمبراطور لوثار بتقسيم أملاكه بين أبنائه الثلاثة ،فكانت ايطاليا من نصيب لويس الثاني(٨٥٥ ـ

٨٧٥) ، الذي احتفظ بلقب الأمبراطور ، وحاز لوثار الثاني (٨٥٥ — ٨٦٩) الجزء الشمالي من مملكة أبيه ، الواقع بين جبال الألب ونهري الراين والشلدت ، والذي اشتهر منذئذ باسم لوثار نجيـــا (اللورين) . بينما صار لشارل الثـــاني (٨٥٥ — ٨٦٣) مملكة نشأت حديثاً ، هي مملكة بروفانس .

والواقع أن تاريخ الأمبراطورية الكارولنجية انتهى حينما أصبح مجرد تاريخ أسرة حاكمة ، شأنها في ذلك شأن مملكة الميروفنجيين . إذ توقف كل شيء على وجود ملك له أبناء ، على ألا يكونوا كثيري العدد . لم يكن للوثار الثاني أبنـاء مطلقاً ، فحاول أن يطلق زوجته، ليتزوج من أخرى تنجب له أبناء . غير أن البابا نقولا الأول (٨٥٨ — ٨٦٧) رفض ان يتغاضى عن كل مخـــالفة تتعلق بالزواج . ولقى البابا المساندة من شارل الأصلع ولويس الجرماني ، لأنهما أدركا أنه متى مات لوثار الثاني دون أن يكون له عقب، تهيأت لهما الفرصة لاقتسام مملكته، لما لها من أهمية في سياسة البلاد في شمال الأمبراطورية ، وجرت الأحداث على نحو مــا كانا يأملان . إذ مات لوثار الثاني سنة ٨٦٩، دون أن يكون له وريث شرعي ، فلم تلبث الحرب أن نشبت من جديد، للاستيلاء على مملكة لوثار الأول، وترتب عليها ما حدث من إعادة التقسيم ، على أساس التساوي في اقتسام الضياع الملكية . وذلك في ميرزين Meersen ، في أغسطس سنة ٨٧٠ .

٥ — معاهدة ميرزين سنة ٨٧٠

١ — اقتسم المملكة المتوسطة، مملكة لوثار، أخواه لويس الجرماني ، وشارل الأصـــلع .

٢ — اقتسم الاخوان لوثارنجيا ، وحاز لويس الجرماني ، آخن ، وكلونيا ، وتريبه ، ومتز ، وماينز ، والألزاس ، وجورا ، وكلها تقع شرقي الحد الفـاصل بينهما (لويس الجرماني ، وشارل الأصلع) الممتد من هرستال على نهر الميز ، إلى

متز على نهر الراين. وحصل شارل على المناطق الواقعة الى الغرب من هذا الحد. وبذا اختفت المملكة المتوسطة، واتخذت خريطة أوربا الصورة المعروفة لنا .

٣ – كان لا بد أن ينشب القتـــال من أجل الامبراطورية ، بين المملكتين اللتين تؤلفان مملكتي الفرنجة الغربيين والفرنجة الشرقيين ، اللتـين لم تكونا ألمانيا وفرنسا .

٤ – أضحى اللقب الامبراطوري أقرب ما يكون الى لقب شرفي أجوف ، لا يجعل لصاحبه الحق في أن يكون له سلطان ، ولم يترتب عليه مسئوليـــات جـــديدة .

٥ – لما توفي الأمبراطور لويس الثاني سنة ٨٧٥ ، وقد كان يحكم إيطاليـا ، تطلع البـــابا يوحنا الثامن (٨٧٢ – ٨٨٢) الى أن يتولى حكم ايطاليا ، أحد الأمراء الكارولنجيين ، بعد أن تعرضت ايطاليا وروما للخطر ووقع الإختيار على شارل الأصلع الذي تلقى سنة ٨٧٥ التاج الامبراطوري من البـابا ، الذي ظهر على أنه هو الذي يتولي منح التاج ، غير ان شارل مات سنة ٨٧٧ . وقـام البابا بتتويج شارل السمين ملك سوابيا ، وابن لويس الجرماني ، امبراطوراً في روما سنة ٨٨١ وظل محتفظاً بلقبه حتي سنة ٨٨٧ . غير أن شارل كان مجرداً من كل قوة ونشاط ، فلم تكن لزياراته الى ايطاليا أهمية كبيرة . وبوفاة البابا يوحنا الثامن سنة ٨٨٣ هبطت مكانة البابوية ، إذ تدخل نبلاء روما في اختيـار البابوات ، ولم تنهض البابوية إلا بعد قرن من الزمان .

ملحق ١٦

معاهدة فردان

سنة ٨٤٣

تقضي معاهدة فردان بتقسيم الامبراطورية (الكارولنجية) بين ابناء الامبراطور لويس التقى الثلاثة : لوثار ، ولويس الجرماني ، وشارل الأصلع . ولبست هذه المعاهدة الا اعترافاً بفشل محاولة شارلمان لدمج غرب أوربا والقبائل الجرمانية في دولة واحدة . على أنها من ناحية أخرى تشير الى بداية مملكتي ألمانيا وفرنسا .

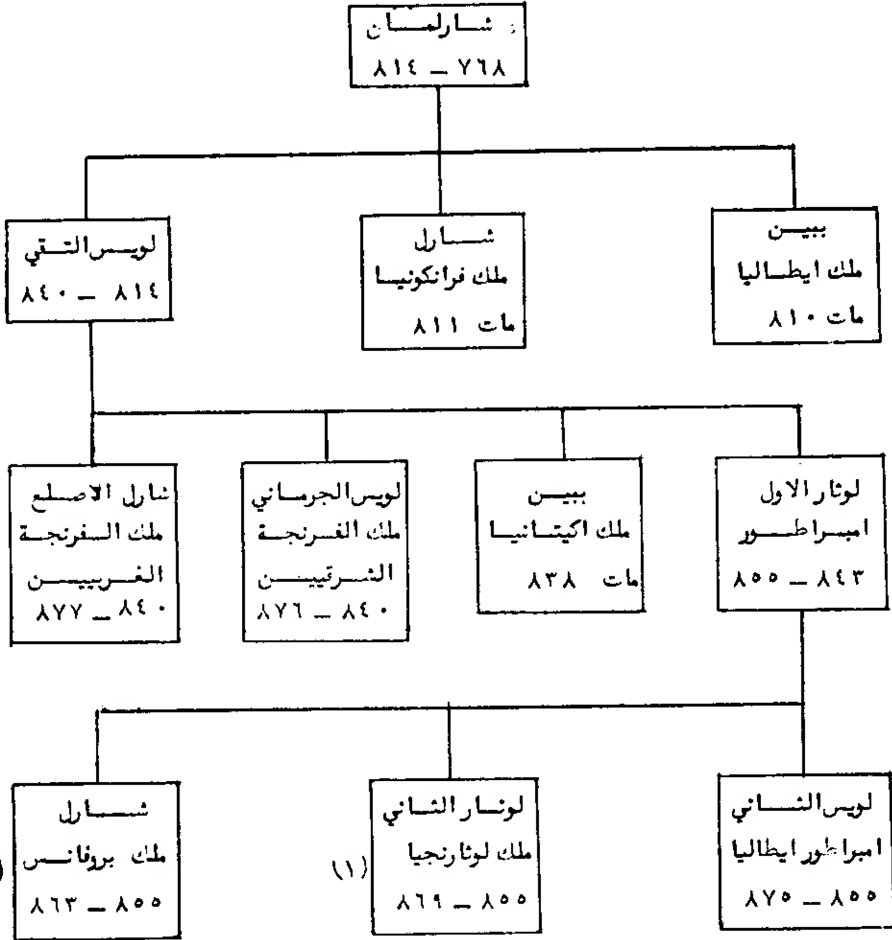
* * *

سنه ٨٤٣

اقتسم الإخوة الثلاثة فيما بينهم مملكة الفرنجة ، فكان من نصيب شارل (الاصلع) الشطر الغربي الممتد من المحيط البريطاني الى نهر الميز . وصار للويس (الجرماني) الشطر الشرقي ، أي ألمانيا وما يليها غرباً حتى نهر الراين ، بما يحتويه من مدن ومن الكونتيات الواقعة شرقي نهر الراين ، التي تمده بالنبيذ . أما لوثار الذي اتخذ لقب الأمبراطور ، حسبما جرى العرف ، فإنه حاز الشطر الذي يقع بينهما (لويس وشارل) والذي لا يزال يعرف باسم لوثار نجيا ، وكل اقليم بروفانس ، وبلاد إيطاليا ، بما فيها مدينة رومه .

ملحق ١٧

أنساب اسرة شارلمان



(١) ثم اقتسم هذه المملكة لويس الجرماني وشارل الأصلع .
(٢) اقتسم مملكته ، أخواه لوثار الثاني، ولويس الثاني .

الفصل الحادي عشر

انهيار الامبراطورية الكارولنجية

٢

الفيكنج والمسلمون والمجريون

الواقع أنه لم يكن في استطاعة أبناء شارلمان واحفاده ان يقيموا دفاعاً قوياً إزاء المغيرين الذين احاطوا بمملكتهم من كل جـــانب ، حتى لو لم يصرفهم عن ذلك المنازعات الأسرية . ذلك ان الفيكنج (الدانيين او النورثمن) هـــاجموا مملكة شارلمان من الشمال والغرب ، بينما هاجمها المسلمون من الجنوب ، ووجـه المجريون هجماتهم عليها من الشرق.وأنزل هؤلاء المغيرون بها من الخراب والدمار، ما يزيد كثيراً على ما فعله الجرمان المغيرون فيالقرن الخامس الميلادي. فتعرضت الأديرة والكنائس للنهب والخراب ، وأصاب المدن الحرائق والدمار فتساوت مع الأرض، ولم يفلت جانب من غرب أوروبا من هجمات هؤلاء المغيرين، إذ كان من المتعذر مناوءتهم والتصدي لهم،فقدانتشروا في كل مكان ، وأوغلت غاراتهم في جوف اوروبا حتى بلغت دير لوكسى Luxeuil في برجنديا، وتعرض هـــذا الدير لهجمات هؤلاء الأقوام (النورثمن ، والمسلمين ، والمجريين) .

١ – الفيكنج

لم يتوفر حتى الآن من التفاسير ما يكفي لتعليل قصة انطلاق الفيكنج من اسكنديناوة. والمعروف ان امبراطورية شارلمان احاط بها الأعداء الذين تأهبوا للانقضاض عليها من كل جانب. ففي اسكندويناوه عاش أقوام من الجرمان لا زالوا على وثنيتهم ، بينما أقام الصقالبة في الجهات الواقعة شرقي نهـري الألب والسال وفي جبال بو هيميا ، واحتل سهل المجر بقايا الآفار . وخضعت أسبانيا وشمال افريقية للمسلمين الذين لا زالوا يسيطرون بأساطيلهم على البحر الأبيض المتـــوسط .

في السنوات الأخيرة من القرن الثامن خرجت من اسكندويناوه آخر هجرة جرمانية كبيرة . ومع أن أسباب هذه الحركة ما زالت مجهولة ، فإننا اذا درسنا جغرافية بلادهم ، تيسر تقدير السبب الذي دفع السكنديناويين إلى الانطلاق الى البحر . والراجح أن انتصار شارلمان على الفريزيان أدى إلى تحطيم القوة البحرية الوحيدة التي يصح أن تمنعهم من مهاجمة البر الأوروبي. على أنه كيف نفسر ما أضحى عليه سكان اسكنديناوه من ضخامة العدد ما يكفي لإعداد الأساطيل والجيوش الضخمـــة التي صارت لهم ، برغم ضآلة موارد بلادهم .

ظلت اسكندويناوه في الفترة الواقعة بين القرنين السادس والثامن في حالة هدوء وعزلة ، وإذ تضاءل عدد سكانها ، كان لا بد أن يمضي من الوقت ما يكفي لتوافر عدد السكان مرة أخرى ، على أننا نلمس في هذه الفترة ما كان لهم في حوض بحر البلطيق من حضارة ارستقراطية زاهرة ، استندت إلى القوتين البحريـــة والعسكرية . أما واجهة اسكنديناوة على المحيط الأطلنطي فلا زالت بالغة الفقر والإنقسام ، والتجرد من أي مركز حضاري .

يطلق على الدانيين (الدانمرقيين) والسويديين ، والنرويجيين ، اسم النورثمن أو الفيكنج . وعلى الرغم من ان هذه الشعوب السكنديناوية الثلاثة اشتركت

في الهجرات ، فإن النرويجيين والدنمرقيين نشطوا في غرب أوربا ،بينما سيطر الفيكنج السويديون على بحر البلطيق وعلى بلاد الصقالبة الواقعة الى الشرق منه.

والمعروف أن الفيكنج ينتمون الى العنصر التيوتوني ،غير انهم من الناحية التاريخية يختلفون كثيراً عن الجرمان الأوائل. إذ أن اوربا لم تعرف شيئاً عن اسكنديناوة قبل القرن التاسع إلا مما رواه عنها عدد قليل من التجار المغامرين، أو مما جاء في القصص عن غارات القراصنة التي كان يقوم بها النورثمن من حين إلى آخر على ساحل فريزيا وانجلترا. وكان هؤلاء الفيكنج حتى وقتذاك متبربرين وثنيين، لم يعرفوا إلا ما ساد عند التيوتون من صورة بدائية للحكومة والمجتمع والديانة .

فما كان يغطي شبه جزيرة دانمرقة من غابات كثيفة من أشجار الزان والبلوط، وما اشتهرت به النرويج من تربة حجرية ، وسلاسل جبلية شاهقة ، وما غلب على السويد من البحيرات والمستنقعات والمرتفعات ، كل ذلك لم يجعل الحياة صالحة إلا على الشاطىء. وإذ أقام النورثمن على الخلجان وعلى رؤوس الفيوردات العميقة التي قطعت السواحل ، لم يكونوا فحسب شعباً يميل للمغامرة والحرب ، بل أصبحوا من أبرع الناس في أمور الملاحة وصيد الأسماك ، وبناء السفن . واتخذت الحرب عندهم صفة القرصنة ، بدلاً من الإغارة براً . يضاف إلى ذلك أنه بينما هاجر الجرمان ، بكافة أقوامهم وشعوبهم لينفذوا إلى لامبراطورية الرومانية ، لم يقم الفيكنج بالغارة إلا في جماعات متفرقة ، تخضع كل منها لأحد القادة . ويختلف الفيكنج ايضاً عن الجرمان في أنهم عاشوا زمناً طويلاً في عزلة تامة ، على حين أن الجرمان اتصلوا، لمدة قرون عديدة ، بالمدنية الرومانية والمسيحية ،قبل أن يدخلوا في الامبراطورية الرومانية .ولم تتهيأ لأوربا الفرصة لأن تكتشف النورثمن ، بينما كان النورثمن هم الذين اكتشفوا أوربا .

مجال نشاط النورثمن

شمل نشاط النورثمن منطقة بالغة الإتساع، إذ طافوا بسواحل أوربا، فمخرت قواربهم الصغيرة المحيط المتجمد الشمالي وشمال المحيط الأطلنطي، ونزلوا في جزر أوركني وفارو وهبريد وشتلاند، وجزيرة مان. وحلوا بايسلندا واكتشفوا جرينلاند وأمريكا الشمالية - وأقاموا مملكة في دبلن (بايرلنده) استمرت حتى سنة ١٠١٤، واستولوا على جانب من انجلترا وشمال فرنسا، وهبطوا إلى فريزيا وأغاروا على أسبانيا، وهاجموا مراكش، وموانى الريفييرا وإيطاليا. وأوغلوا في فنلندا وسهول روسيا الشمالية، ووصلت سفنهم إلى البحر الأبيض، بعد أن طافت بالساحل الشمالي لاسكنديناوة فأنشأوا مستعمرتين في نوفجورود وكييف، وبلغوا بحر قزوين والبحر الأسود، واتخذ منهم الأباطرة البيزنطيين حرسا لهم. واتصلوا بالأسكيمو واللاتينيين واليونانيين والعرب، واتخذوا لهم أوطاناً في صقلية وايسلنده. وزخرت المقابر الاسكنديناوية بمقادير ضخمة من نقود الانجليز والفرنجة والبيزنطيين والعرب.

واجتاز السويديون بحر البلطيق، وشقوا لهم طريقاً في روسيا إلى البحر الأسود. أما الدانمرقيون فإنهم اتبعوا الساحل الغربي لأوربا حتى بريتاني وما يليها، بلى إنهم عبروا البحر إلى شاطىء انجلترا المواجه لهم، وهذا هو الطريق المتوسط لغارات الفيكنج، بينما يعتبر اتجاه السويديين الطريق الشرقي. وسلك النرويجيون، ومن معهم من الدنمرقيين الطريق الخارجي إلى شمال اسكتلندا حيث سيطروا على الجزائر الشمالية، واندفعوا إلى إيرلندا وايسلندا وجرينلاند

ومن الخطأ اعتبار النورثمن مجرد قرصان محترفين. فالواقع أنهم نزعوا أيضاً إلى ممارسة التجارة إذ كانت لهم علاقات تجاوية مع الفريزيين والسكسون، قبل أن يتعرضوا لغزو الفرنجة، الذي كان له أثر سيء في تجارة النورثمن مع هؤلاء الأقوام. ومع ذلك فإن التجار النورثمن ظلوا حتى أواخر عصر لويس التقي

يجلبون الفراء والعاج إلى دورشتاد في فرنزيا ، وإلى هاديبي في شلزفيج . وحينما توجه القديس انسجار إلى السويد سنة ٨١٨ للتبشير بالمسيحية ، او تحل في صحبة تجـارمن دورشتاد الى بيركا (بيوركوالحالية Bjorko)، وكانت وقتذاك مرفأ سويديا هاماً يقع في جزيرة تجاه ستوكهلم الحالية ، حيث شهد عدداً كبيراً من التجار الأثرياء ، ومقادير كبيرة من السلع التجارية .

المؤثرات السياسية

على أن الحاجة إلى الحصول على الطعام والغذاء والتعلق بالقرصنة ، والرغبة في التجارة ، وطموح الأبناء الصغار لأن يشقوا لأنفسهم طريقاً في الحياة ، ليس كافياً لتفسير حركة الفيكنج التوسعية الكبيرة. والراجح أيضاً أن الأحداث السياسية أسهمت في إثارتها ، ذلك ان هذا المجتمع المؤلف من الطبقة العاملة ، والتي يتحكم فيها ارستقراطية الريف أحياناً والأرستقراطية العسكرية أحياناً اخرى ، لم تكن عنده فكرة عن الدولة ، غير أنه ظهر في بعض المناطق اسرات ملكيـة تنعم بقداسة دينية .

وتألفت الطبقة الحاكمة من المـلاك الأثرياء بالقرى الذين يتولون تمثيـل السكان في الجمعية الوطنية ، وقيادتهم في الحرب براً وبحراً . وإذ كانوا أسوياء ، لم يعترفوا للملوك الا بما اتصفوا به من التفوق ، دون أن يكون لهذا الإعتراف أهمية فعلية كبيرة. ويتخذ الزعيم نوعاً من العرش، ومقراً يعج بالزائرين، ويحرص الزعيم على استغلال أراضيه بأن يسخر الاقنان في فلاحتهـا . وفي زمن الحرب البحرية ، يجتمع سوياً الزعيم وأتباعه ، فيعدون السفن الكثيرة ويسلحونهـا للقيـام بالغزو ، تحت قيادته . والواقع أن الجمعيات الإقليمية التي تتألف من الزعماء وأتباعهم كانت السلطة السياسية الفعلية الوحيدة وعنها تصدر القوانين التي يحفظها بعض الأعيان عن طريق الرواية المتواترة. وللزعماء استقلالهم التام،

ولا سيما في النرويج حيث جرى احترام العرف الذي يقضي بوراثة الملكية.

أمـا الملك فيتم تنصيبه على أساس الإنتخاب ، وعلى أساس توارث الملك في أسرته . وهو يتحمل مسئولية رعاية المصلحة العامة ،فيما يتعلق بجنى المحصولات ورد المغيرين، ولذا كان يعتبر محكما فيما يتم من منازعات ، وهو الذي يأمر بحشد العساكر والأسطول ، ويستقبل السفراء الوافدين من قبل الملوك الآخرين .

ويعتبر حاكم الإقليم المعروف باسم يارل jarl ،في المرتبة المتوسطة بين المالك الغني والملك ، ويتولى عادة هذا المنصب عن طريق الوراثة ، وله من السلطة ما يضارع سلطة الملك.

والراجح أن حركة الفيكنج قـام بها فئة الملاك الأغنيـاء وفئة حكام الأقاليم . وإذ حرص الملوك على أن يسود الأمن في داخل البلاد ، ولم يشأ حكام الأقاليم أن يخضعوا لسلطـة الملوك ، وكيما تشبع الأرستقراطية اهواءها ، انطلق الفيكنج في حركتهم في عرض البحار وطولها . ففي سنة ٨٧٢ استطاع هارولدهارفجري (ذو الشعر الأصهب) أن يحرز انتصـاراً باهراً في معركة هافرزفيورد البحرية Hafrsfiord ، أدي إلى أن يخضع له كل اليارلات المناوئون له على امتداد ساحل النرويج ، وبذا أنشأ دولة اسكنديناوية،والتمس اليارلات المنهزمون ملاذاً لهم في الجزائر الشمالية . وشهد القرن التاسع أيضاً قيام الملكية في السويد والدانمرقة . والراجح أيضاً أن البواعث الدينية أسهمت فيما تعرضت له الدانمرقه من النهب والتخريب . إذ أن حملات شارلمان لإخضاع السكسون حملت الدانمرقيين على أن يخافوا انتقام شارلمان منهم ،ولا سيما بعد أن بذلوا المساعدة للسكسون في المراحل الأخـيرة من الحروب . فإذا كان الأمر كذلك فإن ما قاموا به من هجمات على بلاد الفرنجة ، أرادوا بها حماية أنفهسم ، كما ان استباحتهم للأديرة ترجع إلي تعصبهم الديني الشديد ، وإلى ما اشتهروا به من النهم وحب الغنيمة .

على أن الهدوء الطويل الأمد ، منذ القرن السابع الميلادي كان يخفي وراءه نذر الإنفجار والإنطلاق . إذ نجم عن هذا السلام الطويل أن توافر عدد الرجال في أقاليم عديدة ، ولا سيما في النرويج. كما أن الصلات التجارية مع الغرب هيأت لأهل الشمال سبيل الملاحة بالسفن الشراعية ، التي توقفت منذ هجرات الإنجليز السكسون . يضاف إلى ذلك أن روح السعي والمبادرة سادت في كل المجالات؛ في بناء السفن، وفي الإسترشاد بالنجوم في حركة السفن ، بل وفي الكتابة أيضاً.

واتخذت حركة السكندناويين ونشاطهم ، في القرنين الثامن والتاسع ،صوراً مختلفة ، فاهتمت من ناحية بالزراعة والرعي ، على أنها نزعت في معظم الأحوال إلى الهجوم والإنفرادية . وتحولت حركتهم في بعض الأحوال إلى مشروعات سياسية ،وإلى غارات انتقامية أو إلىفتوح تقوم بها جيوش لحساب أحد الأمراء، واتخذت في بعض الأحوالصورة التجارة وارتياد أسواق جديدة.هذا الطابع ، بالغ التنوع ، يجعل من الصعوبة التعرف إلى الأسباب العامة لمظاهر هذه الحركة .

وكيفما كان الأمر ، ظهرت نزعات السكندناويين إلى التوسع في اتجاهين عكسيين ، في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن . إذ أن السويديين أخذوا يقيمون محطات تجارية على امتداد الشاطىء الشرقي لبحر البلطيق ، بينما شرع الفلاحون النرويجيون فيأستعمار أرخبيل الجزر الواقعة إلى شمال اسكتلنده، حتى إذا كان أواخر القرن الثامن اكتمل الاتصال بين السكندناويين وبين الشعوب التي أثرت في تاريخهم . ففي الفترة الواقعة بين سنتي ٧٨٦ ، ٧٩٦ ، تعرضت انجلترا للاعتداء على الساحل الشمالي الشرقي (لندزفارن) والساحل الجنوب الغربي (دورشستر) . ولم تسلم ايرلنده وغالة من الهجمات سنتي ٧٩٥ ، ٧٩٩ . وكل هذه الهجمات قام بها النرويجيون . وبدأ العداء بين الدانمرقيين والفرنجة براً وبحراً ، أثناء حملات الفرنجة على السكسون ، في أوائل القرن التاسع . أما السويديون فإنهم أخذوا رويداً رويداً يتوغلون في بلاد روسيا حتى

أصبحوا متاخمين للدولة البيزنطية . هذه الموجة الأولى من حركة الفيكنج استمرت حتى سنة ٩٣٠ .

كان لكل قوم من الأقوام السكنديناوية اتجاهاته في التوسع . واتخذ نشاط النرويجيين الذين كانوا يغيرون في جماعات صغيرة من الفلاحين مظهرين ، صورة الإلتجاء الى النهب الذي ساد أعمالهم في الشطر الجنوبي من مجال عملهم ، والتماس الأراضي التي يستغلونها في الزراعة والرعي على النحو الذي انتهجوه في بلادهم . أما خط سيرهم الأساسي فكان يبدأ من برجن ، ويتجه غرباً الى جزائر شتلند ، ومنها يأخذ في التفرع ، اذ ســار طريق ازاء الساحل الشرقي لاسكتلنده وانجلترا ، بينما مضى الطريق الأساسي نحو مياه ايرلنده ، بعد اجتياز جزائر أوركني وهبريد ، ثم يتجه الى غربي غالة ، وأسبانيا ، ومضيق جبل طارق . وفي القرن التاسع ، اتجه تيار جديد نحو الشمال الغربي ، ابتداء من جزائر شتلند ، الى فارو وايسلندا ، ووصل في القرن العاشر الى جرينلند وأميركا .

ويختلف الدانمرقيون عن النرويجيين في أنهم يفوقونهم في التنظيم ، وفي أن تولى قيادتهم أمير ينتمي الى الأسرة الملكية ، وفي أنهم يلتمسون من الغنائم مـا يزيد كمية ومقداراً ، ومن الأراضي ما اتخذهيئة هبـات ضخمة . ففي فتوحهم في الغرب تصرفوا على انهم سادة لا فلاحين . وكان لحملاتهم مظهر سيـاسي . وابتدأ الطـريق الذي سلكوه ، من برزخ شلزفيج او من ليمفورد ، ويمتـد على الساحل الجنوبي لبحر الشمال ثم يتشعب الى فرعين أحدهما يتجه الى شرق انجلترا ، ويمضي الآخر الى بحر المانش وساحل غاله المطل على المحيط الأطلنطي ، ويمخر الدانمرقيون الانهار ، حتى اذا لاحت لهم الغنيمة هرعوا إلى اقتناصها ركباناً ورجالة .

وفي هذه المرحلة من التاريخ تبدو أعمال السويديين بالذات جديرة بالانتباه . ذلك أن الفيكنج السويديين الذين اجتازوا بحر البلطيق في القرن التاسع الميلادي ومخروا الأنهار حتى بلغوا جوف روسيا ، أطلق عليهم الصقالبة اسم روس

اسم روس (Rus) بمعنى الاحمر، وهذه اللفظة مشتقة من روتسي (Ruotsi) التي أطلقها الفنلنديون على جيرانهم السويديين منذ أيامهم الأولى بحوض بحر البلطيق. وبذا كانت روسيا أرض السويديين، وبهؤلاء التجار القراصنة من السويديين يبدأ تاريخ روسيا المدّون. إذ تألفت روسيا في القرن التاسع من مدن تجارية كبيرة هامة، منها مايقع على نهر الدنيبر وفروعه، ومنها مايقع في أقصى الشمال على بحيرة ايلمن، ومنها مايقع في الشرق بأعالي نهر الفولجا. وكل من هذه المدن تملكت مساحة كبيرة من الأرض، نزلتها قبائل صقلبية مختلفة، واتخذت حكومة مستقلة، وجمعية وطنية، وهي مجلس مؤلف من كبار الموظفين الذين يجري انتخابهم. ولحماية التجارة الزاهرة، لجأ سكان كل مدينة الى استدعاء جماعة من المحاربين المدربين المجهزين بجيد الأسلحة، والذين يتولى قيادتهم أمير من الأمراء. وعهدت كل مدينة الى هذا الأمير أيضاً بتحصيل الأتاوات من السكان، وبالقيام ببعض الواجبات الإدارية والقضائية. واشتهر هؤلاء الأمراء واتباعهم في روسيا باسم الورنك Varangians. فكان الفيكنج السويديون أول من عرف من أمراء روسيا.

ولم يحفل الورنك السويديون فيما يبدو بالأراضي التي تصلح للزراعة، بل انهم أحبوا المال وحرصوا على أن يحصلوا عليه بالتجارة، أو بان يخدموا على أنهم جنود مرتزقة، أو بالالتجاء الى النهب، غير أنهم لم يضارعوا الدانمرقيين في الصفة الأخيرة. وإذ هبطوا من خليج فنلندا، أخذوا ينتقلون من نهر الى آخر، من الشمال الى الشرق، فسلكوا نهري دوينا وفولكوف حتى بلغوا حوض نهر الفولجا، فمضوا فيه حتى بحر قزوين. واتخذوا في منتصف القرن التاسع الطرق الغربية، ابتدأ من نهر فولكوف، ثم نهر دوينا، أو من نهر الفستولا إلى نهر الدنيبر إلى البحر الأسود، وهو الذي كانوا يؤثرونه، فاستخدموه في طريقهم الى البوسفور سنة ٨٦٠. وفاق السويديون كلا من النرويجيين والدانمرقيين في التنظيم والتوجيه، ولذا فرضوا وجودهم في روسيا، وأقاموا محلاتهم (مستعمراتهم)

العسكرية في مدنها الرئيسية . ففي نوفجورود ، التي كانت من حصون الصقالبة على نهر فولكوف ، والتي أضحت محطة تجارية هامة أطلق عليها السويديون هولجارد ، أنشأ الزعـــيم السويدي روريك حوالي سنة ٨٦٢ دولة فيكنجية ، تعتبر أيضاً بداية الملكية الروسية . ثم استولى أولج خليفة روريك في الحكم ، على كييف ، التي أضحت مقر دوقية الفيكنج الروس ، وتوالت سلالة روريك على حكمها . ولم يلبث سلطانها أن امتد الى شطر كبيرمن السهل الروسي .على أنه لم تحل سنة ١٠٠٠ حتى اصطبغ السويديون في روسيـــا بالصبغة الصقلبية ، واعتنقوا المسيحية ونفذت اليهم المدنية من القسطنطينية لا من الغرب .

وفي القرن التالي ، العاشر ، تراوحت علاقتهم بالقسطنطينية بـــين الحرب والتجارة ، حتى أدركوا آخر الأمر أن التجارة تدر عليهم من الربح مالا تجلبه الحرب . فأخذت أساطيلهم المؤلفة من القوارب الخفيفة تمخر مياه نهر الدنيبر الى البحر الأسود ، تحمل الفراء والقنب والشمع والقطران، والعنبر ، والرقيق، وتعود من بيزنطة والشرق وقد وسقت المنسوجات الحريريةوالتوابل ،والأواني المعدنية ، والأواني الزجاجية ، والفيروز ، والحلى التي يهواها المتبربرون . والمعروف أنه كان بكييف في أوائل القرن الحادي عشر ثماني أسواق ، نشطت تجارتها مع البولنديين والمجريين والألمان ، والقسطنطينية وبغـــداد . ولم يلبث الأباطرة البيزنطيون أن اكتشفوا ما اتصف بـــه الروس السويـــديون من البسالة والشجاعة ، فاتخذوا منهم الحرس الأمبراطوري ، واستمروا يؤلفونهذا الحرس الى أن أحل الامبراطور الكسيوس مكانهم ، الانجلـــيز السكسون الذين فروا من قسوة الملك وليم الترمندى .

سبق الاشارة الى أن الفيكنج الدانيين (الدانمرقيين) والنرويجيين ، أخذوا يغيرون على غرب اوربا للنهب ما استطاعوا الى النهب سبيلا . واكتشف أولئك القراصنة أن الأديرة والكنائس في ايرلنده وانجلترا وفرنسا تزخر بالتماثيـــل

والأدوات والأواني من الذهب والفضة ، فضلاً عن الأقمشة المطرزة والستائر الثمينة والحجارة الكريمة ، فوجهوا اليها غاراتهم ، ويكفي أن نذكر ماحملته سفنهم سنة ٨٩٣ من أسلاب لندسفارن وكنيستها ، أو من أنهاب جـــزيرة نوارموستييه عند مصب نهر اللوار سنة ٨٤٣ .فلم يكن الفيكنج سوى قراصنة يعملون في البحر ، وليس في بلادهم من المؤن مايقيم أودهم ، على حين طفحت الأديرة والكنائس بالثروة ، ثم ان الشتاء في تلك البلاد الشمالية طويل مظـــلم ، والحال السياسية في الممالك الغربية المتناحرة تدعو الى المغامرة في غير خشية أو خوف ، فنهض الفيكنـــج طلباً للغنيمة فيما وراء البحار .

وللعامل الجغرافي أهمية في أن يتخذ كل من الدانيين والنرويجيين طريقاً مستقلاً وميداناً خاصاً لنشاطه وقرصنته . فالدانيون بحكم قربهم من بحر المانش اهووا على فريزيا وانجلترا وفرنسا ، على حين أن النرويجيين بحكم وضعهم في أقصى الشمال اتخذوا مجالاً بالـــغ الاتساع ، فهاجموا جزائر أوركني وشتلاند وهبريد ، وجزيرة مان ، ووصلوا الى جزيرة ايسلنده وجزائر فارو ، وجزيرة جرينلند ، ومنها الى أمريكا الشمالية .

يضاف الى ما امتاز به الفيكنج من المهارة في فنون البحو ، انهم أدركوا أهمية الحركات السريعة في الحروب ، حتى انهم كانوا يدخلون نهر التيمس أو نهر اللوار ، ويرسون فجأة عند ناحية من النواحي الزراعية ، فيستولون على مابها من الخيل وينتشرون في ضياعها يحرقون الغلات ، ويذبحون الفلاحين ، ويسرقون ما تقع عليه أيديهم ، ثم يعودون في سرعة البرق ، قبل ان يحتشد أهل الناحية لرد المغيرين . والواقع أن طول المدة التي تكررت فيها إغارات الفيكنج ، وأن مانجم عن تلك الاغارات من الخـــراب والدمار ، فضلاً عن الذعر الذي عمّ الشواطىء والأطراف ، وامتد الى جوف القارة الأوربية ، كل ذلك دليل على

ماتردت فيه أوربا من الخلل والفوضى منذ وفاة شارلمان (١).

بدأت هجمات الفيكنج على انجلترا أواخر القرن الثامن الميلادي، ثم استأنف الفيكنج نشاطهم قبل وفاة الملك اجبرت سنة ٨٣٩، وتوالت إغاراتهم حتى استولى الدانيون على الطرف الشمالي الشرقي لانجلترا . ولم تلبث الغارات أن تحولت إلى فكرة الفتح والاستيلاء سنة ٨٦٦ . فاستطاع الدانيون، في الفترة بين ٨٦٦، ٨٧١، أن يكتسحوا جميع الممالك الانجليزية، نورثمبريا، وايست انجليا، ومرسيا، وغزوا وسكس، حيث التقوا بخصم شديد المراس، وهو الفرد الكبير (٨٧١ — ٩٠٠)، الذي أضحى بعد ضياع لندن الأمل الوحيد لاستقلال انجلترا . إذ عقد الفرد سنة ٨٥٥، بعد سنوات عديدة قاسية في الدفاع عن البلاد، اتفاقية مع الدانيين، تنازله بمقتضاها للدانيين عن شطر من نورثمبريا، ومرسيا، وايست انجليا، باستثناء لندن، أي الجانب الأكبر من انجلترا المعروف باسم أرض الدانيين (Danelaw) وأعلن الدانيون ولاءهم لألفرد وانتماءهم له، فلم يقيموا لهم ملكا من بينهم، ومع ذلك فقد كانوا فعلا مستقلين، تولى أمرهم فئة ارستقراطية عسكرية بالغة القسوة والعنف، فطردت الانجليز وقام الدانيون بفلاحة الأرض وزراعتها .

وبفضل ما أبداه الفرد من مقاومة عنيفة للدانيين نجح فيما فشلت فيه الكنيسة، في توحيد الانجليز، وبفضل وفاقه مع الدانيين، انقذ ما تبقى من انجلترا من غزو الدانيين . وحرض أخلافه على أن يسعوا بعده إلى استرداد البلاد الدانية بانجلترا، وكلما تقدم الجيش الانجليزي صوب الشمال، أقام معاقل جديدة، لم يلبث بعضها أن صار مدنا صغيرة . واتم استعادة البلاد الدانية اثلستان حفيد

---

(١) حاول شارلمان أن ينشيء اسطولا لحماية السواحل، وأراد شارل الاصلع أن يسد الانهار في وجه المغيرين، بتشييد جسور منيعة، غير أن هذه المحاولات لم توقف نشاط الفيكنج، ولم ينجح في ردهم فيما بعد إلا الفرد الكبير (٨٧١ — ٩٠٠)

الفرد ولم تلبث انجلترا بأجمعها أن خضعت لملك انجليزي واحـــد ، هو ادجار (٩٥٩ — ٩٧٥) .

ومع ذلك فان الملكية الانجليزية لم تكن من القوة ما يكفل لها السيطرة على النظام الاقطاعي الذي ظهر وقتذاك ، وتجنب غزوة دانية أخرى . فلما أغـار الدانيون سنة ٩٨٠،لم يسع مملكة وسكس إلا أن تبذل الأموال للدانيين للرحيل عن البلاد ، فتقرر فرض ضريبة ذهب الدانيين Danegeld . غير أن هـــذه الضريبة لم تمنع الدانيـين من شن غارات جديدة ، أدت آخر الأمر إلى هروب الملك اثلرد الانجليزي إلى نورمانديا ، وإلى أن يحتـــل عرش انجلترا سنة ١٠١٦ كنوت (كانيوت) ابن ملك الدانيين ،الذي ظل يحكم انجلترا إلى سنة ١٠٣٥، فأضحى كنوت ملكاً على انجلترا والنرويج والدانمرقة . وبـذا انقطعت صلات انجلترا بالقارة ، وصارت جزء في امبراطورية اسكنديناوية ، حديثة العهـــد بالمسيحية . واستمر تحصيل ضريبة ذهب الدانيين للانفاق على استئجار الأساطيل الدانية اللازمة لخدمة انجلترا . اضحت لندن العـــاصمة التجارية لأمبراطورية كنوت . غير أن حكم انجلترا لم يلبث أن عاد إلى ادوارد التقي (سنة ١٠٤٢)، الذي ينتمي إلى بيت الفرد الكبير . ولم تنقطع تأدية ضريبة الدانيين ، غير أنها أصبحت ضريبة مباشرة تؤدي لمساندة الملك .

على أن ايرلنده كانت الهدف الرئيسي لغارات الفيكنج النرويجيين في السنوات الأولى من القرن التاسع . ففي حوالي سنة ٨٣٤ ، أغاروا على الشطر الأكبر من الجزيرة ، فدمروا حضارتها ، وأقاموا لهم قواعـد على السواحل ، يتيسر لهم منها أن يوجهوا الحملات إلى سائر أجزاء الجزائر البريطانيـة وأوربا . على أنهم أوغلوا في داخل ايرلنده ، فاستباحوا الأديرة ودمروا كل ما في ايرلنده مـــن حياة ديرية ، وترتب على ذلك أن فر مئات من الرهبان الايرلنديـين إلى أديرة فرنسا والفلاندر والمانيا .

وفي اثناء الشطر الأول من القرن التاسع ، دأب الشماليون على أن يغيروا صيفاً على القارة الأوربية ، ثم يعودون منها في الخريف بالغنائم الوفيرة . ولم يحل منتصف القرن التاسع حتى أخذوا يمضون فصل الشتاء خارج بلادهم . ومن أجل هـذا الغرض ، اتخذوا لهم معسكراً حصيناً أقاموه عادة على جزيرة ، يتهيأ لهم منها أن يغيروا على الجهات المجاورة . واقتصرت غاراتهم أول الأمر على الساحل ، غير أن ضعف المقاومـة شجعهم على أن يتطرفوا إلى الداخل ، حيث طاردوا سكان السواحل الذين هربوا من هجماتهم . وخصوا الأديرة بهجماتهم لما تحويه من الثروة الوفيرة ، ثم استقروا آخر الأمر في البلاد التي نهبوها .

والواقع أن الحافة الغربية لأوربا ، الممتدة من الدانمرقة إلى جبل طارق ، تعرضت لغارات الفيكنج في الأنهار . فنهر الراين يؤدي إلى كلونيا ، بينما يفضي نهر السوم إلى اميان ، ويسهل الوصول إلى روان وباريس من نهر السين . ولم يلبث النورثمن أن اتخذوا طريقهم حول بريتاني ، ومنها سلكوا نهر اللوار للوصول إلى تور وأورليان . ومنذئذ كانت قواعدهم الأساسية على نهر الشلدت ، ونهر السين الأدنى ، ونهر اللوار ، بعد أن دمروا دورشتاد في فريزيا . وفي سنة ٨٤٣ أمضوا الشتاء لأول مرة في جزيرة نوارموتييه الواقعة عند مصب نهر اللوار ، ثم استولوا على نانت ، وخربوا وادي نهري اللوار والجارون ، بـل انهم هددوا مدينتي لشبونة وقادس الاسلاميتين . وفي سنة ٨٤٥ ابحروا مصعدين في نهر السين في ١٢٠ سفينة ودمروا باريس . وفي الثلاثين سنة التالية ، امتدت إغارتهم إلى أنهـار الراين والميز والشلدت والسوم والسين والمارن واللوار ، والجارون . على أن حملتهم التي تلفت الانتباه (٨٥٩ — ٨٦٢) ، كانت تلك التي اجتازت مضيق جبل طارق ، وأغارت على بـلاد المغرب ، وعلى ساحل مرسيليا ، وجزائر البليـار ، وروسيلون ، ثم ساروا مصعدين في نهر الرون حتى بلغوا فالنس ، ثم مضوا إلى الساحل الايطالي ، فنهبوا بيزا ولونا ، ثم عادوا إلى قاعدتهم في بريتاني .

وفي سنة ٨٨٥ كانوا في ظاهر باريس يحاصرونها بنحو ٧٠٠ سفينة، ٤٠ألف رجل . ومع انهم لم يستطيعوا الاستيلاء على المدينة ، فان الملك شارل السمين دفع لهم جزية قدرها ٧٠٠ رطل من الفضة ، وسمح لهم بـــأن يمضوا الشتاء في برجنديا فاستباحوها ، على أن شارل السمين غادر البلاد نهائياً ، بعد أن عيّن اودو Odo دوقاً على بـــلاد الفرنجة (فرانكيا) ومع ذلك فإن اخفاق الفيكنج في الاستيلاء على باريس بعد أن حاصروها نحو عشرة شهور ، اضرّ بمكانتهم ، ورفع شأن باريس وقدرها . إذ اخذت تنافس حاضرة الكارولنجيين في لاون . ومن كونتات باريس جرى فيما بعد اتخاذ ملوك فرنسا .

وعلى الرغم من أن الفيكنج تعرضوا للهزيمة في معركة َدايل سنة ٨٩١ على يدي أرنولف ملك الفرنجة الشرقيين،فإنهم ظلوا من القوة ما يكفي لأن يستقروا في أرض فرنسا ، حول الحوض الأدنى لنهر السين . ولما يئس شارل الساذج ملك فرنسا من طردهم عن شاطىء القتال ، لم يسعه إلا أن يعقد سنة ٩١١ اتفاقاً مع زعيمهم هرولف Hrolf (رووللو)، تقرر فيه أن يتنازل لهم عما يصح أن يعرف بارض النورثمن (نورمانديا) ، الممتدة من نهر إ ْبت إلى حدود بريتاني ، على أن يعتنق هرولف المسيحية ، ويصير في دوقية نورمانديا تابعـــاً للملك شارل الساذج .

ووفقاً لهذه المعاهدة حاز النورثمن رقعة كبيرة مـــن الأراضي ، وإذ سبق لهم أن انتزعوا من السادة الفرنجة اراضيهم ، أقرت المعاهدة ما حدث فعلا . وأفاد ملك فرنسا من دوق نورمنديا القوى في منـــاوءة تابعه المتمرد العنيد ، كونت باريس ، وفي منع باريس من الاتصال بالبحر . وبذا كان سادة الفرنجة هم الذين خسروا فعلا . ولم يحفل سواد الناس بما جرى من تغيير في سادتهم .

ولم يلبث النورمان ، وهو اسم محرف من لفظ الشماليين (النورثمن) ، أن برهنوا على انهم اسطع الأجناس الأوربية عند الاطلاق ، إذ اضافوا إلى ما

اتصفت به اصولهم الشمالية من صفات الشهامة والرجولة والقوة جميع ما كسبوا، هم وأبناؤهم، من صقلة الشعوب اللاتينية وثقافتها التي اختلطت بحياتهم الجديدة، فاستبدلوا بالوثنية ديانة المسيح، وباللغة الدانية لغة الفرنسيين، واستعاضوا عن ذكرياتهم الشمالية الصاخبة تقاليد اللاتين واسسها الواضحة، وشغفوا ببناء الكنائس والأديرة، واهتموا باصلاح الأراضي، وحرصوا على تشجيع العمران، وإنشاء المدن، والأخذ بنظم السكان الذين ينزلون بينهم. فلم تمض مائة سنة على تملكهم لنورمانديا، حتى غدوا حماة أقوياء للمسيحية. ومع أن نزول النورثمن في نورمانديا لا يزيد كثيراً على هبوط الفيكنج في ايسلنده، فالواقع أن ما من مهاجرين من النورثمن لهم من الأهمية في مستقبل حضارة أوربا مثلما كان للنورمان. إذ لا زالوا يحتفظون بما كان لهم من قوة ونشاط، فلم يغير النورمان شيئاً مما بأنفسهم من الميل إلى القتال والنزال. فأغاروا، أثناء مائة وخمسين سنة حلوا فيها بنورمانديا، على انجلترا واستقروا بها، وأقاموا بجنوب ايطاليا وصقلية، ثم اشتركوا فيما بعد في الحروب الصليبية. وأدركت البابوية ما سوف تفيد من تحالف مع زعماء تلك الفئة النرمانية الغالبة بجنوب ايطاليا وصقلية، عساهم أن يخلصوا ايطاليا من البيزنطيين، ويعيدوا صقلية إلى المسيحية، ويجعلوا البابوية على عرشها آمنة مطمئنة. لذلك كله عقد البابا نقولا الثاني والنرمان معاهدة سنة ١٠٥٩، بمقتضاها اقطعت البابوية، استناداً إلى هبة قنسطنطين، دوقية أبوليا إلى روبرت جويسكارد، كما عينت أخاه رجار نائباً بابويا لجزيرة صقلية مكافأة له ولأعقابه من بعده، على طرد المسلمين من تلك الجزيرة. واستطاع النرمان أن يبعثوا من صقلية وجنوب ايطاليا الاسلامية البيزنطية حضارة ومدنية لا مثيل لها في غرب أوربا، لما اتسمت به من التسامح والروعة وامتزاج العناصر بها.

٣ – المسلمون

يتفق المسلمون ، الذين أغاروا على العالم المسيحي في الغرب مع النورثمن في أنهم كانوا من رجال البحر، الذين هاجموا السواحل ، وامتدت غاراتهم الى داخل البلاد ، فأنزلت أضراراً بالغة الشدة . والمعروف ان المسلمين بالغرب ، سيطروا على الجانب الأكبر من البحر المتوسط،منذ أن استولى مسلمو الأندلس علىجزيرة كريت ، سنة ٨٢٧ ، وشرع أمراء أفريقية من الأغالبة وقتذاك في انتزاع صقلية من أيدي البيزنطيين ، وتهيأت الفرصة للبحرية الإسلامية أن تقطع سبيل الاتصال بين بيزنطة وايطاليا وبلاد الفرنجة . وما وقع من نزاع بين الأسرات الحاكمة بجنوب إيطاليا أدى إلى أن يهبط المسلمون إلى الشاطىء . وباستيلائهم على بالرمو سنة ٨٣١ أضحى لهم ميناء رائع ، يستطيعون منه أن يشنوا غاراتهم على الشاطىء الإيطالي ، ومنذئذ كان للنزلاء من العرب والبربر ، النصيب الاكبر فيما جرى من الغارات . واستعان بهم اندرو دوق نابولي في القتال مع بنيفنتو ، سنة ٨٣٧ ، وحذا حذوه سائر الدوقات والأمراء . واستقر المسلمون في طارنت وباري سنة ٨٤٠ ، فأقاموا إمارة اسلامية ، ومن هذه القاعدة (باري) شنوا هجماتهم على سواحل البحر الأدرياني والبحر التيراني واجتاحوا ما يقع بين البحرين من أراضي ، واشعلوا الحرائق في ضواحي روما ، ونهبوا كنيسة القديس بطرس التي تقع خارج أسوار روما ، وذلك سنة ٨٤٦ . وما نشب من منازعات بين اللومبارديين وسكان كامبانيا ، هيأت للمسلمين أن يمضوا في غاراتهم ، وان يلتمس منهم المساندة القوى المتنازعة بايطاليا ، فهاجموا دير القديس بنيدكت في مونتي كاسّينو، وكان لزاما على الأمبراطور لويس الثاني أن ينهض لدرء خطرهم ، فكاد يستولي على باري سنة ٨٥٢ ، غير أن غاراتهم لم تنقطع ، فجرت محاولة لعقد محالفة بين الأمبراطور لويس الثاني والأمبراطور

البيزنطي باسيل الأول ، للاشتراك معاً ، في توجيه هجوم على باري من البر والبحر ، وإذ فشل الاتفاق ، انفرد الأمبراطور لويس الثاني بمهاجمتها فاستولى على باري سنة ٨٧١ . غير أنه لم يلبث أن وقع في أسر اللومبارديين ، وترتب على وفاة لويس الثاني سنة ٨٧٥ ، أن تطلع البابا وأمراء ايطاليا إلى من يحميهم من غارات المسلمين ، غير أنهم لم يتلقوا شيئاً من المساعدة من الشمال ، من قبل الأباطرة الأطياف والملوك المتنافسين .

أما الطريق الآخر الذي سلكه المسلمون في هجومهم ، فيتمثل فيما شنوه من غارات على ساحل غالة الجنوبي ، ولم يصادفوا في هذه الجهات مقاومة عنيفة ، لأنهم نفذوا إلى البلاد التي تعرضت في نفس الوقت لهجمات الفيكنج . فانطلق البحارة المسلمون من اسبانيا ، فأغاروا في السنوات بين ٨١٣ ، ٨٥٠ على نيس ومرسيليا وآرل ثم اقاموا لهم قاعدة في كامرك Camarque وأسروا رئيس اساقفة آرل ، وامتد نشاطهم إلى وادي نهر الرون حتى بلغوا برجنديا ، فنهبوا سان كلو ، ولوكسي . وفي سنة ٨٦٠ اتخذوا لهم من فراينيه Fraxinetum (بالقرب من سنت تروبيه الحالية) قاعدة على ساحل بروفانس بجنوب غالة ، انطلقوا منها الى الداخل ، فأثاروا الخوف والرعب في كل ممرات الالب ، وأمدوا نشاطهم إلى سوابيا ، وهاجموا القوافل التي تجتاز الممرات ، وهجر الناس الوديان التي ينزلونها . ولم تجد نفعا محاولة بيزنطة لمهاجمة فراينيه بحراً ، سنة ٩٣١ ، وفشل أيضاً الهجوم الذي اشترك فيه ، هيو ملك بروفانس ، وملك ايطاليا ، بطريق البر ، فضلاً عن الأسطول البيزنطي ، بل أن هيو اتخذ من المسلمين حلفاء له سنة ٩٤٢ ، ولم يدفع خطرهم إلا الأمبراطور ارتو الكبير . على أنه حدث سنة ٩٧٢ أن القديس مايولوس Maiolus رئيس دير كلوني وقافلة ضخمة وقعوا في أيدي المسلمين أثناء اجتياز ممر القديس برنارد بجبال الألب . فبادر الرهبان الكلونيون إلى دفع الفدية ، غير أن الأمراء المحليين لم يقوموا باجراء مشترك ، إلا بعد فترة ، لتدمير القاعدة الإسلامية في فراينيه ، ولتأمين المسافرين في ممرات الألب ، ومع ذلك

لم تنتعش الأحوال الاقتصادية في هذه الجهات إلا بعد زمن طويل .

على أن فتح الفاطميين لمصر سنة ٩٦٩ اقترن باستئناف العداء مع الأمبراطورية البيزنطية ، فتعرضت ثغورها الايطالية للتخريب والنهب ، والتزمت بأن تؤدي الجزية للفاطميين . وظهرت في ايطاليا قوة جديدة لتشترك فيا يقع بهـا من أحداث ، إذ كان الأمبراطور الألماني اوتو الثاني يأمل في أن يضيف جنوب ايطاليا إلى املاكه وأن يلحق الهزيمة بالمسلمين . غير أنه تعرض لهزيمة ساحقة ، قرب ستيلو Stilo ، على يد أمير صقلية ، ابي القاسم الذي هـز كيان الأمبراطورية الالمانية ، سنة ٩٨٢ . واستمرت غارات المسلمين ، بينما استطاع البيزنطيون أن يعيدوا سيطرتهم . ولم ينقذ ايطاليا من تشاحن القوى المختلفه ، إلا المدن الايطالية التجارية ، التي ازدادت قواتها البحرية . ففي ١٠٠٢ استطاع اسطول البندقية أن يمنع سقوط باري من جديد في أيدي المسلمين . وأحرز اسطول البيازنة ، سنة ١٠٠٥ الانتصار في مضيق مسينا تجاه ريو . ولما استولى مجاهد ملك دانيه باسبانيا على ساحل سردينيا سنة ١٠١٥ ، تحالفت جنوة وبيزا ، وشجعهما البابا على الاشتراك معاً في طرده سنة ١٠١٦ .

وأدت الغارات الإسلامية إلى نموّ القوى المحلية ، ونهوضها لمقاومة المسلمين ، وفي هذة الناحية نلحظ شيئاً من التشابه بين المسلمين والنورثمن . وما أسهم به المسلمون من حضارة غرب أوربا ، إنما جاء من اسبانيا وصقلية ، إذ تركوا في جزيرة صقلية وسكانها طابعاً لا زال ملموساً زمن النرمان والأباطرة الألمان ، وحتى الوقت الحاضر . وما اتصفت به الثقافة الاسلامية من القوة والاتساع ، فضلا عن اقترانها بالدين ، كل ذلك جعل منها اساساً ثابتاً للمدنية الإسلامية . وكان للثقافة الإسلامية أهمية كبيرة لدارس تاريخ أوربا الغربية ، لما لها من أثر في إحياء الحياة الثقافية في الغرب في القرن الثاني عشر .

٣ — المجريون :

على الطرف الغربي لبحيرة جنيف اشترك في القتال معاً ، المسلمون القادمون من فراينيه (جنوبي غاله) ، والمجريون الوافدون من غرب آسيا . والمعروف أن المجريين ينتمون الى العناصر المنغولية ،فيمتون بصلة القرابة إلى الفينيين Finns والبلغار والترك ،والى من سبقهم من الهون والأفار . وقد اقتفوا أثر الافار عبر سهوب جنوب روسيا ، ثم حلّوا بالسهول الواقعة في وادي الدانوب الأوسط ، بعد أن استأصل شارلمان شأفة الأفار من هذه السهول . وترتب على هجماتهم وغاراتهم المخربة ، أن انفصل الصقالبة النازلون بالجنوب الغربي من البلقان عن سائر أقوامهم بالبلقان وبذا اتسعت الفجوة بين غربي أوربا وشرقها .

ويعتبر المجريون من أمهر الشعوب في ركوب الخيل ، ولذا أحسّ الناس بقوتهم . ففي أواخر القرن التاسع (سنة ٨٩٣) استخدمهم أرنولف ملك الفرنجة الشرقيين الذي أصبح أمبراطوراً ، في حملة للقتال في مورافيا ، فانزلوا بها الخراب والدمار ، وفرضوا الهوان والرق على الصقالبة والأفلاخ بهنغاريا . وظفر زعيم المجريين ارباد Arpad ، بنصيب الأسد من هذه الأراضي ، وأسس اسرة حاكمة من الدوقات والملوك ، عاشت زمناً طويلاً . على أنه لم يكن للمجريين أن يستقروا ، أو يتخلوا عما الفوه من عادات التخريب والنهب . ومع أن عددهم لم يكن كبيراً ، فان ما اشتهروا به من السرعة الفائقة في حركتهم ، ومن الصلابة الشديدة في القتال ، ومن البراعة في الرمي ، هيأ لهم أن يفاجئوا ممالك امبراطورية الفرنجة ، التي ساد بها التنازع والاختلاف ، والتي لم تكن مستعدة للقائهم ، ولذا لم يجد المجريون مقاومة إلا من المدن والقلاع المنيعة .

وكانت ايطاليا أول إقليم تعرض لغارات المجريين . ففي سنة ٨٨٩ قام جيش مجري كثيف باستباحة لومبارديا . وفي الفترة بين سنتي ٩٠٠

٩٠٠، ٩٤٢هاجموابافارياوكارينتياوسكسونياوثورنجياوسوابياوالالزاس وبرجنديا الفرنسية ولومبارديا وبروفانس . وشجعهم على هذه الغارات ما وقع من التنافس والتنازع بين الملوك وماركيزات ايطاليا ، حتى أن جماعات منهم بلغت ابوليا التي تعرضت للنهب في سنة ٩٤٧ . على أن سكان المدن بزعامة أساقفتهم نهضوا لعمارة الأسوار ، كما أن النبلاء والفلاحين اخـــذوا يحصنون بلادهم في الريف ، واتخذوا منها ملاذاً ، فلم يقو المغيرون على انتزاعها منهم .

على ان ما أحدثه المجريون ، في فترة امتدت خمساً وستين سنة ، من التخريب والاذلال وابتزاز الاتاوات،أنهاه ملكان ينتميان الى الأسرة المالكة السكسونية في المانيا ، وهما هنري الأول ، سنة ٩٣٣ ، ثم ابنه اوتو الكبير ، الذي استطاع بمساعدة أودالريخ Udalrich ، أسقف أوجزبرج ، أن يقهرهم على نهـر ليش Lech في معركة حاسمة قرب اوجزبرج ، فطردهم نهائياً من المانيا . ولم يجرؤ المجريون بعد هذه الكارثة على الاغارة من جديد، بل أخلدوا الى الاستقرار في هنجاريا، وبدا اوتو الكبير على أنه مخلص العالم المسيحي في الغرب، وتراءت ألمانيا على أنها أعظم دولة في الغرب المسيحي فازدادت بذلك قوة الملكية في المانيا .

٤ – ردود الفعل

هذه الغارات التي قام بها الفيكنج والمسلمون والمجريون في أحوال تكاد تكون متشابهة، كانت بالغة الخطورة على الممالك الكارولنجية ، التي لم يتوافر لها من القوة ما يكفي لحمايتها . وكان اول ردّ فعل لها ،أن أخذت البلاد الـــتي تعرضت لخطرهم ، تسعى لمسالمتهم ، بأن أدت لهـم الفديات والاتاوات كالتي اشتهرت باسم ذهب الدانيين Danegeld ،أو ان السكان فروا من الجهات المتاخمة للسواحل البحرية اوشواطىء الانهار. ومن الدليل على ذلك أن رهبان دير القديس فيليبرت Philibert بجزيرة نارموتييه بالقرب من مصب نهر اللوار ، ظلوا نحـو أربعين سنة ينتقلون من مكان إلى آخر ، حتى إذا ظنوا، باستقرارهم في تورنوس

على نهر الساؤن ، على مسافة ستمائة ميل من موطنهم الأصلي ، انهم بنجوة من الخطر ، وانهم أضحوا في موضع منيع ، تعرضوا مرة أخرى للغارات من قبل المجريين سنتي ٩٣٧ ، ٩٣٩ . وكأنه لم يعد ثمة ملجأ أمين في أي مكان .

على أنه ينبغي ألا نتصور أن هذه الكوارث ترجع فحسب الى انصراف الكارولنجيين إلى مشاكلهم الأسرية ، إذ أن كثيرين من الكارولنجيين أظهروا نشاطاً ملحوظاً في الدفاع عن ممتلكاتهم ، بل أن المشكلة تمثلت في ان جهودهم بذلوها في فترات متقطعة ، فلم يكن بوسعهم أن يقيموا نظاماً ثابتاً للدفاع عن المملكة ، حتى ولو لم ينصرفوا لمشاكلهم الأسرية ، نظراً لأن ممالكهم كانت بالغة الاتساع ، فاذا حدثت غارة للفيكنج ، فلا بد من اخطار الملك الذي لا زال بلاطه غير مستقر في موضع ثابت ، ولا بد للملك أن ينفذ مبعوثيه لدعوة الكونت وأتباعهم لحشد قواتهم ، وكل ذلك يستغرق زمناً طويلاً ، فإذا جاء الملك الى الموضع الذي تعرض لغارة الفيكنج ، فلن يقف لهم على اثر لأنهم كانوا قد اختفوا ، إذ يتحركون في سرعة تمنع القوات البريه عن متابعتهم ومطاردتهم . وفي وسعهم أن يمضوا في أعمالهم الحربية في البر أسابيع عديدة ، قبل ان يعودوا الى سفنهم التي أرسوها في أحد الأنهار ، ويختفون في سرعة فائقة .

لجأ الملوك الى اتخاذ وسيلة دفاعية ناجعة لتعويق حركة هؤلاء المغيرين ، بأن حاولوا إنشاء الأساطيل والسيطرة على البحار ، غير أن ذلك لم يتيسر إجراؤه من الناحية العملية . فلم يستطع الفرد الكبير ملك وسكس مثلاً أن يوفر من البحارة من يضارعون الفيكنج في البراعة والسرعة .

وما يعتبر أسهل من ذلك من الناحية العملية ، هو وضع خطة لتشييد مدن أو قلاع حصينة في نقط استراتيجية ، تحول دون تقدم الفيكنج . وازداد نطاق استخدام هذا النظام لما كان له من أثر كبير في رد المغيرين من المجريين والمسلمين والفيكنج. فشيد الملك شارل الأصلع القلاع على امتداد أنهار السين واللوار والواز ،

وما أقامه من الجسور على الأنهار عوقت سير الملاحة بها . واتبع الفرد هـذه الخطة في وسكس ، وأقام البابا جريجوي الرابع حصناً على مصب نهر التيبر ، وشيد هنري الصياد مدناً حصينة . غير أنة لا جدوى من الحصون ، ما لم يرابط بها بصفة مستمرة حاميات عسكرية ضخمة ، وتجري صيانتها ولا بد من توفير المؤن بها .

على أن هذه الخطط يحتاج تنفيذها الى حكام أقوياء ، يحملون السكان على الاشتراك في أعمال البناء ، وفي ذلك ما لا يخفى من اغفال أمر محصولاتهم وتعرضها للخسارة والفساد في الحقول . ومن الطبيعي أن ينفر هؤلاء الرجال من هذا الواجب ، برغم ما لجأ اليه السادة والأمراء من اساليب الترغيب والاغراء والتخويف ، كان يشعروهم بما يحدق بهم من خطر ، وأنهم يعملون للمحافظة على سلامتهم ؛ ولذا كانت استجابة الناس للحكام الذين يتولون الأقاليم الصغيرة ، أكثر من استجابتهم للملوك والأمراء الكبار ، إذ بوسعهم ان يتفقدوا في عناية ما يجري من استعداد ، وأن يدركوا مواطن الخطر .

ولذا لم تحز فكرة وجود عالم مسيحي لاتيني متحد يخضع لسلطان ملك واحد ، ما كانت تحوزه من قبل من الاستجابة العملية . إذ كانت مستندة الى الكنيسة والبابا ، غير ان الشخص العادي لم يقبلها الا على أنها مبدأ بعيد المنال ، فهو يؤثر الرجل الذي يدافع عنه مباشرة ، ويرد عنه الأخطار ، على الملك او السيد الذي يقيم بعيداً عنه . ولذا تخلى الكارولنجيون عن السلطة لكونتات بيت كابيه في باريس بالغرب ، وبيت دوقات سكسونيا في الشرق ، ولصغار النبلاء في بروفانس وايطاليا . فالسيد الذي يحوز قلعة مكتملة البناء ، ترابط بها حامية ، وتتوافر بها المؤن ، لخير من الامبراطور الذي يضيع وقته في الارتحال من نهر الراين الى جبال البرانس ، ومن نهر الدانوب إلى نهر الشلدت . فاذا كانت إرادة الله قضت بتوحيد الناس ، فانه إذا لم يكونوا بعيدين عن غارات الفيكنج والمسلمين والمجريين ، أصبحت الحاجة ماسة إلى معقل منيع

وسيد تكون حمايته في متناول أيديهم ، وبذا اخذ النظام الاقطاعي يكتمل نموه وتطوره .

٥ — تقسيم جديد للأمبراطورية

سبق الاشارة إلى أن لويس الجرماني قسّم مملكته سنة ٨٧٦ بين أبنائه الثلاثة ، غير أنها اتحدت مرة أخرى سنة ٨٨٢ ، بعد وفاة اثنين من أبنائه ، فتولى الحكم منفرداً ، شارل السمين الذي أضاف إيطاليا إلى ممتلكاته ، واتخذ لقب أمبراطور. ثم إن نبلاء مملكة الفرنجة الغربيين تجاهلوا ، سنة ٨٨٤ ، حفيد شارل الأصلع ، وبذلوا المملكة لشارل السمين ، وبذا اتحدت أمبراطورية شارلمان لفترة قصيرة ، وخضعت لسلطة حفيده ، شارل السمين . غير أن موقف شارل السمين المشين أثناء حصار النورمن لباريس ، وعجزه التام من الدفاع عن الأمبراطورية ، أدى إلى عزله سنة ٨٨٧ . ولجأ نبلاء فرنسا إلى اختيار آودو كونت باريس ملكاً عليهم ، لما أظهره من البطولة أثناء حصار باريس . على أن الجرمان لا زالوا متمسكين بسلالة شارلمان ملوكا عليهم ، فاختارو ارنولف كونت كارينثيا ، وابن أخ شارل السمين ، ملكاً ، بعد أن رد المغيرين على الحدود الشرقية .

وحدث وقتذاك أيضاً أن أخذ النبلاء المحليون يقيمون لأنفسهم ممالك . ففي سنة ٨٧٩ نادى بوسو كونت أرل بنفسه ملكاً على برجنديا ، وقصد بذلك بلاد بروفانس . أما رودولف الذي تجري في عروقه الدماء الكارولنجية ، وكان كونتاً على البلاد الواقعة بين جبال جورا وبحيرة جينف ، فانه أعلن نفسه ملكاً على برجنديا العليا . وبلغ اللقب الأمبراطوري من الانحدار والهبوط ، أن أتخذه جويدو دوق سبوليتو ، الذي يعتبر رأس إحدى الأسرتين اللتين تتنازعان على أن تكون لها مملكة ايطاليا . وهذا الأمبراطور لم يكن معروفاً خارج ايطاليا ذاتها . ومع أن أرنولف حاز أيضاً اللقب الأمبراطوري سنة ٨٩١ ،

واعترف به سائر الملوك الآخرين ، فإن مركزه بالمانيا بلغ من شدة الحرج ما جعله يبادر إلى التخلي عن ايطاليا ، التي أضحت مستقلة ، إنما سادتها الفوضى والاضطراب . والخلاصة أن امبراطوية شارلمان الشاسعة تفتت في جيلين من الزمان ، إلى خمس ممالك مستقلة ، ويشير أحد الشعراء إلى أنه « كان يحكمنا ملك واحد ، فأضحى يحكمنا عدة ملوك صغار ، وكان لنا أمبراطورية واحدة، فتحولت إلى ممالك صغيرة » .

ومع ذلك فإن هذه الممالك الخمسة الجديدة ، لم تمثل سوى ما حدث من انقسام سياسي . إذ أن الدوقات ، والماركيزات (سادة الحدود) والكونتات، والفيكونتات ، والموظفين الأمبراطوريين وحدوا كل بلادهم ووظائفهم في دولة وراثية . ودل انتخاب ارنولف ملكا ، على ظهور رجل الساعة القوي ، على الرغم من أنه ينحدر من الأسرة الكارولنجية . كا أن الدوقات الأوائل للفرنجة وبرجنديا ، والكونتات الأوائل لباريس ، وأنجو ، والفلاندر ليسوا إلا نماذج قليلة لما ظهر في العصر الاقطاعي من رجال جدد وصلوا بجدهم واجتهادهم إلى أعلا المناصب .

فالمؤسس الحقيقي للبيت الحاكم في فرنسا ، والجد البعيد لملوك كابيه ، وهو روبرت القوي لم يكن إلا سيداً للحدود ، شديد الصلابة ، وليس معروفاً على التحقيق ، الأسرة التي ينحدر منها . تعرضت بلاده في نوستريا ، والتي تتركز حول باريس ، لغارات مستمرة من قبل البريتون ، وكان ابنه أودو هو الذي تم اختياره سنة ٨٨٨ ملكاً على فرنسا . أما أول كونت لأنجو فكان صياداً باسلا ، اسمه تور كواتوس ، عاش في ارض غابات تقع بين نهر اللوار الأدنى وبريتاني ،وتعرضت هذه الجهات لهجمات النورثمن المستمرة.ولم يكن بلدوين أول كونت للفلاندر إلا رجلا مغمور الأصل . غير أنه أشتهر بالشجاعة والبسالة وظفر بمحبة الناس ، لما قام به من حماية الطبقات الفقيرة من استغلال كبار

رؤساء الأديرة ، فضلاً عن رد النورمن عن هذا البلاد . وفي المانيا ، نهض من جديد دوقات سكسونيا وبافاريا لحماية أقوامهم من غارات الصقالبة والمجريين، بعد أن حطم الكارولنجيون قوتهم، وظهر أيضاً الدوقات القبليون في فرانكونيا والبمانيا أو سوابيا .

نحو المجتمع الاقطاعي

على أن التفكك والتجزئة لم تقف عند هذا . فالأساقفة والفئات التي ظفرت ببلاد وامتيازات، أعلنوا استقلالهم عن الكونتات، بل إن صغار الملاك ، وأتباع كثير من السادة ، لم يلقوا من سادتهم شيئاً من العنف عند ممارسة سلطتهم . وفي الجملة ، انبعثت الفوضى ، فما من شيء يعيد السلطة العامة للملك أو الكونت ويمنع الحكومة الشخصية ، والحروب الداخلية المستمرة التي نشبت بين الوحدات الصغيرة، كثيرة العدد، التي استحالت اليها الأمبراطورية . وتعتبر رابطة التبعيه هي القوة الأساسية التي بقيت للمحافظة على الأمن ، ومع ذلك فإن هذه الصلة لم تتبلور حتى تتخذ صورة النظام الاقطاعي الصحيح ، على انها أقامت الأساس والمراكز المحلية التي يصح أن يجتمع حولها طبقة كبار الملاك المؤلفة من الفرسان ، فضلاً عن أنها أعادت إنشاء حكومة للدولة في صورة محلية . وبينما أخذت رابطة الرجل بالملك في الانحلال رويداً رويداً ، وازداد ضعف علاقة الاتباع الذين لم يقيموا بالبلاط ، بالملك ، كانت علاقة التابع بسيّده المباشر ، التي زاد من قوتها الصلة المحلية ، وارتكان التابع على السيد من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، تبلغ من القوة ما جعلها تعتبر الصلة الأساسية في المجتمع.

الملحق ١٨[1]

تصريح شارل الكبير بأنه ليس للبابا إلا واجبات روحيـــة

رسالة شارل إلى البابا ليو الثالث
سنة ٧٩٦

كان شارل الكبير شديد الإدراك لسلطته ، ومكانته فأنكر كل إجـــراء يعتبره انتهاكاً لحقوقه . وشرح شارل في هذه الرسالة التي وجههـا إلى الباب ليو الثالث ، أنه ليس للبابا إلا واجبات روحية .

* * *

من شارل ، الذي هو بفضل الله ورعايته ، ملــــك الفرنجة واللومبارديين ، وبطريق الرومان ، إلى قداسة البابا ليو ، التحيـــة . وإذ سبق أن دخلت في اتفاق مع سلفكم الأب بالغ القداسة ، أود أيضاً أن أعقد معكم معاهدة لا تنفصم عن الإخلاص والمحبة المتبادلة ، فعليكم من جانبكم أن تصلي من أجلي، وأن ترعاني بالرضى الرسولي ، وسوف أقـوم من جانبي بالدفاع عن أقدس مقر لكنيسة روما المقدسة إذ أن من واجبنا أن ندافع عن كنيسة المسيح المقدسة من كل مـــا تتعرض له من هجمات الوثنين والكفرة من الخارج ، وأن نحمل الناس في الداخل على قبول المذهب الكاثوليكي . ومن واجبك أيها الأب بالغ القداسة ، أن تبــذل

---

(١) هذا الملحق يشير إلى علاقة شارل بالبابوية قبل التتويج .

لنا المساعدة في القتال الصادق ، بأن ترفع يديك إلى الله ، مثلما فعل موسى[١] . وبفضل شفاعتك ، يحرز المسيحيون ، بقياد الله ، النصر دائماً وفي كل مكان، على أعداء إسم الله المقدس ، ويلقى اسم المسيح التبجيل في أنحـــاء العالم ، فلتلتزم بالقانون الكنسي في كل الأمور ، ولتطع دائماً تعاليم الآباء المقدسين ، حتى تصير حياتك نموذجاً للقداسة عند جميع الناس ، وحق يشع ضياؤك قـــدام الناس ، فيبصرون أعمالـكم الصالحة ، ويمجدون أباكم الذي في السماء[٢] .

فليحفظ الله القوي قداستكم سليمة ، لا يلحقها ضرر ، سنوات مديدة لرفع شأن كنيسته المقدسة .

(١) فكان اذا رفع موسى يده يستظهر بنو اسرائيل ، واذا حطهـــا تغلب العمالقة . سفر الخروج ١٧ .

(٢) هكذا فليضيء نوركم قدام الناس ، ليروا أعمالـكم الصالحـــة ، ويمجدوا أباكم الذي في السماوات . انجيل متى ٥ : ١٦ .

الفصل الثاني عشر

النظام الاقطاعي

الاوضاع الاقتصادية في اواخر القرن التاسع

من أهم خصائص الاقتصاد الأوربي في نهاية القرن التاسع الميلادي، ما نلحظه من الاختلاف الشديد في الأحوال الاقتصادية بين الشرق والغرب . فالغرب يغلب عليه الفقر ، بينما ساد الرخاء والثراء في بيزنطة والعالم الإسلامي .

ويرجع رخاء الأمبراطورية البيزنطية إلى أنه توافر لحكومتها من القوة ما لم يكن لأية حكومة بالغرب، وإلى ما كان لها من جيش ونظام إداري، وإلى قدرتها على توجيه حركات الجموع والسكان لإصلاح المناطق التي تعرضت للتخريب ، أو لاستغلال الأراضي التي يسبق استثمارها . ومن الدليل على ذلك ما حدث من نزول عدد كبير من أسرى الصقالبة في شرقي مقدونيا لإصلاحها . يضاف إلى ذلك ما كان من سيطرة الحكومة على النشاط الاقتصادي ، بأن اعتبرت نفسها مسئولة عن الطوائف (النقابات) التي انتظم فيها أرباب الحرف والصناعات الأساسية ، وضبطت الأسعار والأرباح ، وبذلت التصاريح بتصدير السلع واستيرادها ، بل انها تدخلت في أمور النقابات وانتخاب أعضائها . وبفضل توجيه الحكومة توافر بالأسواق ما اشتهرت به الإمبراطورية البيزنطية من السلع

الكمالية ، من المنسوجات الحريرية والثياب المطرزة، والأقمشة الرفيعة ، والحلى الذهبية ، والأطباق المكفتة ، والأواني الزجاجية الجميلة، والمصنوعات العاجية، والثياب والقوارير الكنسية التي تعتبر من أهم السلع التي تحرص كل كنيسة في الغرب اللاتيني على اقتنائها ، فضلاً عن الفرش و التحف البيزنطية التي يبذل الملك المتبرر أموالاً طائلة لشرائها ، حتى يزين بها قصره وبلاطه . وتعتبر القسطنطينية اكبر مستودع تجاري لأوربا في العصور الوسطى ، اذ بلغ عدد سكانها فيمايقال، نحو٧٠٠ ألف نسمة، ونظراً لاحتفاظ نقدها من الذهب بالثبات والمتانة ، كان يعتبر عملة دولية في أوائل العصور الوسطى .

وللدولة الإسلامية ما لبيزنطية من الرخاء والثروة، إذ كانت بغداد في القرن التاسع مركزاً كبيراً للنشاط التجاري . ومضى التجار المسلمون في أسفارهم حتى بلغوا الهند ، وسيلان ، وجزر الهند الشرقية (التي جلبوا منها من التوابل ما كانوا يصدرونه إلى الغرب) ، والصين التي اشتهرت بالخزف ، وأفريقية ، وإسبانيا ، وبحر البلطيق الذي بلغوه عن طريق بحر قزين ونهر الفولجا . وتولى تجار اليهود القادمون من جنوب فرنسا ، نقل التجارة إلي الغرب اللاتيني ، في أوائل القرن التاسع الميلادي ، وكانوا يتحدثون العربية والفارسية واليونانية والإسبانية والصقلبية . وارتحلوا من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلىالشرق بطريق البر والبحر ، فحملوا من الغرب الخصيان والجواري، والغلمان ، والفراء والسيوف ، واتخذوا طريق البحر من بلاد فرنجة ، في غرب البحر المتوسط ، ثم هبطوا بالفرما ، ومنها حملوا المتاجر على ظهور الإبل إلى القلزم ، التي كانوا يقلعون منها إلى الجار وجدة ، ومنها إلى السند والهند والصين . ثم يعودون من الصين بما حملوه من المسك ، والعود ، والكافور، والبهار ، ويمضون حتى القلزم، ثم إلى الفرما ، ثم يبحرون إلى غرب البحر المتوسط ، ومنهم من يبحر إلى القسطنطينية ، فيبيع ما لديه من المتاجر إلي اليونانيين ، ومنهم من يتوجه إلى ملك فرنجة فيبيعه ما يحمل من السلع .

ومن الدليل على اتساع تجارة الدولة الإسلامية ، ما جرى من تطور أعمال المصارف التي مارسها اليهود والنصارى ، نظراً لأن الإسلام يحرم الربا. فكثرت المصارف بالعاصمة ، بغداد ، وصار لها فروع في المدن الهامة بالعالم الإسلامي

ولوقوع الدولة الإسلامية بين الشرق الأقصى والغرب المسيحي، ولما اشتهرت به من صناعات ، كانت خاضعة لإشراف وسلطان الحكومة ، مثلما جرى في بيزنطية ، تعتبر أيضاً مستودعاً هاماً للتجارة . ومن أهم الصناعات ، صناعة المنسوجات من الحرير والقطن والكتان ، والبُسُط ، والخلع التي تمنح للأمراء والقادة وكبار الموظفين . ومن الصناعات بالغة الأهمية ، صناعة الورق . على أن هذه الصناعة ما زالت قاصرة على الأقاليم الشرقية للدولة الإسلامية ، حيث قامت بعد أن وقع في أسر المسلمين ، ٧٥١ جماعة من صناع الورق الصينيين ، وانتشرت هذه الصناعة في القرن العاشر الميلادي في العراق والشام ومصر ، فحلت مكان ورق البردى ، فشاع استعمالها في الكتابة .

وبينما ارتفع شأن الدولتين الإسلامية والبيزنطية ، ركد اقتصاد الغرب اللاتيني . واشتد الجدل حول ما اذا كان بالغرب اللاتيني في القرن التاسع شيء من التجارة المنتظمة ، فيشير المؤرخ البلجيكي هنري بيرين إلى أن البيع والشراء لم يكونا حرفة قائمة بذاتها ، ولم يلجأ اليهما الناس إلا لسد حاجتهما.

وتستند آراء بيرين عن الاقتصاد في غرب أوربا إلى أن اقتصاد العالم القديم قام أساساً على نشاط التجارة في البحر المتوسط . فإذا لم يعث القرصان فساداً في البحر انتظمت التجارة بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وتهيأ للرومان الفرصة لأن يحصلوا على مؤونتهم من القمح من أفريقية . وإذا اضطرب السلام بالبحر لسبب من الأسباب، تدهورت التجارة ، وتبع ذلك تداعي المدن والبلاد . وعلى الرغم من أن هذه المدن قد تحتفظ بأهميتها ، باعتبارها مركزاً للادارة الكنسية ، أو الإدارة المدنية ، فإنها فقدت ما كان لها من أهمية

اقتصادية ، وما كان لها من النظم البلدية التي تمثل الحياة الاقتصادية ، وترتب على تداعي المدن ، أن تضاءل عدد السكان ، وقلّ عدد التجار الذين كانوا يتولون إمداد المدن بالمؤن اللازمة لسكانها . وتداعت الثروة الزراعية في الريف ، إذ لم يعد ثمة منفذ لتصريفها . فما يخرج من الأرض من إنتاج ، يستهلكه القائمون على زراعتها ، إذ لم يجدوا من يشتري المحصوت سواهم ، وفي هـذه الأحوال لم يعد للنقد شيء من الأهمية . فصار لكبار ملاك الأراضي مصانعهم الخاصـة التي تصنع أدواتهم وتنسج ما يحتاجونه من الأقمشة ، ويؤدون للصناع أجورهم عيناً، بأن يبذلوا لهم الأرض والمؤونة .

كان هذا ما أطلق عليه بيرين الاقتصاد المغلق (economy of no outlets) . وزعم أن هذا كان نموذج الاقتصاد السائد في أوربا في القرنين الثامن والتاسع ، بل اعتبره أيضـاً السبب في ظهور المجتمع الإقطاعي . وبذا كانت الأرض هي المصدر الوحيد للثروة ، ولم يحرص الشخص على النقد ، إذ ليس ثمة وجه ينفق فيه المال . وكان هذا هو السبب الذي دعا الكارولنجيين إلى أن يبذلو لأتباعهم الأراضي والإقطاعات ، فالإقطاع ليس إلا النتيجة الحتميـة للاقتصاد المغلق . وهو الذي مهد لظهور شارلمان .

وإذا كان الاقتصاد المغلق سائداً قبل أن يلي شارلمان الحكم فما سبب هـذا الاقتصاد ذاته ؟ يشير بيرين إلى أن هذا الاقتصاد لم يظهر إلا عند توقف الملاحة في البحر المتوسط ، غير أنه لا بد أن نتساءل متى حدث ذلك ؟ حاول بيرين أن يلتمس الدليل فيما كانت مملكة الفرنجة تستهلكه من المتاجر التي لم تنتج إلا على شاطىء البحر المتوسط الشرقي أو الجنوبي . ومن أهم هذه السلع كان : الذهب ، وزيت الزيتون (من شمال أفريقية) ، والمنسوجات الحريرية الشرقية، والبردى (من مصر) والتوابل . وتبين لبيرين أن هذه السلع ظلت تستهلك في غاله حتى أواخر القرن السابع ، ثم اختفت بأسرها في أوائل القـرن الثامن . فحلت

النقود الفضية مكان النقد الذهبي ، واستعاض الناس عن زيت الزيتون ، بالزبد والشحم (التي كانت تستخدم في الوقود والطعام سواء) ، وحل القماش الفريزي مكان الحرير الشرقي ، ثم استغنوا عن البردي باستخدام الرّق Parchment (جلود الحيوانات) ، وورد ذكر التوابل في السجلات بغالة ، لآخر مرة ، في سنة ٧١٦ ، فاختفت بعد هذا التاريخ ، ولم يذكر شيء عن البديل لها . ويصح القول إن تجارة البحر المتوسط توقفت حوالي هذا الوقت . والملحوظ ايضاً أن استخدام النقود اختفى في نهاية القرن السابع .

وإذا جرى التسليم بتوقف تجارة البحر المتوسط في أواخر القرن السابع الميلادي ، كان لزاماً على الأستاذ بيرين ان يلتمس حدثاً سياسياً هاماً وقع وقتذاك ، وأدى الى توقف الملاحة في البحر المتوسط . لم يكن هذا الحادث السياسي سوى الفتوح الاسلامية التي امتدت من الشرق الى الغرب ، إذ سقطت اسبانيا في أيدي المسلمين في ٧١١ — ٧٢٠ . على أن بيرين اعتبر فتح تونس (٦٧٠ — ٦٩٥) أهم هذه الفتوح ، لأنه يطابق التاريخ الذي بنى عليه نظريته ، إذ أن لموقع تونس أهمية استراتيجية خاصة ، لأنها تقع على المجرى الضيق بوسط البحر المتوسط ، ومنها يتعرض الاتصال بين الشطرين الشرقي والغربي للبحر المتوسط لهجمات المسلمين وغاراتهم . غير أنه كان بوسع البندقية أن تواصل تجارتها مع بيزنطة ، نظراً لأنها تجنبت اخطار البحر المتوسط ، بالالتجاء الى استخدام البحر الأدرياتي ، بينما لم يتيسر لبيزا وجنوه وموانى بروفانس مواصلة الملاحة ، التي تتوقف عليها تجارتها ، فانهارت مكانه ميناء مارسيليا التي كانت أكبر سوق تربط الشرق والغرب ، وحل بمدن جنوب غالة التداعي والخراب ، وبذا يعتبر المسلمون مسئولين عن ذلك الاقتصاد المغلق ، (١)

---

(١) وهذا هو السر في أن بيرين اختار لكتابه، عنوان محمد وشارلمان ، لأن ماحدث من الأسباب والنتائج الاقتصادية ارتبط بحياة هذين الرجلين ، وجعلها أعظم رجلين في العصور الوسطى.

ومهما كان لهذه النظرية من الأهمية ، فانها تعرضت لانتقادات كثيرة ، منها أن سلامة هذه النظرية توقفت على الافتراض بانه نظراً لأن متاجر البحر المتوسط لم تختف من مملكة الفرنجة إلا أواخر القرن الثامن الميلادي ، فلا بد أن كانت هذه التجارة في قمة قوتها حتى هذا التاريخ . ولكن ألا يصح أن تجـــارة البحر المتوسط أخذت تتداعى رويداً رويداً قبل ثلاثة او أربعة قرون من هـــذا التاريخ ، وما حدث في نهاية القرن السابـع ليس إلا المرحلة النهائية للتدهور ، فإذا كان الأمر كذلك ، فما سبب هذا التداعي البطيء . وإذ جرى التداعي قبل الغزو الاسلامي ، لايعتبر المسلمون مسئولين عنه .

وإذا افترضنا أن هذا التداعي حدث في أوائل القرن الثامن ، فما الدليل على أن المسلمين هم الذين تسببوا فيه ؟ الواقع أن بيرين لم يستند إلا على احتمال مايقوم به المسلمون من تونس من غارات على السفن التي تحمل المتاجر ، على أن هذا الاحتمال بعيد عن التصور والإدراك ولا سيما أن بيرين ذاته أشار إلى نشاط القراصنة الوندال في وسط البحر المتوسط في القرن الخامس الميلادي ، وإلى أنهم لم يستطيعوا القضاء على تجـــارة البحر المتوسط . فلماذا نجح المسلمون فيما فشل فيه الوندال ؟

على أن الملاحة والتجارة لم تتوقفا نهائياً في غرب البحر المتوسط كما ظن بيرين ومن الدليل على ذلك ماسبق الاشارة اليه من نشاط التجار اليهود في البحـــر المتوسط في القرن التاسع ، فضلاً عن استمرار الاتصال البحري بـــين مرسيليا وروما في القرنين الثامن والتاسع . ومع أن آخـــر اشارة للبردى في الوثائق الميروفنجية ترجع إلى ٦٦٠ – ٦٧٠ م فان البابوية ظلت تستخدم البردى حـتى القرن الحادي عشر ، ولا زال الحرير يرد من الشرق الى الغرب في القرنين التاسع والعاشر . ولم يكن التحول من الذهب الى الفضة في النقد تاماً زمن الكارولنجيين حسبما ظن بيرين .

ومع أن المؤرخ بيرين بالغ في تصور ماحدث فجأة من انقطاع التجارة في الغرب ، فان فكرته كشفت عن حقيقة هامة ، وهي أن العمليات التجارية في القرنين الثامن والتاسع كانت بالغة الضآلة بالقياس لما حدث في الفترة السابقة والفترة اللاحقة لهذا التاريخ ، من نشاط تجاري . إذ تضاءل استخدام النقود ، وشاع نظام المبادلة والمقايضة ، ومع أن المسيحيين واليهود كانوا يبذلون القروض ، مقابل مايؤدي من أرباح تعتبر من قبيل الربا الذي تحرمه الكنيسة ، فإن مقادير النقود كانت قليلة ، لا أهمية لها .

على أن هذه الأحوال ترجع الى سببين أساسيين . أولهما أنه لم يكن بوسع الغرب اللاتيني ان يشتري من الشرق كل مايريد من السلع ، لأنه لم يستطع ان يؤدي أثمانها ، فظل الميزان التجاري قروناً عديدة في صالح الشرق ، إذ تضاءل مقدار ما كانت بلاد الفرنجة تصدره من الرقيق والفراء الى الشرق ، نظراً لتدخل الكنيسة عند ملوك الفرنجة لمنع هذه التجارة . ولم يلبث الميزان التجاري أن عاد إلى اعتداله ، بفضل ما كانت بيزنطة تؤديه من حين إلى آخر للممالك المتبربرة من أموال ، مقابل ماتبذله من مساعدة عسكرية ، ، مثلما حدث حوالي سنة ٥٨٢ ، حينما دفعت بيزنطة ٥٠ الف بيزنته لملك الفرنجة ، شيلدبرت ، مقابل تحالفه معها ضد اللومبارديين ، وتوقفت بيزنطة عن الدفع في القرن الثامن ، إذ لم يعد لديها من الوقت أو المال ، الذي تؤديه للغرب ، نظراً لانصرافها الى مواجهة المسلمين على حدودها الشرقية . فلم يسع سكان الغرب إلا أن يستغنوا عن كثير من المتاجر الكمالية الواردة من الشرق .

أما السبب الثاني ، فهو ماحدث من اضطراب الأمن في طرق التجارة ، في البحر المتوسط وشمال أوربا ، لتعرضها لغارات الفيكنج والمجريين والمسلمين . وتعرض، ايضاً لغارات الفيكنج وديان الأنهار الصالحة للملاحة التي لجأ التجار إلى استخدامها في الأوقات العادية . ولذا فان المدن التجارية الهامة في القرنين التاسع

والعاشر لم تكن تلك التي كان لها من الموقع الجغرافي مايجعلها مراكز تجاريـــة كبيرة في أواخر العصور الوسطى،بل تلك المدن البعيدة عن الأخطار،إذ أن بافيا مثلا كان يحميها حصن قوي ، وكانت أمالفى بنجوة من الخطر من جهة البر، بينما نعمت ريمس ومتز بالأمن ، لبعدهما عن الساحل .

ومع ذلك انحطت التجارة في القرنين التاسع والعاشر في معظـــم المدن ، باستثناء مدينة أو مدينتين ، مثل البندقية التي يرجع نشاطها التجاري الى احتفاظها بولائها لبيزنطة ، ومن الدليل على تداعى التجارة ، أن كلمة تاجر Marcator استخدمت للدلالة على معاني كثيرة . فنقرأ عن تجار الأديرة الذين تقرر اعفاؤهم من تأدية الرسوم المقررة بشرط أن يثبتوا أن متاجرهم ليست إلا لمؤونة الرهبان واستهلاكهم ، ولم يكن هؤلاء التجار ، فيما يبدو سوى الفلاحين الذين ينقلون على عرباتهم الى الدير المحصولات الناتجة من ضياعه النائية . بل إنه في الحالات التي يكون فيها هؤلاء تجاراً حقيقيين ، كأولئك الذين يخدمون في بلاط شارلمان ، لم يكونوا إلا خداماً يتولون نقل المؤن على عرباتهم الى البلاط ، بناء على أوامر موظفي الضياع الملكية .

والخلاصة أن النشاط التجاري بأوربا في القرنين التاسع والعاشر بلغ من الضآلة مالم يبلغه في فترة أخرى منذ سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب . وليس هذا عجيباً ، لأن السلطة الحكومية بلغت في نفس الفترة أدنى قوة لهـــا ، إذ سرعان ماتفككت الأمبراطورية الكارولنجية ، وساد الاضطراب والفوضى في كل مكان . والواضح أن هذه الأحوال لم تكن في صالح التجارة ، ومع ذلك فان قلة من المغامرين الأشداء استطاعت أن تحقق أرباحاً كبيرة .والراجح أن الاسواق لم تخدم إلا التجارة المحلية ، ولم تنهض التجارة الخارجية إلا بعد عودة الاستقرار السياسي ، وتوافر الأمن والسلام للتجار والتجارة في الغرب اللاتيني .

الاقتصاد الزراعي .

الواقع أن المجتمع في العصور الوسطى المبكرة كان قروياً وزراعياً . فما اتصفت به الأمبراطورية الرومانية في عصرها المبكر من حياة المدن والنشاط التجاري الواسع ، ألحق بها الضرر والأذى مانشب في القرن الثالث من الحروب الداخلية ، وزادت الغارات الجرمانية في انحطاطها ، فلم يحفل الجرمان بالمدن وبالمعيشة بها . وسبق الإشارة الى أسباب تدهور التجارة ، وإذ تجمعت المنازل حول الكاثدرائيات والقصور الملكية ، عاش سكانها على انتاج الحقول المجاورة ، لا على الصناعة أو التجارة .

ولفهم المجتمع الزراعي ، لابد أن نقف على خصائصه الجوهرية ، وأنماط المساكن ، والوسائل التي يجري بها استغلال الأرض . إذ أن غرب أوربا عرف نوعين من المساكن (المنازل)، وهما الدساكر (الكفور) والقرى وسادت الكفور بصفة عامة في الأقاليم ذات التربة الضعيفة ، أمثال اسكتلنده ، وويلز ، وكرنوال ، وبريتاني ، وغرب نورمنديا ، والمرتفعات الوسطى بفرنسا ، أما القرى فانها شاعت في الأقاليم المعروفة بشدة خصوبتها .

وكانت الزراعة بدائية في الأقاليم ذات التربة الضعيفة ، فحاز سكان كل دار مساحة صغيرة من الأرض القريبة منهم ، ودأبوا على زراعتها باستمرار ، واستخدموا في تسميدها روث دوابهم وماشيتهم . ثم يزرع جانب من الأرض لمدة سنة أو سنتين حتى تستنفد قوته ، فيستعاض عنه بشطر آخر . وهذا النوع من الزراعة يلائم السكان المتناثرين بالأقاليم ذات التربة الضعيفة .

أما الأقاليم التي تسود بها القرى فانقسمت قسمين كبيرين . القسم الأول يشمل معظم انجلترا ، وما يقع من فرنسا شمالي نهر اللوار وشرقي مصب نهر السين فضلاً عن الاجزاء الخصيبة من ألمانيا ، وتجري زراعته بمقتضى النظام المعروف بالحقلين أو الحقول الثلاثة . ذلك أنه أحاط بكل قرية مساحة من الاراضي

الصالحة للزراعة ، فتقسم شطرين متساويين أو ثلاثة أجزاء متساوية . ففي حالة الحقلين، تجري زراعة أحدهما، بينما يبقى الآخر بورا . وفي حالة الحقول الثلاثة يبقى أحدها بورا ويزرع الآخر بمحصول شتوي، ويزرع الثالث بمحصول الربيع . والراجح أنه لم تكن في القرن العاشر إلا قرى قليلة تسير وفقاً لنظام الحقول الثلاثة، ولم يتطور هذا النظام إلا فيما بعد في مناطق بالغة الخصوبة . وإذ جرى في نظـام الحقول الثلاثة استعمال ثلثي الأرض الصالحة للزراعة ، بدلاً من نصفها ، كل سنه ، ازداد الانتاج إذا كانت الأرض خصيبة . فان كل حقل ينقسم الى صرائف (شرائح) طويلة ضيقة . والمفروض من الناحية النظرية ان يكون لكل بيت بالقرية عدد متساو من الشرائح في كل حقل . والراجح أن الشرائح الطويلة الضيقة أملاها نوع المحراث الشائع الاستعمال ، وهو محراث ثقيل يجره مابين أربعة وثمانية ثيران ، إذ أن الشرائح الطويلة تقلل الى أقصى حد الحاجة إلى استدارة الماشية .

وأكثر الجهات التي شاع فيها استخدام نظام الحقلين أو الحقول الثلاثة، كانت الجهات الواقعة في غربي أوربا ، التي تعتبر أخصب الأراضي ، وأكثفها سكاناً ، ومراكز الثروة والقوة في العصور الوسطى على أنه ينبغي الاشارة الى أن أنظمة أخرى كانت قائمة في مناطق كثيرة ، وكانت النظم الاقتصادية والاجتماعية تختلف فيما بينها وفقاً للطريقة التي تستغل بها التربة .

على أن الفدان لم يغل محصولاً كبيراً في العصور الوسطى ، وفي ذلك من الخطر ما لا يخفي ، نظر لأن الحبوب تؤلف الغذاء الأساسي للسكان ، كما أن الدريس (العلف) كان غذاء الماشية .

وإذا استعرضنا التنظيم الإقتصادي لقرية تسير وفقاً لنظام الحقلين أو الحقول الثلاثة، فإننا نلحظ ان لكل بيت حديقته ، التي ليس بها إلا أشجار قليـلة للفاكهة ، وللبيت أيضاً صرائفـه (شرائحه) في الحقول ونصيبه في العلف

(الدريس). وبوسع الحائز للأرض أن يطلق حيواناته لتقتات على الكلأ المشترك الذي ينمو بأراضي القرية التي لا تصلح للحرث . وله أيضاً أن يسوق خنازيره إلى غابات القرية للرعي ، وأن يجمع من الأخشاب الجافة ما يصلح للوقود . وله أن يصيد السمك من الغدير ان كان موجوداً .

والخلاصة أن موارد الفلاح الإقتصادية على نوعين، حديقته وصرائفه في الحقول، فضلاً عن نصيبه في الموارد الأخرى للقرية . وتعتبر المشاركة الإقتصادية الصفة الأساسية للقرية ، إذ يشترك أهل القرية سوياً في حرث الأرض ، وفي الحصاد ، وفي استخلاص الحبوب ، كما أن انقسام الأرض إلى شرائح طويلة ضيقة تجعل استقلال الفرد بالزراعة أمراً مستحيلاً من الناحيـــة العملية . فانتجاع الكلأ والغابات اشترك فيه أهل القرية وفقاً لقواعد أجمعوا على الموافقة عليها . إذ أن راعي القرية يولي من الإهتمام بحيوانات جيرانه مثلما يهتم بحيواناته .

وتركزت حياة الفلاح في قريته ، فلم يكن له سوى صلات قليلة بالعالم الذي يقع وراء حدود قريته ، فالكنيسة وقسيسها يهتمان به من الناحية الروحية، ولم تكن ملاهيه سوى أعياد القرية التي تخلفت عن العصور الوثنية، ويقع العيد عادة في يوم عيد أحد القديسين المسيحيين ، وتكفل له أرض القرية الغذاء والكساء والسكن ، وكلها بسيطة ساذجة . إذ أقام الفلاح في كوخ صنعه عادة من الطين وجعل سقفه من غصون الأشجار . أما ملابسه فكانت غليظة خشنة صنعتها نساء القرية اللائي يفتقرن إلى المهارة ؛ ويعتبر الخبز غذاءه الأساسي ، بينما كانت الجعة شرابه . ويحصل الفلاح على فاكهة وخضروات الموسم من الحديقة الواقعة خلف كوخه ، وتمده أشجار الغابات بالفاكهــة . ومن حاز بعض الدجاج يعتبر سعيد الحظ ؛ وما يذبحه من حيوانات في الخريف ، ولم يستطع الاحتفاظ بلحومها في الشتاء ، لم يصبه منها الا قدر ضئيل من اللحم القديد الجامد . ومع ذلك فان لحم الخنزير هو اللحم المألوف له ، والذي يسهل الحصول عليه؛ وإذ انسابت الخنازير

للرعي في الغابات والمراعي صيفاً وشتاء ، لم تكلف صاحبها شيئاً من النفقات ، فأضحت بالغة الأهمية في اقتصادالقرية .

وما وضعه السيد الاقطاعي من ترتيبات لاستغلال الأراضي ، اشتهرت باسم نظام البارونية Seignorial . وليس معروفاً على وجه التحديد أصول هذا النظام وتطوره . والراجح ان القرى التي لم يكن لها أصلاً سادة مقطعون خضعت للأقوياء من الرجال . وترتب على الاضطراب والفوضى التي سادت في القرنين التاسع والعاشر ، أنه ما من أحد كان يأمن على نفسه إلا إذا تولى حمايته جندي. والراجح ان بعض القرى قبلت عن طيب خاطر الخضوع لأحد الفرسان ، بينما اضطرت القرى الأخرى الى القبول كرها .

وما يبذله أهل القرية من خدمات للسيد ، تمثل فيما يؤدونه نوعاً من الايجارات ، وما يقومون به من عمل له . إذ احتفظ السيد لنفسه عادة بشطر من أرض القرية الصالحة للزراعة ، تتفاوت بين ثلث هذه الأراضي ونصفها . وانقسمت حقولها عادة إلى شرائح ، واشتهر هذه الشطر من الأرض باسم الأوسية Demesne ، ويعمل الفلاحون من أجل السيد في الاوسية . وللسيد أيضاً نصيب من المراعي التي يتولى الفلاحون استخلاص العلف والدريس منها ، ويتعاهد رعاة القرية بحيوانات السيد التي تنتجع كلأها . ويبادر الفلاحون إلى تلبية رغبة السيد ، كلما أراد حفر خنادق أو تشييد مخزن للحبوب . وما كان مطلوباً من الحائزين للأرض من عمل لصالح سادتهم ، يختلف إلى حد كبير في مقداره ، إذ قد يبلغ ثلاثة أيام في الأسبوع . وبالاضافة الى ما يقوم الحانزون من خدمات للسيد ، أدّوا للسيد الاقطاعي مقادير كبيرة من الايجارات نوعاً . إذ يؤدون للسيد شطراً من المحصولات التي تجود به صرائف حقولهم . والتزم الحانز للارض ايضاً بأن يؤدي قدراً من الجبن مقابل ارتياد أبقاره للكلأ العام . وإذا كان له من الخنازير ما التمست غذاؤها في الغابات ، أدى للسيد مقابل هذا الامتياز قدراً من لحم الخنزير ، كما يؤدي له شطراً من السمك الذي اصطاده من الغدران ، ويجعل للسيد

جانباً من أخشاب الوقود مقابل ما جمعه من الغابات من الأغصان الجافة . وقد تتسع قائمة الايجارات فتشمل الفراريج والفوكه والخضروات والصوف ، إذ صار للسيد نصيب في كل ما ينتجه المستأجرون . وما حصل عليه السيد من خدمات وايجارات لم تؤد إليه إلا باعتباره مالكاً للأرض .

يضاف إلى تلك الخدمات والايجارات ما كان للمالك من حقوق مدرة للربح، نبتت من سلطانه على أشخاص المستأجرين. وتختلف هذه الحقوق وفقاً لمكانة السيد والوضع القانوني للمستأجرين . فلم يكن الأقنان في الضياع الكبيرة زمن الفرنجة سوى سلالة رقيق الأرض المعروفين عند الرومان. وترتب على الاضطراب والفوضى التي استمرت زمناً طويلاً، ان عدداً كبيراً من الفلاحين الأحرار أضحوا أقناناً تحت ضغط سادتهم ، واشتدادهم في معاملتهم ، حتى إذا حل القرن العاشر كان معظم سكان القرى بشمال فرنسا وغرب ألمانيا أقناناً. وشهد القرنان العاشر والحادي عشر نضالاً بين الكنيسة والسادة حول حقوق هؤلاء الناس . إذ أراد السادة حرمان الأقنان من كل حقوق الادميين . وعلى الرغم من أن الكنيسة انتصرت في هذا النزاع ، فإن السادة ظلوا يشيرون إلي أسرة القن على أنها ليست إلا وسيلة لإنجاب الذرية Sequela brood . ومع أن للقن الحق في أن يتزوج، فإنه لا يتزوج امراة من خارج قريته إلا بموافقة السيد . ارتبط القن بالأرض ، وهو أداة فلاحتها ، وليس له ان يملك أرضاً، فكل ما يحوزه يعتبر ملكاً للسيد. وكلما أحس السيد أن الأقنان توافر عندهم ما يزيد على حاجتهم ، نزعه منهم بما فرضه من ضريبة الدخل Tallage . فمن الناحية الاقتصادية أصبح القن تحت رحمة السيد .

وسبق الاشارة الى أن الكونتات ونوابهم كانوا يباشرون في الريف مالدولة الفرنجة من سلطتين سياسية وقضائية على أن ملوك الفرنجة بذلوا ما يعرف (بالحصانة) لمعظم المؤسسات الكنسية ، فضلاً عن عدد كبير من العلمانين . والواضح أن هذا الامتياز نعم به المبعوثون الملكيون زمن الكارولنجيين. وليس

بوسع الكونتات ورجالهم ان يدخلوا الأراضي التي حصل أصحابها على حصانات أو اعفاءات . وكان المقصود بذلك أول الأمر أن يقوم مالك الأرض بإلقاء القبض على المجرمين ، ثم يسلمهم إلى الكونت ، غير أنه حدث في القرن العاشر أن تولى معظم الحائزين للاعفاء محاكمة رجالهم وإنزال العقوبة بهم . ومن الطبيعي أن يمارس الكونتات حقوقهم القضائية كاملة على سكان ضياعهم . ولما تطور النظام الاقطاعي ، تنازل الكونتات لأتباعهم عن كل حقوقهم القضائية أو عن جانب منها . وفي أثناء الفوضى التي سادت في القرنين التاسع والعاشر ، تعذر منع كل سيد اقطاعي قوي من اغتصاب هذه السلطات سواء كان له حق فعلي أو لم يكن له فيها شيء من الحقوق . ولم ينقض القرن العاشر حتى توزعت حقوق الحكومة بين طبقة الحائزين للأراضي . فإذا كان السيد قوياً ، صارت له كل الحقوق القضائية على رجاله الذين يقيمون بأراضيه ، أما إذا لم يكن قوياً اكتفى بجانب من هذه الحقوق . ووجه التفرقة يرجع إلى ما إذا كان للسيد أن يقرر عقوبة الإعدام ، ففي هذه الحالة صارت له السلطة القضائية العليا ، وحاز المشنقة ، التي تعتبر رمزاً هاماً لمكانته وهيبته .

لم تكن حيازة الحقوق القضائية وحدها هي التي تجعل للسيد الاقطاعي سلطة قوية على المستأجرين ، بل إنها هيأت له أن يحصل على احتكارات مثمرة ، فمن حقه أن يمنع الفلاحين من امتلاك رحى لطحن الحبوب ، وبذا أضحوا ملزمين بأن يحملوا حبوبهم إلى طاحون السيد فيؤدون عن طحنه الرسم المقرر ، ويؤدون أيضاً رسماً آخر عن استخدام فرن السيد لخبز الدقيق . والخلاصة أن السيد الاقطاعي صارت له السيطرة على أشخاص المستأجرين ومتاعهم بفضل ما كان له من سلطة قضائية عليهم .

والواقع أن الفلاح القن ، أي الذي ليس حراً ، كان من الناحية الاقتصادية تحت رحمة سيده ، ففي وسع السيد ان يطلب منه مايشاء من الايجارات والخدمات ، غير أنه من الناحية العملية كان لاستخدام هذا الحق حد لا يتجاوزه ، إذ كان

لزاماً على السيد أن يبقى عليهم أحياء حتى يفيد منهم ، إذ ان تقاضي الرسوم والمقررات لأهم عنده من فرض عقوبة الأعدام .

وفي الجملة كان الفلاح في حالة لا يحسد عليها . فاذا كان بحوزة الأسرة قطعة أرض كبيرة المساحة ، أي حوالي ثلاثين فدانا ، فانها تكاد تسد حاجة الأسرة في وقت الرخاء أما إذا ساءت الأحوال هلكت الأسرة جوعاً وكل مايعرفه الفلاح من أفكار عن العالم استمده من القسيس الذي لم يقل عنه جهلاً . وبوسع السيد أن يأمر بشنق الفلاح ، أو بالتنكيل به ، أو بجلده .

ويرجع سبب الاهتمام بوضع الفلاحين بالقرى في أوائل العصور الوسطي ، إلى أنهم كانوا يؤلفون في القرنين العاشر والحادي عشر الجانب الأكبر من المشتغلين بالزراعة في انجلترا وفرنسا وغرب ألمانيا . على أنه ينبغي ان نذكر أيضاً انه كان بالقرنين العاشر والحادي عشر عدد كبير من الفلاحين الأحرار . فتوافر بانجلترا زمن الانجليز السكسون ولا سيما بمناطق الدانيين عدد كبير من صغار الفلاحين الأحرار ؛ ومع ان الفتح النرمندي هوى بهم الى مرتبة القنية ، فإن فريقاً منهم احتفظ بالحرية . وكذا كان الحال في بعض أقاليم فرنسا ، ولا سيما حول بوردو . وكانت سكسونيا بلاد الفلاحين الأحرار .

وفي أثناء القرنين الحادي عشر والثاني عشر وضع فلاحو غرب أوروبا أساس ما صار لذلك الاقليم في المستقبل من سيادة اقتصادية وسياسية ، بما حدث من ضخامة الانتاج ، وما ترتب عليه من زيادة السكان . وتحقق ذلك الى حد ما بتحسين أسلوب الزراعة ، إذ جرى استخدام الحصان محل الثور في فلاحة الأراضي بالغة الخصوبة كالتي في وادي نهر اللوار ، كما ان الطرق الحديثة في تجهيز الثيران للمحراث أدت إلى الإكتفاء بأقل عدد منها لجر المحراث . على أن الزيادة الكبيرة في مجموع الانتاج الزراعي في غرب اوربا ، ترجع أساساً إلى امتداد رقعة الأرض الزراعية على حساب الغابات والمستنقعات والأراضي المهملة .

وكانت الأراضي التي هجرها اربابها أثناء فترة الاضطراب في القرنين التاسع والعاشر، أول مالقيت من الاصلاح، فما نبت فيها من غابات خفيفة تقرر إزالتها ثم حرث الأرض. ثم أخذ الفلاحون في اقتطاع أطراف الغابات الكثيفة وإصلاحها. ولا بد أن سادة الاقطاع هم الذين بادروا بالقيام بهذه العملية، فلا يجوز لأحد ان ينزل بأرض أو يزيل منها الأشجار إلا بإذن صاحبها. ففي انجلترا وفرنسا وغرب ألمانيا، تولى السادة إزالة الغابات واستغلال الأراضي بعد أن جرى إصلاحها. وإذ احتاج قطع الغابات واصلاح الارض إلى جهود شاقة، كان لزاماً على السادة أن يجعلوا للفلاحين بعض المغريات، كان يخفضوا ما يتقاضونه من إيجارات وخدمات، وبذا تحسنت أحوال الفلاحين.

ولما استولى كبار السادة الاقطاعيين بألمانيا أثناء القرن الثاني عشر على مساحات كبيرة تقع إلى الشرق من بلادهم، ولم يكن بها إلا عدد قليل من السكان الصقالبة، بعد ان لقي كثير منهم مصرعهم أثناء القتال، التمس هؤلاء السادة مستوطنين، وجعلوا لهم امتيازات، مثل تخفيض الايجارات وبعض الحقوق الشخصية. فتقاطر الى الشرق جموع من الفلاحين، أرادا أن يتحرروا من قيود النظام السنيوري الصارمة؛ فنزلوا بهذه الجهات. ولما اشتهر به النزلاء الالمان من أنهم فلاحون أكفاء، سعى سادة الاقطاع الصقالبة والجرمان إلى الإكثار منهم. وبذا غلبت الصفقة الجرمانية على سكان البلاد الواقعة بين نهري الإلب والاودر، بل أن مستعمرات جرمانية ظهرت في اقصى الشرق في المناطق التي ساد بها الصقالبة.

الاقطاع الحربي

ما نشبب من حروب داخلية بين لويس التقي وأبنائه، وما كان من استمرارها بين الاخوة، لوثار ولويس الجرماني وشارل الاصلع، كانت في حد ذاتها كافية لأن تخلق فترة ساد بها من الفوضى ما جعل القوة المسلحة هي القانون الفعلي الوحيد.

وما كان من تفاقم الفوضى الداخلية ، نتيجة غارات المسلمين والفيكنج والمجريين . أدى إلى ظهور عصر يعتبر الجند أهم خصائصه . فما من قرية أو كاتدرائية مدينة ، أو دير ، كانت بنجوة من الخطر ما لم يتولّ حمايتها رجال مسلحون . فليس بوسع الفلاح أن يفلح حقله ، وليس للقسيس أن يقيم قداسه ، إلا بمساعدة الجندي.

والواقع ان الجندي يعتبر العمود الفقري للجيوش الكارولنجية ، وكان يتمثل في المحارب الفارس ، الذي يحتمي بالترس والدرع ، والمغفرة (الخوذة) ، ويتسلح بالرمح ، والسيف ، والفاس (البلطة) . وما صار من قوة للفارس الواقف في ركابه ، جعلت العسكري الراجل تحت رحمته . ولما التقى فرسان الفرنج بالفيكنج كادوا ينتصرون عليهم ، على حين أن الراجلين من الفرنج لم يستطيعوا مقاومتهم والتصدي لهم . والمحارب الراكب ، اشتهر في اللغة اللاتينية بلقطة Milès التي يقصد بها الجندي . ثم صار يعرف في الفرنسية باسم خيال أو فارس Chevalier ، وفي الانكليزية باسم فارس Knight .

وكان سلاح الخيالة الذين استخدمهم شارل مارتل وببين وشارلمان مؤلفاً من النبلاء والأتباع من الفرنجة . والراجح ان ازداد عدد المحاربين الراكبين في القرن التاسع . وفي زمن الفوضى لم يسع الرجل الحر إلا أن يختار أحد أمرين : إما ان يصير جندياً ، وإما أن يهبط إلى حالة القنية . على أنه لم يكن في منطقة من المناطق ، باستثناء عدد قليل منها ، من الفلاحين الأحرار إلا من كانوا في حماية أحد السادة الاقطاعيين ، فاشتد الطلب للحصول على عساكر . إذ سعى الملوك ، وموظفوهم ، وكبار ملاك الأراضي ، فضلاً عن اتباع الملك ، إلى الحصول على أتباع مسلحين يساندونهم في الحروب . والخلاصة أن عدد الفرسان كان يتوقف على الموارد التي تكفل الانفاق عليهم .

ونظراً لندرة المصادر التاريخية عن القرن التاسع ، مـا زال الغموض يحيط عملية تطور النظام الاقطاعي . ومع ذلك فالواضح أن الحاجة الماسة للجنود حملت كل رجل توافر عنده من الاراضي مـا زاد خراجها عن حاجته وعلى

نفقات أسرته، على أن يبذل الاقطاعات للجند الذين أضحوا اتباعاً له . كما ان الفوضى الشاملة أجبرت صغار ملاك الأراضي، وإلى حد ما المتوسطين منهم على ان يلتمسوا حماية من كان أقوى منهم من الرجال . وإذا تبين لاحد أتباع الملك Vassus Dominicus أنه لم يعد بوسعه أن يحميه هو وأقطاعه معاً ، نزع إلى أن ينقل ولاءه وإخلاصه لاحد السادة المحليين ، كالكونت. أما الرجل الحر الصغير فلم تتهيأ له الفرصة لان يكون جندياً . بل إنه إذا توافر له من الارض ما يجعل منه فارساً ، فليس باستطاعته أن يحمي ملكه الا بمساعدة غيره . ولذا لا بد أن يتنازل عن ارضه لرجل قوي ، ثم يحوزها على أنها اقطاع، وبذا يصير تابعاً له .

وعلى هذا النحو تطور في أثناء القرن التاسع سلم اقطاعي مؤلف من السادة والاتباع . فالفارس العادي الذي حاز من الارض ومن خدمة الفلاح ما يكفي للاتفاق عليه وعلى أسرته ، يعتبر تابعاً لمالك يزيد عليه بما يحوزه من الاراضي ، وهذا المالك الكبير يصبح بدوره تابعاً لمن هو أكبر منه من الملاك ، وربما كان الكونت . وقد يكون الكونت تابعاً لكونت كبير ، او لدوق ، أو للملك ؛ والخلاصة اننا نصادف هرماً، في قمته الملك ، وفي قاعدته الفارس (الجندي) . هذا البناء لم يكتمل في القرن التاسع ، ولم يكن شائعاً في كل الامبراطورية الكارولنجية . وأسرع ما جرى من تطور هذا النظام، كان في مملكة الفرنجة الغربيين ، فرنسا الحالية ، وفي اللورين وفرانكونيا ، ومع ذلك لم يكن بالغ الشيوع في هذه الاقاليم ؛ إذ ان الاملاك الخاصة Allods ظلت كثيرة ووفيرة حتى القرن الثاني عشر، بل إنها بقيت في بعض الاقاليم طوال العصور الوسطى. على ان هذه كانت نادرة في فرنسا عند نهاية القرن الحادي عشر ، وبذا صدق قول رجال القانون في العصر الاقطاعي . انه « لا أرض بدون سيد » .

وفي أثناء الفترة التي أخذ الهرم الاقطاعي صورته وشكله النهائي، حدثت تغيرات عميقة في العلاقات بين السادة والاتباع . وأهم هذه التغيرات يتمثل في ان

الاقطاع أضحى مرتبطاً بالسلم الاقطاعي ، بعد ان كان يصح استعـــادته من التابـع ، او يبذل له مدى الحياة . والواقع ان السبب الاساسي لهذا التطور لا بد ان يرجع إلى انه كان من المتعذر منع الابن الأكبر للتابع، من حيازة اقطاع الاسرة . فحينما عزم شارل الاصلع على ان يتوجـــه الي رومـــا ليحصل على تاج الامبراطورية ، أصدر قراراً بأنه اذا حدث أثناء تغيبه ، ان مات احد أتباعه ، فينبغي لابن التابـع ان يحتفظ بالاقطاع حتى يعود. والراجح ان معظم الاقطاعات اضحت في القرن العاشر وراثية ، إذ جرى العرف على ان يبذل ابن التابع هدية للسيد ، ليحمله على ان يمنحه الاقطاع من جديد، هذا الاجراء هو الذي صـــار فيما بعد من المقررات الاقطاعية ، ويعرف بالحلوان Relief واقترن التغيير في وضع الاقطاع بأن صار وراثيـــاً ، بتغيير في المصطلحات المعـــاصرة له . إذ أضحى الاقطاع يعرف باسم Fief , Feudum ، بدلاً من لفظة Benefice .

وطالما لم يكن الاقطاع منحة يصح استردادها فان مـــا هو مقرر على التابـع من التزامات إنما يتوقف على ارادة السيد الاقطاعي . غير انه حينما صار الاقطاع وراثياً ، أضحت هذه الالتزامات خـــاضعة لعقد مشترك بين السيد والتابـع . فلم يعد بوسع السيد ان يستعيد الاقطاع كلما أراد ، اذ لا يقـدم على هذا الاجراء الا اذا نقض التابـع هذا العقد . فما ورد في العقد من الشروط، التي تتمثل في الالتزامات المتبادلة بين السادة والاتبـــاع، يقوم كل من الجـــانبين على تنفيذها . يضاف الى ذلك ان الأتباع كانوا أكثر قوة من السيد ؛ فإذا اتحد الأتباع او اجتمع جانب كبير منهم لمناهضة السيد، أضحى السيد عاجزاً، لانهم جنده والقوة الوحيدة التي في متناول يده . وما كان من علاقة بين السيد وأتباعه حددها العرف الذي يقضي بأن يجتمع الاتباع سوياً برئاسة السيد؛ وترتب على ذلك أن صار لكل اقطاع تقاليده المرعية ، وقلما تطابقت القواعد العرفية بين اقطاعين وما ورد هنا من الحقوق والواجبات الاقطاعية ليست الا الخصائص العـامة للاقطـــاع .

الحقوق والواجبات الاقطاعية

المعروف أن التعاون في الحرب هو الغرض الأساسي من العلاقة الإقطاعية ، فأهم وظيفة للسيد هي ان يتولى حماية أتباعه واقطاعاتهم ، أما الأتباع فكان لزاماً عليهم ان يخدموا في جيش السيد . وحينما حدث في زمن سابق أن اجتاح الفيكنج البلاد ، وعمّت الفوضى ، لم يكن ثمة ، فيما يبدو ، حدّ لما يؤديه التابع من خدمة عسكرية للسيد ، إذ كان لزاماً عليه ان يلحق بجيش السيد كلما دعاه . على أن الأتباع أخذوا ، بمضي الزمان ، يفرقون بين نوعين من الحرب : الحرب الهجومية والحرب الدفاعية ، فاذا تعرض اقطاع السيد للغزو ، تحتم على أتباعه ان ينهضوا لخدمته ، ليسهموا في رد العدو . أما إذا أقدم السيد على تخريب ونهب الأرض المجاورة له ، أو حاول ان يضيف الى أملاكه قلعة او قرية أخرى ، فان الأتباع حرصوا على ان تتحدّد واجباتهم . وجرت القاعدة بأن مايؤديه التابع من خدمة عسكرية في الحرب الهجومية لاتتجاوز فترة أربعين يوماً ، التي تعتبر الحد الأقصى للخدمة . والملحوظ أن هذه الفترة تقع في أيام الصيف التي يكون فيها الطقس لطيفاً ، وتمتد من زمن الزراعة في فصل الربيع ، حتى يحين جني المحصول. على أنه حدث في بعض الإقطاعات أنه كان لزاماً على ان يخدم التابع اربعين يوماً على نفقته الخاصة ، فإذا امتدت الخدمة الى اربعين يوماً أخرى، تولى السيد الإقطاعي الإنفاق عليه وعلى حصانه . وفي أحوال أخرى ، كانت الخدمة الحربية لمدة ثلاثين يوماً أو لأقل من ذلك . وكيفما كان الأمر ، جرت التفرقة بين الحرب من اجل الدفاع عن الاقطاع ، والحرب التي يقصد بها الإغارة على المجاورين للسيد .

ويرتبط بالخدمة في جيش السيد ، مايؤديه التابع من خدمة مع الحامية المرابطة في الحصن . ولم يكن بغرب أوربا قبل القرن العاشر إلا عدد قليل من القلاع . ثم أخذ في الظهور مايعرف منها باسم Motte and Bailey التي كانت عبارة عن خندق عمقه عشرة أقدام ، وعرضه ثلاثون قدم ، ومن التراب الذي يتخلف عن الحفر ، تقام قلعة للاحتماء بها . وهي المعروفة باسم

Motte ، أما الفناء الخارجي للقلعة فهو المعروف باسم Bailliey . والمعروف أن حافة الخندق والقلعة تحميها أسوار من عيدان مدببة الأطراف من الخشب ، ويقيم السيد وحواشيه بالقلعة في أعلا التل ، ويقع داخل الأسوار ، الاصطبلات ، والمباني التي يأوي اليها الفلاحون بأسراتهم ، ومواشيهم عند مايدهمهم الخطر . وفي بداية القرن الحادي عشر ، صار لكل سيد قلعة واحدة على الأقل ، يقوم الأتباع بشحنها بالجند . وهذا الواجب المعروف بحرس القلعة ، يختلف بين قلعة وأخرى ، فالسيد الصغير الذي ليس لديه إلا عـدد قليل من الأتباع ، كان يحرص على ان يجعل احدهم مسئولاً عن القلعة ، فيتولى قيادة الفرسان والفلاحين الذين بخدمة السيد ، في الدفاع عن القلعة . اما السيد الكبير الذي توافر عنده الأتباع ، فكان بوسعه ان يجعل بالقلعة حامية دائمة . ومع ذلك فإن مايلتزم به التابع من خدمة في القلعة لم يزد على ثلاثين او أربعين يوماً .

وأهم مايلي الخدمة العسكرية من الواجبات المقررة على الأتباع ، ما التزم به التابع من القدوم إلى بلاط السيد ، مـتى دعاه إلى ذلك ، لتحقيق أغراض عديدة ، منها الحاجة إلى النصيحة قبل الإقدام على عمل بالغ الأهمية . فالمعروف أن السيد والتابع يعتبران شريكين في الإقطاع ؛ وكلاهما حريص على توفـير الرفاهية به . إذ حرص السيد على ان يلتمس نصيحة أتباعه ، قبل أن يقدم على اختيار زوجة له ، او لأبنه ، او اختيار زوج لابنته ، كما أنه يستشير أتباعه إذا عزم على الاشتراك في حملة صليبية ، او عندما يغير على أحد جيرانه . وفي الجملة طلب السيد النصيحة في كل مايتعلق بالاقطاع من الأمور الهامـة ، ولا سيما إذا تطلب مشروعه المساعدة من الأتباع ، ومن ثم يعتبر من أهم واجبات التابع ، أن يخلص في اسداء النصح لسيده .

ومن واجبات الأتبـاع المجتمعين في محكمة السيد أن يحسموا ماينشب من منازعات بين السيد والتابع ، أو بين تابعين . فاذا اتهم السيد أحد الأتبـاع بأنه لم يف بالالتزامات المقررة عليه ، تنظر محكمة الملك في هذه المشكلة . ويتخذ

هذا الاجراء ايضاً اذا اتهم تابع سيّدَه بالاعتداء عليه . وتنظر هذه المحكمة ايضاً في القضايا الناجمة عن النزاع الذي ينشب بين الورثة على الإقطاع ، فتقرر أيهم صاحب الحق الشرعي . ولذا كانت محكمة السيد هي التي وضعت أساس ما يرتبط بالإقطاع من تقاليد وعرف . على أن السيد الإقطاعي كان يدعو أتباعه لحضور المحكمة لأسباب أخرى ، كأن يكسبوه الشرف والعزة ، فكلما كثر اتباعه ازدادت أهميته .

وإلى جانب الخدمة العسكرية ، والخدمة بالبلاط ، بذل السيد الإقطاع مقابل أنواع اخرى من الخدمات . ذلك أن كبارموظفي دار السيد الإقطاعي ، أمثال الصنجيل ، والكندسطبل ، والمارشال ، والحاجب ، والساقي ، حازوا الإقطاعات مقابل ما يؤدونه من وظائف للسيد فكند سطبل القلعة ظفر بالإقطاع ليعيش عليه ، كما ان الموظفين الموكلين بالإشراف على الغابات حصلوا على إقطاعات . والخلاصة انه لم يكن عند السيد ، في العصر المبكر للإقطاع ، سوى وسيلتين للإنفاق على موظفيه وخدمه . فإما أن يتكفل بتوفير الغذاء والكساء للرجل الذي يعيش في كنفه بالدار ، وإما أن يبذل له إقطاعاً يعيش منه .

والتزم التابع ايضاً لسيده بواجبات اخرى ، منها ان يؤدي له ما يعرف برسم الحلوان Relief . والراجح ان هذا الرسم نشأ أصلاً من الرسوم التي كانت تؤدي للسيد عن تجديد الإقطاع ، عند وفاة السيد او التابع ، وذلك قبل أن يصير الإقطاع وراثياً . فلما استقرت قاعدة وراثة الإقطاع ، أضحى هذا الرسم من المقررات الاقطاعية . والواضح ان هذا الرسم كان يؤدي عادة مما كان للتابع المتوفي من عدة حربية . ثم صار يؤدي نقداً في القرن الثاني عشر ، ويقدر بما يعادل خراج الإقطاع في السنة .

ومن الإلتزامات التي يؤديها التابع أيضاً للسيد ، ما يعرف بالعون Aid . فإذا احتاج السيد إلى موارد إضافية ، فمن الطبيعي أن يحصل عليها من الأتباع .

فإذا لم يتيسر لوارث الإقطاع أن يؤدي رسم الحلوان ، فإنه يلجأ إلى أتباعه ليبذلوا له المساعدة . وإذا وقع السيد في الاسر ، كان لزاماً على أتباعه أن يؤدوا الفدية المطلوبة منه . واذا تكلفت حفلات تنصيب ابنه الأكبر فارساً ، أو زواج ابنته الكبرى ،نفقات طائلة فلا بد للأتباع أن يسهموا في هذه النفقات. كان الاتباع أول الامر يقدمون في هذه المناسبات المؤونة والنبيذ ، على أنهم أدوا فيمابعد هذه المساعدة نقداً . والتمس السيد أيضاً من اتباعه أن يسهموا في النفقات اللازمة لتجهيزه عند الخروج في حملة صليبية ، أو لتشييد قلعة جديدة، أو في أي امر يكلفه ما لا طاقة له به من النفقات . وفي القرن الحادي عشر نلحظ مجموعتين من المساعدات: الاولى تشمل المساعدات التي تعتبر حقاً للسيد ، وكانت الثانية هي المساعدات التي يتفضلون بها عليه إذا طلبها منهم . وجرت القاعدة السائدة في كل الإقطاعات ، باعتراف الاتباع بما يؤدونه للسيد من مساعدات ، لافتدائه عند وقوعه في الاسر ، وللإسهام في الإحتفال بتنصيب الابن الاكبر فارساً ، وزواج ابنته الكبرى . وكان رسم الحلوان يدخل أيضاًفي هذه الفئة من الالتزامات الاجبارية . أما اذا احتاج السيد للعون والمساعدة لاغراض أخرى ، فلا بد أن يحصل على موافقة الاتباع ، الذين لهم الحق في أن يرفضوا الطلب .

ومع أن رسم الحلوان والعون (المساعدة) هما اللذان شاعا لدى الاتباع في كل الإقطاعات ، فإن بذل الضيافة للسيد كان أمراً مألوفاً أيضاً في الاقطاعات . لم يكن هذا الالتزام محدداً أول الامر ، إذ يقوم التابع بتقديم الضيافة للسيد وأتباعه كلما شاء السيد زيارته . غير ان هذا الالتزام تحدد فيما بعد ، فلا يقوم السيد بزيارة التابع إلا مرات محدودة في السنة ، ولفترة معينة من الوقت ، وبعدد محدد من الاتباع الذين يمتطون عدداً محدوداً من الافراس . وفي بعض الأحوال ، تم الاتفاق على تحديد ما يؤدي للرجال والدواب من المؤن .

وبالاضافه إلى ما يؤدي للسيد من خدمات إقطاعية ، كان للسيد على التابع

بعض الحقوق التي نبتت أصلا من طبيعة العلاقة الإقطاعية . فالمعروف أنه إذا تزوجت ابنة التابــع ، نقلت معها لزوجها شطراً من إقطاع أبيه ، على أنه بائنة لها ، وبذا جعلت لزوجها مصلحة في أراضي السيد الإقطاعي . ومـــا من سيد إقطاعي يجيز لعدوه أن يظفر بهذا الوضع . ولذا كان لزاماً على التابــع أن ينال موافقة سيده عمّن يكون صهراً له . وإذا مات التابع ، عن ابن كان من صغر السن ما يجعله عاجزاً عن القتال ، أو عن ابنة لما تتزوج بعد ، ولم يكن بالإقطاع من يؤدي الخدمات المطلوبة عنه ، عندئذ كان للسيد الحق في أن يختار رجلا يشرف على الإقطاع ويؤدي الخدمة ، ودرج العرف على ان يختار هــذا الرجل من أقرباء الوارث أو الوارثة للإقطاع . ويقع الاختيار عادة على أكبر إخوة والدة الوارث للاقطاع ، لأنه لا يصح له أن يرث الإقطاع ، وبذا ليس ثمة مــا يدعوه لطرد الوارث ، والحلول مكانه في الإقطاع ، وهذا هــو الذي يصح أن يحدث إذا كان الوصي أكبر أعمام وارث الإقطاع . على أن السيد الإقطاعي درج ، في إقطاعات كثيرة ، على أن يتولى الوصاية على الوارث وإقطاعه ، حتى إذا بلغ الصبي سن الرشد ، سلمه أراضيه ، أما إذا كان الوارث بنتاً ، فإن السيد يحرص على أن يختار لها زوجاً يتكفل بأن يؤدي الخدمات المطلوبة عن الإقطاع . ونظراً لأنه كان بدار السيد الإقطاعي من الفرسان الشبان ، من كانوا حريصين على حيــازة الإقطاعات ، فإن أيسر وسيلة لأرضاء رغبة هؤلاء الفرسان ، هو أن يبذل السيد لفارسه عروساً ترث إقطاعاً . كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يأمل بهـــا الفارس الذي لا إقطاع له ، أن يصير رجلا بالغ الأهمية .

وإذا كافأ السيد أحد المخلصين من حاشيته ، جعل له إقطاعاً من أراضيه . على أن هذا الإقطاع إذا كان صغير المساحة ، فإنه يلجأ إلى أن يزوجه من وارثة لإقطاع كبير (بارونية) .

وإذا مات التابــع ، دون ان يترك أحداً يعترف به الملك ومحكمته وارثاً

للإقطاع ، عاد الإقطاع لممتلكات السيد . وإذا جرت إدانة التابع في المحكمة بأنه لم يؤد الالتزامات المطلوبة منه ، تقررت مصادرة إقطاعه،ولم يحدث ذلك إلا نادراً ، لأن الاتباع المجتمعين بالمحكمة كانوا ينفرون من الحكم بمصادرة الإقطاع ، فقد يتعرض أحدهم لمثل هذه المشكلة في وقت من الأوقات .

سبق الاشارة إلى الإلتزامات المادية التي يؤديها التابع لسيده ، غير أن الواجبات الشخصية كانت أيضاً بالغة الأهمية في العلاقة الإقطاعية . فلا بد أن يكون التابع شديد الولاء لسيده ، فلا يؤدي إلا ما كان في صالحه ، فلا يقدم على عمل يلحق الضرر به . فأشنع جريمة يرتكبها التابع ، هي أن يصيب سيده بجراح أو يقدم على قتله . ويعتبر أيضاً من الجرائم الشنيعة محاولة التابع التغرير بزوجة سيده أو ابنته الكبرى . فالمفروض أن التابع يحرص على سلامة سيده وسلامة أسرته مثلما يحرص على سلامة نفسه وأسرته .

وتعتبر العلاقة متبادلة بين السيد وأتباعه ، فعلى كل منهما التزامات قبل الآخر فمن الناحية المادية التزم السيد بالدفاع عن التابع وإقطاعه،وحمايتهما من كل اعتداء يقوم به عدو من خارج إقطاع السيد . ومن واجب السيد أن يوفر لتابعه العدالة في محكمته ، فإذا اعتقد التابع أن سيده يسيء معاملته ، وطلب أن ينظر زملاؤه الأتباع في قضيته ، فمن واجب السيد أن يمنحه هذا الحق . وينبغي على السيد أن يحترم أسرة التابع ومصالحه الشخصية ، وإذ لم يف السيد بالتزاماته نحو التابع ، فللتابع أن يتحداه ، أي أنه يعلن أنه لم يعد تابعاً له . وجرى ذلك عادة حينما عجز السيد عن حماية التابع وإقطاعه . وهذا التحدي يؤدي عادة إلى نشوب الحرب ، على أن التابع لم يعلن تحديه إلا بعد أن تأكد من الفوز بمساعدة عدو قوي لسيده .

وتستهل العلاقة بين السيد والتابع باحتفال مهيب ، يجري فيه حلف يمين الاخلاص ، وبذل التبعية (الانتماء) للسيد . فيركع التابع أمام السيد ، ويجعل

يديه بين يدي السيد ، ثم يحلف بأن يكون مخلصاً للسيد ، وبأن يؤدي الخدمات المقررة على الاقطاع ، ويعطي السيد التابع حفنـــة من تراب الأرض ، رمزاً للإقطاع . والفرق بين الولاء والتبعية ، هـو أن الولاء يعزز الملاقة الشخصية ، أما التبعية فتبذل عن الأقطاع وتنطوي على الوعد بتأدية الخدمـــات المطلوبة منه . على أن يمين الولاء وبذل التبعية كانتا مقترنتين معاً .

كان للتابع في الزمن المبكر للأقطاع سيد واحد ، غير أن هـــذا الوضع لم يستمر طويلا . فإذا حصل رجل على اقطاع نتيجة لزواجه ، أضحى تابعـــاً لسيد زوجته . غير أن أبنه يصح أن يؤدي خدمة لسيد آخر مقابـل الحصول على اقطاع منه ، وفي الوقت ذاته يؤول إليه إقطـــاع الأسرة . ومن ناحية أخرى يكتسب السيد صداقة جيرانه الأقوياء ومساعدتهم بما يبذله لهم من إقطاعات .

أضحى معظم كبار الحائزين للأراضي في القرن الثاني عشر أتباعـــاً لسادة عديدين . فكونت أنجو كان تابعاً للملك فرنسا ، ودوق برجنديا ، وأمبراطور الدولةالرومانية المقدسة،ورئيسي أساقفه ريمسوسنس ، فضلاًعنأساقفة لانجر ، وشالون ، وأوتون ، وأوكسير . ومن أتباعه رجال حازوا إقطاعات من الملك، فضلاً عن كثيرين غيرهم يبلغون الثمانين . على أن الخدمات الشخصية إنما يؤديها التابع للسيد الأعلى الذي بذل له يمين التبعية أول الأمر ، أما الخدمات المستمدة من الإقطاع فيؤديها إلى سادته الآخرين . وبذا يعتبر كونت أنجـــو تابعاً أصيلا لملك فرنسا ، فإذا نشب القتال بين الملك وكونت بلوا ، كان لزامـاً على كونت أنجو أن ينهض شخصياً لخدمة الملك ، بينما يرسل جماعة من الجنـد لخدمة كونت بلوا . ويعتبر من أقوى السادة من يملك قلعة ، بهـا حامية كبيرة ، ويتوافر بها من المؤن ما يجعلها تصمد لحصار يزيد على أربعين يوماً، أي مدة الخدمة العسكرية المقـــررة .

يعتبر القتال المهنة الأساسية للطبقة الإقطاعية. فالتعليم وسبيل الحياة لم يكن الغرض منهما سوى تهيئة الصبي لمهنة القتال. ففي السابعة أو الثامنة من عمره، يجري ابعاده من البيت، حتى لا يفسده عطف والديه، ولا سيما أمــه، فيتلقى تعليمه في بلاط سيد إقطاعي صديق، كان عادة سيد والده، أو أحد أقاربه. ويظل الصبي سنوات وصيفاً لسيدة القلعة، وفي تلك السنوات يتعلم العزف على آلة موسيقية أو الغناء. فاذا بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، أضحى سائساً، فيقوم على خدمة السيد الإقطاعي، ويزيد من صلابته مايعانيه في معالجة الأسلحة، وفي التدريب على الإلمام بعدة الفارس، فإذا صار رشيداً، وناهز العشرين من عمره، وتوافر عنده الاستعداد والكفاية، جاز له أن يحوز الأسلحة، كالدرع والحصان، فيجري الاحتفال بتنصيبه فارساً. وهذا الاحتفال، في أبسط صورة له، لم يتجاوز ارتداء درعه الجديد والركوع أمام الفارس الذي قام على تدريبه، ثم يتلقى ضربة قوية من قبضة الفارس، أو من صفحة سيفه. ومتى تمّ تنصيب الشاب فارساً، يعتبر أنه بلغ سن الرشد، وبوسعه ان يبذل التبعية لأحد السادة الإقطاعيين، وأن يتولى أمر إقطاعه.

ويعتبر القتال المهنة الأساسية للفارس، وهوايته الأثيرة عنده. فاذا كان من البارونات، أنشب القتال كيما يضبط أتباعـــه، ويظفر بكل ما أراد من جيرانه، وإذا كان، مجرد فارس، وحاز اقطاعاً، كان لزاماً عليه ان يتبع سيده الى المعركة، لأن ذلك كان من واجبه، فضلاً عن آماله في ان يكون له نصيب في الغنيمة. على أن الفارس الذي ليس له اقطاع إنما يحارب من أجل توفير أسباب الحياة له. فالحرب كفيلة بالربح والثروة، ومع ان نهب قرى الفلاحين قلّ أن أدى الى

غنيمة كبيرة ، فما زال الأمل يراود الفارس ، بأنه سوف يأسر أحد الفرسان ، ويحصل على فدية كبيرة منه ، وبصرف النظر عن احتمال احراز الثروه عن طريق القتال ، فان القتال يعتبر نوعاً من الرياضة الممتعة . يضاف الى ذلك أن الفارس لم يود أن يقتل فارساً آخر ، فليس لذلك قيمة مطلقاً ، كما أن وارث الد الفارس القتيل يمضي في القتال للانتقام له ، اما إذا أسر عدوه ، فانه يحصل على فدية قد تكون ضيعة قيمة أو قلعة منيعة . ومهما يكن من الحروب العنيفة التي اندلعت في اوائل العصور الوسطى ، فلم يكن الملوك وأمراء الاقطـــاع حريصين على سفك الدماء .

وفي ايام السلام والهدوء ، درج الفارس على ان يستيقظ قبل طلوع الفجر ، ثم يشهد القداس في كنيسته بالقلعة ، ثم يتناقش مع موظفيه فيما يعرض من الامور ، وينظر في القضايا ، غير أنه يوجه اهتماماً خاصاً باقطاعه . فاذا لاح الفجر ، أضحى مستعداً لما يشغل به يومه ، وهو الصيد . ومن أهم مايشغف به الفارس ، هو أن يطارد بحصانـــه الغزال وسائر الوحوش ومارس الفرسان وعقيلاتهم الصيد بالطيور الجارحة . إذ يجوس الفارس على حصانه منطقة المروج الخضراء قرب أحد الغدران ، يحمل على رسغه الصقر ، فيطلقه ليطارد مايظهر أمامـــه من الطيور التي يبتغي صيدها ، ويؤلف الصيد جانباً كبيراً من حياة الفارس ، ولذا احتفظ بأعداد كبيرة من كلاب الصيد ، والصقور ، وسائر طيور الصيد .

ويتناول الفارس طعام الغداء في الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر ، ويتألف من اللحوم والطيور والخبز والفطائر ، فضلا عن كميات كبيرة من النبيذ أو الجعة . ويستمتع الفارس في فراغه بعد الظهر بما يتغنى به الشعراء على آلاتهم الموسيقية من قصائد وقصص ، ومنهم من يصحب معه الراقصات والدببة . ولم يكن لديهم

مايستضيئون به سوى المشاعل، وما يصدر عنها من أدخنة كثيفة،ويهجع السيد إلى النوم ، عند حلول الظلام .

على أن الفرسان في العصور الوسطى المبكرة غلبتعليهم الفظاظةوالغشامة ، فلم يتوان الواحد منهمعن رمي الخادم بالحربة إذا تأخر في تقديم النبيذ ، بل إنه كان يقسو أحياناً في تأديب زوجته .

ولم يقيد سلوك الشخص الذي ينتمي للطبقة الإقطاعية ، شيء من القوانين . فطالما لم ينزل الأذى بسيده ، أو بأسرة سيده ، أو تابعه ، او أسرة تابعة ، والتزم بالحضور الى محكمة سيده للنظر في جريمة ارتكبها أحد الأتباع ، تركه النظام الإقطاعي حراً فيا يفعله مع سائر الناس .

ولما لم يكن للمرأة نصيب في القتال، هبطت مكانتها، إذ كانت دائماً في رعاية أحد الرجال . ففي حداثة سنها تعاهدها أبوها برعايته ، حتى إذا تزوجت خضعت لسلطة زوجها ، فاذا مات زوجها أضحت في كنف سيده أو ابنها الأكبر . وليس لها حقوق عند زوجها ، بل تخضع مع متاعها لإشراف الزوج . ولم تفلح محاولات الكنيسة في حمل الأزواج على ان يحسنوا معاملة زوجاتهم .

واتسمت حياة الطبقة الإقطاعية بالبساطة والسذاجة . ولم يرتفعوا كثيراً عن مستوى الفلاحين الذين يزرعون الأرض ، برغم ماتوافر لأرباب هذه الطبقة من انتاج اراضيهم الشاسعة ، فلم يتنوع طعامهم وشرابهم ، وما ارتدوه من ملابس ، إنما صنعتها الزوجة ووصيفاتها ، اللاتي يفتقرن الى المهارة . والخلاصة أنه إذا كان السيد يزيد على الفلاح فيا يحصل عليه من طعام وكساء ، فإنهما كانا عادة من نفس النوع الذي توافر للفلاح .

وتألفت قلعة السيد من حجرتين ، يباشر السيدفي إحداهما أعماله معموظفيه وأتباعه وفلاحيه . ويتناول بها طعامه على موائد مصنوعة من ألواح الخشب ،

حتى إذا حل الليل نام الخدم على الموائد أو على أرض الحجرة ، أما الأخرى فتعتبر حجرة خاصة للسيد وأسرته ، ولا يشاركهما فيها إلا كبار الضيوف . وفي بعض الحالات كان للسيد كنيسة صغيرة بقلعته . ويشتد البرد وتيـــار الهواء بالقلعة ، نظراً لأن النوافذ كانت مفتوحة ، أو ثبتت عليها عوارض من الخشب تسمح بمرور الهواء الشديد .

الملحق ١٩

النظام الاقطاعي

١ – يمين التبعية

يجمل الرجل يديه معاً ، للدلالة على الخضوع والضعة ، ويضعهما بين يدي سيده ، رمزاً لأنه ينذر له كل شيء ، وأنه يبذل الولاء له . فيقبله السيد ويعده بالمحافظة على إيمانه به . وعندئذ يردد الرجل : « سيدي ، إنني أدخل في تبعيتك وعهدك ، وصرت رجلك بالقول والإشارة (أي بحلف اليمين ، ووضع اليدين بين يدي السيد) ، وإني لأقسم وأعد بأن أحافظ على العهد والولاء لك ، إزاء كل الآخرين ، وأن أبذل كل مابوسعي من قوة للذود عن حقوقك .

٢ – يمين أخرى للتبعية :

مقدمة

تبين الوثيقة التالية ماساد العلاقة الاقطاعية فعلا من اضطراب وفوضى. إذ حاز التابع ، في هذه الحالة ، الأرض من أربعة من السادة الاقطاعيين ، وبذل لهم جميعاً التبعية ، وأقسم لهم يمين الولاء ، ودان لهم جميعاً بالخدمة العسكرية . والمعروف أن التابع إنما يبذل تبعيته لسيد إقطاعي واحد ، هو السيد الأكبر ، وهو الذي يدين له قبل كل شيء بالخدمة .



إنني يوحنا سيد تول ، أعلن أنني تابـع أصيل للسيدة بياتريس كونتيسة تروى ، وابنها ثيوبالد ، كونت شمبانيا ، إزاء كل مخلوق ، حياً كان أو ميتاً ، باستثناء مابذلته من يمين الولاء للسيد انجوراند كونت كوسى ، والسيد يوحنا كونت اركيس ، فضلا عن كونت جراندبريه ، فاذا حدث أن أعلن كونت جراندبريه ، لما حدث من نزاع ، الحرب على الكونتيسة ، وكونت شمبانيا ، فسوف أقوم شخصياً بمساعدة كونت جراندبريه ، وسأبعث للكونت وكونتيسة شمبانيا الفرسان اللازمين لتأدية ما أدين به من الخدمة لهما (الكونت والكونتيسة) عن الاقطاع الذي حصلت عليه منهما ، أما إذا أعلن كونت جراندبريه الحرب على كونتيسة وكونت شمبانيا ، لصالح صاحبه ، وليس لما وقع من نزاع ، فسوف أنهض شخصياً لمساعدة كونتيسة وكونت شمبانيا ، وأبعث بفارس واحد الى كونت جراندبريه ليؤدي ما أدين به له من الخدمة عن الاقطاع الذي حصلت عليه منه . غير أنني سوف لا أتوجه الى بلاد جراندبريه لقتاله .

ملحق ٢٠

واجبات التابع

حسبما أوردها فولبرت اسقف شارتر

(سنة ١٠٢٠)

هذه الفقرة مستمدة من رسال كتبها إلى وليم دوق اكيتانيا ، الأسقف فولبرت ، الذي يعتبر من أشهر علماء القرن الحادي عشر الميلادي . ويركز الأسقف اهتمامه على واجبات التابع نحو سيده .

* * *

وإذا سألتني أن أكتب عن صيغة يمين الاخلاص أوجز هنا ما يرتبط بهذه اليمين من أمور .

كل من يحلف يمين الولاء لسيده ، ينبغي أن يعي في ذاكرته ، هذه الأمور الستة . التي تتمثل في اجتناب الضرر ، والتزام السلامة ، والشرف ، والنفع والسهولة ، وتأدية ما كل باستطاعته أن يفعله .

والمقصود من تجنب الضرر ، هو ألا يلحق (التابع) الأذى بجسد السيد ، أما السلامة فتقضي بالا يضر سيده بافشاء أسراره ، أو تسليم قلاعه التي يستند اليها في المحافظة على سلامته . والمقصود بالالتزام الشرف أنه لا يؤذيه في عدالته ولا في كل الأمور التي تتعلق بشرفه ، ويتمثل نفعه في أنه لا يعتدى على أملاك سيده ، أما السهولة فالغرض منها ألا يمنع التابع سيده من فعل الخير ، أو يعسّر

لسيده من الأمور ما في وسع السيد أن يقوم بها .

ومع ذلك،فإنه إذا كان من الصواب أن يتجنب التابع المخلص هذه الأضرار، فإنه لم يجز اقطاعه مقابل هذا وحده،إذ ليس كافياً أن يمتنع التابع عن ارتكاب الشر ، بل ينبغي أيضاً أن يفعل الخير . ولذا ينبغي أيضاً أن يخلص في بذل المساعدة وإسداء النصيحة لسيّده في الأمور الستة التي سبق الإشارة إليها ، إذا أراد التابع أن يكون جديراً باقطاعه ، وأن يكون موطن الثقة التي تنطوي عليها يمين الولاء .

وينبغي على السيد من جانبه أن يؤدي للتابع المخلص ما التزم التابع أن يؤديه له من كل هذه الأمور . فإذا لم يفعل ذلك ، فيعتبر مذنباً سيء النية .

ملحق ٢١

الاقتصاد الزراعي

لعل خير وسيلة توقفنا على صورة الاقتصاد الزراعي في القرن التاسع . هي أن ندرس ما ورد في سجلات دير من اكبر الأديرة بالأمبراطورية الكارولنجية من مساحات لأراضيه ، وهو دير القديس جرمين دي بريه في باريس ، وجرت هذه الدراسة زمن ايرمينو رئيس الدير (٨١١ – ٨٢٩) ، وتصف معظم ضياع الدير ، والمعروف أنها تناولت أصلاً وصف جميع ضياع الدير ، غير أن الوثيقة ليست كاملة ، وأهم ما ضاع منها ذلك الجزء الذي يتعلق بالأراضي التي بذلها الدير اقطاعات . ومع أن مساحات الأراضي الواردة فيما تبقى من الوثيقة لم تؤلف إلا نحو نصف كل ما يملكه الدير من الأراضي، فإنها تعتبر بالغة الأهمية . ولا نتوقع الدقة في مساحة الأراضي ، نظراً لاختلاف المقاييس من مكان إلى مكان ، وما ورد هنا من احصائيات إنما تدل على ما كان للدير من ثروة :

أولا – ضيعة السيد (الدير)

أراضي صالحة للزراعة	٦٫٠٤١	هكتار
أراضي الكروم	١٩٦و	»
أراضي المراعي	١٧٦و	»
اراضي الكلأ	٦ ½و	»

اراضي المستنقعات	١/٢ ٫	هكتار
أراضي الغابات	١٠٫٩٢٢	»
المجموع	١٧٫٣٤٥	هكتار
أي	٤٢٫٨٥٥	فداناً انجليزياً

ثانياً – اراضي المستأجرين (الحائزين)

أراضي صالحة للزراعة	١٦٫٠٨٨	
أراضي الكروم	٫٢٣١	
أراضي المراعي	٫٣٢٧	
أراضي الكلأ	٫٨٦	
أراضي المستنقعات	—	
أراضي الغابات	٫٠٧٧	
المجموع	١٦٫٩٠٩	هكتار
أي	٤١٫٧٨٢	فداناً انجليزياً

تدل هذه الأرقام على الفرق الشاسع بين أرض ضيعة السيد ، وأرض المستأجر. والمقصود بأرض الضيعة ، الأرض التي اختص بها السيد ، الذي اختص بكل انتاجها . وفي هذا المثال ، كان المفروض من الناحية النظرية ، أن يختص الدير بكل ما ينتج من أراضيه من محصول ، كما يستهلكه الرهبان . أما أرض الحيازة فهي التي ينالها المستأجرون مقابل قيامهم على زراعة أرض الضيعة ، ولا يتقاضى أربابها أجوراً ، بل يحوزون أراضي مقابل ما يطلبه منهم السيد من حرث الأرض ، وحصاد المحصول ، ونقله بالعربات ، وغير ذلك من الخدمات . ولذا خضعوا لسلطة موظف يختارونه من بينهم ، اشتهر باسم مقدم (maior) .

ومن مزايا هذا النظام ، أنه لم يعد لاستعمال النقود أهمية مطلقاً . على أنه

ينبغي الا نغفل حقيقة هامة ، هي ما التزم به المستأجرون من تأدية رسوم أخرى ، فضلاً عن خدمات العمل . فأراضي المستأجرين التي بلغت مساحتها : ٧٨٢ر٤١ فداناً ، تؤدي المقررات الآتية :

	ب	ش	ح
ايجارات نقدية	٥	٩	١١٥
حصان	عدد	٤	
ثور	عدد	٥٥	
عجل بقر	عدد	١	
خروف	عدد	١	
نعجة	عدد	٢٨٨	
حمل (خروف صغير)	عدد	٩٦	
خنزير	عدد	٩٦	
نبيذ		٢٫١٣٩ مد	
شعير		١٦٥ سيستر (مكيال)	
قمح	—	٩٧٫٥ مد	
حنطة	—	١٫٠٤٧ مد	
شوفان		٧٧ مد	
خردل		٥٨ سيستر (مكيال)	
حشيشة الدينار		٢٠ (مد) ٧٧ ستر	
عربات نقل	عدد	٢	
أخشاب الوقود	عدد	١١ حزمة	
الواح خشب رقيقة		١٠٥ قطعة	
الواح خشب للمنافذ		٤٦ قطعة	
الواح خشب صغيرة		٢٥٫٤٥٨ قطعة	

أضلاع براميل		١٠١٧و١	حزمة
اطواق		٥٠٨	
اغصان لصناعة السلال		٣٠٥	حزمة
كتاكيت	عدد	٥	
بيض	عدد	٣٠	
حديد		٢	ارطال
مشاعل	عدد	٤٤٠	

هذه القائمة تحوي ما هو مقرر على أرض المستأجرين من رسوم ، ولا يدخل فيها شيء مما يتحصل من أرض السيد. ولنا أن نتساءل هل استهلك رهبان هذا الدير ، الذين لم يتجاوز عددهم ٢١٠ ، كل هذه المقررات فضلاً عن إنتاج ضيعة السيد (الدير) ؟ فاذا اقترضنا كثرة عدد خدام الدير ، وما يبذله من ضيافة لكبار الزائرين مع حواشيهم ، فلا بد أن توافر للدير بعد كل ذلك ، فائض كبير من المحصولات الزراعية يستطيع أن يبيعه بالأسواق .

فإذا رجعنا إلى الضياع ذاتها ، فلا بد من الوقوف على مساحتها ، التي بلغت بلغت ٨٤٫٦٣٧ فداناً ، بعد خصم ما بذل من الإقطاعات . وباستثناء بعض المناطق بجنوب غربي فرنسا،وسهل سكسونيا ، اشتد نزوع الفلاحين الأحرار إلى الإستسلام إلى السادة بكل ما يملكون من أراضي . ذلك أن الملاك الفلاحين اكتشفوا أن الحرية عبءثقيل الوطأة . إذ كان لزاماً عليهم أن يحضروا إلى دار الكونت ، ويؤدوا الخدمة العسكرية ، شديدة الارهاق ، فضلاً عن ضرورة استخلاص معاشهم مما يحوزون من الأراضي التي تبلغ مساحتها ثلاثين فداناً. ففي سنوات الرخاء ، كان بوسعهم أن يؤدوا كل تلك الواجبات ، أما في السنة التي يخيب فيها المحصول ، كان مستحيلاً على الفلاح أن يتوافر له العدة الحربية اللازمة لتأدية الخدمة العسكرية ، فيصيربذلك تحت رحمة رجال الملك ، ولم

يسع الف ِ عندئذ إلا أن يسلم أرضه للسيد ، فيعطيه السيد حيــازة الأرض ، ويتحمل بالنيابة عنه مسئولية الخدمة العسكرية .

والملحوظة الأخرى، هي أن ثلث أراضي الدير كانت أرض غابات، وليست هذه نسبة عالية ، نظراً لأن معظم أراضي الدير تقع على مسافة خمسة وعشرين أو ثلاثين ميل من باريس ، ولذا لم يتجاوز الحد العادي للغابات الكثيفة . ومع أنه كان من انجازات العصور الوسطى الهامة إزالة الغابات ، فإن إزالة الغابات لم تبدأ إلا حديثاً في القرن التاسع ه .

الفصل الثالث عشر

الأباطرة السكسون والساليون (الفرانكونيون) بألمانيا

شهدت الفترة المبكرة من العصور الوسطى ، التي تمتد من القرن الرابع الى نهاية القرن التاسع الميلادي ، وهي المعروفة بالعصور المظلمة ، تمزق عالم البحر المتوسط وانهيار وحدته السياسية والثقافية والاقتصادية . غير أن ما هو أهم من الانهيار الفعلي ، هو ما أدركه الناس من حقيقة أنهم يعيشون في فترة تدهور وتداعي . كان ذلك هو الذي حمل القديس أوجسطين ، والبابا جريجوري الأول ، على الاعتقاد بأن نهاية العالم وشيكة الوقوع ، وهو الذي يفسر طابع السرعة في دراسات كل من كاسيدروس والكوين . إذ حرص كل منهما على أن ينقذ حضارة العالم القديم ، قبل فوات الوقت،وكان ذلك أيضاً هو القوة المحركة الكامنة وراء ما حدث في هذه الفترة من تطور سياسي كبير .

على أنه لم يحدث منذ القرن العاشر الميلادي ما كان متوقعاً من اليأس والفشل بل حل الأمل ، وتوافرت دواعي النجاح . وتمثل الأمل دائماً في إعادة أمجاد الماضي ، ومضى التشاؤم ليحل مكانه التفاؤل ، بعد انقطاع غارات الفيكنج والمسلمين والمجريين ، فاضحى التغيير ملموساً في كل مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية .

الواقع أن ألمانيا وايطاليا وفرنسا ، لم تحز في بداية القرن العاشر الميلادي

شيئاً من النظم الضرورية لقيام دولة ، ولا شيئاً من الوعي القوي اللازم لنهضة أمة ، فكان للفرنجة الغربيين ملك ، من غير أن تكون هناك فرنسا ، وللفرنجة الشرقيين ملك دون أن توجد ألمانيا ، وللومبارديين بايطاليا ملك ، وليس من إيطاليا القديمة إلا الإسم والذكرى . ولم تكن فرنسا وقتذاك سوى عدد من الأقاليم الإقطاعية . ولم يحفل الملوك في الرسائل الرسمية بالتنويه بممالكهم ، وكل ما اهتموا به أنهم حظوا برعاية الله وعطف الكنيسة في حكم هذه البلاد . والوسيلة الوحيدة التي تستقر بها السلطة القوية ، قامت على الرابطة بين السيد والتابع . على أننا نلحظ اتجاهين مختلفين في بناء القوة وتدعيم السلطة ، الاتجاه الأول ، وهو الذي سلكه ملوك أسرة كابيه في فرنسا ، يقوم على تدعيم الضياع الملكية الممتدة من باريس إلى أورليان ، كيما يجعلوا سلطتهم حقيقية ، وحتى يفرضوا سلطتهم على الرعايا الأقوياء،أمثال دوقات نورمنديا واكيتانيا وبرجنديا . أما الاتجاه الآخر ، وهو الذي ساد في ألمانيا وإيطاليا ، فيقضي بالاهتمام بمصالح المملكة والعالم المسيحي اللاتيني لذاتها لا وسيلة للحكم ، ولذا ينبغي للملك أو الأمبراطور أن يحكم باسم الله ، وأن يقر الأمن والعدالة ، وأن يدافع عن الكنيسة . وحاول ملوك ألمانيا وأباطرتها ، لمدة ثلاثة قرون ونصف قرن ، انتهاج هذه السياسة . ومع أنهم فشلوا ، فلا زالت محاولتهم لبناء مجتمع سليم جديرة بالاهتمام والتقدير .

الواقع أن الأمبراطورية التي أقامها السكسون في القرن العاشر الميلادي ، لم تكن امتداداً لأمبراطورية شارلمان ، أو الأمبراطورية الرومانية القديمة ، بل اختلفت عنها في نواحي عديدة ، فمن الناحية الإقليمية كانت أصغر مساحة من أمبراطورية شارلمان . ومع أنها شملت الشطر الأكبر من ألمانيا وإيطاليا ، فإنها لم تضم أقاليم فرنسية أو اسبانية ، بل غلبت عليها الصفة الجرمانية .

الدّوقيات القبلية

انقسمت المانيا أربع دوقيات ، زعمت كل منها أنها تنتمي إلى قبيلة معينة، وهذه الدوقيات ، تنزلها أقوام ، السكسون والفرانكونيون والبافاريون والسوابيون ، ولكل دوقية شخصية مستقلة . فلم يعرف البافاريون بهذا الاسم إلا بعد القرن السادس الميلادي ، على حين أن السكسون والفرانكونيين ، والسوابيين كانوا معروفين عند مؤرخي الأمبراطورية الرومانية ، ولكل شعب من هذه الشعوب قوانينه وتقاليده الخاصة . وظل السكسون وثنيين حتى زمن شارلمان ، وكانوا أقل من اصطبغ من الجرمان بالصبغة الرومانية ،وكانوا من ألد أعداء الفرانكونيين . وبرغم ما يكنه البافاريون أيضاً من العداء التقليدي للفرنكوانيين،فإنهم كانوا أكثر القبائل اعتدالاً ، واشدها تأثراً بالصفة الرومانية نظراً لوضعهم الجغرافي .

وللعامل القبلي أو القومي أهمية خاصة في كل واحدة من هذه الدوقيات ، لما له من قوة بالغة التأثير عند كل ثائر طموح ، في المرحلة المتوسطة من تاريخ أوربا العصور الوسطى (من القرن العاشر حتى منتصف القرن الثالث عشر) . على أنه ينبغي ألا نبالغ في تقدير هذا العامل ، إذ لم يحكم الدوقيات ، منذ بداية القرن العاشر ملوك قبليون ، بل حكمها دوقات كانوا أصلاً قادة لملك الفرنجة ، وقد يكونون أجانب عن هذه الدوقيات ، ولم ينجحوا بعد في جعل وظيفتهم وراثية . وحرص هؤلاء الدوقات على الاهتمام بالمصالح القبلية ، وعلى أن يجعلوا من أنفسهم ملوكاً ، غير أنهم لم ينجحوا حتى وقتذاك في تحقيق اطماعهم .

أما دوقية لوثارنجيا، وهي الخامسة ، فهي من طراز مختلف ، إذ ليس لها أصل قبيلي ، وليست لها وحدة جغرافية ، بل يرجع أصلها ، كما يدل اسمها ، إلى لوثار الثاني الذي كانت مملكته تشمل هذه الدوقية ، بعد التقسيمات الأسرية زمن الكارولنجيين ، وظلت محتفظة بكيانها ، ولم يتردد سكانها في أن ينعتوا

أنفسهم باللوثارنجيين ، بل إن ذكراها لا زالت باقية فيما هو معروف الآن باقليم اللورين في فرنسا .

وعلى هذا النحو كانت ألمانيا تضم أقساماً قبلية ، وصناعية (نتيجـــة التقسيمات الأسرية) ، وذلك سنة ٩١١ ، التي مات فيها آخر سليل لشارلمان ، وهو لويس الطفل ابن لويس الجرماني .

على أن زوال بيت لويس الجرماني ، كاد يؤدي إلى اختفاء مملكة الفرنجـة الشرقيين لو لم تتدخل الكنيسة . إذ أن كبار موظفي الكنيسة في ألمانيا لم يعتقدوا في الملكية على أنها نظام فحسب ، بل اعتبروا أيضاً أن سلامة ضياعهم تتوقف على وجود ملك قوي . ففي أثناء حكم لويس الطفل ، اغتصب الدوقات ضياع الكنيسة ، كيما يزيدوا في قوتهم الإقطاعيـــة ، واقتفى أثرهم صغار النبلاء . وأحست الكنيسة بالحاجة إلى ملك قوي تقوم بتتويجه ، وتتخذ منه حليفاً ، ليحد من جشع النبلاء . وعلى الرغم من أن الدوقات لم يودوا أن يتولى الحكم ملك قوي ، فإنهم نزعوا ، سنة ٩١١ ، إلى أن يلتمسوا قائداً قومياً ، نظراً لما تعرضت له جميـع المانيا ، ما عدا سكسونيا ، لغارات المجريين وتخريبهـم .

أصبحت مقاومة المجريين مستحيلة ما لم يتول الحكم ملك قوي ، ومن هنا انحاز الدوقات إلى كبار موظفي الكنيسة لاختيار دوق فرانكونيا ، كنراد ملكاً . غير أن كنراد لم يكن ، لسوء الحظ ، ملكاً قوياً ، فلم يستطع ، وهو القائد الحربي ، ان يوقف غارات المجريين ، التي امتدت حتى بلغت بريمن في شمال ألمانيا ، كما أنه افتقر إلى الموارد التي يستطيـع بها كبح جماح الدوقات . وإذ تعرضت الضياع الكارولنجية للاغتصاب إلى حد كبير ، أثناء حكم لويس الطفل ، لم يسع كنراد إلا الاعتماد على دوقيته ، فرانكونيا ، التي كانت أضعف من الدوقيات الأخرى في الموارد المادية والبشرية ، فـــلم يحفل بالملك دوقات سكسونيا ، وسوابيا ، وبافاريا ، ومضوا في توطيد سلطانهم ، حتى إذا انتهى

حكم كنراد ، أضحى لكل دوق سلطة ملكية كاملة في داخل دوقيته ، ولم يكن للملك سوى سلطة اسمية. وأدرك كنراد أن الملكية الألمانية لن تبلغ ما تنشده من قوة إلا إذا تولى أمرها أقوى الدوقات ، ولذا حرص وهو على فراش الموت سنة ٩١٩ ، على أن يرشح لولاية الحكم بعده ، هنري ، دوق سكسونيا وطلب إلى أخيه الأصغر ، ايفيرارد ، أن يبذل لهنري شعائر مملكة الفرنجة الشرقيين (وهي الحربة المقدسة ، والقلائد الذهبية ، وسيف الملوك الغابرين ، والتاج الملكي) . ثم هتف به جيش الفرنج ملكاً ، بحضور جميع شعب الفرنجة والسكسون ، وعرض رئيس أساقفة ماينز على هنري أن يرسمه ملكاً ، ولكنه رفض ، واعتذر بأنه ليس جديراً بهذا الشرف . والواقع أن هذا الرفض لم يرجع إلى كراهيته للخضوع للكنيسة ، بل إلى كبريائه ، وإلى أنه لا يود أن يخضع إلى ما كان يعتبر أصلاً من تقاليد الفرنجة .

البيت السكسوني

تعتبر سكسونيا أقوى الدوقيات ،فلم تتأثر بالنظم الاقطاعية التي أخذت تنتشر من فرانكونيا إلى جنوب ألمانيا ،بل كانت اقليم ملاك الأراضي الأحرار من النبلاء وغير النبلاء . وتألف من هؤلاء الرجال جنود اقوياء ، أخلصوا لدوقاتهم . وبذا صار للملوك السكسون نواة قوية صلبة تستند إليها سلطتهم الملكية .

السلطة الملكية

لم يكد يتم اختيار هنري ملكاً ، حتى صار لزاماً علية أن يوطد سلطنه ، بأن يفرض الحقوق الملكية على الدوقات . ولم تكن هذه الحقوق سوى بقايا نظام الحكومة عند الفرنجة ، التي جرى اغفالها في عشرين سنة سابقة ، وهذه

الحقوق تتلخص في النقط الثلاثة الرئيسية التالية :

اولاً – لا بد من بذل المساعـــدة العسكرية للملك ، فليس الدوقات إلا قادة للملك (duces) ، ويعتبرون مسئولين عن تجنيد العساكر من دوقياتهم ، والتوجه بهم إلى المكان الذي يختاره الملك ، كما يتولى قيادتهم .

ثانياً – مسألة تعيين الكونتات والأساقفة ، الذين يعتبرون دعامتي الحكومة المحلية منذ زمن الميروفنجيين .

وكان أصرار هنري على حقه في هذا الأمر بالغ الأهمية ،نظراً لأن الدوقات نجحوا في السنوات الأخيرة في اغتصاب هذا الحق الملكي ، وكانوا يأملون في أنه متى تم لهم تعيين الموالين لهم ، صار بوسعهم السيطرة على حكومـــة دوقياتهم بأسرها .

ثالثاً – مسألة ضيعة الملك أو ماليته ، فلم تكن هذه الضياع مركزه في جزء واحد بالمملكة ، بل كانت مبعثرة في طول البلاد وعرضها ، ولذا كلما مضى الملك في أسفاره ،كان دائماً على اتصال وثيق بالضياع الملكية ، التي يستمد منها ما يلزم البلاط من المؤن. استطاع الدوقات ،قبل ظهور الأسرة السكسونية ،أن يغتصبوا لأنفسهم هذه الضياع الملكية ، ولذا كان متوقعاً أن يقاوموا كل محاولة لاستعادتها . على أن هنري ساعد كبار موظفي الكنيسة على استرداد الأراضي التي سبق اغتصابها زمن لويس الطفل ، واجاز لهم أن يمارسوا باملاكهم سلطة الكونتات .

رفض معظم الدوقات الانصياع لطلبات الملك هنري ، فكان لزاماً عليه أن يقاتل حتى يوطد سلطانه وسيادته . ولم يلق من فرانكونيا شيئاً من العداء ،

نظراً لأنه كان لدوقها ، ايفيرارد دور كبير في اختيار هنري ملكاً .

وفيما يختص بسوابيا ولوثارنجيا ، كان تدخله حاسماً ، إذ عين هنري أحد الفرانكونيين دوقاً على سوابيا ، بعد أن مات دوقهـا سنة ٩٢٦ ، وأضاف لوثارنجيا إلى املاكه بعد أن كانت تابعة لمملكة الفرنجة الغربيين . على أنه لم يحرز نجاحاً كبيراً في بافاريا ، ولم تسفر حروبه مع دوقهـا إلا عن قبوله مـا عرضه الدوق من الخضوع الشكلي ، بأن اقسم الدوق أرنولف يمين الولاء له ، وفيما عدا ذلك ظل ينعم بالاستقلال الفعلي ،فكان يؤرخ وثائقه الرسمية بسنوات حكمه ، ويقوم بتعيين الكونتات والأساقفة بدوقيته .

ظلت الحروب الأهلية مستمرة في السنوات الستة الأولى من حكم هـنري ولم تتوقف إلا بسبب غـارات المجريـين التي تجددت عـلى نطاق واسع سنة ٩٢٤ . والواقع أن هذه الغارات كانت اختباراً قاسياً لهنري وقدرته على المحافظة على السلطة الملكية . إذ وجه اهتمامه أول الأمر إلى الدفاع عـن سكسونيا ، لا المملكة ، لأن التزامه بالدفاع عنها ، باعتباره دوقاً لها ، لأكثر أهمية عنده من الدفاع عن المملكة . غير أنه لما اكتملت لهاسباب الدفاع عن سكسونيا سنة ٩٣٣ ، وأعد جيشاً مدرباً من الفرسان ، وجـد في بناء القلاع الخشبية المشحونة بالعساكر ، أنزل بالمجريين هزيمة ساحقة عـلى نهر اونسترت غربي ليبزج الحالية سنة ٩٣٣ . وفي السنة التالية حارب الدانيين، فردهم إلى نهر الأودر ، فكلل بيته بغار المجد ، ونفخ في شعبه روح الأمـل في المستقبل ، ونظرت إليه الشعوب الألمانية على أنه ملك كفء قدير ، وهتف بـه الجيش أمبراطوراً . وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أنه فكر في زيارة روما ، حتى يميد الأمبراطورية ومجدها ، غير أنه مات سنة ٩٣٦ ، قبل أن يتحقق شيء من هذه الآمال .

أوتو الأول الكبير (٩٣٦ – ٩٧٣)

المعروف أن الحكم لم يكن وراثياً ، على الرغم من أن هنري رشح أكبر أبنائه ،أوتو ، ليخلفه على الحكم،على الأقل باعتباره دوقاً لسكسونيا ، غير أنه لابد أن يتبع ذلك انتخاب من قبل الشعب ، من السكسون والفرنجة ، ليكون أميراً عليهم ، ومع ذلك فإن هذا الانتخاب لا يجعله يظفر بالمملكة ، ولذا كان لابد من اجراء انتخاب عام بكنيسة آخن ، اشترك فيه الدوقات وكبار الكونتات وسائر الفرسان ، الذين رفعوه إلى العرش واقسموا له يمين الولاء ، وبذا جعلوه ملكاً على طريقتهم الخاصة ، بينما تولى رئيس اساقفة ماينز تقديمه إلى الناس في جزء آخر من الكنيسة ، وطلب إليهم اقرار الحقيقة الواقعة ، فهتف الناس له ، وقلده رئيس الأساقفة شعائر المملكة ، ثم مسحه بالزيت المقدس وأقامه على العرش ، وهذا الاحتفال يوحي بما حدث زمن شارلمان . وأعلن الدوقات انصياعهم للملك ، فاعتبروا أنفسهم موظفين ببلاطه وداره . غير أن ذلك الخضوع لم يكن حقيقياً ، إذ لم يلبث الدوقات أن تمردوا على أوتو حينما شرع في ممارسة سلطاته ، وكان لزاماً على أوتو أن يجرد الحملات لاخضاعهم .

وعلى الرغم من انتصار أوتو على الدوقات ، فإنه لم يستطع المضي في الانفاق على الحروب الأهلية ، فكان لا بد من تدبير وسيلة لاقرار السلام الدائم ، ولإضعاف سلطات الدوقات .

لم يكن بوسعه إلغاء نظام الدوقيات،لما ترتبط به الدوقيات من تقاليد تاريخية قوية ،ولأهميتها في الدفاع عن المملكة ،إذ أنها كانت أشبه بقيادات الأطراف (الحدود) حيث لوثارنجيا في الشمال الغربي ، وسوابيا في الجنوب الغربي ، يقابلها سكسونيا في الشمال الشرقي، وبافاريا في الجنوب الشرقي. أما فرانكونيا فكانت الدوقية الوحيدة التي ليس لها تقاليد قوية أو أهمية دفاعية كبيرة ، ولذا

ألغاها اوتو فعلاً سنة ٩٣٩ ، بعد أن قمع ثورة دوقها ، وأضافها إلى التاج مباشرة. وكيا يضبط أوتو الدوقيات الأخرى، كان لابد من اعتبارها أقاليم تابعة للملك ، وليست ممتلكات وراثية ، وشجعه على ذلك أنه لم ترسخ أقدام أسرات الدوقات عند بداية القرن العاشر ، على الرغم من حرص كل دوق على أن يجعل حكمه وراثياً في أسرته إذا استطاع إلى ذلك سبيلا . لذا كان أوتو يرمي إلى وقف هذا الميل عند الدوقات ، بأن لجأ إلى عزل الدوقات وإحلال رجال من أسرات أخرى مكانهم ، ومن الطبيعي أن يكونوا من أسرته . وطبقاً لذلك ، منح دوقية بافاريا سنة ٩٤٧ لأخيه هنري ، وجعل سوابيا لأبنه الأكبر ، ليودولف ، وبذل لوثارنجيا لأحد الفرانكونيين ، اسمه كنراد ، وزوجه من أخته . وإذ كانت سكسونيا وفرانكونيا بيده ، أضحت كل الدوقيات خاضعة لرجال لم يرتبطوا به فحسب بيمين الولاء ، بل يمتون له أيضاً بصلة القرابة والنسب .

ومع ذلك فإن أوتو أدرك ما قد يتعرض له من تهديد من قبل أقاربه ، ولذا حرص على إقامة توازن بين الدوقيات ، حتى لا يفكر دوق في إعلان الثورة والتمرد عليه . على أن تحقيق ذلك لا يتم إلا بحل مشكلة الدوقيتين اللتين تقعان بالجنوب ، وهما سوابيا وبافاريا ، اللتان تتاخمان اقليماً ضعيفاً ، لكنه وافر الغنى والثروة (لومبارديا) . والمعروف أن دوقية لوثارنجيا تطل على مملكة الفرنجة الغربيين ، وتطل دوقية سكسونيا على الصقالبة ، بينما تسيطر دوقيتا بافاريا وسوابيا على ممرات جبال الألب ، التي تطل على سهل لومبارديا ، الذي اشتهرت مدنه بالثروة الضخمة ، بينما كانت حكومته أضعف الحكومات في أوربا ، فإذا نجح أحد الدوقات في السيطرة على هذا الإقليم الغني (لومبارديا) صار بوسعه أن يقلب رأساً على عقب توازن القوى في المانيا .

لم يكن الولاء الشخصي كافياً ، فما كان مطلوباً هو رابطة النظام العام . كان

ذلك هو السر في قيام أوتو بتجربة جريئة في حكومة لوثارنجيا ، بأن عهد بهذه الدوقية إلى أخيه الأصغر برونو ، (الذي كان من رجال الدين) ، وإلى رئيس أساقفة كلونيا ، إذ لم يجد ، فيما يبدو تعارضاً بين رياسة الأساقفة وحكومة الدوقية ، لأنه لم يعتقد في انفصال الكنيسة عن الدولة ، إذ إنهما ليسا إلا مظهرين مختلفين لمجتمع واحد . فلم يكن القاضي عند القديس بولس سوى خادم لله ، ينزل العقوبة بمن يرتكبون الشر [1] .

كتب أوتو إلى برونو :

أخي العزيز ، من العسير أن أعرب لك عن سعادتي البالغة ، لما نحس به دائما من اننا رجل واحد ، وشيء واحد ، وأن أهدافنا لم تختلف مطلقاً في شيء من أمور السياسة ، وهو الذي يهبني أعظم عزاء في غمرة متاعبي المريرة [2] ، حينما أرى الكهنوتية الملكية قد حلت بالأمبراطورية ، بفضل رعاية الله القوي ، إذ أنك تحوز كلا من الصفة الدينية والسلطة الملكية ، وبفضل ذلك تستطيع أن تؤدي لكل فرد ما يلزمه ، وهو العدالة ، وبوسعك أن تصمد لما اشتهر به أعداؤك من إثارة الخوف والخداع ، ويعتبرون ذلك قوة وعدالة .

غير أن لتنصيب أحد رجال الدين في وظيفة هامة بالدولة أهمية أخرى ، بالاضافة إلى المبادىء والمثل الدينية . ذلك أنه لا يستطيع أن يتزوج أو يقيم أسرة ، على عكس ما هو حادث عند العلمانيين ، الذين نزعوا في القرن العاشر إلى جعل كل الوظائف والممتلكات والحقوق وراثية . ومن الطبيعي أن يصادف

---

١ – لأنه خادم الله المنتقم ، الذي ينفذ الغضب على من يفعل الشر ، رسالة القديس بولس إلى أهل رومه ١٣ : ٤ .

٢ – يشير هنا إلى ثورة ليودولف .

الملك متاعب إذا حـــاول القضاء على هذه النزعة ، وليس بوسع الملك أن يبادر بالعداء للدوقات والكونتات بمملكته ، بأن يحرمهم من حق وراثة الحكم، غير أنه من ناحية أخرى لا يستطيع أن يتغاضى عما تزعمه الأسرة لنفسها من حق ثابت ، بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ، في دوقية أو كونتية .

نظام اوتو الحكومي

الواقع أن هذا النموذج المزدوج ، المثالي والتجريبي في وقت واحـد ، هو الذي شجع اوتو على اتخاذ ما يعرف بنظام اوتو الحكومي . ويتضمن هـذا النظام بصفة عامة ، أن يتولى الملك حكم مملكته عن طريق رجـال الدين ، فينبغي أن يقوم بتعيينهم . ولذا بذل أوتو للكنائس التي وافق على تشييدها ، المساحات الشاسعة من الأراضي ، ووهبها حق الإعفاء (الحصانة) ، من سيطرة الموظفين الملكيين ، كالدوقات والكونتات . وما تراءى أن الملك تنازل عنه من الحقوق ، يتمثل في أنه ليس لقضاة الملك أن ينظروا في القضايا الجارية باملاك الكنيسة ، وليس للكونت أن يدعو رجال الكنيسة لحضور محكمته ، كما أنه ليس لأحد من موظفي الملك أن يدخل أراضي الكنيسة أو يجبي منها الرسوم والإتاوات . إذ تعتبر الكنيسة معفاة من كل الالتزامات الدنيوية ، حتى يعتقد رجال الدين أن مملكة الله لم تتعرض للسوء .

غير أن للصورة وجهاً آخر ، فما من أحد يتصور أن تسلم حصانــة الدير ، لقوى الفوضى . فالملك لم يلغ سلطة الحكومة في داخل الأراضي المعفاة مـن الالتزامات ، بل سلمها لرئيس الدير ، الذي يشرف على اقرار العدالة ، وجباية الضرائب . وما بذله الملك أوتو للأديرة من حقوق ملكية ، لم تكن الحقــوق التي يمارسها فعلا ، بل كانت تلك التي يباشرها باسمه الكونتات ، فكأنه بذلك اضعف سلطات الكونتات .

ووفقاً لنظام أوتو ، استقر أساس جديد للإدارة في داخل الدوقيات والكونتيات القائمة فعلا ، إذ اعتقد الأساقفة ورؤساء الأديرة ، أنهم بتأدية واجبهم نحو الملكية ، إنما يخدمون مصالح الله والكنيسة ، فكانوا بذلك يعتبرون فئة مختارة من الرجال ، فضلاً عن كونهم موظفين حكوميين أكفاء . ودابت هذه الفئة على إحياء الفنون والآداب ، وإقامة ما يعرف « بنهضة اوتو » . إذ كان برونو القس الملكي والراعي الأكبر لكنيسة الملك ومستشاره ، ودوق لوثارنجيا يعتبر من العلماء البارزين ، لما اشتهر به من اقتناء المخطوطات التي تعالج الدراسات القديمة ، وكان يجيد اللغة اليونانية التي تعلمها على الرهبان اليونانيين في دير رايخناو Reichnau ، وشغف باصلاح الديرية ، وبذل جهداً كبيراً في تدريب أساقفة الأمبراطورية في المدرسة التي أعدها لهم . فلم يلقنهم فحسب النحو والبيان والجدل والحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، بل علمهم أيضاً فن تحصين المدن ، والاشراف على الاسواق . إذ لم يكن الغرض من الدراسات القديمة عنده إلا وسيلة للاستمتاع بالحياة الدنيا . وأكثر ما اهتم به ، هو دراسة التراث القديم ، فالتعليم عنده هو التعليم اللاتيني ، والأمبراطورية هي الأمبراطورية الرومانية . وتبعاً لذلك لم يعتبر حياة العالم متعارضة مع المسئولية الحكومية ، وقال مؤرخ حياته « رأيناه يقرأ بصوت مرتفع ، ويسدي النصيحة ، ويشترك في الجدل ، وشهدناه أيضاً في خط القتال ، أميناً في كل ما يبذله من الأمور ، أمام الله وأمام الناس ».

وخير مثال لاتجاهه ، نلحظه في قهر الونديين وتحويلهم الى المسيحية ، وكانوا ينزلون شمالي نهر الإلب وشرقيه . إذ أن كل مرحلة من مراحل الفتح الألماني ، اقترنت بإنشاء اسقفيات جديدة ، تقع كل منها في حصن ، وتشرف على الاقليم الذي ينبغي إخضاعه وتحويله إلى المسيحية . وما قام من الاسقفيات بين ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، حازت أوقافاً وحصانات (اعفاءات) وافرة . فلما نشب من حروب ضد

الصقالبة تعتبر حروباً مقدسة، شأن الحروب التي شنها ،قبل قرنين من الزمان، شارلمان على السكسون. وصار التعميد والتنصير يعتبر دليلاً على الخضوع للملك. فالدولة والكنيسة ليستا إلا مجتمعاً واحداً، ويعتبر الصقالبة الوثنيون أعداء لكليهما. وتبعاً لذلك، قام الأساقفة بحكم البلاد المفتوحة، فكانوا مبشرين وموظفين حكوميين في آن واحد.

وكان لا بد أن يكون الأساقفة ورؤساء الأديرة من أعوان الملك ورجاله، فلم تبذل الحصانات (الاعفاءات) إلا للكنائس الأمبراطورية، أو لتلك التي يعتبر الملك مؤسسها، أو وريثاً لمؤسسها، حتى يكون له بذلك الحق في اختيار الأسقف أو رئيس الدير،فيطمئن إلى ولائهما.وفي بعض الأحوال اعتبر الملك أملاك الكنائس والأديرة ملكاً له، فلا يجوز التصرف فيها إلا بعد موافقته، وكان لزاماً على الكنيسة أن تؤدي للملك كل سنة إتاوة عن هذه الأراضي. وطلب الملك حق الضيافة لنفسه ولرجال بلاطه، برغم كثرة عددهم. وطلب أيضاً أن ينحاز الأساقفة ورؤساء الأديرة بقواتهم إلى جيش الملك. فإذا صح القول أن شارل مارتل اذل الكنيسة وانتزع أراضيها وبذلها اقطاعات مقابل الحصول على الفرسان، فإن أوتو حرص على أن يزيد في ثروة الكنيسة كيما تمده بالفرسان.

على أن بعض المشاكل لم تلبث أن ظهرت في نظام أوتو، ومن أهمها أنه ليس بوسع أوتو أن يفرض سلطانه على بعض الأساقفة الأقوياء، مثلما حدث مع فروديك رئيس أساقفة ما ينز، الذي أنكر تدخل الملك في أموره الكنسية، فأدرك أوتو ما يتعرض له نظامه من خطر. ومع أن باستطاعته أن يعين الأساقفة، فإنه ليس بوسعه أن يفصلهم. فكان لزاماً عليه أن يقيم توازناً للقوى بين رجال الكنيسة مثلما فعل بين الدوقيات؛ وذلك بالتماس مساندة كنيسة روما ومساعدتها، ومنع التوسع في بذل الأراضي للكنائس. على أن من

الكنائس والأديرة ما لم تكن في متناول الرجل العلماني ، بل خضعت لسلطان البابا ، فقد يجعل البابا ديراً من الأديرة تحت رعايته ، فيعفيه من سيطرة الأسقف أو رئيس الأساقفة ، نظراً لأن مؤسسيها أو رؤساءها ، حظوا بتقدير البابوية . وحرص أوتو على أن تسخو البابوية فيما تبذله من المنح والاعفاءات للأديرة والكنائس ، وترتب على ذلك أن بعض الأديرة حصلت على اعفاءات من قبل الملك والبابا ، وبذا تجنبت سلطة الكونتات والدوقات والأساقفة .

وفي هـــذه الأحوال ، ينظر رئيس الدير في كل الأمور ، ولا يخضع إلا لسلطان الملك . وتعتبر مساندة البابوية جوهرية لهذا النظام . فلا عجب إذا اقتفى أوتو خطوات شارلمان ، بأن يتوج امبراطوراً ، وأن يحظى بمكانة خاصة تجعله حامياً للبابوية .

التوسع الألماني

١ـ وبالإضافة إلى ما قام به اوتو من توطيد قواعد الملكية وأصولها بداخل البلاد ، حرص على أن يمد أطرافها إلى الشرق فأنزل هزائم عديــدة بالمجريين ، أهمها المعركة التي دارت على نهـر ليخ ، قرب أوجزبرج ، سنة ٩٥٥ ، حيث حلت بهم هزيمة ساحقة حاسمة ، فارتدوا إلى سهل المجر وأقـــام أوتو ثغر اوستريا ، لحماية وادي نهر الدانوب ، من شرورهم . وجرى الهتاف لأوتو بأنه منقذ العالم المسيحي ، ولما جرى تنصيبه أمبراطوراً فيما بعد ، كان أساس شهرته هو أنه أنقذ فعلاً العالم المسيحي من المجريين .

٢ـ أما في أقصى الشمال ، فإنه بفضل مساعدة سادة سكسونيا وكبار موظفي كنائسها ، استطاع أوتو أن يقهر الصقالبة في البلاد الواقعة بين نهري الألب والأودر . وللاحتفاظ بهذا الإقليم ، شيد المدن الحصينة التي شحنها بالنزلاء الألمان ، وأقام

الأسقفيات ، وألزم الصقالبة ، بعد قهرهم ، بأن يؤدوا ضريبة العشور إلى الكنيسة . ولما نشأت رئاسة أسقفية مجدبرج لم يتعين حدها الشرقي ، فاستطاع فيما بعد أن يضم إليها البلاد التي تم انتزاعها من الصقالبة . غير أن هذا التوسع في شمال ألمانيا ، لم يكن ثابتاً . فحينما انصرف أخلاف أوتو إلى مشاكل إيطاليا ، أعلن الصقالبة الثورة ، وطردوا المستعمرين الألمان من العلمانيين ورجال الدين ، من كل الجهات ، باستثناء الجزء الذي يقع بأقصى جنوب البلاد المفتوحة ، وهو المعروف بثغر ثورنجيا ، حيث توافرت المدن الحصينية المنيعة ، غير أن ذلك لم يضعف أهمية أعمال أوتو .

٣ـ الواضح أن ألمانيا أضحت زمن الملوك السكسون أقوى دولة في غرب أوربا. ومن الطبيعي أن يتطلع ملوكها للسيطرة على ما تبقى من مملكة لوثار ، كإيطاليا والبلاد الواقعة على الحدود الفاصلة بين ألمانيا والمملكة الغربية . ولم يعتبر ذلك أطماعاً توسعية ، إذ أن ما كان للملوك الألمان من سلطة ملكية ، تركزت في الشمال في سكسونيا وفرانكونيا . فإذا استطاع بيت منافس ، ولا سيما إذا كان دوق سوابيا أو دوق بافاريا ، أن يضيف إليه إيطاليا ومملكة برجنديه ، ففي وسعه أن يجعل له في الجنوب مركزاً يهدد منه سلطة الملوك السكسون . على أن هذا التهديد أضحى حقيقة واقعة ، في سنة ٩٢٦ ، حينما حاول رودولف ، ملك ايطاليا وبرجنديا ، أن يخلف صهره في دوقية سوابيا . فلما مات رودولف ، حلت الفوضى ببلاده ، ونشبت الحروب الداخلية بين المتنافسين على حكم الدوقية ، فامد كل من دوقي سوابيا وبافاريا أطراف بلاده صوب الجنوب ، وترقب الفرصة لا نتزاع إرث رودولف أو جانب منه . ومن الطبيعي أن يوقف أوتو هذه المحاولة . فاستولى على برجنديه باسم كنراد بن رودولف ، الذي حكم هذه المملكة على أنه تابع لأوتو ، ثم غزا ايطاليا ذاتها سنة ٩٥١ ، فانتزع لومبارويا وتوج نفسه ملكاً عليها ، وتزوج من ابنة رودلف. كانت هذه هي الحملة الأولى التي وجهها أوتو إلى ايطاليا ، وتعتبر نقطة تحول

في تاريخ حكمه ، لأنها تعيد ذكريات ما حدث زمن شارلمان ، قبيل تتويجه .

على أن هذه الحملة زادت في خلق المشاكل ولم تحلها ، لأنها أدت إلى ثورة ليودولف ابن أوتو ، ودوق سوابيا ،الذي لم يتهيأ له أن يحقق أطماعه في ايطاليا ، فتآمر مع كل الساخطين ، أمثال دوق لوثارنجيا ، وكونت بلاتين ، ورئيس أساقفة ماينز ، فاثاروا المتاعب لأوتو ، ولم يستسلموا إلا بعد أن دهمتهم غارة جديدة للمجريين .

الأمبراطورية الرومانية المقدسة

لما قام أوتو بحملته الأولى على ايطاليا ، سنة ٩٥١ ، أرسل سفارة إلى البابا ، تطلب منه أن يتوج أوتو في روما أمبراطوراً ، غير أن البابا رفض هذا الطلب. على أن الفرصة تهيأت لاوتو فيما بعد ، بصورة أشبه بتلك التي حدثت لشارلمان. ففي سنة ٩٥٩ وقع صدام بين البابا يوحنا الثاني عشر ، وهو ابن أحد كبار النبلاء بروما ، وبين برنجار ملك فريولي ألد أعداء أوتو. ولما تحرج مركز البابا ، لم يسعه إلا أن يلتمس المساعدة من أوتو ، فنهض لمساندته سنة ٩٦١ ، وأنزل الهزيمة بأعداء البابا . وبذا تكررت القصة ، إذ أن قدوم الفرنجة إلى ايطاليا ، لأول مرة ، كان الغرض منه حماية ممتلكات البابوية من اعدائها بايطاليا .

وفي ٢ فبراير سنة ٩٦٢ قام البابا يوحنا الثاني عشر بتتويج أوتو أمبراطوراً في كاتدرائية القديس بطرس بروما . ولم تنقض على التتويج عشرة أيام ، حتى وقع البابا والأمبراطور وثيقتين ، بالغتي الأهمية : كانت الأولى وثيقة بابوية أصدرها يوحنا الثاني عشر أجاز فيها إنشاء رئاسة أسقفية في مجد برج .

أما الوثيقة الثانية ، وهي المعروفة بوثيقة أوتو ، فقد أكد فيها الأمبراطور ،

منحتي ببين وشارلمان ، واعترف باستقلال الامارة البابوية ، وعين حـدودها وأضحى أوتو رسمياً المدافع عنها . غير أنه وقع منذ البداية شيء من سوء الفهم للعبارة الأخيرة ، فإذا كان أوتو حريصاً عـلى ألا يعطي لأساقفته مـن الاعفاءات (الحصانات) إلا تلك التي تعتبر جانباً من مملكته ، تعذر عليه أن يفهم فكرة استقلال الامارة البابوية ، وتجلى ذلك حينما مضى أوتو للاستيلاء على المعاقل الأخيرة التي لا زالت بحوزة بيرنجار ، فطلب إلى سكان الإمارة البابوية ألا يحلفوا يمين الولاء للبابا ،بل له وحده،ولم يسمع أوتو لاحتجاج البابا، وقال : « كيف نسترد هذه الأراضي للبابا ، ما لم ننتزعها أولاً من أيـدي الأشرار ونجعلها تحت سلطاننا » .

الواضح أن أوتو أدرك أن البابا حاز إرث القديس بطرس على أن يكون هذا الإرث (الامارة) من توابعه ، بينما ظن البابا غير ذلك . فلم يلبث البابا أن انحاز إلى جانب برنجار ، والتمس المساعدة من الأمبراطورية البيزنطيـــة والمجريين .

ومن الطبيعي أن يتهم الأمبراطور البابا بالخيانة ،لأنه حنث في يمين الولاء التي حلفها على رفاة القديس بطرس ، ولأنه طلب المساعدة من أعداء العـالم المسيحي ، وأصر أوتو على عزل البابا ، ودعوة مجمع يحضره الأساقفة في روما .

على أن البابا يوحنا الثاني عشر هرب إلى تيفولي ، وجرى اتهامه غياباً بأنه رسم شماساً في اسطبل ، في وقت غير مناسب ، وأنه حول داره إلى حانة ، وأنه اشهر سلاحه علناً ، ومارس الصيد ، والتمس العون من الإله جوبيتر (المشتري) والالهة فينوس (الزهرة) ، أثناء لعب النرد » ، فقرر المجمع الذي تولى أوتو رئاسته عزل يوحنـــا الثاني عشر في ٤ ديسمبر سنة ٩٦٣ ، واختيار أحد العلمانيين ، وهو كبير الموثقين بروما ، ليكون البابا ليو الثامن . وجدد أوتو معه الاتفاق الذي سبق أن عقده مع سلفه ، غير أنه في هذه المرة

أضاف نصاً يقضي بأنه لا يجوز مستقبلاً رسامة بابا ، مـــا لم يبذل يمين الولاء للأمبراطور ، وبذا أضحت البابوية تلتزم القواعـــد التي ينطوي عليها نظام حكومة اوتو . وتحتم على البابا أن يكون صنيعه الأمبراطور ونائباً عنـــه ، وأضحى الأمبراطور ملكاً على العالم المسيحي .

كان ذلك عودة إلى مبدأ شارلمان ، غير ان الانقلاب لم يتم في سهولة ويسر ، ذلك أن البابا يوحنا الثاني عشر ما زال ينعم بالحرية . فلم يكد أوتو يغادر روما حتى عاد يوحنا اليها ، ودعا إلى عقد مجمع ديني ، ألغى كل ما صدر عن المجمع السابق من قرارات ، ونهض أهل روما لمساندته ، وهرب البابا ليوا الثامن . ولما مـات يوحنا سنة ٩٦٤ ، رفضوا احلال ليو مكانـــه ، فاختاروا باباً آخر ، اشتهر بالفضيلة والعلم ، وهو بنيدكت الخامس . فاستبد الغضب بالأمبراطور ، واعتبر ما حدث تحدياً لليمين التي بذلها أهل روما بانه لا يجوز انتخاب البابا أو رسامته إلا بموافقته ، فقدم الى روما وأعـاد رجله (لبو الثامن) إلى البابوية ، ونفي بنيدكت إلى المانيا ، وبذا اكتملت لأوتو السلطة على روما ، وتحطمت مقاومة رجال الدين والنبلاء بها .

وكتب راهب بالمدينة :

« ويل لك يا رومـــا ، لقد تعرضت للدمار والهـــوان من شعوب عديدة ، لقد اذلك ملك سكسوني ، وجرى على قومـــك القتل ، وتبددت قوتك هباء » .

على أن بيزنطة لم تقف ساكنة إزاء ما تعرضت له روما من الهوان ، فارتاعت لموقف أوتو من أهل روما والبابوية ، واعتبرت اتخاذه لقب امبراطور اغتصاباً حقيراً . إذ أن الأباطرة البيزنطيين يعتبرون وحدهم أخلاف أغسطس قيصر ، وليس في نيتهم أن يعترفوا بملك متبربر ، أوتو ، قسيما لهم في الحكم . يضاف

إلى ذلك أنه تهيأت لهم الفرصة لأن يثيروا عليه المعارضة ، لأنهم ما زالوا يملكون اقليمي ابوليا وكالابريا بجنوب ايطاليا . وكان لزاما على أوتو عندئذ إما أن يطرد البيزنطيين نهائياً من إيطاليا ، وإما أن يحملهم على الاعتراف به أمبراطوراً . وتحقق له هدفه الأخير قبل سنة من نهاية حكمه ، إذ اعترف به الأمبراطور يوحنا زمسكيس أمبراطوراً ، وأرسل إليه أميرة بيزنطية ، ثيوفانو ، لتكون عروساً لابنه أوتو الثاني ، وتم الاحتفال بزواجها في روما سنة ٩٧٢ .

ولم يعد أهل روما ورجال الدين بها يعتبرون أوتو ملكاً سكسونيا مغتصباً ، بعد أن اعترف به أمبراطوراً على الرومان ، الأمبراطور البيزنطي ، يوحنا زمسكيس .

واختلف المؤرخون في أهمية احياء الأمبراطورية الرومانية . فاعتبرها فريق من المؤلفين الألمان موضع الفخار ، فاشادوا بما رتبه هنري الصياد من أسس الدفاع المشترك ، والنهوض السياسي في سكسونيا الألمانية ، فمهد بذلك لأبنه أوتو كيما ليصبح زعيم الشعوب الألمانية جميعاً ضد المجريين ، ثم ينقذ إيطاليا من الفوضى التي سادتها ، ويعيد على البابوية احترامها في غرب أوربا ، وكل ذلك حين تردت اوربا في حضيض الفوضى والانحلال . فاعتبر هذا الفريق من المؤلفين ، أن احياء الأمبراطورية لم يكن ضرورة أوربية فحسب ، بل ضرورة المانية كذلك ، ويخالفون بذلك النظرية القائلة بأنه جرت التضحية بالألمان من أجل التعلق بالشئون الإيطالية ، بل يقولون بأن الألقاب الأمبراطورية جعلت للملك الألماني مقاماً لا في شعبه فحسب ، بل في غيره من الشعوب ، إذ ساعدت هذه الألقاب على تنمية الروح القومية والعزة في المانيا ، وأنها كانت الوسيلة التي ضمنت اخلاص الكنيسة الألمانية لخدمة الملوك الألمان .

ومع ذلك فإن احياء الأمبراطورية كان وبالا على الألمان ، إذ أن مساحة

المانيا غدت أوسع بكثير مما يقوي على ضبطه ملك في العصور الوسطى ، فلما اضيفت ايطاليا الى تلك المساحة الألمانية الواسعة ، أضحى الحكم العادل في الاثنتين(المانيا وايطاليا) ، مستحيلا ، ونتج عن ذلك أن ملوك الألمان أخذوا يبنون سياستهم على أسس شائخة، حتى إن المانيا التي بدت في القرن العاشر الميلادي أقوى أجزاء أمبراطورية شارلمان لقيام مملكة متحدة ، صارت في القرن الثالث عشر اتحاداً مهلهلا من كثرة ما به من الأمارات .

ومما اسهم في تلك الكارثة السياسية أن الملكية في المانيا بقيت مستندة إلى الانتخاب ، ولم يكن من مصلحة البابا والدوقات الألمان ، أن يصبح للملكية الألمانية من القوة ما سوف يضفيه عليها مبدأ التعاقب بالوراثة ، فبقى مبدأ الانتخاب ، ولم يسمح الناخبون لأية أسرة من الأسرات أن تبقى فترة طويلة في الأمبراطورية ، فحلّ الساليون محل السكسونيين ، ثم حل الهوهنتتناومن مكان الساليين . ولم تستقر الأمبراطورية في عاصمة ما إلا بعد تجارب كثيرة ، تنقلت أثناءها إلى أطراف بعيدةمثل بالرمو في صقلية وبراهة في تشكوسلوفاكيا الحالية ، حتى استقرت آخر الأمر في فينيا .

ومن ذلك يتضح أيضاً الاختلاف بين أمبراطورية الألمان والأمبراطورية البيزنطية التي قامت على أساس ثابت في عاصمة حصينة ، تخضع لسلطانها كنيسة القسطنطينية ، فلم تتوافر لأوتو وأخلافه واحدة من تلك المزايا ، بل ظلّ امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، في الأمة الألمانية ، حائراً يتنقل في حاشيته من ضيعة إلى ضيعة ، ومن ناحية إلى أخرى ، فيجلس في اسفاره للحكم في القضايا الإقطاعية التي ترفع إليه ، ويقضي فيها بمعونة المحيطين به من رجال الدين والأعيان ، على حين تكون روما تارة في يد البابا ، وتارات في يد عصبة من الأعيان الرومان الذين طالما وقعوا في الضلال والفساد .

واذا قامت الأمبراطورية المقدسة نظريا على قاعدة عالمية ، لم يحدث أن

أمبراطوراً امتد سلطانه إلى فرنسا أو اسبانيـا او انجلترا ، أو اسكنديناوه ، أو روسيا ، أو بممتلكات الأمبراطورية البيزنطية الواسعة ، بل تعينت سلطة أوتو بما حاطها من أطراف تلك البلاد المختلفة . لذا كان إحياء الأمبراطورية من أهم ما أثر في شئون الشعبين الألماني والايطالي ، وفي احوال البابوية ، فضلا عن تطورات الحياة السياسية في أوربا ، ومصائر الشعوب السلافية بأواسط أوربا . ففي أوربا الوسطى تشكلت الأحداث السياسية ، وتأثر الجدل السياسي ، بهذه الأمبراطورية التي لم تؤثر في سائر أنحاء أوربا إلا قليلا ، بل بدا الأمبراطور الرومـاني المقدس أجنبياً ، ليس بين ألقابه ومزاعمه وسلطاته شيء من الترابط والانسجام .

مات أوتو الأول سنة ٩٧٣ ، وظن الناس أن امبراطوريتـه سوف تختفي بوفاته ، مثلما حدث لأمبراطورية شارلمان ، غير أن امبراطوريته عاشت بعده واضحت المظهر السائـد في أوربا العصور الوسطى .

فما أقامه أوتو من نظام للحكومة بلغ من القوة ما جعله يقاوم أشد مـا تعرض له من صدمات . وقد حفلت السنوات الأخيرة من عهد ابنه أوتو الثاني (٩٧٣–٩٨٣) ، بالأحداث الخطيرة فحينما حاول استرداد جنوب ايطاليا من بيزنطة ، تعرض لعداء المسلمين بصقلية فانزلوا به هزيمة ساحقة ، سنة ٩٨٢ . وبلغ من ذيوع خبر الهزيمة ، أن تشجع الصقالبة ، فنهضوا للقتال ، فاستعادوا البلاد الواقعة بـين نهري الأودر والإلب ، ودمروا الكنائس ، وعادوا الى عبادة آ لهـة الوثنيين ، سنة ٩٨٣ ، فكانت تلك أفجع كارثة تعرض لها أمبراطور يعتبر واجبـه الأول ، الدفاع عن العالم المسيحي وحمايته من الوثنيين .

مات أوتو الثاني ، سنة ٩٨٣ ، وخلفه على الحكم طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره ، وفي هذه الحالة كان يصح أغفال ما لهذا الطفل من دعاوي في التاج ، نظراً لأن مبدأ الوراثة لم يتحقق بعد . غير أن ما كان للأسرة من مكانـة ،

وما للحكومة التي أقامتها الأسرة من قوة ، أدى آخر الأمر إلى اختيار اوتو الثالث ليخلف أباه على الحكم (٩٨٣ — ١٠٠٢) . وما هو جدير بالذكر أنه تقرر اختيار أمه وجدته لأبيه للوصاية على العرش أثناء حداثته . والمعروف أن أمه كانت الأميرة ثيوفانو البيزنطية التي تزوجها أوتو الثاني ، أما جدته فكانت اديلايد ، واشترك معهما في إدارة شئون البلاد رئيس اساقفة ماينز ، وظفرت هذه الوصاية بنجاح كبير ، كان تعبيراً عن تماسك الأمبراطورية ووحدتها .

واتسمت أعمال أوتو الثالث بما اقترن به شبابه من عاطفة قوية . ففي مجال الديانة أثار خياله الزهاد أمثال القديس ادالبرت الذي تولى التبشير بين البروسيين الوثنيين . وخضع اوتو لسلطان اكبر علماء عصره ، وهو مؤدبه الفرنسي ، جربرت ، من رهبان دير أوريـاك ، وحاز اعجابه رجال اصلاح الديرية ، أمثال القديس نيلوس في كلابريا (بجنوب ايطاليا) ، والقديس روموالد (رافنا) ، وإذا اشتد تأثير الدين في حياته ، كاد يتخلى في أحوال كثيرة عن الاضطلاع بأعباء الحكم ، وينصرف إلى حياة التقشف والزهـد ، ويسعى لتأدية الحج . وعين في منصب البابوية مؤدبه جربرت ، باسم سيلفستر الثاني (٩٩٩ —١٠٠٣) . وتمثل في أوتو الثالث ، (بعد أن انفرد بالحكم ٩٩٤ — ١٠٠٢) كل المظاهر المثالية للأمبراطورية ، فأضحت بيده السلطة كاملة ، ولما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره . وكان يطمع في تحقيق حلم احياء الأمبراطورية بالاشتراك مع البابا سيلفستر الثاني . وكان لهذا الاسم أهميته ودلالته ، فالمعروف أن البابا سيلفستر الأول هو الذي قام بتنصير الأمبراطور قنسطنطين ، حسبما تشير بعض الروايات . ونظراً لأن قنسطنطين نعت نفسه بأنه سوى الرسل ، اتخذ أوتو ألقاباً ذات صفة دينية ، فأطلق على نفسه خادم الرسل .

وعلى الرغم من أن أوتو اشتهر بالحماس الديني ، فانه أصر أيضاً على أن تكون أمبراطوريته رومانية ، إذ أخذ عن أمه البيزنطية التقاليد الرومانية

الأصيلة بعد أن اتخذت صفة يونانية شرقية في القسطنطينية . وأدرك أوتو أنه لأكثر رومانية من أبيه وجده ، لأنه ولد في فراش الأمبراطور من جهة أبيه وأمه .

كتب جربرت : « إنك لأمبراطورنا ، فأنت لأعلى نسباً وأشد أصالة بين اليونانيين،بل إنك لتفوق اليونانيين في حق الأمبراطورية،لا فحسب لأنك تحكم الرومان بحق الوراثة،بل أنك لتفوقهم جميعاً في الفكر والفصاحة » .

وحرص أوتو الثالث على أن يتخلص من جفاء السكسون وغلظهم ، فشيد لنفسه قصراً بروما التي اتخذها عاصمة له ، بعد أن كانت واحدة من مدن الأمبراطورية ، وسار على نهج ما اتصفت به بيزنطة من رسوم في بلاطها ، وأطلق على موظفيه بالبلاط من الأساقفة الألمان والايطاليين ، لقب اللغتينت المعروف في بيزنطة .وكانت اسماؤهم ترد أحياناً بالكتابة اليونانية ، لاعتقاده في حضارة اليونانيين وثقافتهم ، ورسم رأس الأمبراطور شارلمان على خاتمه ، نظراً لما اجتمع في شارلمان ما يتصل بالأمبراطورية من أفكار الفرنجة والمسيحيين والرومان وحج أوتو إلى ضريح شارلمان بآخن سنة ١٠٠٠.والواقع أن أمبراطورية أوتو استمدت قوتها من ذكرى شارلمان، فاعتقد الألمان أنه لا بد لهم أن ينجزوا ما بدأه شارلمان،وكان ذلك هو السر الذي جعل الأمبراطورية تعيش طويلاً على الرغم من أن كلا من أوتو الثالث وهنري الأول لم يترك عقباً يخلفه في الحكم ،لأن شعوب ألمانيا كانت مستعدة لبذل التضحيات ، واختيار الأباطرة الذين واصلوا العمل في بناء الأمبراطورية ، حتى تبقى تقاليد شارلمان والمسيحية وروما .

الأباطرة الساليون (الفرانكونيون)

بوفاة أوتو الثالث سنة ١٠٠٢ ، اختفى البيت السكسوني الحاكم ، وعلى

الرغم من أن هنري الثاني (١٠٠٢ – ١٠٢٤) الذي خلفه في الحكم ينتمي إلى البيت السكسوني ، فإنه كان رأس فرع سكسوني صغير ، وتركزت أراضيه ومصالحه إلى حد كبير في بافاريا ، وليس بوسعه أن يضمن ولاء السكسون له . فانصرف طوال حكمه إلى تدعيم مركزه في ألمانيا .

على أنه ينبغي هنا أن تولى الاهتمام لفئة من النبلاء سوف تقوم بدور كبير في السياسة الألمانية ،وتألفت هذه الفئة من كبار النبلاء الذين أطلق عليهم المؤرخون الألمان « الأمراء » Fürsten . ومع أن الملوك السكسون لجأوا لأن يزيدوا من قوة السادة الكنسيين لاضعاف شوكة الدوقات ، فإنهم عمدوا أيضاً إلى أن يتخذوا من العلمانيين المقربين لهم منافسين للدوقات ، فلم ينته عهد الملوك السكسون حتى أضحى بألمانيا عدد كبير من السادة الأقوياء ، الذين لم يكونوا دوقات ولا من السادة الكنسيين ، واختلفت طبيعة مراكزهم اختلافاً كبيراً ، فقد يحوز الواحد منهم أراضي شاسعة على سبيل المِلْك ، باعتباره أحد الكونتات ، ويفوز أيضاً باقطاعات بذلها له الأمبراطور أو أحد الدوقات ، ومثال ذلك أسرة ماجنوس بيلونج التي اشتهرت بما ملكته من الأراضي وبما حازته من اقطاعات من الأمبراطور أوتو الأول ، وأخذت تمد أملاكها رويداً رويداً حتى زعمت لنفسها حكم دوقية سكسونيا . وليست هذه الأسرة إلا نموذجاً لأسرات عديدة ، كل منها تحاول أن تزيد من ممتلكاتها وتحصل على امتيازات وحقوق في ولاية الحكم . ومع أن هؤلاء الرجال كانوا أشبه بالسادة الاقطاعيين في فرنسا من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، فإنهم لم يكونوا من القوة في تلك الفترة المبكرة ما كان للفرنسيين . ففي وسعهم أن يتصرفوا في أملاكهم كيفما شاءوا .غير أن الوظائف،كالتي كانت للكونتات، والتي تنطوي على حقوق ولاية الحكم والقضاء ، لم تكن وراثية في ألمانيا ، ولم يعترف الملوك أيضاً بوراثة ما بذلوه من اقطاعات. والواقع أن من أهم أهداف هؤلاء الأمراء ،

أن يجعلوا وظائفهم واقطاعاتهم وراثية ، دون أن يجعلوا لا تباعهم هـــذه الحقوق .

فلما مات هنري الثاني ، سنة ١٠٢٤ ، اختار النبلاء وكبار الكنسيين بألمانيا كنراد (١٠٢٤ — ١٠٣٩) المعروف بالسالي ، ودوق فرانكونيـا ، ملكـاً عليهم ، وكانت أمه ابنة أوتو الكبير . حاول كنراد أن يسترد ما فقدتـــه مملكة ألمانيا من بلاد أثناء انغماس الملوك السكسون في شئون ايطاليـا ، وأثناء حكم هنري الثاني الضعيف . على أن ابنه هنري الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦) أخذ يوطد السلطة الملكية على أساس سليم . إذ أدرك هنري الثالث أن الإقطاعات الكنسية ليست اساساً قوياً تستند إليها الملكية ، فاضحت الحاجـة ماسة إلى التماس مركز ثابت قوي للسلطة الملكية مثلما فعل أوتو الأول في سكسونيا، كما أن الحكومة القوية تحتاج إلى موظفين علمانيين موالين للملك، وإلى قدر كبير من الموارد المالية .

والمعروف أن الأسرة السالية كانت تحكم دوقية فرانكونيا ، وحـازت أملاكاً شاسعة في سوابيا ، فإذا استطاع الملك السالي أن يضيف إلى هـــذه الأراضي ، جنوب سكسونيا وثورنجيا ، صارت له السيطرة على جوف ألمانيا . شرع هنري الثالث في إقامة قلاع في ثورنجيـا ، وجنوب سكسونيـا ، وفي شحنها برجال غير أحرار (ministers)من املاكه في سوابيا ،اشتهروا بالولاء له وخدمـة مصالحه ، ولم يحفلوا بنبلاء السكسون الذين قاوموا امتداد سلطة الملك . وبفضل مساعدتهم انتزع هنري حقوق الدوقات بجنوب سكسونيا ، فأثار ذلك نبـلاء سكسونيا الذين ظلوا زمناً طويلاً مستقلين عن سلطة الملك .

واشتهر هنري الثالث بكفايته ، وإدراكه لأهمية وظيفته باعتباره ملكاً

وأمبراطوراً . فإذا قدر أهمية الكنيسة في الكيان السياسي لمملكته ، فإنـــه أدرك أيضاً كفايتها في مباشرة واجباتها الروحية . ولذا رحب بمن كان في بلاده من ممثلي حركة الاصلاح الكلوني [1] ، وساندهم في اصلاح الأديرة الألمانيـــة ، وشجع أيضاً اعضاء المجلس البابوي الذين تشبعوا بفكرة الإصلاح ، وأرادوا أن يتخذوا من البابوية أداة لاصلاح الكنيسة بأسرها ،والواضح ان هنري لم يدرك ما تنطوي عليه سياسته من خطر . إذ كانت الأهداف الأولى لدير كلوني منذ البداية ، ترمي إلى تخليص الكنيسة من كل سيطرة علمانية ، وكان على دعاة الحركة الكلونية ، عاجلاً أو آجلاً ، أن يقاوموا ما حدث فعلا من اعتبـــار كبار الكنسيين الألمان موظفين ملكيين،اختارهم الملك وقلدهم شارات وظائفهم، غير أن هنري لم يدرك ان ما ينشده من إصلاح ، إنما قصد به أساس نظامه السياسي .

على أن حكم هنري الثالث ولد مصادمات خطيرة في سياسة الأمبراطورية . إذ أصر المصلحون من اعضاء المجلس البابوي على ازالة ما للملك من سلطان على كبار الكنسيين ، وارتاع النبلاء والأحرار السكسون لما أقامه الملك في أراضيهم من قلاع ، ولما احياه من رسوم ومقررات ، جرى اغفالها منذ زمن طويل ، ولاستقدامه رجاله بسوابيا الذين اعتبروهم شعباً مغلوباً عـــلى أمره . واضطر الأمراء بألمانيا إلى الإنصياع للملك ، الذي حرص على تقويض استقلالهم الذي حققوه زمن الملكين السابقين . يضاف إلى ذلك أنه لما تولى هنري الرابع الحكم (١٠٥٦ — ١١٠٦) بعد وفاة ابيه ، كان لا يزال حدثاً صغير السن ، فخضعت المملكة لحكم أوصياء عديدين،وتولى البابوية وقتذاك اجرأ المصلحين الكلونيين وأكثرهم حماساً ، وهو هلد براند الألماني ، الذي صار يعرف بالبـــابا جريجوري

---

(١) انظر الفصل التالي .

السابع . وعزم جريجوري على أن يضع حداً لما يقوم بـــه العلمانيون من تعيين الموظفين الكنسيين وتقليدهم بشارات وظائفهم ، يضاف إلى ذلك أنه هو الذي اذاع الفكرة الجديدة عن سلطة الملك . إذ ظلت الكنيسة قروناً عديدة تعتبر الملك ، نائباً عن الله ، في حكم الناس ، وأن رسامته ومسحه بالزيت المقدس يجعل له طابعاً مقدساً ، ولا يعتبر مسئولاً إلا امام الله. وليس للملك إلا أن يحافظ على الأمن ، وأن يراعي ضرورة اطاعة أوامر الكنيسة ، فإذا أعلن العصيان ، فمن واجب البابا أن يعزله من منصبه .

لم يكد هنري يبلغ سن الرشد، حتى واصل بكل عزم وقوة ، سياسة أبيه، فاختار جوزلار بجبال الهارتز بجنوب سكسونيا لتكون عاصمة له . وشيد بها قصراً فخماً، وأكثر من تشييد القلاع في الجهات المجاورة، واستقدم عدداً اضافياً من رجاله غير الأحرار ، وزاد في الاصرار على انتزاع ما كان للدوقات من مقررات ورسوم ، فهب السكسون ثائرين، غير أن الأمراء خشوا سلطة هنري ، وبذلوا له المساعدة . فاستطاع هنري أن يقمع الثورة ، واشتدت قبضة الملك على جنوب سكسونيا ، فإذا نجح في توطيد مركزه ، لكان ذلك خطوة كبيرة في ازدياد قوة الملكية . إذ ان فرانكونيا ، وثورنجيـا وجنوب سكسونيا ، تعتبر قلب ألمانيا ، وقاعدة مثالية لسلطة ملكية قوية ، كما ان مناجم الفضة الغنية الواقعة بالقرب من جوزلار ، تهيء له الحصول على المال اللازم لاقامة نظام حكومي قوي .

وكان بوسع هنري ان ينجح في مشروعاته لاقامة ملكية المانيـــة مركزية قوية ، لو لم يصطدم بالبابا جريجوري السابع . إذ ان البابا اصدر قراراً بحرمان

هنري من الكنيسة ، لأنه لم يحفل باوامره عن انتخاب الأساقفة [1] فتهيأت للفرصة للسكسون والأمراء لأن يعلنوا الثورة ، فصرحوا بأنه ما لم يسترض هنري الكنيسة ، فسوف يختارون ملكاً جديداً . على أنهم حرصوا ألا يتم هذا الوفاق ، فاشتدت مراقبتهم لممرات جبال الألب ، غير ان هنري الرابع استطاع ان ينفذ إلى لومبارديا ، وأن يحشد انصاره بها ، ويظفر بعفو البابا بعد ان أذل نفسه في كانوسا . غير ان كل ذلك لم يسو المشكلة ، فليس في نية هنري التخلي عن السيطرة على الكنيسة الألمانية ، ورفض البابا جريجوري الوفاق ، وحرص أعداء هنري بألمانيا على الإفادة من النزاع بين الأمبراطور والبابا .

ونجم عن الحروب الداخلية العنيفة التي دارت أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر ، ان ظهرت ألمانيا أخرى، بالغة الاختلاف عن المانيا السابقة . إذ أخذ الأمراء يوطدون سلطانهم في جميع ارجاء المملكة ، فاغتصبوا الوظائف والإقطاعات ، وصارت تنتقل من الآباء إلى الأبناء ،واكثروا من بناء القلاع في بلادهم ، وشحنوها برجالهم غير الاحرار ، المعروفين بالولاء لهم . وامتدت روح الاغتصاب إلى الكيان السياسي ، إذ أن صغار السادة الاقطاعيين والفرسان ، اجبروا صغار الأحرار على ان يكونوا اقنانا ، وساد نظام البارونيات في جميع انحاء المانيا ، فأخذت السلطة الملكية وما أقامته من قواعد ، تختفي رويداً رويداً . بل إن كبار الكنسيين نزعوا إلى الالتجاء إلى الأمراء المجاورين لحمايتهم .

---

(١) انظر الفصل التالي .

واستطاع الأمراء آخر الأمراء ، أن ينتزعوا ، اثناء هذه الفوضى ، وظيفة الكونتات وما يرتبط بها من ولايات وحقوق ، وبذا عمت النظم الاقطاعية البلاد ، وأضحى صغار السادة اتباعاً للأمراء ، وحرص الأمراء على ان يجعلوا مناصبهم وأملاكهم اقطاعات وراثية . وعلى الرغم من ان المانيا ظلت نحو قرن محافظة على قواتها ، فإن ظهور الأمراء دمر المملكة الألمانية .

الفصل الرابع عشر

إصلاح البابوية

الكنيسة في القرن العاشر الميلادي

خرجت الكنيسة بالغة الضعف ، بعد غارات الفيكنج والمجريين والمسلمين ، إذ اختفت الأديرة بانجلترا ، وهوى رجال الدين إلى الدرك الأسفل من التهذيب والتعليم ، وجرى ذلك أيضاً في فرنسا . أما كبار موظفي الكنيسة فلم يختلفوا كثيراً عن الفرسان في أسلوب حياتهم ، ولم تتغير الصورة كثيراً في المانيا، يضاف إلى ذلك أن السادة الاقطاعيين العلمانيين ، في دولة الفرنجة ، أفادوا من الفوضى الناشبة ، في اغتصاب أراضي الكنيسة . كانت أحوال البابوية بالغة السوء ، نظراً لما تعرضت له من أخطار خارجية ، ولاشتراك نبلاء روما في اختيار البابا، الذي لم يزد عن كونه رئيس حزب سياسي، بل إن سمعته لم تكن فوق الشبهات، فانحطت مكانة البابوية ، وفقدت أهميتها الروحية .

وللابقاء على حياتها ، في فرنسا والمانيا ، كان لزاماً على الكنيسة أن توثق علاقاتها مع النبلاء العلمانيين الذين يعتبرون الفئة الوحيدة التي بوسعها أن تبذل لها الحماية. أضحى كبار رجال الكنيسة أتباعاً لسيد إقطاعي، التزموا بتأدية الخدمات الإقطاعية له، وتبعاً لذلك امتدت سلطة السيد الاقطاعي إلى الناس النازلين بأراضي رجال الكنيسة . ولما لم يكن بوسع الموظف الكنسي الكبير أن يقود فرسانه في القتال،

أو يمارس القضاء ، اختار نواباً عنه ، يتولون قيادة فرسانه ، ويمارسون واجبات القاضي العلمانية ، مقابل الحصول على الاقطاعات والاشتراك في النظر في القضايا وتقرير العقوبات . ومن الطبيعي أن يعين كبار موظفي الكنيسة ، الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين يرضى عنهم السادة الاقطاعيون . وتولى كبار السادة الاقطاعيين تعيين الموظفين الكنسيين وبذلوا لهم شارات الوظيفة الروحية والدنيوية سواء . فأضحت الوظائف الروحية الكبرى مرتبطة بالاقطاع وصار بوسع نواب الموظفين الكنسيين advocates أن ينتزعوا أراضي وحقوق الكنائس التي كانوا يخدمونها . وفي أثناء القرن العاشر ، نجح موظفو الكنيسة الألمانية في التخلص من السادة المحليين أمثال الكونتات والدوقات ، ومن نوابهم (advocates) ، بما أقاموه من تحالف وثيق مع الملك ، على أن ذلك أدى إلى اكتمال سيطرة السلطة الدنيوية على الكنيسة .

وفي أثناء فترة الاضطرابات ، حدثت تطورات هامة في الكنيسة ، منها ما يتعلق بهيئة رجال الدين بالأبروشية ، فالمعروف أن الأسقف والقسيسين يعيشون أصلاً بكاتدرائية المدينة ، ويشرفون على القرى المجاورة . غير أنه حينما ظهر السادة المحليون ، اشتد الاهتمام بإنشاء الكنائس بالقرى . والراجح ان السيد الاقطاعي أراد أن يسيطر على الجانب الروحي باقطاعه فضلاً عن الجانب العلماني (الدنيوي) ، فأنشأ الكنيسة ، وتولى جباية العشور وموارد الخراج من الأراضي التابعة للكنيسة ، وقام بتعيين القس ، ولم يدفع له من الأجر إلا ما يكاد يسد حاجته . فما تحصل من أراضي الأبروشية من عشور وخراج أضحى من أهم موارد السادة الإقطاعيين . وترتب على ذلك نتيجة أخرى ، تتمثل في إنشاء شبكة من الأبروشيات تؤلف جانباً كبيراً من الكنيسة .

ويعتبر القانون الكنسي من أهم التطورات الجديدة ، فالمعروف أن قانون الكنيسة المسلم به ، تألف من الأحكام الواردة بالكتاب المقدس ، وكتابات آباء الكنيسة وقرارات البابوات والمجامع الدينية . وإذ صدر هذا القانون في بيئة

سديدة الاختلاف عـــن بيئة القرن التاسع الميلادي ، أدرك موظفو الكنيسة وقتذاك أنه لم يعد كافياً لسد حاجاتهم ، لأنهم أحبوا أن يتوافر لهم مـــن الأسلحة الروحية ما يكفي لمساعدتهم في القتال ضد السادة العلمانيين المجاورين لهم ، وفي إخضاع رجال الدين أنفسهم .

وخير وسيلة للحصول على هذه القوانين الجديدة ، هي الالتجاء إلى اختراعها ولذا حدث في فرنسا في القرن التاسع الميلادي أن ظهرت مجموعة القوانين المزوّرة المعروفة باسم Pseudo - Isidorean Decretals . إذ لجأت فئة من رجـال الدين المهرة إلى أن يجروا في الرسائل البابوية من التغييرات ما يطابق آراءهم ، ونسبوها إلى بابا وهمي ؛ ثم عزوا كل المجموعة الى العالم الديني المعروف ، القديس ايزيدور الأشبيلي ، وتضمنت هذه القرارات المزورة أيضاً ، وثائق مزورة ترجع إلى زمن سابق ، مثل منحة قنسطنطين المعروفة . وأضحت مرسومات (قرارات) ايزيدور ، وما اضيف إليهـا مـن رسائل البابا هادريان الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) الموجهة إلى شارلمان ، تؤلف الأساس الذي قام عليه فيما بعد القانون الكنسي .

يعتبر الأسقف أهم موظف في الهيئة الكنسية ، ولا يزيد عنه رئيس الأساقفة في السلطة ، إلا في اتساع حدود أسقفيته ، وازديادها في الثروة ، ومع ذلك فليس له سلطان على الأساقفة . أما الأسقف فله مطلق السلطة على الكنيسة بابروشيته ، من الناحية الروحية ، فضلاً عن أملاكها ، ولا يخضع لأية سلطة روحية عليا . ووفقاً للقانون الكنسي يتولى انتخاب الأسقف ، رجال الدين وأهل ابروشيته . غير أنه من الناحية العملية ، لم يشترك في انتخابه سوى رجال الدين الذين ينتمون للكاثدرائية ، والمعروف أن رجال الدين لم يختاروا إلا الرجل الذي يرشحه السيد الاقطاعي العلماني ، الذي يرعى الكنيسة .

ويحيط بالأسقف جماعة من رجال الدين ، تساعده في إدارة الأبروشية ، وفي خدمة الكنيسة الكاتدرائية ، ولموظفيه المكانة العليا في هذه الهيئة ، فمنهم

من يشرف على مدرسة الكاتدرائية ، ويمنح إجازات التدريس ، ومنهم من يكون مسئولا عن الإدارة المالية ، ويتولى كبير الشمامسة النظر في الأمور القضائية بالمحاكم الكنسية. ويلي هؤلاء جماعة تنظر في شئون الكنيسة الكاتدرائية. ثم حدث في القرن الحادي عشر أن تألفت بالكاتدرائية ، بفضل الأساقفة والسادة العلمانيين ، فئة أخرى من رجال الدين ، تتولى مناصب معروفة بكثرة أحباسها وأوقافها ، وتختار من بينها رئيساً ، ولم تلبث هذه الفئة (Canons) أن احتكرت سلطات رجال الدين بالكاتدرائية ، وصار كل الموظفين ينتمون إلى هذه الفئة ، وصار زعيمهم يلي الأسقف في المكانة . وتولى كبير القسس الأشراف على القسس بالأبرشية . ويقوم السيد الإقطاعي بترشيح القسس أيضاً ؛ وللسادة الإقطاعيين كهنتهم الذين لا يخضعون لسلطة الأسقف . وخضعت فئة رجال الدين أيضاً لنظام الطبقية ، فالأساقفة ، وموظفوهم ، يختارون من الطبقة الاقطاعية ، بينما يتخذ قسس الأبروشية من الأقنان .

وعلى الرغم من أن معظم أديرة غرب اوروبا تخضع لقاعدة القديس بنيدكيت ، فإنه لم يتبعها إلا أديرة قليلة العدد. أضحت الأديرة ملاذاً يلجأ إليه الناس من الأخطار ، والاضطرابات التي تقع خارجه ، ولم تهتم بالدين إلا قليلا . وإذ كان كل دير مستقلا ، توقف نظامه على شخصية رئيس الدير ، والراجح أنه ولى الدير بترشيح السيد الإقطاعي لأسباب سياسية . وحدث في فرنسا في القرن العاشر أن تولى السيد الاقطاعي رئاسة الدير ، على أن ينيب عنه من ينظر في الأمور الروحية به . وإذا كان الأسقف يعتبر من الناحية النظرية مسئولا عن الأديرة الواقعة في أبروشيته ، وله السلطة في تفقدها ، فالواقع أنه لم يكن له سلطة فعلية . إذ لم يشأ الأساقفة أن يغضبوا السيد الاقطاعي إذا تدخلوا في أمور الدير . بل إن الأديرة الكبيرة حصلت من البابا على قرارات تعفيها من هذه السلطة الضئيلة التي كانت للأسقف ، وتجعلها خاضعة مباشرة للبابا . فإذا كانت البابوية ضعيفة وبعيدة عنها ، فليس معنى ذلك سوى الاستقلال التام لهذه الأديرة عن الأسقف والبابا .

الاصلاح الكلوني

على الرغم من هبوط مستوى الحماسي الديني ، فإن جماعة من رجال الكنيسة أدركت ما في النظام الكنسي من عيوب ، فحرصت على اصلاحها . ففي القرن العاشر ، اقتنع وليم دوق اكيتانيا بوجهة نظرهم ، فاتخذ خطوة كبيرة في هذا الاتجاه ، بأن شيد سنة ٩١٠ دير كلوني .

وكان الأمل معقوداً على أن يتجنب دير كلوني مـا تعرضت له الأديرة من متاعب ، وأن يكون اساساً لاصلاح عام للديرية . فلم يحز دير كـلوني أراضي مقابل تأدية خدمات اقطاعية ،إذ أن كل المنح التي حصل عليها كانت على سبيل الصدقات ، ليس لها مقابل إلا الدعوات للمتصدق من قبل الجماهير والمصلين . والملحوظ أن الدوق وليم لم يجعل حماسه الديني يطغى على احساسه العملي ، فما بذله لدير كلوني من الأراضي،إنما حازها وليم من دوق برجنديا ، الذي فقد ما يتحصل منها من خدمات . ثم جرت محاولة أخرى للتغلب على الكسل ، الذي يعتبر من أعظم مصادر العيب في الحياة الديرية .

فالمعروف أن الرهبان يمارسون العمل اليدوي ، وذلك وفقاً لقاعـــدة بنيدكت ، غير أن معظم المنح المبـذولة إلى الأديرة كانت تتألف من أراضي ، يتولى زراعتها النازلون بها ،فليس للرهبان مجال للعمل،وبذا أضحى من العسير تنفيذ قاعدة بنيدكت . وقبل مؤسسو دير كلوني هذا الوضع ، غير أنهم كيما يشغلوا الرهبان ، زادوا في الوقت الذي يؤدون فيه طقوس الكنيسة . وكان ذلك أهم تعديل في قاعدة بنيدكت . ومن الطبيعي ان يأمل مؤسسو دير كلوني أن تقوم أديرة جديدة على هذه الأسس ،وأن تلتزم بقاعدة دير كلوني.ولذا حرصوا على أن يتجنبوا أيضاً عيباً آخر في الديرية وقتذاك يتمثل في قصور الإشراف على الأديرة، بأن قرر النظـام الكلوني ألا يكون للدير إلا رئيس واحـــد ، وهو رئيس دير كلوني ، وبذا تخضع سائر الأديرة لمقدمين من قبل رئيس دير كلوني .

ويتحمل رئيس دير كلوني المسئولية العامة عن النظام في كل الأديرة،ولذا ينبغي أن يتولى تفقدها .

ولم يلبث النظام الكلوني ان انتشر بفضل رؤساء الدير المتعاقبين ، فنشأت أديرة عديدة ، وقبلت قاعدة كلوني أديرة بنيدكتيه كبيرة في ألمانيا وفرنسا . يضاف إلى ذلك أن النظام الكلوني اقتضى مستوى رفيعاً من النظام ،والتهذيب. على أن التأثير الكلوني تجاوز الأديرة الكلونية إلى سائر الأديرة، إذ أن عدداً كبيراً من الأديرة بفرنسا جرى إصلاحها على نسق نظام دير كلوني ، دون ان تلحق به .

وأصلح الكنيسة بانجلترا في القرن العاشر جماعة من الرجال بزعامة القديس دَنْستان اعتنقوا الأفكار الكلونية . فلم يمض قرن ونصف قرن على إنشاء دير كلوني حتى استطاع رهبانه وسائر الرهبان الذين تشيعوا بأفكاره وروحه الدينية ، أن يصلحوا جانباً كبيراً من رجال الدير في غرب أوربا .

وحرص عدد كبير من القسس وكبار موظفي الكنيسة في القرن الحادي عشر على إصلاح وضع الكنيسة بأسرها ورأى الأذكياء من هؤلاء الرجال أن الحاجة الماسة تقضي بتوحيد نظام الكنيسة واخضاعها لسلطة مركزية قوية . فالأسقف ليس له حول ولا قوة أمام الأمراء الاقطاعيين . فالعمل المشترك تحت زعامة قوية ، هو الذي يؤدي إلى الاصلاح العام . ومن الطبيعي التماس هذه القيادة في البابوية .

ولحسن الحظ ، كان هنري الثالث ملك ألمانيا وامبراطور الدولة الرّومانية المقدسة ، شديد الاهتمام بخطط هؤلاء المصلحين ، فبذل مساعدة قيمة للاصلاح الكلوني في الأديرة الألمانية ، وأبدى استعداداً لأن يحمل للبابوية من القوة ما

يكفل لها قيادة هذه الحركة في الكنيسة بأجمعها .

ومن أهم الخطوات التي اتخذها المصلحون ، ما قاموا به من محاولات للقضاء على النفوذ العلماني في انتخاب البابا. فمن الناحية النظرية كان البابا يختاره رجال الدين وسكان روما بموافقة الأمبراطور . غير أنه يصح أن يتعرض رجال الدين للارهاب ، وان يسترضي اهل المدينة ، بينما كان الأمبراطور من البعد ما يمنعه من التدخل ، فأضحى لنبلاء روما كل السيطرة ، وحصلت أسراتهم على المناصب المجزية في كنيسة روما ،فظهر في اسرة توسكولوم ثلاثة بابوات ، بنيدكت الثامن (١٠١٢– ١٠٢٤) ، ويوحنا التاسع عشر (١٠٢٣–١٠٣٢) ،وبنيدكت التاسع (١٠٣٢– ١٠٤٦) ،ونازعتها أسرة أخرى ،هي أسرة كريسنستي في البابوية سنة ١٠٤٦ ،حين تولى سيلفستر الثالث البابوية ،وبذا تنازع المقر الرسولي بابوان ،يضاف إلى هذين البابوين ، جريجوري السادس ،الذي اتهم بالسمعانية ، بأن وعد بأن يؤدي خراج الكنيسة بانجلترا لأحد البابوات ، على أنه يكون معاشاً له ، وتدخل الأمبراطور هنري الثالث ، وطرد البابوات المتنازعين ، وعين في البابوية رجلاً المانيا ، كلمنت الثالث (١٠٤٦ – ١٠٤٧) ، غير أنه لقي معارضة شديدة من قبل كبار رجال الكنيسة ونبلاء روما . وترتب على تدخل هنري الثالث ، أن أنصرفت البابوية إلى اصلاح نفسها ، وإلى اصلاح الكنيسة ، فتعاهد البابا ليو التاسع (١٠٤٨ – ١٠٥٤) باستئصال السمعانية ، وتوطيد سلطانه الفعلي على الكنيسة ، حتى ينزل العقاب بمن يشترون وظائف الكنيسة .

وإذ كانت أثمان الوظائف الدينية تؤدي إلى السيد الاقطاعي ، ارتبطت السمعانية بتدخل السلطة الدنيوية في أمر الكنيسة . كما أن الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين وصلوا إلى مراكزهم ، عن طريق السمعانية ، سوف لا يهتمون إلا بأحوالهم الاجتماعية والسياسية ، لا الروحية .

والمسألة الأخرى التي لقيت من المصلحين اهتماماً كبيراً ، تتعلق بزواج

القسس . ففي القرن الحـــادي عشر حرَّم القانون الكنسي زواج القسس ، والشمامسة ، ومساعدي الشمامسة ، وطلب منهم أن يلتزموا العفة في حياتهم . غير أن هذا القانون لم ينفذ على الوجه السليم في غرب أوربا ، إذ أن زواج رجال الكنائس وكبـــار موظفي الكنيسة كان أمراً مألوفـــاً ، وتوارث ابناؤهم مناصبهم الكنسية ، وشاع اتخاذ السراري بين رجال الدين ، ولم تكن المسألة تتعلق بالناحيـــة الخلقية فحسب ، بل إن رجل الدين الذي أنشأ أسرة ، سوف ينصرف عن واجبه ، وسوف يستخدم أملاك الكنيسة لإثراء ذريتــه ، سواء اعتبرهم الناس شرعيين أم غـير شرعيين . ولذا حرص المصلحون على أن يفرضوا العزوبة على رجال الدين .

وتعارضت مصالح الكنيسة الـــتي حرصت على ان يتصف رجالها بالعلم والحماس الديني والتعلق بمصالحها ، مع مصالح السادة العلمانيين الذين أرادوا من رجال الكنيسة ببلادهم أن يكونوا موالين لهم . فإذا تحولت الكنيسة إلى هيئة روحية كبيرة تخضع لسلطة البابا ، ولا تهتم إلا بخدمة الله ، كان ذلـك انتصاراً للمصلحين ، وسوف يؤدي إلى تدمير معظم الملوك والسادة الاقطاعيين ، إذ أن رجال الدين وحدهم هم المتعلمون الذين يحتـــاج الأمراء إلى خدمتهم في إدراة بلادهم . وما هو اكثر من ذلك أهمية ، ما تسيطر عليـــه الكنيسة من موارد ضخمة من الرجال والانتاج ، ومن الدليل على ذلك استناد الأباطرة السكسون والساليين إلى كبار موظفي الكنيسة وأراضيهم . وأصر الملوك على ألا يختـار أحد سواهم كبار موظفي الكنيسة ، لما لهم من أهمية في مساعدتهم .

جريجوري السابع

يعتبر هيلدبراند من الشخصيات التي اكتنفها الغموض ، وأثارت الاعجاب في العصور الوسطى . اذا اشتد الجدل حول ما إذا كانت أسرته تنحدر من جـد

يهودي اعتنق المسيحية ، أو أنه (هيلدبراند) ، ذلك الرجـل الأسمر البارز ، هو الذي كان يقف وراء البابوات ليو التاسع ، وستيفن التاسع ، ونقولا الثاني ، والاسكندر الثاني ، أو أنه يعتقد فعلا في التعايش بين الأمبراطورية والبابوية ، أو كان مخلصاً في تقواه ، أم كان محباً للقوة والسلطة .

وظل هيلد برندا منذ سنة ١٠٤٥ ، حـين صار من هيئة المجلس البابوي ، حتى سنة ١٠٧٣ ، حـين صار بابا ، يعتبر من أعظم المصلحين ، وكان فعلاً زعيما لهم .

تمّ انتخاب هيلد برندا بابا، باسم جريجوري السابع . في ٢٢ ابريل سنة ١٠٧٣ . والواقع أن شخصية هذا الرجل كان لها من شدة التأثير في الغرب اللاتيني، ما جعل كل حركة إصلاح الكنيسة ترجع إلى نشاطه وبصيرته ، فنقرأ عن الاصلاح الهلدبراندي ، أو النظام الجويجوري ، أو الهلدبراندية . ومع ذلك فإن ما أسداه للحركة الاصلاحية لم يكن مجموعة الافكار الثورية ، بل كان عزماً بالغ الصلابة لتنفيذ الإصلاحات التي سبق الدفاع عنها مثل انكار زواج القسس والسمعانية . يضاف إلى ذلك أن إشراف العلمانيـين على الكنيسة يعتبر أصل كل شر ، وجرت الإشارة إليه بالتقليد العلماني للكنسيين . فالتقليد يقصد به تعيين الفرد في وظيفته ، بأن ينعم عليه بشاراتها الظاهرية . ففي حـالة الأسقف كانت الشارات هي الخاتم والعكاز . والتقليد العلماني كان مصطلحاً جرى استخدامه حينما يتلقى رجـل الكنيسة هذه الشارات من رجل علماني ، لا من رئيسه المباشر بالكنيسة ، فإذا قلد الملك الأسقف بالخاتم والعكاز فلا يعني ذلك سوى أنه خاضع لسلطانـه ، وهذا ما اعتبره المصلحون مصدر السمعانية ، وزواج القسس، وسائر شرور الكنيسة .

أصر جريجوري على أنه لا بد من اختيار الأساقفة وفقاً للقانون الكنسي ، بأن يختاره رجال الدين بالأبروشية ثم يخطرون رئيس الاساقفة بما حـدث ؛

وعندئذ يقوم برسامة الأسقف ، وتقليده بشارات وظيفته الروحية ، ثم يطلب من السيد العلماني أن يقلد الأسقف بشارة السلطة الزمنية ، فيجعل له بارونية ، دون أن يشترك في اختياره أو يوافق على ذلك . والواضح أن الأمراء لم يقبلوا هذا الوضع ، إذ أن التخلي عن السلطة على الكنيسة ، معناه فقد السيطرة على الأمبراطورية ، حسب نظام أوتو . فكان لزاما على الأمبراطور أن يقاوم دعاوي المصلحين. فلم يسع هنري الرابع (١٠٥٦-١١٠٦) ، بعد أن بلغ سن الرشد ، إلا أن يمضي قدما في اختيار أساقفته وتقليدهم بشارات السلطتين الروحية والزمنية لوظائفهم ، مثلما فعل أسلافه . فإذا أصر المصلحون على منع التقليد العلماني ، فإنه لن يتحقق لهم ذلك ، ما لم يجعلوا لهم هيئة يعترف بها الأساقفة الأمبراطوريون ، وتعتبر بذلك أعلى مكانة من الأمبراطورية .

ولذا كانت السيادة البابوية أمراً جوهريـــاً . رجع المصلحون إلى سوابق الكنيسة المبكرة ، وأقنعتهم دراستهم للتواريـــخ وكتابات آباء الكنيسة ، ورسائل البابوات ، بما كان للبابوية من أهميـــة في قيادة العالم المسيحي ، إذ كان المقر الرسولي يشرف على سائر الأبروشيات ، ودافع البابا جريجوري الكبير عن روما إزاء خطر اللومبارديين ، وخضع لسلطانه اساقفة ايطاليا ، وحوّل الانجليز إلى المسيحية ، ووجه اللوم إلى بطريرك القسطنطينية ، وأعلن أن كل أسقف لا بد أن يخضع للمقر الرسولي . ولم تغفل البابويـــة هذه الحقوق إلا بسبب فسادها ، وتعلقها بالدنيوية .

كان لزاماً على المصلحين أن يلجأوا إلى القانون الكنسي ، ليستخلصوا منه ، ما ينطوي عليه من حقوق البابوية ، وأفاد جريجوري من هذه الدراسة في أمرين أساسيين :

الأول : يتعلق بقيام حكومة مركزية للكنيسة ، وسيطرتها على النظام في

كل ولاياتها ، فأصر على القاعدة القديمة التي استمدها من جريجوري الكبير ،التي تقضي بأنه ينبغي على رؤساء الأساقفة إلا يتلقوا شارات وظائفهم[1] إلا من البابا وحده ، وحملهم البابا جريجوري السابع على أن يحلفوا يمين الولاء للمقر الرسولي ؛ الذي فرض سلطته بأن تدخل في نظام مراكزهم ، فصار يرسل المندوبين البابويين إلى كل الابروشيات والمطرانيات للتحقق من تنفيذ أوامر البابا .

أما الأمر الثاني ، وهو أشد خطورة ، فيتعلق بما للبابوية من سلطة دنيوية . واستوحى جريجوري السابع ، ما كان للكنيسة المبكرة من تقاليد في هذا الأمر ، حين وازن بين سيطرة هنري الثالث وأوتو الأول على الكنيسة ، وبين ما قام به البابا زكريا من عزل آخر ملوك الميروفنجيين ، وما لجأ إليه جريجوري الكبير من قطع الملوك والدوقات من الكنيسة ، لمناوأتهم له .

فإذا كان يوم ٤ مارس سنة ١٠٧٥ ، أملى جريجوري السابع ما للبابا من من حقوق ، في سبع وعشرين مادة ، بعنوان Dictatus Papae[1] الإرادة البابوية ، وأهم ما تنطوي عليه هذه الوثيقة :

١ — أن كنيسة روما أنشاها الله تعالى وحده ، فهي بذلك اكبر من أن تكون كنيسة رسولية .

١٦ — ليس لمجمع أن ينعقد إلا إذا اعترف البابا بسلطته . (يقصد بذلك الكنيسة البيزنطية) .

---

(١) كانت هذه الشارة عبارة عن شريط طرزت زواياه الاربعة بالصلبان .

(٢) انظر الملحق ٢٢ .

٢٢ – تعتبر كنيسة روما معصومة من الخطأ .

١٩ – لا يخضع البابا لمحاكمة أحد ، سوى الله وحده .

٣ – ويتولى البابا وحده عزل الاساقفة أو إعادتهم لوظائفهم .

١٣ – وهو وحده الذي يستطيع أن يعزل الأمبراطور .

النزاع بين البابا جريجوري السابع والأمبراطور هنري الرابع

لم يقنع جريجوري السابع بما اعتبره حقوقاً للبابوية ،بل حرص على تنفيذها. ففي شتاء ١٠٧٥ – ١٠٧٦ ، ركز اهتمامه على أن يخلص الكنيسة من السيادة الألمانية ، لأسباب :منها ان الأمبراطور الالماني يعتبر أقوى ملوك غرب أوربا، فإذا خضع له ، فالراجح ان سائر الأمراء يقتفون أثره . يضاف إلى ذلك ، أن الأمبراطور أقرب إلى البابوية ، بروما، من سائر الملوك، نظراً لما له من سيطرة على لومبارديا ومعظم ايطاليا ولذا أصدر جريجوري ، سنة ١٠٧٦ مرسوماً يحرم فيه على كل واحد من رجال الدين أن يتلقى تقليد أسقفيته أوديره ، أو كنيسته من يد رجل علماني . وأرسل إلى الالمان بألا يطيعوا من أساقفتهم أولئك الذين لم يلتزموا بالعزوبة ، وطلب إلى كل من دوق سوابيا وكارينثيا ان يمنع القسس السمعانيين او المتزوجين من مباشرة القداسات ، ولو اقتضى ذلك استخدام القوة . ثم اتخذ اجراءات عنيفة في النزاع حول أسقفية ميلان . إذ لم يستطع الأمبراطور هنري الرابع أن يرشح احداً لملء وظيفة الاسقفية بهذه المدينة ، بعد أن فقد سيطرته عليها ، نتيجة ظهور حزب ثوري مناوىء لسلطته بها ، فلحقت به خسارة فادحة ، لما كان لميلان من أهمية

استراتيجية في قوته وسلطانه ، نظراً لتحكمها في الممرات الوسطى لجبال الألب . وإذ احس الأمبراطور هنري الرابع أن لديه من القوة الكافية ، طرد رئيس الأساقفة الذي نصبه البابا ، وأقام مرشحه . ولم يسع البابا جريجوري السابع إلا ان يطلب إليه أن يعيده، وهدده بالقطع من الكنيسة والعزل من العرش.

وفي هذه الأحوال ، قرر هنري الرابع ان يسبق البابا في المبادرة إلى العمل . فدعا إلى عقد مجمع للأساقفة الألمان في فورمز (يناير ١٠٧٦) ، واستطاع ان يظفر منهم بالتأييد ، فأعلنوا عصيانهم على البابا جريجوري السابع ، وعندئذ اعلن جريجوري قطع الأمبراطور من الكنيسة وخلعه من العرش [١] .

هذه العبارة المتعلقة بالقطع والعزل أثارت الذعر في سائر الجهات ، إذ كان لزاماً على كل فرد مقيم بداخل حدود الأمبراطورية ان يقرر أي زعيمي العالم البابا أو الأمبراطور، يبذل له الطاعة .

لم يحاول انصار الأمبراطورية أن يصوغوا نظرية « لسيادة الدولة » إزاء « سيادة الكنيسة » نظراً لأن الكنيسة في القرن الحادي عشر ، كانت أكثر من مجرد سلطة روحية ، بل كان المقصود بها ، هيئة العالم المسيحي ، ولم تكن البابوية والأمبراطورية سوى أداتين تنفيذيتين ، فما وقع من نزاع بين البابا والأمبراطور ، يعتبر انشقاقاً في الكنيسة ، إذ اعتبر انصار الأمبراطور أن البابا حطم سلام الكنيسة بما أحراه من البدع ، كالأصرار على عزوبة القسس ، وتدخله في أمور الولايات الكنسية ، وانكاره التقليد العلماني ، بينما يبرر البابا موقفه ، بأنه يتفق مع تقاليد المسيحية الأولى ، فضلاً عن تحالف الأمبراطور

---

(١) انظر الملحق ٢٣ .

مع المنهرطقين (السمعانيين) ، وتحريض الأساقفة الألمـــان على رفض الولاء والطاعة للبابا .

على أن هذا النزاع لم يلبث ان تأثر بحقيقة الأوضاع في ألمانيا ، التي أضحت وقتذاك موطناً لمجموعتين من العصاة المتمردين الأقوياء،تألفت المجموعة الأولى من النبلاء بقيادة رودولف دوق سوابيا ، بينما كانت سكسونيا مركز المجموعـة الأخرى . ادرك قادة المجموعة الأولى لما لهنري الرابع من شخصية قوية وما سوف يترتب عليها من ضياع نفوذهم في داخل البلاط ، ولذا اعتـبروا قرار الحرمان تبريراً سماوياً لما ينوونه من القيام بالثورة على هنري الرابـع .

أما العصاة في سكسونيا ، فقد حرصوا على تقويض اساس السلطة الملكية. إذ حرص الملوك السكسون على تدعيم السلطة الملكية ، بالحد من بذل الأراضي للكنائس ، وبالإكثار من أراضي التاج . ولقيت هذه المحاولة نجاحاً كبيراً في سكسونيا ، نظراً لوفرة الفلاحين الأحرار بها، فلم يكن لهم سيد سوى الملك ، ولم يرتبطوا بنظام البارونية (السنيورية) ، بـل أدوا للملك بعض الرسوم والخدمات كالتي يؤدونها مقابل حقوق الغابات والمياه ، ومع ذلك فإنه إذا اشتد استغلال هذه الرسوم،لم تلبث أن تحولت إلى مقررات اقطاعية ولا سيما بعد أن حرص هنري الرابـع على التعرف إلى حقوقـه في كل مكان. فشيد القلاع وشحنها بالسوابيين، حتى ينتزع الرسوم كاملة ، فكأنه اعتبر الأرض ملكاً خاصاً له ، وجعل الفلاحين اقناناً ، وعندئذ تدخل النبلاء ، وقادوا الثورات سنوات ١٠٧٣ — ١٠٧٥ . ولما علموا بقطع الملك من الكنيسة سنة ١٠٧٦ ، اشتركوا مع نبلاء جنوب ألمانيا في اعلان الثورة،ودعوا الأمبراطور إلى المثول أمام ديات المملكة الذي ينعقد في فبراير سنة ١٠٧٧ ، والذي سوف يشهده البابا. وأعلنوا أنه إذ لم يبادر الأمبراطور إلى مصالحة البابا في خلال سنة، فسوف يمتنعون عن اعتباره ملكاً .على أن النبلاء وحرصوا على الا تتم المصالحة بين الأمبراطور هنري الرابـع

والبابا جريجوري السابع ، فشددوا مراقبة ممرات جبال الألب ، ورصدوا حركات هنري الرابع، كأنه أسير لديهم. غير أن هنري استطاع أن يفلت منهم ، بأن اتخذ طريقاً ملتوياً حتى وصل إلى ايطاليا ، وعزم على أن يلتقي بالبابا ، ويظفر بعفوه . وكان جريجوري في طريقه إلى المانيا ، حين التقى به في يناير سنة ١٠٧٧ هنري الرابع في قلعة كانوسا بجبال الابنين[١] حيث أظهر ندمه وتوبته وطلب الصفح والمغفرة .

ومع أن النبلاء السكسون لم ينهضوا للثورة الابناء على طلب البابا، فقد كان لزاماً عليه ، باعتباره قساً ، أن يغفر للمذنب التائب . غير أن النبلاء مضوا في تمردهم ، فانتصر عليهم هنري في سنة ١٠٨٠ ، ولجأ البابا مرة أخرى إلى عزله، واعترف بردودلف ملكاً شرعياً ، ولم يسع هنري الاعزل جريجوري من البابوية ، وانتخاب رئيس اساقفة رافنا للبابوية . غير ان هنري لم يلق المساندة من الأساقفة في المانيا وايطاليا ، وبذا فشل في توجيه الرأي الكنسي لمساندة سياسة أبيه القائمة على الاستبداد السياسي الديني . وانتصر هنري على منافسه رودولف سنة ١٠٨٠ ، ثم زحف على روما ، ووقع في يده معظم المدينة سنة ١٠٨٤ ، ونصب كلمنت الثالث باباً في كاثدرائية القديس بطرس ، ثم قام البابا بتتويج هنري الرابع أمبراطوراً والتمس جريجوري النجدة من النرمان فنهض روبرت جويسكارد لمساندته، فدخل روما (مايو ١٠٨٤) وأنقذ البابا غير أن النرمان نهبوا المدينة وأشعلوا الحرائق في جانب كبير منها. وتراءى لجريجوري ان كل شيء قد ضاع ، بعد ان تدمرت روما ، وفي السنة التالية (١٠٨٥) مات جريجوري في المنفى بسالرنو ، وكانت آخر كلماته « أحببت العدالة ، وكرهت الظلم ، وأموت بالمنفى » .

على ان دعاة الأصلاح ظفروا آخر الأمر ، بانتخاب البابا اريان الثاني

---

(١) انظر الملحق ٢٤.

(١٠٨٨–١٠٩٩)، وكان اربان الرجل المناسب لأن يجمع شمل حزب جريجوري في الكنيسة، وان يعيد إليها ثرواتها . فاظهر في أوائل بابويته من المرونة ما جعله يستعيد مساندة الكرادلة الذين تخلوا عن جريجوري . على ان اهم ما ما اشتهر به اربان ، هو أنه دعا إلى الحرب الصليبية الأولى في مجمع كليرمونت ، سنة ١٠٩٥ ، وهو الذي كان رأس الكنيسة وقائد الشعب المسيحي .

كانت هذه هي اهم حقيقة نجمت عن التقليد العلماني ، لم يكن ذلك انقلاباً فجائياً، إذ ان جريجوري السابع كان يأمل في ان يقود سنة ١٠٧٤ حملة صليبية ؛ وبذا اكتملت السيادة البابوية .

اثبت التقليد العلماني على انه كان مدمراً لسلطة الأمبراطور في المانيا وايطاليا . لم يكن ذلك راجعاً كما كان متوقعاً ، إلى ان الأمبراطور فقد ما كان له من حق في التقليد العلماني ، وفي السيطرة على كبار موظفي الكنيسة باعتبارهم موظفين مدنيين ، إذ حافظ كل من هنري الرابع وابنه هنري الخامس على الحقوق في هذه الناحية . ففي اتفاقية فورمز (١١٢٢) وافق البابا كاليكستوس الثاني ، على انه كيما تكون الانتخابات للأسقفيات والأديرة في المملكة الألمانية خالية من السمعانية او العنف، فلا بد من اجرائها في حضور الأمبراطور ، وبذا تخضع لسلطانه ونفوذه . على ان العامل الذي اضر بسلطة الأمبراطور هو انه فقد السلطة الدينية التي كانت مقترنة بالثروة والمال ، إذ كان بوسع الملك او الأمبراطور ان يقهر اعداءه ، ويزيد من ضياعه طالما كان مستنداً إلى تأييد الكنيسة . وكان هنري الرابع وحده ، من دون ملوك العصور الوسطى ، هو الذي ظل مقطوعاً من الكنيسة نحو ست وعشرين (١٠٨٠ –١١١٦) . وترتب على ذلك ان جيلاً من الناس نشأ في المانيا وايطاليا في ظل الحرب الأهلية ، وفي تلك الأثناء نشطت البابوية في اذاعة ان السلطة

الملكية ليست مستمدة من اصل إلهي ، ولذا يصح الخروج عليها ، وبذا نجح انصار البابوية في تقويض ما للملكية من سلطة ادبية .ولم يعد الملك حاكماً على الشعب المسيحي ، ولم تصبح كل من المانيا وايطاليا دولة قومية حتى القرن التاسع عشر ، والواقع ان تاريخ اوربا في القرن الحادي عشر اتخذ صورته وشكله الذي أضحى معروفاً به ففي ألمانيا وايطاليا لم يشهد القرن الحادي عشر اصل الوحدة ، بل شهد العداوات التي ظلت زمناً طويلاً ، فضلاً عن النزاع والاضطراب الذي طفحت بها ايطاليا وألمانيا طوال العصور الوسطى .

الملحق ٢٢

الإرادة البابوية

Dictatae Papae

هذه الوثيقة تعبر عن مبادىء جريجوري السابع ومثله .

نص الوثيقة :

١ -- الكنيسة الرومانية إنما أقامها الله وحده.

٢ -- ما من أحــــد سوى بابا روما ، جدير باتخاذ لقب المسكوني (العالمي) .

٣ -- ليس بوسع أحد سواه ، أن يعزل الأساقفة او يعينهم .

٤ -- ولممثل البابا ، مهما انخفضت رتبته ، أن يرأس الأساقفة في المجمع، وله من السلطة ما يجعله يصدر حكم العزل ضدهم .

٥ -- وللبابا السلطة في عزل من لم يحضر المجمع من الأساقفة ، (دون أن يستمع لدعواهم) ،

٦ - ومن الأمور التي ينبغي أن تراعيها ، أنه ينبغي ألا يقيم في موضع واحد مع من قضى البابا بقطعهم من الكنيسة .

٧ - وللبابا وحده الحق ، وفقاً لما تقتضيه الأحوال ، أن يسن القوانين الجديدة ، وأن ينشىء أبروشيات جديدة ، وأن يشيد ديراً يخضع لبعض قوانين الديرية ، أو يجعل عكس ذلك ، وله أن يقسم الأبروشية الوفيرة الثروة إلى ابروشيات عديدة ، أو يجعل من الأبروشيات الفقيرة أبروشية واحدة .

٨ - وللبابا وحده أن يستخدم العباءة الأمبراطورية .

٩ - وينبغي على كل الأمراء ألا يخضعوا إلا للبابا وحده .

١٠ - وينبغي ألا يذكر في الكنائس إلا اسمه وحده .

١١ - وما يتخذه لنفسه من اسم إنما يخصه دون سواه .

١٢ - وللبابا السلطة وحده في عزل الأباطرة ،

١٣ - وللبابا الحق في أن ينقل الأساقفة من منصب ديني إلى منصب ديني آخر ، كلما اقتضت الحاجة ذلك ،

١٤ - وله الحق في أن يرسم من يشاء من رجال الدين ، من بين هيئة رجال الكنيسة .

١٥ - ومن رسمه وجعله من رجال الدين ، صار له الحق في أن يتولى (باعتباره أسقفاً) أمر كنيسة أخرى ، غير أنه ليس بوسعه أن يخدم على أنه

قس ، عـلى أن الذي جعله من رجال الدين ينبغي ألا يتجاوز في مكانته سائر الأساقفة .

١٦ — ولا يعقد سينود عام (مجمع) إلا بأمر البابا .

١٧ — ولا يعتبر ما يتخذ من قرار في السينود كنسياً ، دون أن يقر ذلك البابا .

١٨ — وما يصدره البابا من قرار ليس بوسع أحد أن يلغيه ، بينما جاز للبابا الغاء قرارات غيره من الناس .

١٩ — ليس بوسع أحد من الناس أن يحاكم البابا .

٢٠ — ما من أحديجرؤ على أن ينكر على شخص آخر ، الالتجاء إلى المقر الرسولي .

٢١ — وينبغي أن يرفع إلى كنيسة روما (أي إلى البابا) ، كل القضايا الهامة ، من أيّة كنيسة من الكنائس .

٢٢ — إن كنيسة روما معصومة من الخطأ ، وذلك وفقاً لناموس الأناجيل المقدسة .

٢٣ — أضحى لبابا روما ، الذي جرت رسامته وفقـاً لقوانين الكنيسة ، القداسة المستمدة من صفات القديس بطرس الرسول ، وذلك وفقاً لما أورده من أسانيد ، القديس اينـّوديوس أسقف بافيا ، والتي أقرها كثير من الآباء القديسين ، كما ورد في مقررات البابا سيمّاكوس .

٢٤ – بمقتضى أمر البابا وإذنه ، يجـوز للرعايا أن يتهموا حكامهم وأمراءهم .

٢٥ – وللبابا أن يعزل الأساقفة أو يعيدهم إلى وظائفهم ، دون أن يدعو السينوذ للانعقاد .

٢٦ – لا يعتبر كاثوليكياً كل من لا يتفق مع كنيسة روما .

٢٧ – وللبابا السلطة في أن يحل الرعايا من يمين الولاء التي بذلوهـا للحكام (الأمراء) الأشرار .

الملحق ٢٣

البابا جريجوري السابع يقرر قطع الملك
هنري الرابع من الكنيسة وعزله عن العرش
سنة ١٠٧٦

يا بطرس المبارك أمير الرسل ، أتوسل إليــك ان تصغى إلي ، أنا خادمك الذي حبوته منـذ طفولتي بمحبتك وعطفك ، وانقـذني من أعدائي الذين يكرهونني ، من اجل ولائي لك ، فأنت شاهدي ، ومن شهودي أيضـاً ، سيدتي أم الاله ، وأخوك القـــديس بولص ، وسائر القديسين ، بأن كنيسة روما المقدسة دعتني ، رغم ارادتي ، إلى أن اتولى أمر إدارتها ، وانني لم أحز العرش البابوي عن طريق العنف ، وكنت اوثر أن امضي الأيام في المنفى ، على أن اظفر بمكانك بالغش والتدليس

أو من أجل اطماع دنيوية .

فأنني بفضل رعايتك ورضاك ، لا بجهودي ، قمت بتسيير العالم المسيحي ، الذي عهد المسيح أصلا به اليك ، وبفضل عطفك ، وباعتباري ممثلك ، منحني الله سلطة العقد والحل في السماء والأرض .

فباسم الله القوي ، الأب والابن ، وروح القدس ، أعلن حرمان هنري (الرابع) ، ابن الأمبراطور هنري الثالث ، من مملكته بألمانيا وايطاليا . وانني لأفعل هذا ، باسم سلطتك ، ودفاعاً عن شرف كنيستك ، لأنه تمرد عليها . فكل من يحاول ان يحطم شرف الكنيسة ، ينبغي أن يتجرد من هذا الشرف الذي قد حازه . لقد أبى أن يبذل الطاعة على النحو الذي ينبغي على كل مسيحي ان يؤديها ، فلم يعد الى الله ، بل سار على غير هدى ، فاشترك مع أشخاص مقطوعين من الكنيسة في ارتكاب الشرور ، وسخر من التحذيرات التي أرسلتها إليه من أجل خلاصه . وأنت شاهدي على ذلك . لقد نزع نفسه من كنيستك ، وحاول ان يمزقها ، ولذا فانني بفضل سلطتك ، أنزلت به اللعنة . وباسمك قيدته بهذه اللعنة ؛ حتى تعلم الأقوام أنك بطرس ، وأنه على صخرتك ، شيد ابن الله الحي كنيسته ، وابواب الجحيم لن تقوى عليها .

الملحق ٢٤

رسالة البابا جريجوري السابع إلى الأمراء الألمان عن الأمبراطور هنري الرابع ، وما أعلنه من التوبة والندم في كانوسا

في ٢٨ يناير ١٠٧٧

نص الوثيقة :

الى كل رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، والكونتات وسائر الأمراء بالمملكة الألمانية ، المدافعين عن الدين المسيحي ، يبعث جريجوري ، الأسقف ، وخادم خدام الله ، بالتحية والبركات الرسولية .

نظراً لمشاطرتكم لنا ، ومشاركتنا فيما تعرضنا له من أخطار ، نجمت من النزاع الذي وقع أخيراً ، رأينا من الصواب أنه لا بد من إخطاركم بما جرى أخيراً من أحداث ، وكيف أدى الأمر إلى أن نقبل توبة هنري ، ونمنحه التحلل والغفران .

فوفقنا للاتفاق ، الذي تم إبرامه مع ممثليكم ، قدمنا إلى لومبارديا ، وأخذنا نرقب وصول أولئك الذين بعثتم بهم لمرافقتنا إلى بلادكم . وبعد أن انقضى الموعد

المقرر ، علمنا أنه كان من المستحيل إرسال قوة للسير في صحبتنا وقتذاك ، نظراً لما اعترض طريقها من عقبات ، فاشتدت معاناتنا لما حصل ، وزادت الريبة فيما ينبغي أن نفعل . وفي تلك الأثناء ، علمنا أن الملك (هنري الرابع) أخـذ يقترب من المكان الذي ينزل به ، ذلك أنه قبل أن يدخل إلى إيطاليا ، أرسل إلينا ، وعرض علينا بأنه يكفر تماماً عن ذنبه ، بأن وعد بأن يصلح حاله ، وأنه منذ هذه اللحظة ، سوف يطيعنا في كل الأمور ، بشرط أن نمنحه التحلل والبركات .

ترددنا في ذلك بعض الوقت ، واغتنمنا فرصـة ما يجري من المفاوضات ، فأمعنا في تقريعه وتأنيبه على ما ارتكب من ذنوب سابقة . ثم قدم هنري نفسه ، آخر الأمر ، إلى كانوسا ، ولم يصحبه إلا حاشية قليلة العدد ، ولم يظهر شيئاً من النوايا العدوانية .

وعند وصوله ، مَثُل بنفسه أمام باب القلعـة (كانوسا) حافي القدمين ، مرتدياً خرقاً من الصوف ، وأخذ يتضرع ، وقد امتلأت عينـاه بالدموع ، وصار يتوسل لأن نمنحه التحلل والعفو . وجرى على هـذا المنوال ثلاثة أيام متوالية ، حتي رق لحاله جميع من كان حولنا من النـاس ، فتوسطوا له بدموعهم وتضرعاتهم .

والواقع أنهم دهشوا لصلابة قلبنا ، بل إن بعضهم جأر فعلاً بالشكوى بأن تصرفنا لم يكن ليليق إلا بالاستبداد المطلق ، ولم يكن الغرض منـه التشدد في العقوبة . ولم يلبث أن تغلب على إبائنا واحجامنا ، ما حـدث من مضى الملك في إظهار الندم ، وتوسلات كل من كان بصحبتنا ، فرفعنا عنه قرار الحرمان ، وقبلنا عودته إلى أحضان كنيسة روما ، أم الكنائس المقدسة .

غير أنه (هنري الرابع) بادر قبل كل شيء ، إلى أن يحلف اليمين التي أرفقنا

نصها بهـذه الرسالة ، وتعاهد بضمانه رئيس دير كلوني ، والكونتيسة ماتيلدة ، والكونتيسة اديليد ، و كثير من رجال الكنيسة والأمراء العلمانيين ،

وإذ حقق هذا الإجراء مصلحة الكنيسة والأمبراطورية ، عزمنا على القيام بزيارتكم في بلادكم ، متى سنحت الفرصة ، إذ أن الأمر ، كما تدركون من الشروط الواردة في القسم ، لا يعتبر منتهياً ، إلا بعد مناقشته معكم . ولذا فإني أحثكم على أن تبقوا متمسكين بما حفزكم أول الأمر إلى العمل ، من الولاء وحب العدالة . ولم نلزم أنفسنا بأمر من الأمور ، فيما عدا ما تكفلنا به للملك من أن يركن إلى مساعدتنا في كل ما يسعى إليه لإنقاذه ، وللإبقاء على شرفه .

الملحق ٢٥

تسوية النزاع بين البابا والأمبراطور

١ – اتفاقية فورمز .

سنة ١١٢٢٠

ما أحرزه الأمبراطور هنري الخامس من انتصار على البابا باسكال الثاني ، لم يكن طويل الأمد ، لظراً لأن الحزب الكلوني رفض الإذعان . واستمر النزاع حتى سنة ١١٢٢ ؛ حين تم التوصل الى اتفاق .

* * *

من كاليكستوس ، الأسقف ، خادم خدام الله ، إلى ولده المحبوب ، أغسطس هنري ، الذي هو بفضل الله ، أمبراطور الرومان .

نحن نسلّم هنا بأن ما يجرى في المانيا من انتخابات الأساقفة ورؤساء الأديرة ، الذين يتولون وظائفهم مباشرة من قبل التاج ، ينبغي أن تتم بحضورك ، وينبغي أن تجري وفقاً للقانون الكنسي ، دون أن تتعرض للسمعانية ، ولكل ما يخالف القانون . فإذا حدث نزاع حــول الانتخابات ، فإن لك الحق في أن تفصل بين الحزبين المتنازعين ، بعد استشارة رئيس اساقفة الولاية ، ورفاقه الأساقفة . ومن حقك أن تبذل للأسقف أو رئيس الدير المنتخب

شارة الوظيفة ، وهي الصولجان ، دون أن تتقاضى منه ثمناً لها . ومن جرى انتخابه من جهته من الأساقفة أو رؤساء الأديرة ، يباشرون الواجبات التي تتفق مع شارة وظيفتهم .

وفي سائر أجزاء الأمبراطورية يحصل الأساقفة منكم على شارات وظائفهم في خلال ستة أشهر من رسامتهم ، وينبغي عليهم أيضاً أن يمارسوا واجباتهم التي تتعلق بشارات وظائفهم . وما لكنيسة روما من حقوق ثابتة ، ينبغي ألا تتأثر بهذا الامتياز . فاذا حدث أن اقتضت الأحوال أن تشكو من تنفيذ هذه القرارات ، فسوف أحرص على الاستجابة لشكاويك طالما لم تتعارض مع وظيفتي وإنني ، آخر الأمر ، لأبذل السلام الصادق الدائم لك ولكل أتباعك ، ومنهم أولئك الذين ساندوك في النزاع الأخير .

٢ – وعد هنري الخامس ١١٢٢

باسم الثالوث المقدس الذي لا ينقسم .

من أجل محبة الله وهذه الكنيسة المقدسة ، والبابا كاليكستوس ، ومن أجل تخليص روحي ، أعلن هنا ، أنا هنري ، أمبراطور الرومان وأغسطس بفضل الله ، أنني أتنازل لله ورسوليه ، القديس بطرس والقديس بولص ، وللكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، عن كل تقليد بالخاتم والعكاز ، وإني لأوافق على أن الانتخابات والرسامات ينبغي أن تجري وفقاً لقانون الكنيسة ، وألا تتعرض لشيء من التدخل ، وإني لأتنازل أيضاً عن تملكي واستحواذي على سلطات القديس بطرس التي حزتها أثناء هذا الشجار ، أو التي حازها والدي أثناء حياته ، والتي أضحت بحوزتي ، واني لأعد الكنيسة بالمساعدة بأن تسترد كل ما حازه فرد من الأفراد ، وإني لأعيد لها أيضاً أملاك سائر الكنائس والأمراء ، العلمانيين أو الدينيين ، التي جرى انتزاعها زمن الشقاق ، وإني لأعدهم باستعادة كل ما بحوزة الأشخاص الآخرين من أملاك .

وفي الختام أبذل السلام الدائم الصادق للبابا كاليكستوس ، ولكنيسة روما المقدسة ، ولكل من ينتمي إلى حزبه ، وسوف أساعد كنيسة روما كلما طلبت مني المساعدة ، وسوف أرعى العدالة في كل الأمور التي تقتضي الأحوال من الكنيسة ان ترفع عنها الشكوى .

كل هذه الأمور قد تمت بموافقة وبنصيحة الأمراء ، الذين وقعوا بأسمائهم أدناه .

ادبابرت	رئيس اساقفة ماينز
فردريك	رئيس اساقفة كلونيا

الديرية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر

على الرغم من أن لكل اصلاح للديرية خصائصه ، فأن الإصلاحات في مجموعها استوحت قاعدة القديس بنيدكت . وسبق الإشارة إلى أن هذه القاعدة أعدّت لمجتمع شديد التماسك ، التزم التقشف والزهد في الحياة ، على ألا تكون بالغة القسوة والشدة ، فالراهب البنيدكشى لابد أن يتخلى عن العالم ، فيقسم بأن يتنازل عن متاعه الخاص ، وأن يطيع رئيس الدير في كل الأمور ، وألا يغادر الدير حتى وفاته . ولم يكن الغرض من الحياة عنده سوى أن يمارس التواضع المسيحي ، بأن يتواضع أمام رؤسائه ، وبأن يشتغل في الحقول ، وبأن يبذل الجهد لله . ويعتبر أهم واجب عنده ، أن يؤدي على الوجه السليم طقوس الكنيسة ، حسبما صدر عن القديس بنيدكت من تعليمات وارشادات

ومع أن القديس بنيدكت واجه مجتمعاً بسيطاً ساذجاً ، لم يحظ إلى حد كبير يقدر من التعليم ، فأن المصلحين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر نزعوا إلى اعتبار الرهبان فئة دينية مختارة ، فلم يعتبروا أنفسهم عبيد الله ، كقدر اعتبار أنفسهم « جنود المسيح » .على أن هذا المبدأ الجديد يصح استخلاصه من أقوال القديس بنيدكت ، إذ أنه في مستهل قاعدته حث كل مبتدىء من الرهبان ، على أن يتخلى عن إرادته ، وأن يتخذ من

أسلحة الطاعة الفائقة الماضية ما يقاتل بها تحت لواء السيد المسيح ، الملك الحق ، غير أن هذا المظهر لمبدأ الديرية أضحى بالغ الأهمية في القرن الحادي عشر . وزخرت رسائل القديس برنارد ، الراهب السستري الكبير في القرن الثاني عشر ، باستعارات عن ساحات القتال ، فورد في رسالة وجهها إلى راهب فرّ من الدير :

فلتنهض ، يا جندي المسيح ، ولتنهض من الأرض ، ولتَعُد إلى المعركة التي هربت منها ، ولتستبسل في القتال بعد أن هربت ، ولتنتصر في المجد .

فهل كان هذا الراهب يظن أن العدوّ لن يطارده لأنه فر أمامه ؟ أو هل أحسّ أنه أضحى من بالغ السلامة ما حمله على قذف سلاحه بعيداً ألم يظن أنه لأسلم له ، إذا أحاط به أصدقاؤه ، وحرسته الملائكة ، وقاده المسيح ؟ كل هذه الفقرات وغيرها دلّت على أن القديس برنارد وسائر مصلحي الديرية اعتبروا الراهب محارباً من أجل الدين ، ولم يكن عدوه إلا الشيطان ، ويعتبر الشيطان حقيقياً إذا تصورناه على أنه قوة خارقة تسيطر على كل بذور الحرب ، وتعمل دائماً على تدمير الناس . وللاحتراس منه ، لا بد للانسان أن يكون دائماً يقظاً ، وأن يؤدي باستمرار الصلوات .

وكان المسيح هو الأمل الوحيد لمناهضة الشيطان، لما للمسيح من السيطرة على العالم . وإذا اعتقد بهذا الرأي القديس برنارد ، توقع المساعدة في خدمة الله من كل العناصر .

مثال ذلك أنه بينما كان القديس برنارد يملي الرسالة التي سبق الاشارة إليها ، كان يجلس في فناء مكشوف فأخذت السماء تمطر ، وأراد الكاتب أن يستتر في الداخل حتى لا يبتل الرّق الذي يكتب عليه ، غير أن القديس برنارد قال « إن هذا لعمل الله ، فلتمض في الكتابة ، ولا تخش شيئا» فأتم كتابة الرسالة تحت المطر المتساقط ، وظل الرّق جافاً .

فما من شيء يمنع من عمل الله ، لأن الرهبان ليسوا إلاّ جنوده ، وعليهم طاعته . فلم يكن الغرض الأساسي للرهبان أن يعلموا غيرهم من الرهبان ، أو أن ينسخوا التراث القديم ، أو أن يكتبوا التاريخ ، أو أن يبذلوا الضيافة للقادمين عليهم ، أو أن يرعوا المرضي ، أو أن يقوموا بالدعوة للدين في العالم ، على الرغم من أن بعض هذه الأمور تعتبر من أعمال مهنتهم الثانوية ، إنما كان غرضهم هو أن يعيشوا حياة مسيحية ، بأن يجري التسبيح باسم الله سبع مرات في اليوم ، فضلاً عن التهجد في نصف الليل ، فما يقرب من أثنين وأربعين مزموراً يتم انشادها كل يوم ، وتركزت كل حياة الدير على طقوس الكنيسة . فلم يكن هؤلاء الرهبان اخصائيين اجتماعيين يتطلعون لوظيفة من الوظائف ، بل كانت تحدوهم الرغبة في أن يصلحوا أنفسهم ، لا العالم (لأن ذلك كان مستحيلاً) .

وعلى الرغم من أن الرهبان شرعوا في اصلاح أنفسهم فان القرنين الحادي عشر والثاني عشر شهدا بين رجال الدنيا نزوعاً غير محدود ، نحو الديرية ، فلا تكاد تصادف في انجلترا في القرن الثاني عشر سيداً لم يسهم في إثراء الدير . واختلفت البواعث على هذا الاتجاه ، كان يتعرض أحدهم لمرض خطير ، أو

يكفر عن جريمة ارتكبها ، أو يلتمس من الله المساعدة في المحافظة على إقطاعه الصغير .

غير أن الصيغة العامة التي حرص مؤسس الدير في وثيقته على تأكيدها هي أنه أقام الدير « من أجل خلاص روحه » . إذ قال احد المؤسسين « اني لوطيد الأمل في أن أفيد بهذه المنحة في الحياة المقبلة ، فإذا أرضى الله ما فعلته في هذه الحياة الدنيا ، فلسوف أذكر دائماً « ما تبذره سوف تجنيه » ، وكذا تلك الكلمة الموجهة إلى الله « سوف تهب كل انسان حسبما يؤديه من عمل » .

نشأت الأديرة للابقاء على ما لقوم معينين ، في موضع خاص من شفاعة متصلة غير مقطوعة . فالشفاعة للموتى لم تعتبر مجرد مسألة نظرية ، بل تعتبر حقيقة واقعة ، وكذا كان شأن الشفاعة للأحياء . فالرجال يقطعون مئات الاميال للتوسل عند ضريح أحد الأولياء ، وقد يدفعون مبلغاً ضخماً من المال مقابل الحصول على أثر صغير مقدس ، فقد يشفع الولي عندئذ لروح المتوسل المذنبة .

لم يكن من اليسير على الناس في العصور الوسطى أن يفرقوا بين ما هو محسوس ، وما هو معنوي ، فمتى تراءت لهم القداسة ، أحبوا أن يقتنوها ، ولذا دأبوا على أن يجتمع عندهم من النساء . والرجال من يأنسون فيهم القداسة ، ولذا كان للسادة الاقطاعيين أهمية بما هيأوه للرهبان من السعي إلى الله ، وبذل الطاعة له ، وشن الحرب الدائمة على الشيطان .

وما يعتبر جديداً في القرن العاشر والقرنين الحادي عشر والثاني عشر ،

ما جرى من استحداث طوائف الرهبان ، أو الفئات المنظمة من الأديرة التي تعتبر جيوشاً فعلية للمسيح إذ كان الدير قبل هذه الفترة عبارة عن مجتمع مستقل ، يتفقده من حين لآخر أسقف الأبروشية ، الذي كان له الحق في أن يعرض ما يراه ضرورياً من الاصلاحات ، وخضع الدير أيضاً ، إلى حد مـا ، لسيطرة سيده العلماني الذي لم يكن سوى مؤسس الـدير أو وريثه [١] ، ولم يتأثر الدير مطلقاً بكل نظام ديري خارجي . فمع أن لدير مونتي كاسينو الصدارة على سائر الأديرة البنيدكتية ، فليس له ولا لغيره من الأديرة أن يشرف على الطريقة التي تنفذ بها قاعدة بنيدكت في الأديرة الأخرى .

الكلونيون

كان ذلك هو العيب الذي التزمت باصلاحه طوائف الرهبان ، وأولهـا الكلونيون الذين يعتبرون نموذجاً لجميع الطوائف . وليس من السهل تحديد

---

١ - تشير الوثائق ، التي ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر ، وأوائل القرن الثاني عشر ، إلى ما كان يبذل من مجهود كبير لانشاء دير . إذ كانت المبادرة عادة تأتي من بارون كبير ، يبذل الموضع الذي يقام عليه الدير ، ثم يحبس عليه الأراضي والموارد ، ويمنحه الاعفاءات القضائية ، ثم يقرر ما ينتمي إلى ديره من أديرة اخرى ، وينظم العلاقات المقبلة بين الـدير وأسرته .

واحتذى بالبارون اتباعه ، الذين اسهموا أيضاً بالأراضي وبـذل الحقوق ، وزعمـوا لأنفسهم نصيباً فيما للدير من منافع روحية :

انظر Southern, R. W. The Making of the Middle Ages, p. 151.

الزمن الذي ظهرت فيه طائفة الكلونيين ، نظراً لأنها نشأت رويداً رويداً ، ولأنها اتخذت في قيامها وسيلة لم تكن معروفة من قبل . إذ أن مركز هذه الطائفة ، وهو دير كلوني ، نشأ سنة ٩١٠ على أنه دير بنيدكتي ، لراهب اسمه القديس Berno بيرنو اشتهر بصرامته في مراعاة قاعدة بنيدكيت ، وكان فعلا رئيساً لدير جيجني Gigny . وما عرف به بيرنو من الزهد اكسبه من الشهرة ما حمل عدداً كبيراً من المريدين على أن يهرعوا إلى ديره ، واقتضت زيادة عدد الرهبان إنشاء دير كلوني وكان المقصود به منذ البداية أن يكون نموذجاً لفضيلة الرهبنة ، كما أن مؤسسه وليم التقى دوق اكيتانيا وكونت ماسون ، منحه امتيازاً بأن قرر اعفاءه من كل سيطرة علمانيـــة . فليس لمؤسسه ولا لأقاربه ، ولا لأحد من العلمانيين ، أن يتدخل مطلقاً في أمور الرهبان،واعتبر الدوق وليم ، القديسين بطرس وبولص والبابا حماة للدير وحراساً له .

وكان لحماية البابوية فيما بعد أهمية كبيرة في تاريخ دير كلوني ، غير أنه لم يكن لها في بداية القرن العاشر من الاهمية مثلما كان للدير مـــن شهرة في الالتزام بالديرية . ولم يلبث الرؤساء الدنيويون لسائر الأديرة أن قدموا إلى رؤساء دير كلوني ،يلتمسون النصيحة والمساعده في اصلاح الديرية . وتولى رؤساء دير كلوني ، الذين تعاقبوا منذ نشأته على رئاسته ، اصلاح عدد ضخم مـــن الأديرة ؛ بل أن ثاني رؤسائه ، وهو القديس اودو (٩٢٦ — ٩٤٢) اعتبر نفسه رسول اصلاح الديرية ، إذ أنه لم يغلق على نفسه ابواب الدير في كلوني ، بل طاف بكل من فرنسا وإيطاليا ، من اقصاها إلى أقصاها ، كيما ينشر الحيـــاة الديرية السليمة .وركز أودو اهتمامه أول الأمر على ذوى النفوذ من العلمانيين، لأنهم القوامون على الأديرة ، وقد يعهدون بها إليه لاصلاحها ، ومثال ذلك إصلاحه للأديرة القريبة من روما بناء عـلى طلب مؤسسها البريك الـــذي نعت نفسه أمير روما . وصار بوسع أودو أن يتوجه في جماعة صغيرة مـــن الرهبان إلى الدير وأن يطلب السماح لهم بالدخول ، بعد أن تسلح بسلطة

مؤسس الدير ، فيقبله رهبان الدير عادة على أنه سيدهم ، وعندئذ يحاول أن يجتذبهم إلى فكرة الإصلاح ، فيدلهم ، مع رفاقه ، على ما يجري في كلوني من حياة ، ويشرح لهم يومياً قاعدة القديس بنيدكت ،ثم لا يلبث أن يعهد بالدير إلى جماعة من رفاقه ، ثم يمضي إلى رسالته التالية . وقد يعود إلى الدير من حين إلى آخر لتفقده باعتباره مختصاً في اصلاح الديرية :

والملحوظ أن كان لبعض الإصلاحات من صفة الثبات والدوام ما يزيد على غيرها ، لأن نجاح عمله توقف على نوع الرهبان المصلحين الذين خلفهم في كل دير . وقد يحدث أن مؤسسي الأديرة العلمانيين المتحمسين كانوا يأملون في استمرار روح الاصلاح ، بأن يلحقوا أديرتهم بصفة دائمة بدير كلوني . ومثال ذلك أديلايد دوقة برجنديا التي اشترطت عند تسليم دير رومينموتيه (سنة ٩٢٩) إلى كلوني ، بأن يتحد رهبانه برهبان كلوني ، وأن يرأسهم رئيس دير كلوني أيضاً . ولم يكن المقصود من هذه الطريقة ، سوى الاطمئنان إلى أنه ينبغي لدعاة الإصلاح ألا يفقدوا اهتمامهم بديرها، وتعتبر أيضاً الخطوة الأولى نحو إنشاء طائفة الكلونيين .

وترتب على ذلك أن روساء دير كلوني أضحوا سادة لنحو ١٤٥٠ دير ، ألـّف رهبانها جماعة واحدة ، مثلما حدث في دير رومينموتييه . أضحوا جميعاً رهباناً لدير كلوني ، وهذا هو السر في أنهم صاروا يعرفون بالكلونيين ، فما من أحد يصير راهباً في دير كلوني حتى لو كان في أنجلترا أو آسيا الصغرى ، ما لم يقره رئيس دير كلوني • ويقسم له يمين الطاعة الروحية والزمنية . وليس لكل دير كلوني رئيس ، لأن مقدمه ليس إلا نائباً عن رئيس دير كلوني ، الذي يتولى تنصيبه . والواقع أنه حدث في القرن الحادي عشر أنه لم يكن للأسقف أو

رئيس الأساقفة السيطرة على الأديرة الكلونية في ولاياتهم ، إذ منح البابا يوحنا التاسع عشر لأديرة كلوني الحصانة من تدخل أسقفية ماشون وسائر الأسقفيات . فأضحى رئيس دير كلوني الشخص الوحيد ، الذي له الحق في تفقد الأديرة وإصلاحها ، وليس مسؤولاً إلا أمام البابا ، فيصح مقارنة طائفته بالجيش وبقائده الأعلى ، وقانونه العسكري .

وفي الجملة لقيت فكرة طائفة الرهبان ترحيباً حماسياً ، نظراً لأنها وضعت مستوى ثابتاً ونظاماً موحداً لحكومة الدير . أضحى النظام متماثلاً في كل مكان ، فالرهبان الكلونيون ، أياً كانوا ، يهرعون إلى الكنيسة أو الى مقر هيئة الدير في وقت واحد وبصورة واحدة ، لما يعتقدونه بأن ليس ثمة إلا سبيل واحد مكتمل كيما يكون الفرد راهباً ، وكلما جرى سلوك هذا الطريق ، كان ذلك خيراً للعالم .

وعلى الرغم من اختلاف المثل والمبادىء عند المصلحين ، فإنهم جميعاً اعتقدوا أنه لا بد أن تجتمع الأديرة في صورة تكفل المحافظة على النظام والوحدة . فلم يفكروا في أن يتركوا الأديرة مستقلة ، يعمل كل منها على ترقية النهج الذي يتخذه في حياته ، لأنهم أدركوا الحقيقية المرة بأن الميل الطبيعي للدير هو أن يزداد ثراء ، وأن ينزع الرهبان الى أن يخلدوا للدعة والكسل . وحاولت الديرية تعذيب الجسم ، ولتحقيق ذلك كان لا بد أن تتخذ كل اجراء لحماية الطبيعة البشرية من غواية الشيطان ، فكل اصلاح انما نشأ من الرغبه في الالتزام بمراعاة قاعدة القديس بنيدكت لا تغييرها .

السستريان

وعلى هذا النحو يرجع أصل طائفة السستريان الى أحوال شديدة الشبه بتلك التي أدت الى إنشاء دير كلوني . ففي سنة ١٠٩٨ ، غادر دير موليزم جماعة من

الرهبان بزعامة رئيسهم روبرت ، كيما يعيشوا حياة بالغة الصرامة في غـابة برجنديا . لم يفكروا منذ البداية في إنشاء طائفة جديدة . وكل ما أرادوه أن يشيدوا ديراً ليس طافحاً بالثروة ، شان دير موليزم ، فيستطيعون فيه أن يعيدوا قاعدة بنيدكت الى بساطتها الأولى .

ولذا لم يكن لهم من سبيل للإختيار سوى أن يصيغوا من أحكام قـاعدة بنيدكت ما يقضي بتخصيص شطر من النهار للعمل اليدوي . غير أنه كيفما كان الامر كان لزامـاً على الرهبان أن يعملوا ، بعد أن رفضوا قبول العشور ، والإيجارات ، ومقررات الضيعة ، وإذ لم يكن لهم سيطرة عـلى الأرقاء والأقنان. اتخذوا لأنفسهم النظام المعروف بإسم الاخوة العلمانيين (Conversi) الذين أقاموا في الدير يمارسون حياة شبه ديرية ، على الرغم من أنهم لم يكونوا رهباناً أو من رجال الدين ، ونزلوا في جناح خـاص بالدير ، ولم يعملوا من أجل المال بل من أجل محبة الله . ومع ذلك فإن الرهبان أنفسهم يعملون أيضاً ، ولذا لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي لتحقيق كل طقوس الكنيسة على النحو المعروف في الأديرة الكلونية .

كان هذا فيما يبدو هو الجديد عند السستريين على الرغم من أنه يعتبر رجوعاً الى التفسير الحرفي لقاعدة بنيدكت . إذ ساد الاتجاه عند المصلحين الديريين في القرنين التاسع والعاشر الى الإكثار من طقوس الكنيسة . فكلما طال الزمن الذي يمضيه الراهب في ممارسة الطقوس الدينية ، زادت قداسته . على أن السستريين ابرّروا انقطاع صلتهم بهذا التقليد ، بالالتجاء الى قـاعدة بنيدكت ، إذ أراد القديس بنيدكت من الرهبان أن يشتغلوا في الحقول مثلما يشتركون في التراتيل ، ووفقاً لذلك أعد جدوله الزمني ، فعزم رهبان السستريان على أن يؤدوا ما يؤمرون به . إذ حرصوا على أن يلتزموا الدقة في مباشرة الطقوس على

النحو الذي فرضه بنيدكت . فلم يودوا أن يضيفوا شيئاً الى القاعدة أو ينزعوا منها شيئاً ، لاعتقادهم أنه لا بد لهم من الالتزام بها حرفياً .

وكيلا يتطرق الفساد الى قاعدة ببيدكت ، حرصت أديرة السستريان على اقتناء نسخة منها جرى نقلها عن المخطوطة المحفوظة في سيتو Citeau . واتخذت احتياطات مماثلة مع الكتب الدينية الهامة الاخرى . على أن الرجال الذين يؤمنون بالوحي اللفظي للأناجيل ، والذين وطدوا العزم على الإذعان للنص الحرفي لقاعدة بنيدكت ، كان لزاماً عليهم إلتزام القراءة السليمة لكل نص (كتاب) ، على الرغم من اختلاف مخطوطات الانجيل ، وعدم تطابق نصوصها . ولذا حرص رهبان السستريان على إحياء المسيحية الأولى ، وهذا هو السر في أنهم أرادوا أن ينتزعوا من قاعدة القديس بنيدكت الإضافات المتأخرة ، وأنهم أولوا اهتماماً خاصاً بالتقاليد المبكرة ، التي ترجع الى رهبان الصحراء .

ففي السنوات الأولى من تاريخ السستريين، درج رهبانهم على الاشارة الى ديرهم في سيتو على أنه « صحراء » ، وحرصوا على أن يؤكدوا ما ينبغي أن يتحمله الراهب من متاعب . وظن السستريون ، مثلما ظن البنيدكتيون المتأخرون ، أن قاعدة بنيدكت لم تنطو إلا على الحد الأدنى لمقتضيات حياة الرهبان . فحرصوا على أن يمضوا قدماً حتى يبلغوا ما بلغه رهبان الصحراء من الاستخفاف بالعالم والانفصال عنه . وكان من السستريين عدد كبير من الزهاد ، وأصروا على حياة الجماعة ، لا لاضعاف حماسهم بل لزيادته .

وأقاموا أديرتهم في المواضع التي اختارها الزهاد، بعيداً عن المدن والمساكن، وعن الأراضي الزراعية ، بل جرى تشييدها في الغابات العذراء أو الصحراء أو الأرض المهملة . وغلب على المباني البساطة والتقشف ، والمعروف أن كنائس

الأديرة كانت بسيطة وخالية من الزخرف ، على عكس ما كان حادثاً في كنائس كلوني المشهورة بفخامتها. لم يكن بالكنائس السسترية أبراج للأجراس ، وكانت الصلبان مصنوعة من الخشب ، كما ان الشمعدانات اتخذت من الحديد ، وكانت المباخر من النحاس ، ولم تتخذ الأردية الكهنوفية من الحرير ، بل من الكتان. وفي النحت والتصوير ، تقرر منـــع رسم الموضوعات الخرافية المبتذلة المثيرة للسخرية ، وتقرر استخـدام مـــداد من لون واحد في كتابة المخطوطات ، والامتناع عن تزيينها وتحليتها .

على ان بعض هذه القواعد ، ولا سيما ما يتعلق منها بالمخطوطات المزينة ، لم يضعها مؤسسو طائفة سيتو ، بل ترجـع الى تلميذهم المعروف القديس برنارد ، الذي انضم الى الطائفة سنة ١١١٢ ، وبفضل شخصيته ، ذاعت شهرتها . اشتهر برنارد بأنه مبشر كبير ، وكاتب رسائل نحرير ، ومجادل بليغ ، واستطاع دون غيره من الرهبان أن يوضح الاختلافات التي تفصله هو ورفاقه عن الكلونيين. ويعتبر القديس برنارد ان الغرض من الديرية هو التغلب عـلى الطبيعة البشرية ، وقهر الجسد ، والاتصال بالله .

هذا الزهد لقي استجابة كبيرة من رجال القرن الثاني عشر ، ولا سيما إذا اقترن بفصاحة القديس برنارد ، ولذا اتسم ظهور طـائفة السستريان بالسرعة الفائقة . ومن الدليل عـلى ذلك أن صار عـدد الأديرة التي تنتمي الى طائفة السستريان عند وفاة القديس برنارد سنة ١١٥٣ يربو على ثلثمائة دير ، بينما لم ينتم لها دير واحد عندما التحق بها القديس برنارد سنة ١١١٢ ، وترتب عـلى زيادة العدد ، وضع دستور لهذه الطائفة أقره البابا كاليكتوس الثاني في سنة ١١١٩ .

وتضمنت هذه الوثيقة (الدستور) في وضوح خطة الحكومة ، إذ انطوت على ضرورة خضوع طائفة السستريان لحماية البابوية واعفائها من سلطة الأسقف ، مثلما كان الأمر مع الكلونيين ، وافترضت أيضاً انها تود أن تتصرف على انها هيئة متحدة

غير ان ما اتخذته من وسائل لتحقيق هذا الغرض اختلفت عن الوسائل التي اتخذتها طائفة الكلونيين. وعلى الرغم من ان رئيس دير كلوني يعتبر الراعي العام للطائفة، فإنه لم يحز ما حازه رئيس دير كلوني من سلطات دكتاتورية، كما انه يجوز عزله لسوء سلوكه، ولم تكن له السيادة العليا، بل كانت السيادة للهيئة العامة للدير، التي تجتمع كل سنه، وتألفت من رؤساء الأديرة التي تنتمي للطائفة، وهي وحدها صاحبة الحق في إجراء أي تغيير في دستور الطائفة، ولها وحدها مطلق السلطة في عزل رؤساء الأديرة، الذين ليسوا جديرين بمناصبهم.

على أن أهم مظهر لطائفة السستريان يتمثل في اللامركزية، التي يسر قيامها ما ارتبطت به الأديرة من صلات وثيقة، فلا يجوز إنشاء دير جديد للسستريان إلا إذا كان ثمة دير أساسي ليمده بفئة من الرهبان لا يقل عددهم عن خمسة وعشرين راهباً. وكل من هذه الأديرة الأساسية يراقب الأديرة التي تنتمي له، فيتفقدها كل سنة رئيس الدير الأساسي، وكل دير فرعي يصح بدوره أن يكون ديراً أصيلا، وترتب على ذلك أن جري ترتيب أديرة طائفة السستريان على هيئة شجرة للنسب فأضحى رئيس الدير الاساسي مسؤولاً عن زيارة أديرة معينة، بينما لا يزور دير سيتو سوى رؤساء الأديرة الأربعة الأساسية، كل بدوره.

وبذا تعتبر طائفة السستريان نموذجاً لتنظيم أعمال الآخرة. إذ كانت تمثل أهم ما بذلته العصور الوسطى من جهد كيما تؤكد ان التقشف الديري الصارم لا بد من المحافظة عليه للأبد في أماكن معينة، برغم الطبيعة البشرية. كان تنظيماً يعجز عن طاعته البشر، غير أن الرجال الذين ابتكروه، اعتبروا انه ليس إلا الوسيلة الوحيدة التي يجري بها بناء مملكة الله.

الواقع ان تاريخ الديرية في العصور الوسطى ليس إلا سجلا طويلا من الاصلاحات الدائمة التي أعقبها انهيار مستمر، ولم تشذ طائفة السستريان عن

هذه القاعدة . فإن الرهبان الأوائل للدير الجديد لم يعيشوا إلا الحيـاة الجديرة بالزهاد . وما أحرزته الطائفة من نجاح ، كان بالغ الخطورة والعنف ، إذ كان لزاماً على الرهبان أن يقتلعوا الأشجار ، وأن يزيلوا الصخور قبل أن تتهيأ الأرض للزراعة ، بل قد يناموون في ظل شجرة بلوط قبل أن يكتمل بناء الدير . غير أن الحياة أصبحت هينة مريحـة ، عقب السنوات الأولى من إنشاء الدير . وطالما اكتشف الرهبان أيضاً أن الموقـع الذي اختاروه ليس موحشاً لأنـه أضحى غزير النبات ، وأضحت التربة خصيبة ، لم تعد صالحة فحسب للشجيرات الشائكة والأزهار البرية ، بل زخرت أيضاً بالخزامى .

على أن الحماس الشديد الذي استقبل به العالم الرهبان الزهاد ، نزع الى جعل السستريين أثرياء ، فكلما كانوا أكثر تقشفاً وقداسة ، ازداد ميل النـاس من الرجال والنساء الى اغداق المنح والمطايا عليهم ، بل ان ما جرى من ازدياد عدد السالكين في هذه الطائفة أثار الحيرة ، إذ تدفق على كليرفو أعـداد كبيرة من الرجال ، ليصيروا رهباناً لدى القديس برنارد فضاقت بهم المباني والمواضع ، ولم يشأ القديس برنارد أن يغادر موضعه المحدود ، الى موضع آخر يجعـل حياة الديرية أقــل عناء . غير أن مقدم الدير كان رجلاً عملياً ، فأدرك ضرورة الانتقال الى موضع آخر . فتم التحول الى موضع بالـغ الاتساع وافر الغنى ، وخرج العلمانيون ، يتقدمهم تيوبالد كونت شامبين ، عن كل الأموال الـلازمة لإقامة مبان جديدة . على أنـه كيف فشل العلمانيون في مساندة دير له من القداسة ما يضارع قداسة كليرفو . وكيف فشل كليرفو في أن يصير غنياً .

وبذا فشلت كل الجهود الكبيرة لتحقيق حـالة ثابتة من الزهد والقداسة . إذ تتابع فشل الطوائف الدينية ، الواحـدة بعد الأخرى ، لتحقيق القداسة وإقرارها في داخل القاعدة .

أهمية الديرية في حضارة غرب أوروبا

من العسير أن نبالغ في تقدير أهمية الديرية في تطور حضارة غرب أوروبا أثناء القرن العاشر والقرنين الحادي عشر والثاني عشر . فمع ان الغرض الأساسي للأديرة كان يرمي الى ضمان خلاص الرهبان ، فإن هذه الأديرة قامت بأعمال بالغة القيمة في المجتمع الديني والدنيوي . ولعل أهم ما أدته من خدمة للديانة ، لم تكن ملموسة ، ولكنها عرضت نماذج للحياة المسيحية أقرب الى المثال الرسولي من تلك التي سادت عند رجال الدين الدنيويين أو العلمانيين ، فأضحت بذلك حافزاً دائماً الإصلاح ، إذ أن كثيراً من القادة الروحيين في هذه الفترة تلقوا التدريب والإلهام في الأديرة ، ومع أن من كبار الديريين أمثال القديس برنارد وكبار رؤساء الأديرة الكلونية ، باشروا زعامتهم من داخل الأديرة ، فإن غيرهم أمثال لانفرانك وانسلم والقديس هيو أفالون ، غادروا أديرتهم كيما يصيروا من موظفي الكنيسة . وإذ كان تجديد الكنيسة الانجليزية بعد غزوات الدانبيين يعتبر من عمل الرهبان الذين أضحوا أساقفة تحت زعامة القديس دنستان ، فإن الإصلاح الكلوني نما واكتمل في الأديرة الكلونية .

ومع أن الصلة المباشرة للبابا جريجوري السابع بدير كلوني ترجع إلى الفترة القصيرة التي أقامها بالدير ، فان افكاره جاءت إلى حد كبير من هذا الدير ، كما أن الأديرة الكلونية نشطت في مساندتها له .فالطوائف الدينية المركزية ،أمثال الكلونيين والسستريان كانت من العوامل القوية الفعالة في نمو السلطة البابوية . وتعتبر الأديرة أيضاً في القرنين العاشر والحادي عشر ، أي قبل ظهور الجامعات المقر الوحيد للمتعلمين المثقفين ، الذي تستمد الكنيسة منه حاجاتها ، كما ان المكتبات التي حافظت على علم القدماء كانت في معظم الأحيان بالأديرة. إذ كان الرهبان هم الذين يقومون بنسخ الكتب ،فتهيأت بذلك الفرصة للإبقاء على المكتبات.

يضاف إلى ذاك أن نسبة كبيرة من طلاب العلم في هذه الفترة واصلوا دراساتهم في داخل الأديرة .

وأسدت الأديرة أيضاً خدمات جليلة للمجتمع بصفة عامة . فالمحافظة على العلم وانتقاله كان بالغ النفع لجميع الناس ، فالدراسات التاريخية بصفة خاصة تدين إلى الرهبان بما أسدوه لها من فضل إذ أن كل دير حرص على أن يثبت الأحداث التي تهم المجتمع.وعلى الرغم من أن هذا السجل اقتصر عادة على ايراد ملاحظات مختصرة عن انتخاب رئيس جديد للدير ،أو وفاة أحد المجاورين للدير من السادة الاقطاعيين أو موظف كنسي كبير ، أو اثبات ظاهرة طبيعية خارقة مثل حدوث صقيع شديد أو هزة أرضية عنيفة ، فان بعض الأديرة احتفظت بتواريخ أكثر استفاضة واتساعاً . فالمعروف أن الفرد ملك انجلترا حث الأديرة بانجلترا على الاحتفاظ بما هو معروف لنا من التواريخ،مثل تاريخ الانجليز السكسون ،والمعروف أيضاً أن الراهب النورماني ، اوردريك فيتاليس ألف تاريخاً لنورمانديا زمن وليم الفاتح وأبنائه ، وبرغم ما يفتقر اليه هذا التاريخ من الترتيب ، فأنه امتاز بالاتساع والشمول ، والواقع أن كل درايتنا بأحداث القرنين العاشر والحادي عشر ، تكاد تكون كلها مستمدة من تواريخ الأديرة ، غير أن تأليف التواريخ لم يعتبر نهاية لما أسداه الرهبان من خدمات للتاريخ . إذ حرصوا على أن يدونوا في وثائق رسمية كل ما يبذل للأديرة من هبات ومنح ، فاعدّت أديرة عديدة سجلات لأملاكها . أضحت هذه الوثائق والسجلات مصدرنا الأساسي لما نعرفه من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في القرنين العاشر والحادي عشر .

على أن ما بذلته الأديرة من فضل للحياة الاقتصادية في هذه الفترة كان اعظم

أهمية ، ونظراً لأن الرهبان كانوا أكثر ثقافة وأعمق تفكيراً من السادة العلمانيين ، فإن ضياعهم لقيت من الادارة السليمة ما لم تلقه ضياع الآخرين . فأراضي الأديرة كانت أول ما تطور فيها استخدام الطرق الحديثة في الزراعة . ومع أن الرهبان السستريان كانوا أول من استصلح الأراضي المهملة وأعدوها للزراعة ، فأن أديرة عديدة قامت بنصيب كبير في حركة استصلاح الأراضي . وتوافر من الأدلة ما يشير إلى أن الرهبان قطعوا شوطاً كبيراً في ابتكار الأدوات والآلات الصناعية ، ومن المحقق أنهم كانوا خير بناة عصرهم . فما من أحد درس الكنائس الرومانسكية الرائعة ، كالتي في سان دنيه وفيزيلاي ونوتردام دي بواتيه ، أو كنيسة القديس سرتين في تولوز ، الا امتلأ اعجاباً بالحرفيين الديريين .

على أنه من العسير تقييم ما استمده المجتمع من فوائد اجتماعية من الأديرة . فالمعروف أن الرهبان ابقوا على المدارس التي يتعلم بها العلمانيون متى أرادوا ، غير أنه نظراً لأن التعليم لم يلق من الطبقة الاقطاعية الا اهتماماً ضئيلاً ، فالراجح أن هذه الأساليب التعليمية لم تستخدم كثيراً . فكل الأديرة تتصدق على الفقراء وترعى المرضى بالجهات المجاورة ، غير أنه ليس واضحاً ما إذا كانت أية من هاتين الخدمتين جرت على نطاق واسع وطالما استخدمت الأديرة نزلاً للسادة وكبار موظفي الكنيسة أثناء سفرهم وطوافهم . ولعل أهم قيمة اجتماعية للأديرة في أوائل العصور الوسطى تنحصر في استخدامها ملاذاً يلجأ اليه الرجال والنساء من السادة أو المفكرين أو الدراسين ، الذين لم يكن لهم في العالم المضطرب مكان يتسع لهم .

على أن الأديرة تعرضت للنقد والاتهام من قبل الكتاب المعاصرين لها،ومن جاءوا بعدهم . ومعظم هذه التهم تتعلق باخلاق الرهبان وأسلوب حياتهم . إذ أن المثل الأعلى للديرية ، كان بالغ السمو ، ولم يكن الرهبان سوى رجال يعيشون في عصرهم ، ففي الأديرة البنيدكيتية مثل كنيسة المسيح بكنتربرى، حرص كثير من الرهبان على أن يكون لهم أجنحة خاصةوأن يقوم علىخدمتهم خدام خاصون ، والراجح أن حالتهم الصحية كانت من الضعف ما حملهم على أن يتناولوا طعامهم في المصحة ، فتجنبوا بذلك الطعام الخشن الذي يقدم في القاعة العامة للطعام .والواضح أن الرهبان في جملتهم مارسوا حياة ترتفع عن مستوى حياة الاكليروس العلمانيين ، والعالم الدنيوي ، وارتبطت التهم الأخرى بما للأديرة من تأثير عـلى المجتمع . إذ تردد القول أنه ليس مقبولاً ومرغوباً فيه إزالة هذا العدد الكبير من الناس من وضعهم الطبيعي،على أن هذه الحجة ليست سليمة. فالواقع أن سكان غرب أوربا أخذ يزداد عددهم في سرعة ، عجز عن مجاراتها أسباب المؤونة والعيش . وإنما يصح التساؤل ما إذا كانت الخدمات التي تبذلها الأديرة تبرر ،ما حازته من الثروة الضخمة . فإذا لم تقر ما للخدمة الروحية من قيمة ، باستثناء السستريان ، فالواقع أن هذه الخدمات لم تـبرر الثروة الطائلة التي صارت للأديرة .

غير أن رجال العصور الوسطى يجعلون للخدمات الروحية المكانة العليا

على سائر الخدمات. فالرجل الذي يعتقد أن صلوات الرهبان المقدسين في الدير الذي أقامه سوف تقصر أمد بقائه في المطهر ، لم يحفل ما إذا كان هؤلاء الرهبان يخصون الفقراء بشطر من دخلهم . ووفقاً للمقاييس المادية الخالصة ، لاشك أن الأديرة تمثل تبديداً للموارد الضخمة ، غير أن العصور الوسطى لم تكن عصوراً مادية .

الفصل الخامس عشر

الملكيات الاقطاعية

ما حدث في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الفورات الدينية والأحلام الأمبراطورية ، نلمس في ثناياها الحقيقة التي تتمثل في الاقطاع ، الذي كان نظاماً اجتماعياً ، استقر في معظم بلاد غرب أوربا . وقد يتعرض هذا النظام للمقاومة من قبل الأباطرة، بل قد يتعطل بسبب مقاومتهم ، غير أن مسيره ظل مستمراً ، دون أن يجرى التغلب عليه ، إذ أن المصالح المحلية ، ودواعى الأعمال الحربية تطلبت مزيداً من الفرسان ، والإقطاعات ، والقلاع ، ونمت مجموعة من العرف لتنظيم العلاقات بين السيد والتابع ، وهذا العرف هو القانون الاقطاعي ، وأفاد الملوك الأقوياء من هذا القانون ، بدلاً من مقاومته . وهذا هو السر فيما كان للملكية الإقطاعية من أهمية ، ذلك لأن الملك الإقطاعي لم يكن ملكا فحسب ، بل كان أيضاً سيداً إقطاعياً لمملكته . وإذا كان المعروف في الدولة الاشتراكية أن الجماعة هي التي تملك أو ينبغي أن تملك كل وسائل الانتاج ، فإن الملكية الإقطاعية تقضى بأن يتملك الملك كل الأرض ، أي ما هو معروف حالياً باسم وسائل الإنتاج . وفي هذا الفصل نعرض لدراسة الملكيات الاقطاعية في انجلترا وفرنسا والمانيا .

أولاً - انجلترا :

المعروف أن الدولة الانجليزية السكسونية ، في القرنين العاشر والحادي عشر ، كانت ملكية جرمانية ، فكانت الملكية انتخابية في بيت وسكس القديم. إذ تولى الويتان Witan ، الذي هو جمعية من الأعيان العلمانيين والكنسيين ، اختيار الملك ، ويعتبر الويتان مجلس الملك . وللملك الحق في أن يطلب الخدمة العسكرية من كل رجل سليم البنية وكان لدى الملك أيضاً جماعة من الرجال يطلق عليهم Thanes ، يحوزون الأراضي مقابل تأدية الخدمة العسكرية ، وهذا النظام كان شبيهاً بما كان معروفاً في الأسرة الكارولنجية باسم أتباع السيد Vassi dominici . ويستند الملك وبلاطه في حياتها على ما يتحصل من خراج الضياع المتناثرة بانجلترا . وفي أثناء غارات الفيكنج في القرنين الثامن والتاسع ، فرض ملوك انجلترا ضريبة عامة اسمها « مال الدانيين » danegeld ، كانوا يؤدونها للغزاة ليتقوا شرهم . وفي القرن الحادي عشر ، استخدم كانوت الدانمرقي هذه الضريبة في الإنفاق على جيشه الذي يحتل البلاد . ومع أنه ليس محققاً أن كان بوسع الملك الانجليزي أن يفرض هذه الضريبة في وقت السلم ، فالواقع أن نظام تقديرها الذي يستند إلى الأرض وقيمتها كان معروفاً عند الملوك الانجليز .

وكان للملك الانجليزي سلطة مباشرة على الكنيسة ، فاختار كبار موظفيها ، وأصدر ايضاً القرارات ، التي لها قوة القانون ، وذلك بعد موافقة الويتان ، غير أن ممارسة القضاء كانت تجري وفقاً للعرف القديم في المحاكم المحلية الوطنية . وتولى رئاسة هذه المحاكم التي تستخدم القانون الكنسي والعلماني من الموظفين ثلاثة ، الأسقف ، والإيرل ، ورئيس المقاطعة (Sheriff) ويعتبر الايرل كبير الموظفين المحليين ، ويختاره الملك بموافقة الويتان ، أما رئيس المقاطعة فهو الممثل الشخصي للملك ، يتولى إدارة ضياعه ، ويجبي الرسوم على جميع أنواعها .

عوامل النظام الاقطاعي :

توافر بانجلترا الانجليزية السكسونية العوامل الأساسية للإقطاع ، التي كانت شبيهة بما كان معروفاً في أوائل عهد الكارولنجيين . فالأتباع Thanes حازوا الأرض مقابل تأدية الخدمة العسكرية . وكان لكبار ملاك الأراضي أيضاً أتباعهم الذين حازوا منهم الأراضي مقابل بذل الخدمة العسكرية . والراجح أنه لو تهيأت الأحوال ، لأضحت الدولة الانجليزية السكسونية أقطاعية ، بعد توافر عوامل الاقطاع بها . غير أنه لم يتهيأ لها من الوقت ما يكفل لها التطور إلى هذا الحد .

الفتح النرماني :

أفاد وليم دوق نرمنديا من كل ما قد يحقق هدفه بالاستيلاء على انجلترا ، إذ ساءت الأحوال السياسية والحربية في انجلترا على عهد الملك ادوارد ، واشتد التنافس بين ايرلات وسكس ومرسيا ، ونورثمبريا وايست انجليا ، ولا سيما ايرل هارولد جودونسون ، وغلب على الانجليز روح البلادة والجمود ، بينما تركزت السلطة في يد دوق نرمنديا ، وحذق النرمان الحرب الراكبة والقوس والنشاب ، وظفر وليم النرمندي بتأييد البابوية في مشروع غزو انجلترا . فلما انتصر وليم في معركة هيستنجز سنة ١٠٦٦ على هارولد جودوينسون ، لم يتعذر على وليم قمع الثورات التي نشبت فيما بعد ، فأخضع كل البلاد .

والمعروف أن وليم نشأ وتربى في بيئة إقطاعية ، إذ كان صاحب اقطاع فرنسي كبير (نرمنديا) ، وتبعه إلى انجلترا رجال تشبعوا أيضاً بالفكرة الاقطاعية ، وليس من العسير على هؤلاء الرجال أن يحولوا انجلترا إلى دولة اقطاعية ، إذ أنهم لم يقاتلوا في سبيل إقامة ملك نرماني على عرش انجلترا ، إلا بعد أن اطمأنوا إلى ما سوف يظفرون به من أراضي ومغانم انجليزية . ولم تخب

أمال أولئك السادة المغامرين الذين قدموا من نرمنديا وانجو وبريتاني وفلاندر . على أن وليم أدرك أن الملك الانجليزي السكسوني حاز من السلطات مـا ينكرها كل سيد إقطاعي ، ولذا عزم على أن يجعل نفسه الخليفة الشرعي لادوارد وهارولد ، واننا لنعجب ما إذا كانت دراية وليم بملكية كابيه في فرنسا لم تكن كافية لأن تجعله شديد الحذر من إقامة نظام إقطاعي بالغ النقاء .

ومع أن أفكار الملك وليم الاقطاعية قد تؤدي إلى إقامة مملكة إقطاعية ، فإن الدواعي العسكرية لمملكته الجديدة لم تدع له سبيلاً للاختيار ، إذ كان لزاماً عليه أن يتخذ نظاماً يحول دون قيام الثورات السكسونية ، ويحمي المملكة من أعدائها بالخارج ، لذا لا بد من اعداد أسباب دفاع قوية لرد غارات الاسكتلنديين والولشيين ،فضلاً عن الغزوات الاسكندناوية ، وبذا احتاجت انجلترا إلى شبكة من الحصون القوية المشحونة بالعساكر ، وإلى جيش ثابت يستطيع أن يحتشد كلما اقتضت الحاجة ذلك . والراجح ان النظام الاقطاعي هو الذي يسد هذه الحاجة ، ومن المحقق أن هذا الحل هو الذي ارتآه وليم الفاتح .

الاقطاعات النرمندية :

زعم وليم الفاتح أنه ظفر بكل البلاد بحق الفتح ، فأضحت الأراضي كلها ملكاً له ، يتصرف فيها كيفما شاء . ولم تكن لفظة الملك Allodium معروفة في انجلترا النرمندية ، على حين انها دلت في القارة الأوربية على التملك المطلق للأرض ، وإذ كانت الأراضي بانجلترا ملكا للملك ، كان كل ما يبتغيه أحد الرعايا ، هو أن ينال قطعة أرض من الملك .

واستقرت ملكية وليم الفاتح للأرض فيما هو معروف باسم كتاب الروك

النرماني Damesday B ok، الذي لم يكن سوى سجل لمساحة ما يملكه الملك من الأراضي بانجلترا ، إذ يصف فعلا المملكة بأسرها ، كونتية بعد كونتية ، ويشير إلى أن كل الأرض إما يحوزها الملك مباشرة ، أو يوزعها على كبار الأتباع . ووردت اسماء هؤلاء الأتباع عند وصف كل كونتية ، وتكررت الاشارة إلى أن كل ما ظفر به التابع من الأراضي ، إنما حازها من الملك. وهذا هو السر في أن الملك أحب أن يعرف كل شيء عنها من حيث مساحات أراضي الحرث ، وعدد المحاريث بكل ضيعة ، وعدد الفلاحين ، والنازلين على الأطراف ، والمقيمين بالأكواخ ، وعدد الأرقاء والأحرار ، ومساحة أرض الغابات ، وأرض المراعي ، ومقدار ما يؤدي من الضرائب ، والمجموع الكلي لما يؤدى سنويا ، وهو أعظم ما يهتم له الملك ، إذ كان يؤدي عادة بطرق كالتي كانت جارية زمن الملك ادوارد أثناء حياته ، وعند وفاته (٥ يناير ١٠٦٦) وعند الفراغ من تقدير مساحة الأراضي (سنة ١٠٨٦) كما لو ان الأرض جرى استغلالها بأكملها [1] .

---

(١) الواقع أن عملية تقسيم انجلترا الى اقطاعات صادفت عقبات خطيرة . اذ أن وليم الفاتح وأتباعه لم يعلموا شيئا عن جغرافية انجلترا ، فلم تتوافر لهم سجلات للاراضي ، انما كان لدى وليم طريقتان . الاولى أن يستخدم ما هو ثابت من التقسيمات الاقليمية التي وضعها الانجليز السكسون ، فيوزع اقطاعاته على اساس هذه التقسيمات ، او ان يفيد من الحيازات القائمة فعلا ، فيبذل على سبيل الاقطاع كل ما يملكه السكسون من أواضي ، والطريقة الاولى قد تؤدي الى اعتبار كل الاراضي اقطاعات ، ونظرا لأن ملاك الاراضي من الانجليز والسكسون قد تناثرت ممتلكاتهم وتشابكت ، فان استخدام الطريقة الثانية قد يحول دون قيام الاقطاعات المتماسكة . ولذا اختار وليم أن يستخدم كلتا الطريقتين ، ففي الأقاليم التي تعتبر بالغة الاهمية من الناحية الاستراتيجية ، بذل وليم الاقطاعات على أساس ما كان معروفا زمن الانجليز السكسون من تقسيمات اقليمية ، فجعل اقليم نورثمبريا مثلا لسيد نرمندي واحد ، نظراً لموقع نورثمبريا بين انجلترا واسكتلندا ، وجعل اقليم كنت لاسقف بايوه ، وهو اخ له غير شقيق ، بينما جعل جماعة من النرمان يقتسمون سسكس. أما في سائر انجلترا ، فان اتباع وليم النرمندي حازوا أراضيهم من جماعة السكسون ، وبدا تناثرت ضياعهم واختلطت بضياع غيرهم ، مما يضعف من قوة =

حرص وليم على الإفادة إلى أقصى حد من أحوال الحيازة الاقطاعية ، التي تعتبر مظهراً ثابتاً للقانون الاقطاعي منذ القرن الحادي عشر ، وتطورت كيما تكون وسيلة لتأمين حقوق السيد الأعلى للاقطاع ، بينما هيأت للتابع بأن يجعل اقطاعه وراثياً . ولذا كان وليم حريصاً على أن يعرف ما يقدمه حائز الاقطاع من الفرسان للجيش الإقطاعي للملك ، أمـــا من تبقى من ملاك الأراضي من الانجليز السكسون، وهم قلة، فتقرر عليهم أن يقدموا عدداً معيناً من الفرسان ، وكذلك كان شأن الأسقفيات والأديرة بالمملكة ، فبلغ المجموع الكلي للفرسان الذين ينحازون للملك حوالي خمسة عشر الف فارس .

ثم شيد الملك وليم قلعة بكل مدينة ملكية ، وعهد بالإشراف عليهـــا إلى التابع الذي تقع أراضيه بالقرب منها ، وبذا قامت الإقطاعات بشحن القلاع بالعساكر . يضاف الى ذلك أن وليم طلب إلى أتباعـــه أن يشيدوا بأراضيهم القلاع وأن يزودوها بالفرسان،وبذا قامت شبكة كبيرة من القلاع وبفضل هذه القلاع غدت انجلترا بنجوة من الثورات الداخلية والغارات الخارجية .

التزامات البارونات :

ويعرف بالبارونات ، الرجال الذين حازوا الاقطاعات من الملك . والتزم كل بارون بأن يؤدي الخدمة العسكرية للملك ، بأن يقدم له ما خص إقطاعهمن عدد الفرسان فضلاً عن الالتزامات العادية .على أن كل بارون صار يواجه مشكلة ما هو مقرر عليه من الفرسان ، فكان لزاماً عليه أن يختار إحدى الوسيلتين :

= مقاومتهم ، والمعروف ان وليم وزع معظم هذه الأراضي على أتباعه من النرمنديين ، غير انه لم يبذلها لهم ، على أن يكون لهم الحق المطلق فيها ، اذ انهم ليسوا الا حائزين للارض ، ولم يفز برضى وليم من الانجليز الا عدد قليل ، فكان لزاما عليهم ان يتنازلوا له عما بايديهم من الارض،ثم يستعيدونها باعتبارهم حائزين لها انظر Davis: Medieval Emope p. 296 .

أما أن يبقى في داره العدد الضروري من الفرسان ، ويتكفل بمؤنتهم وملابسهم بما يتحصل عليه من موارد ضياعه ، وأما أن يبذل الإقطاعات للفرسان الذين يقومون على خدمته . والواقع أن البارون الكبير الذي يحوز مائة فارس ، ليس أمامه سبيل للاختيار ، فليس باستطاعته من الناحية العملية أن يحتفظ في داره بهذا العدد الضخم من الرجال ، على حين أن السيد الذي يقل مكانة عن البارون ، والذي لا يزيد عدد فرسانه على عشرة ، كان بوسعه أن يتجنب منح الاقطاعات . على أن أفكار العصر تفرض قوتها وسلطانها ، إذ أن كل فارس أراد أن يختص بإقطاع ، وليس بوسع السادة مقاومة ضغط الفرسان . ولذا صار البارونات يبذلون الاقطاعات المرجال الذين أضحوا اتباعاً لهم ، وإلى أتباع أتباع الملك. وحدث في بعض الأحوال أن كان لأتباع الاتباع اقطاعات ضخمة ، يخدم عليها نحو عشرة أو أكثر من الفرسان ، فيبذل هؤلاء بدورهم الاقطاعات لفرسان آخرين . وعلى هذا النحو تطورت الهيئة الاقطاعية ، فاضحى ملك انجلترا ، مثل ملك فرنسا من أسرة كابيه ، سيداً إقطاعياً أعلا ، يحتل رأس هرم السادة والأتباع ، وكان للملك محكمته الاقطاعية Curia regis المؤلفة من كبار رجال الكنيسة والبارونات بالمملكة . ولكل بارون أيضاً محكمته ، المؤلفة من أتباعه . وإذا كانت محكمة الملك تنظر في العلاقات الاقطاعية بين الملك والبارونات، كانت محكمة البارون تنظر في العلاقات بين البارون وأتباعه ، وبذا صار لهذه المحاكم أهمية في صياغة العادات والتقاليد الإقطاعية بانجلترا .

سلطة الملكية :

بالاضافة إلى انشاء هيئة اقطاعية ، كان الملك على رأسها ، تولى وليم الفاتح التراث الملكي الذي خلفه الملوك الانجليز السكسون .

ومع أن وليم الفاتح تنازل للكنيسة عن امتياز هام ، بما أجراه من فصل

المحاكم العلمانية عن المحاكم الكنسية ، وأجاز للكنيسة بأن تتخذ لها نظاماً قضائياً مثلما كان لها في سائر غرب أوربا ، فإنه حرص على أن يسلك طريق أسلافه (ملوك الانجليز السكسون) في الاشراف على انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة ، ومنع مندوبي البابا من الدخول إلى مملكته إلا بإذن منه ، فلا زال يعتبر الأساقفة يؤلفون جانباً من إدارته ، فكانت كل قراراته موجهة دائماً إلى الأسقف ورئيس المقاطعة (Shire) ، باستثناء بعض المقاطعات التي استقر بها الايرلات .

أدرك وليم الفاتح أهمية الحق الذي يقضي بجباية الضريبة العامة المعروفة باسم مال الدانيين فقام فعلاً بجبايتها ، وبذا أضحى الملك الاقطاعي الوحيد في غرب أوربا ، الذي كان له من الموارد المالية ما لا تعتبر في طبيعتها موارد إقطاعية .

يضاف إلى ذلك أن وليم الفاتح حاول أن يزيل ما كان سائداً في الملكية الاقطاعية من التناقض، بين فكرة الهيئة الاقطاعية التي ليس للملك فيها حقوق الا على أتباعه المباشرين ، وبين فكرة الملك ورعاياه . أصر وليم على أن كل رجل حر، كيفما كان وضعه الاقطاعي، لا بد أن يحلف له يمين الاخلاص، ويحلف أيضاً أتباع أتباع الملك الذين لهم أهمية ، يمين الاخلاص للملك ، ويبذلون له الولاء . وبذا أصبحت التزامات التابع لسيده من الناحية النظرية على الأقل تلي في الأهمية التزاماته للملك ، وما حدث في فرنسا أنه إذا أعلن التابع الكبير الحرب على الملك ، فإنه بذلك يرتكب جرماً ، على حين أن رجاله الذين يتبعونه لم يفعلوا إلا ما يتطلبه الواجب الذي التزموا به . أما في انجلترا ، فإن كل رجل مهما كانت مكانته ، يشهر سلاحه في وجه الملك يعتبر أنه انتهك اليمين التي أقسمها ، وبذا يعد خائناً .

على أن التدابير التي وضعها وليم لم تبق جامدة زمن أخلافه وباروناتهم ، إذ

حاول الملك والبارونات أن تزداد سلطة كل فريق على حساب الفريق الآخر . يضاف إلى ذلك أن كلا الفريقين نزع إلى اغتصاب وظائف وموارد المحاكم الوطنية (المحلية) ، وأضحى النضال بين الملك والبارونات يعتبر الخط الرئيسي لتاريخ انجلترا السياسي لقرون عديدة .

الثورات الاقطاعية :

لم نعلم إلا القليل عن هذا النزاع أثناء حكم وليم الفاتح (الأول) ، ووليم الثاني . على أن البارونات أعلنوا ثورتهم على وليم الفاتح ، لتطاول حكام المقاطعات على امتيازاتهم . والواضح أن وليم الفاتح (الأول) ووليم الثاني حصلا على معظم الامتيازات باعتبارهما ملكين إقطاعيين . فإذا مات أحد البارونات جعل الملك وليم رسم ايلولة الاقطاع (relief) الى وريث البارون باهظ القيمة . وإذا أراد البارون أن يزوج ابنته ، تقاضى الملك رسماً مقابل الاذن له بذلك ، وإذا مات البارون ، وكانت وريثته لم تتزوج بعد ، بذلها الملك لمن يؤدي أعلا العروض قيمة ، والمعروف أن كل سيد اقطاعي يحقق ربحا كبيراً إذا مات أحد مقطعيه . وإذ حدث أن المقطع كان آخر فرد في سلالة الأسرة ، وليس له ورثة مطلقا ، عادت الأرض بأكملها الى السيد ، وهذا الاجراء هو المعروف باسم escheat .

يضاف الى ذلك أن أخذ كبار السادة الاقطاعيين يزيدون من سلطانهم على حساب المحاكم المحلية وحكام المقاطعات . فالمعروف أنه كان للأعيان زمن الملوك الانجليز السكسون حق ممارسة القضاء على فلاحي ضياعهم ، وكان لعدد كبير من أرباب الأراضي الحق المعروف باسم infangentheof أي حق شنق من يقبض عليه من رجالهم متلبسا بالسرقة . وحصل البارونات النرمان وأتباعهم على هذه الامتيازات . وكان ملوك الانجليز السكسون أيضاً يحملون في بعض الأحوال ، لحائزي الأراضي ما يتحصل من رسوم من المحاكم المحلية أو محاكم

المقاطعات . غير أن ملوك النرمان الذين خلفوهم على الحكم انتزعوا لأنفسهم هذه الحقوق ، وعهدوا إلى موظفيهم بإدارة المحاكم .

والمعروف أن الانجليز السكسون اتخذوا نظام (الحالفين) frankpledge الذي يقضي بأن يقسم اثنى عشر رجلا يميناً بأن يخرجوا من بينهم من يرتكب جريمة من الجرائم ، وكان من واجب حاكم المقاطعة أن يراعى بأن كل رجل بانجلترا التزم بهذا النظام . غير أن كبار السادة النرمان اغتصبوا هذا النظام لأنفسهم ، بل أن معظم البارونات الأقوياء كان لهم فيما يبدو الحق في منع حاكم المقاطعة من دخول أراضيهم ، وعهدوا إلى موظفيهم بمباشرة ما لحاكم المقاطعة من حقوق في أراضيهم . يضاف إلى ذلك أن المحاكم الاقطاعية نزعت من المحاكم المحلية قدراً كبيراً من اختصاصها.والخلاصة أن محكمة السيد الاقطاعي كانت تنظر فيما يقع من خصومات بين أتباعه .

قام وليم الفاتح بتقسيم أملاكه بين ولديه ، فعهد إلى ابنه الأكبر ، روبرت بدرقية نرمنديا ، وجعل انجلترا من نصيب ابنه الأصغر وليم (الثاني) ، أما الابن الثالث ، وهو هنري ، فحاز اقطاعاً صغيراً في نرمنديا

على أن هنري ، الذي كان بانجلترا عند وفاة ابيه وليم ، استطاع أن يظفر بعرش انجلترا قبل قدوم اخيه روبرت. ورضي به البارونات ملكاًعليهم مقابل ما أصدره من ميثاق الحريات،الذي وعد فيه أن يتخلى عن كل الاجراءات التي اتخذها أبوه ، والتي اعترضوا عليها . فلن يطلب هنري إلا رسماً مقبولا للأيلولة عند انتقال الاقطاع من البارون الى وريثه ، ولن يتقاضى رسما مقابل الاذن للبارون بأن يزوج أبنته ، ولن تضطر أرملة البارون إلى أن تتزوج مرة أخرى دون رضاها . بل أن هنري وعد بأنه لن يجبى ضريبة مال الدانيين من ضياع الرجال الذين حازوها مقابل تقديم الفرسان عنها ، وهذا الامتياز خفض إلى حد كبير ما كان يجبى من الضرائب ومع

ذلك فإن هنري انتهج سياسة أبيه وأخيه وليم الثاني ، بعد أن ادخل عليهـا شيئا من الاعتدال .

موظفو الملك :

درج وليم الأول ووليم الثاني على استخدام البارونات حكاماً للمقاطعات وكندسطبلات للقلاع الملكية . ولهذا الاجراء ميزة واحدة ، وهي أن سلطة هؤلاء الموظفين تستند إلى مواردهم الاقطاعية ، وإلى سلطة الملك . غير أنه متى تولى هؤلاء السادة الوظائف، نزعوا الى الاستقلال ، وإلى مراعـاة جانب سائر البارونات . ولذا كان هنري يميل إلى أن يختار موظفيه من الطبقات الاقطاعية التي تلي البارونات في المكانة ، وبذا توقف استمرارهم في الوظائف علىحظوتهم عند الملك . وعهـد هنري أيضا إلى طائفة من الموظفين الملكيين بالإدارة المركزية .

وما حدث زمن الملوك الانجليز السكسون ، من اختصاص المحاكم المحلية بالنظر في بعض الجرائم الكبيرة كالقتل،أوإشعال الحرائق فيالمنازل،أواغتصاب النساء ، التي تعتبر جرائم ضد الملك ، والتي كان الملك يقرر العقوبة المقررة على المذنبين ، لم يلبث هذا الاختصاص أن تحول زمن ملوك انجلترا من النرمان ، إلى أيدي قضاة الملك الذين لم يكونوا عادة سوى حكام المقاطعات . ثم أضحى حكام المقاطعات، وغيرهم الذين يدينون للملك بأموال يقدمون حساباتهم لجماعة من موظفي الملك ، المعروفين ببارونات الخزانة ، وبذا أصبحت سائر الوظائف خاضعة لقضاة الملك ، وبارونات الخزانة ، ويعتبر كبير القضاة الملك ، نائبا للملك عند غيبته في نورمنديا .

حكم هنري الأول انجلترا في قسوة بالغة ، فلم يكتف بالحرص على حقوقه

الاقطاعية ، مثل رسم الأيلولة ، والقوامة على أبناء البارونات الذين لم يبلغوا سن الرشد ، وتزويج وريثاتهم ، بل أنه منع البارونات من انتزاع حقوق الولاية القضائية ، ومن تشييد القلاع ، إلا بإذنه ، بينما ساد الاضطراب في نرمنديا في ظل حكم الدوق روبرت الضعيف .

ولم تلبث الثورات أن نشبت في انجلترا لمناهضة هنري ، وساندها رجال من قبل روبرت (دوق نرمنديا) . غير أن هنري قمع الثورات ، وأنزل الهزيمة بأخيه الذي مات بالسجن في انجلترا . وما تبقى من سنوات حكم هنري ، انقضت في التزام البارونات بالخلود إلى السكينة ، وقتال سيده الأعلى من بيت كابيه في فرنسا ، وحليفه كونت انجو ، ومع أن هنري انتصر في كل هذه الجهود ، فإن لم يترك إلا ابنة (ماتيلدا) لترث ملكه [1] .

هنري انجو :

استمرت الفوضى حتى وفاة ستيفن سنة ١١٥٣ ، فتولى العرش هنري الذي زادت أملاكه بأن ورث عن أبيه كونتية انجو ، وحاز اكيتانيا بعد زواجه من دوقتها ، اليانور ، التي طلقها الملك لويس السابع .

---

(١) لما مات الابن الشرعي لهنري الأول غرقا اثناء عبوره من نرمنديا الى انجلترا ، اجبر هنري كبار رجال الكنيسة والبارونات على أن يقسموا على أن يقبلوا ملكة عليهم ، ابنته ماتيلد ارملة الامبراطور هنري الخامس ، وزوجة جفري كونت انجو . غير انه تطلع الى العرش ستيفن ابن كونت بلوا وابن اخت هنري الأول ، فلما مات هنري سنة ١١٣٥ ، توجه ستيفن الى انجلترا ، فارتضاه ملكاً عليهم ، البارونات وكبار رجال الكنيسة ، فغضب لذلك ماتيلدا وزوجها جفري انجو ، فبادرا بمحاولة انتزاع انجلترا ونرمنديا ، ونشبت الحرب الأهلية التي اوقعت انجلترا في فوضى ، واغتنم البارونات الفرصة ، فشيدوا القلاع ، وتطاولوا على اراضي الضياع الملكية ، وظفر كبار الأمراء بالاستقلال الذاتي ، وتحدوا الحكومة الملكية ، وتصرفوا كانهم امراء مستقلون .

ازدياد سلطة الملك :

١ – حرص هنري انجو (الثاني) على إعادة السلطة الملكية الى ما كانت عليه أول الأمر ، فدمر بعض قلاع البارونات ، وحاز بعضها الآخر .

٢ – أحل رجال من نبلاء الدرجة الثانية ، مكان كبار البارونات ، ليكونوا حكاما للمقاطعات و كندسطبلات للقلاع الملكية .

٣ – أخذ قضـــاة الملك يطوفون بالاقاليم ، وتولى بيت المال (الخزانة) جباية الضرائب ، وجرت الحسابات عن موارد الملك .

٤ – أصر هنري على أن له الحق في منع وريث البارون من حيازة الاقطاع ما لم يؤد رسم الأيلولة (الحلوان) .

٥ – حاول الملك أيضاً أن يجعل الخدمة العسكرية بالغة الأهمية والقيمة ، وأن يزيد في مقدار المعونات الاقطاعية ، كالمعونة التي تؤدى عند تنصيب الابن الاكبر فارسا . على أن معظم البارونات لجأوا الى تجزئة الاقطاع بين عـدد من الفرسان يزيد على ما هو مقرر عليهم أن يقدموه وفقا للقواعد التي وضعها وليم الأول (الفاتـح) ، وبذا إذا استدعى الملك جيشه الافطاعي بادر البارونات بتقديم العدد المقرر عليهم من الفرسان ، وقاموا بجباية مبلغ من المال ، اسمه البدل ، من أولئك الذين لم ينحازوا الى جيش الملك . فعزم هنري على أن يشارك البارونات فيما يجنونه من الارباح الزائدة الناجمة عن زيادة انتاج الأرض ، ومن التقديرات الخاطئة لما يبذل من الخدمة ، فتؤدي عن عدد الفرسان الذين قام البارونات بتجزأة الاقطاع بينهم ، وبذا زاد فيما يؤدى للتاج من خدمة .

٦ – لم يكتف هنري الثاني بتنمية موارده ، باعتباره سيداً اقطاعيا ، بل انه أولى اهتماما كبيراً ، بأن يجعل لنفسه ، باعتباره ملكا ، سلطة وموارد

مستقلة . وأهم خطوة اتخذها في هذا السبيل ، هي ما لجأ اليه من اتساع ولاية قضاة الملك الذين يجوبون انجلترا . فما كان متبعاً من قبل من مبادرة المجني عليه أو من ينوب عنه الى رفع الاستئناف ، لم يؤد إلى نتيجة ايجابية ، لذا قرر هنري أن كل من يثبت عليه الإدانة ، ينبغي أن يغادر انجلترا ، وبذا زاد عدد ما يعرض على محكمة الملك من القضايا الجنائية ، وساد القانون والنظام . وزاد أيضاً دخل الملك ، لما يتقاضاه من الرسوم على القضايا المرفوعة اليه ، فإذا تقرر شنق المذنب ، وضع الملك يده على ماله المنقول، وصار له الحق في تخريب أرض المذنب لمدة سنة ويوم . وإذا أفلت الجاني ولاذ بالهرب ، يعتبر خارجاً على القانون ، وتقررت مصادرة أملاكه . وتؤدي هيئة المحلفين غرامة كبيرة ، إذا فشلت في معرفة الجريمة ، التي سبق للقضاة أن علموا بها من مصدر آخر .

المحاكم الملكية :

١ – اتخذ الملك هنري التدابير لمد ما للمحاكم الملكية من سلطة مدنية . فالمعروف في القانون الانجليزي أن النزاع على الملكية لا يحسمه إلا المبارزة بين المتنازعين ، أمام المحكمة الاقطاعية إذا كانا ينتميان إلى سيد واحد ، وأمام محكمة المقاطعة إذا كانا ينتميان إلى سيدين مختلفين . فشجع الملك هنري على التقاضي أمام محكمة الملك .

٢ – وإذ ساد في انجلترا وقتذاك أن قام الرجال الأقوياء ، بطرد الضعفاء من أراضيهم ، واستحواذهم عليها ، عهد هنري إلى حكام المقاطعات بفحص القضايا من هذا النوع ، تمهيداً لإعادة الضعفاء إلى أراضيهم . وأفاد من هذا الاجراء وريث الاقطاع في الاستحواذ على العقار الذي كان يحوزه أبوه .

٣ – شجع الملك هنري الثاني قضاته على التدخل في أعمال المحاكم الاقطاعية

فكل من لم يلق الانصاف في محكمة السيد ، كان بوسعه أن يلجأ ألى محكمة الملك . وبذا تعرضت أحكام المحاكم الاقطاعية للنقض في محكمة الملك .

٤ – وما أجراه هنري الثاني من استحداثات قضائية ، يعتبر فعلا بداية القانون العام بانجلترا ، فتولى قضاة الملك تنفيذ هذا القانون في سائر أنحاء انجلترا . والواقع أن القانون العام قبل زمن هنري ، لم يعالج إلا قضايا الاستئناف الجنائية التي اختص بها الملك . أما المحاكم الاقطاعية والمحاكم المحلية (الوطنية) التي تنظر في معظم الأمور القضائية بالمملكة ، فكان لكل منها قانونها العرفي . غير انه كلما أمدّ هنري الثاني اختصاص محكمة الملك ، اتسع مجال استخدام القانون العام وألف أحد قضاته رسالة عن القانون الذي تسير عليه المحاكم الملكية ، وعنوانها « عن القوانين De Legibis .

الكنيسة والدولة :

١ – أهتم هنري الثاني أيضاً بتحديد وتوطيد العلاقات بين الكنيسة والدولة . ففي دستور كلارندون الصادر في سنة ١١٦٤ ، تعين الحد الفاصل بين محكمة الملك ، ومحكمة الكنيسة . إذ يمثل أمام قضاة الملك رجال الدين المتهمون بارتكاب الجرائم .

٢ – ويخضع للمحاكم الملكية قضايا النزاع حول الأرض ، واستعادة الديون .

٣ – وتحددت سلطة الكنيسة فيما يعتبر من قرارات القطع والحرمان ، فلا ينبغي قطع كبار مقطعي الملك أو كبار الموظفين الملكيين إلا بعد اخطار الملك أو نائبه . ولا يخضع لهذه العقوبة النازلون بالضياع الملكية ، إلا بعد أن يتلقى مندوب الملك في المنطقة إخطارا بذلك .

٤ – ووردت بهذا الدستور نصوص تؤكد حقوق الملك باعتباره سيداً

إقطاعياً على أراضي الكنيسة وحائزيهـــا . فرجال الكنيسة الذين حازوا اقطاعات ، التزموا بـــأن يؤدوا كل الواجبات المقررة على البارونات باستثناء أنهم لا يشهدون محكمة الملك حين يصدر حكم باعدام المذنب ، نظراً لأنهم لا يؤدون خدمة عسكرية .

٥ – إذا أضحت أسقفية أو دير شاغرة ، صار الملك قيما على أراضيها، ويتولى اختيار الأسقف أو رئيس الدير الجديد ، رئيس كنيسة البلاط بموافقة الملك . ويبذل المرشح الجديد الولاء ويقسم يمين الاخلاص للملك قبل رسامته .

٦ – قبل توماس بيكيت ، رئيس أساقفة كانتربري القرارات أول الأمر ، ثم أنكرها فيما بعد ، ونجم عن ذلك نشوب نضـــال مرير بين الملك ورئيس الأساقفة ، أدى آخر الأمر إلى مصرع بيكيت ، فاعلن هنري ندمه وتوبته عن كل مـــا يمسه من مصرع بيكيت . ولم تجرؤ الكنيسة بعدئذ أن تعارض هنري أو تقاومه .

٧ – جرى رتشرد الأول ويوحنا ولدا هنري الثاني على سياسة ازدياد سلطة الملك . ولم يتعرض رتشرد لمقاومة من قبل البابوية والكنيسة لاشتراكه في الحروب الصليبية (الثالثة) ، أما يوحنا فكان حريصاً على أن يزيد في سلطة الملك على حساب البابوية والبارونات . على أنه لازمه سوء الحظ ، لافتقاره إلى البسالة ، واستخفاف الناس به ، ولأنه واجه عدوين خارجيين عنيدين ، همـــا فيليب أغسطس ملك فرنسا والبابا انوسنت الثالث ، يضاف إلى ذلك أنه أضاع دوقية نرمنديا ، وماين ، وانجو .

٨ – لم يستطع يوحنا مقاومة البابا انوسنت ، الذي قرر أنـــه لا داعي لموافقة الملك عند انتخاب رئيس الأساقفة ، بل إن يوحنا تنازل للبابا عن المملكة على أن يحوزها إقطاعا منه ، وبذا كسب صداقه البابا ، الذي اعتـــبر انتماء ملك انجلترا له من الانجازات الهامة .

٩ – الواقع أن الملك يوحنا لم يفعل ذلك إلا لكي يتفرغ للقيام بعمل هام في جهة أخرى ، إذ كان يستعد لاسترجاع نورمانديا وأنجو وماين . فأعد لذلك ميزانيه ضخمة للحرب ، جاء جانب منها من حقوقه الاقطاعية بها تحصل من البارونات من رسوم ضخمة للأيلولة ، وبالأثمان الباهظة للامتيازات التي بذلها لهم ، فضلاً عن رسم البدل Scutage [١] ، واستحداث أنواع جديدة من الضرائب ، أمثال ضرائب الداخل والعقار والمكوس الجمركية ، كما أن جانباً غير قليل من هذه الميزانية كان مستمداً من ابتزاز أموال رجال الدين أثناء نزاع يوحنا مع البابا . وبفضل هذه الأموال ظفر يوحنا بالتحالف مع بعض أمراء ألمانيا ، وعلى رأسهم ابن أخته ، الأمبراطور اوتو ، واجتذب إليه عدداً من اتباع ملك فرنسا. غير أن خططه لم تؤد إلى نتيجة ، إذ أن انتصار فيليب أغسطس في وقعة بوفين سنة ١٢١٤ قضى على آمال يوحنا في استعادة اقطاعاته بالقارة .

النزاع بين الملك يوحنا والبارونات :

١ – ما حدث من اضطراد نمو سلطة الملك زمن هنري الثاني ورتشرد ويوحنا ، ولد النفور عند البارونات . وانحطت مكانته بسبب ضياع نورمانديا ، وزاد الموقف تحرجاً بما لجأ إليه يوحنا من الأساليب لجمع الأموال من البارونات ، وأضعف مركزه ما حدث من استسلامه للبابا انوسنت الثالث . فدبر البارونات المؤامرات ولم يبد السادة الاقطاعيون الميل إلى الاشتراك مع يوحنا في قتال الملك فيليب أغسطس ، فلما عاد منهزماً سنة ١٢١٤ أصبحت ثورة البارونات أمراً محققاً .

٢ – لا شك أن الغالبية الساحقة للبارونات لم تثق في الملك يوحنا ، واشتد جزعها لما أقدم عليه من اجراءات سياسية ومالية . واذا احتاجت الثورة إلى

---

(١) ما يؤديه الفارس من ضريبة عوضاً عن الخدمة العسكرية .

قادة ، فإن هذه الحاجة سدها جماعة صغيرة من السادة لم يتجاوز عددها الثلاثين . على أن من هؤلاء السادة ، من كانت تحركه دواعي شخصية لمعاداة الملك ، على أن معظمهم نقموا لما أدوه من رسوم ضخمة للأيلولة ، ولما أنفقوه من أموال ضخمة في تشييد القلاع وحيازة الضياع ، والفوز بحقوق وامتيازات ، كانوا يعتبرونها جميعاً ملكاً لهم بحق الميراث وبذا أضحى كل بارون يكره الملك لسبب خاص ، كأن يتملك قلعة ، أو يحوز منصباً وراثياً . وكانت هذه نقطة الضعف عندهم منذ البداية . إذ كان من العسير إثارة جميع البارونات من أجل شكاوى زعمائهم وقادتهم .

٣ – على أن ستيفن لانجتن ، رئيس أساقفة كانتربري الجديد ، الذي يعتبر من أشهر رجال القانون في عصره ، هو الذي عرض حل المشكلة . ونظراً لأنه يؤمن بأن يخضع المجتمع العلماني والمجتمع الاكليروس لنظامين مستقلين ، حث القادة الثائرين على أن يضعوا قائمة بالمطالب العامة التي يشترك فيها الطبقة الاقطاعية بأسرهم ، وترتب على ذلك ما يعرف باسم مطالب البارونات التي نعتبر أساس العهد الأعظم .

٤ – كانت الثورة مفاجأة للملك يوحنا ، إذا احتاج إلى الوقت ليحشد العساكر من أقاليمه بفرنسا ، وأن يجعل القلاع في حالة استعداد . وأن يلتمس المساعدة من سيده الأعلى ، البابا .

٥ – ولم يسع الملك إلا أن يقبل مطالب البارونات ، وذلك قبل ١٥ يونيه ١١١٥ . وعكف كتاب الملك على صياغة الوثيقة الهامة التي جعلت لهذه المطالب قوة القانون ، وهذه الوثيقة هي المعروفة بالعهد الأعظم .

العهد الاعظم Magna Carta

يقع العهد الأعظم في أربعة أقسام كبيرة :

١ — يعتبر القسم الأول منها اقطاعياً في جوهره ، يعالج مـــا للملك من حقوق باعتباره سيداً إقطاعياً . إذ تقرر تحديد مقدار رسم الأيلولة ، وتحددت القواعد المتعلقة بالقوامة على اقطاعات الورثة صغـــار السن ، ومعاملة أرملة البارون ، وزواج وريثته . على أن لم يكن لهذه النصوص الواردة بالعهد الأعظم صفة الدوام ، باستثناء نص واحد ، وهو أن الملك يعـد بألا يجبي الضرائب كما يجري العرف الإقطاعي بجبايتها إلا بموافقة مجلس مؤلف من كبـار المقطعين . والراجح أن هذا المجلس لم ينعقد مطلقاً ، غير أن الملك كان يلتمس عادة المشورة قبل الإقدام على تقرير ضريبة من الضرائب .

٢ — ويعالج القسم الثاني من العهد الأعظم ، الاجراءات المختلفـــة للادارة الملكية ، ما ينبغي وما لا ينبغي تحصيله من الديون المطلوبة له ، وكيف ينبغي لكندسطبل القلعة أن يحصل على المؤن ، وكيف ينبغي لقضاة الملك أن يطوفوا بانحاء البلاد للنظر فيما يعرض عليهم من القضايا .

٣ — وللقسم الثالث اهمية طارئة (مؤقتة ، إذ يتضمن الأداة التي كان زعماء البارونات يأملون عن طريقها الاستحواذ على ما يشاؤون من الأراضي والقلاع .

٤ — أما القسم الرابع فلا زالت له أهمية كبيرة حتى الآن ، إذ قرر بعض المبادىء الأساسية التي لا زالت موضع تقدير . وأهم هذه المبادىء مـا ورد في المادة التاسعة والثلاثين « بأنه لا يجوز إلقاء القبض على الرجل الحر ، أو حبسه ، أو تجريده من أرضه ، أو اعتباره خارجاً على القانون ، أو تقرير نفيه ، أو اتلافه بحال من الأحوال ، أو أن يتوجه أحـــد ليغتاله ، إلا بمقتضى حكم قانوني من أسوياته ، أو بمقتضى قانون البلاد » . والمقصود بهذه الفقرة أنه ليس للملك أن يتخذ إجراء إزاء الرجل الحر ، إلا بمقتضى حكم صـــادر من المحكمة ؛ ويعتبر ذلك أصل مـــا هو معروف عنـد الانجليز والأمريكيين من فكرة الاجراء القانوني .

ه - والواقع أن نصوص العهد الأعظم تعتبر بالغة الأهمية عند المؤرخين ، على الرغم من أن معظمها فقد أهميته بعد قرن من صـدور العهد الأعظم ، إذ أن الملك يوحنا باصدار هذا العهد اعترف بأنه خضع لقانون المملكة . وأدرك البارونات هذه الحقيقة ، فكلما أظهر أحـد الملوك الاستبداد والتحكم أجبروه على تأكيد العهد الأعظم واحترامه ، فاضحى العهد الأعظم رمزاً لإذعان الملك للقانون .

سيمون دي مونتفورت :

على أن البارونات كادوا زمن هنري الثالث الطويل الأمل ، أن يظفروا بالسيطرة التامة ، إذ أعلن سيمون مونتفورت ، ايرل ليستر ، الثورة ، فألقى القبض على الملك هنري الثالث ، وتولى حكومة البـلاد ، وقام بتسيير الادارة الملكية ، واغتنم البارونات الفرصة فاستعادوا مـا كان لهم من امتيازات ، فمنعوا حكام المقاطعات من دخول أراضيهم ، وسيطروا على محاكم المقاطعات واغتصبوا امتيازات موظفي الملك المحليين ، وبذا خضع لسلطة البارونات أجهزة الحكومة المركزية والمحلية زمن هنري الثالث .

جهود الملك لاستعادة سلطانهم :

بلغت الملكية الإقطاعية في انجلترا الذروة زمن ادوارد الأول ، بن هنري الثالث إذ أنزل ادوارد هزيمة ساحقة بحزب مونتفرت . كان ادوارد في حملة صليبية في شمال افريقية حينما مات أبوه ، غير أن خشية البارونات له كانت من الشدة ، ما جعلهم يخلدون إلى الهدوء أثناء عودته إلى انجلترا .

انصرف ادوارد إلى اخضاع الولشيين (سكان ويلز) ، الذين طالما لجأوا إلى التلال عند مطاردة الفرسان الانجليز لهم . فحشد جيشه الاقطاعي من الفرسان والأجناد ، وطاردهم إلى تلالهم ، ثم جند أعداداً كبيرة من الرجالة ، أمعنت في التوغل إلى معاقلهم الداخلية ، ثم شيد خطاً من القلاع ، شحنهـا بالعساكر

المأجورة ، فدانت له البلاد آخر الأمر ، وقام بتقسيمها إلى أقاليم .

وأحرز ادوارد انتصاراً مماثلاً على الاسكتلنديين بعد أن أعلن ملكهم يوحنا باليول خروجه على طاعة ادوارد .

ويعتبر ادوارد الأول ، أول من قام بتطوير الأسلحة ، واستحداث الخطط العسكرية ، بأن تعاون الفرسان والرماة في القتال معاً . وكان من نتائج ذلك ما أحرزته انجلترا من انتصارات في حرب المائة عام .

ثم التفت ادوارد الأول إلى استعادة الحقوق الملكية التي اغتصبها البارونات زمن أبيه . فأصدر المرسومات المعروفة بأي حق ، Quo Warranto ، إلى السادة الاقطاعيين الذين يدعون امتيازاً خاصاً ، يطلب إليهم المثول أمام قضاة الملك ، لاثبات شرعية حقوقهم بابراز الوثائق الملكية التي تدل على ذلك ، وبهذه الوسيلة وضع ادوارد حداً للاغتصاب ، فلم يعد البارون يأمل مستقبلاً في أن يطالب بامتياز ما لم يرد في وثيقة محفوظة لديه .

ومن المشاكل الخطيرة التي واجهت ادوارد الأول ، مـــا حدث من تعقد النظام الاقطاعي . ففي كل زمن كان السيد الاقطاعي يبذل الضيعة لابنـــه الأصغر، أو يجعل من بائنة ابنته اقطاعاً جديداً. وبذا نصادف ، سادة اقطاعيين عديدين ، يتخذون وضعهم في السلم الاقطاعي ، بين الحائز الفعلي للضيعة ، وبين الملك ، مما يجعل تنفيذ الالتزامات الاقطاعية أمراً عسيراً . فعزم ادوارد على وضع حد لعملية انشاء الاقطاعات لأتباع الأتباع ، بأن جعل ما يبذله البارون لابنه أو ابنته من ضيعة ، يعتبر اقطاعـاً من الملك مباشرة لامن الواهب ، وبذا قضى على عملية تجزئة الاقطاع التي كانت تجري منذ الفتح النورمندي .

والخلاصة أنه حينما مات هنري الثالث سنة ١٢٧٢ ، كان سكان القـــارة الأوربية في سعيهم لنوع من الحكومة لها من القوة مـــا يكفي للقضاء على

الفوضى الناجمة عن الاقطاع ، يلتمسون حلاً لذلك في الملكية المستبدة . أما انجلترا فإنها ظلت ما يزيد على قرن من الزمان تحتفظ بالملكية الاستبدادية لأهداف عملية .

ومنذ سنة ١٢١٥ دخلت انجلترا في المرحلة التالية للتطور السياسي ، الذي يتمثل في السعي للحصول على صورة مقبولة للملكية المقيدة .

ففي القرنين اللذين تليا الفتح النرمندي ، اتخذت ملكية انجلترا المستبدة نظاماً للضرائب العامة كالضريبة على العقار ، وحاولت قبل سنة ١٢٧٢ أن تجبي ضريبتي الرأس والدخل ، ومارست الخدمة العسكرية بأنواعها الإقطاعية ، والمهنية ، والقومية . واستطاعت من ثنايا مجلس وليم الفاتح أن تقيم إدارة مدنية ، انقسمت إلى إدارات للوثائق ، والمالية ، والقضائية فضلاً عن الإدارات الصغيرة . والتمست انجلترا في القانون النظام القومي الوحيد للتشريع الذي نشأ في غرب أوربا ووسطها منذ أيام الدولة الرومانية . وأقام هنري الأول وحفيده ادوارد الأول أداة حكومية بلغت من التعقيد والكفاية ما أدى إلى تدمير النظام الاقطاعي . غير أنه إذا أساء ملك ضعيف استخدام هذه الأداة ، تعرض لنقمة البارونات ورجال الدين ، وسكان المدن الذين حاولوا ضبطها والتحكم فيها .

الملحق ٢٦

قوانين وليم الفاتح

فيما يلي ما وضعه وليم ملك انجلترا بالاشتراك مع أمرائه ، من قوانين منذ فتح انجلترا .

١ – يود أولاً ، وقبل كل شيء ، أن يعبد الله في جميع أنحـاء مملكته ، فينبغي ألا تنتهك مطلقاً حرمة الإيمان بالمسيح ، ولا بد من مراعـــاة السلام والأمن بين الانجليز والنرمان .

٢ – نقرر أيضاً أنه يتحتم على كل رجل حر أن يثبت بالعهد واليمين أنه ، في داخل انجلترا وخارجها ، يحرص على الولاء الملك وليم ، وأن يعمـل بكل اخلاص على أن يحافظ معه على بلاده وشرفه ، وأن يبادر إلى الدفاع عنه إزاء أعدائه .

٣ – يضاف إلى ذلك أنني أحب أن يدخل في سلامي وأمني كل الرجـال الذين صحبتهم معي ، أو الذين جاءوا بعدي . وإذا جرى قتل أحدهم ، فينبغي على سيد قاتله أن يقبض على القاتل في خلال خمسة أيام ، إذا استطاع إلى ذلك

سبيلا ، أما إذا لم يستطع ، فليبادر إلى أن يؤدي لي ستاً وأربعين قطعة فضية ، طالما بقي قائماً مـا يحوزه السيد من الامتعة ، أمـا إذا نفدت ، فإن كل سكان المنطقة التي وقع بها القتل ينبغي أن يؤدوا معاً ما تبقى من المال المطلوب.

٤ – وكل رجل فرنسي كان زمن قريبي الملـك ادوارد ، يأخذ في انجلترا بعادات وتقاليد الانجليز ، ينبغي أن يؤدي ما هو مقرر عليه وفقاً للقانون الانجليزي ، الذي جرى التصديق عليه في مدينة جلوستر .

٥ – ونمنع أيضاً بيع الماشية أو شراءها إلا في المدن ، بحضور ثلاثة شهود عدول . وينبغي ألا يباع شيء إلا بحضور ضامن أو كفيل فإذا جرى غير ذلك، يؤدي البائع غرامة .

٦ - وتقرر أيضاً أنه إذا ادعى أحد الفرنسيين على أحد الانجليز ، الحنث في اليمين أو القتل ، أو السرقة ، أو الاغتيال ، فللإنجليزي أن يدافع عن نفسه بما يختاره من السبل،أما الاختيار بطريق الحديدالساخن،أو المبارزة،وإذا كان الرجل الانجليزي ضعيفاً ، فعليه أن يختار رجلا انجليزيا آخر ينوب عنه في ذلك . وإذا انهزم أحد المتخاصمين ، فينبغي أن يؤدي للملك ، غرامة قدرها أربعون شلناً. أما إذا ادعى أحد الانجليز على فرنسي،ولم يشأ الفرنسي أن يثبت تهمته بالقضاء أو المبـارزة ، فانني (وليم) أطلب أن يبريء الفرنسي نفسه بما يبذله من يمين .

٧ – وأقرر أيضاً أن يلتزم الجميع بقانون الملك ادوارد فيما يتعلق بالأراضي والعقار ، وبما أصدرته من قوانين لصالح الشعب الانجليزي .

٨ – كل من يود أن يعتبر رجلا حراً ، ينبغي أن يكون له كفيل،يستطيع

أن يقبض عليه وأن يسلمه للعدالة إذا ارتكب جرماً لسبب من الأسبـــاب . فإذا هرب هذا الشخص فإن ضامنيه يبادرون ، دون أن يثيروا مشاكل ، إلى أن يؤدوا ما هو مطلوب منه ، وينبغي أن يبرئوا أنفسهم بأنهم لم يعلموا بما جرى من خداع في أمر هروبه . وينبغي على كل من المنطقة والمقاطعة أن ترد على ما حدث ، مثلما قرر أسلافنا . وأولئك الذين ينبغي أن يمثلوا ، ولم يحضروا ، لا بد من دعوتهم للمثول ، فإذا لم يحضروا بعد الدعوة الأولى والثانية ، يؤخذ منهم ثور ، ويدعون المرة الثالثة . فإذا لم يحضروا ، يؤخذ منهم ثور آخر . وإذا لم يقدموا بعد الدعوة الرابعة ، تقررت مصادرة أمتعة الشخص الذي امتنع عن الحضور ، فضلاً عن غرامة يؤديها الملك .

٩ — وإني لأمنع كل شخص من أن يبيع رجلاً خارج حدود البلاد ، فإذا خالف ذلك ، فعليه أن يؤدي لي غرامة كاملة .

١٠ — وإني لأحرم قتل الشخص أو شنقه لما ارتكبه من خطأ ، بل ينبغي أن تخزق عيناه . . . وكل من يخالف هذا الأمر ، يؤدي غرامة كاملة .

ثانياً – فرنسا (١٠٦٦ – ١٢٢٣)

كانت الملكية الإقطاعيه أكثر ما يهواه الملوك ، على أن العقبة الوحيدة التي تعترضهم ، هي أن تقوم ملكية من هـذا النوع ، فليس من اليسير أن تتوقع من رعايا الملك أن يتنازلوا له عن أراضيهم عن طيب خـاطر . ومع أن فتح انجلترا على يد وليم الفاتح يعتبر فرصة هيأت الاحتمال لقيام هـذا النوع من الملكية الإقطاعية ، فإنه قـد يجود بها الزمن مرة أخرى . فكيف ينبغي إذن لملك طموح أن يمضي في طريقه ؟ لا بد أن نلتمس الاجابة على هذا السؤال في تاريخ ملوك كابيه في فرنسا ، إذ أنهم استطاعوا في الفترة بين سنتي ١١٠٠ – ١٢٢٣ ، أن يجعلوا من أنفسهم ملوكاً اقطاعيين .

ولتقدير ضخامة ما حققوه من انجازات ، لا بد أن نقف على مقدار ضآلة سلطاتهم في مستهل هذه الفترة . فالمعروف أن ملوك بيت كابيه كانوا ملوكـاً على الفرنجة ، أي أنهم من الناحية القانونية كانوا أخلافاً لشارلمان على مملكة الفرنجة الغربيين . غير أن المملكة التي خلفوه عليهـا ، لم تكن سوى طيف لمملكته . ومع أنهم من الناحية النظرية يعتبرون قادة جموع الفرنجة الغربيين ، فالواقع انهم لم يحاولوا أن يستدعوا سنوياً جيشهم ، ولم يتوقعوا ما كان يحدث عادة من استقبال كتائب من سائر أنحاء المملكة ، ولم يعد الكونتات موظفين عندهم ، بل أضحوا فعـلاً سادة أقوياء . وخرج من أيدي الملوك مـا كان للكارولنجيين من أراضي خاصة . ولم يبق للملـك سوى الهيبة التي بذلتها له الكنيسة بسلطتها الأدبية . إذ أدركت الكنيسة أنه لن تستقيم الحياة المسيحية إلا في ظل القانون والنظام،ولذا بذلت كل ما في وسعها من جهد لمساندة الملكية . لم تكن الكنيسة للملك أداة مدنية قوية مثلما كانت للأمبراطور ، إنما ارتكنت إلى الملك لحمايتها ، وفي مقابل ذلك وهبته السلطة ، بل أنهـا جعلت شخصه مقدساً ، وساندت الدعوى التي تجعله يشفي المريض بالسل (داء الملـك) ، بمجرد لمسة خفيفة للمريض ، وأجازت الكنيسة أن هذه الموهبة العجيبة قـد تنتقل من الأب إلى الأبن . وساعدت الكنيسة الكابتيين في جعل الملك وراثياً

في أسرتهم ، بأن رضيت بتتويج أكبر أبناء الملك أثناء حيـاة والده ، وعلمت الكنيسة الفرنسيين أن طاعة الله تستوجب منهم إطاعة الملك . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة كانت شديدة الحرص على أن تقلل من شرور الحروب الإقطاعية ، فاستند الملوك إلى السادة الاقطاعيين الكنسيين من مناهضة اتباعهم . وإذا لم يكن ملوك بيت كابيه من القوة ما يكفي لإثارة قلق اتباعهم،ولم تكن ضياعهم من الضخامة ما يكفي لإغرائهم بابتلاعها ، لم يحفل الأتباع بسحق الملك والسيد الاقطاعي ، في سبيل الحصول على منافع ضئيلة الأهمية .

كانت مساندة الكنيسة هي الميزة الوحيدة التي حظى بها التاج الفرنسي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، ولم يتلق من غيرها إلا مساعدة ضئيلة . ولم يحاول الملك أن يحكم من مملكته ما يقع خارج ضياعه ، التي احتلت شريطاً ضيقاً من الأراضي ، يمتد على وجه التقريب من باريس إلى أورليان. وفي خارج هذه المساحة ، لم يكن الملـك إلا سوياً بين أسويائه . إذ أضحى دوق نرمنديا ملكاً على انجلترا أيضاً ، ومع أنه كان يظهر طاعته للملك في بعض الأحوال ، فإنه كان في أكثر الأحوال يشن الحرب عليه . على أن امتزاج الاستقلال بالوفاق أظهره أيضاً ، دوقات برجنديا ، وبريتاني ، واكيتانيـا ، وكونتات فلاندر ، وتولوز ، وانجو ، وشمبانيا ، وبلوا . فعلى الرغم من اعترافهم بسلطة الملك ، فإنهم لم يتوقعوا منه أن يستخدمها في أقاليمهم . اعتقدوا أنه ينبغي على الملك أن يقصر اهتمامه على ضياعه الخاصة ، ولا يباشر سلطته خارج هذه الضياع إلا إذا طلب منه ذلك .

وتهيأ الملوك الكابتيون، منذ زمن فيليب الأول (١٠٦٠ — ١١٠٨) للأخذ بهذا الرأي ، لأنهم أدركوا أنه ليس بوسعهم أن يقيموا لهم سلطة حقيقية إلا في أملاكهم ، فالتاج الملكي انما يهب المكانة والمجد ، والتأييد الأدبي للكنيسة ، وما يبذله كبار النبلاء من قـــدر ضئيل من الخدمة . على أن الملك لن يكون قوي السلطان والنفوذ إلا إذا حاز المال والرجال ، ومن اليسير الظفر بها إذا حسن استغلال الموارد الإقطاعية . ولذا كان لزاماً على الملك أن يركز جهوده

أولاً وقبل كل شيء على أملاكه الخاصة، ففي تلك الأملاك يعتبر سيداً اقطاعياً، ومنها يحصل على الموارد اللازمة لممارسة السلطة الملكية .

ازدياد السلطة الملكية :

على أن السيد الاقطاعي ليس بوسعه أن يجلس في داره ، ينتظر مـا يؤدي إليه من الايجارات والخدمات . فلا بد أن يمارس حقوقه بنفسه . ولهذا السبب، حاز لويس السادس (السمين) ١١٠٨ — ١١٤٧ ، ابـن فيليب الأول شهرة كبيرة. إذ أنه أمضى الشطر الأكبر من حكمه يطوف على جواده بأملاكه من أقصاها إلى أقصاها ، ويفرض حقوقه الملكية دون هوادة . وباعتلائه العرش ، استهلت فترة استمرت مائتي سنة ، ازدادت أثناءها السلطة الملكية ؛ ومع أن الحظ الطيب واتي الملوك الكابتيين أثناء هذه الفترة، بما جرى من ضعف شخصية بعض الأتباع أو موتهم دون أن يتركوا وريثاً من الذكور ، ومـا هو أهم من ذلك ، كانت قدرة الملوك الفرنسيين على الافـادة من التغييرات الجوهرية التي تعرضت لها مدنية غرب اوربا. فما حدث من تغيير جوهري في البناء الاقتصادي لغرب أوربا في القرن الحادي عشر والثـاني عشر والثالث عشر ، كان له تأثير كبير على ميزان القوة السيـاسية . فالحركة الكبيرة لاستصلاح الأراضي أدت إلى زراعة مناطق شاسعة من الأراضي المهملة والمستنقعات والغابات ، فأفادت منها الطبقة الاقطاعية . فكل سيد اقطاعي أنشأ قرية جديدة ، زاد في موارده بما ينتج منها ، بما يؤدي فيها من عمل . على أن كبار السادة فـاقوا اتباعهم بما حازوه باملاكهم من غابات شاسعة المساحة ، ومنـاطق كبيرة من الأراضي المهملة والمستنقعات . وأفاد ملوك فرنسا الكابتيون أيضاً من هذه الحركة ، فعلى الطريق الممتد من باريس إلى أورليان ، والجهات القريبة منه، ظهرت في القرن الثاني عشر تسع قرى ملكية جديدة ، كما أن الغابات الكبيرة التي كانت تحيط بباريس انقسمت إلى أجزاء صغيره متناثرة .

وما هو أكثر أهمية من استصلاح الأراضي ، مـا حدث من نمو التجارة والمدن ، وعودة الاقتصاد النقدي إلى الظهور ، وأفـاد من هذا التطور الطبقة

الاقطاعية ، إذا أضحى بوسع الفارس العادي أو البـــارون الصغير أن يجبي الرسوم نقداً من التجار الذين يجتازون أراضيه ، وأن يفيـد من الأرباح المتحصلة من السوق المحلية ، وقد يحوز بلدة أو مدينة صغيرة. أما الأسواق الكبيرة كالتي في شامبانيا ، وحيازة المراكز التجارية الهامة ، فإنها صارت بأيدي كبار السادة أمثال كونتات فلاندر وشامبانيا ، ودوقات نورماندیا . وأفاد الملوك الكابتيون باعتبارهم دوقات فرنسا من هذه الفرص . إذ يعتزوا بأملاكهم المـدن الحرة ، وأحاطوا باريس بأسواق نافقة .

الموارد النقدية :

الواقع أن توافر الموارد النقدية زاد من تقوية مركز الأمير الاقطاعي ، إذ صار باستطاعته أن يستأجر العساكر للقتـــال من أجله ، ولم بعد يركن إلى الخدمة العسكرية التي يبذلها أتباعه . فلم يعد بوسع التـــابع المتمرد يفلت من العقاب لأن رفاقه الأتباع الآخرين لم يبذلوا المساعدة للسيد في اخضـاعه ، ولم يعد باستطاعته أيضاً أن يمتنع بالقلعة ، وقد اطمأن الى سلامته ، لأن اخضـاع حصنه سوف يستغرق ما يزيد على فترة أربعين يوماً ، التي تعتبر الحـد الأقصى للخدمة التي يؤديها الجيش الاقطاعي . والواضح أن هذا التغيير في مكانة الأمراء الاقطاعيين جرى رويداً رويداً ومطابقاً لما حدث من تطور تدريجي في مصادر ما يصل إليهم من موارد مالية . ففي أواخر القرن الثـاني عشر أضحى بوسع دوق نورمنديا ، أو دوق فرنسا ، أو كونت الفلاندر أن يستخـــدم عساكره المأجورة في قمع تمرد تابـع له ، غير أن هـــذا الإجراء يكلفه نفقات باهظة ، أن ويستنفد جانباً كبيراً من موارده ، فلم يلجأ إلى ذلك إلا إذا اشتدت الحاجة إليه ، على أن هذا العمل لم يكن بعد قرن من الزمان من الأمور الخطيرة .

ولم يقتصر الأمير الاقطاعي على استئجار العساكر ، بل صـار بوسعه أيضاً أن يستأجر موظفين . فلم يعـد وكلاؤه من الأتباع ، الذين لم تختلف أغراضهم

الأساسية عن سائر أغراض رفاقهم من الأتباع . ولا داعي لأن يكون هؤلاء الموظفون من الفرسان الذين تعلقوا بالاقطاع ، ولذا فإن طبقة التجار الناشئة سدت حاجته ، لاختلافها عن الفرسان في وجهة نظرها ، ولأنها لم تحفل كثيراً بما للطبقة الاقطاعية من امتيازات وسلطة .

أفاد جميع كبار السادة من هذه التغييرات الاقتصادية،فانتفع منها إلى أقصى حد دوق نرمنديا وكونت فلاندر ، وكونت شامبانيا ، كما أفاد منها الملوك الكابتيون باعتبارهم دوقات فرنسا . هذه الأحوال العامة هيأت للملك أن يوطد سلطته في أملاكه ،والواقع أن مهارة الملك اقترنت بحظه الطيب في زيادة أملاكه على حساب كبار أتباعه .

البابوية :

تعتبر البابوية عاملاً هاماً في سياسه غربي أوربا اثناء القرنين الحادي عشر والثاني عشر . وسبق الاشارة إلى ما كان من استناد السلطة الملكية في القرنين التاسع والعاشر وأوائل القرن الحادي عشر إلى ما كان يربطها من تحالف وثيق مع الكنيسة . وكان الملك في مملكته يضبط موظفي الكنيسة ومواردها . غير أن البابوية حرصت بعد افاقتها وانتعاشها على أن يكون لها السيطرة على الكنيسة بأكملها . فلم تود أن يتولى الملوك تعيين كبار موظفي الكنيسة وفق مشيئتهم، بل إن البابوات زعموا أنه يصح لهم عزل الملوك الذين ينتهكون قانون الكنيسة . أنكروا ما للملوك من صفة كهنوتية ، فلم تكن الملكية منصباً مقدساً. واعتبر البابوات، أمثال جريجوري السابع ، أن الملك ليس إلا قائداً يستند إلى سلطان البابا . على أن هذا الرأي لم يجمع عليه رجال الكنيسة

في أوربا . إذ اشتد الميل لأن يساند رجال الكنيسة بكل مملكة ملكهم مثلما كانوا يفعلون من قبل ، ولكن حدث من ازدياد سلطان الكنيسة مـــا جعلها عاملاً جوهرياً في السياسة الدنيوية في غرب أوربا ، وبذا نزعت إلى استخدام سلطانها في أضعاف الملكيات الكبيرة .

هذه السياسة البـــابوية الجديدة كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى تحطيم الملكية في المانيا ، وإلى عرقلة نمو سلطة الملـك في انجلترا ، غير أن الملوك الكابتيين كانوا أحسن حظاً من نظرائهم ففي المرحلة الأولى من النضال المرير بين البابا والملوك حول مسألة التقليد العلماني ، تركز اهتمام البابوية على المانيا . وما جرى من مناوشات صغيرة بين ملوك فرنسا والبابوات لم تسفر عن نتيجة هامة ، ولما سعى البابوات فيما بعد إلى تحقيق أغراضهم بالاشتراك الفعلي في السيـــاسة الدنيوية ، نجح الملوك الكابتيون في التحالف معهم في اللحظات الحرجة . ولما حاولت البابوية آخر الأمر في أواخر القرن الثالث عشر أن تحول وجهها عن المانيا وتلقى بثقلها على الكابتيين ، كان الملوك الكابتيون من القوة ما يكفي لاحراز النصر .

توطيد السلام في الأراضي الملكية :

اشتهر لويس السادس بقوة كبيرة من الناحيتين الفكرية والجثمانية . عزم منذ أن تولى العرش على تدمير صغـار السادة المتمردين بدوقية فرنسا، وعلى أن يبذل كل جهد في توطيد سلطانه خارج أملاكه . وكان أقوى حليف له في تحقيق أغراضه ، سوجر رئيس دير سان دنيه ، الذي يعتبر أكبر أديرة فرنسا . والمعروف أن لويس تعلم في مدرسة دير سان دنيه ، حيث التقى بسوجر ، وبفضل نفوذ الملك أضحى سوجر رئيساً للدير . ويعتبر سوجر وزيراً مثالياً للملك في

العصور الوسطى ، إذ حرص من جهة على نمو سلطة الملك ، وعلى مساندة الملك إزاء خصومه من العلمانيين والكنسيين ، كما أن حياته الخاصة وإدارة ديره كفلتا له احترام أشد الموظفين والكنسيين عناداً وصلابة .

وإذ استند لويس السادس إلى التأييد الروحي والدنيوي من قبل الأساقفة ورؤساء الأديرة بأملاكه ، شن حرباً لا هوادة فيها على البارونات بدوقيته . ودرج الملك على أن يدعو البارون للمثول أمام محكمته الاقطاعية ليرد على ما وجه إليه من التهم الأشخاص الذين نهبهم وحبسهم وشهر بهم . فإذا لم يستجب البارون لدعوة الملك ، يعتبر متمرداً وعاصياً . وقبل أن يتوجه الملك لقتال البارون ، يتأكد أن الكنيسة قد قطعته . على ان إخضاع البارون القوي لم يكن أمراً هيناً ، إذ ظل الملك سبع سنوات يشن الحرب المرة بعد المرة على هيو بويزيه ، وفي كل مرة يخرب قلعته ، غير أن البارون يعيد عمارتها بعد كل قتال ، على أن هيو انهزم آخر الأمر وتجرد من إقطاعه . ولما مات لويس ، أضحى ملك فرنسا سيد دوقيته الفعلي ، وصارت سلالة سادته الاقطاعيين الذين انتقص لويس سلطانهم أشد الناس ولاء لأخلاف ملك فرنسا أثناء النضال مع كبار الأتباع .

كان لزاماً على لويس السادس أيضاً أن يدافع عن أملاكه من هجمات اثنين من أكبر أتباعه ، وهما هنري الأول دوق نورمنديا وملك انجلترا ، وابن اخته ثيوبالد كونت بلوا وشمبانيا . والواقع أن لويس كان في وضع بالغ الحرج نظراً لأن نرمنديا تتاخم فرنسا من جهة الشمال الشرقي ، بينما تقع بلوا إلى الغرب منها ، وتجاورها شامبانيا من جهة الشرق ، على أن الحظ واتاه بما ظفر به من مساندة كونت انجو الذي هيأ له وضعه أن يهاجم هذين العدوين . يضاف إلى ذلك أن هنري الأول كان دائماً يواجه مقاومة عنيفة في نرمنديا ، تولى قيادتها أخوه روبرت وابنه وليم . واستطاع لويس أن يحول انتباه عدويه

القويين عن دوقيته ، بما لجأ إليه من إثارة وتشجيع كونت انجو ، وحزب روبرت في نورمنديا

ومع أن لويس قام بحملات عديدة في داخل أملاكه ، دوقية فرنسا ، وعلى أطرافها ، فإنه لم يفد من الفرص التي تهيأت له ، كما يستغل مكانته باعتباره ملك فرنسا . فما بذله من محاولات لاعادة اقطاع بوربون لصاحبه سنة ١١٠٩، وإعادة أسقف اوفرن إلى منصبه سنة ١١٢٢، وفضلاً عن أنه نصب في كونتية الفلاندر، سنة ١١٢٧، وليم ابن روبرت النرمندي، كل ذلك لم يعتبر انتصاراً حاسماً، للملك لويس. على أنه في ذلك أظهر العزم على أن يمارس حقوقه على أنه ملك إقطاعي ، كما أنه كان لهذه السياسة القوية تأثير كبير على أمراء الاقطاع في فرنسا . فلما أحس وليم العاشر ، دوق اكيتانيا ، باقتراب منيته ، انفذ رسالة إلى لويس السادس يلتمس منه رعاية ابنته الوحيدة ، الطفلة اليانور، ويقترح عليه أن يزوجها فيما بعد بأبنه الأكبر ، لويس .

اليانور :

مات لويس السادس ، ووليم دوق اكيتانيا في سنة ١١٣٧ ، وتزوج الملك الجديد لويس السابع من اليانور ، فصار دوقاً لاكيتانيا . على أن تملك اكيتانيا لم يكن بالغ القيمة للملك لويس السابع ، برغم اتساع رقعتها التي امتدت من جبال البرانس إلى نهر اللوار ، نظراً لأن معظم هذه المساحة كان بحوزة سادة اقطاعيين أقوياء ، ولم يستطع دوق اكيتانيا ضبطهم وإخضاعهم ، فلم تتجاوز سلطته بعض مناطق صغيرة المساحة تقع قرب مراكز حكمه، بايون ، وبوردو وبواتييه . وإذ اشتهر لويس السابع بالرقة والعطف والتقوى ، وكان يقيم بعيداً عن بلاد اكيتانيا ، فإن كبار سادة اكيتانيا الاقطاعيين تجاهلوا سلطته ، فلم تفد السلطة الملكية كثيراً باضافة اكيتانيا إلى ممتلكاتها . على أن لويس لم يكن سعيدا في حياته الزوجية مع اليانور لاختلافهما في الطباع . فبينما كان لويس تقياً صالحاً يميل إلى الزهد والتقشف ، كانت اليانور قد تشبعت بروح الشعراء

التروبادور ، وما اشتهروا به من المرح والغزل ، يضاف إلى ذلك أن اليانور لم تنجب وريثاً له ، فتهدد بذلك مستقبل الأسرة الكابيتية . فقرر جماعة من رجال الكنيسة أن الزواج باطل لما بينهما من قرابة وثيقة تمنع الزواج ، ولم تنقض سنة على هذا القرار الذي صدر سنة ١١٥٢ ، حتى تزوجت اليانور من هنري الثاني دوق نرمنديا وملك انجلترا [١] .

وإذ فشلت محاولات لويس السابع في مناهضة هنري الثاني ملك انجلترا ، سواء بالحرب أو التآمر ، لم يسعه إلا أن يعقد سلسلة محالفات ، فأصلح أمره مع أسرة بلوا ، بأن زوج أبنته الكبرى ماريا لهنري كونت شامبانيا ، وتزوجت أختها الصغرى أليس من ثيوبالد كونت بلوا وشقيق هنري شامبانيا ، بينما تزوج لويس السابع نفسه من أديل بلوا . وفي السنوات الأخيرة من حكمه ، خضع لويس لسيطرة هنري كونت شامبانيا وثيوبالد (بلوا) ، وأخيهما وليم رئيس أساقفة ريمس .

---

(١) سبق الاشارة الى أن هنري الأول ملك انجلترا زوج ابنته ماتيلدا من جفري كونت انجو . ولما مات هنري دون أن يكون له وريث شرعي ، وقع الشقاق بين ماتيلدا وبين ستيفن بلو ابن اخت هنري . واذ خشي لويس السادس ما تتعرض له بلاده من خطر ، اذا وقعت نورمانديا في يد ستيفن ، شجع جفري كونت انجو ، الذي انتزع دوقية نورمنديا باسم ابنه هنري. ولما مات جفري، صارت نرمنديا وانجو الى هنري ، واذا كان لدوقات نرمنديا السيادة ، على بريتاني ، انبسط سلطان هنري على غرب فرنسا من مصب نهر السوم الى مصب نهر اللوار ، واضحى هنري من اكبر امراء الاقطاع واقواهم ، لحيازته ثلاثة اقطاعات ضخمة (نورمنديا وانجو، واكيتانيا) . ولم يلبث هنري أن تولى عرش انجو سنة ١١٥٤ بعد وفاة ستيفن بلوا ، وبذا صارت موارد انجلترا تشد أزر أقوى أتباع ملك فرنسا واشدهم خطورة .

فيليب أغسطس .

ولى الحكم بعد أبيه لويس السابع . ومع أنه لم يكن جندياً تابهاً ، فإنه توافر لديه من الصفات ما تجعل منه ملكاً ناجحاً ، فاشتهر برجاحة العقل ، والعزم الشديد على زيادة السلطة الملكية . وبزواجه من ابنـــة أخ كونت فلاندر ، وتحالفه مع هنري ملك انجلترا ، أحرز مساعدتها .

ومع أن فيليب لم يتحالف مع هنري الثاني ملك انجلترا إلا للتخلص من سيطرة أسرة بلوا ، فإنه أدرك أن ما يهدد ملكية الكابتيين من خطر إنما جاء من قبل الملوك الانجوبين بانجلترا . فلجأ إلى سياسة أبيه ، بأن أثار رتشرد وأخيه يوحنا على والدهما هنري الثاني ملك انجلترا ، على أنه لم يفد كثيراً من هذه السياسة . إذ كان رتشرد أكثر كفاية من أبيه، فعزم على أن يحمي اقطاعاته من فيليب أغسطس .

واستطاع فيليب أغسطس بعد وفاة رتشرد أن ينتزع من يوحنـــا ملك انجلترا نورمنديا وانجو . ولما حاول يوحنا استردادهما بالقوة، حلت به الهزيمة في وقعة بوفين المعروفة . فأضاف فيليب إلى أملاك التاج أرتوا ، ونورمنديا وانجو ، ولم تلبث تولوز أن أضحت من اقطاعات التاج الفرنسي .

مات فيليب أغسطس سنة ١٢٢٣ ، بعد أن تحقق النصر له على كبار أتباعه، إذ صارت أرتوا ونورمنديا وانجو من ممتلكاته ، بينما وقع كونت فلاندر في أسره في وقعة بوفين ، ولم يبق لملوك انجلترا من السيادة على اكيتانيا ، إلا ما قصر على بوردو ، وبايون، بينما استمد كونت تولوز اقطاعه من التاج الفرنسي وصار يعتمد على شمال فرنسا فيما يصله من الأموال والعساكر . وبذا لم يبق محافظاً على وضعه ، من كبار أتباع التاج الفرنسي الستة، سوى كونت شامبانيا

ودرق برجنديا ، وأصبحت مساحة أملاك التاج الفرنسي ثلاثة أمثال ما كانت عليه قبل فيليب اغسطس ، فتحطمت بذلك قوة الأمراء الاقطاعيين .

الادارة الملكية :

احتاجت أملاك فيليب أغسطس بعد اتساعها من الجهاز الاداري ما يزيد على ما تحتاجه دوقية فرنسا الصغيرة . والمعروف أن حكومة الملوك الكابتيين الأوائل كانت بسيطة ، إذ أن موظفي البلاط الملكي كانوا أيضاً يتولون تسيير أمور الدولة . فالصنجيل الذي اضطلع بتوفير الغذاء والكساء للبلاط ، صار يشرف على الاملاك التي تدر الموارد الضرورية . وقام الكندسطبل والمارشال بالإهتمام بخيول الملك وبقيادة عساكره في القتال ، فاذا احتاج الملك إلى المشورة والنصيحة ، بذلها له هؤلاء الموظفون ومن يتصادف حضورهم من الاتباع . فاذا عُرضت قضية على محكمة الملك ، تولى نظرها جماعة من هذا القبيل ، وفصلت فيها . أما الضياع الملكية فتولى الاهتمام بها فئة من الموظفين يعرفون باسم provosts ، وتكون وظائفهم وراثية ، ويؤدون للملك مقداراً معيناً من الخراج كل سنة ، ويحتجزون لانفسهم ما يتبقى من الجباية ، والراجح أن ما يؤدونه من الخراج كان نوعاً ، وكان الملك وبلاطه يطوفون بالضياع ، ويعيشون على ما ينتج منها من الثمار .

على أن اتساع شئون البلاط الملكي زمن لويس السادس ولويس السابع ، أدخل عاملاً جديداً في الإدارة ، بأن جرى الاستعانة بطائفة من الكتاب تمرست في القانون ، فاشتركوا مع موظمي البلاط والاتباع بالدوقية في النظر في القضايا الهامة . وهذه الفئة من الرجال تنتمي إلى الطبقة الوسطى ، وأكثر ما اهتموا به هو أن يخدموا سيدهم الملك .

لم يشأ فيليب أغسطس أن يزيد في الوظائف الوراثية ، بعد اتساع املاكه ، فلجأ إلى تقسيم الاقاليم الجديدة إلى مناطق ، وعين لإدارتها رجالاً من الطبقة الوسطى ، اشتهروا باسم baillis يصح للملك أن يعزلهم كيفما شاء وأن ينقلهم من جهة إلى أخرى حتى لا يستقر سلطانهم . والتزم هؤلاء الموظفون أن يؤدوا للملك كل ما حازوه مقابل حصولهم على راتب . على أنه كان لزاماً على الملك أن يستعين بوكلاء من النبلاء في بعض الاقاليم التي تستقر بها حاميات عسكرية قوية ، لان العساكر كانوا يأنفون من إطاعة كل من لم يكن فارساً ، ولذا خضعت البلاد المتاخمة لدوقية اكيتانيا ، لإدارة الصنجيل الذي ينتمى لفئة الفرسان . واستخدم حكام الاقاليم من المدنيين والعسكريين ، موظفين يشاركونهم في الاضطلاع بأعباء الإدارة. وبهذه الوسيلةأقام ملوك فرنسا طائفة من الموظفين تتقاضى مرتبات ، وتهتم بمصالح الملك .

أقام فيليب أغسطس للكابتيين ملكية وطيدة الأركان ، وفي القرن الذي تلى وفاته تطورت الادارة الملكية الفرنسية ، اذ تألف من رجال القانون المحترفين الذين خدموا فيليب أغسطس ما يعرف ببرلمان باريس ، أي المحكمة العليا بالمملكة ، فصار القضاة ينظرون في معظم القضايا ، فإذا كانت القضية تمس رجلا من النبلاء، تقررت دعوة أتباع الملك إلى الاشتراك في نظر القضية . وتفرع عن الإدارة الملكية ، إدارة مالية تعرف باسم Chambre des Comptes تتلقى من حكام الأقاليم ما هو مقرر للملك من أموال ، وتضع حساباً للمصروفات . واقيت الحكومة المساعدة من فيليب أغسطس ، بما كان يبذله لها من الالتزامات الإقطاعية ، مثل رسوم ايلولة الاقطاع ، ومن موارد املاكه . وما جباه القديس لويس من ضرائب ثابتة ، تشمل عادة ضريبة الدخل والعقار التي تقررت على كل المملكة . ولم ينته القرن الثالث عشر حتى أضحى للملكية الكابتيين إدارة مركزية راقية ، يساندها نظام ثابت للضرائب

فضلاً عن الموارد التقليدية .

وما حدث من التنازع بين الملك والبابا حول انتخاب الأساقفة ، انتهى بأن تولى البابا انتخاب الأسقف ، على أنه كان يختار عادة مرشح الملك ، وقد يستخدم سلطته وحقه للمساومة في أمر سياسي . ووافق البابا على رأي الملك بأن يؤدي رجال الدين وضياع الكنيسة الضرائب المقررة ، على أن يكون له نصيب منها .

وما حدث من نضال أواخر القرن الثالث عشر بين البابا بونيفاس الثامن ، والملك فيليب الرابع ، أدى إلى قيام هيئة جديدة ، وهي مجلس طبقات الأمة Estates General ، كان الملك يقصد بها أن يبين للبابا والعالم أنه يلقى المساندة القوية من الشعب . وفي سنة ١٣٠٢ دعا ممثلي طبقات الأمة من الأشراف ورجال الدين وسكان المدن للإجتماع ، فأيدوا الملك في سياسته مع البابوية . ثم قرر فيليب أن يفيد من هذه الهيئة في أغراض أخرى ، فأمدته هذه الهيئة بالجهاز اللازم لجباية الضرائب ، وعن طريقها تقرر فرض ما يراه الملك من الضرائب ، وذلك عكس ما كان حادثاً في انجلترا . ولم يكن فيليب ملكاً مستبداً ، نظراً لان حقه في الحكم استند إلى حد كبير على مكانته باعتباره ملكاً اقطاعياً ، التزم بالعرف الاقطاعي . على أن رجال فيليب الذين درسوا القانون الروماني وأدركوا ما كان للامبراطور الروماني من سلطة ، حاولوا أن يجعلوا للملك ما للامبراطور من سلطة ، وما حدث من تطور فيما بعد للملكية الفرنسية ، يرجع أصوله إلى زمن فيليب الرابع .

ثالثاً ـ المانيا :

الأمبراطور فردريك الأول بربروسه (١١٥٢ ـ ١١٩٠) :

يعتبر فردريك بربروسه آخر من يعد من أباطرة العصور الوسطى بطلا

قومياً في المانيا الحديثة . إذ شاع عنه أسطورة بأنه لم يمت بل اختفى في تلال كيفهاوزر حتى تعود لألمانيا وحدتها .

ومع أن فردريك بربروسه يعتبر من أعظم الأباطرة في تاريخ ألمانيا ، فقد كان له أثر كبير في تاريخ ايطاليا ، ولذا ينبغي أن نعالج سياسته في كل من المانيا وإيطاليا على حدة في الفترة المبكرة من عهده (١١٥٢ – ١١٧٦) .

١ – المانيا

لما تولى فردريك العرش ، كانت الملكية في المانيا بالغة الضعف ، إذ نشبت الحرب الأهلية في المانيا ، ذلك أنه على الرغم من أن النزاع على التقليد العلماني تمت تسويته في اتفاقية فورمز سنة ١١٢٢ فلا زالت البلاد يقتسمها أولئك الذين قاوموا هنري الرابع وأولئك الذين ساندوه ، وكان أشهر ما وقع من النضال هو الذي بين الجويلفيين والجبيليين[1] . وعلى الرغم من أن الجويلفيين اشتهروا بأنهم

١)يملأ هذان الاسمان تاريخ المانيا وايطاليا في العصور الوسطى ،وهما صيغتان ايطاليتان لأسمين المانيين Welfs & Gaiblingen Guelfs & Chibllines . وأولهما اسم دوق من دوقات سكسونيا شمال المانيا أواسط القرن الثاني عشر الميلادي، ثم أضحى علما على دوقات هذا الاقليم . أما ثانيهما فهو اسم معقل من المعاقل الاقطاعية التابعة لأسرة الهوهنشتاوفن دوقات سوابيا بالجنوب الغربي من المانيا ، منذ اوائل القرن الثاني عشر ، ثم أضحى كذلك علما على دوقات هذه الأسرة فضلاً عن اسمهم العائلي ، أي هوهنشتاوفن . واقتصر استعمال اسمي الجولفيين والجبيليين بصيغتهما الألمانية في تاريخ المانيا ، وحوادث التنافس على التاج الألماني بين البيوت الألمانية الكبرى ، حتى اذا كان عهد الامبراطور فردريك بربروسا ، وهو الجبيليني الهوهنشتاوفني الذي جرى في عروقه دم الجولفيين ، نظراً لأن أمه جودث هي أخت هنري المتكبر دوق سكسونيا وبافاريا ، فبدا كان القادير أعدت فردريك بربروسا لاصلاح ما بين الأسرتين من نزاع . انظر فيشر : تاريخ اوروبا العصور الوسطى ج ١ ، ص ١٩٤ ١٩٥ (حاشية ١) ، .

أنصار البابوية ، فإنهم ساندوا الأسرة الولفية ، التي ضمت معظم أعداء هنري الرابع ، ومضت في مقاومة سلالته ، كأن العداء من سليقتها وغريزتها ، أما الجبيليون وهم المعروفون بأنصار الأمبراطورية ، فساندوا أسرة هوهنشتاوفن التي اعتبرت الأمبراطورية حقاً موروثاً لها .

واشتدت حدة النزاع بين الجويلفيين والجبيليين سنة ١١٢٥ عند انتخاب امبراطور يخلف هنري الخامس . ذلك أن التاج الألماني ، شأن سائر الملكيات في غرب أوروبا ، كان حتى وقتذاك يجري بذله عن طريق اقتران الانتخاب بالوراثة فعلاً . ومع أن اجراء الانتخاب كان أمراً جوهرياً ، فانه جرت العادة أن يلجأ كل ملك أثناء حياته إلى انتخاب أكبر ابنائه وتتويجه ، حتى لو كان هذا الوريث طفلاً . ولما مات هنري الخامس دون أن يترك عقباً ، اغتنم الفرصة جانب كبير من النبلاء ورجال الكنيسة ، كيما يجعلوا الانتخاب مفتوحاً ، فأغفلوا دعاوى فردريك (الأعور) دوق سوابيا الجبيليني ، ابن أخي هنري الخامس ، ووريثه في ضياعه الخاصة ، واختاروا لوثير سبلنبرج دوق سكسونيا ، الذي لم يكن له حق شرعي في وراثة الحكم ، بل اشتهر بعداوته الشديدة للأسرة السالية (هوهنشتاوفن) .

يعتبر لوثير من اولئك الرجال المحدثين ، الذين ارتفع شأنهم اثناء الحروب الأهلية التي نجمت عن النزاع حول التقليد العلماني . تزوج لوثير من حفيدة اوتو نوردهيم ألد اعداء هنري الرابع ، ولتأمين مكانته ومركزه زوج ابنته الوحيدة لهنري المتكبر دوق بافاريا ، الذي ينتمي إلى الجويليفيين ، وكانت تأمل في ارتفاع شأن أسرتها بعد أن تؤول اليها سكسونيا بحق الوراثة . على أنه حينما مات لوثير سنة ١١٣٨ انزعج النبلاء ، فاختاروا كنراد الثالث من أسرة هوهنشتاوفن ليحل مكانه .

واذ كان كنراد ضعيفاً ، لم يكن ناجحاً في حكمه ، فاشتدت عداوته

للجويلفيين ، برغم افتقاره إلى القوة التي يستطيع بها تدميرهم . ولم يتردد كنراد في أن يلتمس من الوسائل مـــا يضعف بها خصمه هنري المتكبر ، فجرده من بافاريا ، وحاول أن ينزع عنه دوقية سكسونيـــا ، لكن عقبة كؤودا عجز كنراد عن اقتحامها برغم ما هو معروف من جسارة الهوهنشتاوفن ، وتلـــك العقبة هي أهل سكونيا الذين لم يحبوا السوابيين يوماً من الأيام ، بل ثبتوا على اخلاصهم للاسرة الجويلفيه ، حتى إذا توفى هنري المتكبر ولم يخلـــف سوى صبي في العاشرة من عمره ، وهو الذي سمى فيما بعد هنري الأسد ، وقف أهل سكسونيا لحفظ الدوقية للجويلفيين ، ولم يسع كنراد سنة ١١٤٢ إلا الاعتراف بهنري الأسد دوقاً على سكسونيا ، على أن الجويلفيين لم يتخلوا عن مقاومتهم في بافاريا وظل هنري الأسد يطالب بحقوقه الوراثية في بافاريا ، وأضحت الحرب الأهلية وشيكة الوقوع ، عند وفاة كنراد الثالث سنة ١١٥٢ .

وفي غمرة هذه الأحوال ، تم انتخاب فردريك بربروسا امبراطوراً . ومع أنه ينتمي إلى أسرة هوهنشتاوفن ، اذ كان ابن أخ كنراد الثالث الذي رشحه ليخلفه على العرش ، غير أنه يدين بأنتخابه أيضاً إلى ان أمه من الجويلفيين ، اذ كانت أخت هنري المتكبر. فانعقد عليه الأمل في أن يوفق بين الأسرتين ، وأن يضع نهاية للحرب الأهلية ، وأن يقر القانون وأن يعيد الأمن إلى نصابه . ولتحقيق هذا الأمـــل استهل فردريك سياسة التعاون ، فكان لزاماً على الجويلفيين وهوهنشتاوفن ، أن يعترف كل منهما للاخر بحقوقه الوراثية ، فيعترف الجويلفيون بالملكية لأسرة هوهنشتاوفن ، على أن تقر لهم حقوقهم في بافاريا .

نجح فردريك في ذلك لعدة سنين ، اذ حـاول استرضاء ابن خاله ، هنري الاسد زعيم الجويلفيين ، فأعاد عليه دوقيتي سكسونيا وبافاريا ، وتعالت الأصوات بمدح الملك الجبيليني ذي اللحية الصهباء (Barbarossa) ، لأنه خلص المانيا من

شر الفتنة ، التي أنزلت بكثير من المدن الألمانية أفظع ألوان الخراب[1] .

وحاطت مدائح المعاصرين فردريك بربروسا طوال حياته ، ولا تزال اصداء تلك المدائح تتردد في نغمات حماسية متفاوتة القوة في اجيال المؤرخين . وكيف لا يكون ذلك ، وجميع الصفات التي أفتخرت بها فروسية ذلك العصر مجتمعة فيه ، من شجاعة فائقة وهمة خارقة ومرح مفرط ،فضلاً عن شغف بالقتال والنزاع ، وولوع بالمغامرة ، وحب للعدل بين الناس عدلاً عرفياً ، مصدره حسن الإدراك لا القانون . والواقع أنه لم يعتل عرش المانيا ، منذ شارلمان ، ملك اكتمل فيه من الخلال المؤهلة لحكم الالمانيين مثلما تمّ في بربروسا . ولمس رجال الدين والأمراء الإقطاعيون تلك الناحية من شخصيته الممتازة ، وأعتبروه مثال الفارس الكامل .

كان فردريك واقعياً ، فيما سار عليه من سياسة الوفاق مع الأمراء الألمان ، استند فيها إلى المصالح المتبادلة . فعلى الرغم من انه عزم على إحياء سلطة الملك ، حرص على أن يواجه حقائق الأوضاع ، فلم يتخذ سياسة مناهضة للاقطاع كالتي جرى عليها معاصره هنري الثاني ملك انجلترا ومعظم ملوك العصور الوسطى ، الذين أعادوا الأمن بعد فترة سادت فيها الحرب الأهلية ، وذلك لأنه استحال عليه أن يسلك هذه السياسة ، نظراً لان الحرب الاهلية ظلت مستعرة نحو خمس وسبعين سنة ، تخاصم فيها البابا والامبراطور ، والجويلفيون والجبيليون ، ولم يحز أحد منهم النصر . والواقع أن النبلاء وحدهم هم الذين أفادوا من الحرب الاهلية ، بما اغتصبوه من حقوق بالغة الاهميه ، من السلطتين الكنسية

---

(١) انتزع فردريك من بافاريا ، الثغر الشرقي الذي اشتد فيه نفوذ اسرة بابنبرج ، ورفع هذا النصر الى مرتبة الدوقية ، استريا وجعلها لحيلفه هنري جاسومبرجوت وزوجته ، وتنتقل عن طريق الوراثة الى سلالتهما من الذكور والاناث ، او لمن يهبانها له اذا لم يكن لهما نسل . وكل ما يطلبه فردريك من الدوق هو ان يشهد المجالس (الدياب) التي تنعقد في بافاريا ، وان يؤدي الخدمة العسكرية في البلاد المتاخمة للدوقية ، ولذا صار مسئولاً عن حماية الحد الجنوبي الشرقي لألمانيا من المجرمين انظر Davis: Medieval Europep.319

والزمنية سواء .

فالمعروف منذ القرن التاسع الميلادي ان أيسر طريق يلتمسه النبيل ليزيد من ثروته ، هو ان يصير قيّماً على الاديرة . وكان من واجبه وقتئذ أن يدافع عن الدير وأن يمثله في المحاكم المدنية ، غير أنه من الناحية العملية أضحى من حقه أن يجرده من كل شيء . ولما اشتهر به الرهبان من الزهد ، حرصوا على أن يتخلوا عن كل المسئوليات الزمنية ، ولم يرغبوا في أن يمارسوا باسم الأمبراطور ما كان لهم من إعفاءات إذ أرادوا أن يكونوا احراراً ، وأن يقرروا تبعاً لذلك تعيين أحد الاعيان المحليين ليتولى الدفاع عنهم ازاء ما يتعرضون له من ظلم ، وليزيح عنهم باعتباره خادماً لهم كل المتاعب الدنيوية ، فأطلقوا عليه اسم « المحـــامي » advocatus ، ونظراً لانهم لم يحبوا أن يكونوا مسئولين عن اراقة الدماء ، التي كانت تعتبر جانباً جوهرياً في قضاء العصور الوسطى ، استخدموه لينوب عنهم في ممارسة القضاء ، وكافأوه على ذلك بأن جعلوا له ثلث ما يتحصل من رسوم القضاء . واعتقد الرهبان أن هذا المحامي لن ينزل بهم شيئاً من الضرر ، نظراً لأنه يدين بمركزه للدير ولأنه خادم له . غير أنهم نسوا انهم جعلوا له سلطات الأمير بعد أن عهدوا اليه أمر الدفاع عن أراضيهم وممارسة القضاء في بلادهم . ولم يكتشفوا إلا بعد فوات الوقت ، أن ما صار للمحامي من طغيان يفوق استبداد الأمبراطور وجبروته . ففي أثناء الحرب الأهلية التي استمرت خمس وسبعين سنة ، استغل « المحامي » ما كان موكولاً له من واجب ، فزاد من أرباحـــه ، وتصرف في وظيفته كأنها متاع وراثي له ، بل إنه حدث في بعض الأحوال أنه باع ما صار موكولا له من الحقوق دون أن يستشير رئيس الدير أو ان يحفــل بالدير . فإذا كان رجلا كفئاً ، استطاع أن يجعل من نفسه حامياً لأديرة عديدة ، وأن يدعم أراضيه بما يشتريه من المحامين الآخرين من أراضي أو يستبدلها بما لديه ، فيتألف من كل ذلك إمارة صغيرة .

على أن حقوق الامبراطور جرى انتزاعهـــا بطرق أخرى مباشرة . ففي

اثنـاء الحرب الأهلية كان من الطبيعي أن يعجز الأمبراطور عن ممارسة كل حقوقه . مثال ذلك أنه استحال عليه أن يمارس في مواضع عديدة حق الضيافة أو الحصول على مؤونة لبلاطه . والواضح أن الأعيان المحليين كانوا حريصين على المحافظة على خصائص المجتمع الإقطاعي ،بأن يحولوا اليهم ما كان الفلاحون يؤدونه للملك أو الامبراطور من خدمات ، وبذا اغتصب حقوق الملك مئات من الأعيان المحليين ، فوضعوا أيديهم على الأراضي الملكية ، واغتصبوا حقوق ممارسة القضاء وفرض الضرائب ، وشيدوا القلاع التي أثاروا منها الرعب في القرى المجاورة . فجعلوا من أنفسهم سادة اقطاعيين للأرض بكل معنى الكلمة ، بأن حازوا مـا يخضع لحكمهم من الأراضي ، وحكموا ما بحوزتهم من أراضي. وبذلك استطاعوا برغم ما يحيط أصول اسراتهم من غموض ، أن يجعلوا من انفسهم فئة ، ارتفـع شأنها . ولم تكن أسرة هوهنشتاوفن إلا من هذا الطراز ، قبل أن تصهر لأسرة الساليين ، اذا استمدوا أسمهم من قلعة شيدوهـــا على ألب سوابيا ، وحازوا الأراضي ، ورعاية الأديرة ، وظفروا بحقوق السيادة شأنهم في ذلك شأن سائر الأسرات التي تألفت منها الطبقة الجديدة من النبلاء .

ولذا أدرك فردريك بربار وسا حقيقة ما حدث أثناء النزاع حـــول التقليد العلماني من ظهور طبقة جديدة من النبلاء ، وقد انتمى اليها ، وعرف انه ليس من المستطاع تدمير إماراتها الإقطاعية . وأيقن ان كل محاولة لإستعادة ما كان للملك من حقوق بألمانيا منذ مـائة سنة ، سوف تثير التمرد والعصيان ، ولذا لم يسعه إلا أن يضفي الصفة الرسمية على ما جرى بذله ، على أساس إقطاعي ، من الحقوق والأراضي ، والتي ضاعت فعلا. ففي سنة ١١٥٢ اعترف ببيرثولد تسارنجن دوقاً لبرجنديا ، مقابل أن يؤدي ببيرثولد خدمة عسكرية فيبرجنديا ، قدرها ألف فارس ، أو يبذل خمسمائة فارس وخمسين من الرماة للخدمة في ايطاليا . ومـا بذله من هبات كانت عادة مؤلفة من أراضي أو حقوق ، لم يكن بوسعه أن يسيطر عليها . فلم تكلفه شيئاً ، بل انها جلبت اليه خدمات إقطاعية . وحرص

الأعيان المحليون من جانبهم على أن يتعاونوا مع الأمبراطور ، نظراً لأن ما تلقوه من هبات رسمية تعتبر اعترافاً رسمياً بالوضع القانوني الذي حازوه لأنفسهم زمن حرب التقليد العلماني ، كما أنها كفلت لهم أن الامبراطور لن يحاول استرداد حقوقه بالقوة .

وأكبر مثال للسياسة الإقطاعية الواقعية ، نصادفه في محاولة فردريك التعاون مع الجويلفيين . حرص فردريك على ألا يتسبب في عداء هنري الأسد ، وأعتقد أن دعوى هنري في دوقيتي سكسونيا وبافاريا مقبولة وعادلة ، ولذا هزم على أن يواجه الحقيقة وأن يجعل له نصيباً في حكم البلاد ، فليس ثمة سبيل آخر . ولذا صار لهنري السيطرة الفعلية على شمال ألمانيا وغربيها ، بينما انصرف فردريك لتحقيق ما رسمه من خطط للامبراطورية. وبينما كان فردريك منصرفاً إلى أمور ايطاليا ، كان هنري ينتزع الأراضي من الصقالبة النازلين شرقي نهر الإلب ، ويستعمرها بالنزلاء الألمان والفلمنكيين . وأمد الحدود إلى هولشتين الشرقية ، ولاونبرج ، وميكلنبرج الغربية ، وحاز حقوق السيادة فيما فتحه حديثاً من المناطق ، ومارس في بعض الأحوال حق تقليد الأساقفة بوظائفهم . وشجع هنري أيضاً استغلال الأراضي الجديدة من الناحية الاقتصادية ، وأقام مدناً جديدة أمثال لوبيك وميونخ ، وأسهم في نمو تجارتها على أنه اشترط أن تعترف هذه المدن بسيادته . وطهر بحر البلطيق من القرصان الونديين ، وانتهج سياسة خارجية صارمة مع دانمرقة ، وتصرف كأنه زميل الأمبراطور .

والواقع أن فردريك جعل لهنري الحرية المطلقة وأمعن في تشجيعه ، لإعتقاده أن أبسط وسيلة لضمان السلام في ألمانيا ، هي أن ترضى الجويلفيين . وأراد فردريك أيضاً أن يعيد توطيد سلطة الأمبراطور في إيطاليا ، ولذا كان لزاماً عليه أن ينتهج سياسة التعاون في ألمانيا . غير أنه يصح التساؤل ما اذا كانت هذه السياسة قد نجحت ، وهل بوسعه أن يركن إلى ولاء الجويلفيين ، أو أنه لم يكن من السهل نسيان العداوة القديمة ؟

٢ – ايطاليا .

على الرغم من ان فردريك بربار وسا كان واقعياً في ألمانيا ، فإنه نزع في الأربع والعشرين سنة الأخيرة من حكمه إلى أن يكون رجعياً خيالياً . إذ اشتد تأثره بما ساد عصره من روح العصور القديمة ،التي تمثلت في احياء الدراسات القديمة والقانون الروماني ، وأصر على أن يكون أمبراطوراً للرومان . طرب لفكرة أنه ليس فحسب خليفة لشارلمان وأوتو الكبير ، بل يعتبر أيضاً خليفة لقسطنطين الكبير ، وثيودوسيوس ، وجستنبيان . وحينما أصدر دستورا الجامعة بولونيا (إيطاليا) ، أمر بإثباته مع قوانين جستنيان في المتجددات Novellae. ولما وجه في أواخر حكمه إلى صلاح الدين رسالة يتحداه فيهـا ، جعل امبراطوريته دون وجل تطابق ما كان لروما القديمة من امبراطورية : كتب اليه يقول :

أتزعم بأنك لا تعرف أن أثيوبيا وموريتانيا ، وفارس ، وسوريا ، وبارثيا (حيث قرر البارثيون مصير طاغيتنا كراسوس) ، ويهوذا والسامرة ، وماريتيما ، وبلاد العرب ، وكلديا ، ومصر ذاتها (حيث جرى يا للأسف ، أن مواطناً رومانياً اسمه مارك انطوني ، وهو رجل نابه أضاع فضيلته ، وتجاوز حدود الاعتدال ، بأن جعل نفسه عبداً لهوى كليوباترا) ، أتدعي أنـك لا تعرف أن أرمينية ذاتها وأن عدداً لا حصر له من البلاد ، خضعت لسلطاننا .

وهذه الفقرة برغم غرابتها تعتبر مدخلاً رائعاً لما يزعمه فردريك من دعاوي في ايطاليا . إذ طالب بأن يكون له من الحقوق ما كان للأمبراطور الروماني الحقيقي ، ولم يقصد بذلك ما كان يمارسه أسلافه من حقوق قبل نصف قرن ، بل قصد أيضاً تلك التي جرت ممارستها في الماضي السحيق . أراد أن يرجع إلى الزمن الغابر كما يبعث أمجاد الأمبراطورية القديمة ، ومن الطبيعي أن يثير بذلك عداوة القوى الثلاثة الكبرى في ايطاليا في القرن الثاني عشر وهي النرمان ،

والبابوية ، والقومونات اللومباردية .

المعروف أن قوة النرمان ازداد نموها في ايطاليا منذ نهاية القرن الحادي عشر. فبينما كان روبرت جويسكارد مجرد دوق لكلابريا وأبوليا، أضحى روجر الكبير (١١٣٠ – ١١٥٤) ملكاً على صقلية وكل ما يقع من ايطاليا جنوبي جاريجليانو ويعتبر من أعظم وأقوى ملوك أوربا . وإذ تولى اليونانيون والعرب الإدارة المدنية له ، اضحت حكومته نموذجاً للكفاية الإدارية . وتحكمت بحريته في الحوض الأوسط للبحر المتوسط ، فهددت سواحل شمال افريقية وبيزنطة ، بينما كان لجيشه السيطرة على وسط وجنوب ايطاليا . ويعتبر روجر العدو اللدود للأمبراطورية ،غير أن ثقته بنفسه بلغت من القوة ما جعله يعارض البابوية أيضاً إذا اقتضى الأمر ذلك . فحينما قطعه البابا انوسنت الثاني من الكنيسة لأنه ساند البابا المغتصب،لم يسع روجر إلا أن يقابله ويهزمه ويأسره ، ثم أجبره على أن يعقد صلحاً مهيناً سنة ١١٣٩ . لم يكن لروجر من ينازعه السيادة في جنوب ايطاليا، ولما لم يكن بوسع البابوية أن تقاومه بمفردها ، كان لزاماً عليها أن تختار بين التعاون معه أو تلتمس المساعدة من الامبراطورية لمناهضته .

وفي هذه الأحوال ورثت البابوية سياسة توازن القوى في ايطاليا. إذ أن إمارة البابوية امتدت عبر ايطاليا من البحر إلى البحر ، فكان لا بد من المحافظة على التوازن على جانبي أملاكها . فاذا ازداد النرمان قوة، لجأت البابوية إلى مساندة الأمبراطورية. وإذا ارتفع شأن الأمبراطورية ، عمدت البابوية إلى التحالف مع النرمان. وللمحافظة على سلامتها وأمنها ، تقرر أن تبقى ايطاليا منقسمة ولذا ساندت البابوية فردريك باربار وسا طالما لم يحقق شيئاً من النجاح .

ومع ذلك فإنه توافر للبابوية سبب آخر يحملها على الكراهية لإحياء الأمبراطورية ، وهو سبب عقائدي، إذ أن فردريك بربار وسا جعل لمبدأ الأمبراطورية طابعاً جديداً. إذ أشار إلى ما ورد في القانون الروماني من أن

السيادة للقانون لا للمنصب الكهنوتي أو الصفة الروحية . واعتقد أنه استمد امبراطوريته من الله ،وتبعاً لذلك أطلق عليها« الامبراطورية الرومانية المقدسة» واستطاع أن يظفر من البابا المغتصب على موافقة بادراج شارلمان مع القديسين. واعتبر فردريك امبراطوريته البديـــل الزمني (الدنيوي) للبابوية ، ورحب بفكرة ان كل ملوك اوربا يخضعون له ، وقـــد أعلن هنري الثاني ملك انجلترا مع ما له من قوة وسلطان ، من قبيل الدبلوماسية ، ان مملكته تخضع لسلطان الامبراطور .

ومن الطبيعي الا يقر البابا هادريان الرابع هـذه الآراء . اذ أصر على ان فردريك انما يحكم امبراطوريته بفضل الله وتأييده،فرفض ان يتوّجه الا بعد ان اظهر التبجيل والاحترام الـــلائق بمنصبه المقدس ، بأن يمسك فردريك بلجام فرس البابا وركابه ، كأنه من أتباعه، وذلك سنة ١١٥٥ .وعدل البابا في ترتيب شعائر التتويج ، حتى يتضح أن مكانة الأمبراطور لا يصح مقارنتها بحـــال من الأحوال بمكانة الأسقف ، وان سلطته ليست مستمدة مباشرة من الله ، انمـا من البابا ، واغتنم كل فرصة للتصغير من اهمية منصب الامبراطور . وحدث آخر الامر ،في الديات المنعقد في بيزانسون سنة ١١٥٧،مشهد بالغ العنف، حينما انكر فردريك رسالة بابوية اورد فيها البابا هادريان الرابع بانه منح فردريك الامبراطورية اقطاعاً Beneficium . ومع ان هادريان زعم أنه لم يستعمل اللفظة بمعناها الاصطلاحي ، فالواضح أن كل ما ارتبط بالنضال حول التقليد العلماني من آلام وعواطف قـد انقشعت من جديد ،فظهر بين رجال الدين والعلمانيين حزبان ، أحدهما يؤيد الامبرطور ، والآخر يساند البابا . ولما مات هادريان الرابع سنة ١١٥٩ بلغت المشكلة حدتهـــا فـــيما اذا كان البابا الجديد لا بـــد ان يكون من أنصار الامبراطور أو أنصار البابا ، وهل يتحالف مع فردريك برباروسا أو مع النرمان في صقلية . وكلا الحزبين كان يمثلهما الكاردينال او كتافيان والكاردينال رولان، اذ ادعى كل منهما بانه جرى انتخابه قانوناً ليكون بابا، الاول باسم فيكتور

الرابع (١١٥٩ – ١١٦٤) الذي لم يحظ من خـــارج الامبراطورية الا بتأييد ضئيل ، واتخذ الآخر اسم الاسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١) .

واذ أثارت دعاوى البابوين الاضطراب والفوضى ، لم يسع فردريك الا أن يلجأ إلى مـــا حـــدث من سوابق زمن قنسطنطين الكبير ، وثيودوسيوس ، وجستنيان ، وشارلمان وأوتو الكبير ، فاستخدم سلطته في الدعـــوة الى عقد مجلس كنسي في بافيا سنة ١١٦٠ ، ليفصل بين البابوين . على أنه كان ينبغي ان يعلم بما نجم عن اصلاح هيلدبراند من نتائج ، ومن أهمها أنه لا يجوز للأمبراطور أن يحاكم البابا، ووفقاً لهذه الحقيقة يعتبرالاسكندر الثالث ،هو البابا الصادق، كما أن بقية أوربا اعتبرت فردريك مسانداً للبابا المغتصب ، شأنه في ذلك شأن الامبراطور هنري الرابع.وترتب على شقاق الامبراطور مع البابوية أن تحالف ضده النرمان بصقلية والبابا . وهذا التحالف جعل فرص نجاحه بعيدة المنال . ومع ذلك كان بوسعه أن يوطد سلطانه لو لم يضف الى أعدئه ، أنه لم يدرك ما جرى في شمال ايطاليا من وضع جديد ، نتيجة ظهور قومونات المدن المستقلة .

تعتبر القومونات نظاماً مناقضاً للنظام الاقطاعي ، لأنها ليست ملكيات بل جمهوريات ، ولم تستند ثروتها على الارض بل على التجارة . وبينما يصح للمدن في المانيا أن تنتمي للسيد الاقطاعي ،كاد كل السادة الاقطاعيين في لومبارديا يخضعون للمدن . ولم تستول القومونات فحسب على ما يجاور أسوارهم من الحقول ، بل قهرت أيضاً كونتيات بأكملها . والواقع أن خضع لسلطانها الجانب الأكبر من لومبارديا ، على الرغم من أن معظم البارزين من سكانها لم يكونوا نبلاء ، بـل كانوا تجاراً .

على أنه يصح التساؤل كيف ظهرت هذه الاوضاع . المعروف أن في المدن ذاتها ،يطيب للناس أن يتصوروا ان حكومتهم الجمهورية ليست إلا نتيجة لتقليد متصل غير مقطوع من العالم القديم ، لأنهم يعيشون في جـو تغلبت عليه الصفة

الرومانية ، اذ ان مدنهم كانت تعتبر من أهم مدن العالم الروماني ، وما زالت تحتفظ بآثار محسوسة كثيرة عن عظمتها السابقة ، فلا زال ما للرومان من استحكامات وجسور ، ومعابد ، ومسارح ، ظاهراً في كل مكان . كما أن لغة الحديث كانت لاتينية ، وكان القانون المعمول به هو القانون الروماني ، ويجري كل سنة انتخاب (الحكّام) .

على انه ينبغي أن نذكر ان ما صار للقومونات اللومباردية من سلطة سياسية انما جرى متأخراً وسريعاً . فالواقع أن القومونات تدين بأهميتها الى التجارة لا الى اتصالها بالعالم القديم ، إذ كانت أكثر مـدن أوربا ثراء ، وتعتبر المستودع المركزي لمعظم التجارة التي تنتقل بين شرقي البحر المتوسط وشمال أوربا . والمعروف أنه لما كان حجم التجارة في مدن لومبارديا صغيراً مثلما كان في القرن الثامن والقرنين التاسع والعاشر ، كانت هذه المـدن ضعيفة ، فخضعت لسلطة الأساقفة والكونتات والماركيزات . ولما انتعشت التجارة الشرقية ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، أضحى للمدن أطماع سياسية خاصة بها .

ومن الطالع السعيد لهذه القوناموت ، أن فترة التوسع الاقتصادي طابقت في الزمن فترة حرب التقليد العلماني ، وأفادت المدن الايطالية من هذه الحرب على نحو ما أفاد منها أمراء الإقطاع بألمانيا . فبينما تنازع الامبراطور والبابا زعامة العالم ، لم تحفل المدن الايطالية الا بتحقيق استقلالها . فاذا قبلت المـدن الايطالية برنامج الاصلاح الكنسي فلم تفعل ذلك إلا لتفوز بحق انتخاب اساقفتها ثم تجريدهم من سلطتهم الزمنية . وإذا ساندت الامبراطورية ، فلم تفعل ذلك إلا لتنزل الهزيمة بالأسقف البابوي الذي هدد حريتها ، فدرجت المدن الايطالية على الايقاع بين الجانبين وأخذت رويداً رويداً تغتصب كل ما كان يمارسه الاساقفة والكونتات والماركيزات من حقوق الحكم باسم الامبراطور وأخضعت ما يجاورها من القرى حتى أضحى لكل مدينة كونتية ، والزمت النبلاء الاقطاعيين بالاعتراف بسلطتها . ولم يحل

منتصف القرن الثاني عشر حتى أصبح ماركيز مونتفيرات الوحيد من بين بارونات ايطاليا ، حسب قول أحد المعاصرين، الذي استطاع أن يفلت من سلطة المدن.

على ان فردريك بربا روسا لم يشأ أن يعترف بما حدث من ثورة. فعلى الرغم من أنه كما سبق الاشارة، كان مستعداً لأن يكون واقعياً، وأن يتخلى عن طيب خاطر عن الحقوق التي فقدها فعلاً ، فان موقفه في ايطاليا كان مختلفاً. اذ انبعث عنده ما صاحب نشأته في البيئة الإقطاعية من تعصب ، فلم تكن القومونات اللومباردية إلا حكومات رعاع، وهي حقيقة اعتبرها كافية لتفسير الفوضى التي انتابت حياتها السياسية ، فكل مدينة تقاتل المدن المجاورة ، كالحرب الناشبة بين بولونيا ومودينا ، وبين مانتوا وفيرونا ، وبين ميلان وجاراتها ، وذاعت الشكاوى عن الرشوة بين الحكام المنتخبين .

وكان لا بد من اعادة الامن الى نصابه ، وإذ اعتبر فردريك ان حروب القومونات جاءت في اعقاب حرب التقليد ، اعتقد ان العلاج الوحيد هو ان يعيد سلطة الامبراطور الى المكانة التي كانت لها قبل زمن الامبراطور هنري الرابع . ولما كانت ميلان اكثر القومونات نزوعاً الى الاعتداء ، فرض الحظر عليها ، فاجبرها على الاذعان سنة ١١٥٨ بعد ان حاصرها مدة شهر . وبعد أن أظهر امتداد سلطانه ونفوذه ، عقد ديات في رونسالبا Roncaglia ، حيث استطاع بمساعدة الأساقفة أن يستعيد حقوق السيادة والحقوق الملكية التي سبق أن ضاعت منذ قرن من الزمان نتيجة الأهمال والاغتصاب. وشهد اجتماع الديات ممثلون عن كل المدن، غير انه استبد بهم الخوف ، فلم يستطيعوا مقاومة دعواه وأعادوا له الحقوق الملكية . وشملت هذه الحقوق ما أضحى له من سيادة على دوقيات ، وحكومات أطراف ، وكونتيات ، ونيابات ، ودور ضرب، ورسوم اسواق ، وضريبة العليق (fodrum) ، ورسوم العربات والرسوم التي تجبي على الابواب ، ورسوم العبور ، والطواحين ، ومصائد الاسماك ، والجسور وكل

فائدة تنجم عن المياه الجارية ، فضلا عن تـــأدية ضريبة سنوية لا فحسب على أراضيهم بل ايضاً على اشخاصهم .

والواضح أن هذه القائمة شملت نوعين من الحقوق الملكية ؛ حقوق حكومية وحقوق مالية. وتضمنت الحقوق الحكومية ما كان للأمبراطورمن حق في تعيين الدوقات والكونتات والماركيزات في مناصبهم ، ولم يعترض على هذا الحق سوى القومونات ، لأن في ذلك زوالاً لحريتهم ، لأن فردريك سوف يعين على كل مدينه موظفاً كبيراً (بودشتا) يعتبر غريباً عنها ، إذ سوف يختاره أما من حاشيته أو من مدينة أخرى ، حتى يستطيع حفظ القانون والنظام بها .

على أن هذه الخطة لم تظفر بشيء من النجاح ، برغم سلامتها ، لأن القومونات لا تحفل بالقانون والنظام مثلما تحفل باستقلالها ، فكرهت ضياع حقها في اختيار حكامها (قناصلهم) ، وزاد من سخطها لمـــا يبتز منها باسم الامبراطور من أموال . فإن ما حصل عليه الأمبراطور من حق جباية الفوائـــد والرسوم يعتبر ضربة خطيرة موجهة لها. وما هو أكثر من ذلك خطورة أن بودشتا ميلان طلب أن تؤدي إليه ثلث ما كان يؤدي إلى مـلاك الأراضي من خراج ، فقرر على كل رجل حر أن يؤدي ضريبة سنوية قدرها ثلاثة شلنات ، وأن يؤدي عن كل ثيران المحاريث ومعاصر الزيت اثنى عشر شلناً في السنة ، وقرر عليهم السخرة لتشييد القلاع والقصور ، فلم يسع السكان إلا أن يعلنوا الثورة على فردريك للمرة الثانية في ١١٦١ ، ١١٦٢ ، غير أن هذه الثورة لم تحقق لهم شيئاً ، فألقى فردريـــك الحصار على المدينة (ميلان) وأجبرها على الإذعان ، ولم يرفق بها هذه المرة ، فدمرها عن آخرها ، وشتت سكانها ، في سائر القرى حتى يتعلم سكان لومبارديا كيف يحترمون الأمبراطور .

خضعت لومبارديا بعد أن تعرضت للإرهاب ، فبادرت بعض المدن إلى تدمير اسوارها ، وتقرر تنفيذ الحقوق الملكية في سائر المدن ، وتم تنصيب بودشتا في كل مدينة . على أن فردريك أضحى فعلا في وضع لا يستطيع الدفاع عنها ، لأنه

التزم بسياسته الإبادة ، فلا أهمية عنده لميلان وتاريخها الطويل المصتل منذ خمسة عشر قرناً ، ولا مركزها التجاري والاستراتيجي في سهل لومبـارديا . إذ رأى ضرورة إزالتها لأنها تقاوم خطة الامبراطور . كما أن اعتداد فردريك بمكانته جعله لا يحفل بأن اطماعه تتفق مـع الحقائـق الفعلية للسياسة الإيطالية . وإذ ظن أن بوسعه أن يعيد رسم خريطة ايطاليا ، أمعن في غيه سنة ١١٦٤ بـــأن حاول إزالة مملكة النرمان بصقلية من الوجود . فوعد جنوة ، اذا نهضت لمساعدته ، بأن يمنحها مدينة سيراكوز ، وخمسين ومائتي إقطاع فارس ، وشارعا به كنيسة وحمام وفرن بكل مدينة يجري قهرها ، ووعد بيزا بـأن يعطيها نصف بالرمو وميسيني وسالرنو ونابولي ، وكل مدينة جائيتا ، ومازارا ، وترابانى .

على أن فردريك فشل في تحقيق خططه ، ومع أنه استولى على رومـا سنة ١١٦٧ فان معظم أوروبا لم تقبل البابا الذي نصبه ، واذ حصدت الملاريا جيشه ، لم يعد بوسعه أن يحاول الاستيلاء على صقلية النرمندية ، كما أن البابا الاسكندر الثالث نجح في حمل القومونات اللومباردية على أن تنبذ العداوات الاقطاعية وأن تتحد من أجل حريتها ، وفي سنة ١١٦٧ تألف حلف من ست عشرة مدينة ، منها فيرونا وبادوا والبندقية فضلاً عن المدن اللومباردية .

وهذا الحلف هو المعروف بالعصبة اللومباردية (Societas Lombardie) . وكان يهدف إلى استعادة الحرية للقومونات ، غير أنه لم يشأ أن يدمر نهائياً سلطة الامبراطور ، اذ استعد اعضاء العصبة أن يؤدوا للامبراطور مـا كانوا يؤدونه منذ قرن من الخدمات والمقررات . وتعاهد حكام (قناصل) المدن بأن اقسموا يميناً ، رددها من بعدهم كل مواطن ، بأن يتحدوا من أجـــل استرداد الحرية العامة . فلا ينبغي أن تنشب الحرب بين المدن ، وينظر في الامور العامة للحلف هيئة مركزية مؤلفة من موظفين تختارهم المدن) ويعرفون بالمديرين rectors ، ويتألف الجيش العام من كتائب تبذلها المدن حسب مواردها . وتقرر آخـــر الامر أن تساعد كل مدينة الأخرى في إصلاح كل ضرر يلحق بأحـد اعضائها في سبيل الحرية ، ولتحقيق هذا المبدأ ، تقررت إعادة بناء مدينة ميلان . وفي

٢٧ ابريل سنة ١١٦٧ قدم إلى موقع المدينة (ميلان) الكتائب من سائر المدن وشرعت في أعمال البناء والعمارة .

ومع أن ذلك كان تحدياً صريحاً للامبراطور ، فإنه لم يستطع أن ينزل بالمدن العقاب . وكان لزاماً عليه أن يعود إلى ألمانيا للحصول على امداد ، غير أنه لم يرجع إلى ايطاليا إلا سنة ١١٧٤ ،بسبب ما تعرض له من متاعب في شمال جبال الألب واستطاعت العصبة اللومباردية وقتذاك أن تسيطر على كل ممرات الألب الوسطى والشرقية ، وان تحمي الطرق الغربية المؤدية إلى مدن العصبة ، بأن شيدت عند ملتقى تانارو وبورميدا مدينة الاسكندرية تكريماً للبابا الاسكندر الثالث ، ونهضت لومبارديا بأجمعها للدفاع عنها حينما حاصرها الامبراطور سنة (١١٧٤) .

والمعروف أن جيش الامبراطور في الحملات السابقة كان يضم عساكر من المدن الإيطالية ، نظراً لما كان بينها من تشاحن ونزاع ، غير أنه لم يبق على ولائه له في هذه المرة سوى ماركيز مونتفيرات وبافيا ، فكان لزاماً عليه أن يحصل على أمداد من المانيا ، غير أن هنري الاسد زعيم الجويلفيين لم يبذل له شيئاً من المساعدة .وتحتم على فردريك أن يواجه اللومبارديين،دون مساعدته ، فحلت به الهزيمة في ٢٩ مايو سنة ١١٧٦ في معركة ليجنانو .

تعتبر وقعة ليجنانو نقطة تحول في عهد فردريك إذ اعترف بهزيمته ، وبادر بتغيير سياسته السابقة ، فصالح البابا الاسكندر الثالث والنرمان واللومبارديين وتخلى عن كل دعاويه في ايطاليا . غير أنه لم يهادن المانيا ، لانه اعتبر هنري الاسد مسئولا عن عزيمته ، فعزم على أن ينتقم منه ، وان يدمر بيت الجويلفيين .

حرص فردريك على أن يعقد الصلح مع أعدائه في ايطاليا منفردين ،فصالح البابا ، وبمقتضى معاهدة اناني Anagni (اكتوبر سنة ١١٧٦) وافق على أن يتخلى عن البابا الذي نصبه ، وأن يعترف بالبابا الاسكندر الثالث ، وأن يعيد إلى الكنيسة ما سبق أن انتزعه من أملاك . ثم عقد هدنة مع النرمنديين واللومبارديين ،الذين

انكروا على البابا الانفراد بعقد الصلح ، ثم حدث آخر الأمر في ٢٤ يوليه سنة ١١٧٧ أن أعلن فردريك خضوعه للبابا الاسكندر الثالث بـأن قدم بنفسه إلى البندقية ، فاجتمع به خارج كنيسة القديس مرقص ، حيث هرع إلى البابا ، بعد أن نزع الرداء الامبراطوري ، وركع عند قدميه . فأغرورقت عينـا البابا بالدموع ، ثم أقامه وعانقه وقاده إلى الكنيسة ، حيث منحه البركة . ثم أمسك فردريك بركاب البابا عند ركوبه الفرس ، وأعرب عن رغبته في أن يقود فرسه إلى سفينته لولا أن اعفاه البابا من ذلك .

والواقع أن ما لجأ اليه فردريك من الإذعـان للبابوية ، ومصالحة النرمان واللومبارديين ، قصد به اطلاق يده في شئون المانيا ، حتى ينتقم من هنري الاسد . وحانت فرصة الانتقام سنة ١١٧٨ — ١١٧٩ حينما وقع النزاع بين هنري الاسد وأسقف هالبرشتات ، الذي هدد بأن يوقع كل سكسونيـا في حرب أهلية ، واستنجد الجانبان بالأمبراطور . وإذ اجترأ هنري على أملاك الكنيسة والأمراء بالأمبراطورية ، ولم يعبأ بالمثول أمام المحكمة ، تقرر اعتباره متمرداً ، ومصادرة كل اقطاعاته ، فلم يعترف بالحكم وقاومه بالسلاح غير أنـه انهزم سنة ١١٨٠ ، ١١٨١ وتقرر نفيه إلى خارج البلاد .

واستمد فردريك قوته في انزال العقوبة بهنري الاسد من مصدرين . تألـف المصدر الأول من أملاكه التي أولى اهتماماً خاصاً باستغلالها . إذ اعتقد أن الأرض مصدر القوة ، ولذا نشط في امتلاك الأراضي وحيازتهـا وتدعيمها بالشراء والمبادلة ، فتولى النظر في أمر أديرة واسقفيات لا حصر لها ، فجعل تحت حمايته أراضي الأديرة ، ولم يتردد في أن يقطـع نفسه من أراضيها ما يقع في مراكز استراتيجية . وشيد القلاع التي تتحكم في الطرق الرئيسية ، وأقام مدناً جديدة ، وأمد حمايته إلى المدن التجارية الكبرى ، فأضحى الطريق التجـاري الرئيسي الممتد من ايطاليا يجتاز بلاده . وحاز الأراضي الجديدة التي ليس لهـا سادة اقطاعيون ، فأمعن في استغلالها بعد إزالة الغابات واستعمارها .

غير أن ما هو أهم من الأراضي التي حازها فردريك ، ما اتخذه من طريقه لإدارة هذه الممتلكات ، التي جعلها لخدام ليسوا احراراً . وهم المعروفون باسم ministiriales الذين ألفوا في المجتمع طبقة ليس لها مثيل في فرنسا وانجلترا . ولما لم يكن هؤلاء الخدام أحرارا، فليس بوسعهم أن يتزوجوا من طبقة النبلاء، وتبعاً لذلك لم يشتركوا فيما قام من احزاب أسرية بالمملكة . وكان لهم قوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم في الولاء والاخلاص . على أنهم يشبهون من بعض النواحي الأتباع في نظام الاقطاع زمن الكارولنجيين . إذ خدموا على أنهم فرسان من جيش الأمبراطور ، وحازوا اقطاعات تعتبر وراثية ، غير أنها لا تقبل التجزئة ، وتباينت مسئولياتهم ، فقد تولى بعضهم إدارة قرية ، بينما كان للبعض الآخر إدارة القلعة أو إدارة إقليم بأسره . وحرص الأمبراطور على أن يبذل شروطاً مغرية لأولئك الذين يكونون من الزامه ويخدمونه على أنهم ارقاؤه ، حتى يطمئن إلى أن يتوافر له نواة صلبة لجيش ، مثلما حدث في أزمة سنة ١١٨٠ ، حينما قاتل عدوه الجويلفي .

أما المصدر الثاني فتألف من النبلاء الإقطاعيين أنفسهم . اذ سبق الإشارة إلى أن الأمبراطور فردريك حرص في اوائل حكمه على أن يجعل شيئاً من توازن القوى في داخل المانيا ، بأن ساند هنري الاسد ضد سائر النبلاء ، غير أنه نقل آخر الأمر مساندته إلى الجانب الآخر ، فعزم على ألا يحكم مستقبلاً بمشاركة الجويلفيين الطغاة ، بل بالاستناد إلى تأييد الأمراء .

لم يكن الأمراء موظفين ملكيين بل كانوا كبار السادة الإقطاعيين ، كانوا عادة سادة لكونتينة أو كونتيات ، حولوا اقطاعاتهم إلى امارات اقليمية . وكل ما طلبوه وظفروا به أن يعتبروا مقابل مساندة الأمبراطور ازاء هنري الأسد ، المثلين الوحيدين للسلطة الأمبراطورية في اقاليمهم ، أرادوا أن يكون لهم السيادة عليها . وهم بذلك يختلفون عن أمثالهم في انجلترا حيث كانت الملكية قوية ، ولم يكن للايرلات إلا نفوذ ضئيل في كونتياتهم . فلم يكتف الأمراء في

ألمانيا (الدوقات أو أمراء الأطراف) بأن يعهـــد لهم الأمبراطور بالسلطات الملكية ، بل طالبو بأن يكونوا وحدهم كبار المقطعين . فاعترف بهم على أنهم نقابة مغلقة لا يجوز له أن يبذل إقطاعـــاً إلا بموافقتهم . فاقتسموا فيما بينهم إقطاعات هنري الأسد والقابه ، والزموا الأمبراطور بـأن يوزع في خلال سنة ويوم كل الإقطاعات المرتجعة ، فلم يعد بوسع الأمبراطور أن يزيد من املاكه أو أن يكون ملكاً إقطاعياً على نحو مـا كان معروفاً في انجلترا وفرنسا . غير أن الأمبراطور لم يكن في وضع يحمله على معارضة الأمراء ، اذ أنه لا يستغني عنهم عند قتال الجويلفيين ، فلم يسعه إلا أن يقبل مـــا تقرر فرضه عليه من قيود . فتألف من أملاك الجويلفيين خمس دوقيات مستقلة. إذ صارت بافاريا من نصيب اوتو فيتنباخ ،وأضحت سكسونيا لبرنارد أنهـالت ، بينما اختص رئيس اساقفة كلونيا باقليم وستفاليا الذي تألف من الأراضي الواقعة غربي نهر الويزر .

وبهذه الوسيلة تحطمت الدوقيات القبلية بـدلاً من أن تتحد سوياً في اقليم . وشهد فردريك ما أصاب المانيا من التجزئة ، إذ لم يكن تقسيم تراث الجويلفيين سوى الخطوة الأولى في عملية التجزئة التي بلغت الذروة في القرن السابـع عشر الميلادي ،حينما انقسمت الأمبراطورية الى ما يزيد علىثلثمائة هيئةسياسية مستقلة.

على أن فشل سياسة فردريك لم يكن ملحوظاً ، إذ كان يأمل في أن يضبط دولته الجديدة بما يربطه بالامراء من صلة الاقطاع . غير أن السيطرة الاقطاعية لن تكون قوية إلا اذا ازداد الاهتمام بممارستها، إذ كان لزاماً على السيد الاقطاعي الأعلى الناجح أن يعبر على حقوقه كاملة ، فاذا اغفلهـا ، نتيجة تكرار تغيبه ، فسوف تختفي السلطة الإقطاعية . وهذا هو السر في أن ما وضعه فردريك من تسوية لم يكن العامل الحاسم في التاريخ الألماني ، إذ أنه لم يكد ينتهي من هذه التسوية حتى انصرف إلى الاهتمام بأمر إيطاليا .

وفي ايطاليا أبدى فردريك نشاطاً ملحوظاً ، ففي سنة ١١٨٣ عقد صلح كونستانس

مع اللومباردين ، وبمقتضاه تنازل عن كل مزاعمه في الحقوق الملكية ، غير أنه في مقابل ذلك تلقى الولاء من جميع المواطنين الذين تتفاوت أعمارهم بين خمس عشرة سنة وسبعين سنة. أجرى فردريك محالفة مع ميلان كيما يكفل السلام لتوسكانيا وسائر ممتلكات ماتيلدا، وبعد أن اطمأن إلى مركزه في الشمال، تحالف مع النرمان بصقلية حتى يجعل له وضعاً في جنوب ايطاليا، فزوج ابنه الأكبر، هنري من كونستانس وريثة عرش صقلية، وذلك سنة ١١٨٦ ، ولذا أعد اساساً جديداً للسياسة الامبراطورية.

غير أنه جرت دعوته إلى المانيا قبل ان يزيد في نمو سياسته الايطالية . ففي سنة ١١٨٧ سقطت بيت المقدس في يد صلاح الدين . وإذ أحس فردريك بمسئولياته باعتباره الزعيم الدنيوي للعالم المسيحي ، عزم على أن يقود حملة صليبية لاسترداد بيت المقدس . وبقيامه بذلك ، لم يظهر فحسب ما لمصالح الكنيسة من مكانة في قلبه ، بل أنه اعتزم أن يمارس كل ما لمنصبه من وظائف . إذ أنه عزم على حماية كنيسة المسيح المقدسة بكل سلاح من كل ما تتعرض له من هجمات أعدائها، شأنه في ذلك شارلمان ، وحمل الألمان على أن يؤيدوا خطته. وفي ١١ مايو سنة ١١٨٩ ، أقلع في الدانوب ، لينحاز إلى جيشه الرئيسي في فيينا ، ليقوده إلى الأراضي المقدسة ، على أنه إتخذ الطريق البري الذي سلكته الحملة الصليبية الأولى ، غير أن جيشه تعرض لخسائر ضخمة، برغم ما اشتهر به الامبراطور من قيادة رائعة. ومات الامبراطور غرقاً في نهر السالف (١٠ يونيه ١١٩٠) بآسيا الصغرى فتبدد جيشه.

أضحى ابنه ، هنري السادس (١١٩٠ — ١١٩٧) مسئولاً عن المضي في خطته الكبيرة بايطاليا . وحدث قبل سنة أن ورث هنري تاج صقلية النرماني، الذي كان حقاً لزوجته ، فخضعت له صقلية وجانب كبير من ايطاليا. وإذراوده الحلم بانشاء امبراطورية بحوض البحر المتوسط زوج أخـــاه فيليب من أميرة بيزنطية ، أملا في اتحـاد الامبراطورية الشرقية بالأمبراطوربة الغربية ، ثم حشد اسطولاً ضخماً للقيام بحملة صليبية ، لو أنه نفذها ، لوجهها ضد القسطنطينية لا إلى الاراضي المقدسة .

ولم يختلف هنري عن أبيه فردريك ،اذ اعتبر نفسه سيد العالم المسيحي ، ولم يعتبر من الشذوذ أن يطلب من ملكي قبرص وأرمينيا بأن يبذلا له الولاء، ولم يشعر بالغضاضة في أن يأسر وتشرد الأول ملك انجلترا أثناء عودته من الحرب الصليبية الثالثة ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن أدى فدية ضخمة ،وتنازل عن مملكته ثم استردها على سبيل الاقطاع من الامبراطورية . واعتبر هنري نفسه السيد الاقطاعي الأعلى لجميع العالم .

غير أنه لا زال في سلطته نقطة ضعف قاتلة ، اذ أن وراثة الحكم ليست مضمونة في أسرته ، نظراً لأن الامبراطور لا ينصب إلا بالانتخاب. والمعروف في انجلترا وفرنسا أن مبدأ وراثة الحكم قد استقر ، وصار الملك قوياً ، أما في المانيا فلا زال الأمراء حريصين على سلطانهم ونفوذهم ،على أنه حينما استقر الملك لاسرة هوهنشتاوفن .حزنوا لما قاموا به من تدمير أسرة الجويلفيين. ولذا رفضوا الاستجابة لطلب هنري بأن يكون الحكم وراثياً ، واصروا على أن تكون لهم السيادة في أملاكهم .

ولما مات هنري السادس سنة ١١٩٧ ، لم يخلف وراءه إلا طفلاً في الثالثة من عمره ، وهو الذي صار الأمبراطور فردريك الثاني ، فاختار معظم الأمراء فيليب شقيق هنري ليكون أمبراطوراً .على أن أقلية من الأمراء زادها قوة ما تلقته من أموال من انجلترا اختارت أوتو الرابع ابن هنري الاسد ، ولذا نشبت من جديد الحرب الاهلية بين الجبيليين والجويلفيين ،وأضحت الامبراطورية مرة أخرى نظاماً لا حول له ولا قوة .

التصحيحات

صفحة	سطر	إقرأ
٣٤	٥ ـ ٧ ـ ٨	دقلديانوس
٣٤	٢٢	لروما
٣٥	٢٣	انظر ما سبق حاشية ١ ، (ص ٣٤)
٤٣	٩	عتق
٤٣	٢١	الذين
٥٠	٨	أغسطس
٥٣	١٨	وبين
٥٩	١٦	البرونزية
٦١	١٠	الرومانية
٧١	٢٠	على زمن دقلديانوس
٦٤	١٠	الزراعية
٦٦	١٦	أن يرث الأبناء الآباء
٦٨	٩	الأقنان
٧٠	٢٢	وإنزال اللعنة على
٧٢	١	الرومانية
٧٣	١١	النزاع
٧٤	٧	اليونانية
٧٥	٩	الكنيسة
٧٦	٦	قنسطنطين
٧٨	٢	الخضر
٨١	٩	اسكنديناوة
٨٣	٢	البرجنديون

صفحة	سطر	اقرأ
٨٦	١٤	الفرنجة
٩٠	١٣	فالنز
٩٣	٩	الألليان
٩٥	٦	الألليان
٩٨	١٠	اللألليان
٩٨	١٣	أتيلا
١٠٤	٢١	القوانين
١١٠	١	تحصل
١١٢	١١	الأريوسيين
١١٦	١	السقايات
١١٧	٢٢	الغاليين
١٣٠	٤	منذ سنة ٤٤٣
١٢٠	٢٤	سياجريوس
١٢٣	١	التي تربطها بالعواصم الأمبراطورية
١٢٥	١٤	تقسيم
١٢٩	١	ايلليريا
١٣٠	١٢	أحد الثائرين
١٣٣	١١	سنة ٥٣٥ ـ سنة ٥٣٦
١٣٣	٢١	رافنا
١٣٧	٥	سنة ٥٦٨
١٤٤	٦	تغيير
١٥٠	١٤	ويلز
١٦٠	٨	الاشارة

صفحة	سطر	اقرأ
١٦٣	٣	مالكة للاراضي
١٦٦	٧	التُنافس
١٧٦	٢٤	نبقية ومناهضته
١٧٧	١٢	اللومبارديين
١٨٨	٨	الشرقية
١٩١	٦	ليو الثالث
١٩٤	٩	القوارير
١٩٧	٢٢	ليو
١٩٩	١١	يربط
٢٠٧	٢	وشهد
٢٠٨	١٣	تور ـ بواتييه
٢١٠	٤	الوحدانية المطلقة
٢١٦	١٩	سان برنارد
٢٢٥	٣	التوجيه
٢٢٩	١	اتساع ، برعاية
٢٣١	٦	الميروفنجي
٢٣٣	١٣	الرسائل الأدبية
٢٣٤	٩	سبيلا
٢٣٣	١٧	على أقل تقدير
٢٣٥	٥	التي حكمها المير وفنجيون ، فإلى أي حد
٢٣٧	١٩	زمن المير وفنجيين
٢٤٠	٢١	على الاحتفاظ بها لما هذه

صفحة	سطر	اقرأ
٢٤٢	٢١	وفي الجملة
٢٥٠	٣	فالرق المفروض
٢٥٠	٥	كانا نتيجة
٢٥٠	١٤	القانون الجرماني
٢٥٥	١	الملوك الميرو فنجيين
٢٥٦	٩	الأقصى
٢٥٧	٦	على سادة نوستريا
٢٥٧	١	الميرو فنجيين
٢٥٨	٤	للدولة الكارولنجية
٢٦٤	١	الميرو فنجيين
٢٧٤	٥	وألمانيا
٢٧٩	١٠	ألتبارك
٢٧٩	١٣	المجريون يعتنقون
٢٨٢	٤	الحقيقة الهامة
٢٨٣	٢١	موجز قانون
٢٨٤	٨	سوى قانون
٢٨٥	٣	بالمرسومات
٢٨٥	١٤	إلى رئيس دير
٢٨٦	٤	نظراً لما حدث من تغيير
٢٨٩	١٥	الانفاق عليهم
٢٩٣	٢١	مع أقرانه
٢٩٤	١٨	لم يكن محايداً
٢٩٦	٢	حرص على الإفادة

صفحة	سطر	اقرأ
٢٩٨	٥	يلتزم بحمايته
٣٠٠	٢٣	فليبارك الله
٣٠٢	١٦	ان يلحق
٢١٢	١٦	اكس لاشابل
٣١٢	١٧	توافر
٣٢٧	١٠	أقرب
٣٣٠	٨	هذا
٣٣٠	٢١	اكيتانيا
٤٣٢	٤	الكارولنجية
٣٣٣	٢	أخواته
٣٣٣	١٤	بفضل
٣٣٣	٢٢	بين
٣٣٦	١٦	بنيدكت
٣٣٨	٢١	اكيتانيا
٣٤٢	٢	(أن) يتساوى
٣٤٣	٩	اكتساب
٣٤٤	٨	بافاريا
٣٤٧	٣	وليست
٣٤٩	١	الواقع
٣٥٠	١٣	ضخامة
٣٤٢	١١	زخرت
٣٥٢	١٥	بل إنهم
٣٥٢	١٦	الشرقي

صفحة	سطر	اقرأ
٣٥٢	٢٠	تجارية
٣٥٣	٢	ارتحل
٣٥٣	٨	الطبقة
٣٥٨	٢٠	النرمندي
٣٥٩	١٥	البحر
٣٦٠	١٠	تنازل
٣٦١	١٢	للإتفاق
٣٦٢	٢٣	على الإطلاق
٣٦٦	٢	الإتفاق
٣٦٦	١٥	نشاطهم
٣٦٨	٢١	كثيف
٣٦٩	١٥	الفيكنج
٣٦٩	١٥	المجريون
٣٦٩	٢١	نوارموتيه
٣٧٢	١٧	الذي
٣٧٧	٧	التي لم يسبق
٣٧٨	٢٣	اليونانيين
٣٨٠	٥	المحصول
٣٨٢	١٧	اليهود
٣٨٧	٥	الخلاصة
٣٨٨	١١	بشطر
٣٨٨	١٩	الحائزون
٣٨٨	٢١	الحائز

صفحة	سطر	اقرأ
٣٩٠	١٧	فمن
٣٩٢	١٧	الصفة
٣٩٢	٢٠	نسب
٣٩٤	١١	الأتباع
٣٩٤	١٢	للإنفاق
٣٩٤	٢٠	العصور
٣٩٧	١٨	عندما
٤٠٠	٢	أبيها

المراجع

الفصل الاول

التمهيـــد

الامبراطورية الرومانية قبل زمن دقلديانوس

Boak, A.E.R. Manpower Shortage and the Fall of the Roman Empire 1955.

History of Rome 1964.

Bury J.B. History of the Later Roman Empire 2 vols 1957.

Charlesworth, M.P. The Roman Empire, 1951.

Glover, T.R. The Conflict of Religions in the Early Roman Empire.

Mattingly, H. Roman Imperial Civilisation, 1957. Christianity in the Roman Empire, 1957.

Moss, H.S.B. The Birth of the Middle Ages, Oxford 1935.

Rostovtzeff, M. Social and Economic History of the Roman Empire, 1926, 1957.

الفصل الثاني

دقلديانوس وقنسطنطين

Alfoldi, A. The Conversion of Constantine and Pagan Rome. Oxford 1948.

Baynes, N.H. The Byzantine Empire 1926. Constantine the Great and the Christian Church. London 1931.

Cambridge Ancient History, vol. XII.

Cambridge Medieval History, vol. I.

Coleman, C.B. Constantine and Christianity

Dawson, C. The Making of Europe 1932.

Dill, S. Roman Society in the Last Century of the Western Empire, 1898.

Eusebius of Caesarea : Church History (tr. J.E.L. Oulton) Loeb. 1932.

Gibbon, E. The Decline and Fall of the Roman Empire, ed. Bury London 1948.

Goodenough, E. R. The Church in the Roman Empire.

Hardy, E.G. Christianity and the Roman Government.

Jones, A.H.M. Constantine the Great and the Conversun of Europe London 1948.

Lot, F. The End of the Ancient World and the beginning of the Middle Ages, 1931.

Parker, H.M.D. : History of the Roman World A.D. 138-337. London 1936.

الفصل الثالث

غزوات المتبربرين

Bury, J.B. : The Invasions of Europe by the Barbarians 1928.

Dopsch, Alfons : The Economic and Social Foundation of European History, London 1937.

Fustel de Coulanges, N.D. Histoire des Institutions Politiques de l'Ancienne France, l'Invasion Germanique et la fin de l'Europe. Paris 1891.

Halphen, L. Les Barbares : (vol. V) Peuples et Civilization, ed. Halphen et Sagnac. 1926.

Hayes, C.J.H. Introduction to the Sources relating to the Germanic Invasions.

Hodgkin, T. Italy and Her Invaders, 8 vols. 1886 — 1899.

Sidonius Apollinaris : Letters and Poems. Loeb. London 1936.

Tacitus, Germania.

Walbank, F.W. The Decline of the Roman Empire in the West . London 1946.

Wallace — Hadrill, J.M. The Barbarian West, 400-1000 London 1952.

الفصل الرابع

الممالك الجرمانية

Baynes, N.H. The Political Ideas of St. Augustine, 'De Civitas Dei'. (Historical Association London, 1936).

Chapot, V. La Frontier de l'Euphrate Paris 1907.

Courtois, C. Les Vandales et L'Afrique, Paris 1955.

Diehl, C. Justinien et la Civilisation byzantine au 6e siècle. Paris 1901.

Hodgkin, T. Theodoric the Goth. London 1891.

Holmes, W.G. The Age of Justinian. 2 vols. 1905 - 1907.

Jones, A.H.M. Later Roman Empire 3 vols. Oxford 1964.

Momigliano, A. 'Cassidorus and Italian Cultures of his Time'. Proceedings of the British Academy XII (1955).

Procopius : The Persian, Vandal and Gothic Wars, The Buildings and the Secret History. Tr. H.B. Dewing — Loeb. 7 vols.

Rambaud, A. Etudes sur l'Histoire byzantine — Paris 1902.

Runciman, S. Byzantine Civilisation. London 1939.

الفصل الخامس

الكنيسة الكاثوليكية

Battifol, L. Primitive Catholicism, 1911.

Battifol, P. Saint Grégoire le Grand, Paris 1928.

Bevan, E. Hellenism and Christianity (H.U.L.) 1932.

Bigg, C. The Origins of Christianity 1909.
The Church's Task under the Roman Empire, 1905.

Butler, Cuthbert : Benedictine Monachism. London 1924.

Chapman, J. Studies in the Early Papacy, 1928.

Dudden, F.H. Gregory the Great. His Place in History and Thought, 1905.

Fliche, A. and Martin, V. (eds.) Histoire de l'Eglise, depuis les origines jusqu'à nos jours. 24 vols. Paris 1934.

Gibbon, E. Decline and Fall of the Roman Empire, ed. Bury. 1896 — 1900.

Gore, C. Jesus of Nazareth 1929.

Justin Mccann (ed.). The Rule of St. Benedict. London 1952.

Milman, H.H. : The History of Latin Christianity. 1867.

الفصل السادس

الدولة البيزنطية

Baynes, N.H. The Byzantine Empire, London 1925.

Bury, J.B. History of the Later Roman Empire, 2 vols, London 1923.

History of the Eastern Roman Empire, London 1912.

Cambridge Medievol History vol. IV. pts. I. II ed. (Hussey).

Diehl, C. History of Byzantine Empire and Byzantine Portrait.

Ostrogorowsky, G. History of the Byzantine State. Oxford 1956.

Vasilier, A.A. History of the Byzantine Empire, 324 — 1452. Madison 1952.

الفصل السابع

الدولة الاسلامية

Andrea, T. Mohammad, the man and His Faith — London 1936.

Arnold, T. W. The Preaching of Islam, London 1913.

Becker, C.H. Christianity and Islam, New York, 1909.
Islamstudien 2 vols. Leipzig.

Bell, R. : The Origins of Islam in its Christian Environment. 1926.

Butler, J. Alfred : The Arab Conquest of Egypt. 1902.

Cambridge Medieval History vol. II.

Guillaume, A. & Arnold, T.W.
Legacy of Islam. Oxford 1931.

Lammens, H. Islam, Beliefs and Institutions. Trans. E. Denison Ross., London 1929.

Lewis, Bernard : The Arabs in History. London 1950.

Macdonald, D.B. Development of Muslim Theology, London 1915.

Margoliouth, D.G. Mohammed and the Rise of Islam. London 1925.

Muir, W. Mahomet and History of Islam, 1894.

Nicholson, R.A. A Literary History of the Arabs. 1927.

الفصل الثامن

الفرنجة قبل ظهور شارلمان

Dalton, O.M. The History of the Franks by Gregory of Tours., 2 vols, Oxford 1927.

Dill S. Roman Society in Gaul in the Merovingian Ages. London 1926.

Fustel de Coulanges; N.D. Histoire des Institutions Politiques de l'Ancienne France. T. III. La Monarchie franque. Paris 1885.

Lot, Pfister, Ganshof : Les destinées de l'Empire en Accident, de 395 à 888. Paris 1928.

Perroy, E. Royaumes et Sociètés barbares du V au VIII siècle. Paris.

Prou, M. La Gaule mérovingienne. Paris.

Tessier, G. Le Baptème de Clovis. Paris, 1964.

الفصل التاسع
شارلمان

Brehier, L. La Querelle des Images. Paris 1904.

Bryce, J. : The Holy Roman Empire. London 1892.

Calmette, J. Charlemagne, Paris 1945.
Cambridge Medieval History, vol. II.

Carlyle, R.W. and A.J. A History of Medieval Political Theory in the West. 5 vols. London 1903 — 1928.

Davis, H.W.C. Charlemagne, 1900.

Duchesne, L. Les Premiers Temps de l'Etat pontifical, Paris 1914.

Einhard : Life of Charlemagne, Ed. H.W. Garrod and R.B. Mowat 1915

Fichtenau, H. The Carolingian Empire, Oxford 1957.

Fustel de Coulanges, N.D. Histoire des Institution Poitiques de l'Ancienne France, VI, Les Transformations de la Royauté pendant l'epoque Carolingienne, Paris 1892.

Guizot, F.P.G. Histoire de la Civilisation en France, 1851.

Halphen, L. Etudes Critiques sur l'histoire de Charlemagne, Paris 1921.

Charlemagne et l'Empire carolingien, Paris 1941.

Halphen, L. ed. Eginhard, Vie de Charlemagne. Paris 1923.

Hodgkin, T. Charles the Great, 1897.

James, M.R. Learning and Literature. Till Pope Sylvester II. (Cambridge Medieval History; vol. III.).

Kleinclausz, A. L'Empire Carolingien. Paris 1902.

Charlemagne, Paris 1934.

Laistner, M.L.W. Thought and Letters in Western Europe, A.D. 50 — 900. London 1931.

Lavisse, E. Histoire de France, vol. II, Paris 1903.

Martin, J. A. History of the Iconclastic Contreversy, London,

Martine, H. Charlemagne et l'Empire Carolingien, Paris 1893.

Monod, G. Etudes Critiques sur les sources de l'histoire Carolingienne. Paris 1898.

Mullinger, J.B. The Schools of Charles the Great, 1877.

Turner, S.E. Life of Charlemagne by Einhard.

Taylor, H. O. The Medieval Mind 2 vols, 1930.

الفصلان العاشر والحادي عشر

انهيار الامبراطورية الكارولنجية

Bloch, Marc. La société féodale :
I : La formation des liens de dépendance, Paris, 1939.

Les Caractères originaux de l'histoire rurale française. 2 vols. Paris 1956.

Cambridge Economic History of Europe, I, Cambridge 1941.

Kendrick, T.D. A History of the Vikings, London 1930.

Latouche, Robert; Les origines de l'economie occidentale (IV — XI sèicles). Paris 1956.

Lauer, Ph. (ed.) Nithard. Histoire des Fils de Louis le Pieux. Paris 1926.

Levi — Provençal. Histoire de l'Espagne musulmane. Paris 1953 T. III.

Lewis, Archibald R. Naval power and Trade in the Mediterranean A. D. 500 — 1100 Princeton 1951.
The Northern Seas
A. D. 300 — 1100, Princeton 1958.

Dozn, R. Les Normands en Espagne, dans Recherches sur l'histoire et la litterature des Arabes d'Espagne Leyde 1881. II.

Dozy, R. Les Normands en Espagne, dans Recherches sur l'histoire ranean World. Columbia, 1955.

Lot, F. Les invasions barbares et le peuplement de l'Empire, Paris 1937. 2 vols.

Macartney, C. A. The Magyars in the ninth century, Cambridge 1931.

Musset, L. Les invasions; les vagues Germaniques, Paris 1965.
Les peuples scandinaves au Moyen Age,. Paris 1951.

Prentout, H. Essai sur les origines et la fondation du duché de normandie, Caen 1911.

Sawvyer, P. H. The Age of Vikings, London 1962.

Shetelig, Haakon (ed.) Viking. Aniiquities in Great Britain and Ireland; Pt. I, An Introduction to the Viking. History of Western Europe, Oslo 1940.
Part VI. Civilisation of the Vikings in relation to their old new countries. Oslo 1954.

Shetelig, Haakon and Broogger, A.W. The Viking Ships. Oslo 1953.

Thomsen, Wilhelm : The Relations between Russia and Scandinavia, Oxford, 1877.

Waquet, H. (ed.) Abbon. Le Siège de Paris par les Normands. (885 — 886) — Paris 1942.

الفصل الثاني عشر

النظام الاقطاعي

Bennett, H. S. Life on the English Manor, 1937.

Bloch, Marc : Feudal Society. London 1961.

Boissonade, P. Life and work in Medieval Europe (1927).

Boutruche, R. Seigneurie et féodalité, Paris, 1959.

Calmette, J. La Société feodale Paris, 1947.

Cambridge economic history of Europe vol. I. 1941.

Coulborn, Rushton (ed.), Feudalism in History. Princeton 1956.

Curven, Cecil, Plough and pasture 1946.

Davis, W. S. Life on a medieval barony, 1926.

Douglas, D.C. Feudal Documents from the Abbey of Bury St. Ed munds. London 1932.

Evans, Joan, Life in Medieval France.

Ganshaf, F.S. Feudalism, London 1952.

Gras, N.S.B. History of Agriculture.

Hone, N.J. The Manor and Manoiral Records.

Knight, M.M. Economic History of Europe to the end of the Middle Ages (1926).

Luchaire, A. Social France at the time of Philip Augustus.

Neilson, N. Medieval agrarian economy (1936).

Odegaard, Charles, Vassi and Fideles in the Carolingian Empire, Cambridge 1945.

Painter, S. Studies in the history of the English feudal barony (1943).

Rogers, J.E.T. Six Centuries of Work and Wages.

Stephenson, Carl. Medieval Feudalism, Ithaca 1942.
Medieval Institutions, Ithaca 1954.

Strayer, J.R. «The Development of Feudal Institution» in Twelfth Century Europe ed. M. Clagett : Madison 1961.
'Two Levels of Feudalism' in Life and Thought in the Early Middle Ages. ed. Hoyt, Minneapolis 1965.

الفصل الثالث عشر

الأباطرة السكسون والساليون بالمانيا

Barraclough, G., Medieval Germany, 2 vols, Oxford 1938.

Bryce, I. The Holy Roman Empire.

Cambridge Medieval History vol. 5.

Emerton, E. The Correspondance of Gregory VII, Columbia 1952.

Evans, J. Monastic life in Cluny 1931.

Fisher, H.A.L. The Medieval Empire, 2 vols. London 1898.

Macdonald. Hildebrand, Pope Gregory VII.

Richard, E. Germanic Civilization.

Smith, L.M. The Early History of the Monastery of Cluny.

Thompson, J. W., Feudal Germany. Chicago 1928.

Tout, T.F. The Empire and the Papaty.

الفصل الرابع عشر

اصلاح البابوية

Araquillère, H. St. Gregoire VII. Paris 1954.

Baldwin, S. The Organisation of Medieval Christianity 1929.

Brooke, Z.N. The English Church and the Papacy from the Conquest to the reign of John, 1933.

Coulton, G.G. Five Centuries of Religion 1923.

Fliche, A. La Reforme Gregorienne 3 vols. Louvain 1924 — 1937.

Gasquet, Monastic life in the Middle Ages (1922).

Knowles, Dom David, The monastic order in England, 1941.

McCann, J. St. Benedict 1937.

Tellenbach, G. Church, State and Christian Society Oxford 1940.

Whitney, J.P. Hildebrandine Essays, Cambridge 1952.

William, W. St. Bernard of Clairvaux 1935.
James, B. S. (W.) The Letters of St. Benedict, London, 1957.

الفصل الخامس عشر

الملكيات الاقطاعية

فرنسا

Brentano, Frantz, Funck, The Middle Ages. New York, 1913.

Evans, Joan, Life in Medieval France.

Fawtier, Robert : Les Capetiens et la France, Paris 1942.

Lavisse, E. Histoire de France. Vol. II. 1903.

Lot, Ferdinand, La France des origines à la guerre de cent ans. Paris 1941.

Luchaire, A. Social France in the time of Philip Augustus New York 1912.

Vassi and Fideles in the Carolingian Empire, Cambridge 1945.

انجلترا

Powicke, F.M. The Loss of Normandy.

Adams, G. B. History of England from the Norman conquest to the death of John 1905.

Davis, H.W.C. England under the Normans and Angevius, London 1930.

Painter : The Reign of King John, Baltimore 1949.

Stenton, F.M. Anglo-Saxon England, Oxford 1943.

Tout, T.F. History of England from the accession of Henry III to the death of Edward III. London 1905.
Edward I. 1893.

Petit Dutraillis, C. E. Feudal monarchy in France and England, New York, 1936.

Powicke : King Henry III and the Lord Edcard.

Oxford 1947.
Stephen Langton. Oqford 1928.

المانيـــا

Barraclough, G. The origins of modern Germany 1946.
Jordan, E. L'Allemagne et l'Italie au XII et XIII siecles. Histoire du Moyen, ed. Glotz, vol. IV pt. I. Paris 1939.

Mierow, C.C. Otto of Freising : The Deeds of Frederick Barbarossa, Columbia 1953.

Poole, A.L. Henry the Lion, 1912.

مراجع عامة

Adams, G.B. Civilization during the Middle Ages. New York 1914.

Ault, W.O. Europe in the Middle Ages, New York 1937.

Brown, S. M. Medieval Europe, Naw York, 1935.

Collins, R.W. A History of Medieval Civilisation in Europe Boston 1936.

Davis, R.H.C. Medieval Europe, 1958.

Holme, E.M. The Middle Ages. New York 1929.

La Monte, John L. The World of the Middle Ages 1949.

Munro, D. C. and Sontag. R. J. The Middle Ages (395 to 1500). New York, 1928.

Painter, S. A History of the Middle Ages. 284—1500. New York, 1956.

Previte-Orton, C.W. Outline of Medieval History, Cambridge 1929.

Robinson, J.H. An Introduction to the History of Western Europe vol. I. 1929.

Sellery G.C. and Krey A.C. M.edieval Foundations of Western Civilization. New York 1924.

Stephenson, C. Medieval History New York, 1935.

Thatcher, O. J. and McNeal, E. H. Europe in the Middle Ages, New York 1920.

Thompson, J.W. An Introduction to Medieval Europe New York, 1937.

Thorndike, L. The History of Medieval Europe. Boston 1917.

مراجع عن المصادر والوثائق

Coultan G.G. Life in the Middle Ages, Cambridge 1931.

Evans, A.P. Bibliography of English translations from medieval sources 1946.

Henderson, E. F. Select Historical Documents of the Middle Ages. New York, 1892.

Laffan, R.G.D. Select Documents of European History vol. I London 1930.

Munro D C. and Sellecry G. C. Medieval Civilization. New York 1904.

Paetow, L.J. Guide to the Study of Medieval History 1931

Robinson, J.H. Readings in European History vol. I Boston 1906.

Scott, J.H. Hymna, A.H. and Noyes A.H.I. Readings in medieval History New York 1930.

Thatcher, O.J. and McNeal; E.H. A Source Book of Medieval History. New York 1905.

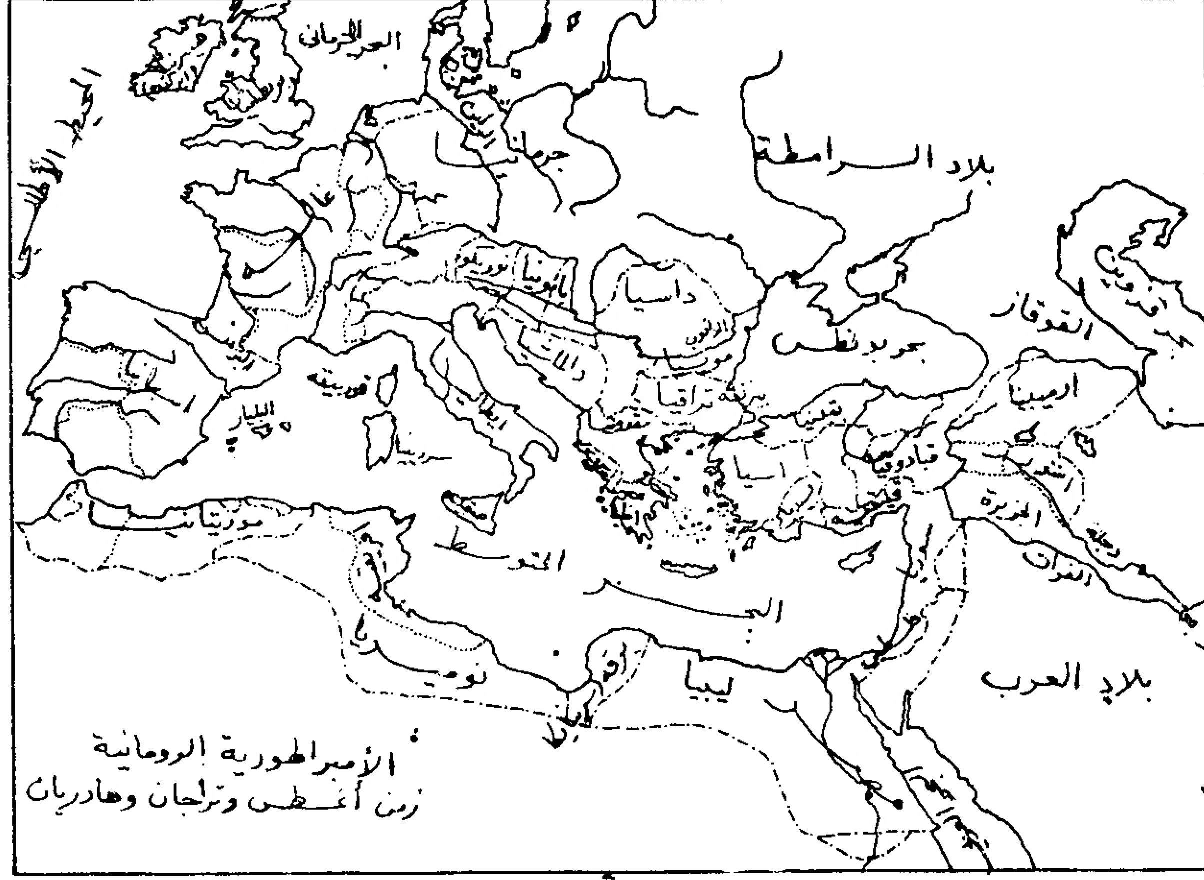
المحتوى

الملاحــــق

الخرائط

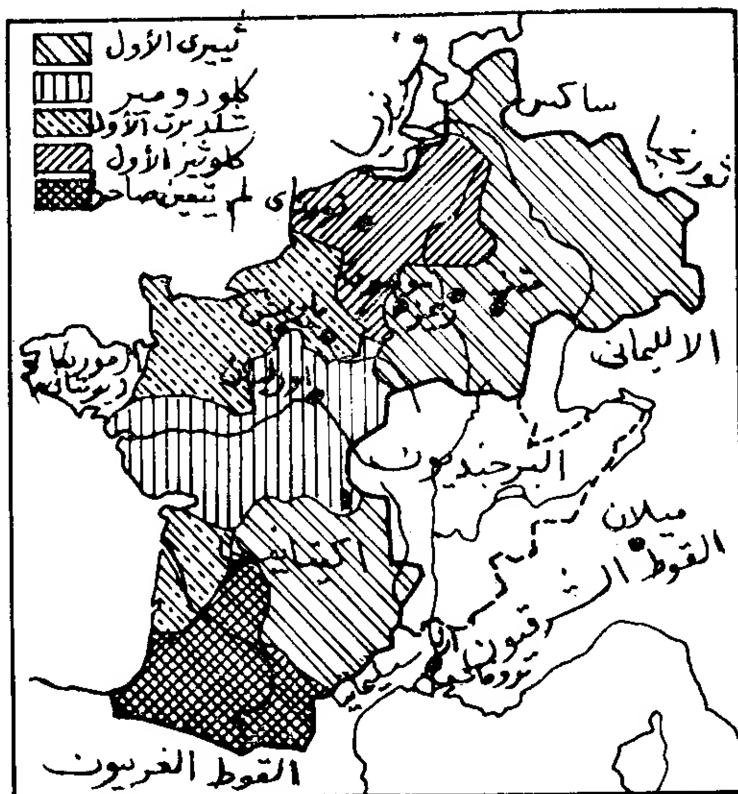
جرى ترتيب هذه الخرائط وفقاً للفصول التي تشير اليها .

١ - الأمبراطورية الرومانية في اقصى اتساعها .	الفصل الاول
٢ - الممالك الجرمانية	الفصل الرابع
٣ - مملكة الفرنجة زمن الميروفنجيين	الفصل الثامن
٤ - مملكة الفرنجة زمن الميروفنجنين	الفصل الثامن
٥ - امبراطورية شارلمان	الفصل التاسع
٦ - انهيار الامبراطورية الكارولنجية	الفصل العاشر
٧ - تقسيم الامبراطورية الكارولنجية	الفصل العاشر
٨ - توسع السكنديناويين	الفصل الحادي عشر
٩ - المجريون والمسلمون وغاراتهم على أوربا	الفصل الحادي عشر
١٠ - ضيعة نموذجية إقطاعية .	الفصل الثاني عشر
١١ - الأمبراطورية السكسونية .	الفصل الثالث عشر

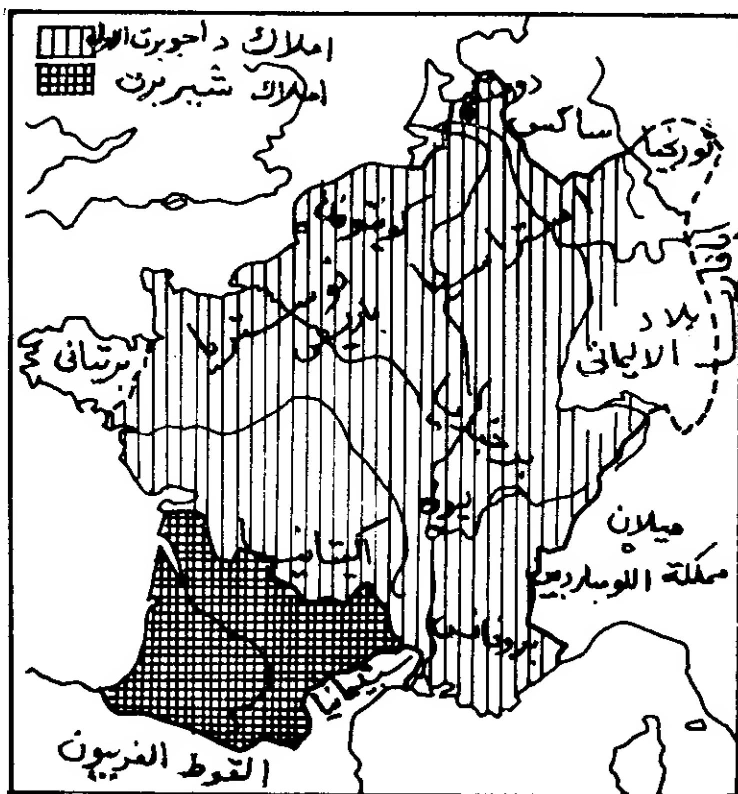


١ – الامبراطورية الرومانية في أقصى اتساعها

٢ — الممالك الجرمانية



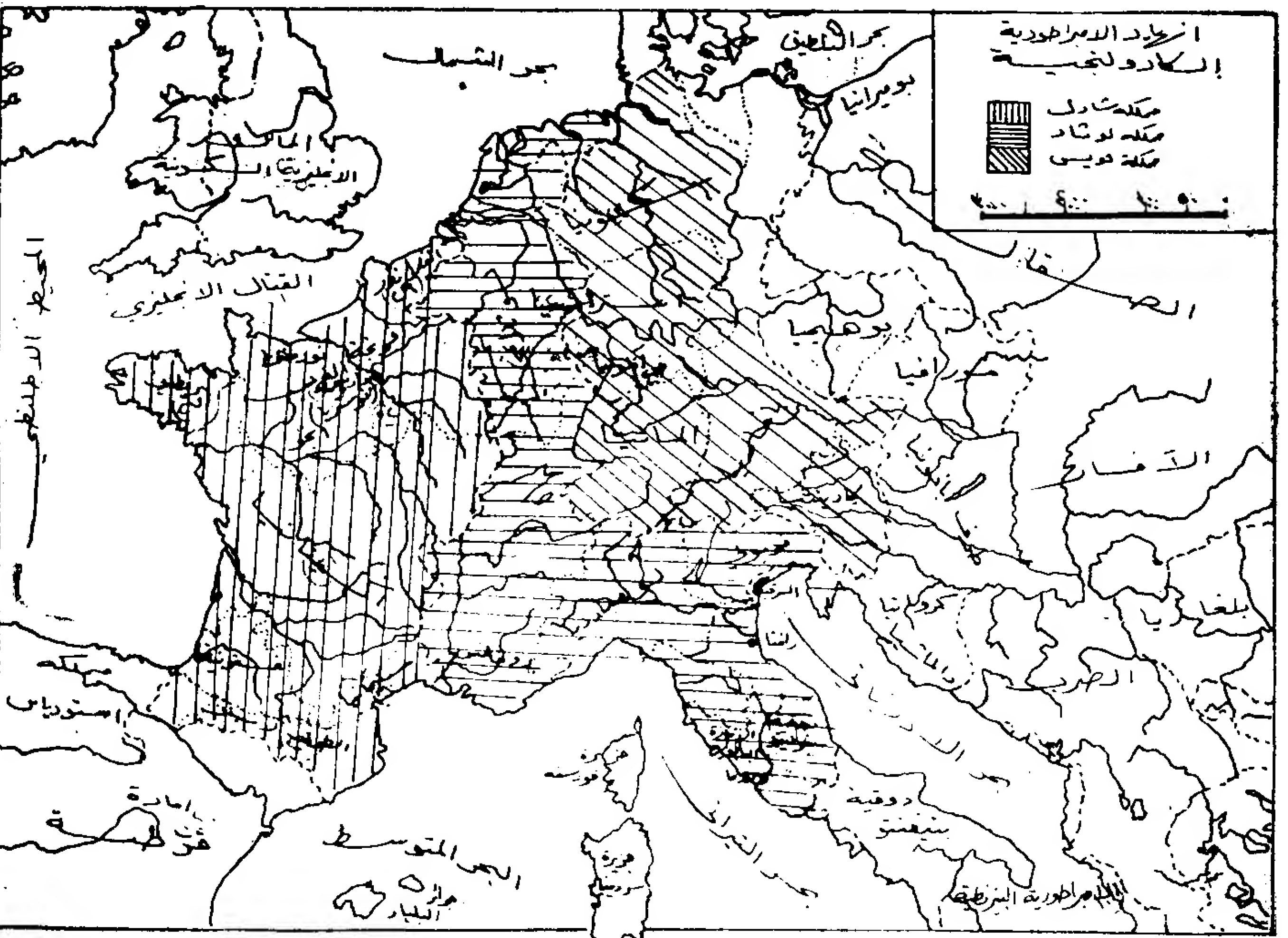
٣ — مملكة الفرنجة زمن الميروفنجيين



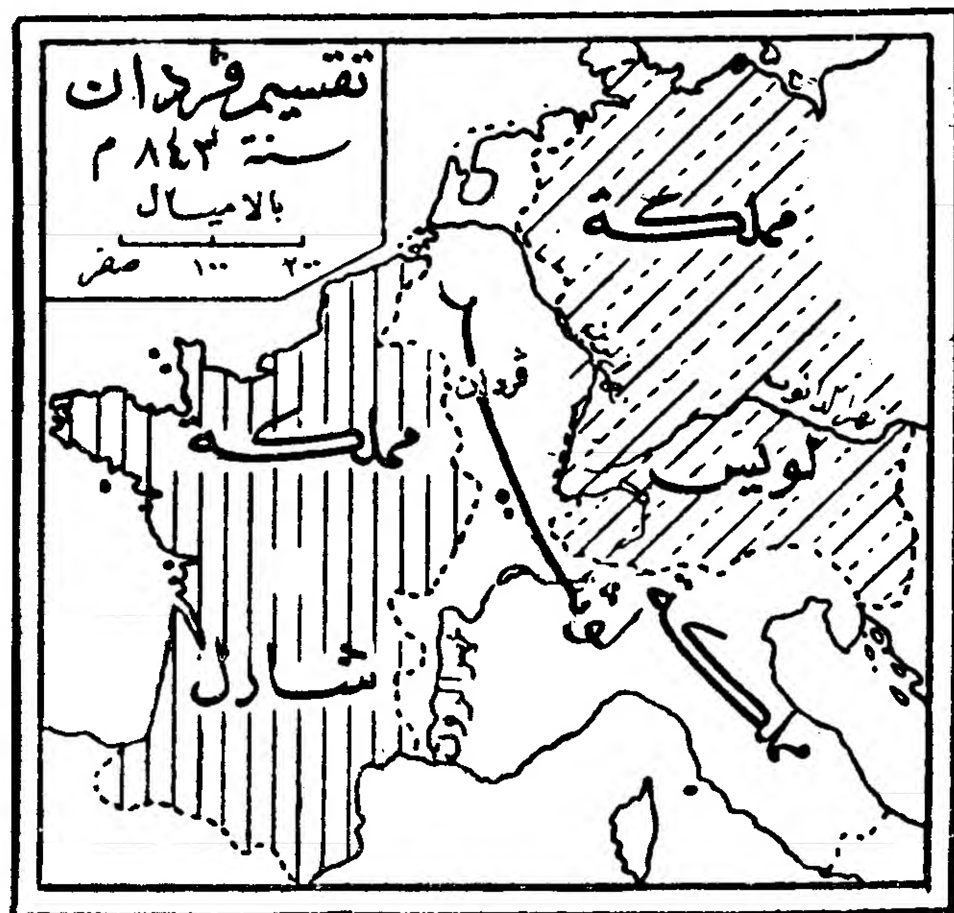
غاليا حوالى ٦٢٩- ٦٢٢م

٤ – مملكة الفرنجة زمن الميروفنجيين

٥ — امبراطورية شارلمان



٦ — انهيار الامبراطورية الكارولنجية

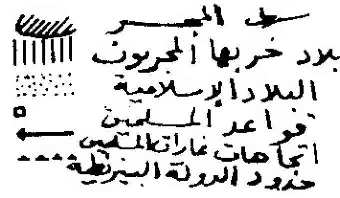


٧ — تقسيم الامبراطورية الكارولنجية

إلى ايسلنده
فارو
شتلند
النرويج
بحيرة لادوجا
فنلنده
لادوجا
السويد
نوفجورود
استونيا
الفلجا
إلى بحر قزوين والبحر الأسود
جروبينا
دوينا
اولند
بحر الشمال
هبريد
ايرلنده
دبلن
بلاد الدانل
وسكس
ساكس
دورستاد
امبراطور
الوندال
بولنده
الأودر
الفستولا
كييف
نورمنديا
باريس
اللوار
صوب اسبانيا

منطقة النشاط النرويجي
منطقة نشاط الدانمركيين
منطقة نشاط السويديين
المجموعات الكبيرة لنقود القرن التاسع
مجموعات النقود الإنجليزية في القرنين العاشر والحادي عشر

توسع السكنديناڤيين



المجريون والمسلمون حوالى سنة ٩٠٠م.

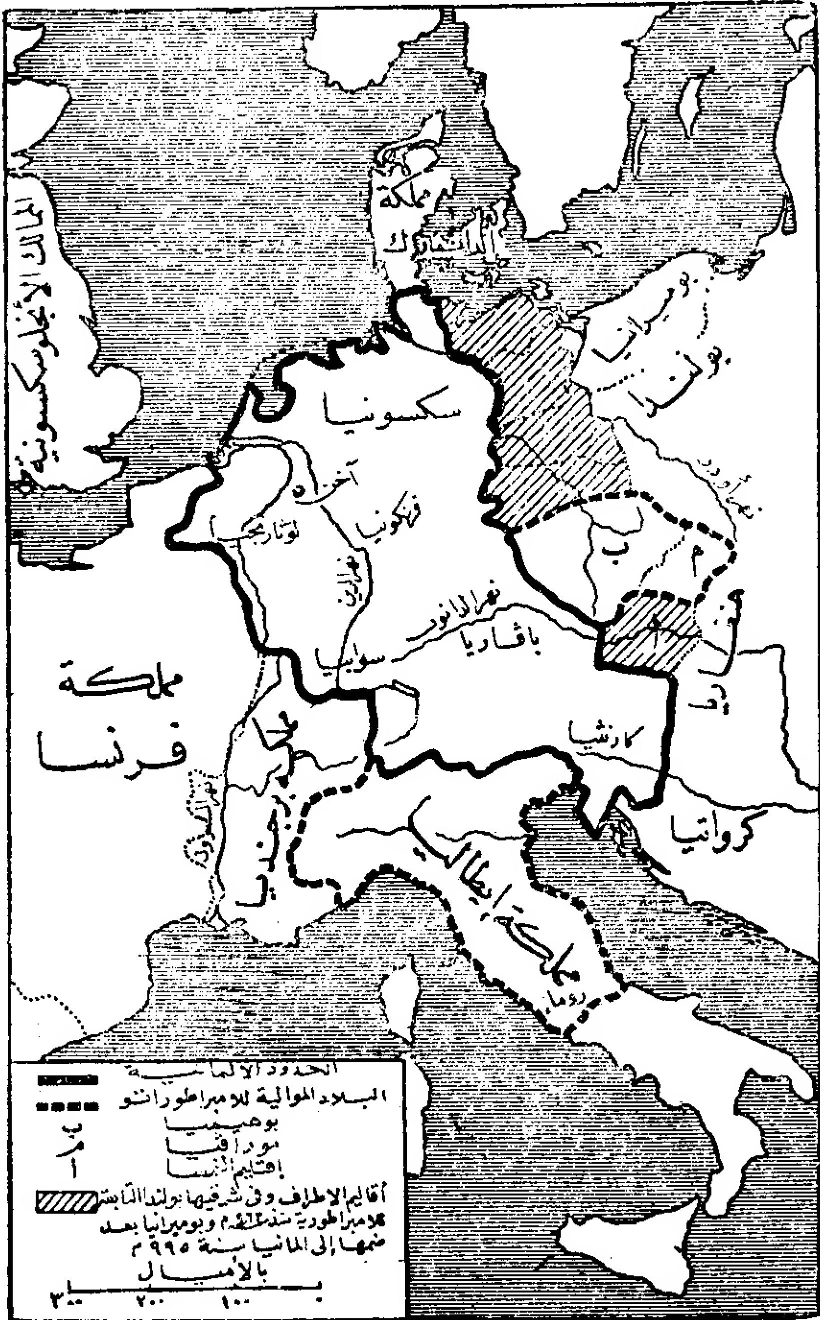
ضيعة نموذجية

نصيب الابروشية من الحقول

نصيب السيد الاقطاعي

ما يخص الفلاح من شرائح الأرض

١٠ – ضيعة نموذجية اقطاعية



١١ – الأمبراطورية السكسونية